جامعة الجزائر
معهد اللغة والأدب العربي

محمد العيد آل خليفة

شعره الإسلامي

بحث تقدم به محمد الباقر ابن سمينة
لنيل شهادة الماجستير
وأشرف عليه الدكتور حامد حفني داود

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

– أ –

يرجع احساسي بالحاجة الى المزيد من الاطلاع والتعرّف على جوانب الأدب الجزائري الى سنوات الدراسة بكلية الآداب جامعة دمشق ، حيث كنا ندرس الأدب العربي – من ضمن ما ندرس – قديمه وحديثه في معظم ديار العروبة ، الا في ديار المغرب ، فانا لم نكن نظفر بفضل حديث عنه . وحتى اذا ما رحلت المناهج التعليمية التي كانت قائمة يومئذ في بضع سنة من سنوات الدراسة الجامعية الى بلاد الأندلس لتلقي نظرة على سيرة ذلك الأدب فيهما ، فانها لا تقوى أو لا تقدر أن تقوى على أن تعرج على الربوع المغربية لتحاول أن تتعرف عما قد يكون لأهلها – كما كان لسائر الناس – من أعمال فكرية وأدبية ..

ولا مجال للشك بأن مرد هذه العلة انما يرجع الى مخلفات أمراض الاحتلال الأجنبي المزمنة التي تعاني من أدوائها الأمة ، في مشرقنا وفي مغربنا . فكان منها ما حال بين الأمة وبين النهوض بهذا الواجب القومي .

وقد كان الشعور بالألم من جراء هذه الظاهرة يزداد حدة وعمقا عندما يشاهد المرء هذه المؤسسة أو تلك ، وهذا الكاتب أو ذاك يجهد نفسه ليكتب عن الأدب الجزائري ، ولكنه يطلع على الناس بعد ذلك ، وقد اقتصر فيما كتب أو يكاد عمن كتب باللغة الفرنسية من الجزائريين ، فيزيد بذلك في مضاعفة ما تشكو منه الأمة من علل مفتعلة ، وفي تعميق ما تتضافر الجهود للقضاء عليه من أسباب العزلة المصطنعة ..

وكأن الجزائر العربية المسلمة ما عرفت في تاريخها كتابا من أمثال : ابن باديس والابراهيمي والعقبي . ولا أنجبت أرضها شعراء من أضراب محمد العيد والسعيد الزاهري ومفدى زكرياء ، وغير هؤلاء ، وأولئك من حملة لواء العربية في الجزائر .

وتعود هذه الظاهرة هي الأخرى في الغالب الى ماكان الاحتلال الأجنبي قد حرص على زرعه بين أقطار العالم العربي الاسلامي من حواجز وعراقيل ، ليحول بذلك بين اتصال الأشقاء بعضهم ببعض ، فنتج عن ذلك أن أصبح هذا الطرف منهم لا ينظر الى الطرف الآخر الا عن طريق دور النشر ووسائل الأعلام الغربية .

ويمكن أن يكون هناك من لفت النظر الى خطورة هذه الجفوة ، وحث على الاسراع في تدارك أسبابها الا أني لم أطلع على من فعل ذلك سوى ما قام به أستاذنا الفضال الدكتور عبدالكريم الأشتر الذي كتب ذات يوم يقول (ولقد زين لنا أن ننسى المغرب فنسي دراساتنا وبحوثنا في أدبنا القديم والحديث ، كأن المغرب أرض

يسكنهـا أناس من العـرب، لاتتحرك نفوسهـم لما تتحـرك له نفس الانسان العربي في أرض المشرق ، وفي كل أرض ، ولايفطنون لحاجة التعبير عن هذه النفس . فهكذا بقـي تاريخ أدبنا في القديم والحديث قائمـا على رجل واحـدة) [1].

وبدافع الاحساس بهذه المعاناة ، قام صاحب هذه الرسالة بكتابة بحثـه في سنـة التخرج في العام الدراسي (1969 ـ 1970) في الأدب الجزائرى ، وكان موضوعـه : (الوطنية والقوميـة في الشعر الجزائرى الحديـث) [2] ، وكان ذلك باشراف الدكتـورة عزيزة مـريدن أستاذة الأدب العربي الحديث آنذاك بجامعـة دمشـق .

وقد حاول هذا البحث أن يعرف بعض التعريف ، بجهاد الشعب الجزائرى ، وتضحياته دفاعا عن كيانه ، ومحافظـة على عروبتـه واسلامـه ، كما يبدو ذلك للدارس من خلال نتاج شعرائـه ..

ولما عدت الى أرض الوطن استغرقتني أو تكاد مشكلات الحياة العملية فلم أستطـع أن اشتغل بذلك الاهتمام ، بله أن أعمقـه فانصرفت عنه الى حـين ..

ولما عقدت النيـة على التسجيل في الدراسات العليا كان من الطبيعي أن يستيقـظ في نفسي ذلك الاهتمام ويدفعني الى اختيار بحث يكون من شأنه أن يساعد على تلبيـة تلك الرغبة القديمـة المتجددة في نفسـي للكتابـة في الأدب الجزائـرى .

فوجهت حينئـذ وجهي بكليتي الى هذا الأدب أقلب النظر فيه وفي أعلامـه فوقع نظـرى على الشاعر محمد العيد ، لا لأنه شاعر مغمور لايعرفـه الناس ، فيكون ذلك مدعاة الى من يعرف به ، ويدرس نتاجه ، بل كان شاعرا مشهورا ـ وكان ذلك على الأقل في حدود محيطـه ـ وانما الذى شدني اليه وأغرانـي به جانب من جوانب شعره لم يأخذ حظه من عنايـة الدارسـين به ، ذلكم هو شعره الاسلامـي .

وقد بدا لي بعد انعام النظر في شعره أن هذا الغرض يمثل أحد أربعة محاور كبرى ، يمكن أن تنضـوى تحتهـا معظم موضوعات شعره وهي : الوطن والاسلام والعروبة والانسانيـة ، ويكاد محـور الاسلام يظهـر على غـيره ويضـفي عليه بعض ملامحـه وشياتـه .

ويبدو أن مرد ذلك لأن الشاعر كان يؤمن ـ لظروف حياته الخاصة والعامـة ـ أن النـهوض بالوطن وتحريره ، انما هما أمران لايمكن تحقيقهمـا الا ببناء الذات

---

(1) (نصوص مختارة من الأدب العربي الحديـث) ص : 7 .
(2) ما يـزال مخطوطا .

الفردية والاجتماعية بناء روحيا وماديا . وكان يحس في الوقت ذاته أن الأمة أصبحت — بتأثير عوامل الاحتلال الأجنبي وغيرها — تتجافى في نفسها وسلوكها ما يقوم عليه دينها من مبادئ عملية، وقيم سلوكية، فدفعه ذلك الى تسخير فنه للنهوض بهذه الجوانب . وترتب عن ذلك أن كان شعره الاسلامي (موضوع البحث) من أقرب أغراض شعره صلة بنفسه، ومن أكثرها قدرة على القيام بما يود القيام به، ومن أشدها أثرا في حياة الأمة، وذلك لما يفيض به من حرص على التمكين للعقيدة الاسلامية الصحيحة في النفوس وفي السلوك، والتأصيل لما تدعو اليه من قيم وفضائل تشد الناس الى واقعهم وتحثهم على السمو به .

وكان من شأن ذلك أن حبب هذا النتاج الى القلب، وزاد من التمكين لعوامله فيه اغفال الباحثين له . فكان من كل ذلك ما شد من عزمي ودفعني بقوة الى عقد النية على دراسة هذا الغرض في شعر الشاعر .

وأبادر الى القول بأني لم أكن — بحكم السن — أعرف الشاعر الا في السنوات الأولى للاستقلال، وذلك عن طريق ما كان ينشر له في الصحف في هذه الأثناء، أو من خلال كتاب الدكتور سعدالله عنه .

ثم كان لي من بعد ذلك بزمن أن حظيت بمقابلته، وكان ذلك في ديسمبر 1976، في اطار ما كنت أقوم به آنذاك من دروس أسبوعية في التلفزة الوطنية، موجهة لطلبة البكالوريا، وكان الشاعر هو الجزائري الوحيد من الأحياء الذين يشملهم المنهاج المقرر ..

وقد استطعت أن أحصل منه في هذا اللقاء على بعض الأجوبة عما كنت قد طرحته عليه من أسئلة ..

وقد عدت — وأنا استجمع قواي للشروع في هذا البحث — الى محصول تلك الجلسة فوجدته غير كاف لتكوين صورة واضحة عن الشاعر وشعره، تكون قادرة بأن تجيب عن الأسئلة التي يطرحها البحث أمام من يتصدى لدراسته، غير أني لم أهمل تلك المعطيات، وانما ضممتها الى جانب ما حصلت عليه — فيما بعد — من أخباره من طرق شتى، ذلك لأن الخبر والنص عنصران متكاملان في البحث العلمي، ويحسن بمن يجود نفسه للعمل في هذا الميدان أن لا يستغني بأحدهما عن الآخر، وانما يحرص على أن يستعين بهذا عما يكمل به ذلك ..

وعلى أية حال فقد شرعت في جمع مادة البحث وكان ديوان الشاعر هو أول عمل لجأت اليه أبحث فيه عن ضالتي (شعره الاسلامي)، وكنت أظن عندما عكفت على دراسته أنه سيغنيني عن غيره، في جمع مادة البحث وتحقيقها، الا أنني

تبينت بعد امعان النظر في محتواه ، والوقوف على طرائق تحقيقه ، وأساليب اخراجه ، أنه لا يمكن الاعتماد عليه كمصدر وحيد في كتابة بحث يطمح الى الانطلاق من قاعدة أساسية قائمة على ما تتطلبه مواصفات البحث العلمي من دقة وضبط وشمولية .. وهو على الصورة التي هو عليها - كما سنرى - يفتقر الى تلك الأسس افتقارا كبيرا .

فوليت وجهي بعد ذلك الى المصادر الأولى التي نشر الشاعر فيها شعره وهي الجرائد والمجلات ..

وقد اعترضتني منذ البداية صعوبة الحصول على هذه الصحف ، لندرتها من جهة، وللبخل بها من جهة أخرى ، وقد استطعت بشيء من الجهد والوقت أن أطلع على بعضها في بعض المكتبات الخاصة والعامة ، ونشير بهذا الصدد الى أن في المكتبة الوطنية مجموعة هامة من مجلدات جريدة البصائر بسلسلتيها الأولى والثانية ، ومجموعة أخرى من الجرائد المختلفة في شكل أشرطة مصورة (ميكروفيلم) وقد كلفني قراءة بعض هذه الجرائد بهذه الواسطة غير قليل من الصبر والوقت ..

وتبينت من خلال تعاملي مع هذه الدوريات أن الشاعر لم يكن يقتصر في نشر شعره على واحدة أو اثنتين من هذه الصحف ، وانما كان ينشر في عدد كبير منها نذكر أهمها بحسب تاريخ صدورها : النجاح ، صدى الصحراء ، الشهاب ، الاصلاح ، المرصاد ، النور ، السنة ، الشريعة ، الأمة ، البصائر ، المنار ..

ويمكن القول أن البصائر والشهاب تأتيان على رأس هذه الدوريات من حيث كثرة ما تتوفران عليه من نتاجه .

ثم تصفحت من بعد ذلك النسخة المخطوطة من ديوان الشاعر ، وكان تلميذه السيد (أحمد بوعدو) هو الذي قام بجمع محتواها ، وصنعها في جزئين في أوائل الخمسينات[1]، وهي لذلك لا تضم من شعر الشاعر الا ما كان قد نظمه قبل هذا التاريخ . ويمكن القول انها كانت أكثر من طبعة ديوانه حرصا على توفير ما يتطلبه مثل ذلك العمل من دقة وضبط ..

ثم تصديت من بعد ذلك الى الصحف الصادرة بعد الاستقلال بحثا عما يكون الشاعر قد نشر فيها من شعر ، فخرجت من ذلك بأن مجلة (المعرفة) التي كانت

---

(1) يذكر جامع الديوان في مقدمة الجزء الأول ص : 13 - أنه فرغ من صناعة هذا الجزء في : 13 جمادى الأولى 1371 هـ / 9 فيفري 1952م - ويثبت في آخر الجزء الثاني أنه فرغ منه في : 23 محرم 1372 هـ / 13 أكتوبر 1952م .

تصدرها يومئذ وزارة الأوقاف بالجزائر[1] تكاد تقتصر دون غيرها على نشر نتاجه في هذه الآونة .

وتجدر الملاحظة أن الباحث لم يقتصر في عملية استقراء مصادر شعر الشاعر وجمع أخباره على هذا الجانب النظري من الدراسة وحسب ، وانما أردف ذلك ببعض الجهود الميدانية في صورة زيارات لجملة من المدن التي كان الشاعر يعيش بها . والاتصال فيها بمعارفه ، أو على شكل مراسلات لبعض الهيئات والأشخاص .

ولا يخفى أن هذا النوع من وسائل البحث العلمي كان شائعا في القديم ، الا أن العناية به ازدادت في هذا العصر .

واذا كان الباحثون في الدراسات الحديثة يولون هذه الوسيلة حقها من العناية فان الدارس للأدب الجزائري خليق بأن يكون أكثر من غيره اهتماما بهذه الأداة ، وذلك لأن مجال بحثه قد عانى الكثير من الاهمال والتلف والضياع بسبب ما تعرض له ذلك الأدب من اجراءات تعسفية ، وما لحق بالقائمين عليه من عنت وأذى ، فنتج عن ذلك ان كان موزعا في صدور الرجال ، وفي زوايا مجهولة ، وفي جرائد مفقودة ..

وقد عمق هذا الاحساس في نفسي الايمان بجهود هذه الدراسة الميدانية وايجابيتها ، فكان أول من اتصلت به في هذا الاطار أسرة الشاعر ، وكان ذلك أكثر من مرة . وأذكر أنها مكنتني ، بعد شيء من التحفظ والتمنع ، لم استطاع أن أتغلب عليهما الا بصعوبة ، من الاطلاع على مكتبة الشاعر الخاصة ، فسمح لي بذلك بالعثور على بعض الوثائق المتعلقة بحياته والوقوف على بعض أشعاره المجهولة ، كما مكنني ذلك من أخذ صورة عن ثقافته واتجاهه الفكري من خلال ما تشتمل عليه خزائنه من كتب وآثار ..

ثم اتصلت من بعد ذلك بنفر غير قليل من معارفه : أصدقاءه وتلامذته في كثير من المدن ، نذكر منها : بسكرة ، العين البيضاء ، باتنة ، عين مليلة ، قسنطينة ، الجزائر العاصمة ، فأمدني بعض هؤلاء بما عنده من نتاج الشاعر المجهول ، وأفادني بعضهم الآخر بما يعرف عن أخباره ، وقد ذكرت كل هؤلاء في صلب الرسالة .

كما قمت في هذا الاطار ببعض المراسلات داخل البلاد وخارجها ، بهدف تحقيق بعض الأمور المتصلة بحياة الشاعر وشعره ، فقد راسلت بعض الأشخاص

---

(1) صدر العدد الأول في : محرم 1383 هـ / ماي 1963 م .

في مصر وسوريا وليبيا وتونس ، ولكن وياللأسف ـ وهذه واحدة من علل حاضرنا ـ لم أتلق ردا من تلك البلاد سوى ما وصلني من تونس من لدن الدكتور محمد الصالح الجابري [1]، أوما بلغني من سوريا من أحد تلامذتي سابقا وهو الطالب محفوظ سالمي [2]، وأما من داخل الوطن فقد استلمت أيضا مراسلتين اثنتين :

كانت أولاهما من برج بوعريريج من لدن الشيخ موسى الأحمدي نويوات [3]، وأما الثانية فكانت من العين البيضاء من الشيخ علي السائحي [4] . .

وهكذا اجتمع لدي بعد هذه العملية الاستقرائية لشعر الشاعر وأخباره ، خمسة أنواع من المصادر يمكن أن تترتب على النحو التالي : الدوريات القديمة ، النسخة المخطوطة لديوان الشاعر ، حصيلة الاتصالات الميدانية ، الصحف الحديثة ، النسخة المطبوعة من الديوان .

وكان عليّ أن أجمع مادة البحث من جميع هذه المصادر ، فعكفت عليها وأنا أحرص ـ لكي تكون الانطلاقة في العمل قائمة على أسس سليمة ـ أن أستهدف من ذلك تحقيق غرضين اثنين :

ـ تمثل أولهما في استقصاء وجمع مادة البحث من أصولها الأولى .

ـ وتحقق ثانيهما في القيام بترتيب تلك المادة ، وضبطها والمقابلة بين رواياتها المختلفة .

وفرغت من هذه العملية التي استنفدت مني جهدا ووقتا كبيرين ، الى حصر ما تم جمعه من نتاج الشاعر وتوزيعه في مجموعة من المحاور الموضوعية التي تتماشى وطبيعة البحث ، وتتلاءم مع ما يهدف الى تحقيقه من أغراض .

ثم حاولت من بعد ذلك أن أولي وجهي شطر ما يكون قد كتب عن الشاعر لأفيد منه وأستعين به ، لاعتقادي أن البحث العلمي جهد متواصل ، ويحسن بمن يتعاطاه أن لا يغفل التجارب السابقة عليه في ميدان عمله ، وانما يجدر به أن ينطلق منها الى

---

(1) بعث الي بما بين يديه من نتاج الشاعر المجهول .

(2) أرسل اليّ أحد أجزاء مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، الذي نشرت فيه دراسة عن الشاعر .

(3) وافيتني منه محاضرته التي ألقاها في مهرجان محمد العيد الشعري الثاني ببسكرة مارس 1983 .

(4) أفادني في كتابه ببعض ما يتعلق بحياة الأسرة في المدة التي كانت بها في العين البيضاء . وبخاصة ما يتصل من ذلك بالملابسات التي تحول بمقتضاها المسجد الذي أسسه والد الشاعر هناك الى أحد المعالم المحبسة على التعليم .

ارتياد آفاق جديدة ، فيكمل بذلك الجهد الانساني بعضه بعضا ، ومن هذا التواصل بين الماضي والحاضر تنتج الأعمال ذات القيمة الانسانية ..

وقمت في هذا المجال بعملية مسح لما كتب عن الشاعر ، ووصلت من ذلك الى الوقوف على مجموعة كبيرة من الأعمال يمكن تصنيفها في ثلاثة أنواع :

أولا — مراجع أساسية : ونعني بها تلك الدراسات التي وضعها أصحابها خصيصا لتكون مجالا لدراسة الشاعر وشعره ، وهي قليلة جدا ، ولا تتجاوز — في حدود ما أعلم — عملين اثنين لا أكثر ..

— يتمثل أولهما في كتاب (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث) للدكتور أبي القاسم سعدالله [1]، وهو دراسة رائدة في بابه ، اذ لم تعرف الجزائر مصنفا يعنى بتاريخ الأدب الجزائري قبله ، سوى كتاب (شعراء الجزائر في العصر الحاضر)[2] للأستاذ محمد الهادي السنوسي الزاهري .

وقد كان ظهور مثل ذلك الكتاب من ذلك الوقت أمنية من أغلى الأمنيات في صدر الرعيل الأول من رجال النهضة الوطنية آنذاك ، فقد كتب الأستاذ عبدالرحمن شيبان ذات يوم يقول (ويوم يولد هذا الكتاب الذي اسمه تاريخ الأدب الجزائري ، تكون قد حققنا أمنية من أعذب الأماني ، بل واجبا من أكبر الواجبات)[3].

ويمكن القول ان كتاب سعدالله الآنف الذكر قد استطاع أن يحقق بعض تلك الأماني ، ويملأ بعض الفراغ ، وينهض — في حدوده — بواجب ظل الناس يترقبون الى يوم صدوره من يأتي لينهض به .

فكان اذن عمله بحق كما يقول الدكتور أبو العيد دودو (أول لبنة في صرح دراسة شعرنا الحديث)[4]

كتب سعدالله عمله ذلك في القاهرة في ظروف خاصة كان فيها بعيدا عن الشاعر وعن البيئة التي ترعرع في ظلها ، وتغذى من معطياتها ، ونظم شعره استجابة لأحداثها .

---

(1) كتب المؤلف هذا المصنف على أساس أن يكون رسالته لنيل شهادة الماجستير ، الا أنه انصرف عنه وذهب في منحة دراسية الى الولايات المتحدة الأمريكية . ينظر ص 13 من الكتاب . وقد صدرت طبعته الأولى سنة 1961 .

(2) يقع في جزئين صدر الأول سنة 1926 ، وصدر الثاني سنة 1927 بمطبعة النهضة تونس .

(3) ينظر البصائر العدد : 90 — 12 ذو القعدة 1368 — 5 سبتمبر 1949م .

(4) ينظر " كتب وشخصيات " ص : 37 .

اذ لم يكن بين يديه من مصادر البحث الا مخطوطة الديوان التي كانت بحوزة المرحوم الشيخ محمد البشير الابراهيمي الذى كان بجانبه يومئذ ، ولاشك أن يكون هذا الأخير — للصلة الكبيرة التي كانت قائمة بينه وبين الشاعر ، ولطبيعة المهام التي اضطلع بها في مسيرة النهضة — من أكبر من استعان بهم سعدالله على انجاز عمله ، ولعله يكون قد استطاع أن يعوضه عن كثير مما كان يشكو من انعدام توفره من مراجع .

وعلى أية حال فقد أخرج سعدالله عمله ، وكان يريد من خلاله — فيما يظهر — أن يعرف الاخوة في الشرق ببعض جوانب حياة شقيقهم الشعب الجزائرى ، صانع الثورة المعجزة ، فاختار بحكم كونه دارس أدب ، محمد العيد وشعره ليحقق عن طريقه بعض تلك الأهداف .

وقد حاول وهو يدرس الشاعر وشعره ، ويرسم بعض الملامح عن حياته وحياة مجتمعه أن يجيب بطريق أو بآخر عن بعض الأسئلة التي كانت مطروحة يومئذ على الساحة من حوله عن الجزائر وثورتها ، وعن نهضتها السياسية والفكرية والأدبية .

واذا كان من اللازم أن نذكر بعض ما يكون قد فات هذا الكتاب ، فلعل من بين ذلك أنه لم يعتمد على استقراء شامل لمجموع نتاج الشاعر ، ولم يقم بتنسيق المادة المعتمدة في وحدة متكاملة ، ثم يتصدى من بعد ذلك لتحليلها من منظور كلي يعني برصد ملامح التطور في نظرة الشاعر وفي فنه ، وانما انتهج طريقا آخر اهتم بالتعرف على مواقف الشاعر وآرائه وبعض ملامح فنه أكثر مما كان يعني بالقيام بدراسة آثاره دراسة تحليلية شاملة .

وقد حاول صاحبه أن يستدرك في الطبعة الثانية لهذا الكتاب [1] بعض ما فاته في طبعته الأولى باضافته فصلا جديدا له ، الا أنه ظل فيه — مع ذلك — جانبان لم ينالا حظهما من البحث :

— يتمثل أولهما في الغرض الاسلامي في نتاج الشاعر الذى لم يأخذ حظه من العناية اللازمة به وهو — كما سنرى — علامة مميزة من بين سائر الموضوعات في شعره .

— أما الجانب الثاني فيبدو في خلو ذلك الفصل الجديد من نظرة تقييمية لطبعة ديوان الشاعر ، قد تساعد في القاء الضوء على ما قد يكون من وجوه الاخلال أو التقصير في طرائق تحقيقه .

غير أن هذه الملاحظ لا ترقى الى النيل من قيمة الكتاب كدراسة رائدة نهضت بعبء لم يستطع أن ينهض به غيرها في وقتها .

---

(1) ... 1973 .

وحسب أن الناقد النزيه انما يجب أن ينطلق في تقييم ما بين يديه من أعمال، من زمانها، وبحسب ما أتيح لأصحابها من امكانيات ووسائل للنهوض بها . وان من ينظر الى هذا العمل على هذا الأساس سيجده بالرغم من عدم توفر بعض متطلبات البحث الأساسية لدى مؤلفه ، قد استطاع هذا المؤلف أن يصل فيه الى بعض أهدافه في كشف النقاب عن بعض الجوانب من حياة الشاعر وشعره ، ورسم بعض الملامح عن حياة شعبه ونهضته ، فظل الكتاب بذلك علامة مضيئة لمن جاء بعد صاحبه على هذا الطريق، من ذلك اليوم والى هذا اليوم ..

وأما العمل الثاني فهو بحث بعنوان (أثر القرآن في شعر محمد العيد) تقدم به الأستاذ شلتاغ عبود شراد الى معهد الآداب والثقافة العربية بجامعة وهران لامتحان المنهجية في الدراسات المعمقة ، ويقع في حوالي ثماني عشرة صفحة[1]، وأفادني صاحبه أن أهمه ما نشر . ويقتصر هذا البحث ، كما هو واضح على جانب من الجوانب الفنية في شعر الشاعر ، وتتمثل قيمته في حدود طبيعته وأهدافه .

ثانيا : مراجع ثانوية : وهذه كثيرة ، وهي التي تتصل بالشاعر في صورة بحث في كتاب ، أو مقال في مجلة ، أو استجواب في صحيفة ، أو محاضرة في مهرجان[2].

وقد كانت هذه الأعمال — الا أقلها — سطحية استعجالية تعتمد على العرض السريع أكثر مما تتوخى البحث الدقيق، والدراسة المتأنية ، وكان ذلك — فيما يبدو — لأنها كانت تستهدف تلبية حاجة آنية ، أكثر مما كانت ترمي الى دراسة الشاعر وشعره دراسة علمية دقيقة ..

وان الذى كان من بينها يقصد الى شيء من ذلك نادر ، وقليل جدا ، ويمكن أن نذكر من ذلك ما كتبه الأساتذة : الدكتور شكرى فيصل[3] والدكتور المستشرق فيلهالم هونرباخ[4]، والأستاذ على أمقران[5] ، والدكتور صالح خرفي[6] ، والدكتور محمد مصايف[7].

---

(1) ينظر الأصالة العدد : (60 — 61) رمضان — شوال 1398هـ/أوت — سبتمبر 1978م .
(2) حرص الاتحاد الوطني للكتاب الجزائريين ابتداء من 1982 على تنظيم مهرجان شعرى سنوى بمدينة بسكرة ، باسم (مهرجان محمد العيد الشعرى) .
(3) ينظر المجاهد الثقافي العددان : (11 — 12) أفريل — ماى 1970 .
(4) ينظر المجاهد الثقافي العدد : 12 — ماى 1970 .
(5) ينظر المجاهد الأسبوعي العدد : 399 — 24 ديسمبر 1967 .
(6) ينظر (شعراء من الجزائر) ص : 155 .
(7) ينظر (فصول في النقد الأدبي الجزائرى الحديث) ص : 6 وما بعدها .

وان الملاحظة الأساسية التي يمكن أن تسجل على هذه الأعمال ، أنها كانت في مجموعها بعيدة الصلة بموضوع هذه الرسالة ، باستثناء آخرها الذى عالج فيه صاحبه في مقالين اثنين : قصيدتين من قصائد الشاعر الدينية .

ثالثا : مراجع عامة : وهي تلك الكتب التي كان موضوع بحثها الشعر الجزائرى بعامة ، ويدخل اهتمامها بالشاعر في هذا الاطار ، ونذكر على رأسها :

ـ الشعر الجزائرى للدكتور صالح خرفي .
ـ الشعر الديني الجزائرى الحديث للدكتور عبدالله ركيبي .
ـ الشعر الوطني الجزائرى من 1925 الى 1954 للدكتور أحمد شرفي (1) .
ـ الشعر الجزائرى الحديث : اتجاهاته وخصائصه الفنية للدكتور محمد ناصر (2) .

وقد أفدت من هذه المراجع بأنواعها الثلاثة بعض الافادة في أكثر من جانب من جوانب بحثي .

ونذكر أن طبيعة الموضوع المدروس من جهة ، والاهداف المتوخاة منه من جهة ثانية ، قد تضافرا الاثنان على الوحي بمنهج التعامل معه .

فالموضوع موصول بشخصية صاحبه وبعواطف الأمة وقيمها ومقومات شخصيتها فاقتضى ذلك أن يكون الاعتماد في دراسته قائما على ضوء معطيات المنهج التاريخي الذى يقوم على ربط النتاج المدروس بحياة وظروف صاحبه ، وبأحداث وملابسات البيئة العامة التي يكون ذلك المبدع قد خضع في تكوينه العام لمؤثراتها المختلفة ، ويكون نتاجه صدى لوقائعها .

وقد حاولت الرسالة أن تفيد من هذا المنهج بالقدر الذى لا يطغى فيه على البواعث الشخصية أو يهملها ، الأمر الذى سمح بالاستعانة بالعامل الشخصي في فهم بواعث ذلك النتاج وتحليل ظواهره ورصد ملامح تطوره .

ولا يخفى أن تحقيق هذه الغاية يتطلب أن تكون المادة بين يدى الباحث منسقة ومرتبة ترتيبا تاريخيا ، وهذا ما لم تستطع طبعة الديوان النهوض به ، فتطلب ذلك بذل جهد ليس بالقليل للقيام به ، وتوفر ذلك بوجه خاص في جملة من الأعمال التي كانت بكاملها موضوع دراسة وتحليل في الرسالة . وقد سمحت هذه العملية بصياغة شعره صياغة جديدة أصبحت فيها مادة البحث مقسمة الى وحدات موضوعية رتبت فيها المعاني ترتيبا زمنيا .

---

(1) رسالة دكتوراه ـ الحلقة الثالثة ـ مخطوطة ، معهد اللغة والأدب العربي جامعة الجزائر .
(2) رسالة دكتوراه ـ الدولة . مخطوطة " " " "

ونظر الباحث في موضوعه من زاوية المنهج النقدى فساعده ذلك على رصد جملة من الحقائق الموضوعية والفنية ، والموازنة بين أعمال الشاعر بعضها ببعض ، وما بينها وبين أعمال بعض معاصريه .

كما أفاد الباحث من المنهج الاستقرائي في تحليل بعض القضايا المتصلة بحياة الشاعر وشعره ، فكان يعرض القضية الواحدة على وجوهها المختلفة ، ثم يقلب النظر في ذلك ، ويخلص الى رأى من الآراء يرجحه على غيره ، فيعمد الى تقديمه وبجانب ما يدعمه من الحجة والدليل .

وكان ادراك الدارس من جهة أخرى لطبيعة الظاهرة الأدبية المعقدة حافزا قويا له على الاسترشاد بأكثر مما استرشد به في تناول موضوعه ، فدفعه ذلك الى الاستهداء في بحثه بذوقه الخاص أحيانا ، الى درجة لايطغى فيها ذلك على غيره ، ويندفع فيه بالحقائق الموضوعية الى الحد الذى لايفقده ذاته ولا يحد من حركته .

وعلى هذا الأساس كانت الافادة متنوعة ، الا أن الاعتماد الكبير كان على المنهج التاريخي النقدى الذى يقوم على الجمع بين ربط المادة المدروسة بكل ما تقدم من حقائق على الشاعر وبيئته ، والعصر وأحداثه ، وبين الدراسة القائمة على فهم هذه المادة وتحليلها وتفسير ظواهرها الموضوعية والفنية ، والموازنة بينها ، وبين مثيلاتها في نتاج غير قليل من الشعراء .

وقد فكرت في أول الأمر في خطة تقوم على دراسة حياة الشاعر وشعره الاسلامي مدمجين في فصول ، الا أنني بعد التعامل مع محاور البحث أدركت أن هذه الخطة لا تستقيم ، وقد يكون ذلك في المكنة ، لوكان موضوع البحث في مجموع نتاج الشاعر فيمكن حينئذ أن تدمج الحياة والشعر في عجينة واحدة ، ثم يدرس ذلك في فصول متتابعة ..

وبدا لي بعد التفكير في الأمر أن الخطة ستكون أكثر انسجاما ، وأعظم توازنا لو جاءت في بابين ، يهتم الباب الأول بدراسة حياة الشاعر . ويعالج الباب الثاني شعره الاسلامي ، على أن يكون بين البابين ترابط وتكامل .

وكانت هذه هي الخطة المعتمدة في هذه الرسالة ، وجاء البحث لذلك في بابين يتقدمهما تمهيد ويعقبهما خاتمة وملحق .

حاولت الرسالة أن تلقي في التمهيد بعض الأضواء على مختلف مظاهر البيئة العامة التي خضع الشاعر لمؤثراتها في تكوينه العام ، وكان شعره صدى لما يجرى فيها من صراعات وأحداث . وقد دار النقاش حول مظاهر النهضة العامة التي كان

الشاعر واحدا من أعلامها ، وتركز بخاصة حول الحركة الاصلاحية وجهادها في قيادة الأمة والذود عن كيانها ومقومات شخصيتها ، وقد كان الشاعر من أقوى الأصوات وأصدقها وأكثرها التزاما ووفاء على هذا الطريق .

واذا كان هذا التمهيد قد اقتصر أو يكاد على رسم صورة عن الحياة العامة في دائرتها الواسعة ، فان الباب الأول قد عني بدراسة الحياة الخاصة متصلة بالحياة العامة ، وحاول أن يتعرف على طبيعة التفاعل ، وعلاقة التأثر والتأثير بين هذه وتلك ، ومدى تأثيرهما معا على نتاج الشاعر المدروس .

وعلى هذا الأساس كان الحديث في هذا الباب عن نشأة الشاعر وتكوينه ، ووجوه مساهمته في النشاط الوطني العام ، ليس غاية في حد ذاته ، وانما هو وسيلة من وسائل التعرف على حقائق شعره وتفسير ظواهره .

وقد اشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول :

عالج الفصل الأول ملابسات ولادة الشاعر ، وظروف نشأته وتكوينه العام .

وعرض الفصل الثاني لوجوه مساهمته في مختلف ميادين الحياة العامة بصفته شاعرا ومربيا ومصلحا . وعني بمناقشة بعض القضايا المتصلة بحياته الخاصة في أثناء الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها ، من مثل : سكوته ، وعزلته ، وموقفه من الحركة الاصلاحية .

وألقى الفصل الثالث الضوء على بعض نشاطه في الثورة وملابسات اعتقاله وظروف اقامته الاجبارية ، وما انتهى اليه في آخر حياته من عزلة وتصوف وسكوت . .

كما تطرق هذا الفصل الى آثاره الشعرية فنظر في طبعة ديوانه من طرق تحقيقها وأساليب اخراجها ، ولفت النظر الى أنماط نتاجه غير المنشور ، وخلص من ذلك الى بيان أهم أغراض شعره . .

وكان الباب الثاني موضوعا لمحاور شعره الاسلامي ، ويضم خمسة فصول :

تطرق الفصل الأول لنتاجه الذي حرص فيه على التمكين للعقيدة الاسلامية والمنافحة عنها .

واهتم الفصل الثاني بشعره الذي أوقفه على الاشادة بالحركة الاصلاحية والتنويه بجهود أعلامها في الذود عن قيم الأمة ومقوماتها . .

وتضمن الفصل الثالث شعره الذي دعا فيه الى السمو بالشخصية الفردية والاجتماعية ماديا ومعنويا ، بما يساعد الأمة على النهوض والتحرر . ووقف عند شعره في المناسبات العامة ... وتحد ... مفهومه لرسالة الشعر النضالية ، وحرصه على المواءمة بينه وبين أساليبه الفنية .

ودرس الفصل الرابع نتاجه في الذود عن أهم المقومات الشخصية للأمة ، وإجلاء بعض صور التعاطف التي كان الشعب الجزائري يشارك بها في الأفراح وفي الأتراح أشقاءه في العالم العربي الاسلامي .

وعالج الفصل الخامس شعره في الشخصيات الاسلامية ، وعني خاصة بدراسة مولدياته دراسة متأنية استهدف منها الكشف عن بعض مقاصدها وظواهرها الفنية .

وأما الملحق فقد ضمّ نتاج الشاعر المجهول بأنواعه ، مبوبا في وحدات محورية رتبت فيها المادة ترتيبا تاريخيا ، وقدم الباحث لذلك بمقدمة توضح معالم هذا العمل وتكشف عن الخطة المعتمدة في تنظيمه .

ودار الحديث في الخاتمة حول رصد بعض النتائج المستخلصة من البحث .

ونذكر أن الرسالة لم تخصص فصلا مستقلا تعالج فيه بعض الظواهر الفنية في النتاج المدروس ، وذلك لأنها لم تكن تنظر الى العمل الأدبي نظرة من يجزىء فيه ما بين المضمون والصورة ، وانما كانت ترى أن العملية الابداعية وحدة متكاملة ، وأن العناصر المكونة لها متلازمة ومترابطة ، يشكل كل عنصر فيها جزءا من الكل ، بحيث لا يمكن أن تظهر قيمة هذا الجانب أو ذاك الا وهو متلبس بغيره .

ومن هنا كانت العناية قائمة على دراسة الخصائص الفنية أثناء معالجة الحقائق الموضوعية ، فسمحت هذه الطريقة باستنباط وابراز جملة من ملامح فن الشاعر ، وهي متصلة باطارها الموضوعي الذي تعبر عنه ، ولذلك سيصادف المتلقي جملة من القضايا والظواهر الفنية المعالجة بجوانب نصوصها ، ونذكر من ذلك : قضية وحدة الموضوع ، والوحدة العضوية ، التشكيل الموسيقي ، اللغة الشعرية ، الاسلوب الخطابي ، ظاهرة التكرار ، ظاهرة الدعاء ، المحسنات البديعية ، الصورة الشعرية ، الصور والرموز الدينية . .

ولاشك أن هذه الطريقة أسلم وأقرب الى طبيعة الظاهرة الأدبية من تلك الطريقة الأخرى التي تقوم على عقد فصل خاص تسرد فيه جملة من الخصائص الفنية سردا نظريا يبرزها وهي منبتة الصلة أو تكاد عن خصائصها الموضوعية . .

ويمكن القول أن منهج هذا البحث والخطة المعتمدة فيه ، قد ساعد كل من جانبه على تحقيق جملة من الأمور نذكر منها :

أولا : العثور على نتاج وافر للشاعر لم يدرج في طبعة ديوانه والقيام بجمع ذلك وتحقيقه وتبويبه ونشره في ملحق خاص يجده المتلقي في ذيل هذه الرسالة .

ثانيا : الوقوف على جملة من وجوه الاختلاف في غير قليل من نتاج الشاعر ، بالموازنة ما بين صورته في مصادره الأولى ، وبين صورته في طبعة ديوانه . والقيام بتوثيق ذلك ولفت النظر الى مختلف رواياته ، وقد شمل ذلك تغيير عناوين القصائد وتحوير بعض الكلمات والعبارات ، وحذف بعض الأبيات . .

وقد اعتمدت في صلب البحث من هذه الروايات ما اعتمدته طبعة الديوان ، وكنت أشير في المكان ذاته الى الوجوه الأخرى ، كما هي في المصادر الأصلية . وقد دفعني الى هذا الاختيار أمران :

- أما أولهما فهو الاحساس بأن احالة القارئ على غير المطبوع من شعر الشاعر امر لا يحقق الغاية المرجوة منه ، لصعوبة العثور على ذلك .
- وأما ثانيهما فهو ميلي الى أن ذلك التحوير لا يمكن أن يكون قد قام به محققوا شعره من تلقاء أنفسهم ، وانما قد يكون الشاعر نفسه هو الذى قام به ، وأحب أن يظهر شعره على الناس وهو يلبس هذه الحلة الجديدة ، وهو نوع من التجديد يعكس تطور نظرة الشاعر وفنه .

وان أخبار اشرافه على طبع شعره — وان كان ذلك من بعيد — متواترة ، وان آثار ذلك لبادية في ديوانه .

ثالثا : القيام بتوثيق ما صادف الباحث من وجوه النقص في طبعة الديوان ، من مثل : تحديد مناسبة بعض القصائد ، وضبط تاريخ ما لم يكن منها مؤرخا ، أو كان مؤرخا ولكنه كان تاريخا ناقصا ، وتعيين مكان نشر ما لم يكن مكانه محددا ؟ وان الأمثلة على ذلك — كما سيلمسها المتلقي في ثنايا الرسالة — كثيرة جدا . .

ولا يخفى أن القيام بمثل هذه الأمور جزء أصيل من مهمة الباحث لأنه يسهم في تحقيق المادة الأولية للبحث .

رابعا : العناية بالترجمة لعدد كبير ممّن ورد ذكرهم في النتاج المدروس ، أو في صلب الرسالة من أعلام عربية وأجنبية . وقد تطلب الالمام بذلك الرجوع الى عدد وافر من المراجع . .

وحسب أن من يقابل بين محتوى هذه الرسالة ، وبين الصورة التي كانت عليها مادتها من قبل أن تخضع للدراسة بها ، يمكنه أن يلمس الجهد المبذول في هذا المجال . .

ولعل هذه الرسالة تكون بذلك وبغيره مما حرصت على القيام به من وجوه الدراسة والتحقيق قد استطاعت أن تعمق البحث في جانب من جوانب شعر محمد العيد لم ينل من عناية الدارسين ما هو جدير به ..

بيد أنه ليس هناك من سبيل الى الزعم بأن الرسالة قد كان بمقدورها أن تستوفي جوانب البحث في الموضوع المدروس، وتصل فيه الى ما يطمح الى الوصول اليه كل باحث من وجوه الاحاطة والشمول . وأن ذلك مطمح بعيد المنال، وينبغي أن لا يدعيه بخاصة، باحث في الدراسات المعاصرة، هذه التي تحتاج أكثر من غيرها الى قدر وافر من الزمن، حتى تستجمع المعطيات المتسببة فيها، وتتكشف بمامضى الوقت الملابسات التي اكتنفتها، وعندئذ يمكن أن يصل فيها من يتصدى لها الى نتائج يمكن أن تكون أكثر دقة وأعظم قيمة ..

وان صاحب هذه الرسالة مدين بغير قليل من الثناء والعرفان بالجميل لكثير ممن مدوا له يد العون بما لديهم من آراء، أو بما يملكون من مصادر البحث ومراجعه .

واذا كان صدر المقام لا يتسع للاحاطة بذكر أولئك جميعا لوفرة عددهم، فان ذلك لا يعجزني أن أنوه بمساعدة بعضهم وأخص بالذكر الأساتذة : الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي مكنني من الاطلاع من مكتبته على النسخة المخطوطة لديوان الشاعر، وأعطاني ما عنده من نتاجه غير المنشور، وفسح المجال أمامي للقاء به مرات عديدة، للمشورة وتبادل الرأي معه في بعض الجوانب المتصلة بالبحث . فأفدت من توجيهاته الكثير ..

والشيخ محمد الصالح رمضان الذي أعارني ما بين يديه من مجموعة (الشهاب) بنوعيها : الجريدة والمجلة، وتكاد تكون كاملة .

والأستاذ الدكتور محمد ناصر الذي أطلعني على كثير مما في مكتبته من صحف ..

فالى هؤلاء جميعا خالص تقديري وجزيل شكري ..

الا أن الفضل الكبير في بلوغ الرسالة هذه المرحلة، انما يرجع الى فضيلة أستاذي الدكتور حامد حفني داود الذي شملني بوافر عطفه وأوسعني بغزير علمه، وسداد توجيهاته، ومنحني كثيرا من ثمين وقته، فكان من ذلك ما أنار بعض مجاهل البحث من أمامي وسدد خطاي نحو وجه الصواب فيها ..

فالى سيادته أرفع آيات التقدير والامتنان والوفاء ..

ويشرفني بأن أظل مدينا لأستاذي بما يحرص على الالتزام والاعتزاز به كل تلميذ وفي نحو أستاذ مخلص عزيز ..

وعسى أن أكون بهذه الرسالة، للغرض الاسلامي في شعر محمد العيد، قد استطعت أن أبرز بعض ما حققه الشاعر منه، بوضعه أيدي قومه على تلك الصلة الحميمة القائمة ما بين دينهم، وبين الحياة، والتمكين في نفوسهم لأسباب المحافظة على كيانهم، ومقومات شخصيتهم العربية الاسلامية .

وأن أسهم من خلال ذلك - ولو بقدر يسير - فيما تقوم به الأمة على طريق بناء ذاتها ، وتدعيم عناصر أصالتها ، واثبات إيتها بين الأمم ..

واذا لم أبلغ ذلك المراد ، فحسبي أني بذلت لبلوغه - ما وسعني الجهد والوقت - من صادق العزم ، وخالص القصد .. وما توفيقي الا بالله عليه توكلت ، واليه أنيب ..

تمهيد

ظل العالم العربي الاسلامي يعيش وهو على عتبة العصر الحديث آثار ذلك التدهور الحضاري الذي شهده خلال عصور الضعف ، ويكاد يشمل جميع مظاهر حياته العامة . وقد نجم عمّا أصبح يتحكّم في علاقات الناس بعضهم ببعض، ويسود مجرى أمورهم من ضعف الروح الدينية ، وأهمال الحياة العقلية ، وانعدام الحرية ، وسيطرة الظلم والاستبداد ، وطغيان الجهل والتقليد ؛ وما الى ذلك من عوامل التخلّف المريع الذي شلّ حركة المجتمع الاسلامي ، وعطّل كامل قواه على الاستمرار في النهوض بالدور المشهود ، الذي كان يسهم به ، في اثراء الحضارة الانسانية . وكانت هذه الأوضاع المتردية في السياسة والاجتماع ، في الثقافة والاقتصاد ، تستدعي القيام بعملية جادة وهادفة تنهض بالمسلمين ، وتجدّد عزمهم وتعمل على اخراجهم من وهن الحياة الذي انحدروا اليه ، الى عزّها الذي اليه يفتقدون .

ويمكن القول أنّ الدّعوة الوهابية التي ظهرت بـ (نجد) في شبه الجزيرة العربية ، في غضون القرن الثامن عشر الميلادي ، على يدي محمد بن عبدالوهاب [1].

كانت من أولى الدعوات في هذا العصر التي هزّت ضمير الفرد المسلم، وحاولت أن تصحّح عقيدته وتدفع به على طريق اليقظة والنهضة [2]. وقد حزّ في نفس محمد بن عبدالوهاب ما رأى من حال المسلمين ، وما

---

(1) محمد بن عبدالوهاب من بني تميم ، ولد (1115 هـ ـ 1703 م) في قرية (العيينة) بـ (نجد) في شبه الجزيرة العربية وتعلّم بقريته ثمّ انتقل الى المدينة المنورة ، ثم ارتحل الى العراق . ثم عاد الى بلدته ، وخرج منها يدعو الناس الى أفكاره الجديدة ، متأثرا في ذلك بآراء بعض المصلحين السابقين من أمثال : ابن تيمية وابن قيم الجوزية ، توفي (1206 هـ ـ 1799 م) ينظر أحمد أمين (زعماء الاصلاح) ص 10 .

(2) ينظر مذكرات شاهد القرن (الطالب) ص 150 . مالك بن نبي . وينظر (الشهاب) ج 6 / م 15/ صفر 1353 هـ / ماى 1934 م .

يسود حياتهم من خلل في قيمهم ، وفساد في علاقاتهم الاجتماعية ، وخور عام في عزائمهم . فدعاه ذلك الى التفكير ، في العلل ، فاهتدى الى أن ذلك انما يرجع في معظمه الى ضعف العقيدة الدينية في نفوس كثير من المسلمين ، هؤلاء الذين ما كان لهم أن يهبطوا الى ذلك المنحدر في حضارتهم ، لو لم يتدنوا في ايمانهم الى الدرك الأسفل بما أصبح يسود حياتهم ، من مظاهر الوثنية التي تتبدى بعض آثارها في التوسل ، والشفاعة بالأولياء والاعتقاد فيهم ، والتبرك بهم أحياء وأمواتا . واحساسا بخطورة هذه الظاهر على كيان الأمة الاسلامية ، أقام محمد بن عبدالوهاب دعوته على تصحيح العقيدة الدينية والرجوع بها الى أصولها الأولى المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وسيرة السلف الصالح ، والدعوة الى الاجتهاد ومحاربة البدع ، مقتفيا في ذلك منهج شيخ الاسلام (ابن تيمية) الذى دعا بهذه الدعوة في عصره [1].

ونتيجة لعوامل مختلفة أحاطت بهذه الحركة ، يعود بعضها الى طبيعة منهجها نفسه ، الذى يكاد يركز على الجانب الروحي وحده ، من حياة الانسان دون ربطه ـ كما ينبغي ـ بالاهتمامات المادية له ، ودونما حرص ، من جهة أخرى على الافادة من معطيات المدنية الحديثة [2]. فقد بقي نشاطها محصورا في نطاق بيئتها المحدودة لايكاد يتعداها ، واذا حاول أن يتحرك ، فانه لايخرج من تلك البيئة الا ليبقى في حدود الجزيرة العربية ، كأن يظهر في بعض أقطارها ، مثلما ظهر في (اليمن) على يدى العالم (محمد بن علي بن محمد الشوكاني الصنعاني) [3] الذى

---

(1) أحمد تقي الدين بن تيمية (661 ـ 728 هـ) ، يلظر ترجمته في (زعماء الاصلاح) ، ص 13 ، أحمد أمين .

(2) يلظر أحمد أمين ـ زعماء الاصلاح ـ ص 15 .

(3) ولد في (هجرة شوكان) باليمن نهار الاثنين الثامن والعشرين في شهر ذى القعدة سنة 1172 هـ ، وتوفي رحمه الله ليلة الاربعاء السابع والعشرين في شهر جمادى الآخرة سنة (1250 هـ) يلظر ترجمته في كتابه (نيل الأوطار) ج 1 / ص (ج) .

رجع بهذه الدّعوة الى أصولها السابقة عليها ، أو يطير ذلك النشاط أحيانا الى بعض الآفاق الاسلامية في افريقيا وآسيا وغيرها ، مع قوافل الحجيج العائدين من الحجاز الى بلادهم (1). وبهذا لم تستطع هذه الحركة أن ترقى الى أبعد ممّا ارتقت اليه فتنجح في تحقيق بعث جديد للعالم العربي الاسلامي ، هذا الذى ظل كما كان أو يكاد في معظمه ، يماسي من أدوائه وآثار ضعفه ، وبقي على تلك الحال ، ينتظر من يقيله من العثرة ، وينهض به الى آفاق الحياة الرحبة الكريمة.

وفي هذا الوقت كان الغرب الأوربي في الجهة المقابلة قد مضى عليه حين من الدّهر ، منذ أن خرج من تخلّفه ، واتجه الى اعداد نفسه والتمكين لها بالسيطرة على أسباب القوة ، من علم وصناعة ونظام وعمران ، وما شاكل ذلك من معطيات الحضارة الحديثة ، فالتفت هذا الغرب من حوله ، فرأى ذلك العالم الاسلامي ، وقد هدت كيانه مظاهر الانحطاط ، وأنهكت قواه عوامل الهرم ، فشجّعته قوته من نحو ، وهزال هذا العالم المريض ، من نحو آخر ، على تأجج نار السّطو والاعتداء في نفسه ، فلم يلبث أن انقض على ذلك العالم العليل المتهالك فزاده بذلك وهنا على وهن ، وضعفا على ضعف .

وكانت الجزائر من أسبق شقيقاتها تعرضا لآثار ذلك الغزو الأوربي ممثلا في الاحتلال الفرنسي (2).

---

(1) ينظر أحمد أمين (زعماء الاصلاح) ص 21 ، و(الدكتور عبدالحليم عويس) في كتابه (العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكرى) ص 195.

(2) كان الاحتلال الفرنسي للجزائر قد وقع سنة 1930 م ، وقد سبقت هذا التاريخ حملة (نابليون بونابارت) على مصر (1798 م) الّا أنها كانت آنية سرعان ما تولت على أعقابها .

وفي خضم هذا الليل ، وفي بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، سطع نجم الثائر (جمال الدين الأفغاني)[1] فبددت أنوار دعوته ما اكتنف أفق سماء العالم العربي الاسلامي من حجب الظلام .

ومضى هذا الداعية الاسلامي الكبير على طريق من سبقه من المسلمين ، ينفخ في المسلمين روح الحياة ، ويدعوهم الى النهضة والتجديد[2] موقنا وهو في بداية الطريق أنّ ضعف المسلمين ، انما يكمن في انحرافهم عن أصول دينهم ، هذه التي مكّنتهم من أسباب القوة والسيّادة ، يوم أن كانوا متمسّكين بها ، وما انخذلوا وذلوا وهم في عقر ديارهم ، الا من بعد ما تولّوا عنها وشغلوا عن هديها بالبدع والخرافات .

واذن ، فان خلاصهم من محنتهم هذه ، واخراجهم من الذل الذى هم فيه ، الى العز الذى كانوا عليه ، وتحريرهم من أغلال الاستبداد والعبودية التي تكبل أعناقهم وأيديهم ، ان هذا لن يتم الا بقيام حركة دينية شاملة ، توجه الأمّة الى ما في قواعد دينها من طاقات روحية ، ومبادئ اجتماعية وانسانية ، قادرة على أن تمدّها بأسباب المنعة والعزة ، وتبعث فيها روح الثورة ، فتنهض لاستعادة عزّها وتحرير نفسها ، وتأسيس دولة قوية ، كما كانت على عهد الاسلام الأوّل ، ولهذا فان أساس عمل هذه الأمة ((انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والأخذ بأحكامه ، على ماكان في بدايته وارشاد العامة بمواعظه الوافية ، بتطهير القلوب ، وتهذيب الأخلاق ، وايقاد نيران الغيرة ، وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة ، ومن طلب اصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعل النهاية بداية)) .[3]

---

(1) جمال الدين الأفغاني = ولد في قرية " أسعد آباد " سنة 1254 هـ / 1839م، ثم انتقل مع أسرته الى " كابل " . حذق العلوم والفنون القديمة عقليها ونقليها ، وتجوّل في أرجاء مختلفة من العالم ، فقد زار مصر والهند وتركيا وايران ، وأوربا ، حيث أسس في فرنسا جمعية (العروة الوثقى) وأصدر مجلّة باسمها ، وقضى حياته يدعو الى نهضة المسلمين وتوحيد شعوبهم في دولة قوية ، توفي بتركيا يوم الثلاثاء 5 شوال 1314 هـ / 9 مارس 1893 م .

(2) ينظر : محمد رشيد رضا (تاريخ الأستاذ محمد عبده) ج 1 ، 102 .

(3) جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده (العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى) ط 2 ، ص 61 .

وانطلاقا من هذه المبادئ قامت حركة النهضة الاسلامية بقيادة السيد "جمال الدين الأفغاني" والشيخ "محمد عبده" (1) تدعو الى التجديد الشامل لجميع جوانب حياة المسلمين السياسية والاجتماعية ، اعتمادا على احياء العقيدة الصحيحة في نفوسهم ، والدّعوة الى الاجتهاد وتحرير العقل ، ونشر الفضائل ، وتوجيه الأنظار الى اكتساب العلم ، والوقوف على أسباب تقدم الغرب ، وعوامل تفوّقه ، واعداد العدّة من كلّ ذلك ، لأجل توحيد الشعوب الاسلامية في دولة قوية ، مهابة الجانب ، يكون بمقدورها أن تخلص المسلمين من سيطرة الاحتلال الأجنبي ، وتعيد للاسلام عزّه الغابر ، ومجده التليد ، وحكومته العادلة . فكان لهذه الحركة مفعولها في بعث يقظة عامة في الأمة ، برزت آثارها في تحرير العقل من الأوهام والجمود ، وتطهير الدين من البدع والخرافات .. والمساهمة في النهوض بالأدب وتخليصه من بعض ماكان يوصف فيه من أغلال الصنعة والتكلّف (2) ، والعمل في هذا الاطار على اعداد الفرد اعدادا قويا سليما يمكّنه من القيام بدوره في تحرير بلاده من السيطرة الأجنبية .

وقد توّجت جهود هذين المصلحين في هذه الفترة بتأسيسهما بفرنسا (جمعية العروة الوثقى) واصدارهما مجلة باسمها (3) ، وقد أسهمت هذه المجلّة بفعالية في التأصيل لمبادئ الاصلاح والتجديد في أرجاء كثيرة من العالم العربي الاسلامي .

---

(1) ولد الامام محمد عبده بقرية (شنرا) ، بمصر سنة 1266 هـ / 1849 م ، اشترك في ثورة أحمد عرابي سنة 1882 ، وفي أعقاب فشلها نفي من مصر ، فأقام سنة في لبنان ، ثم دعي من طرف أستاذه الأفغاني الى "باريس" وهناك اشترك معه في اصدار مجلة (العروة الوثقى) وسار في البداية على نهج أستاذه في الاصلاح ثم لم يلبث أن مال الى الاصلاح الديني والاجتماعي ، توفي بمصر 1905 م . ينظر الدكتور عمر الدسوقي (في الأدب الحديث) ج 1 : 353 .

(2) ينظر المصدر السابق ، ج 1 : 323 .

(3) صدر العدد الأول من هذه المجلة في : 5 جمادى الأولى سنة 1301 هـ / 13 مارس 1884 م ، وتوقفت في شهر ذي الحجة من السنة نفسها بعد أن صدر منها (18) عددا فقط .

الا أن الاحتلال الانجليزي كان يحسب لهذه الحركة حسابها، ولم يكن غافلا عن أبعادها ومراميها، مما جعله لا يفتأ يكيد لها حتى استطاع أن يصل الى اسكات صوتها بايقافه مجلة (العروة الوثقى) عن الصدور، وافتراق السبيل بصاحبيها[1].

فمال (محمد عبده) لعوامل نفسية واجتماعية وسياسية خاصة به الى الاقتصار في دعوته على الاصلاح الديني والاجتماعي، معتمدا في ذلك على التربية والتعليم، وهو بذلك يقف موقفا وسطا بين الدعوة الوهابية، التي يلتقي بها في أصولها، وبين دعوة أستاذه (الأفغاني) الذي علّمه الدروس الأولى في الاصلاح، فهو يتفق مع (الوهابية) في مناداته بالرجوع الى المنابع الأولى للاسلام، وفتح باب الاجتهاد، ومحاربة البدع. ويفترق عنها باهتمامه، بتحرير العقل ونشر العلم، والحاحه الشديد على الافادة من ثمار المدنية الغربية[2]. ويقصد به عمله، عما نهض به، عن ارادة واقتدار، السيد الأفغاني، في جمعه بين الاصلاح الديني والسياسي معا، واستمراره في الجهاد على طريقهما مدّة حياته. ويرى بعض الباحثين أن الخطتين متكاملتان في النهوض بالأمم[3]. ومهما يكون من أمر هذه الحركة فقد كانت لها آثارها البعيدة في يقظة شعوب هذه الأمة العربية الاسلامية فهبّت تحت الخطى على طريق بناء ذاتها وتحرير أوطانها من السيطرة الأجنبية.

* * * * *

وكان للجزائر من ذلك نصيبها.. الا أنها كانت قد عرفت قبل هذا التاريخ بعض الأفكار الاصلاحية التي نادى بها بعض علمائها، منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي، بدعوتهم الى الاجتهاد وتحرير العقل، ونبذ التقليد، والافادة من المدنية الحديثة، مما يدخل في صميم ما دعت اليه النهضة الاسلامية الحديثة[4]. وان أبرز من يمكن

---

(1) ينظر محمد رشيد رضا (تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده) ج 1: 974.
(2) ينظر أحمد أمين (زعماء الاصلاح) ص 23.
(3) ينظر عباس محمود العقاد (محمد عبده) ص 137 سلسلة (اعلام العرب).
(4) الدكتور أبو القاسم سعد الله (منطلقات فكرية) ص 65 وما بعدها.

أن يمثل هذا الاتجاه في هذه الفترة المذكورة، نفر من المصلحين نذكر من بينهم : العالم (عبدالكريم بن محمد بن الفقون)القسنطيني)[1] (988 ــ 1073هـ) صاحب كتاب : (منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية). والعالم (أحمد بن عمّار)[2] صاحب كتاب : (نحلة اللّبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب). وبالرغم من وقوع الجزائر ابتداء من سنة (1830 م / 1246 هـ) ، تحت نكبة الاحتلال الفرنسي ، وما ترتب عنه من فقدان السيادة الوطنية، ومحاولة ايقاف كل نشاط يعبّر عنها ، فان المحتلين لن يستطيعوا أن يوقفوا كلية ، حركة ذلك النشاط، ذلك أن الجزائريين حاولوا أن يسموا فوق آثار تلك المحنة ، كما عملوا في الوقت ذاته على الاستفادة من احتكاكهم بهذه التجربة الغربية التي كانوا أسبق اليها من غيرهم بالصورة التي كانت عليها ، فساعدهم ذلك على الاستمرار في القيام بدورهم في ميدان الاصلاح بالدوافع والغايات نفسها ، التي انطلق منها في ذلك الوقت زعماء هذه الحركة في الشرق الاسلامي . ونذكر من بين الجزائريين الذين ظهروا في أعقاب وقوع الاحتلال العالم (محمد بن محمود بن محمد بن حسين) الشهير بـ (ابن العنابي) (1775 ــ 1851 م) صاحب كتاب (السعي المحمود في نظام الجنود)[3] . والمفكر (حمدان بن عثمان خوجة الجزائري) (1775ــ 1845 م) صاحب كتاب (المرآة)[4]. ولعلّ خير من يمثل هذه الاستمرارية بوجهيها : الوطني والقومي ، من بعد هؤلاء المصلحين هو : (الأمير عبدالقادر الجزائري) (1807 ــ 1883 م)[5] الذى ظهر على رأس المقاومة الجزائرية منذ الاحتلال الفرنسي ، تغذى عزيمة الجهاد في وجدانه ، تلك الروح الدينية المتأصلة في أعماقه ، وتذكي لهيب

---

(1) ينظر ترجمته في (تعريف الخلف برجال السلف) ج 1 : 166 . أبوالقاسم محمد الحفناوى . و ــ ابن باديس (جريدة السنة) السنة الأولى العدد الرابع ، فاتح ماى سنة 1933 . و ــ الدكتور أبو القاسم سعدالله (تاريخ الجزائرى الثقافي) ج 1 : 407، و ــ (المهدى البوعبدلي) الأصالة ، العدد 51 ذوالقعدة 1397هـ /نوفمبر 1977م

(2) ينظر ترجمته في(تعريف الخلف برجال السلف)ج 2 : 89، أبوالقاسم محمد الحفناوى . ويميل الدكتور سعدالله الى أن ولادته كانت بالعاصمة حوالي سنة 1119 هـ . أما وفاته فيقول : انها كانت بالحجاز دون أن يحدد تاريخها . ينظر تاريخ الجزائر الثقافي) ج 2 : 234 ــ 233 .

(3) ينظر أبو القاسم سعدالله (ابن العنابي رائد التجديد الاسلامي) تاريخ الجزائر الثقافي) ج 1: 460 .

(4) ينظر أبوالقاسم سعدالله (منطلقات فكرية) ص74 . وينظر ترجمته في كتابه (المرآة) ترجمة د . محمد بن عبدالكريم .

(5) ينظر ترجمته في تعريف الخلف برجال السلف) ج 2 : 163 ومابعدها . ابوالقاسم محمد الحفناوى .

الثورة في نفسه الشهامة الوطنية . فاستطاع بذلك أن يجمع ما بين التصدي للغزو الصليبي الفرنسي ، وبين محاولته لتجديد الفكر الاسلامي ، فاستحق بذلك أن يعد من بين رواد النهضة العربية الاسلامية[1] . كما ذهب بعض الباحثين الى اعتبار المقاومة الجزائرية للاحتلال الأجنبي ، بقيادته ، من بين خمس ثورات تحررية ظهرت في الوطن العربي الاسلامي في القرن التاسع عشر الميلادي[2] . ويمكن أن يعد الأمير عبد القادر بتلك الخاصية النضالية العقائدية من نحو آخر ، النموذج المبكر في تاريخ الفكر الجزائري الحديث الذي يجسد بكل قوة ذلك التلاحم المتين ، ما بين الدين والوطن[3] ، هذه الرابطة التي سيتأكد تماسك طرفيها بمرور الأيام ، وسيكون لذلك أثره الفعّال في مستقبل الكفاح الجزائري ، لأن الاسلام بوصفه ثورة على جميع أشكال الظلم والاستغلال الانساني ، ظلّ يعزّز هذه الروح الوطنية لدى الجزائريين ، ويحرص على تعميقها في نفوسهم ، وتوجيهها وجهة الثورة والجهاد . وبهذه الروح الدينية القومية نفسها تعاقبت جميع الثورات الوطنية[4] التي كان الاسلام يشكل في جميع أطوارها الشعلة التي ما برحت تقاوم جحافل الظلام وتنير الدروب أمام قوافل المجاهدين ، وتدفعهم بقوة ، الى البذل والاستشهاد ، ذودا عن العقيدة والوطن[5] .

وقد أدرك الغزاة الفرنسيون في وقت مبكر فعالية هذه العقيدة وأثرها في تنظيم وتوجيه جهاد الشعب الجزائري ضدهم ، فحملهم ذلك على

(1) ينظر (ابن باديس حياته وآثاره) ج 1 : 16 ومابعدها ، اعداد الدكتور عمار الطالبي .
ويظر (حياة الأمير عبد القادر) للكاتب شارل هنري تشرشل . تـ : سعد الله . مقدمة المترجم ص 22 ـ و (منطلقات فكرية) ص 190 للمترجم نفسه .

(2) ينظر د . ممدوح حقي (مقدمته) لكتاب (تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر) ص (ج)

(3) كان الأمير عبد القادر قد بويع كقائد للمقاومة ، ولقب على اثر ذلك بلقب (ناصر الدين) . ينظر ديوان (محمد العيد آل خليفة) ص 507 . وينظر المصدر السابق ج 1 : 156 .

(4) نذكر من بين هذه الثورات : ثورة الزعاطشة بقيادة (أبي زيان) بناحية بسكرة سنة 1852م . وثورة الأوراس سنة 1853م . وثورة أولاد سيدي الشيخ بالبيض بالغرب الجزائري سنة 1864م . وثورة المقراني سنة 1871م . وثورة الشيخ بوعمامة سنة 1881م . ينظر أحمد توفيق المدني (هذه هي الجزائر) ص 151 .

(5) فرحات عباس (ليل الاستعمار) ص 160 .

محاربة الدين الاسلامي ، مما أضفى على عملهم طابع الغزو العقائدى الحضارى، الذى يمكن اعتباره امتدادا لما كان بين الحضارة الاسلامية والحضارة المسيحية من صراع منذ القرون الوسطى . وقد استهدف أولئك المحتلون تجريد الشعب الجزائرى من أقوى ما يملك من أسباب الحياة والمنعة ، والحيلولة بينه وبين ما يشدّه بقيمه وحضارته ، حتى لم يعد يقوى بذلك على القيام بأى شكل من أشكال المقاومة . الا أن الشعب الجزائرى لم يقف مكتوف الأيدى أمام تلك المحاولات ، وانما قام يتحدّاها ويرد عنها . مما انتج عنه صراع مرير بينه وبين المحتلّين ، كما سيتجلّى لنا ذلك في الفقرات التالية . .

* * * * * * *

لقد عمد المحتلّون في تنفيذ سياستهم تلك التي استهدفت النيل من الشخصية الجزائرية ، على جملة من الأساليب المختلفة ، جمعوا فيها ما بين الارهاب والسلب والتزوير . فاستولوا بذلك على مقدرات الشعب الجزائرى الاقتصادية ، واغتصبوا أخصب أراضيه وأعزّ ممتلكاته ، فجردوه بذلك من قواه المادية ، ثم اتجهوا الى محاربته من الداخل بهدف تحطيم أسس بنائه المعنوى بالنيل من قيمه ومقومات شخصيته ، وقاموا لتحقيق أهدافهم تلك ، بالاستيلاء على مؤسساته الدينية والتعليمية والاجتماعية ، وضمّ أملاك الأوقاف التي كانت تمولها (1) ، وتوجيه بعض هذه المؤسسات نحو ما يخدم أغراضهم في تشويه الاسلام ونشر المسيحية وتحويل بعضها الآخر الى مستودعات ومستشفيات وكنائس ، كما فعلوا بمسجد "كتشاوة" بالعاصمة الذى أصبح منذ الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة 1832 م "كتدرالية الجزائر"(2) . كما قام المحتلّون من جهة أخرى ، بمطاردة العلماء ، وتضييق الخناق في وجه الثقافة القومية ، ومحاولة تشويه قيمها وتراثها ، والقضاء على أداتها اللغة العربية ، عاملين في الوقت نفسه على نشر ثقافتهم ، والتمكين للغتهم ، وتوجيه الناس رغبة ورهبة الى

(1) ينظر د . أبو القاسم سعدالله (المدارس الثقافية العربية في المغرب العربي) مجلة الثقافة للسنة 14 العدد 79 (يناير ـ فبراير) 1984م . ص 59 .

(2) ينظر مسعود مجاهد الجزائرى (تاريخ الجزائر) ص 437 .

معارفها ، خدمة لأغراض الاستيلاب الحضاري لكيان الشعب الجزائري ، وهذا ما يؤكده أحد الفرنسيين بقوله : "انه لمن الأهمية بمكان أن نثبت في أذهان الأهالي فكرة رفيعة ونقية عن وطننا ، وذلك بتلقين التلاميذ دروسا عن عظمة فرنسا وجيشها وثرواتها "(1).

وكان الاحتلال يصدر في سياسته هذه ، ضد الشخصية الجزائرية عن الروح الصليبية التي صدر عنها الغزو الفرنسي نفسه ، فقد قام "شارل العاشر" (Cahrles X) (1757 — 1830) باحتلال الجزائر ليكسب عطف الكنيسة. وقد كشف عن هذه النوايا ، وهو يمهد لذلك في خطاب العرش الذى ألقاه يوم (الثاني) من مارس سنة 1830 م ، وجاء فيه قوله : "ان العمل الذى سأقوم به لترضية شرف فرنسا ، سيكون باعانة العليّ القدير لفائدة المسيحية جمعاء ".(2)

وأكد هذه النوايا في أعقاب الاحتلال مباشرة أحد مساعدى "الماريشال بيجو" (Le Marechal Bigeaud) (1784-1849) بقوله : " ان آخر أيام الاسلام قد دنت ، وفي حدود عشرين عاما لن يكون للجزائر من إله ، غير المسيح "(3). وهذه الروح الصليبية هي التي كانت الباعث القوى على اقامة ذلك التحالف ما بين المحتل والكنيسة ضد الاسلام ، منذ الأيام الأولى للغزو . فقد استطاع المحتل أن يسخر الكنيسة لهذه المهمة ، فما كان ... الا أن ... له عن اخلاصها بالقيام بها على أحسن وجه ، وذلك لأن فرنسا قد جاءت (بالراهب "الاستعمارى " لتفسد على المسلمين دينهم وتفتنهم به عن عقائدهم وتشككهم بتثليثه في توحيدهم) (4).

وفي هذا الاتجاه بدأت حركة تنصير الشعب الجزائرى مع بداية الاحتلال ، ثم أخذت هذه العملية صورة منظمة في عهد القديس " لافيجرى "(5) (Lavigerie 1825 — 1892) ، وقد حلّ هذا القديس بالجزائر لهذه الغاية في الخامس

---

(1) ينظر أبو الجعدى (الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا) ص 134 .
(2) ينظر أحمد توفيق المدني (هذه هي الجزائر) ص 73 .
(3) ينظر مسعود مجاهد الجزائرى (تاريخ الجزائر) ص 438 ومابعدها .
(4) محمد البشير الابراهيمي (عيون البصائر) ص 33 .
(5) ينظر سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1935 م ، ص 72 .

عشر من شهر ماى سنة 1867 م ، وألف جماعة من (الآباء البيض) لفتنة المسلمين عن دينهم باستخدام شتى الوسائل ، وقد كتب الى الرهبان الذين سبقوه الى الجزائر يقول لهم "سآتيكم اخواني الأعزاء في ساعة مشهورة ، في تاريخ افريقيا المسيحية ، الكنيسة وفرنسا متحدتان ، لاحياء أمجاد الماضي ، اني سميت لتحقيق الفتح محكم ولجعل الأرض الجزائرية مهدا لأمة عظيمة سخية مسيحية ، فرنسا أخرى "(1) ويوضح "لافيجرى" هذه المهمة التي كلف بها من طرف المحتل لمساعدته على تحقيق أهدافه في النيل من العقيدة الاسلامية واضعاف أثرها في حياة الشعب الجزائرى ، في رسالة أخرى وجهها الى الادارة الفرنسية يقول فيها "علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه ، وعلينا أن نعتني على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادئ غير المبادئ التي شبّ عليها أجدادهم ، فان واجب فرنسا تعليمهم الانجيل "(2).

ويمضي هذا القديس ومن ورائه عصابات الرهبان لتحقيق هذه المهمة اللاانسانية التي أناطها الاحتلال بأعناقهم مستغلين ما أصبح يعيش عليه الشعب الجزائرى بعد الاحتلال من ظروف اجتماعية واقتصادية سيئة ، وراحوا يجوبون أطراف البلاد لاغراء ضحايا الغزو من المرضى والعجزة والأيتام ، وحملهم على الدخول في المسيحية ، كشرط لانقاذهم من الموت .(3)

ونكتفي بهذه الصورة السريعة ، عن محاولات الاحتلال الفرنسي ، للنيل من العقيدة الاسلامية في الجزائر . ونود أن ننتقل منها الى معرفة شيء عن موقف الشعب الجزائرى من ذلك الغزو الصليبي الحضارى .

لقد ظل الصراع المسلّح بين الجزائر والاحتلال الفرنسي على أشده الى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، وما يكاد يطل القرن الحالي حتى استنفد الشعب الجزائرى أمام ذلك التفوق المادى الكبير معظم جهوده

---

(1) ينظر د . الحبيب الجنحاني مجلة الأصالة الجزائرية للسنة 13 العدد 16 : (سبتمبر — اكتوبرة 1973 . (ص 29 — 30) .
(2) ينظر مسعود مجاهد الجزائرى (تاريخ الجزائر) ص 433 .
(3) ينظر أحمد توفيق المدني (كتاب الجزائر) ص 61 .

المادية في ردّ تلك الهجمة الصليبية الشرسة، فاضطرّ الى المناورة، ولكنه لم يضطر الى الاستسلام والرضوخ، وصادف ذلك أن بدأ يستعيد بعض نشاطه الفكري، على اثر اتصاله بحركة النهضة الاسلامية الحديثة. فحاول أن يوظف ذلك في اعادة بناء الذات الوطنية، ماديا ومعنويا، في اطار مقوماتها الخاصة، ومضى الشعب الجزائري يحقق وجوده في هذا الميدان بأشكال مختلفة: في حلقة درس، يصحح به العقيدة وينير البصائر، وينبه الى مواطن الداء، ويصف الدواء، وفي خطبة أو قصيدة يصدع بها فكر مصلح أو تنبثق بها قريحة أديب شاعر، أوفي صورة مقال يشحذ الهمم على اليقظة، ويرسم الطريق الى النهضة.

وتمثل جهود بعض العلماء فيما بين أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن الحالي، من أمثال الشيخ (صالح بن مهنّا)(1) والشيخ (عبدالقادر المجّاوي)(2) والشيخ (عبدالحليم بن سماية)(3) والشيخ (محمد المولود بن الموهوب)(4) وغيرهم، تمثل جهود هؤلاء العلماء اللّبنات الاُولى على طريق النهضة بما كانوا يسهمون به — مع قلة ذات اليد — وقساوة الظروف المحيطة بهم، في اصلاح العقيدة الدينية ودعوة الشعب الى المحافظة على مقومات شخصيته، وتوجيه أنظاره الى الاُخذ بأسباب العلم والافادة من وجود المدنية الحديثة. فقد كان عملهم لذلك (عملا شريفا صالحا، لاُنهم مهدوا السبيل لاُخلافهم، فلولا جهودهم وسعيهم لما وجد الاُمير (خالد) بعد الحرب الاُولى من الشعب الجزائري عضادة ولا نصرا، ولا وجد الشيخ (عبدالحميد بن باديس) في نفس ذلك الوقت، عقولا مهيأة لفهم دعوته البعيدة المرامي، وادراك جهاده في سبيل تحرير هذا البلد العربي الاسلامي)(5).

---

(1) عالم جزائري أزهري، تأثر بالاُفكار الاصلاحية الحديثة، وكانت له مواقف ضد الطرقيين. توفي سنة 1325 هـ.

(2) ولد بتلمسان سنة 1848 م. تولى التدريس والقضاء. توفي بقسنطينة سنة 1914م. له بعض الآثار المطبوعة.

(3) ولد سنة 1866م، درس بمصر، عمل في التدريس بالمدرسة الثعالبية بالجزائر العاصمة، توفي سنة 1931م.

(4) ولد سنة 1866م، عالم وشاعر، شغل منصب الافتاء بقسنطينة، من آثاره الشعرية قصيدته (المنصفة) توفي سنة 1939م. ينظر د. أبو القاسم سعدالله، الحركة الوطنية الجزائرية ج 2: 175 وما بعدها.

(5) سعدالدين بن شنب (مجلة كلية الآداب)، جامعة الجزائر، العدد الاُول سنة 1964 ص 56. وينظر (سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ص 49.

ويتحول هذا العمل الوطني في أعقاب الحرب العالمية الأولى ـ وقد كان يكون كما عرفنا همسا قبلها ـ الى يقظة عامة ، والى أصوات ترتفع هنا وهناك ، فيسمع لها صدى من بعيد ، وكان أعلى هذه الأصوات وأكثرها استجابة واهتزازا في نفوس الجزائريين هو صوت الأمير (خالد)(1) وهو يجهر بالحق الوطني ، ويدعو الشعب الى جمع الشمل للمطالبة به . فكان لعمله ذاك ، الذى يقوم على المزج ما بين الدين والوطنية(2) أن أيقظ الشعور الوطني وأحيا الأمل في النفوس ودفعها على طريق الجهاد والتحرير ، فعد عمله بحق النواة الحقيقية للحركة الوطنية الجادة التي هزت المحتل(3) فأسرع الى وأدها في المهد وتوقيف صاحبها واخراجه من بلاده ، فمات منفيّا بالشام سنة 1936 م .

وتصادف بداية العشرينات من هذا القرن عودة بعض العلماء الجزائريين المقيمين بالحجاز الى الجزائر(4) . فضموا جهودهم الى جهود اخوانهم ، وقد هزت وجدانهم جميعا مأساة شعبهم ، وما يتخبط فيه من فساد اجتماعي وتدهور أخلاقي ، فعقدوا العزم على تخليصه من تلك الأدواء ، بالعمل على درء ما تصدع من بنائه الحضارى ، وما اختل من قيمه ، ونظمه الاجتماعية ، متأثرين في ذلك بأفكار النهضة الاسلامية الحديثة . وبدأت على اثر ذلك تظهر بعض الجهود الفردية في مدن الجزائرية(5) ، تنادى بالنهضة وتدعو الى الاصلاح ، وما لبثت أن تجمعت وتظافرت لتلتقي في النهاية ـ في أعقاب احتفال فرنسا في بداية الثلاثينات بالذكرى المئوية لاحتلالها الجزائر ـ في حركة وطنية قوية كانت تعمل بجميع تنظيماتها(6) .

---

(1) الأمير خالد بن الأمير الهاشمي بن الأمير عبد القادر ـ ولد بدمشق سنة 1875م ثم جاء الى الجزائر وتعلم بها . ودخل معترك السياسة فنفي سنة 1925 الى دمشق ، وبها توفي في : 9 جانفي 1936 م . ينظر ترجمته في (الاصلاح الاسلامي في الجزائر) .

(2) ينظر د . أبو القاسم سعد الله (الحركة الوطنية الجزائرية) ج 2 : 411 .

(3) ينظر شارل أندرى جوليان (افريقيا الشمالية تسير) ص 133 . تـ . (المنجلي سليم ومحمد عزالي) .

(4) ينظر (سجل مؤتمر جمعية العلماء) ص 49 .

(5) فقد تمركز (ابن باديس) في قسنطينة ، و (العقبي) في بسكرة ، و(الابراهيمي) في سطيف . ينظر علي مراد (الاصلاح الاسلامي في الجزائر) ص 13 .

(6) من أهم هذه التنظيمات الى جانب جمعية العلماء ، (حزب نجم شمال افريقيا) الذى تأسس بفرنسا في شهر مارس 1926 .

على توحيد الامكانيات الوطنية وتوجيهها نحو الحرية والاستقلال . وكان من أقرب هذه الحركات الى النفوس، وأدخلها في القلوب، وأشدها أثرا في يقظة الشعور الوطني والوعي الديني ، (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) [1] التي برزت على الساحة في أعقاب هذه الذكرى [2] وهي تحمل على عاتقها رسالة النهوض بالشعب الجزائري، والعمل على احياء شخصيته واصلاح عقيدته، وربطه بكيانه القومي، وتوثيق صلاته بنهضة أمته العربية الاسلامية [3]. فكانت بذلك البرهان الحيّ على أصالة الشعب الجزائري والردّ الحاسم على تسفيه أحلام المحتلّين الذين توهّموا أنهم بعد قرن كامل من المواجهة الحضارية للشعب الجزائري، قد استطاعوا أن يصلوا الى أهدافهم، في تخريبه وفصله عن عروبته واسلامه . وانطلقت هذه الجمعية تقود الشعب في طريق الاصلاح الديني والاجتماعي، وتنهض به لاحياء ما انطمس من معالم شخصيته، ممثلة في العروبة والاسلام : عقيدة، ولغة، وأمجادا، وحاضرا، هذه المقومات الأساسية في بناء الشخصية الجزائرية التي تتكامل وتمتزج لتكون مزيجا واحدا في نظر الجزائريين الذين لا يفرقون بين مفهوم العروبة كقومية، وبين مفهوم الاسلام كدين . وانما يرون فيهما شيئا واحدا هو الدين وهو القومية بآن . ولذا فهم لا يتصورون أن تكون لهم شخصية، لا يكون الاسلام والعروبة فيها، من أهم مكوناتها، كما لا يتصورون لهم كيانا يكون مفصولا عن كيان الأمة العربية الاسلامية . وهذا ما يؤكده الشيخ ابن باديس بقوله (انما عرب مئة في المئة، ومسلمون مئة في المئة، لا نتنازل على شيء من ذلك) [4].

ويشير محمد البشير الابراهيمي الى مثل ذلك وهو يتحدث عن رسالة جمعية العلماء التي قال عنها انها " تعلم الدين والعربية لأنهما شيئان متلازمان وتدعو اليهما وترغب فيهما " [5].

---

(1) ينظر شارل أندري جوليان (افريقيا الشمالية تسير) ص 127 . مالك بن نبي (شروط النهضة) ص 32 .

(2) تأسست في : 17 ذي الحجة 1349 هـ / 5 ماي 1931م .

(3) ينظر الشيخ البشير الابراهيمي (سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ص 77 .

(4) ينظر د . أبو القاسم سعد الله (منطلقات فكرية) ص 136 .

(5) ينظر (سجل مؤتمر جمعية العلماء —) ص 77 .

فالنسبة واحدة والتلازم ضروري في ذهن الجزائريين كما يستفاد من هذين القولين ما بين العروبة والاسلام في تكوين الشخصية الجزائرية .والجزائريون اذ يحرصون على اعتبار الاسلام الى جانب العروبة عنصرا أساسيا في بناء شخصيتهم ، انما يرمون بذلك الى الابقاء على هذا الكيان الصغير (الجزائر) مشدودا الى ذلك الكيان الكبير (الأمة العربية الاسلامية) الذي كان له طوال أيام المحنة ، الحصن الذي حفظه من أعاصير الغزو الحضاري ، ومن محاولات الاستيلاب والذوبان ، فساعد ذلك الجزائر على أن تجتاز الأسوار المحيطة بها ، وتبلغ الى ما تصبو اليه من أهداف فتشد من صلتها بصلات أمتها ، وتمضي تخلد مآثرها ، وتعيش قضاياها وأحداثها ، وتمكن لعوامل وحدتها ودعائم عزتها . وعلى هذه القاعدة أقامت (جمعية العلماء) أساس عملها في النهوض بالوطن ، متخذة من العروبة والاسلام شعارا لدعوتها ، مدركة وهي في بداية الطريق أن النهضة الدينية الاجتماعية هي أساس كل نهضة ناجحة .

وانطلقت جمعية العلماء من هذه الأسس تعمل على احياء المجتمع الجزائري واعادة بنائه من جديد ، وتوجيهه وفق منهج العقيدة الاسلامية، موقنة أن هذه هي الوسيلة [illegible] التي تستطيع أن توقظ بها ضمير [illegible] من ثم الى وعي ذاته والمحافظة عليها وال[illegible] على تحريرها ، فبدأت لذلك دعوتها من الانسان باعادة بنائه من الداخل بتكوينه نفسيا وعقليا ، وتصحيح مفهومه للعقيدة والحياة والكون من حوله ، وبيان دوره فيها ، حتى يعي ذاته ويميزها عن ذوات الآخرين فيحدده ذلك الاستقلال الشخصي الى الاستقلال السياسي . لأن الاصلاح الحقيقي الناجع هو ذاك الذي ينطلق من النفس الانسانية مصداقا لقوله تعالى : " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (1) .

وانطلقت من هذا الايمان تدعو الى " صحة العقيدة ، واستنارة الفكر، وطهارة النفس وكمال الخلق ، واستقامة العمل "(1) وذلك بالرجوع بالاسلام

---

(1) سورة الرعد ، الآية : 11 .

(2) ابن باديس (الشهاب) ج 1/م12 محرم افريل (1355 هـ — 1936 م) ص 1 .

ينابيعه الأولى وتعاليمه الصحيحة ، انطلاقا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وهدى السلف الصالح ، مجتهدة في الحرص على احياء تلك الأصول في العقول ، وفي السلوك ، ساعية الى تصفيتها مما يكون قد شابها من ترويج وضلالات ، مؤكدة في الوقت نفسه قدرة الاسلام على تقبل الحضارة الحديثة ، ومسايرة التطور ، لما يشتمل عليه الى جانب قواه الروحية ، من مبادئ اجتماعية وانسانية ، حاثة على الاقبال على الحياة وطلب المجد فيها ، والسعي في كسب العلم والعمل به ، وما الى ذلك من القيم والمثل التي ساد بها المسلمون العالم في عهدهم الأول ، وتخلفوا بتخليهم عنها ، عن الاستمرار في النهوض بدورهم الحضاري المشهود (1) وكان على هذه الجمعية وهي تحمل على عاتقها أمانة النهوض بالوطن واحياء مقومات شخصيته ، أن تتحرك الى جانب نشرها لتعاليم الاسلام الصحيحة ، في محور آخر هو محور الدعوة الى تحريره من السيطرة الأجنبية ، والدفاع عنه في وجه تلك الحملات المغرضة التي استهدفت النيل من جوهره .

وتحقيقا لذلك قامت الجمعية بالمطالبة بفصل الدين عن الحكومة الفرنسية التي كانت قد أصدرت قانونا بهذا الشأن في فرنسا سنة 1905 م، ثم أصدرت قانونا مماثلا في الجزائر سنة 1907 م . الا أنه لم يطبق الا على النصارى واليهود ، دون الجزائريين (2) . كما جاهد قادة الاصلاح جهادا مستميتا ، من أجل تسليم المؤسسات الدينية الى أهلها الشرعيين ، واعادة أوقافها المغتصبة اليها ، واستقلال القضاء الاسلامي (3) . وأدركوا من جهة أخرى تلك العلاقة التي تربط ما بين قوات الاحتلال ، ورجال الكنيسة، وتكشف عن مدى تواطئهما معا ، ضد الاسلام والمسلمين ، فتصدوا لهذا التحالف يردون كيده ، ويعملون على احباطه ، وينشرون في الوقت نفسه الوعي الاسلامي بين صفوف الأمة . مما خيّب أمل المحتلين في الكنيسة، بالرغم من وفرة الامكانيات المادية والمعنوية التي وضعوها تحت تصرفها ، وكيف ذلك ؟

---

(1) ينظر (القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين والمبادئ الاصلاحية)
(2) د . أبو القاسم سعد الله — (الحركة الوطنية الجزائرية) ج 2 : 125 3 الشيخ البشير الابراهيمي (عيون البصائر) ص 55 وما بعدها .
(3) ينظر . محمد البشير الابراهيمي — (عيون البصائر) ص 273 .

وهم يرون أن الشعب الجزائري ظل كأشد مايكون عليه ، صلابة في تمسكه بعقيدته ، ومحافظته على شخصيته ، مما دفع المحتلّين الى التحرك في اتجاه جديد ، بحثا عن أسلوب آخر ، يكون أشد كيدا من أساليب الكنيسة ، فيستطيعون بذلك تحقيق أحلامهم في احراز نصر قريب على الاسلام في هذه الديار .

وتحرك في هذا الاتجاه بعض المستشرقين ، بايعاز من السلطات الفرنسية ، يستغلون العلم ، ويتسترون وراءه ، لخدمة أغراض لا انسانية ، بشنّهم حملات ماكرة ضد الاسلام ، استهدفت تجريده من القوى الروحية الصحيحة ، ومن المقاصد الاجتماعية والانسانية التي هي جوهر رسالته ، وايهام المسلمين أن قرآنهم هو علة تأخرهم لتناقضه — على حدّ زعمهم — مع متطلبات المدنية الحديثة ، وغير ذلك من أساليب التزوير والتشويه التي لم تستهدف أبعد من تزهيد الجزائريين في عقيدتهم ، واضعاف أثرها في نفوسهم ، ليسهل بذلك سلخهم من تراثهم وحضارتهم . ويدخل في هذا الاطار ما كتبه الفرنسي (سيرفي)(1).

ولعل المستوطن الفرنسي (روبير أشيل) (Robert Achill) يكون من أبرز من انتدب لهذه الحملة بكتابته سلسلة من المقالات في جريدة (البرق) القسنطينية ، شوّه فيها حقائق الاسلام وطعن في كتابه القرآن الكريم .

فما كان من الامام (ابن باديس) الا أن تصدّى لهذا الطاعن على الاسلام في سلسلة من المقالات نشرها بالشهاب(2)، فنّد فيها مزاعمه ودحض أباطيله ، وأبان عن جوهر الدين الاسلامي ، وقرآنه المعجز العظيم الذي جاء به من عند ربه محمد صلى اللّه عليه وسلّم رحمة للعالمين ، وفوزا بالسعادة في الدارين لكل المؤمنين المخلصين . وقد هزت دعاوى هذا المفترى وجدان الشاعر (محمد العيد) فنظم قصيدة ردّ فيها على بهتانه سنعرض لها في مكانها .

* * * * * *

---

(1) كان رئيسا لتحرير جريدة (البرق) القسنطينية . ينظر د. أبو القاسم سعد الله (الحركة الوطنية الجزائرية) ج 2 : 182 .

وكان للاحتلال مواجهة أخرى ضد مقومات الشخصية الجزائرية لم يعمد فيها الى أساليبه القديمة المتمثلة في التزوير أو التشويه ، وانما سلك فيها مسلكا آخر يقوم على الضغوط والمساومة ، وتمثل ذلك بالهائه الشعب الجزائري بواجهة الحقوق المزيفة المدسوسة . وحرص على أن يضفي على عمله هذا طابعا يظهره بمظهر القانون ، حتى يموّه بذلك عما يتوخّاه من أهداف حقيقية . ويدخل في هذا المضمار ماكان يظهر من تشريعات في أوقات متفاوتة ، من مثل القانون الذى أصدره مجلس الشيوخ الفرنسي سنة 1865م ، والذى يحاول أن يضع الجزائريين أمام خيارين لا ثالث لهما : فاما أن يختاروا التجنيس بالجنسية الفرنسية ، مع الخضوع للقانون الفرنسي ، والتخلّي عن أحكام الشريعة الاسلامية ، واما أن يبقوا على حالة الأهلية التي تعني الحرمان والبؤس ، ان رفضوا التنازل عن أحكام دينهم . وشبيه بذلك (قانون الانتخابات) الذى صدر في (4/2/1919 م) في عهد ولاية الوالي العام (جونار)[1] الثانية[2] ، ومشروع (موريس فيوليت) الذى ظهر في العشرينات أيام توليه الولاية العامة بالجزائر[3] .

وقد كانت هذه البرامج جميعها ترمي الى هدف واحد هو النيل من الشخصية الجزائرية بأشكال مختلفة . ولعل من أبعدها خطرا في هذا الباب [illegible] يروج [illegible] لأفكار الادماج والتفرنس ، التي ترمي الى تذويب كيان الشعب الجزائري [illegible]

وكان المحتل بهذه الأساليب المختلفة يظن أنه قد يضع الجزائريين في موقف صعب قد يؤدّى بهم الى التردّد ، ومن ثم الى التخلّي

---

(1) شارل جونار (1857 ـ 1927) [illegible] على الجزائر مرتين . كانت الأولى مابين (1903 ـ 1911) . ووقعت الثانية مابين (1918 ـ 1921) . ينظر ، علي مراد (الاصلاح الاسلامي في الجزائر) ص، 43 .

(2) ينظر ، د . أبو القاسم سعد الله ـ (منطلقات فكرية) ص 126 . علي مراد (الاصلاح الاسلامي في الجزائر) ص، 44 .

(3) كان حاكما عاما على الجزائر سنة 1925 ، وينتمي الى الحزب الاشتراكي الفرنسي ، وترأس لجنة من مجلس الشيوخ الفرنسي سنة 1931 للتحقيق في الأوضاع في الجزائر . [illegible]
ينظر د . صالح خرفي (المدخل الى الأدب الجزائري الحديث) ص 9 . و (د . أبو القاسم سعد الله (الحركة الوطنية الجزائرية) ج 3 : 18 وما بعدها .

عن عقيدتهم ، فتصيب بذلك سهامه أهدافها في الصميم . بيد أن الذي حدث ، كان على غير تلك التوقعات ، وذلك لأن الجزائريين في معظمهم لم يدخلوا ذلك الرهان البتة ، لأنهم كانوا قد اختاروا طريقهم منذ أمد بعيد ، يرجع ذلك الى الأيام الأولى لاصطدامهم بالاحتلال ، حينما أعلنوا محافظتهم على عقيدتهم وشخصيتهم ، ورفضهم كل بديل قد يدفعهم الى التنازل عن أي مقوم من مقوماتها ، ولو كلفهم ذلك ما كلفهم ، من ضروب العنت ، وصنوف الحرمان . ويستثنى من ذلك ما لقيت هذه الأفكار من حظوة لدى بعض المعجبين بالحضارة الفرنسية ، ممن تغربوا بثقافتهم وأفكارهم ، فضعف وعيهم بشخصيتهم ، ووهنت في نفوسهم الصلة التي تربطهم بحضارة أمتهم ، فانطلت عليهم خطورة تلك المكيدة فانساقوا وراءها[1]، الا أنهم كانوا من حسن الحظ ، لا يمثلون الا فئة قليلة ، تعيش بهذه الأفكار ، غريبة عن مطامح الأمة ، معزولة عن أماني الجماهير ، أما السواد الأعظم من أفراد الشعب الجزائري فلم ينخدع بتلك المحاولات ، ووقفت قواه الواعية بقيادة رجاله المخلصين ، مواقف صلبة وواضحة ، كشفوا فيها له عن خطورة تلك الأفكار الهدامة ، وحذروه من مغبة الانخداع بها ، مما كان له أثره البالغ في تعميق وعيه بشخصيته ، وتدعيم اصراره على التمسك بها والمحافظة عليها ، ورفضه كل محاولة تبغي به تحويلا عنها . وكان من أبرز تلك المواقف يومئذ ، تعبيرا عن ارادة الشعب الجزائري ، وأشدها أثرا في افشال ما يدبر له من مكائد ، ما قام به الامام ابن باديس باصداره فتوى ضد التجنيس[2] ، ولم يقتصر دوره في هذا المجال على ذلك فحسب ، وانما تصدى لتلك الدعاوى يندد بها ، مؤكدا (أن هذه الأمة الجزائرية الاسلامية ليست هي فرنسا . ولا تريد أن تصير فرنسا . ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها ، وفي أخلاقها وفي عنصرها ، وفي دينها ، لا تريد أن تندمج)[3].

---

(1) ينظر د . أبو القاسم سعد الله (الحركة الوطنية الجزائرية) ج 3: 13 .
(2) ينظر شارل أندري جوليان (افريقيا الشمالية تسير) ص ، 135 .
(3) ينظر (الشهاب) ج 1 / م12 (محرم 1355 هـ — أبريل 1936) ص، 44 .

ومما يخلد مواقف هذا المصلح من آثاره الشعرية في هذا المضمار، أنشودته التي هزّ بها الوجدان الوطني، وهو يؤكد فيها عروبة الجزائر واسلامها، ويندد فيها بكل المحاولات الرامية الى النيل من شخصيتها. يقول في هذه الأنشودة :

شعب الجزائر مسلم ... والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أوقال مات فقد كذب
أورام ادماجا له ... رام المحال من الطلب. (1)

وقد وقف الشيخ (مبارك الميلي) مثل هذا الموقف من محاولات الادماج(2).

* * * * * *

واضطر المحتل بعد فشله في محاولاته العديدة التي استهدفت النيل من كيان الشعب الجزائرى، الى التفكير في استخدام وسائل أخرى قد تكون أكثر جدوى لمراميه، فانتهى به البحث الى التحالف مع نفر ممن ينتسبون الى بعض الطرق الصوفية المزيفة، ممن يحسبون أنفسهم على الاسلام، والاسلام منهم براء.

ولا يخفى أن ظهور هذه الطرق عموما، في العالم الاسلامي، انما يرجع الى تلك النقلة التي شهدها التصوف في العصور المتأخرة، بتحوله من تصوف يقوم على الاخلاص في العبادة ابتغاء مرضاة الله، والاقبال على طلب الدنيا في اعتدال، والعمل للآخرة في وقت واحد، الى تصوف عملي يتظاهر أصحابه بالزهد في الدنيا، وهم على ملذّاتها يتهالكون، ويحاولون أن يصوروا أنفسهم الى الناس أنهم يعملون للآخرة، باعتكافهم على قراءة الاذكار والاوراد واستبدالهم تلاوة القرآن بها واغتنائهم

---

(1) ينظر (الشهاب) ج 4 / م 13 (ربيع الثاني 1356 هـ - جوان 1937) ص (200 _ 202).

(2) جريدة الشهاب عدد 52 (3 محرم 1347 هـ - 21 ماى 1928).

ب (الحضرة) وما يلازمها من رقص ووجد وجذب ، مما جعل هذا النوع من التصوف يؤسس بعض الزوايا يأوى اليها للقيام بتلك الطقوس[1] .

وقد حدث هذا التحول نتيجة لسقوط الحضارة الاسلامية ، وما أعقبه من اختلال في بنيات الأمة السياسية والاجتماعية والثقافية ، فنجم عن ذلك قعودها عن الاستمرار في القيام بمساهمتها الفعالة في اثراء التجربة الانسانية[2] .

وقد عرفت الجزائر كغيرها من بلدان العالم الاسلامي بعض هذه الطرق التي استطاعت في أول عهدها لصلتها بحركة الاربطة الدينية ، ولوجودها تحت اشراف علماء مجاهدين من ذوي الفضل والصلاح ، أن تنهض برسالتها في المحافظة على الدين الاسلامي ونشره ، وبث العلم ، وحمل راية الجهاد ، دفاعا عن الملة ، وذودا عن ثغور الوطن من أيّ خطر أجنبي[3] .

وقد استمر بعض هذه الزوايا [4] يضطلع بهذا الدور الايجابي في الجزائر ، طوال العهد العثماني ، وأثناء فترة الاحتلال الفرنسي . وكانت بذلك البيئة الطيبة التي تخرج منها نفر من قادة المقاومة الوطنية ضد الغزو الأجنبي ، ابتداء من الأمير عبد القادر ومن أعقبه على رأس هذه المقاومة[5] . غير أن بعض هذه الزوايا ، لأسباب مختلفة ، يرجع بعضها الى ما أصبح يعيش عليه العالم الاسلامي بوجه عام يومئذ ، من تخلف حضاري شامل ، وجمود

---

(1) ينظر د . يحي هويدى (فلسفة الاسلام في افريقيا) ص 298 وما بعدها .
— د . أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 1 : 458 .

(2) ينظر أحمد أمين (ظهر الاسلام) ج 4 : 219 .

(3) ينظر محمد على دبوز (نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة) ج 1 : 48 وما بعدها .
— أحمد توفيق المدني (كتاب الجزائر) ص 350 .

(4) يوجد نوعان في هذه الزوايا : أ — زوايا لا تنتسب الى طريقة صوفية ، وتقوم بنشر العلم .
ب — زوايا تابعة للطرق الصوفية المعروفة كالقادرية والرحمانية والتيجانية وغيرها . .

(5) أسهمت القادرية في هذه المقاومة في شخص الأمير عبد القادر ، كما أسهمت (الرحمانية) فيها في ثورة المقراني في شخص الشيخ ابن الحداد . . ينظر د . أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 1 : 522 .
و— د . صالح خرفي (شعر المقاومة الجزائرية) ص 109 ، عبد الله الركيبي (الشعر الديني الجزائري الحديث) ص 14 .

بعضها الآخر التي استغلال الاحتلال الأجنبي لتلك الظروف الموضوعية المحيطة بالزوايا ، والقيام بتوجيهها نحو ما يخدم أغراضه ، ونتيجة لذلك انحرفت بعض الزوايا نحو العزلة والسلبية والجمود [1] . ولم تلبث أن أصبحت وكرا للتدجيل والشعوذة ، وبؤرة لصناعة البدع والضلالات ، بما تذيعه في وسط الأمة من فساد وخرافات ، وما تنشره في صفوفها من أوهام ، تحمل الناس على الزهد في طلب الدنيا ، وتوهمهم بقرب زوالها ، وتؤكد لهم عجزهم ، عن مجاراة الأمم المتقدمة [2] . وقد بلغ ضعف العقيدة الدينية في نفوس بعض القائمين على أمر هذه الطرق الى درجة الاعتقاد في (الشيخ) ، شيخ الطريقة ، والتوسل به ، وايثار قراءة الاوراد والاذكار على تلاوة القرآن الكريم [3] .

وقد وقف المحتل الفرنسي على ضعف هؤلاء وما يشيعونه في بيئاتهم من ضلال وموبقات ، وما يبدو عليهم من خلال أعمالهم وسلوكهم من جهل وسوء فهم لحقيقة الدين الاسلامي الذى لايتعدى مفهومه عند بعضهم اقامة الشعائر الدينية الى سواها من مقاصد الاسلام الذى يحرص على أن يكون بين الناس حيث يكونون ، يكون معهم وهم يذكرون الله في عباداتهم ، يرجون عفوه ورضاه ، ويكون معهم وهم يكدحون ، ويضربون في الأرض سعيا للرزق والطيبات من أفانين الحياة الدنيا ، ويكون معهم وهم يطالبون العزة ويلتمسون دروب الحرية والثورة على كل ظلم وضيم .

وقد ألفى المحتل في هؤلاء وهم يجردون الاسلام من مثل هذه الاهتمامات الاجتماعية والانسانية التي تعبر عن محتواه الحقيقي ، كدين جاء لسعادة الناس أجمعين في آخرتهم وفي دنياهم ، الحليف الذى لا يألوا جهدا

---

(1) ينظر أحمد توفيق المدني (كتاب الجزائر) ص 351 .
(2) ينظر محمد الهادى السنوسي (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) ج 1 : 16 وما بعدها .
(3) ينظر الشيخ البشير الابراهيمي (سجل مؤتمر جمعية العلماء) ص 32 .
محمد على دبوز (أعلام الاصلاح في الجزائر) ج 1 : 21 .

في خدمة أهدافه بانحرافه أكثر مما خدمها ويخدمها رجال الكنيسة بحذقهم وحقدهم . وقد كان هؤلاء فعلا عند حسن ظن موجههم الذى استطاع أن يزكيهم ويزين لهم أعمالهم ، ويبارك لهم أعراسهم مع الشيطان[1] . فانطلقوا على أعينه وبايعاز منه ينشرون البدع والضلالات في صفوف الأمة ويفسدون عليها بخرافاتهم عقيدتها ، ويجدون بها مشيئاتهم في صرفها عن التفكير في واقعها ومحاولة تغييره ، عاملين في الوقت نفسه على ايهامها بأن ما تعيشه تحت نير الاحتلال من ظلم وقهر وحرمان ، انما هو قدرها الذى لا مناص لها منه ، ولن يجديها من الفرار منه الا الاستسلام له ، والرضى به ، حتى ولو كان ذلك القدر ـ كما هو ـ ذلّا وعبودية واستبلابا . وقد استطاع هؤلاء المشعوذون بأفكارهم البالية أن يعرقلوا مسيرة شعبهم ويصدوه الى حين عن هدفه الأساسي في مواجهة الغزو الأجنبي الذى هو السبب الحقيقي والوحيد لمأساته ، فكانوا بذلك عامل انحطاط ومدر لطاقات الأمة وتوجيهها نحو الخنوع والجمود[2] .

لأن هذه الطرق في حقيقتها هي (علة العلل في الافساد ومنبع الشرور ، وأن كل ماهو متفش في الأمة من ابتداع في الدين وضلال في العقيدة وجهل بكل شيء ، وغفلة عن الحياة والحاد في الناشئة فمنشؤه من الطرق)[3] .

وقد أدت وضعيتهم هذه المتردية في الفكر وفي السلوك الى رد فعل قوىّ قام به العلماء المصلحون لانقاذ الأمة من خطرهم . وتعود في الحقيقة جذور هذه المواجهة ما بين دعاة الاصلاح ودعاة الجمود والتقليد في الجزائر الى مرحلة مبكرة من هذا العصر ، ويمكن ردّها بالتحديد الى ما قام به بعض العلماء الجزائريين في أثناء القرن السابع عشر الميلادى في ثورتهم على الجمود العقلي ودعوتهم الى الاجتهاد ومحاربة التقليد[4] ، كما حاول

---

(1) ينظر ـ مالك بن نبي (مذكرات شاهد القرن) ـ (الطفل) ـ ص 320 وما بعدها ، تـ . مروان القنواتي .

(2) ينظر ـ محمد على دبوز (أعلام الاصلاح في الجزائر) ج 1 : 13 ـ محمد مبارك الميلي ـ رسالة الشرك ومظاهره ص 307 . د . أبو القاسم سعد الله مجلة (الثقافة) العدد : 79 (يناير ـ فبراير 1984 م) ص 65 .

(3) محمد البشير الابراهيمي : (سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ص 61 .

(4) ينظر . د . أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 1 : 479 وما بعدها .

أن ينهض بشيء من هذه الرسالة بعض علماء أواخر القرن التاسع عشر ، كان من أسبقهم الى ذلك وأشدهم أثرا على المشعوذين العالم المصلح الشيخ (صالح ابن مهنا)[1] الذى كانت له مواقف شجاعة تصدى فيها لكشف زيف هؤلاء المنحرفين ودفع ضلالاتهم[2] . غير أن انحسار هؤلاء وعداءهم للاصلاح قد استفحل بتوجيه من الاحتلال وبحافز الدفاع عن المصلحة الذاتية غداة ظهور بعض العلماء المصلحين في بداية النهضة الوطنية ، هؤلاء الذين توزعوا في نواحي الوطن يدعون الى اليقظة وينادون بالاصلاح الذى يهدف الى تحرير العقل والتفتح في الدين ، ويستنكرون على أصحاب الجمود فهمهم للاسلام وأساليبهم في العبادة وسلبيتهم في المجتمع ووقوفهم الى جانب المحتل . وفي الوقت الذى كان ينبغي فيه على هؤلاء أن يتراجعوا عن غيهم أمام هذا الحق الناصع ، ويعلنوا توبتهم برجوعهم الى صف الجماعة فقد ركبوا رؤوسهم وازدادوا حنقا على هؤلاء المصلحين بلغ بهم ذلك الى درجة الاقدام على اقتراف جريمة القتل بمحاولتهم اغتيال الامام عبد الحميد ابن باديس سنة 1926[3] .

ويذكر الشيخ البشير الابراهيمي أن الطريقة العليوية هي التي كانت وراء هذه الجريمة[4] . ويؤكد محمد العيد ذلك في قصيدته " حمتك يد المولي "[5] ، التي نظمها في تهنئة ابن باديس بنجاته ، وسنعرض لها في مكانها من هذه الرسالة . يقول الشاعر :

---

(1) ينظر د . أبوالقاسم سعد الله — (منطلقات فكرية) — ص 79 .
(2) ينظر — مالك بن نبي — شروط النهضة ، ص 28 .
(3) وقع هذا الاعتداء على الشيخ ابن باديس حين كان خارجا من الجامع (الأخضر) بقسنطينة بعد قيامه بدرسه اليومي ، وذلك مساء نهار 9 جمادى الآخرة 1345 هـ / 14 ديسمبر 1926 م .
وينظر (الشهاب) العدد : 11/75 جمادى الآخرة 1344هـ / 16 ديسمبر 1926 .
(4) ينظر (البصائر) العدد 32 / 15 جمادى الثانية 1355 هـ / 28 أوت 1936 م ، ص 6 .
(5) ينظر ديوان الشاعر ، ص 122 .

وكادت يد الجاني (العليوي) تمتطي (1) يد (الشيخ) لولا الله أدركه لـولا .

ولم يلبث هؤلاء الطرقيون أن فتحوا بهذا التجني ، الباب على مصراعيه بخصومتهم للاصلاح وأهله ، والكيد لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، هذه التي كانت أرحب منهم صدرا بفتحها باب العمل في صفوفها أمام جميع العناصر الوطنية (2) ، فتحين أولئك هذه الفرصة واندسوا في هياكلها في محاولة للنيل من بنائها الداخلي ، الا أن الزمن لم يطل بهم حتى استطاعت هذه الحركة أن تكشف نواياهم وتعمل على تطهير مؤسساتها من افكهم ، وتظهرهم للأمة على حقيقتهم المزيفة (3) . وكان لذلك وقع شديد على أنفسهم ، ولعل من أبلغ ما يعبر عن ذلك ويصور في الوقت نفسه ما آل اليه مصيرهم ، ما جاء على لسان أحدهم حين قال : " نحن أفلسناهم عند الحكومة وهم أفلسونا عند الأمة " (4) . ومضت حركة الاصلاح على ذلك الطريق تستأصل شأفة الفساد ، وتحمي عقيدة الأمة من شرها ، وتوجهها على العمل بالكتاب والسنة وهجر تلك البدع والأهواء . وبلغ الصراع أوجه بين الاصلاح وخصومه ، وأصبح لكل من الطرفين مؤسساته وصحفه يبث من خلالها أفكاره . وكان الاحتلال من وراء مشاريع الطرقية يمولها وينفق عليها بسخاء (4) ، ويوضح الشيخ الطيب العقبي وهو من أشد المصلحين الجزائريين معارضة الطرقيين — الدواعي الحقيقية التي دفعت العلماء الى الوقوف في وجه ذلك الانحراف قائلا : " نحن لا نحارب المرابطين لعداوة شخصية بيننا وبينهم . . . . ولكننا نحارب الجهل والضلال الذين تلبسوا بهما فنشأ عن ذلك الإضرار المادي والأدبي بهذه الأمة حتى بلغت أقصى دركات الانحطاط الفكري والاجتماعي معا . . . نحن نحارب الطرق لانه لا طرق في دين الاسلام وانما هو دين واحد وطريقة جامعة " (5) .

---

(1) ينظر البصائر العدد السابق ، الصفحة نفسها ، وقد استبدلت هذه الكلمة بلفظة (المسخر) ، ينظر ديوان الشاعر ، ص 122 .

(2) ينظر (البصائر) العدد : 46 — 19 رمضان 1355 هـ — 4 ديسمبر 1936 م ، ص 2 .

(3) كان ذلك عقب الاجتماع السنوي العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بنادي الترقي يوم 23 ماي 1932 م . ينظر علي مراد (الاصلاح الاسلامي في الجزائر) ص 1932 .

(4) ينظر محمد مبارك الميلي (رسالة الشرك ومظاهره) ط 2 . ص ، 268 .

(4) كانت الطريقة العليوية التي تنتسب لمؤسسها أحمد العليوي (1369 _ 1934) قد أصدرت بعض الجرائد من بينها : (لسان الدين) سنة 1923 ، و(البلاغ الجزائري) سنة 1926 . ينظر (الصحف العربية الجزائرية) ص (51 — 30) د . محمد ناصر .

(5) ينظر مقالة الشهاب ج 5 / م 11 جمادى الاولى 1354 هـ أوت 1935 [illegible]

وتوالت على هذا النهج كتابات ودروس معظم علماء الاصلاح ، الذود عن العقيدة الصحيحة ، وتدعو الى احياء العمل بالقرآن والسنة وهدى السلف الصالح ، وتدفع تلك البدع والضلالات [1]. وكان للشعراء الجزائريين بدورهم — ومحمد العيد واحد منهم — مساهمة مشهودة في هذا الجانب [2]. واستطاعت الحركة الاصلاحية بجهود عظيمة وتضحيات جسام ، تكلؤها عين الله وتساندها جهود الشعب أن ينتصر الحق على أيديهما ، وأن تخرج من ذلك الصراع ظافرة ، رغم مايعزز الباطل من ظلم وباطل ، وأن تنجح الى حد بعيد في انقاذ الأمة من خطر تلك السلبية ، وآثار ذلك الجهود ، وتلك سنة الله في نهاية كل صراع ما بين الحق والباطل . وهذا ما يؤكده الامام عبدالحميد ابن باديس في قوله : " حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها — علم الله — من بلاء على الأمة من الداخل ومن الخارج ، فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحملنا في ذلك من صعاب ، وقد بلغنا غايتنا والحمد لله " [3].

ومما ساعد الاصلاح في انتصاره على الطرقية انتشار الوعي والعلم في أوساط بعضهم ، ووقوف الأمة على فسادهم ، وتواطئهم مع العدو [4]. ونود أن لا ندع الحديث عن هذه الفكرة دون أن نختمه بكلمة للأستاذ مالك بن نبي (1905 — 1973 م) وجيزة في ألفاظها ، عميقة في دلالتها على تصوير ما انتهى اليه أمل ذلك الانحراف من انطفاء وانحسار أمام نور الاصلاح ، يقول هذا الكاتب : " غير أنه ما ان سطع نور الفكرة الاصلاحية حتى تحطم ذلك المعبد فخرت الأوثان . . وبالفعل فقد خمدت نيران أهل (الزرد) وزالت عن البلاد حمى الدراويش ، وتخلصت الجماهير بعد أن ظلت طوال خمسة قرون ترقص على دفات البنادر وتبتلع العقارب والمسامير مع الخرافات والاوهام [5].

---

(1) ويأتي في مقدمة هؤلاء الأعلام ، ابن باديس ، العقبي ، الابراهيمي ، العربي التبسي ، والميلي . وقد صنف هذا الأخير في الموضوع كتابا ، أسماه " رسالة الشرك ومظاهره " .

(2) يأتي على رأس هؤلاء الشعراء الشيخ الطيب العقبي ، السعيد الزاهري ، حمزة بوكوشة .

(3) (الشهاب) ج 1 / م 14 . غرة محرم 1357 هـ — مارس 1938 م ، ص 6 .

(4) وينظر شارل اندري جوليان (افريقيا الشمالية تسير) ص ، 126 .

(5) (شروط النهضة) 37 .

وكانت الحركة الاصلاحية — وهي تصارع في هذه الجبهات المختلفة — تؤمن أن ما تستهدفه وراء ما تقوم به من تربية الجيل وتوجيه العامة، ومقاومة الانحراف، ومقارعة الاحتلال، من نهضة وطنية عامة ترمي الى بعث المجتمع الجزائري في اطار المحافظة على مقلومات شخصيته وأصالته، انما يقتضي منها جهود أعظم من الاكتفاء فيما بالوقوف عند حدّ المواجهة النظرية، وانما يجب تجاوزها، الى ميدان العمل والبناء، وانطلاقا من هذا الشعور عملت هذه الحركة على حشد وتنظيم طاقات الأمة، ودفعها الى السمو فوق مرحلة المطالبة بالحقوق، الى مرحلة القيام بالواجبات، وتوجيه الشعب شطر الوجهة التي يحس فيها بضخامة الأعباء فيعد نفسه على قدر النهوض بها . وهذا ما يفسر لنا ما قامت به هذه الحركة من بناء المدارس واصدار الصحف وتأسيس النوادي والجمعيات، مما أعطى لنشاطها الاصلاحي، وطنيا، وقوميا، طابعا خاصا .

وقد أدرك المصلحون في وقت مبكر ما للعلم من أثر فيما يودون النهوض به، من تعميق الوعي بالذات الوطنية لدى أفراد مجتمعهم واعدادهم من ثم الى التحرير والاستقلال .

وكان لدروس الامام عبد الحميد ابن باديس التي شرع في القائها منذ عودته من جامع (الزيتونة) ، بمساجد مدينة قسنطينة(1) . واستمر فيها أكثر من خمس وعشرين سنة، كان لهذه الدروس أثر بالغ في تجديد البناء الفكري للأمة، ونشر مبادىء الاصلاح الديني والاجتماعي بين صفوفها، بتوجيهه اياها الى المنابع الصافية من دينها، والى السبل القويمة من دنياها . وقد وضع ابن باديس خطة على أن تكون السنوات العشر الأولى سنوات تكوين وتربية يعلن بعدها الدعوة الى الاصلاح، فكان له ذلك، وأعلن هذه الدعوة سنة 1925 م، باصدار جريدة (المنتقد) فـ (الشهاب) ثم تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 م . وقد صور

---

(1) نذكر من بينها : المسجد الكبير — مسجد سيدي قموش، مسجد سيدي عبد المؤمن، الجامع الأخضر، ينظر (ابن باديس حياته وآثاره) ج 1 : 114 — اعداد د. عمار الطالبي .

الشيخ محمد البشير الابراهيمي بعض آثار دروس ابن باديس على الحياة الوطنية فقال : " رأيت بعيني النتائج التي حصل عليها أبناء الشعب الجزائري في بضع سنوات ، من تعليم ابن باديس ، واعتقدت من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة ، لها ما بعدها ، وأنّ هذه الخطوة المسددة التي خطاها ابن باديس هي حجر الأساس في نهضة عربية في الجزائر"(1) .

كما كان لدروس الشيخين الطيب العقبي والابراهيمي بالغ الأثر في التمكين لمسيرة الاصلاح في الجزائر وتطويرها . وعلى كل فان للعلماء المصلحين عموما ، ولهؤلاء الثلاثة السابقي الذكر على وجه الخصوص بمختلف نشاطاتهم في التدريس والكتابة ، واللقاءات الجماهيرية ، أثرهم الواضح في تبلور الفكرة الاصلاحية وإعطائها دفعا قويا سمح لها بالاشراف والتوجيه لمختلف مظاهر النهضة الفكرية والأدبية ، فميز ذلك دعوتها عن مثيلاتها في العالم العربي الاسلامي(2) .

وعلى نهج هؤلاء الأعلام سارت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، برسالة التربية والتعليم أشواطا بعيدة ببنائها كثيرا من المدارس في أرجاء عديدة من البلاد . استطاعت أن تنهض بالتعليم العربي على أساس من الكتاب والسنة ، وربطه منهجا وموضوعا بواقع الأمة ، ومجريات العصر ، فأسهمت بذلك في تربية النشء ، بنين وبنات ، وتثقيفه وتوجيهه في اطار من أصالته وحضارة أمته لانقاذه من مخاطر ما يدبر له . كما عملت في الوقت ذاته على احياء اللغة العربية ونشرها وبث الثقافة القومية وتطوير الأدب العربي .

كما كانت هذه المدارس من نحو آخر مركز اشعاع لنشاطات فكرية وأدبية بما كانت تحيي من احتفالات وملتقيات ثقافية ، كان الشاعر محمد العيد يسهم في كثير منها .

* * * * * *

(1) ينظر د . طه الحاجري (جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر) ص ، 121 .
(2) ابن باديس (الشهاب) ج 12 / م 11 / ذو الحجة 1354 هـ — مارس 1936 م ؛ ص 647 .

أما الصحافة الوطنية فقد ظهرت مع بوادر النهضة العامة في العقد الأول من القرن الحالي[1]. ولم تلبث أن عرفت بعض التطور في أعقاب الحرب العالمية الأولى بظهور جريدتي " الاقدام "[2] للأمير خالد ، و " النجاح "[3] للشيخ عبدالحفيظ بن الهاشمي . بيد أن التطور الحقيقي الذي عرفته هذه الصحافة هو ذاك الذي شهدته على أيدي بعض العلماء المصلحين ، هؤلاء الذين أدركوا أهميتها وأحسوا بحاجتهم الى لسان ينطق باسمهم ، وينقل افكارهم ، الى الأمة ، فأولوها لهذه الأهمية عناية خاصة ظهرت في مبادرتهم باصدار مجموعة من الصحف . فقد أصدر الشيخ محمد بن العابد العقبي[4] جريدة " صدى الصحراء " بمدينة بسكرة سنة 1925م[5] . كما أصدر الشيخ عبدالحميد بن باديس جريدة " المنتقد " بمدينة قسنطينة سنة 1925 م[6]. ثم أوقفها المحتلّون ، فخلفتها في السنة نفسها جريدة " الشهاب "[7] . وفي سنة 1927 م أصدر الشيخ الطيب العقبي جريدة " الاصلاح " ببسكرة[8]. كما ظهرت للمصلح الشيخ أبي اليقظان ابراهيم بن عيسى (1888 — 1973م) مجموعة من الجرائد من أهمها : (وادي ميزاب)[9] و " المغرب "[10] و " النور "[11] و "الأمة "[12] .

---

(1) ظهرت أول صحيفة وطنيةحرة ، وهي مجلة (الجزائر) سنة 1908م ثم تلتها جريدة (ذو الفقار) سنة 1913م . وكلتاهما للصحافي (عمر راسم) : 1883— 1939) . ينظر د . محمد ناصر (الصحف العربية الجزائرية) ص (32 — 36) .

(2) كانت تصدر بالعربية والفرنسية ما بين (1920 — 1923 م) .

(3) كانت تصدر بقسنطينة ما بين (1919 — 1956 م) .

(4) كاتب وشاعر في بلدة سيدي عقبة .

(5) صدر العدد الأول منها في شهر نوفمبر 1925، وتوقفت في (فيفري) 1926، ثم صدرت من جديد سنة 1936 .

(6) صدر العدد الأول في الثاني من شهر جوليت 1925 . ثم توقفت في السنة نفسها بعد أن صدر منها (18) عددا .

(7) صدر العدد الأول في (12 نوفمبر 1925) ثم تحولت الى مجلة شهرية . كان آخر أجزائها هو (7) في المجلد 15 . (رجب 1358 — أوت 1939 م) .

(8) برز العدد الأول في : 3 سبتمبر 1927 . ثم توقفت في (25—9—1930) . ثم ظهرت مرة أخرى في (28 — 12 — 1939) .

(9) صدر العدد الأول بالجزائر العاصمة في (1 أكتوبر 1926 م) واستمرت في الصدور الى سنة 1929 .

(10) برز العدد الأول بالجزائر العاصمة (26 — 5 — 1930) وتوقفت سنة 1931 .

(11) برز العدد الأول بالعاصمة في (15 / 09 / 1931) . وكان آخر عدد منها صدر في (2/ 5 /1933) .

(12) برز العدد الأول بالعاصمة في (3 سبتمبر 1933) وتوقفت عن الصدور سنة 1933 .

وعندما تأسست (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) تولت اصدار مجموعة من الصحف كان في مقدمتها " السنة "[1] و " الشريعة " [2] و " الصراط " [3].

ويأتي على رأس هذه الصحف جميعها من حيث الأثر وطول العمر جريدة " البصائر " [4] ومجلة " الشهاب " . وقد تظافرت هذه الجرائد جميعها على ابراز وجه النهضة الوطنية العامة بمختلف مظاهرها السياسية والاجتماعية والثقافية ، وذلك بعنايتها بنشر الوعي السياسي في صفوف الشعب وتحقيق التراث ، واحياء اللغة العربية والتمكين لها ، والعمل على تطويرها لمسايرة متطلّبات العصر . وتعود الانطلاقة الفعلية الأولى للنهضة الأدبية في الجزائر على وجه الخصوص، الى أيام ظهور جريدة " المنتقد " يقول ابن باديس : " الحقيقة التي يعلمها كل أحد أن هذه الحركة الأدبية ظهرت واضحة من يوم برزت " المنتقد "[5] . كما تعود لمجلة " الشهاب " وجريدة " البصائر " من بعد ، اليد الطولى في رعاية هذه النهضة وتوجيهها ومدّها بالطاقات اللازمة التي مكّنتها من الاستمرار في خدمة الأهداف الوطنية والقومية أمدا طويلا .

أما النوادي والجمعيات فيرجع ظهورها هي الأخرى الى أوائل القرن الحالي [6] ، وقد ساهم بعضها في هذه النهضة . ويحتل نادي " الترقي " الذي تأسس حوالي سنة 1927 م ، بالجزائر العاصمة و " جمعية الشبيبة الاسلامية الجزائرية " المؤسسة حوالي 1924 م ، المقام الأول

---

(1) ظهر العدد الأول بقسنطينة في أول مارس سنة 1933م ، واستمرت أربعة أشهر صدر خلالها 13 عددا .

(2) صدر العدد الأول بقسنطينة في : 17 جوليت 1933 . وتوقفت بقرار من سلطات الإحتلال يوم (29/3/1933م) .

(3) برز العدد الأول بقسنطينة في :(11/8/1933) . وتوقفت بقرار في 8/1/1934) . ينظر د . محمد ناصر (الصحف العربية الجزائرية) لمزيد من هذه المعلومات حول هذه الصحف .

(4) ظهر العدد الأول بالجزائر العاصمة في (27/12/1935) واحتجبت في (25-8-1939) ثم ظهرت ثانية، وصدر العدد الأول من السلسلة الثانية في (25/7/1947) . وتوقفت نهائيا في (16/4/1956) .

(5) ابن باديس مجلة الشهاب ، ج 1/م6 ، رمضان 1348 هـ - فيفرى 1930م ، ص 23 .

(6) ينظر د . أبو القاسم سعد الله . (الحركة الوطنية الجزائرية) ج 2 : 160 وما بعدها .

من بين هذه المؤسسات في مجال النشاط الفكري والأدبي . وقد كان نادي الترقي خاصة ملتقاً فكريا ومجمعا علميا ، تقام فيه الاحتفالات الدينية واللقاءات الثقافية ، ويؤمه العلماء والكتّاب والشعراء يلقون فيه الدروس والخطب والقصائد . كما كانت جمعية العلماء تنظم فيه اجتماعاتها الدورية ومؤتمرها السنوي ، وكان الشاعر محمد العيد يسهم في كل هذه النشاطات المختلفة ، وينظم قصيدة خاصة يلقيها في تلك التجمّعات من كل سنة ، وسنعرض لهذه القصائد في مكانها من هذا البحث .

وقد كان لهذه المؤسسات الاصلاحية المتنوعة ، أثرها في توعية الشعب الجزائري وحمله على التمسك بأصالته والمحافظة عليها . بما كانت تقوم به من نشر ، للمفهوم الصحيح للاسلام ، وتطهيره مما علق به من شوائب البدع والخرافات ، والرجوع به الى ينابيعه الأولى ، واحياء الثقافة القومية واللغة العربية ، وتأكيد قدرتها على مجاراة العصر ، ووقوفها في وجه تيارات التغريب والفرنسة ، وقيامها ببعث التاريخ الوطني ، وتحقيقه وتصفيته مما لحقه من زيف وتشويه ، ولفت أنظار الشعب الى أمجاد الاسلام، وما تزخر به من عزة ومنعة . واعداده بكل ذلك ، اعدادا قويا ، يؤهله للقيام بما يجب أن ينهض به من أعباء ، لتحقيق ما يصبو اليه من أهداف ، على درب الحرية والاستقلال . وكانت الحركة الاصلاحية تنطلق في دعوتها هذه من ظروفها المحليّة الخاصة التي يطبعها الصراع اليومي مع المحتلين . وتستنير في الوقت نفسه بما سبقها من أفكار أصلاحية ، سواء منها تلك التي ظهرت في الجزائر أو في غيرها من أقطار العالم العربي الاسلامي . ولهذا فان صلة الجزائر بالفكر الاصلاحي — كما سبقت الاشارة — لم تكن حديثة العهد ، وانما تعود الى جذور عميقة متأصلة في تاريخها ترجع الى ما قبل عصر النهضة الاسلامية الحديثة (1) .

---

(1) ينظر المهدي البوعبدلي (الأصالة) السنة : 6 العدد : 53 — (صفر — فيفري 1398 هـ — 1978 م) .
وينظر د . أبو القاسم سعد الله (منطلقات فكرية) ص ، 82 .

وفي مطلع العصر الحديث عرفت الجزائر الدعوة السلفية الاصلاحية "السنوسية" التي أسسها الامام محمد بن علي السنوسي [1]، متأثرا بالدعوة الوهابية [2]. الا أنه يختلف عنها ببعض الاختلاف، باعتماده على القوة الروحية والقوة المادية في وقت واحد، وجمعه بين الدعوة الى الاصلاح الديني والدعوة الى العلم والتفتح على المدنية الحديثة.

ثم ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، استمرارا لتلك الجهود السابقة وتأثرا بالنهضة الاسلامية الحديثة، أفكار كوكبة من العلماء الجزائريين [3]. كما ازدادت في هذه الآونة صلة الجزائر بالدعوة الوهابية وثوقا، عن طريق العائدين من الحجاز وهم يحملون أفكارها الى البلاد [4]. وان الباحث يلحظ بوضوح الأثر الوهابي في الجزائر، كما يظهر ذلك في أفكار ومواقف بعض المصلحين الجزائريين وبخاصة منهم: العقبي والابراهيمي وابن باديس، لاقامة الأولين، اقامة طويلة بالحجاز، وتأثرهما أثناء ذلك بما كان يسوده من مفاهيم اصلاحية وهابية، ولتلاقيهم الثلاثة بهذه الأفكار في أصولها الأولى (القرآن والسنة)، وفيما تأثرت به فيما بعد، من آراء بعض المصلحين: كابن تيمية، وابن قيم الجوزية (691 ـ 751 هـ) والشوكاني، وغيرهم [5]. ويؤكد بعض الباحثين هذه الصلة، وينفي في الوقت نفسه علم ما بين الحركتين من اختلاف منهجا ومذهبا [6].

وقد لاحظ هذا الأثر الوهابي بالجزائر أحد القادمين اليها من الشرق وهو الدكتور (خير الله أبو علي) الذي كتب مقالا في مجلة "البصير" سنة 1934م [7].

---

(1) ولد بمستغانم (مستغانم) بالجزائر في (1787م) وتوفي (1859م).
(2) ينظر أحمد أمين (زعماء الاصلاح) ص 21. و(ابن باديس حياته وآثاره) ج 1: 23.
(3) ينظر ص (12) من هذا البحث.
(4) ينظر ـ مالك بن نبي ـ مذكرات شاهد القرن (الطالب) ص، 131.
(5) ينظر الشيخ الابراهيمي (سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ، ص 47. وينظر الميلي ـ (رسالة الشرك ومظاهره) ، ص 9.
(6) ينظر شارل أندري جوليان (افريقيا الشمالية تسير) ص 134. علي مراد (الاصلاح الاسلامي في الجزائر) ، ص، 217.
(7) ينظر د. صالح خرفي (شعر المقاومة الجزائرية) ، ص، 23.

أثبت فيه ذلك الأثر . غير أن مجلة " الشهاب " بادرت بانكار هذه الرابطة ما بين الجزائر والحركة الوهابية . وذلك بقولها " سبق الشيخ محمد بن عبدالوهاب في هذا العصر الأخير غيره الى الدعوة الى الكتاب والسنة وهدى السلف الصالح من الأمة ، والى محاربة البدع والضلالات ، فصار كل من دعا الى هذا يقال فيه " وهّابي " فهذا سمّي الدكتور الحركة الاصلاحية "وهّابية " مع العلم بأنه لم يكن بيننا وبين نجد أدنى اتصال [1] .

وتقول الشهاب أيضا : (قد بينا غير ما مرة أن الحركة الاصلاحية التي نقوم بها في حدود القانون لا تمت لأيّ حركة في أيّ قطر آخر بسبب الا ما يمكن أن تتلاقى فيه أعمال كل مسلم .. وإذا كان الجديدون ينتسبون للشيخ ابن عبدالوهاب لأنه أول مصلح قام في بلادهم ... فانا لا ننتسب له لأننا لم نأخذ عنه) [2] ؛ وأن الباحث ليستغرب هذا الكلام . بيد أنه إذا أنعم النظر في الظروف السياسية التي كانت تعيشها الجزائر يومئذ وما ترتب عنها من مضايقات واتهامات مختلفة كانت توجه ضد الحركة الاصلاحية ودعاتها بين آونة وأخرى .[3] ثم أضاف الى ذلك ماكانت الدعوة الوهابية قد اتهمت به من ميلها الى العنف والتشديد في الدين ، فان استغرابه ذلك سيزول ، وسيدرك الدوافع الحقيقية التي كانت تكمن وراء ذلك الموقف الذى وقفته " الشهاب " بحرصها على أظهار استقلالية الحركة ، ضمانا لأمنها .

ويقف الباحث على نصّ للشيخ العقبي يوضّح فيه العلاقة ما بين الحركة الاصلاحية ، والدعوة الوهابية ، يقول فيه : " وإذا كانت الوهابية هي عبادة الله وحده بما شرعه لعباده ، فانما هي مذهبنا وديننا وملّتنا السمحة التي ندين الله بها ، وعليها نحيا وعليها نموت ونبعث أن شاء الله من الآمنين ...

---

(1) ينظر " الشهاب " ج 6/ م10 / صفر - ماى 1353 هـ - 1934 م .
(2) (الشهاب) ج 2 / م11 (صفر 1354 هـ ماى 1935 م) ، ص 108 .
(3) البصائر - العدد : 31 - 19 جمادى الأولى 1355 هـ - 7 أوت 1936 م ص 4 .

وأن تكن الوهابية شيئا آخر غير هذا، فاننا منها بريؤون وعنها بعيدون. فليعلم هذا عنا من شاء أن يعلم، وليخسأ المتقولون الذين يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون "[1].

وفي هذا الاطار كتب ابن باديس في جريدة " السنة " مقالا بعنوان " عبداويون ؟ ثم وهابيون ؟ ثم ماذا ؟ لا ندرى، والله ".

أشار فيه الى تلك اللافتات التي تحاول بعض العناصر الصاقها بالحركة الاصلاحية لفسح المجال أمام العدو لضربها[2]. والى جانب هذه الصلة بين الحركة الاصلاحية، والدعوة الوهابية فقد استطاعت الجزائر أيضا، بالرغم من الحصار المضروب حولها أن توطد تلك الصلة المعقودة ما بينها وبين النهضة الاصلاحية في الشرق، وتأخذ بحظها من تأثير دعوتها وأفكار زعيميها الافغاني ومحمد عبده. وقد قام هذا الأخير بزيارة خاصة الى الجزائر في سبتمبر سنة 1903. اتصل خلالها ببعض علمائها[3] ودرّس بمساجدها، فكان لذلك الى جانب ما كانت تروّج له مجلة " المنار " من أفكاره الاصلاحية تأثيره الخاص وصداه الواضح على حركة الاصلاح بالجزائر[4].

ويرى بعض الباحثين أن هذه الزيارة كانت ضعيفة الأثر [illegible] من اتصل بهم الشيخ عبده[5].

---

(1) جريدة (السنة) العدد : 2 / 22 ذى الحجة 1351 هـ / 17 أفريل 1933م.

(2) جريدة (السنة) العدد : 3 / 29 ذى الحجة 1351 هـ / 24 أفريل 1933 م.

(3) نذكر من بين هؤلاء العلماء : الشيخ عبدالحليم بن سماية، والشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة. ينظر (ابن باديس حياته وآثاره) ج 1 : 55 ـ د. عمار الطالبي.

(4) ينظر شارل أندرى جوليان ـ (افريقيا الشمالية تسير) ص 134. على مراد (الاصلاح الاسلامي في الجزائر) ص 32. ـ د. أبو القاسم سعدالله ـ مجلة (الثقافة) العدد : 79 (يناير ـ فبراير 1984 م) ص، 74.

(5) ينظر د. أحمد شرفي الرفاعي (الشعر الوطني الجزائري) رسالة دكتوراه الدرجة الثالثة ـ مخطوط، ص 32.

كما تأثرت الحركة الاصلاحية بالجزائر بالدعوة (المهدية) ، التي ظهرت بالسودان وكانت حركة اصلاحية ، تنطلق من نظرة دينية عقلية ، وتهدف الى تطهير الدين من الخرافات والبدع ، والنهوض بالمجتمع ، والعمل على تحريره من الاحتلال الأجنبي[1].

واستمرت هذه الصلة قائمة ، تغذيها هجرات الجزائريين الى الشرق العربي ، ووصول الصحف والمجلات العربية اليها ، محملة بالأفكار الحديثة في السياسة والاجتماع والثقافة والآداب ، فكان لذلك أثر غير يسير على حركة النهضة العامة في الجزائر ، ويذكر الشيخ أحمد حماني أن (ابن باديس) كان يعلم طلابه فصولا من مجلة (العروة الوثقى)[2]. وكان لمجلة (المنار)[3] بوجه خاص ، وهي لسان حال فكر زعماء النهضة الاسلامية يومئذ بما تتمتع به من غيرة على الشخصية العربية الاسلامية ، وبما تسهر عليه التمكين له من المبادىء الصحيحة للدين الاسلامي ، كان لهذه المجلة بذلك مفعولها البارز في تغذية الحياة العقلية والوجدانية للجزائريين[4]، فجعلهم ذلك يحرصون على دوام صلتهم بها ، الأمر الذي يفسر وسبتهم للامام (محمد عبده) أثناء زيارته للجزائر السابقة الذكر ، بابلاغ رجائهم لصاحبها بعدم تعرضه لفرنسا بما يسوؤها حتى لا تمنع دخولها الى الجزائر لأنهم يعتبرون انقطاعها وتوقف الحياة عنهم ، يكاد يكون على حد سواء ، كما يعبر عن ذلك قولهم : " اننا نعدها مدد الحياة لنا ، فاذا انقطع ، انقطعت الحياة عنا "[5].

---

(1) ينظر د . أبو القاسم سعد الله (مجلة الثقافة) العدد : 79 ، ص 74 .
(2) ينظر مجلة (الثقافة) العدد : 38 (ابريل — مايو 1977) ص 101 .
(3) أسسها ، محمد رشيد رضا . وقد صدر العدد الأول في : 22 شوال 1315 هـ / 15 مارس 1898 م . واستمرت في الصدور حتى وفاة صاحبها سنة 1354 هـ / 1935 م .
(4) ينظر — (ابن باديس حياته وآثاره) ج 1 : 25 .
(5) ينظر . محمد رشيد رضا (تاريخ الأستاذ محمد عبده) ج 1 : 872 .

وقد واصل النهوض بهذا الدور الاصلاحي من بعد الأفغاني ومحمد عبده تلميذان لهما وهما : (محمد رشيد رضا)[1] و (الأمير شكيب أرسلان)[2]. فأما الأول فكان لأفكاره على مسيرة الاصلاح بالجزائر، وعلى النهضة الاسلامية في العالم عموما، ما كان لأفكار أستاذيه[3]، وأما الثاني فقد تميز دوره بالتأثير على الحركة الوطنية بجميع مظاهرها السياسية والثقافية[4]. وقد أصبحت هذه الرابطة فيما بين الحربين العالميتين على صورة من القوة والوضوح والتأثير، فجعلها ذلك تلفت انتباه المحتل اليها، وتقلق راحته، فتحرك لوضع العراقيل أمامها، بمضايقته الحركة الاصلاحية، وتحديد نشاطها، والحيلولة بينها وبين تيارات النهضة القومية[5]. كما كان للجزائر صلتها الدائمة بشقيقتها (المغرب)(وتونس) اللتين كانتا، تحت حكم الحماية الفرنسية، فأتاح لهما ذلك ما لم يتح للجزائر، من حرية نسبية، في الحركة والنشاط، على المستوى الاجتماعي والثقافي. وقد كانت تونس بخاصة واقعة تحت تأثير الحركة الاصلاحية بالمشرق[6] الأمر الذى حمل الجزائر على أن تتوجه بأنظارها اليها. وكان جامع الزيتونة محطّ رحال بعثات الطلبة الجزائريين الذين ألفوا فيه وفي غيره من المؤسسات الثقافية منافذ فيهم العقل والوجدان وعزّز علاقاتهم بالنهضة القومية، ودعم موقفهم في المحافظة على مقومات شخصيتهم والمطالبة بحقهم[7].

ويمكن أن يتبين الدارس من خلال هذا التواصل الذى يربط ما بين تيارات الفكر الاصلاحي على امتداد أقطار العروبة والاسلام، وحدة مصدر هذا الفكر،

---

(1) ولد في (القلمون) بلبنان سنة 1866م، وتوفي سنة 1935 م.

(2) ولد في (الشويفات) بلبنان سنة 1869 م، وتوفي سنة 1946 م.

(3) ينظر (ابن باديس) (الشهاب) ج 9 / م11 رمضان 1354 هـ ــ ديسمبر 1935م ص510.

(4) ينظر شارل أندرى جوليان (افريقيا الشمالية تسير) ص 34.

(5) ينظر د. صالح خرفي (شعر المقاومة الجزائرية) ص 24. (المدخل الى الأدب الجزائرى الحديث) ص 44.

(6) ينظر محمد رشيد رضا (تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده) ج 1 : 372.
ــ شارل أندرى جوليان (افريقيا الشمالية تسير) ص 33.

(7) ينظر (سجل مؤتمر جمعية العلماء) ، ص 48.
ــ على مراد (الاصلاح الاسلامي في الجزائر) ص 123.

واستمراريته وتلاحمه ، منذ عصر ابن تيمية ، الى عصر ابن باديس[1].
غير أن هذا التكامل الملحوظ لا ينفي شخصية كل حركة من حركات هذا الفكر ، مما يؤكد للباحث أصالة الحركة الاصلاحية بالجزائر ، هذه التي نبعت من صميم الواقع المحلّي ، الذى عاشه الشعب الجزائرى في ظروفه الخاصة ، والذى يمثل أحد وجوهه ذلك الغزو الحضارى الذى استهدف القضاء على الكيان الجزائرى . وفصله عن الكيان القومي ، مما لم يشهد مثيلا له في حدته ، بلد غير الجزائر ، من بلدان العالم العربي الاسلامي .
وقد كان لذلك ، الأثر العميق ، في دفع الحركة الاصلاحية الى مواجهة تلك الروح الصليبية ، ذودا عن كيان الأمة ، وحفاظا على أصالتها .

وان الباحث المتأمل في تاريخ هذه الحركة ليقف على أكثر من سمة من سمات ، تميزها ، مما يتجلى في طبيعة منطلقاتها ، واتجاهات مقاصدها ، وفي نوعية الظروف التي تصارعت معها ، فقد كانت تقوم دعوتها على قاعدة شعبية واسعة ، وتخضع لتوجيه جماعي موحد ، ونظام محدد ، وتستهدف غايات ، استخدمت في تحقيقها وسائل خاصة بها[2]، وقد جعلها ذلك تجمع في نشاطها ، بين ما انفردت به الدعوة الوهابية ، التي تقتصر في أهدافها على الاصلاح الديني ، لا تكاد تتجاوزه الى غيره ، مما يتطلبه العصر ، وبين ما اتسمت به دعوة (محمد عبده) في تركيزه على الاصلاح الديني دون السياسي . وبين ما تميز به (الأفغاني) بجمعه ما بين الاصلاح الديني والسياسي معا . وهذا التفرّد الذى يطبع منهج ونشاط هذه الحركة ، هو الذى يؤكد للدارس ، أنها لم تكن محصورة في اتجاه اصلاحي معين لا تتعداه الى غيره مما يضيق بأهدافها ، ويحد من طموحاتها ، وانما كانت — كما رأينا — تجمع وفي وقت واحد ، بين أنواع الاصلاح المختلفة ، ويقول بعض الباحثين بهذا الصدد " ولكن الحقيقة هي أن العلماء كانوا مصلحين بالمعنى الشامل للاصلاح ، والاصلاح بالمعنى الشامل ، قد يبدأ بالثقافة أو بالدين أو بالمجتمع . ولكنه في

(1) ينظر مالك بن نبي (مذكرات شاهد القرن) (الطفل) ص 104 وما بعدها .
(2) ينظر الشيخ الابراهيمي (سجل مؤتمر جميعة العلماء) ص 61 .

نهاية الأمر يغطي كل مظاهر الحياة في مجتمع ما ، بما في ذلك السياسة . وهذا بالضبط ما حدث للاصلاح بالجزائر ".[1]

وان بدا للدارس أن هذه الجمعية ، كانت لأول عهدها ، قد اقتصرت على الاصلاح الديني وحده ، فان ذلك الموقف منها في الواقع ـ وهي في بداية الطريق ـ قد يكفي في حد ذاته للدلالة على مدى ما يتحلى به قادتها من حنكة سياسية دفعت بهم الى الاعلان عن نواياهم في الابتعاد عن مسرح السياسة ، ويمكن أن يكون ذلك منهم ـ وهم في أول أمرهم ـ خطة يقصدون بها التمويه عن أهدافهم الحقيقية ، حتى لا تعرقل حركتهم ، وهي ما تزال بعد ، لم تقف مستوية على أقدامها ، فيكون لذلك ـ لاقدر الله ـ أثره السيء على مسيرتها . وان اندماجها من بعد في الحركة السياسة لأوضح مما ينص عليه بيان .[2] وان جمع هذه الحركة بين الأصالة ، وبين الانفتاح على تجارب غيرها في وقت واحد لممّا يدلّ بوضوح على سعة أفق زعمائها ، واستقلاليتهم في الرؤية من نحو ، وتلاقيهم من نحو ثان ، بأفكار غيرهم من زعماء الاصلاح في العالم الاسلامي ، بقدر ما تسمح به وجوه الاتفاق في المصادر والأهداف . كما يختلفون عنهم بقدر ما تستدعيه الظروف الخاصة ، وبفرضه ما يكون بين الناس من فروق في الأمزجة وتباين في الثقافات . وهذا ما دعا أحد أعضاء الحركة الاصلاحية بالجزائر الى القول : " ولكن حركة الاصلاح عندنا ان هي اتفقت مع سالفاتها في الأهداف والمرامي ، لم تكن متفقة معها في الوسائل والامكانيات ، وذلك لاختلاف العوامل الداعية اليها هنا ، وهنالك ".[3] وان هذه الخاصية القائمة على التميز والتكامل بآن ، هي التي كانت تمد هذه الحركة بصلابة الموقف والثبات على المبدإ ، وتربطها بمعين لاينضب مما كان يجود به الشعب الجزائري عليها من بذل وعطاء . وما كانت تزودها به روافد النهضة القومية من ينابيع العلم والمعرفة ، وأفكار التحرر والثورة .

---

(1) ينظر د. أبو القاسم سعدالله (الحركة الوطنية الجزائرية) ج 3 : 93 .
(2) ينظر . عبدالله ركيبي (الشعر الديني الجزائري الحديث) ص 563 .
(3) الشيخ محمد خير الدين (مجموعة البصائر) 1 ـ التصدير ص (ج)

وقد كان لذلك أثره في شد عضدها ودعم موقفها ، وتمكينها بالتالي من مواصلة زحفها ، وبسط نفوذ دعوتها في مختلف أرجاء البلاد . الأمر الذى أذهل المحتل فأسرع الى مضاعفة حملاته الارهابية ضدها ، تلك التي أخذت أشكالا مختلفة ، تمثلت من جهة ، في فرضه رقابة صارمة ، على تحركات رجالها ، وتقييد حريتهم ، وغلق أبواب العمل في وجوههم[1] . كما ظهرت من جهة أخرى في مصادرته صحفهم وايقاف نشاط مؤسساتهم التعليمية والثقافية واستعداء بعض أعوانه عليهم[2] . بيد أن ذلك كله ماكان ليقوى على أن ينال من عزيمة أولئك الرجال ، لأنهم لم يأخذوا به على غرة ، وانما كانوا يتوقعون من المحتل أكثر منه ، منذ انطلاقتهم الأولى في العمل ، وهم يقفون منه موقف الخصم ، فكانوا يدركون بذلك أنهم بعملهم هذا ، انما يصيبونه في الصميم ، مما لا يمكن أن يسكت عنه ، ولذلك أعدوا أنفسهم مسبقا لتحمل الأذى ، والصبر على المكروه ، فلما تعرضوا لذلك لم يفت من عزمهم ، ولم ينل من ايمانهم[3] . ومضوا في طريقهم يناضلون . وكان صراعا شديدا وغير متكافيء ، عاشه الشاعر محمد العيد الى جانب أمته كواحد من أولئك العلماء العاملين .

وبهذه الارادة ، واصلت الحركة الوطنية بجميع وجوهها مسيرتها النضالية . ولم تلبث تلك الجهود حتى تلاقت ، تجسيدا ، لارادة الشعب الجزائرى الموحدة ، في أول لقاء من نوعه ، في تاريخ الجزائر الحديث[4] ، حول مائدة المؤتمر الاسلامي المنعقد بالجزائر العاصمة في (7 جوان

---

(1) ومن ذلك ما قام به الكاتب العام لولاية الجزائر (جول ميشال) الذى أصدر في شهر واحد ما بين 16 ـ 24) فيفرى سنة 1933م ثلاث قرارات ضد نشاط الحركة الاصلاحية .
يتظر (الشهاب)الج 4/م9/ ذي القعدة 1351 هـ ماى 1933 م ، ص 31 .
ينظر (البصائر) العدد : 31 السنة : 1 . 19 جمادى الأولى 1355 هـ ـ 7 أوت 1936 م (ص 4 ـ 5) .

(2) ينظر الشيخ البشير الابراهيمي (عيون البصائر) ص 231 وما بعدها .

(3) ينظر ش. أ. جوليان (افريقيا الشمالية تسير) ص 133 .

(4) د . أبو القاسم سعدالله (الحركة الوطنية الجزائرية) ج 3 : 161 .

1936) ، وأسفرت مداولاته عن اجماع الشعب الجزائري على تمسكه بحقوقه واصراره على المطالبة بها،[1] وارساله وفدا الى فرنسا بهذا الشأن .

وقد أذهلت هذه الوحدة الوطنية المحتل فأسرع الى وأدها في المهد بوسائل مختلفة ، لعل من بين ذلك ، تدبيره لمؤامرة مقتل الشيخ (محمود كحّول) امام الجامع الكبير بالجزائر العاصمة [2] ، والصاق التهمة بجمعية العلماء في شخص واحد من أبرز أقطابها ، وهو الشيخ الطيب العقبي الذى امتحن بهذا البلاء ، وصبر له حتى خرج منه منتصرا . ولئن كان لتلك الدّسيسة أثرها في افشال مساعي ذلك المؤتمر فانها لم تستطع أن تبلغ الى المساس بجوهر الأهداف الوطنية التى كانت من ورائه ، بدليل استمرارية الحركة الوطنية في أعقاب ذلك، في طريقها النضالي .

وتندلع الحرب العالمية الثانية وتدخل في اعقابها النهضة الوطنية بجميع فروعها مرحلة جديدة ، ويكون لتلك الجهود المتظافرة في مختلف ميادين العمل والكفاح ، أن تؤتى ثمارها في ايقاظ الوعي الوطني وتبلور الفكرة السياسية وتكوين منظمة وطنية تضم العلماء ، وحزب الشعب ، والاتحاد الديمقراطي ، بهدف مواجهة جماعية للاحتلال[3].

---

(1) الشيخ محمد البشير الابراهيمي — (البصائر) العدد : 24 السنة : 1/ 29 ربيع الأول 1355 هـ / 19 جوان 1936 ، ص 1 .

(2) وقعت هذه الحادثة في حوالي الساعة التاسعة والنصف من صباح الأحد (2) أوت 1936م ، بشارع (لالير) بالجزائر العاصمة . وقد ألقي القبض على أربعة أشخاص ، زعم أن واحد منهم وهو المسمى (عكاشة) هو الذى قام بالجريمة، بتحريض من الشيخ العقبي . فألقي القبض على هذا الأخير في اليوم الثامن من أوت ، ثم خلّى سبيله في اليوم الرابع عشر منه ، ولكنه ظل تحت طائلة البحث والاتهام الى [illegible] 1938 .
[illegible] (البصائر) العدد : 31/ 19 جمادى الأولى 1355 هـ — 7 أوت 1936م ص 3 .
(الشهاب) ج 3/ م14 ، شعبان 1357 هـ أكتوبر 1938 .

(3) ينظر شارل أندري جوليان (افريقيا الشمالية تسير) ، ص 328 وما بعدها .

وتشهد الحركة الأدبية لهذا العهد تطورا ملحوظا، لتطور عواملها المختلفة، فقد توسع نطاق التعليم العربي في البلاد، وعرفت الصحافة وثبة الى الأمام بعودة جريدة (البصائر) الى الظهور من جديد[1]. ونشطت حركة الاحياء والنشر بتطور امكانيات بعض المطابع[2]. فظهرت مجموعة من التآليف في بعض فنون المعرفة وخاصة في التاريخ والأدب[3].

وازدادت الصلة بالنهضة القومية وحركاتها الفكرية والأدبية، توطيدا، فكان لذلك مفعوله في توجيه الحركة الثقافية والأدبية في الجزائر، في المسار الذى اتجهت فيه، وذلك بفضل ماكان يرد عليهما من آثار الشرق العلمية، بواسطة الكتب والمجلات، هذه التي تضاعف ورودها على الجزائر منذ الثلاثينات، وكان على رأس ذلك في هذه الفترة مجلة (الرسالة) [4]، هذه المجلة التي كانت تتسم بالأصالة والوفاء لقيم الثقافة العربية الاسلامية، والتفتح على الثقافات والتجارب الانسانية في وقت واحد، وقد كانت تحظى بمكانة مرموقة لدى الأدباء الجزائريين الذين كانوا يرقبون وصولها في تلهف شديد.

وينص أحد الجزائريين على هذه الصلة الفكرية بين الجزائر والشرق، فيوضح أن من (آثار تلك الروابط الروحية والعقلية بين الشرق والجزائر في ذلك الزمن، أن أحدثت منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجرى، حركة علمية أدبية، تنتمي الى النهضة الشرقية من ناحية، وتقتدى بها)[5].

ويؤكد هذا الأثر أيضا الأستاذ محمد الهادي السنوسي فيقول: (من منا معشر الأدباء الجزائريين من لم يفتح عينيه، منذ أن انتهت الحرب

---

(1) كنا قدرأينا أنها توقفت سنة 1939. وقد عادت الى الصدور في سلسلتها الثانية ابتداء من (25 جويلية 1947م).

(2) نذكر من بينها: مطبعة (ودرسي قدور) التي تأسست في العقد الاول من القرن الحالي. والمطبعة الاسلامية بقسنطينة، والمطبعة العربية للشيخ أبي اليقظان بالجزائر العاصمة.

(3) من ذلك مؤلفات، الشيخ مبارك الميلي، والأستاذ أحمد توفيق المدني، والأستاذ أحمد رضا حوحو.

(4) اسسها الاستاذ احمد حسن الزيات، صدر العدد الاول منها يوم الأحد 13 رمضان 1351 هـ / 10 جانفي 1933، واستمرت في الصدور الى سنة 1953م.

(5) سعد الدين بن شنب، (مجلة كلية الاداب، جامعة الجزائر العدد 1 سنة 1964م ص 41.

الكبرى الأولى، على آثار مدرسة (اسماعيل صبرى). و (حافظ) و (شوقي) و (طه)، و (أحمد أمين) و (المنفلوطي) و (الزيات) من أفراد الرعيل الثاني؛ أقول: الثاني، لأنهم سبقوا طبقة الشيخ (محمد عبده)، ومن التف حوله من أمثال: (رشيد رضا) (وعبدالعزيز شاويش)، و (طنطاوى جوهرى)، و (علي يوسف)، و (تفيق ذياب)، و (المرصفى) (1).
كما ظلت الصلة بين تونس والجزائر قائمة تغذيها البعثات العلمية، والصحف والزيارات، مما ساعد على تدعيم أسس النهضة العامة في الجزائر، والتمكين لمختلف مظاهرها (2).

ومضى الأدب العربي الحديث في الجزائر بتأثير هذه العوامل المختلفة يشق طريقه ويحقق ذاته ويستمد من الفكرة الاصلاحية روحه ومادته، مما صبغه بلونها، وطبعه بطابعها العربي الاسلامي. وظهر على اثر ذلك جيل من الكتاب والشعراء حملوا راية الكفاح الوطني، ومضوا يسهمون بالكلمة الهادفة في تدعيم مسيرة الحركة الوطنية، يدعون الشعب بدعوتها، في التمسك بمقومات شخصيته، والعمل على احيائها، وربط مصيره بمصير أمته، وحثه على الاقبال على الحياة والأخذ بأسباب العلم، والنضال من أجل حريته وسيادته.

وكان الشاعر محمد العيد على رأس كوكبة من الشعراء الجزائريين على هذا الطريق.
ويقول بهذا الصدد:

ثورة الشعر أنتجت ثورة الشعب وعادت عليه بالآلاء (3)

---

(1) ينظر أبو الجندى (الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا) ص 106.
(2) ومن الصحف التونسية التي كانت تصل الى الجزائر في بداية العشرينات من هذا القرن، جريدة (العصر الجديد) التي قرظها الشاعر محمد العيد بقصيدة سنقف عندها في مكانها من هذه الرسالة.
ويظر مالك بن نبي (مذكرات شاهد القرن) ـ (الطفل) ص 337.
(3) ديوان الشاعر، ص 436.

فما كان من ذلك الا أن نما الاحساس بالذات الوطنية ، وتبلور الوعي القومي في نفوس أفراد الشعب الجزائري ، ومضت قوة الايمان تذكي في هذا الشعب الشعور بالقوة، والاعتداد بالنفس، والاستماتة بالخطر. فنهض من كبوته التي وقع فيها على اثر حوادث (الثامن) من ماي سنة 1945 (1)، مستفيدا من تجاربه مع المحتلين ، ومن تجارب الشعوب المكافحة في العالم.

ومضت قواه المخلصة تجمع الشمل وتستأنف دورة جديدة من نضالها ، وتعد الشعب لليوم الكبير ، فتكونت في الخامس من شهر أوت سنة 1951 م (الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية) وتضم أهم فصائل المقاومة الوطنية (2). ولم يلبث الشعب الجزائري أن اجتاز مرحلة الخطر، وفجر ثورته الخالدة في الفاتح من نوفمبر سنة 1954 ، وخاضها حربا مقدسة ، قدم فيها جسام التضحيات وصمد فيها لحروب الابادة على امتداد سبع سنوات ونيف.

وكان ايمانه فيها بنصر الله له ، أقوى في نفسه من كل ما استخدمه المحتلون الطغاة في قهره واخماد ثورته من ألوان القمع والارهاب والتعسف.

واستطاع الشعب الجزائري — بالرغم من كل ما جند ضده — بفضل ما يملك من حضارة أصيلة وشخصية متميزة ليس فحسب ، أن يثبت أمام ذلك الغزو الحضاري الذي استهدف طوال فترة الاحتلال الاجنبي ، القضاء على كيانه ، وانما استطاع أن يتصدى ذلك المسعى قهر مغتصبيه وافتكاك حريته منهم ، وطرد هم من الوطن صاغرين.

---

1 — خرج الشعب الجزائري في مدن كثيرة في هذا اليوم ، يعبر عن حقه في الحرية بعد انتصار الحلفاء فما كان من سلطات الاحتلال الفرنسي الا أن أخمدت هذه الانتفاضة بالتقتيل الجماعي ، فسقط من جراء ذلك مايزيد على خمس وأربعين ألف شهيد .

ويشهد بعض المؤرخين الفرنسيين بأن رد الفعل الفرنسي كان في هذه الحوادث لا انسانيا — ينظر شارل أندري جوليان (افريقيا الشمالية تسير) ص. 335

2 — جريدة (المنار) الجزائرية العدد : 7 السنة الاولى ، 15 أوت 1951.

وتحاول الجزائر منذ هذا الوقت أن تعود الى ماكانت عليه من قبل الاحتلال ، للقيام بمساهمتها في المسيرة النضالية للأمة العربية الاسلامية .

ونود أن نكون بما قدّمنا في هذه الصفحات ، قد استطعنا أن نرسم بعض الملامح من مظاهر البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية ، التي نشأ الشاعر محمد العيد في ظلالها وتغذى من معطياتها . وكان لها أثرها الواضح في توجيهه وتكوين أفكاره . والرسالة اذ تقوم بذلك ، فانها لاتعدو أن تكون قد رسمت الوجه الأول من تلك الصورة التي تريد ابرازها لتدرس في اطارها الشعر الاسلامي عند محمد العيد . أما الوجه الثاني فذلك ما سيحاول الباحث استجلاءه في الباب الأول من هذه الدراسة ، وذلك بالتعرف على بعض جوانب حياة الشاعر ، والوقوف عند الملابسات التي اكتنفتها ، والعوامل التي كانت ترفدها وتغذيها ، وتوجهها في المسار الذى اتجهت فيه ، وتطبع بطوابعها شخصية الشاعر وشعره .

الباب الأول
حياة الشاعر

الفصل الأول
النشأة والتكوين .

الفصل الثاني
في الطريق إلى الحياة العامة .

الفصل الثالث
من العزلة الإجبارية إلى العزلة الإختيارية .

الفصل الأول

النشأة والتكوين

تنحدر أسرة الشاعر محمد العيد آل خليفة من القبيلة العربية (المحاميد) التي سكنت (ليبيا) في العهد الفاطمي (1)، ومنها انتقلت الى الجزائر في العهد العثماني، واستقرت في (وادي سوف) بالجنوب الجزائري. ومما يذكر من أسباب هذه الهجرة أن (غومة بن خليفة المتوفي 1835م) شيخ قبيلة (المحاميد) كان قد ثار على الأتراك في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي (2) في (طرابلس الغرب)، ثم هاجر بقبيلته الى (وادي سوف) لكي لاتصل اليه يد الأتراك، ولكنه لم يلبث أن رجع الى (ليبيا) وبقي بالجزائر بعض من جاء معه اليها. وكان من ذلك الفرع الذي انحدرت منه أسرة الشاعر (3).

ولم تلبث هذه الأسرة أن انتقلت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي الى مدينة (العين البيضاء) بالشرق الجزائري في اطار رحلة من رحلات الشتاء والصيف المألوفة، ما بين سكان الصحراء وقاطني التل، للتجارة وتبادل المحصولات الزراعية. وكان للأسرة بعد هذه الرحلة استقرار بالمدينة المذكورة، على يدي والد الشاعر السيد (الحاج محمد علي خليفة) الذي كان قد ترعرع في كنف رعاية أبيه السيد (الحاج علي خليفة) وقد كان رجلا تقيّا ورعاً، تشدّه الى الطريقة (التيجانية) روابط وثيقة انتقلت اليه، والى عموم أفراد الأسرة عن طريق واحد من كبار رجالها وهو الشيخ (الحاج علي بن الحاج عيسى).

فنشأ الابن (محمد علي) والد الشاعر نشأة دينية، طبعت شخصيته بطوابع التقوى والورع فأعده ذلك بأن يكون من بعد، (مقدما) للطريقة (التيجانية) وكان يعتبر الطريقة عامة على أنها وسيلة من وسائل العبادة ونشر الدين وخدمة العلم، الأمر الذي دفعه الى تأسيس مسجد بمدينة (العين البيضاء) في حوالي سنة 1908م، لخدمة تلك الأغراض، وقد أصبح هذا المسجد فيما بعد، نواة الزاوية التيجانية بالمدينة (4). ولعلّ هذا الضمير هو الذي ساعد والد الشاعر، على أن يجمع كأغلب التيجانيين ما بين السعي في طلب الدنيا، والعمل للآخرة في وقت واحد، وقد مكنه هذا المفهوم

---

(1) د. محمد الصادق عفيفي، (الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث) ص 243.
(2) المصدر السابق، ص 247.
(3) حكى لي هذه الرواية الشيخ حمزة بوكوشة في جلسة بمنزله في ربيع 1986م.
(4) مايزال هذا المسجد قائما الى اليوم بهذه الوظيفة، ولا علاقة تربطه بأية طريقة صوفية. أفادني بهذه المعلومات الشيخ علي الساسي ... المشرف على هذه المؤسسة الى وفاته.

من جهة أخرى ، من الدخول الى الحياة العامة كتاجر نشط يسعى ويكدّ لكسب الحلال من الرزق ، وظل ينتقل بتجارته في بعض أنحاء البلاد ، حتى قرّر لأسباب صحيّة وتجارية الاستقرار بأسرته نهائيا بمدينة بسكرة ، وذلك في حوالي سنة 1918م[1]، وبها عاش الى أن توفي رحمه الله سنة 1927 م بعد رجوعه من أداء فريضة الحج بالبقاع المقدّسة بنحو خمسة عشر يوما[2] . وفي مدينة العين البيضاء الجميلة التي تتربع بين التلال والسهول ، وتكاد حقول القمح والشعير تحف بها من كل الجوانب المحيطة بها ، فتلبسها الاخضرار والأزهار في فصل الربيع ، وتمنحها البهجة والرخاء في فصل الصيف ، وفي أحضان تلك الأسرة العريقة في التدين ، وتحت رعاية ذلك الأب الصوفي الصالح ، ولد الابن محمد العيد في (27 جمادى الأولى 1322 هـ / 23 أوت 1904م) فنشأ في ذلك الجو الأسري المفعم بالتقى والعفة والورع فتشربت نفسه هذا الحب العميق الموروث للعقيدة الاسلامية ، والأخلاق الفاضلة ، والايمان الشديد بعز الاسلام والوطن . ثم اختلف الى التعلم ، فكان الى جانب البيت ، عاملا مساعدا على تشبع هذا التلميذ الصبي بهذه الروح الدينية ، وتعميقها في نفسه ، بما كان يمدّه به من مبادئ الثقافة العربية الاسلامية ، وقد استهله بقراءة القرآن الكريم في (الكتاب) ثم التحق بالمدرسة بالعين البيضاء[3] حيث بدأ يتلقى المبادئ الأولى في العلوم الدينية واللغوية على أيدي الأستاذين . الشيخ (أحمد بن ناجي الصّائغي)

والشيخ محمد الكامل بن الشيخ (المكي بن عزوز) (1354 — 1915م)[4].

واما انتقلت أسرته الى بسكرة ، وذلك حوالي 1918م . كان الشاعر ما يزال لم يكمل حفظه للقرآن الكريم ، فأتمه وهو ابن اربعة عشرة سنة على أحد أئمة مساجدها ،

---

(1) يذكر د . سعد الله في (محمد العيد آل خليفة — رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث .) ص 22 . أن هذه الهجرة كانت سنة 1917م .

(2) أفادني الشاعر بهذه الرواية في جلسة بمنزله ببسكرة في ديسمبر 1976 م .

(3) يذكر أن هذه المدرسة تأسست في مطلع القرن الحالي ، ينظر (الشعر الجزائري في العصر الحاضر) ج 1 : 16 .
الشيخ محمد الهادي السنوسي . وينص (د . نسيب نشاوي) على أن هذه المدرسة هي ثاني مدرسة عربية حرة بعد مدرسة (تبسة) . ينظر (مجلة مجمع اللغة العربية) بدمشق ج 4/ م 58 / ذو الحجة 1403 هـ . اكتوبر 1983 م ، ص 805 .

(4) ينظر ترجمته في (الشهاب) ج 11 /م6/ رجب 1349 هـ/ ديسمبر 1930م ، ص 600 .

ثم اختلف الى الشيخ (علي بن ابراهيم العقبي) [1] الذي كان يدرّس في هذه الفترة بمسجد الزاوية (القادرية) ببسكرة ، وكانت دروسه نظامية يقسم فيها الطلبة الى طبقتين تدرّس كل طبقة منهما مواد خاصة بها [2]. فلازمه الشاعر نحو ثلاث سنوات ، أخذ عنه فيها الكثير من أصول التوحيد والفقه والنحو والمنطق وغيرها من العلوم الدينية واللغوية [3]. كما كان يحضر الشاعر في الوقت نفسه ، على أن لا تفوته دروس شيخه البلدية التي كان يخصّصها للعامّة . وفي هذه الأثناء حلّ ببسكرة الأستاذ الشاعر (الجنيدي أحمد مكّي) [4] خرّيج المدرسة الفرنسية الاسلامية بالجزائر العاصمة ، فأسس بمسجدها (المتميز) قسما دراسيا على الطريقة الحديثة فالتحق الشاعر بدروسه — بالرغم من أن شيخه علي بن ابراهيم لم يكن يحبّذ ذلك ، لشدّة تحفّظه من مثل هؤلاء الخريجين — فدرس عنده بعض العلوم الدينية واللغوية والأدبية [5].

وفي سنة 1921 م توفي شيخه علي بن ابراهيم ، وكان الشاعر ما يزال على مقاعد الدراسة لم يرو بعد ظمأه ، من مناهل المعرفة ، فسمت نفسه الى الاغتراب طلبا للمزيد من العلم وكان أبوه قد توسم فيه مخايل النجابة والطموح فكان من ورائه لتحقيق هذه الأمنية ، فسافر الى (تونس) قبلة البعثات الطلابية آنذاك ، وانتسب الى (جامع الزيتونة) وأصبح طالبا نظاميا به في الطبقة الثالثة من المرتبة الأخيرة ; وكانت به يومئذ سبع طبقات ، وذلك بعد ما أجري عليه اختبار يجرى على كل طالب يودّ الانتساب الى جامع الزيتونة ، ويدعي أنه درس خارجه حتى يحدّد له بمقتضاه الطبقة التي تلائمه [6].

---

(1) ولد بمدينة (سيدي عقبة) حوالي 870 ، درس بمسقط رأسه ، ثم ارتحل الى جامع الزيتونة ومنه عاد الى بلدته ، حيث شرع في التدريس بها ، ثم انتقل الى بسكرة ، توفي حوالي سنة 1338م .

(2) كانت الطبقة الأولى تدرس (ابن آجروم في النحو ومختصر (الاخضري) في الفقه .
وأما الطبقة الثانية فتدرس (قطر الندى لابن هشام في النحو ورسالة أبي زيد القيرواني في الفقه .

(3) وقفت على تصريح بخط يد الشاعر على حاشية كتاب (مختصر خليل) بمكتبته الخاصة ، يثبت فيه أنه درس على شيخه المذكور (باب النكاح) في هذا الكتاب وذلك في سنة 1338ه

(4) ولد ببلدة (خنقة سيدي ناجي) بالقرب من بسكرة ، في (30 جانفي 1893 م) .

(5) أفادني الشاعر أنه قرأ عليه بعض المعلقات في الشعر الجاهلي ، ذكر لي منها بخاصة معلقتي امرىء القيس ، وطرفة بن العبد . كما تعلم عنه بعض بحور الشعر .

(6) عثرت بمكتبة الشاعر على الوثائق الرسمية التي تثبت اجراء الامتحان عليه ، وتحديد مستواه العلمي بمقتضاه ، بالطبقة الثالثة بجامع الزيتونة ; والوثيقة مؤرخة في (24 محرم 1340ه 27 سبتمبر 1921 م) .

وانكبّ الشاعر بعد ذلك على الدرس والتحصيل ، بيد أنه لم يلبث الا قليلا حتى تبين أن هذه الكتب المقررة في دبجته كان قد قرأ معظمها بالجزائر ، وأنه باختلافه الى حلاقاتها ، انما يقوم بتكرارها ، ففكّر في التخلّص من هذه الطريقة النظامية التي تلزمه بالحضور في حلقة معينة ، هو في غنى عن كثير مما يدور فيها . ولم يلبث يفكر في هذا الأمر حتى اهتدى الى الاختلاف لعدة حلقات ، ليست ذات مستوى تلمذيّ واحد ، مما يسمح له باختيار ما يلائمه من دروس وأساتذة . فكان بذلك يحضر في الصباح بعض الطبقات ثم يلتحق في المساء بطبقات أخرى قد تكون دون الأولى وقد تكون أعلا منها .

كما كان يداوم الى جانب ذلك بصفة حرة على بعض الدروس ، في بعض المواد العصرية كالحساب والجغرافية وغيرها بالمدرسة (الخلدونية) التي كانت تمدّ مكملة لدور (جامع الزيتونة) يومئذ ، باهتمامها بالعلوم الحديثة ، فهي تشبه في تلك المهمة الى حد كبير ، الدور الذى تضطلع به " دار العلوم " بمصر ، الى جانب ما ينهض به " جامع الأزهر " في رسالته العلمية .

وقد دامت دراسة الشاعر على هذا النحو حوالي سنتين(1)، قرأ خلالهما قسطا وافرا من الكتب والمواد التي كانت تدرس بالزيتونة ، وغيرها من المعاهد العلمية في العالم العربي الاسلامي يومئذ(2) على شيوخ أجلاء من أمثال الشيخ (عبدالعزيز الباوندى) والشيخ (محمد مناشو) والشيخ (محمد الدامرجي) والشيخ (البشير النيفر) وغيرهم من علماء تونس آنذاك ، هؤلاء الذين كانوا على صلة بتيارات وأفكار النهضة الاسلامية بالشرق ، فكان محمد العيد يأخذ عن هؤلاء العلم ، ويأخذ عنهم في الوقت نفسه تلك المؤثرات الشرقية التي كان يسمع عنها وهو صغير ، قبل ذلك ، فازداد عن طريقهم تأثره بها ، وبما كان يدور من صراع في أروقة (الزيتونة) مابين المحافظة والاصلاح ، وبما كان يشيع في أجواء الحياة العامة من تيارات سياسية وثقافية وأدبية(3) .

---

(1) عثرت على وثيقة السجل الرسمي لانتساب الشاعر الى جامع الزيتونة ، وبه معلومات حول امتحانه في السنة الأولى فقط ، مما يمكن أن يستنتج منه أنه غادر تونس قبل أن يتقدم لامتحان السنة الثانية الأمر الذى لم يسمح له بالحصول على الوثيقة الرسمية لهذه السنة .

(2) من أهم المواد : التفسير ، والحديث ، والتوحيد ، والفقه ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والمنطق .

(3) د . سعدالله (محمد العيد آل خليفة ــ رائد الشعر الجزائرى في العصر الحديث) ص . 25 .

وفي السنة الدراسية الثانية أدركت الشاعر أتعاب وأمراض أضعفت جسمه ، كان من بين أسبابها الواضحة ، المناخ الرطب الذى لم يكن الشاعر متعودا عليه في بيئته القارية الجافية بالعين البيضاء وبسكرة .

فعرض نفسه على الأطباء فنصحوه بالذهاب الى أحد الحمامات فذهب الى حمام (قربص) [1] . ولكن صحته لم يطرأ عليها أي تحسّن بل ازدادت تدهورا فتأكد أنّ ما ألمّ به ، لم يكن من شأن هذا النوع من العلاج ، أن ينفع فيه ، فقرّر الرجوع الى الجزائر ، وكان ذلك سنة 1923 م ، ومما جاء من الشاعر تعليقا على ذلك قوله (وما كاد ينقضي عام 1342 هـ حتى خارت قواي وضعفت عزيمتي لما طرأ عليّ من الآلام التي كانت حجرة عثرة في سبيلي فاضطررت الى الرجوع الى بسكرة) [2] .

وهكذا رجع الشاعر الى الجزائر دون أن يحصل على أيّ شهادة علمية خلافا لمن قال : (ان الشاعر درس الى أن حصل على الأهلية) ثم قال في موضع آخر : (وبعد عامين من الجدّ والنشاط والمواظبة تحصل (كذا) على شهادة التطويع) [3]

وقد استقر الشاعر بعد عودته من تونس بمدينة بسكرة وكان ما يزال طالب علم متعطشا الى المزيد من معارفه فاتصل بالشيخ (المختار اليعلاوى أوليماز) [4] الذى كان يعطي دروسا ليلية بالمسجد " العتيق " فدرس عليه شيئا من الفقه والحساب والفلك ، كما اختلف الى دروس الشيخ (البشير الابراهيمي العقبي) [5] بالزاوية (التجانية) والى دروس الشيخ (الطيب العقبي) التي كان يقوم بها في مسجد (بكار) ببسكرة ، وكانت تتمركز خاصة حول التفسير ، وعلوم البلاغة [6] ، وكان الشاعر الى جانب هذه الروافد التعليمية [7] واقعا تحت مؤثرات البيئة

---

(1) يقع هذا الحمام على بعد حوالي (40) كلم من تونس العاصمة .
(2) ينظر (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) ج 1 : 12 — محمد الهادى السنوسي .
(3) الأستاذة (صور زمنية) — جريدة (الشعب) فاتح فيفرى 1971 .
(4) جاء من شمال البلاد ليعمل في الادارة ببسكرة .
(5) كان من كبار علماء زاوية (سيدى عقبة) وهو من أقارب الشيخ الطيب العقبي .
(6) أفادني الشاعر أنه قرأ عليه في البلاغة كتاب (الجوهر المكنون) للشيخ عبد الرحمن الأخضرى ، وحضر من دروسه في التفسير خاصة تفسيره للسور الآتية : (آل عمران ، النساء ، المائدة) .
(7) ولم أعرف أحدا ذكر أن الشاعر درس بوادى سوف غير الأستاذ محمد الصالح الجابرى في كتابه (الأدب الجزائرى في تونس) ص 8 — رسالة دكتوراه الدرجة الثالثة — مخطوط .

الاجتماعية التي كانت في معظمها بيئة دينية محافظة ، يلعب العامل الديني فيها ، وفي حياة أهلها دورا بارزا ، فحسب لذلك ، وهو يجمع في تكوينه الفكري ، مابين مبادىء الاصلاح ، التي كانت بذورها الأولى قد غرست في نفسه قبل سفره الى تونس ثم ازدادت هناك نماء وتطورا لما توفر لديها من المناخ الملائم ، وما بين النزعة الصوفية التي انتقلت اليه عن طريق الوراثة والاكتساب من أسرته ومن أبيه بوجه خاص الذي سبق أن رأينا أنه كان صوفيا مقدما (المتيجانية) ، ولكنه لم يكن منغلقا سلبيا وانما كان واسع الأفق ، مما جعله يشجع ولده ليتصل بالمصلحين ويكون واحدا منهم[1] ، ويؤكد الشاعر ذلك فيقول عن والده بأنه كان (مصلحا يحب العلم والاصلاح ويجلّ العلماء والمصلحين وينظر اليهم نظرته الى مشائخه)[2] .

ومن هذا الوالد انتقلت الى الولد جرثومة هذه الثنائية الجامعة مابين الاصلاح والصوفية ، لما كان له ما يكون للآباء على أبنائهم من تأثير كبير اتضح في توجيهه الفكري والاجتماعي المبكر ، وقد أحسّ الشاعر بذلك فعبّر عنه بقوله : (كانت سيرة والدي مرجعا لي في حياته وبعد مماته)[3] . وقد ساعد في تعميق هذه الصلة بين الشاعر والصوفية من جهة وبينه وبين الاصلاح من جهة أخرى ، تأثره بمشائخه من (آل المكي بن عزوز) وهو على مقاعد الدراسة بالعين البيضاء ، هؤلاء الذين كانوا شيوخا للطريقة (الرحمانية) ودعاة للاصلاح بسأن . واستمر هذا التأثير المزدوج يقوى ويشتدّ ، وهو يختلف ببسكرة الى حلقات الدروس بالزاوية (القادرية) حينا وبالزاوية (التيجانية) حينا آخر ، ويحتك بمن يرتاد هذه الأوساط من شيوخ مصلحين ومريدين مخلصين[4] .

وبالجملة فقد كانت البيئة الدينية والاجتماعية عموما واقعة في هذه الفترة تحت تأثير هذه الطرق الصوفية ، أكثر مما هي واقعة تحت مفعول غيرها[5] .

---

(1) أفادني بهذه المعلومات الشيخ حمزة بوكوشة في جلسة بمنزله في ربيع 1932م .
(2) سمعت من الشاعر هذا الكلام في جلسة بمنزله في شهر ديسمبر 1976 .
(3) سمعت هذه الرواية من الشاعر نفسه في جلسة بمنزلة في شهر ديسمبر 1976 .
(4) أفادني الشاعر نفسه بهذه المعلومات في جلسة بمنزله في شهر ديسمبر 1976 .
(5) علي مراد (الاصلاح الاسلامي في الجزائر) ص، 53 .

لأن عود الفكر الاصلاحي مازال لم يشتد بعد في هذه الآونة ، وقد ظل محمد العيد وفيا طوال حياته لهذه الصلة وبخاصة تلك التي تربطه بالتيجانية ، هذه التي يروى أنه كان يتردد بين الفينة والأخرى على زيارة زاويتها الواقعة بقرية (تماسين) بالقرب من مدينة (توقرت) بالجنوب الجزائري ويفوز بالحظوة لدى شيخها (أحمد التيجاني المتوفي حوالي 1966) الذى كان لايبخل عليه هو الآخر برد المثل كلما أتت به الطريق الى (بسكرة) حيث يقيم الشاعر [1].

ومما يوضح أن لهذه العلاقة جانبا عائليا ، أكثر منه ثقافيا ، أن الشاعر لم يكن يتحرج من هذه الصلة ، ولم يحاول انكارها أو اخفاءها ، لاعتقاده أنه لم يخرج فيها الى ما يشين عقيدته أو يخدش في تدينه . ومما يروى عنه أنه حصل له أيام شبابه ، حينما كان طالبا ببسكرة بالزاوية (القادرية) مما يؤكد هذه الصلة من نحو ، ويوضح عدم تحرجه منها من نحو آخر ، أن أحد زملائه في الدراسة يومئذ ، حاول أن يستفزه وهو يصلى ، وكان قد جهر بالبسملة [2] بقوله : (أأنت تيجاني) ؟ فلما صلى وسلم الشاعر أجاب سائله دون أن يظهر عليه أي أثر الحساسية ! (أجل أنا تيجاني الطريقة ، مالكي المذهب) [3] . وهذا ما ينطبق على ما هو معروف عن التيجانيين عموما ، حيث كانوا من بلاد العالم الاسلامي ، أنهم تيجانيون سلوكا . وأما من حيث المذهب فمنهم : المالكية والشافعية والحنابلة والأحناف [4].

وكان الشاعر من ذلك الوقت مواظبا على أوراد من الذكر ، وفي القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية الشريفة ، دعوة حارة الى القيام بألوان عديدة من ضروب الذكر والتعبد ، من استغفار وتسبيح وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

---

(1) ومما يؤكد صلة الشاعر بالتيجانية الى آخر حياته ما يروى من أن الشيخ محمد الحافظ التيجاني المصرى قد زاره عند قدومه الى الجزائر ، في حوالي سنة 1967 م .
(2) ولا يخفى أن الجهر بالبسملة في الصلاة مكروه في المذهب المالكي .
(3) أفادني بهذه الرواية أحد زملائه في الدراسة يومئذ وهو الشيخ حمزة بوكوشة في جلسة بمنزله في شهر فيفرى 1982 م .
(4) محمد الحافظ (رسالة الانتصاف) الحلقة (3) ، ص 46 .

ويمكن أن يكون محمد العيد على هذا الأساس، يعتقد أن التيجانية منهج للعبادة والذكر، وكان لذلك لا يرى فيها بهذا المفهوم ما يتناقض مع الاصلاح، كفكرة، وكدعوة اجتماعية، بل لعلها تلتقي معه في بعض تلك الغايات بصفتها عاملا من عوامل نشر الاسلام، وذلك لما تعتمد عليه من الأصول الدينية من قرآن وسنة، كما جاء ذلك في قول الشيخ (أحمد التيجاني : 1737 ـ 1316م) [1] (ولنا قاعدة واحدة عليها تبنى جميع الأصول : أنه لا حكم الا لله ورسوله، ولا عبرة في الحكم الا بقول الله وقول رسوله) [2].

ويمكن القول أن الطريقة بهذه الروح استطاعت أن تقوم بخدمة الاسلام ونشره في أرجاء كثيرة من المعمورة، وتعمل على حمايته، والمحافظة على شريعته وتراثه، وبخاصة على أيدي بعض شيوخها الأفاضل، من أمثال : الشيخ (محمد العيد بن الشيخ البشير المتوفي سنة 1920) الذي كان على رأس زاوية (تماسين) في العقد الثاني في هذا القرن وكان يفيض غيرة على الاسلام والمسلمين، محبا للعلم والعلماء، ناشرا للمفهوم الصحيح للاسلام، مبغضا للبدع والأهواء [3]، ويؤكد الشيخ (محمد على دبّوز) ذلك فيقول عن هذا الشيخ انه (كان ذكيا أديبا، مثقفا، غيورا كل الغيرة على الاسلام والمسلمين، يكره البدع وينشر الاصلاح، ويبث في أتباعه روح الدين الصحيح، وكان يكره أن يقبّل أحد يده، وكان يدعو الى العمل والنهوض والتقدم) [4].

وقد خلف هذا الشيخ على رأس (الزاوية) عمه الشيخ (أحمد التيجاني) من بعده، فسار على نهجه في خدمة الدين ونشر العلم والغيرة على الوطن [5].

---

(1) ينظر ترجمته في (تعريف الخلف برجال السلف) ج 2 : 38 لأبي القاسم الحفناوي.
(2) محمد الحافظ (رسالة الانتصاف) الحلقة (2)، ص 17.
(3) يروى أن الشاعر رثى هذا الشيخ، ونشر ذلك في جريدة النجاح.
وقد كتب السعيد الزاهري مقالا، تعليقا على رثاء الشاعر ذلك، نشره بجريدة (الشهاب) العدد : 124/ 6 جمادى الثانية 1346 هـ / 1 ديسمبر 1927م، ص 61.
وينظر . أبو القاسم سعدالله (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث)، ص 31.
(4) نهضة الجزائر وثورتها المباركة ج 1 : 50.
(5) يروى بعض المعاصرين أنه كان لهذا الشيخ مواقف مشرفة أثناء حرب التحرير الوطنية.

وكان الشاعر يكتفي من الطريقة بهذا الجانب الروحي السلوكي ، دون أن يأخذ بها في غيره ، من جوانبها الأخرى كأن يطمع الى أبعد من ذلك مما يتمثل في الرسميات من مظاهر الولاية وغيرها ، فيعلن نفسه (مقدما) أو (شيخا) ، الأمر الذى يحرص عليه ، ويتخبطه كثير من الأتباع ، كما كان بعيدا كل البعد عن تلك الانحرافات التي أدت ببعض الطرقيين الى الغلوّ في وجوه التنسك والحرص على التمسك ببعض الطقوس التي ليست من الاسلام في شيء ، والتي لا تعدو أن تكون كهنوتا ورهبانية .

ولا شك أن الشاعر كان يرى أن هؤلاء الأتباع بسلوكهم الناجم عن جهلهم ، قد خرجوا عن أصل الشريعة وابتعدوا عن روح الاسلام ، فشوّهوا بذلك جوهر العقيدة الدينية . وأصبحوا من نحو آخر ، عامل انحطاط وتخدير للطاقات الوطنية ، مما أدّى ببعضهم ، الى الوقوف الى جانب أعداء الوطن ، والسير في ركابهم ، من حيث يشعرون أولا يشعرون (1) .

وقد وقف الشاعر وأسرته من قبله من هذه الانحرافات ، موقف الاستنكار ، وفي سيرته الخاصة وفي مواقفه الاصلاحية مما يخلده شعره ، الدليل الواضح على تشجيبه بكل ما يقوم به هؤلاء الجامدون من عمالة وتدجيل .

ولعل بهذا البيان الذى يلقى بعض الأضواء على تيجانية محمد العيد ، ندرك أنه لم يكن [illegible] وهو على [illegible] أن [illegible] على النحو الذى وضحنا — بالطريقة التيجانية ، وبين انتسابه الى الاصلاح ، يقف مواقفه ويدعو بدعوته .

وقد رأى الامام ابن باديس — وكان به ميل قديم الى الصوفية —(2) هذه المزاوجة الواعية مابين الاصلاح والتصوف في أسرة الشاعر وفي سلوك والده بوجه خاص ، عندما حلّ ببسكرة في حوالي 1925 (3) ، ونزل ضيفا مكرما على شرف والد الشاعر ،

---

(1) ينظر د . أبوالقاسم سعد الله ، مجلة الثقافة) العدد : 79 (يناير فبراير 1984) ص 65 .

(2) يروى أنه كان يأتي مع ركب الطرقية الى زيارة الطريقة الرحمانية بالجزائر العاصمة في حوالي سنة 1920 . وقد أنكر عليه بعضهم ذلك فيما بعد ، فكان يجيب بقوله : (كنت ضالا فهداني الله) .

(3) وكان الامام قد زار بهذه المناسبة (طولقة) و(سيدي عقبة) وفي هذه الأخيرة ، حاولت سلطات الاحتلال أن تمنعه من الدخول الى مسجدها للالتقاء بالمواطنين فيه . فما كان من الشيخ الطيب العقبي الذى كان يقوم في هذه الأثناء بمسقط رأسه الا أن أخذ الشيخ ابن باديس الى بستانه بالقرية ، وبه أقام درسه في وسط الأمة التي لم تستطع السلطات الحاكمة أن تمنعها من الالتحاق بهذا المكان .

فأقره على صوفيته بالصورة التي رآه عليها ، وعلّق على ذلك وهو يخاطب الشاعر بما في هذا المعنى (لو كان كل المتصوفة في البلاد كوالدك ، ورعا وتقى وتمسكا سليما بأصول الدين ، ومفهومه الصحيح ، واخلاصا للاصلاح لما كان ، ما كان بين رجال الاصلاح ، وبين أتباع الطرق المزيفة ، ولكانت الجهود واحدة) (1).

ومما يدعم هذه الشهادة ، ويؤكد في الوقت ذاته ، قرب والد الشاعر من الفكر الاصلاحي ، ما جاء في قول الشيخ الطيب العقبي وهو يخاطب الشاعر مشيرا الى أثر تربية والده عليه يقول العقبي :

رحم الاله أباك اذ رباك بالـــــ ـعلم الصحيح ومحكم القـــرآن (2)

ويحسن أن نشير أن ماكان يقره عادة الحركة الاصلاحية من رأى وما كان يزكونه من موقف ، كان يكون له تأثيره الكبير في توجيه العلماء والأدباء الجزائريين ، والشاعر واحدا منهم ، فكان له لذلك من تلك الشهادتين ما أكد له سلامة نهجه وشجعه على الاستمرار فيه ، فكان بذلك مصلحا صوفيا ، داعيا الى الاصلاح ، ناشرا للمفهوم الصحيح للاسلام ، ومقاوما للانحراف ، والجمود والأهواء . ولا غرو في ذلك فقد عرفت هذه الثنائية السلوكية ، وهذا التعايش السلمي بين الصوفية والاصلاح ، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة في القديم وفي الحديث ، وممن اشتهر بذلك من القدماء حجة الاسلام (أبو حامد الغزالي : 450 ـ 505 هـ) الذي جمع مابين التصوف والفقه ، وبين العلم والفلسفة .

وممن اشتهر بذلك أيضا من علماء الجزائر المتقدمين ، العالم الصوفي (عبد الرحمن الأخضري) (3).

وأما من اشتهر بهذه الخاصية من المحدثين فهم كثيرون ، نذكر من بينهم رواد الحركة الاصلاحية في المشرق (الأفغاني ، محمد عبده ، رشيد رضا) ومن رواد الاصلاح في الجزائر (ابن باديس الشيخ العربي التبسي (4) ، وغيرهما) .

---

(1) أفادني الشاعر نفسه بهذه الرواية . في جلسة بمنزله بشهر ديسمبر 1976 .
(2) ديوان الشاعر ، ص : 547 .
(3) ولد بقرية (بنطيوس) بالقرب من (طولقة) بسكرة حوالي 1512م وتوفي 1546م من آثاره في التصوف السني (المنظومة القدسية) .
(4) ينظر (مقالات في النهضة الاسلامية) للشيخ العربي التبسي ، ص 66 . اعداد أحمد شرفي .

وإذن فإن محمد العيد لم يكن بدعا من معاصريه في هذه الثنائية . ويشير الى جانب ذلك أن التصوف كان يطبع بيئة الشاعر يومئذ بأكثر مما كانت تؤثر فيها الأفكار الاصلاحية ، وكان لذلك يقع معظم المثقفين في بداية حياتهم ، آنذاك ، تحت التأثير الصوفي [1] ، الا أن الذى يميز الشاعر في هذا المجال أنه استمر في تصوفه ، الى جانب أخذه بالفكرة الاصلاحية . ومهما يكن من أمر ، فقد كان جانب الاصلاح عنده يوجه ميله الصوفي ، ويطبعه بطوابعه ، ولم تلبث كفته أن رجحت بشكل واضح عن الكفة الأخرى ، في الفكرة وفي السلوك ، وخاصة بعدما تعرف على الشيخ الطيب العقبي ، الذى كان قد عاد في هذه الفترة من الشرق العربي ، واتخذ من مدينة بسكرة منطلقا له لنشر العلم والدعوة الى الاصلاح والتجديد ، فكان له بذلك نشاط مشهود في الميدانين الاجتماعي والأدبي ، عن طريق ما يقوم به من دروس ومحاضرات وما يكتبه من مقالات وأشعار ، فلازمه الشاعر في مختلف وجوه نشاطه العلمي والاصلاحي نحو ثلاث سنوات ، فمكنه ذلك الاتصال بذلك المصلح الكبير من تعميق نظرته الى مشكلات الحياة والتمكين لما كان قد بلغ اليه من التحصيل العلمي والنضج الفكرى القائم على أصول الثقافة الاسلامية ، وفتح له ذلك آفاقا واسعة وعى من خلالها الفكرة الاصلاحية التي رأينا أن خميرتها ، كانت متأصلة في نفسه ، من زمان ، ويمكن أن نلمس مدى تأثر الشاعر بالطيب العقبي واعجابه بشخصيته من خلال هذه الأبيات

يا صاحب الطبع اللطيف ومنتج الشـ	ـعر الظريف و (طيب) الافنان
مذ استمعت رقيق شعرك مسرورة	أدركت سر تطابـ[illegible] الاغـ[illegible]ـان
أوعيت أسرار البلاغة كلها	من قبل عن (قس) ومن (سحبان) ؟
أم نلتها قدرا على عهد الصبا	فسبكتها في قالب الأوزان ؟
أسست من هذا وذاك مركزا	لك في الجوانح ثابت الأركان
عممت بالآداب (اخوان الوفا) [2]	وكذاك كل مهذب الوجدان [3]

ويؤكد الشاعر في موقف آخر هذا التأثر بلغة النثر التقريرية فيقول (كان اعجابي شديدا بشخصية الطيب العقبي وبواسع علمه ونبل مقاصده ، الأمر الذى جعل تأثري به متنوعا ، شمل العلم والاصلاح والأدب) [4] .

---

(1) كان الشاعران محمد الهادي السنوسي ، الجنيدي أحمد مكي . قد بدأ حياتهما على نهج الطرقية ولكنهما تحولا فيما بعد الى الاصلاح ، ينظر . محمد الهادي السنوسي (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) ج 1 : 186 .

(2) وردت هذه العبارة في (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) ج 1 : 146 ، بهذه الصيغة (اخوان الصفا) .

(3) ديوان الشاعر ، ص . 546 .

(4) سمعت هذه الرواية من الشاعر نفسه .

وقد التقى الشاعر لطبيعة تكوينه الوجداني والعقلي مع هذه الدعوة الاصلاحية في المبدإ وفي الهدف ، فاندمج فيها ومضى يسهم في حركتها ، ويعبر عن مبادئها بفنه ومساهمته في التدريس واصدار الصحف وغير ذلك من وسائل العمل . فقد كان عضوا في الهيئة المؤسسة والمحررة لجريدة (صدى الصحراء) ، كما كان العضو الثاني الى جانب العقبي في اصدار وتحرير جريدة (الاصلاح)(1) وفي تأسيس مطبعة (الاصلاح) فيما بعد (2) . كما كانت تربطه في هذه الفترة علاقة ودايدة بنشاط الشيخ ابن باديس الاصلاحي ، ولم تلبث هذه الصلة أن شهدت تطورا ملحوظا فيما بعد ، مما كان له أثره الواضح في توجيه الشاعر فكريا وأدبيا . وبالرغم من أن الشاعر لم يدرس على ابن باديس بطريقة مباشرة (3) فانه ظل يعترف بأثر توجيهاته على الحركة الفكرية والأدبية في الجزائر عموما مما ينطبق عليه وعلى غيره من الكتاب والشعراء الجزائريين : يقول الشاعر :

كان عبد الحميد في الرأى قد طابا	مرشد العقول والأفهام
... (عبد الحميد) (4) خطاط منها	جا قويما لقادة الأقلام
يمحض الشعر الكفاح ويوصي	بالتسامي عن لوثة بالخرام
والتجافي عن الغرابة ، لفظا	واجتناب الغموض والابهام (5)

كما كان للشيخ (محمد البشير الابراهيمي) تأثيره الواسع على جيل كامل من الكتاب والشعراء الجزائريين ، كان محمد العيد من أكثرهم افادة من ذلك ، لصلته الخاصة بهذا العالم الأديب ، ويلمح الشاعر الى شيء من ذلك فيقول :

وكنت بشعري للبشير مواكبا	على سمعه في موكب العلم أنشد
وقد يسمع البيت البليغ فينتشي	وقد يسمع البيت المسف فينقد (6) .

---

(1) كان اسم الشاعر قد ظهر في العدد الأول من هذه الجريدة ، ولكنه اختفى في عددها الثاني ويعلل ذلك بعضهم بأن أحدا من أقارب الشاعر قد طلب ذلك فنزل العقبي عند رغبته ، وقد يكون ذلك بسبب نفور الشاعر من الأضواء لنزعته الصوفية .

(2) كانت (الاصلاح) تطبع في البداية بتونس بمساعدة أحد معارف العقبي وهو مصطفى بن شعبان الا أن سلطات الاحتلال قامت بمنع ذلك ، فالجأ جماعة من بينهم الشاعر الى تأسيس مطبعة لجريدتهم . وهي التي تعرف اليوم ببسكرة بمطبعة (الصحراء) .

(3) وهذا على خلاف ما يرويه جمال الدين الآلوسي في كتابه (الجزائر بلد المليون شهيد) ص 3 .

(4) يقصد (عبد الحميد الكاتب المتوفي 132 هـ) .

(5) ديوان الشاعر ، 493 .

(6) من قصيدته (مشاعل حكمة) المنشورة بكتاب عيون البصائر للشيخ الابراهيمي ، ص 12 .

وواضح مما تقدم أن الشاعر كان متأثرا في فكره وفي فنه بهؤلاء الأعلام الروّاد ، الذين كان لهم أثرهم في رصد مسار النهضة الوطنية العامةوفي توجيه الحركة الأدبية بوجه خاص .

ويظن أنه أصبح من الواضح ، بعد الذى رأينا من أمر الشاعر وسيرة حياته ، أن انضمامه المبكر الى حركة الاصلاح واعتناقه لمبادئها لم يكن مخالفا فيه لنظام أسرته ، أو مغايرا فيه لاتجاه أبيه الصوفي على وجه الخصوص ، ذلك أن أسرته وأباه ، كانا الاثنين على طريق واحد ، ذلك هو طريق التدين الصحيح ، فقد رأينا أن والده كان صوفيا ، وكان مصلحا في الوقت نفسه ، محبا للعلم والعلماء ، الأمر الذى جعله يلتقي مع رجال الاصلاح في الفكرة وفي الهدف ، وبدفعه من ثم ليكون وراء ابنه (الشاب) يشجعه على الانضمام الى حركة المصلحين ، وكان مما يغمر قلبه أملا وسرورا ، أن يرى ولده وقد صار واحدا في زمرة أولئك العلماء العاملين [(1)] .

* * * * *

ولم يلبث الشاعر أن زاد من توطيد صلاته بالحياة ، ومن توسيع دائرة احتكاكه [illegible] في نفسه بالحاجة الى تعميق معارفه . وكان هذا الشعور في الواقع قد اعتراه منذ عودته من طلب العلم في تونس ، حيث قضى بها بعض سنتين ، ولم تكن هذه المدة بطبيعة الحال لتقوى على أن تروي ظمأه الى العلم ، أو تشبع طموحه الى ما يود أن يرقى اليه في سلمه من المراتب ، يقول في هذا الصدد :

تغربت لا أبغي الثراء وانمـــا تغربت كي أرقى من العزّ سلمـــا [(2)]

ولهذا انكب الشاعر منذ ذلك الحين على تعميق معلوماته ، الا أن هذا الاحساس بهذه الرغبة قد ازداد الحاحا عليه بدواعي محيطه الجديد ،

---

(1) أفادني الشيخ حمزة بوكوشة بهذه المعلومات .
(2) من قصيدة يروى أنه قالها في مطلع شبابه ، وهي من شعره المفقود .

فعكف على مصادر الثقافة العربية الاسلامية ، يروي ظمأه من ينابيعها ، وكان مما استهل به تحصيله مدارسة القرآن الكريم : قراءات وتفسيرا وتدبرا ، ويعود الى هذا الكتاب ، الفضل الكبير في تكوين وجدانه وعقله ، يقول الشاعر على لسان أحد شخصيات قصائده :

أنفقت وقتي في هدى فيه النفائس تنفق
أتذوق القرآن تذوقا ت الروح ما أتذوق
أتلو الكتاب مصدقا ان الكتاب مصدق
لاسفر أعمر منه في شتى العلوم وأعمق
لم لا أزاول درسه وأنا اللبيب الأحذق ؟ (1)

كما عكف الشاعر بالدرجة الثانية على دراسة الحديث الشريف ومعرفة أسانيده وعلومه ، والتمكن في أصول الفقه والتوحيد ، والمنطق والتصوف وما الى ذلك من العلوم الدينية والعقلية ، والتوسع من ناحية أخرى في ألوان الثقافة اللغوية والأدبية بدراسة الأدب العربي القديم والحديث في أهم مصادر النثرية والشعرية [2] ، والالمام ببعض عصور التاريخ الانساني ، والتاريخ العربي الاسلامي بوجه خاص .

وان المطلع على مكتبة الشاعر الخاصة يلحظ أن ما تحتوي عليه من المصنفات الدينية ، العلمية والسلوكية ، يغلب على غيره من الكتب : فهي الى جانب ما تشتمل عليه من أمهات الكتب المشهورة في اللغة والأدب ، ودواوين بعض الشعراء القدامى والمحدثين ، تحتوي أيضا على قدر غير قليل من كتب العقيدة الاسلامية والآداب السلوكية ، ولبيان ذلك نثبت بعض ما في تلك المكتبة من هذه المصنفات الأخيرة :

1 — جملة من كتب تفسير القرآن الكريم
2 — احياء علوم الدين للغزالي
3 — كشف الغمة عن جميع الأمة للشعراني .
4 — العهود والمواثيق للشعراني .
5 — كتاب النبوءات لابن تيمية .

---

(1) ديوان الشاعر ، 167 .
(2) د . أبو القاسم سعد الله (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث) ص: 91 .

7 — شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق لمحمد الشنقيطي ويوسف النبهاني
8 — مجموعة الرسائل والمسائل النجدية للشيخ محمد بن عبد الوهاب وأبنائه
9 — الارشادات الربانية بالفتوحات الالهية من فيض الحضرة الأحمدية التيجانية لأحمد التيجاني .
10 — عوارف المعارف للسهروردي
11 — حياة القلوب في كيفية الوصول الى المحبوب لعماد الدين الأموي .(1)

واستمر الشاعر في الدرس والتحصيل حتى استطاع أن يعمق مكسبه العلمي من أصول الثقافة العربية الاسلامية ، ومما يدل على هذه الاستمرارية في طلب العلم أن الشاعر كان قد طلب بمعية صديقه الشاعر جلول البدوي[2] أيام كانا معا في مدرسة الشبيبة ، من الشيخ ابن باديس أن يدرسا عليه بعض الكتب ، ويؤكد هذه الاستمرارية أيضا طلب الشاعر وهو في الخمسين من عمره ؛ من الشيخ محمد الطاهر بن عاشور[3] أن يجيزه فلبى الشيخ طلبه ومنحه اجازة علمية ، ومما تشتمل عليه هذه الاجازة جملة من كتب الحديث وكتب العلوم الشرعية والأدبية[4] .

وقد جمع الشاعر الى جانب هذه الثقافة العلمية الدينية ، ثقافة أدبية حصلت له من احتكاكه بالبيئة الأدبية ، منذ أن كان ببسكرة التي شهدت في العشرينات نهضة أدبية بتمركز مجموعة من الكتاب والشعراء بها[5] . ثم ازدادت صلته بهذه الحركة الأدبية والفكرية توطيدا بعد سفره الى الجزائر العاصمة التي كانت الحركة الاصلاحية والثقافية بها في الثلاثينات أعظم نشاطا و أشد حيوية وأكثر تنوعا منها في غيرها ، وكان الشاعر على اتصال بمركز معظم هذه النشاطات وهو (نادي الترقي) الذي كان ملتقى العلماء والأدباء ومنطلق اللقاءات الفكرية والثقافية ، وكان مايدور في ذلك النادي من أكبر المنابع التي استقى منها الشاعر أفكاره .

---

(1) اطلعت على هذه المصنفات بمكتبة الشاعر ببيته ببسكرة في شهر مارس 1982م .
(2) أفادني بهذه المعلومات الشيخ أحمد جلول البدوي في جلسة في ربيع 1982 .
(3) تولى منصب القضاء ومشيخة جامع الزيتونة ، من آثاره العلمية (تفسير التحرير والتنوير) 15 جلدا .
(4) عثرت على هذه الاجازة بمكتبة الشاعر الخاصة ، وتتكون من أربع صفحات من القطع الكبير ، وهي مؤرخة في السابع من ذي الحجة سنة 1372 هـ .
(5) نذكر من بين هؤلاء الشيخ العقبي ، والأمين العمودي ، والهادي السنوسي ، والشيخ حمزة بوكوشة والعوزي ... وغيرهم .

وقد ربطت هذه الحركة محمد العيد كما ربطت غيره من الجزائريين ، أدباء ومفكرين بمسار النهضة القومية ، وحركاتها التحريرية والثقافية في الشرق : وظل الجزائريون يحافظون على هذه الصلة بالرغم من مختلف الموانع التي كانت تحول بينهم وبين ذلك . وقد كان الشاعر متصلا بهذه النهضة بأكثر من سبب ، فقد كانت تأتي الى جماعة الأدباء ببسكرة أيام كان مقيما بها ، بعض الجرائد والمجلات الشرقية، من بينها جريدة (القبس) السورية [1] ، كما كانت مجلة (الرسالة) تصله من بعد الى مدرسة الشبيبة بالجزائر العاصمة ، فكان يتخذ منها وصحبه الأساتذة منطلقا للمناقشة والحوار فيما يدور بينهم في تلك اللقاءات الأسبوعية التي كانوا ينظمونها دوريا . ولا شك أن يكون كثيره من الأدباء الجزائريين قد أفاد في فنه من بعض شعراء وكتاب الشرق العربي .

كما كانت ترد على الجزائر في هذه الفترة ، صحف أدباء المهاجر الأمريكية مثل (السمير)[2] و (البيان) ومجلة (أبوللو) ، هذه التي كان يبعث بها صاحبها (الدكتور زكي أبو شادي) هدية الى الأدباء بالجزائر العاصمة ، الا أنه فيما يبدو — لم يكونوا قد تأثروا بها كتأثرهم بغيرها لعدم استحسا فتهم لطبيعة تكوين معظمهم ، وعلا بسات مجتمعهم — اتجاهها الفني ، ومما يؤكد ذلك أن الدارس لا يجد لتلك المدرسة في نتاج هؤلاء ، ذلك الأثر البارز الذي حظيت به مدرسة (المحافظين) أو ما يسمى بالمدرسة (الكلاسيكية المجددة) .

وكان يذكي هذه الصلة بين الشرق والجزائر ، ويزيد في تغذيتها ما كان يقوم به بعض المفكرين والأدباء المشارقة ، من زيارات الى الجزائر ينزلون بها ضيوفا على أدبائها وعلمائها ، ويحظون لديهم بالحفاوة والتكريم[3] . وكان يتم أثناء تلك اللقاءات تبادل الأفكار والآراء بين الجانبين ، مما كان له أثره في تدعيم الحركة الفكرية والأدبية في الجزائر بوجه عام في مسارها العربي الاسلامي ، وفي تطور نظرة الأدباء الجزائريين ، ومحمد العيد واحد منهم ، بخاصة الى العملية الابداعية ، وربطهم من جهة أخرى بقضايا أمتهم المصيرية . كما ظلت الصلة التي تربط الأدباء الجزائريين بتونس مستمرة .

---

(1) أفادني الشاعر بهذه الرواية .

(2) كان يصدرها الشاعر ايليا أبو ماضي في نيويورك بأمريكا .

(3) ينظر (الشهاب) ج 7 م 8 ربيع الأول 1351 هـ ، جويلية 1932 م ، ص 350 .

ترعاها الزيارات والبعثات والصحف ، ويحسن أن نشير أن تطلع الشاعر الى ما يجري في تونس يرجع الى أيام شبابه ببسكرة ، حينما كان له أول احتكاك ببعض مظاهر نهضتها ، كما يتجلى ذلك في تقريضه لجريدة (العصر الجديد) [1]، وقد ازدادت هذه الصلة تمكنا من نفسه عندما انتقل الى تونس ، ووجد نفسه من بين طلاب (جامع الزيتونة) ينهل من معين العلم والمعرفة ، وان الشاعر لا يفتأ يشيد بأثر ذلك (الجامع) ومن ذلك قوله :

حبذا (الأعظم) فيها من أب   وسع الأبناء برا وحنانا
قد سبحنا أمدا في أفقه   واقتبسنا من دراريه سنانا
وأذعنا من رسالات الهدى   كل ما طيب ذكراه وزانا (2)

كما احتك الشاعر في هذه الأثناء ببعض المحافل الأدبية والثقافية ، ومن بين ما ذكرلي كمثال على ذلك ، أنه كان على صلة مباشرة بمجلة (البدر) التي كان يصدرها يومئذ (زين الدين العابدين السنوسي) . وقد ظلت هذه الصلة حية متطورة في نفس الشاعر ، ولعل من بين ما يعبر عن ذلك ما رأيناه من تطلعه الدائم الى الافادة من علماء تونس ، كما يظهر ذلك من خلال طلبه من الشيخ (محمد الطاهر بن عاشور) أن يمنحه اجازة علمية . وقد انتهى الشاعر بعد كل هذا السعي في طلب العلم والمعرفة الى أن نفض يديه أو يكاد ، من معظم هذه الاهتمامات الثقافية وتفرغ بكليته الى العكوف على العبادة وما يستلزمها من نظر وتأمّل في كتاب الله وسنة رسوله وبعض أقوال العلماء الصالحين .

ويصور الشاعر ما كان عليه من شغف بالمطالعة والتحصيل في معظم مراحل حياته ، ثم ما انتهى اليه من زهد في طلب المعرفة العامة ، واقتصاره في هذا المجال عما يربطه منه ، بما خلص اليه ، من عبادة وتأمّل ، يصور ذلك فيقول : (كنت أميل الى القراءة بشغف زائد ، وأصرف جل أوقاتي متتبعا وباحثا ومنقبا وخاصة في الدراسات الاجتماعية والأدب بنوعيه : الشعر والنثر ، بيد أني الآن ، عزفت عن ذلك جميعه وانصرفت الى حياة الهدوء والعبادة العميقة المتصلة) (3).

---

(1) أصدرها السيد أحمد حسن المهيري بصفاقس تونس ، سنة 1920م .
(2) ديوان الشاعر ص 431 .

(3) من رسالة عثرت عليها بمكتبة الشاعر بعث بها الى المستشرق الاسباني السيد فرد بداد ردّا على رسالة كان قد وجهها اليه هذا الأخير ، وهي مؤرخة سنة 1965 .

ومما يمكن ملاحظته بهذا الصدد أن الشاعر لم يكن مقتصرا في ثقافته على هذه المعارف النظرية وحسب، وإنما كان منفتحا الى جانب ذلك على مدرسة الحياة العامة بمعايشته لواقع مجتمعه، واندماجه في قضايا شعبه.

وهكذا ساعدت هذه البيئة بمختلف جوانبها الاجتماعية والعلمية، التي ترعرع الشاعر في ظلالها وتغذى من عطاياتها، واندمج في أجوائها الفكرية والسياسية، وما كان يسود آفاقها من أفكار التجديد والاصلاح، على تكوين شخصيته الوجدانية والعقلية، كما أمده المحيط الذي نشأ فيه بأسس الثقافة العامة من قيم وعرف وتقاليد، فكانت ثقافته لذلك كله صورة لمجتمعه وللظروف الخاصة التي احتضنته وارتبطت بحياته، مما طبعها بطوابع الأصالة، فكانت عربية خالصة، لم يدخل فيها من أثر الثقافة الأجنبية، الا ما كان قد تسرب منه اليها عن طريق ما ترجم الى اللغة العربية.

ولا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام أن الشاعر كان في ثقافته منغلقا محدود الأفق زاهدا في الاطلاع على ثقافة وتجارب الآخرين، وإنما الذي نود أن نذكره به أن محمد العيد لظروفه وظروف شعبه الخاصة الواقعة تحت نير حكم احتلال أجنبي هو في جوهره غزو حضاري صليبي، واستعباد ثقافي أكثر منه أن يكون شيئا آخر، ان كل ذلك لم يكن ليتيح للشاعر ما أتيح لغيره من بعض شعراء العربية في العصر الحديث من امتيازات، تلك التي تتمثل في بعض الرحلات والبعثات العلمية الى بيئات أجنبية متطورة، فسمح هذا لهؤلاء الشعراء بالاطلاع على بعض وجوه الثقافات الانسانية في مظانها، فتزودوا منها ببعض الزاد، مما أعطى لثقافتهم بعض التنوع والغنى وربما يكون محمد العيد يفتقد الى بعضه، وفيما سوى ذلك فقد كان الشاعر متطورا في فكره، متفتحا في نظراته على التجارب الانسانية، داعيا الى الافادة منها ما دامت لا تمس أصالة الأمة ولا تطغى على شخصيتها، يقول الشاعر:

لست عاشت المتقدم ضدا ... غير أني على الحمى غير جاني
ان حفظ المقومات حياة ... كل شعب أضاعها فهو فاني
خل عني المستوردات ودعني ... تكفاني وردى المصير كفاني
أو فخذ لي ما كان منها شرابا ... مستطابا بالشعبي الظمآن
وتعلم ما شئته من علوم ... وفنون بحكمة واتزان (1)

---

(1) ديوان الشاعر، ص: 269 وما بعدها.

ومما يمكن أن نستخلصه أخيرا من هذا الحديث عن ثقافة الشاعر ، أنها كانت تتميز بثلاث اتجاهات هي :

الاتجاه الديني ، والاتجاه الأدبي ، والاتجاه الصوفي .

وكان لكل من هذه العوامل أثره في تكوين الشاعر الفكري والأدبي ؛ إلا أن ميوله العلمية يبدو أنها كانت في نفسه ، في معظم الفترات أكثر من غيرها مما ترتب عنه ، أن كانت ثقافته في مجملها معارف علمية دينية قديمة ، أكثر منها أدبية فنية حديثة ، وانعكس هذا بطبيعة الحال — كما سنرى — على مفهوم الشاعر للعملية الشعرية ، وعلى اتجاهه الفني بوجه عام .

ومهما يكن قد بلغ اليه بعض أولئك المحظوظين من درجة على سلم المعرفة الانسانية ، وهم وان فاق الشاعر بعضهم في شيء من ذلك ، فانهم لم يتفوقوا عليه ، ولربما العكس ، فيما جبلت عليه شخصيته من كرم الخصال ونبل السجايا وصدق الفعال ، وما امتلأ به قلبه من مشاعر الحب والإخلاص والصدق . لما اصطلح على تكوين مزاجه الروحي والفكري من عوامل الأسرة وروافد الثقافة ومعطيات بيئته المحافظة وتجاربه المختلفة في مدرسة الحياة ، فتظافرت كل هذه المؤثرات على تغذية شخصيته بالمدد العربي الاسلامي ، وتنشئته نشأة دينية خالصة ، غرست في نفسه تعاليم الاسلام ، وما تقوم عليه من محبة وتسامح وعدل ، وأفضت عليه خلالا نفسية تستمد أصولها من روح الاسلام ومن مبادئه ، فطبعه ذلك على حب هذه العقيدة والغيرة عليها وحب الوطن والدفاع عنه ، وكان لذلك يصدر في جميع سلوكه عن ايمان صادق ، ولا ريب أن في الايمان الصادق كل مكارم الاخلاق . ويأتي على رأس ما اتسم به الشاعر من نبل السجايا ، وما اتصف به من كريم الخلال ، حسن تدينه ذلك الذي يتجلى في أكثر من مظهر من مظاهر سلوك وتصرفاته ، مما يبدو في تقواه وورعه وفي عفته واستقامته في ظاهره وفي باطنه دون أن يعرف ما عرف غيره من تردد وازدواجية في الشخصية ، كما يعكس ذلك ما عرف به من خلال سيرته من حرص على أداء الفرائض في أوقاتها والقيام بالواجبات الشرعية أحسن قيام ، والتزود بالنوافل واحسان القول والعمل ، مما نلمح بعض صداه في مثل هذه الأبيات التي يفضل أن يتحدث فيها عن نفسه — لنزعته الصوفية — بصيغة ضمير الغائب لما أشرنا له من قبل ، وما عرف به من ميله الى اخفاء ما يقوم به من عبادة خشية منه ، من التزمع في تزكية النفس :

يقول الشاعر :

قيام الليل حلية كل بــــر / بباب الله قـام خـديمـــا
اذا جن الظلام عليه أغفـــى / وقام يسابق الليل البهيمــا
بنافلـة يطيـل لهـا قيـامـا / وقـرآن يـرتـلـه قويمـــا
قضى متهجدا كالنجم يسـرى / وجد يسبـح اللـه العظيمـا
تناجيه الملائـك في دجـاه / وترضـى أن يكـون لها نديمـا (1)

ويلاحظ أن تدين الشاعر وورعه وشدة تقواه تظهر في سلوكه ومواقفه ، كمــا تظهــر في شعره : موضوعا وأسلوبا ، ولا يخفى أن لخلق الشاعر وطبعه أثرا علــى اتجاهــه الفني (2) . ومن ذلك أن الشاعر كان يحرص على أداء الفرائض والواجبــات الشرعيــة في أوقاتها ، ولعل أحسن مثال على ذلك أنه كان يأمر بقطـع سلسلــة الاحتفالات التي كانت تقيمها مدرسة الشبيبة في وقت الصلاة لأداء هذه الفريضة ثـم استئنـاف فقـرات برنامج الحفـل من بعـد ذلـك (3) . وينعكس ذلك في شعـره من خلال ما يدعو اليه من وجوب القيام بمختلف العبادات ، ومن ذلك قوله يخاطب الشباب :

أوصيك من شعري بخالص نصحـه / والشعر فيض الوحي والالهـــام
قم بالشعائر ما استطعت مصليـا / ومزكيا ومؤديـا لصيـــام
كن مؤمنا كن محسنـا كن مخلصـا / كن مستقيما كن وفـيّ ذمـــام (4)

وكانت هذه الحياة الدينية التي شبّ عليها الشاعر ، جعلته منذ صباه راغبا عن متـاع الحياة الدنيا ، موليّا وجهه عن زخرفها ، قانعا بالقليل منها ، مطابع حياته بطوابـع الجد وجعل عليها ظلالا من الانطواء وسحائب من العزلة والزهد . فنشأ بذلـك عزوفا عن حياة البذخ والملذات ، فهو لم يعرف ما عرفه بعض الشعراء في القديم وفـي الحديث ، من مظاهر الترف واللهو في مراحل حياته الأولى ، ثم تحول عنها في كـبره ـ كما فعل بعض الشعراء ـ الى حياة المتنسك (5) .

كما أنـه لم يعرف من ناحية أخرى ذلك التردد ما بين اللهو والتدين ، أو ذلـك الازدواج في الشخصية الذي وقع فيه بعض الشعراء المحدثين ، من مثل أحمد شوقي (6) .

---

(1) ديوان الشاعر ، ص : 232 .
(2) د . عمر الدسوقي (في الأدب الحديث) ج 2 : 378 .
(3) البصائر ، العدد : 23 / 22 ربيع الأول 1355 هـ / 12 جوان 1936 م ، ص 5 .
(4) ديوان الشاعر ، ص : 239 .
(5) نذكر من بين هؤلاء أبو نواس وأبو العتاهية ، ينظر (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني ج 4 : 63 وما بعدها .
(6) د . محمد حسين هيكل ، مقدمته (الشوقيات) ج 1 : 6 وما بعدها .

ان محمد العيد لم يكن على شاكلة أولئك الشعراء، انما شبّ على الدين وشاب عليه ، شبّ على التقوى وهي أصل الاسلام وجوهره وخلص في كبره الى حياة روحية سامية .

كما سمت بالشاعر الى جانب تدينه همته العالية في معارج الفضائل ، فتحلّى بما يتحلّى به الخيرون من الناس، من طهارة قلب وعزة نفس وميل الى البساطة والتواضع ونفور من الادعاء والتعقيد والتكبر .

ولعل من أبرز الشواهد على ذلك أن المرء لايعثر في شعره عما يومئ الى أنه يفتخر بنفسه أو بمساهمته في النهوض بمجتمعه . وحتى اذا أراد أن يعبر عن شيء من ذلك فانه لايعبر عنه بما يمكن أن يعكس غروره أو يضخم من احساسه بأياديه على شعبه ، وانما يقول ذلك بطريقته الخاصة ، مثلما نجد ذلك في قوله :

ثورة الشعر أنتجت ثورة الشعـ ـب وعادت عليه بالآلاء
أيها الشعب أنت ملهم شعري في كفاحي وملهب الأحشاء (1)

ويشيد بخلق التواضع في مكان آخر من شعره فيقول :

ان التواضع من سمات البرّ من يعتده فهو البرّ في الأقوام (2)

وكما تدل هذه الشواهد على تواضعه ، قد تدل في الوقت ذاته على نكران الذات وكان من نتائج ذلك أن غلب على الشاعر ميل واضح في حياته المادية والمعنوية الى الاعتدال (3) ، فكان يقف في معظم مواقفه حد الوسط فلا افراط ولا تفريط ، فهو اذا أحب لايغلو في حبه الا إذا كان حبا لله وللوطن .

واذا أبغض فانه لايفرط في بغضه الا لمن عادى الملّة والناس . ولهذا كان الشاعر سبّاقا الى كل يد تمتد الى مصافحته ، وعفوا عن كل يد تتطاول للنيل منه . يعبر الشاعر عن هذه المعاني وهو يخاطب أخاه الجزائري مؤكدا له ، صدق أخوته وخالص تعاطفه ومشاطرته اياه في السرّاء وفي الضرّاء ، متوجا كل ذلك بهذه الدعوة الحارة ، المخلصة الى الأخوة والتسامح :

---

(1) ديوانه ، ص : 436 .
(2) ديوانه ، ص 243 .
(3) د. سعد الله (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث) ، ص ..

فخذ من دمي يابن الجزائرى امنـــني	أخ لك في كلّ الحظوظ مقاســـم
فكن واثقا بالصدق مني فانـــني	زعيم بقول الصدق ما أنا زاعـــم
وكن راجيا للخيـر مني فمـا أنـــا	على فعل شيء من سوى الخير عا زم
فان تلتمس عفـوي فانـني بـــا ذل	وان تستثـرغيظـي فانّي كاظـم (1)

وهو في الوقت ذاته شديد النفور من العنف والخصام والخلاف بقدر ما هو ميّال الـى المسالمـة وطلب العافيـة وتكاد شخصيتـه في هذه الجوانب تقترب من شخصية الشاعر "حسّان بن ثابـت" الأنصارى الذى كان يغزو مع المجاهدين الأوّلين في صـــدر الاسلام ، الا أن عدّتـه وعتاده في ذلك الغزو انما هو لسانـه وشعـره :

لسا ـني صارم لا عيـب فيــــه	وبحـرى لا تكدره الـدّ لا ء (2)

فكأن محمّد العيد كان يعرف عن نفسه بعض ذلك وكان لايتحرّج عن البوح به ، ولعله كان يهدف من ذلك الى تعريف الآخرين بحقيقتـه حتى لا يظنون به ظنّ السوء ، فهو شاعـر في السّلم وشاعـر في الحرب ، ولكنه لا يملك من العدّة في كلتا الحا لتـين الا الشعـر والأدب :

أسالم الناس في عيشي فان عمــدوا	الى خصامي فسيفي : الشعر والأدب
وان دعاني قومي أن أنـاصرهـــم	فعدتي في انتصارى : الشعر والأدب (3)

وقد سبـق القول أن الشاعر كان ينبـذ التعصب والتحزب لجهة دون أخرى ، لاعتقاده أن ذلك انما يضـرّ الأمّة أكثر مما ينفعهـا ، وقد كان ذلك من أقوى العوامل التي أدّت الى ضعف المسلمين وتدهور حضارتهم وقعودهم عن مجاراة ركب الأمـم المتـقدمـة .

ولذلك فهو يهـتزّ للفعل الكريم والعمل الصالح ويشيد بهما بغضّ النظر عـــن مصدرهما ، فهو يدعو بدعوة الاصلاح ، ولا يمنعـه ذلك من أن يهنىء في الوقت نفسه (الجمعية الكتانية) بتأسيس معهدها بقسنطينة . يقول الشاعر في هذا المعنى :

---

(1) ديوانه ، ص : 139 .
(2) ديوان حسّان بن ثابت ، ص : 66 .
(3) ديوانه ، ص : 81 .

هذه حفلة الى المأتم آوت — غوّ أنصاره شبابا وشيبا
جمعتنا على الهدى جمع تصحيـ — ـح فلم نخش في الهدى مستريبا
نحن في الدين اخوة والأماني — لا ترى بيننا قصيا غريبا
هذه فرصة الاخاء تجلت — من سعى للاخاء فيها أثيبا (1)

وان هذا الموقف من الشاعر قويّ الدلالة في نظري ، عما يمتاز به من تعمقه للروح الاسلامية في فكره ، وسيطرتها على سلوكه ، هذه الروح التي تقوم في جملة ما تقوم عليه ، على التآخي والمحبّة ومقابلة السيئة بالحسنة ، وتهدف من ثم الى ازالة السخائم من النفوس وربطها برباط من المودّة لا ينفصم ، ولعلّ الباحث لا يكون مغاليا اذا ما رأى أن فيما يتحلى به الشاعر من مثل هذه السجايا وأشباهها من الفضائل والمكارم التي تعكس صدق تديّنه ووقوفه موقف الوسط في معظم الأمور وجنوحه الى المسالمة والرّفق ، وكرهه للعداوة والمراء ، أن يكون في ذلك ما يقرّبه من تلك النزعة التوفيقية التي اشتهر بها الامام أبو حامد الغزالي في كثير من مواقفه ، ويؤكد ذلك أن الشاعر لا يخفي أعجابه ... الغزالي بما يبرز تأثره به ، فهو يقول (اني أحبّ مشرب الغزالي لأنه لا يخرج عن الشريعة ولا يهمل العقل) (2).

وعرف محمد العيد من ناحية أخرى ، بالكرم مع قلة ذات اليد ، ومسارعته بالاحسان الى الفقراء والمعوزين على فقره ، كما امتاز بدماثة الطبع وحسن المعاملة وطيب العشرة ولين الجانب ، فكان بذلك بعيدا بعدا شاسعا في تصرّفاته وما يصدر عنه ، عن كل خشونة وقساوة ، وعن كل تطاول وادّعاء فهو لم يعرف عنه الميل الى التفاخر والتباهي ، بل كان يتجافى ذلك لنزعته الصوفية ، التي تنفر من الأضواء . ومما يمكن أن يعبّر عن ذلك من بعض مواقفه ، أنه كان مديرا ، ولكنه كان يحرص على أن لا يشعر أحدا من زملائه في المدرسة بأنه أعلا منهم درجة ، فكان لذلك حينما يريد أن يبلغهم بعض التعليمات الادارية ، كان يحرص على أن يبلغها اياهم في شكل استفسارات ومقترحات ، يطلب منهم التداول فيها وتبادل الآراء حولها ، حتى يخرجوا من ذلك باقرارها ، فتصبح بعد

---

(1) ديوانه : ص 190 .
(2) سمعت هذا القول من الشاعر نفسه في جلسة ببيته في ديسمبر 1976 م .

نظرهم فيها ، وكأنها قرارات هم الذين أقرّوها ، وليست قوانين فرضت عليهم فرضا من الخارج [1] . كما عرف بخالص الودّ ودوام الوفاء للأصدقاء ، وان بدا منه مايشبه هجرهم أو اعتزالهم في بعض الأحيان ، فان ذلك لم يكن منه عن جحود أو جفوة . وانما هي الظروف القاهرة التي تحول في بعض الأوقات بين المرء وقلبه . وباستثناء هذه الحالة الطارئة ، فان مكانة الأحبّاء لتحتل من قلبه سويداه ، فانه لا يطمئن له بال ولا يقرّ له قرار . حتى يتوجه الى صديقه (الشيخ العقبي) بهذا النداء الصادق الودود :

أيّها العقبي أقدم ظافرا	انك اليوم امام الظافرين
لم يزل طول المدى مستحكما	بيننا حبل من الودّ متين
لك إلف ليس ينسى إلفه	و (خليل) لا يحب الآفلين (2) .

وكان الشاعر شديد الحساسية ، رقيق العاطفة ، سريع التأثر ، مرهف الشعور ، تهزه الكلمة المشحونة ، ويثيره المشهد الشاحب ، وتدمى قلبه حظوظ البؤساء ، فيذرف الدمع لما نالهم من مظالم ونكبات ، ولنستمع اليه وقد غلبته الدّموع وهو يخلّد حادثة (باخرة الموت) [3] الذى ذهب ضحيتها كثير من الكادحين من أبناء الجزائر وهم في طريقهم الى اجتياز البحر ، تطاردهم من وطنهم أنياب الظلم والفقر :

يصور الشاعر احساسه بهذه الحادثة فيقول :

فحسبك أيها الخطب الفاجي	لقد أشهدتنا اليوم المصيبا
وحسبك أن أثرت شجون نضو	كئيب يألف النضو الكئيبا
اذا ماصوّت الناعي بأرض	تراه بسفك عبرته مجيبا
يناغي البائسين كما يناغي	لعمرى العندليب العندليبا
ويحيي في رثائهم الليالي	وينهض في مصارعهم خطيبا
بقلب يلفظ الأنفاس حرّى	وعين تذرف الدّمع الصبيبا (4)

ونستنتج من هذه الأبيات أن محمد العيد كان شاعرا وطنيا ، انسانيا ، رقيق الاحساس ، مرهف الشعور ، ولكنه يبقى مع ذلك يملك زمام أمره ، ويظل للعقل

---

(1) أفادني بهذه المعلومات السيد جلول البدوى الذى كان زميلا للشاعر بمدرسة الشبيبة الاسلامية في جلسة في مارس 1982 م .

(2) ديوانه ، ص : 171 .

(3) تذكر مخطوطة الديوان ج 1 : 32 (أن عدد المسافرين كان أربعين رجلا ، وان سفرهم كان سنة 1936 .

(4) ديوانه ، ص : 286 .

سلطان كبير على تصرفاته ومواقفه . وتتضح لنا من ذلك مرّة أخرى ، تلك الخاصية السلوكية التي لاحظنا أكثر من مرّة أنها تطبع تصرفاته ، ونعني بها ميله الى حد الوسط ، يتجلّى لنا ذلك ، ونحن نراه يجمع الى جانب ما امتاز به من العواطف الرقيقة ، تمسكه الشديد بالحكمة والاتزان والتروى ، فيدعو الى أعمال الذهن في الأمور والتدبّر في حيثياتها تما ، قبل الاقدام عليها ، ويحذّر في الوقت نفسه من كل ما يمت بسبب الى مظاهر الخفة والطيش والنزق .

اعمل حكيما تصل سليما ولا تهب من يقول هابا
بالصبر والحلم والتأني والرّفق فاستقبل الصّحابا
لا تقذف النفس في مجال من يقذف النفس فيه خابا (1) .

والشاعر كغيره من الناس لم يكن في جميع فترات حياته على حال واحدة لا يكاد يغادرها ، وانما كانت تعتريه في بعض الأحيان أطوار نفسية مختلفة ، فنراه حينا يتقدم المسيرة فيكون رائدها ، ويواكب الركب فيكون حاديه ، وحينا آخر ، يميل الى العزلة والصمت ، ويركن الى الهدوء والسكينة ، وليس ذلك ناجما - فيما يظهر - عن استسلام منه للظروف أو تراجع عن المبادئ ، وانما كان ذلك وعيا منه لطبيعة المراحل ، التي يمرّ بها بين الحين والآخر . ويمكن القول اذن أن مبعث ذلك السلوك لديه ، انما ينشأ عن استجابة لمعاناته لواقع شعبه ، ذلك الواقع الذى يمور في أغلب الأحيان قلقا واضطرابا لما يسوده من ظلم ، وما ينعدم فيه من حرية ، فينعكس ذلك على نفسية الشاعر ، فيكون ما ينتابه أحيانا من حالات نفسية ، وما يقوم به من مواقف سلوكية صدى لذلك .

يقول الشاعر :

وقد أرى الجد أجدى فأستحب الكفاحا
وقد أرى الصبر أولى فأطمئن ارتياحا
وقد يهمّ فؤادى بأن يطير جماحا
وقد أسرّ بكائي وقد أضجّ نواحا (2)

(1) ديوانه ، ص : 462 .
(2) ديوانه ، ص : 45 وما بعدها .

وهو لتدينه وصدق ايمانه تجده في جميع الأمور راضيا بحكم الله ، صبورا على قضائه ، واثقا بنصره ، ومن ثمة فلا تجده يكثر من اللجوء الى الشكوى ولا الى التطيّر، يقول الشاعر :

ونرضى بحكم الله في كل موقف فلا نكثر الشكوى ولا نتطيّر (1)

وكان الى جانب ما عرف به من شدة غيرته على الأصالة القومية وحرصه على مقوّمات شخصية الأمة ، واسع الأفق متحرر الفكر ، متطوّر النظر، بعيدا عن كل تعصب ، متفتحا على التجارب الانسانية ، داعيا الى الافادة منها ، ومن كل منهج وضعي يحترم قيم التراث القومي ، ولا يمس مقوّمات الشخصية الاسلامية العربية ، ويهدف الى بناء الحاضر والمستقبل على أسس من أمجاد الماضي التليد ، يقول الشاعر :

ربّ مستهزئ بمبدإ ديني بين قومي كما يراه يراني
صدّه عن تراثه كلّ رأي أجنبيّ فتاه في الوديان
قال لي خذ منهجي قلت مهلا كيف أختار قاصيا عن داني ؟ !
قال لي انه على الغرب أجدى قلت جوّي وجوّه ضدّان
قال لي انه تقدم فكر قلت (مرعى وليس كالسعدان) (2)
لست ماعشت للتقدّم ضدا غير أني على الحمى غير جاني
ان حفظ المقومات حياة كل شعب أضاعها فهو فاني (3)

ولعل الباحث يستطيع من خلال ما تقدّم من السمات النفسية والفكرية والسلوكية، التي تميز بها الشاعر أن يكوّن انطباعا ويرسم صورة يتملّى من خلال جزئياتها وتفاصيلها اختلاف جوانب شخصيته ومايطبعها من ضروب الأمزجة والميولات ، وما يتحكّم فيها من ألوان السلوك ، فيمكنه ذلك في الأخير من أن ينتهي الى هذه الحقيقة وهي أن الشاعر كان عربيا مسلما ، يفيض قلبه ايمانا وحبا لله ، وتمتلئ جوانحه تمسكا بمقاصد القرآن الكريم واقتداء بسيرة الرسول الكريم _ ص_ . ويسمو بسلوكه الى ما تزخر به دعوة الاسلام من مثل علياوقيم سامية ، تعلو على كل ما يتنافس فيه المتنافسون من نزوات ذاتية وأهواء دنيوية ، وان موطنه أرض العروبة على امتداد رقعتها ، ومن أعزّ الأماني التي تظل تهفو اليها النفس ، أن تعلو سماءها راية الوحدة، مظلّلة شطريها في مغربها ومشرقها ، وأن يحمي ذلك المجد التليد المكلّل

---

(1) ديوانه ، ص : 160 .
(2) السعدان : نبت من أفضل مراعي الابل ، ومنه المثل (مرعى ولاكالسعدان) ، ينظر (القاموس المحيط) ، ج 1 : 313 / مادة (سعد) .
(3) ديوانه ، ص : 269 .

بالحاضر العزيز أجيال قوية واعية تعتز بأصالتها وتغار على شخصيتها ، تجاهد وتناضل طلبا للعز في هذه الحياة ، وتسعى وتصدق السعي راجية الفوز بنعيم الله ورضاه في الدار الآخرة . وقد فتح الشاعر عينيه على هذه المبادئ ونهل من معينها الصافي حتى ارتوى ، وظل على دربها يواصل الجهاد ، وينظم أصدق الأشعار ويعزف أعذب الألحان . ولعل أحسن ما يجلي بعض ذلك — في نظري — ويعبر عنه من شعره ، هذه المقطوعة (يسألونني) التي قالها الشاعر في آواخر حياته ، فكانت أفصح بيان عن حاله ، وأصدق ترجمان عن شخصيته ،

يسائلني عن نسبتي كل وافد ... علي وعن شعري وعن كنه مطلبي
فقلت لهم أرض العروبة موطني ... وديني هو الاسلام والقدوة النبي
ومن مطلبي جمع العروبة كلها ... على وحدة عظمى بشرق ومغرب
وتهيئة الجيل الجديد لفوزه ... من الدين والدنيا بأشرف مأرب
ونشر الثقافات السليمة حرة ... وكسب المعالي لا لجاه ومنصب
رضعت قريضي في لبان أمومتي ... ومن منهل الأحرار واصلت مشربي
سامحت والاسلام دين تسامح ... وآمنت بالقرآن دون تعصب
اذا كنت في ديني وفي وطني أخا ... فلست أبالي أن تخالف مذهبي (1)

وكذلك كان محمد العيد انسانا شاعرا ، نشأ في بيئة دينية وتثقف بثقافة اسلامية فدلهم ذلك شخصيته بما في الدين الاسلامي من مبادئ سامية وأخلاق فاضلة ومثل عليا .

وكانت هذه الخلال النفسية في انسان ربع القامة وسيم الطلعة يكتنز بين جوانحه حزنا دفينا على حال الوطن والأمة ، ولكنه يأبى أن يشعر به الآخرين حتى لا يزيدهم على ما هم فيه من أسى ، اشفاقا منه عليهم ، الا أنه وان نجح بعض النجاح في اخفاء ذلك من على قسمات وجهه ، فانه لم يستطع أن ينجح في اخفائه من شعره ، فطفت على سطح كثير من نماذجه بعض طوابع الحزن تعكس ما يمور في نفسه من تلك المشاعر والأحاسيس. وتدنو من مجلس الشاعر فيجذب انتباهك ما يعلو محياه المستدير الممتلئ من وقار وطيبة ويشيرك ذلك حتى اتخال نفسك — وأنت في ذلك المجلس — بين يدي أحد الأعلام الصالحين لما يشع في تلك الحضرة من نور الايمان ، وما يتضوع فيها من عبير الطهر ، فيضفي ما يحلق من هذا ، وما يتألق من ذاك على الساحة بينك وبينه ، اشعاعا خاصا يعبر عما يمور في أعماق الشاعر من حب خالص وشعور فياض واستشراف الى المجهول .

---

(1) ديوانه ، ص : 543 .

ومما يومئ الى بعض هذه الملامح من شخصية الشاعر ما جاء في كلمة الشيخ البشير الابراهيمي يقول فيها عنه : (ومن يعرف محمد العيد ويعرف أيمانه وتقواه وتدينه وتخلقه بالفضائل الاسلامية ، يعرف أن روح الصدق المتفشية في شعره انما هي من آثار صدق الايمان وصحة التخلق ، ويعلم أنه من هذه الناحية بدع في الشعراء) [1].

واذا كان الشيخ الابراهيمي قد شهد لمحمد العيد بأنه كان بدعا من الشعراء في هذا الجانب من جوانب شخصيته ، فان الدكتور أبو القاسم سعد الله هو الآخر ، قد شهد له بمثل هذا التفرد ، ولكن في جانب آخر ، ذلك هو ما جمع فيه الشاعر ما بين النضال من أجل حرية وكرامة الوطن وبين التصوف السنّي الصادق [2] فكان بذلك في هذا الجانب أيضا مثلا مميزا من بين الشعراء .

ويمكن أن نضيف الى ذلك ، أن الشاعر امتاز أيضا بلوذعته الضميرية ، وبما جبلت عليه نفسه من نكران الذات وعدم الحرص على المصلحة الخاصة . فكان في هذا الجانب مثلا بارزا ، تغلب عليه عاطفة الجماعة ، فتنسيه عواطفه الذاتية ، ويحرص على الصالح العام ، بأكثر مما يتحرك لمصالحه الشخصية ، وشؤونه الفردية ، كما يستبد ذلك ببعض الناس ، وبخاصة الشعراء منهم . ان محمد العيد كان يحس احساسا عميقا أنه يعيش في فترة تحتل فيها المكابدة الأولى عواطف الأمة وتكون الأسبقية فيها للوجدان الجماعي على الوجدان الفردي ، ان الوطن في محنة ولا يجدر بالشاعر الملتزم في هذه الحال أن يغني ذاته ، فرحا أو حزنا الا من خلال ذات وطنه وذوات مواطنيه .

ولسائل أن يسأل : ولم كان محمد العيد غيريا أكثر منه ذاتيا ؟ ولم كان على ذلك النحو بينما الطابع العام الذي يميز أغلبية الشعراء أنهم ميالون الى حب الظهور والزهو بأنفسهم والتباهي بما تتجسد قرائحهم ؟

ان السؤال وجيه حقا ، وان الظاهرة لافتة للنظر بالفعل ، وما على المرء الا أن يبحث عن تعليل ذلك . وان أول ما يتبادر من ذلك أن الظاهرة المنسبة

---

(1) (الشهاب) ج 4 / م 14 / ربيع الثاني ، جمادى الأولى 1357 هـ / جوان جويلية 1938 ، ص ، 268 .

(2) د . سعد الله (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث) ، ص ، 64 .

والأدبية لايمكن أن تعلل بمؤثر واحد ، لأنها تخضع في تكوينها الى جملة من العوامل والمؤثرات ، وانطلاقا من ذلك يمكن القول أن مؤثرات عديدة تكون تداعطلحت على هذه الظاهرة النفسية والسلوكية في حياة الشاعر . ويأتي في مقدمة ذلك : تمثل الشاعر لروح الاسلام القائمة في هذا المجال على سمات الإيثار ومحبة الآخرين والتفاني في جلب الخير والمنفعة لعموم الناس ، بالاضافة الى احساس الشاعر القوي بما يجري في بيئته من صراع بين شعبه وبين أعدائه ومعايشته للواقع الوطني بمختلف ألوانه ...

أن كل هذه العوامل قد تظافرت لتطبع شخصية الشاعر — فيما أحسب — بذلك الطابع الغيري وتحد من تلك النزعة الفردية في نفسه ، وتقيد حركته في دائرة أضيق مما يتحرك فيه معظم الشعراء في العادة ، حيث ينطلقون في آفاق رحبة ، ينتقلون فيها من جو الى آخر ، يتخيرون منها ما يطيب لهم ، وما تشتهيه لهم نزواتهم الخاصة . وقد كان محمد العيد بتلك السمات المميزة لشخصيته أقرب الى أخلاق وسلوك العالم المصلح صاحب الدعوة الاجتماعية منه الى الشاعر الذي يميل بطبعه الى التحرر من التبعات الاجتماعية ظنا منه أنها تحد من حرصه وراء السمعة الذاتية والمنفعة الشخصية .

أن محمد العيد كان صاحب قضية ، وكان من شأن هذه القضية أن تضغط على احساسه الفردي فيتضاءل وينكمش وتفسح المجال أمام الشعور الجماعي فيغلب على وجدانه وعقله . وقد حاول محمد العيد أن ينهض بهذه الرسالة وحرص على أن يقوم بها — على قدر طاقته — [illegible] واضطلع به في ميدان الحياة العامة بصفته شاعرا ومربيا ومصلحا ... وهذا ماسيحاول البحث استجلاءه في الفصل التالي .

الفصل الثاني

في الطريق الى الحياة العامة

انتهى البحث في الفصل السابق الى معرفة شيء عن نشأة الشاعر وثقافته وبعض الملامح من شخصيته ، فقد نشأ نشأة دينية ، وتثقف بثقافة عربية أصيلة محضة ، وترعرع في بيئة اجتماعية اصطبغ على تكوينه النفسي والفكري فيها منذ طفولته الصوفية والاصلاح ، كان على صلة بالصوفية عن طريق ميراثه الصوفي ، ومن طريق تربيته على يد والده الصوفي ، وبين أيدي أسرته التيجانية .

وكان على علاقة طيبة منذ شبابه بالاصلاح ، بواسطة احتكاكه ببعض أعلامه في الداخل وببعض تيارات الوافدة على البلاد من الخارج .

فكان بذلك لكل من هذين العاملين أثره في تكوين شخصيته ، فكانت الصوفية لديه عبارة عن سلوك فردي ، وكان الاصلاح عنده فكرة نضالية ومنهاجا عمليا . ومن نقطة تقع في الوسط ما بين هذه الصفة وتلك دخل الشاعر معترك الحياة العامة عبر دروب ثلاثة : درب الشعر ، ومسلك التعليم ، ونهج الاصلاح . فقد كان شاعرا اضطلع برسالة التعبير عن مطامح الأمة والدفاع عن قضاياها . وكان مربيا قضى معظم العمر يحدب على تكوين الجيل وتنويره . وكان مصلحا يسهر على نشر الوعي الديني والاجتماعي في صفوف الأمة .

وقد استطاع الشاعر أن يكون دائم الحضور في معظم مراحل حياته في جميع هذه الميادين ، ويسهم على قدر استطاعته في مختلف أنشطتها .

ونأتي بادىء ذي بدء الى الحديث عن مساهمته على درب الشعر فنشير الى أنه قد خطا خطواته الأولى على طريقه وهو ما يزال طالبا في بسكرة قبل سفره الى تونس ، وأعانه على ذلك أنه نشأ في بيئة أدبية ، ودرس على شيوخ كان معظمهم (شعراء) ، فقد كان معلمه الأول (بالعين البيضاء) الشيخ (محمد الكامل بن عزوز) شاعرا ، كما كان والد أستاذه الشيخ (المكي بن عزوز) شاعرا كذلك . وكان التلميذ محمد العيد يتلقى على شيخه هذا (محمد الكامل) مبادىء العلوم ، ويحفظ في الوقت نفسه لاشباع هوايته الفنية المبكرة أشعاره ، وكان الشاعر رحمه الله قد أسمعني بعض محفوظاته من شعر شيخه ، أثبت منها بعض الأبيات وهي من قصيدة كان قد ألقاها في حفل تأسيس مدرسة عربية حرة بالعين البيضاء ، يقول فيها :

أجيبوا يابني وطني ندائــــي | فهل فيكم غيور ذو صفـــاء ؟
وهل فيكم عليـم أو حكيـــم | يعالج كـل داء بالـــدواء ؟
أيا شبابنـا قوموا لا تناســـوا | وكونوا في التعاضـد كالبنـــاء
وفي (البيضاء) مدرسة تبا هـــت | تبشـر بتحصـيـل الرجـــاء (1)

وعندما انتقل الى بسكرة توفّر له فيها من وسائل العلم وسبل المعرفة وحوافز الابداع ما لم يتوفر له في غيرها ، مما كان له أثره في تنمية ذلك الميل الذي شبّ عليه الى الأدب والشعر. فبدأ يتعاطى النظم قبل أن يتعرف تعرفا جيدا على أدواته ، بدافع من موهبته التي كانت تكبر في أعماقه ، وبتأثير محفوظاته المتنوعة . وهو ما يزال طالبا لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وكان يعرض ما ينظم على أقرانه وعلى شيخه (علي بن ابراهيم العقبي) فكان يحظى بالاعجاب والتشجيع حينا ، وبالنقد والتوجيه حينا آخر ، كما كان أحد شيوخه وهو (أحمد الجنيدي المكي) شاعرا ، فكان يقرأ عليه بعض أشعاره ولا شك أنه يكون قد تأثر به وأفاد من نصائحه في هذا المجال ، ولعل هذا الجانب الأدبي في شيخه الذي كان يرضي ميوله الفنية ، هو الذي جذبه الى دروسه وشجّعه على الاستمرار فيها على الرغم من أنه كان يحس بأن شيخه المبجّل لديه (علي بن ابراهيم) لم يكن سعيدا بذلك .

كما روى شعرا كثيرا في هذا الوقت عن أحد مقدمي التيجانية وهو الشيخ (محمد السايح بن البشير) (2) ، وكان شاعرا يحفظ من التراث الشعري العربي الشيء الكثير ، وكانت له صلة وثيقة بوالد الشاعر ، فكان بذلك لشخصيته الأدبية والصوفية معا تأثيره المزدوج العميق على شاعرنا الشاب . كما يمكن أن يكون قد قرأ في هذه الآونة أيضا أشعار (سعد الدين الخمار : 1885 ـ 1952 م) وهو من الشعراء الطلائعيين ببسكرة ، يومئذ ، والشيخ الشاعر (محمد بن عبد الرحمن الديسي : 1854 ـ 1921) وهو من شعراء زاوية (الهامل) المشهورين (3) .

---

(1) سمعت من الشاعر هذه الرواية في جلسة بمنزله في شهر ديسمبر 1976 م .
(2) ولد في قرية (تملاحت) قرب (توقورت) حوالي سنة 1887 ، وتوفي بقرية (تاغزوت) بوادي سوف حوالي سنة 1965 ، كان ينشر بعض أشعاره في جريدة (النجاح) بتوقيع (حقي) .
(3) ينظر د . أبو القاسم سعد الله (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث) ، ص : 26 .

وقد كان لهذه المؤثرات المختلفة ولا شك مفعولها في تغذية اتجاه الشاعر الى قول الشعر، فاستمر في هذا الاتجاه . ولعل من أقدم ما قاله ، بما بعد من بواكير شعره تلك القصيدة التي يروى أنه قرأها على شيخه (على بن ابراهيم) . ومن المؤسف أننا لم نعثر منها الا على مطلعها [1] . كما يروى أنه نشر في هذه الآونة بعض الأشعار في جريدة (الاقدام) سنة 1920 ومما نظمه في هذه الفترة أيضا ، تلك القصيدة التي بعث بها الى جريدة (العصر الجديد) [2] ، وهي من أقدم ما وصلنا كاملا من بدايات شعره [3] . ومما وصلنا كاملا أيضا من بواكير شعره قصيدته (داعي النهوض) التي قالها حوالي سنة 1920 ، ثم نشرها فيما بعد بالنجاح 24 جويلية سنة 1925، وهي من شعره المستدرك [4] .

وفي تونس وقع الشاعر أمام الخيار الحاسم ، وفرض عليه أن يختار اتجاها من اثنين : اما أن يسير في طريق الأدب ، واما أن يسلك طريق العلم والتحصيل . فاختار (الاتجاه الثاني وانقطع أو يكاد له ، ومن هنا فلعله لاينطبق على الشاعر ما ينطبق على غيره من الجزائريين الذين يرى الأستاذ (محمد صالح الجابري) [5]، أن البيئة الثقافية التونسية كانت منطلقا أساسيا لبروزهم ، وان كان هذا لا يمنع أن يكون الشاعر قد تأثر بهذه البيئة بطريق غير مباشر ، وهو ولا شك تأثر لا يرقى الى التأثر المباشر .

ويعلل الشاعر سبب ميوله العلمي بتونس ، فيقول : (كنت طوال فترة وجودي بتونس منكبا على التحصيل العلمي مشتغلا به دون سواه لاحساسي أن ما حصلت عليه من الأدب قد يكفيني الى حين ، ولذلك لم أستكثر من الشعر ولم أحرص على عقد صلة بيني وبين من كنت أسمع بهم من شعراء تونس يومئذ من أمثال (العربي الكبادي) و (معاوية التميمي) و (الشاذلي الخزندار) [6] على الرغم من أني كنت أتردد على بعض المحافل الأدبية أحيانا) [7] .

---

(1) ينظر الملحق .

(2) سبق التعريف بها .

(3) ينظر الملحق .

(4) ينظر الملحق .

(5) (الأدب الجزائري في تونس) ، ص : 24 .

(6) للشاعر قصيدة في رثائه ، ينظر ديوانه ، ص : 479 .

(7) أفادني الشاعر بهذه الرواية، كما ذكر لي أنه كان يستهل نهاره بالنهوض لأداء صلاة الصبح بجامع الزيتونة ، ثم يلتحق بدروسه التي يفرغ منها على الساعة 12، ثم يعود اليها على الساعة الواحدة ليظل بها حتى الرابعة مساء . فيذهب ليتناول بعض الطعام ثم ينكب من جديد على المذاكرة حتى منتصف الليل .

وفي هذا الوقت الذي كان فيه الشاعر على هذه الصلة بأدباء تونس كان الشاعر (مفدي زكرياء) (يحضر مسامرات العربي الكبادي ويعرض بضاعته على بعض أساتذته ويقرأ العروض على الشاعر خزندار) (1) . وواضح من رواية الشاعر السابقة أنه كان يقضي معظم وقته في التحصيل العلمي ويحصر جلّ اهتمامه عليه ، فكان لذلك انعكاسات السلبية على فتور الهمة ، وبرود القريحة الأدبية لديه ، لما يتطلبه اكتساب العلم من استعداد خاص غير الذي يحتاج اليه الابداع الفني من استعداد . وواضح ، ولهذه الأسباب كان أثر البيئة التونسية - فيما نحسب - على شاعرية محمد العيد ضعيفا بخلاف ما كان عليه الحال عند غيره كأبي اليقظان ومفدي زكرياء اللذين كانا مندمجين في هذه البيئة فتركت آثارها في أشعارهم (2) .

ومما يؤكد ما نذهب اليه أن الأستاذ الجابري لم يذكر شعرا للشاعر كان قد نظمه في تونس وان جميع الذي ذكره من نتاجه انما كان الشاعر قد بعث به من الجزائر ، من قبل ومن بعد سفره الى تونس (3) .

وعلى الرغم من كل هذه المعلومات فان النزعة الأدبية المتأصلة في نفس الشاعر لم تخمد ، وظلت حية تحركه وتدفعه دفعا قويا الى قول الشعر ، فما كان من الشاعر الا أن ينزل في بعض الأحيان عند مطلب تلك النزعة ويستجيب لها ، ويقول بعض المقطوعات لم يصلنا منها للأسف الشديد الا مقطوعة واحدة تتكون من تسع أبيات كان قد قالها سنة 1921 ثم نشرها فيما بعد في جريدة (صدى الصحراء) (4) ، وهي غير مدرجة في ديوانه ، وهذا مطلعها :

قضى الله تعذيبي بها قبل تكويني ... دعوها بنيران المحبة تكويني (5)

ويمكن للدارس أن يقف على وجه شبه بين ما جاء في هذا المطلع وبين ما جاء في بيتين للامام الشافعي رحمه الله ، يخاطب فيهما صاحب فضل ، مما يدل على تأثر محمد العيد في الروح العام بالنموذج الفني القديم وهو في بداية الطريق : يقول الشافعي :

---

(1) أنور الجندي (الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا) ، ص : 266 .
(2) محمد صالح الجابري (الأدب الجزائري في تونس) ، ص : 24 .
(3) المصدر السابق (الملحق)
(4) ينظر العدد : 9 ، فاتح فيفري 1926 .
(5) ينظر الملحق : [illegible]

رأيتك تكويني بميسم منّة	كأنك كنت الأصل في يوم تكويني
فدعيني من المن الوخيم فلقمة	من العيش تكفيني الى يوم تكفيني(1)

وعند عودته من تونس استقر ببسكرة وكانت تشهد يومئذ بوادر نهضة علمية وأدبية نشطة يسهم فيها ويوجهها كوكبة من الكتاب والشعراء فاندمج الشاعر في هذه الحركة، ويعلق على ذلك فيقول : (في بسكرة فتحت عيني على النهضة الأدبية والعلمية وتعرفت على بعض الأدباء وكان لي معهم مساجلات أدبية ورسائل شعرية)(2).

واتصل الشاعر عن طريق هذه النهضة بالحركة الأدبية في الشرق وتعرّف على نتاج بعض أعلامها وأفاد منه ، ثم تجرّد الى قول الشعر والاكثار منه . ويمكن القول أن الانطلاقة الحقيقية للشاعر في الميدان الفني ، انما ترجع الى هذه الفترة التي أعقبت عودته من تونس، كما يظهر ذلك من خلال غزارة انتاجه وتمرسه فيه في هذه الآونة، أما ماسبق ذلك فيعد ارهاصا لما جاء بعده .. وكان من أقدم ما وصلنا من شعر هذه المرحلة قصيدته (صدى الصحراء) التي كانت دعوة حارة الى العمل واليقظة والاصلاح .ومما جاء فيها قوله :

صفا العيش لي وامتد ريف ظلالي	فما لتكاليف الزمان ومالي ؟
صفا العيش لي وازدان روض مواهبي	وأينع فضلي واستبان كمالي
وكنت (صدى الصحراء) أدعى لأنني	بسطت على الصحراء نور هلالي
رواايت بالارشاد رفع عقيرتي	عسى أن يهب النائمون حيالي
وهبّوا الى الاصلاح فالله كافل	لمن هبّ للاصلاح حسن مئال (3)

ويبدو من خلال هذه القصيدة أن الشاعر كان قد دخل غمار الحياة العامة بعد عودته من تونس مباشرة . كما رأينا ذلك من قبل في دعوته الى النهضة والتقدم ومساهمته في اصدار الصحف وتحريرها ، ممّا يعكس بدايات نشاطه في الميدان الوطني بروح طموح متفائلة بالمستقبل(4)، ولكنه سرعان ما اصطدم بالواقع السيء الذي يتخبط فيه شعبه ، ولكونه لم يزل بعد طرى العود غضّ التجربة ، ولم يكن يملك من الوسائل ما يمكنه من المقاومة الصلبة ، فقد تراجع الى الخلف وأصيب بتوتر نفسي دفعه الى العكوف على نفسه ، يتأملها ويبحث عن سر الحقيقة في أغوارها ، وساعد ذلك

(1) ديوانه ، ص : 177 .

(2) سمعت هذه الرواية من الشاعر ، وينظر ديوانه ، ص : 546 .

(3) ديوانه ، ص : 12 .

(4) ينظر ، ص : 57 من هذا البحث .

على نمو بذور تلك النزعة الانطوائية التي شب عليها فاستراب من الحياة وتبرم من الدهر فصرخ وهو في عنفوان الشباب يستنجد ويستغيث بمن يلجده مما يؤرقه من سأم ، ومما ينكد عيشه من حيرة :

سئمت على شرخ الشباب حياتي فمرت ولم أملك عليّ شياتي
أرى حظ أرذال النفوس مواتيا وحظ كريم النفس غير مواتي
فأوجس في نفسي من الدهر خيفة لعلمي بأن الدهر ذو غمرات
سئمت وإن كنت ابن عشرين حجة حوادث لا تنفك مستمرات
أورد طرفي سابيا كنه غورها فيرجع طرفي خاسيء النظرات (1)

إنها حيرة ابن عشرين سنة وهو يضع قدميه على درب حياة ملأى بالمتناقضات ، مفعمة بالمآسي والأحزان ، فلم يتسع قلبه الشاب وتجربته الغضة لتلك المحن ، فضاقت به الدنيا واسودت في عينيه الحياة وساء ظنه بالناس ، فأدى به ذلك الى أن التقى أو يكاد مع أبي العلاء المعري في بعض نظراته السوداء التي تقوم على الشكوى من الدهر والتبرم من الحياة والأحياء ، فصبّ هذه المعاني في بعض قصائده التي قالها في هذه الفترة المبكرة من حياته مثل (يا دارس أسطر الكون) بين الشك والتشكي) [2] .

قد يكون محمد العيد متأثرا في نظرته هذه الى الحياة بالشاعر أبي العلاء ، غير أنه يختلف عنه فيما نحسب في رد الفعل المترتب عن ذلك ، فمحمد العيد لم ينف السعادة عن الحياة ، ولم يطلبها في الموت كما فعل المعري الذي يكون قد فشل لأسباب ذاتية وموضوعية في التكيف مع واقعه فطلب الموت ليستريح من هموم الحياة [3] . كما أن الشاعر لم يذهب مذهب شاعر (المعرة) في تعطيل طاقات الانسان بإغلاق الباب في وجهه نحو الكدّ والسّعي في هذه الحياة . إن محمد العيد لم يحرم الانسان من ارادة الخير والعمل ، وانما كان على العكس من ذلك ، بإفساحه المجال أمامه ، للاقبال على الحياة . ولعل ذلك مردّه الى الوازع الديني في نفسه الذي جعله يدعو الى السعي لبلوغ الكمال .

---

(1) ديوانه ، ص : 10 .
(2) ديوانه ، الصفحات : 7 ، 10 ، 20 .
(3) ثريا عبد الفتاح ملحس (القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه) ، ص : 160 .

وتجدر الاشارة الى أن بعض أصدقاء الشاعر كان قد أحس بما يغمره يومئذ من شعور بالحيرة والقلق ، فكان لذلك يلقبه بـ (شاعر البوءس)(1) .

ويحق للدارس أمام هذه التجربة التي عاشها الشاعر في تلك الفترة ، أن يتساءل عن دوافعها ؟ وذلك لأن لكل ظاهرة نفسية تعترى الانسان ، ولكل سلوك عملي أو موقف فكرى يترتب عنها ، انما مرده الى عامل أو مجموعة من عوامل الفشل الكثيرة التي قد يصطدم بها هذا الانسان ، وهو يشق طريقه في مسالك الحياة يطلب أمرا من أمور الدنيا ، واذا صادف أن خاب في مسعاه فانه يصاب بانتكاسة نفسية ، قد تؤدى به الى الشعور بالتذمر من الحياة وسوء الظن بالناس . وهل يكون الشاعر قد وقع له شيء من ذلك ، الأمر الذى جعله ينحو ذلك المنحى النفسي الخاص ؟

ان المتأمل في أشعار محمد العيد وفي سيرة حياته لايحتاج الى كبير عناء ليدرك من خلال شواهد كثيرة ومواقف مختلفة أن مبعث هذه الحيرة لايرجع الى أى سبب من الأسباب التي قد تصيب الانسان عند فشله في تجربة ذاتية خالصة من مثل ما ألمعنا اليه قبل قليل . وانما يعود ذلك — في نظرى — الى شيء آخر أعمق وأدعى لذلك الموقف من كل ما سبق . أحسب أن ذلك انما يعود لما يعترى كل فرد مخلص وكل مواطن صالح يرى شعبه في محنة وفي ضيق . ويخيل اليّ على هذا الأساس أن ذلك السلوك من الشاعر ، انما يرجع الى احساسه العميق بجراحات الوطن وعمق مأساته (2) ، مما يشاركه فيه غيره من الشعراء الجزائريين وبعض شعراء العربية المعاصرين (3) ، ويمكن للمرء أن يقف على ما يؤكد له ذلك التعليل ، من خلال هذه المناجاة الصريحة ما بين الشاعر وبين نفسه . يخاطب الشاعر نفسه فيقول :

فلا تعذ ليني في التشاؤم بعدما ... نبت بي صروف الدهر عن كل طيب
تريدين خوضي في الأماني تعلة ... وذلك أمر ان أخض فيه أكذب

---

(1) ورد هذا اللقب في رسالة للشيخ مبارك الميلي كان قد بعث بها الى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الذى كان زميلا للشاعر بمدرسة الشبيبة ، وهي مؤرخة في سنة 1930 . أفادني الشيخ الجيلالي بهذه الرواية .

(2) شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 : 28 ، (محمد العيد آل خليفة) ، ص : 63/ه أبو القاسم سعد الله (شعراء من الجزائر) ، ص : 167 . د . صالح خرفي .

(3) ينظر ديوان حافظ ، ج 1 : 32 .

وتشكين مني عزلــة وتجنــبــا ومن فرط وجدى عزلتي وتجنــبي
وأغرب خطب هالني خطب موطن لنا ملعتــه الشمس أسرا ب، أغــر ب
فيالك فردوسا تحولت دمنـــة وياوحشتا من أغرب فيــك تحــسب (1)

انها اذن مأساة الوطن ، هذه التي تحزن الشاعــر ، وانها آلام خطبــه هذا الــذى جلبتــه اليه أسراب الغربان التي أصبحـت تغطي سماءه وتفترش أرضــه فحولتــه من جنات وارفــة الى رمــوس دارســة . ويشتــد هذا الاحساس أحيانا بقلب الشاعر، فيكــاد يعصــف بــه بعيــدا في متاهات سوداء ، ويهــد أ أحيانا ، فيطــل به علــى واحــة خضراء وارفــة الظــلال ، تفيـض بالبشــر وبالأمل ، لقد اضطرب الشاعر بــين التفاؤل والتشاؤم كما كانــت تضطرب الأمــة بين الحركة والسكون ، الا أن الشاعـــر المؤمن ، وان حاولت أن تعصف بــه أعاصير الحياة ، فانها لا تقوى على أن تفـقـــده زمام أمره ، فيظل ايمانه القوى يمســك به حتى لا يحيد عن الطريق أو يزيغ عن الجادة ، مايسمح له بالرجوع الى داخله يتمــلاه ، والى رصيده القديم المتجدد من المــدى واليقــين يستمــد منه الطاقة ويستهوى به الطريــق ، فيحول ذلك بينــه وبــين أن يسقــط في هاويــة اليأس أو يأخذ به القنوط . واننا لنراه ، وان تأرجح في بعـــض الأحيان تحت تأثير معطيات الواقع المختلفــة ، بين هذه الضــفــة وتلك ، فان روح التفاؤل بالمستقبل تطغى عليه وتكون لها الغلبة عن غيرها في نفســه في خاتمـــــة المطاف . يقــول الشاعــر :

بلادى فداك الروح والله عــالــم عليك سلام خالص القصد سالـــم
يحييك مشتاق على القرب مشــفــق من البعــد ، مشغوف بحبك هائـــم
له فيك ألوان من الــرأى عــــد ة فأبيض وضاح وأســود قاتـــم
فآونة فيما يــرى متــفــائـــــل وآونــة فيمــا يــرى متشائـــم
على أن رأى الفــال أقوى علا ئمــا وتقوى الأماني حيث تقوى العلائم (2)

* * * * * *

وتكاد هذه الصفحة السوداء تطوى من حياة الشاعر بعد استلامه في سنــة 1927م دعوة من (جمعية الشبيبة الاسلامية) بالجزائر العاصمة للتعليـــــم فــــي[3]

---

(1) ورد في ديوانــه ، ص : 289 (أن هذه الأبيــات كانت مثار مضايقات له مــن سلطات الاحتلال .
(2) ديــوانــه ، ص : 135 .
(3) ينظر : - Hocien Maâref, Alger, Républicain 27-2- 1965 .

مدرستها [1] . وكانت هذه الدعوة قد وجهت في الأصل الى الامام ابن باديس تطلب منه الجمعية أن يقترح عليها معلما ، فوقع اختياره على الشاعر، لمعرفته السابقة بـه ، فعرض الشاعر الفكرة على أقرانه وعلى الشيخ العقبي بوجه خاص فلقي منهم جميعا التشجيع على تنفيذها . فسافر الى العاصمة وشرع في التدريس بالمؤسسة المذكورة في السنة نفسها ، ومكث بها معلما لمدة ثلاث سنوات ، أصبح بعدها ، أي في سنة 1931م ، مديرا لها خلفا لمديرها السابق ، الشاعر محمد الهادي السنوسي .

ويذكر الدكتور سعد الله أن الشاعر خرج في سنة 1931م ، من عزوبته وتزوج من ابنة عمه [2] . . وقد جاء خبر ذلك في مجلة (الشهاب) [3] .

وأصبح الشاعر من ذلك الحين زوجا ، ورجل تربية ، وشاعر رسالة ، يواكب بشعره الوطن في كفاحه وفي تطلعاته . ويمكن لأحد أن يسأل هذا السؤال : كيف استطاع محمد العيد أن يجمع بين كل ذلك في وقت واحد ، ويوفق في النهوض به بآن ؟

لقد استطاع الشاعر أن يضطلع بتلك المهمات المختلفة وينجح فيها ، بحسن تنظيمه لوقته واستغلاله له في العمل الدائب ، واستغراقه معظمه في القضايا والاهتمامات العامة حتى لا يكاد يفرغ فيه لحاجة تخصه ، وانما كان كله ، ملكا للصالح العام ، كان يربي النشء ، وكان يؤم من بالمدرسة طلابا وأساتذة في الصلاة، وكان يشرف على تسيير المدرسة ، وتنظيم لقاءات ثقافية أسبوعية بها ، تشتمل على محاضرات ومناقشات [4] . كما كان يسهم بخطابه وأشعاره ، وما يكتب من مسرحيات [5]

---

(1) تأسست هذه الجمعية حوالي سنة 1924 وكان رئيسها السيد (محمد علي الدامرجي) وفي هذه السنة فتحت مدرستها بالمكان الذي يسمى الحويمة الغربية بالباب الجديد (القصبة) وكانت تتكون يومئذ من ثلاث حجرات ثم تحولت في سنة 1932 الى مقرها الحالي بشارع (لوني ارزقي) رقم 17 . وكان أول مدير لها هو : الشاعر عمر بن قدور . وفي أساتذتها يومئذ : السادة : فرحات بن الدراجي ، عبد الرحمن الجيلالي ، باعزيز بن عمر ، جلول البدوي . وأما التعليم بها فكان ابتدائيا ، وتقوم برامجه أساسا على تدريس القرآن الكريم وبعض المواد الدينية واللغوية .

(2) (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري) ، ص : 35 .

(3) ج 1 / م8 رمضان 1350 هـ / جانفي 1932م ، ص : 60 .

(4) أفادني الشيخ جلول البدوي انها كانت تنظم يوم الثلاثاء من كل أسبوع .

(5) من بينها (نداء الصحراء الى المروج الخضراء) وهي فرنسية الوضع ، وقام بترجمتها الشيخ باعزيز بن عمر نثرا ثم نقلها محمد العيد شعرا ، ومنها قوله :

من للفراش مجير يهديه حبني يحبير
ومل له رب بيت الى حماه يصير .

سمعت هذه المعلومات من الشيخ أحمد بوعدو .

يمثلها الطلبة في الاحتفالات التي كانت تقيمها (الشبيبة) فصليا وسنويا في العاصمة وفي بعض المدن الأخرى ، تخليدا لبعض المناسبات الدينية والوطنية من جهة ، وابتهال الفرصة من جهة ثانية لجمع التبرعات لفائدة المدرسة وتوزيع بعض الاعانات على الطلاب الفقراء ، ويجد الدارس صدى لذلك في كثير من شعر محمد العيد الذى كان ينظمه بهذه المناسبة ، ومن ذلك قصيدته (بلادى) التي نظمها سنة 1937م ، يقول فيها :

فهذا بحمد الله للضاد موسم — كريم وعيد للعروبة باسم
وحفل بهي (للشبيبة) زاهر — كروض ندى باكرته النسائم
تلاقى به أنصارها وحماتها — كما تتلاقى في السماء الغمائم
فكل لياليها وأيامها لنا — ولائم لم تبرح تليها ولائم
تلاءم في الدين الحنيفي شملنا — فبات قريرا شملنا المتلائم (1)

وكان طموح الشاعر أبعد من أن يقتنع فيه باقتصاره على ماذكرنا من تلك النشاطات ، الأمر الذى دفعه الى أن يمد أسباب صلته بالحياة العامة فيسهم في النشاط الاصلاحي العام ، بحضوره بعض المحافل العلمية واللقاءات الثقافية ، والأدبية التي كانت تشهدها حلقات بعض مساجد العاصمة ، ونادى الترقي .

ويمكن للباحث أن يقف من خلال بعض مواقف الشاعر ، عما يؤكد لديه ما أشرنا اليه منذ قليل ، من حرصه الشديد على وقته من جهة ، وقضائه في الصالح العام من جهة ثانية ، ومن ذلك مايرويه بعضهم عنه ، من أنه كان لايتمتع بمعظم أيام اجازته السنوية كغيره ، أيام كان بمدرسة الشبيبة ، وانما كان يفضل أن يقضيها كلها أو معظمها ببسكرة في التدريس ، يشير الى ذلك قوله :

ببسكرة النخيل قضيت شهرا — وددت لو أنه قد كان عاما (2)

وكما تصور ذلك قصيدته (يا معشر الطلاب) (3) التي نظمها بمناسبة ختمه كتاب (قطر الندى) (4) ، مع طلابه ببسكرة سنة 1928 م .

---

(1) ديوانه ، ص : 135 .
(2) سمعت هذه الرواية من الشيخ حمزة بوكوشة .
(3) ديوانه ، ص : 39 .
(4) لابن هشام الأنصارى المصرى المتوفي 761 هـ .

وكانت الحركة الاصلاحية لهذا العهد قد شهدت تطورا ملحوظا ، بظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، سنة 1931م ، وكان الشاعر واحدا من أوائل الذين أسهموا في تأسيس هذه الجمعية وباركوا ظهورها ، وأصبح منذ انطلاقتها الأولى ، عضوا عاملا في مؤسساتها ، ثم لم يلبث أن أصبح فيما بعد نائب رئيس لاحدى لجانها الفرعية الأربعة وهي (لجنة الأدب) [1].

لقد هزت الشاعر الفرحة بذلك الميلاد ؛ وأطربته نشوة الأمل وهو يرى في هذه الجمعية مايؤكد للمحتلين من جهة ، زيف دعاويهم ، وما يرمز من جهة أخرى الى ما تحقق من جمع الشمل وتوحيد الجهود وتوجيهها جميعها ، في الطريق الصحيح نحو تحقيق الأهداف الوطنية ، فقام الشاعر محييا ومهنئا العلماء والأمة بقصيدته (تحية العلماء) [2] ومما جاء فيها قوله :

على الرحب حلوا أجمعين على الرحب	فأنتم ضيوف في حمى الله والشعب
فياعصبة العرفان ياقادة الهدى	تعالوا لرد الشعب ملتئم الشعب
مضى زمن والبعد كالسيف مصلت	عليكم مشت للجميع يلا ذنب
فيالك من عيد تجلى كأنه	عروس تجلت في مطارفها القشب
هنيئا لكم هذا اللقاء فانه	بشير بما تبنون من راسخ الحب (3)

وان الدارس ليشهد في أكثر من موقف من مواقف الشاعر ما يؤكد لديه أن ايمانه كان كبيرا كجميع اخوانه المصلحين بأن خلاص الوطن انما يكون بنهضة ثقافية ، يكون عمادها الايمان بالله وما يتفرع عنه من نشر المفهوم الصحيح للدين الاسلامي ، والأخذ بأسباب العلم النافع والعمل الصالح ، والحرص على بناء الانسان روحيا وماديا ؛ بتوعيته بذاته وبمن حوله ، والعمل على اقتلاع بذور اليأس والخنوع والتواكل من نفسه ، وربطه بالحياة وحثه على طلب المجد والعز فيها .

---

(1) وكانت هذه اللجان الأربعة وهي (لجنة الأدب ، ولجنة الدعاية ، ولجنة التعليم ، ولجنة الاصلاح الاجتماعي) قد تأسست بموجب قرار كان المجلس الاداري لجمعية العلماء قد أصدره في جلسته المنعقدة بتاريخ 2 أكتوبر 1936 . ينظر البصائر ، العدد : 33/ 9 أكتوبر 1936 ، ص : 6 .

(2) ألقاها الشاعر في الاجتماع التأسيسي لجمعية العلماء المنعقد بنادي الترقي في 17 ذي الحجة سنة 139 هـ / 5 ماي 1931 م ، ونشرت بالشهاب ج 6 / م7 صفر 1350 هـ / جوان 1931 م ، ص : 381 .

(3) ديوانه ، ص : 247 .

ولما برزت جمعية العلماء الى الوجود كهيئة وطنية تتبنى هذه المبادئ وتعمل لتحقيق هذه الغايات ، التقى الشاعر معها على هذا الطريق ، وانضم الى حركتها ، وناضل في صفوفها ، مصلحا ومربيا وشاعرا .

فقد كان يحضر بعض اجتماعاتها الفصلية ، ومؤتمراتها السنوية ، ويخلّد أعمالها بشعره ، فكان له من ذلك مجموعة من القصائد سنعرض لها في مكانها من هذه الرسالة ؛ ويذكر بعض الباحثين أنه كان يرتحل مع بعض الدعاة الى أنحاء عديدة من البلاد لنشر الوعي الديني والوطني ، بين صفوف الأمة [1] . ويشهد على ذلك أيضا الدكتور أحمد طالب الابراهيمي فيقول :

(وكان الأستاذ محمد العيد من أوائل الذين نذروا أنفسهم للاصلاح ، تعليما للناشئة ، وتوعية للجماهير وتسخيرا لفنه الرفيع في سبيل الأهداف الوطنية العالية . ونهض شعره بهذه المهمّات النبيلة ، فكان نورا للشعب ، يضيء جوانب الطريق وكان نارا متأججة يحترق بها المستعمر) [2] .

ومضى الشعب على هذا الطريق الذى رسمها له أبناؤه المخلصون يجاهد ويناضل ، موقنا أنها طريق وعرة المسالك ، لا يحقّق فيها مطالبه الا من كانت عدّته فيها الايمان بالله ، والاخلاص للوطن . والثقة بالنفس وترك الخنوع ومجاراة الأمم ، والأخذ بأسباب العلم والقوّة .

فالغرب الغازى لم يصل الى ما وصل اليه من تحكم في رقاب الشعوب المستضعفة الا بما وصل اليه من بناء الذات ، وبما حصل عليه من وسائل العلم والتقدم . ولم لا يكون اذن للشعب المغلوب على أمره ، في ذلك خير حافز له على النهوض والثورة والانعتاق ؟ وتلوح في الأفق بعض ثمار الكفاح الوطني ، فتتكاثف الجهود حول المؤتمر الاسلامي سنة 1936 ، وتعمّ الفرحة البلاد ويستبشر الشعب خيرا بهذا الحدث ويتقدم محمد العيد ليترجم هذه البشرى فيقول :

شهدت اليوم مؤتمرا عظيما	أقرّ لمثله يجب الشهود
به تبنى الجزائر من جديد	وتستحيا المآثر والجدود

---

(1) ينظر د . أبو القاسم سعد الله (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري) ص : 704 .

(2) من كلمة (التقديم) لكتاب والده (عيون البصائر) ، ص : ...

وبعث صوتنا الشعبي حــــرا   يدوّي مثلما دوّت رعــــود
ونقتحم السدود الى حقــوق   حرمناها وان علت السّـــدود (1)

ويحسن ألّا يستغرب الباحث اذا كان الشاعر يحلّق كل تلك الأغاني على ذلك المؤتمـر فقد سبقه الى مثل تلك المعاني (الشيخ البشير الابراهيمي) الذي يقول عن ذلك المؤتمر : (هــو يوم الجزائر المشهود الذي يحقّ لها أن تبدأ به تاريخها الجديد ، ففيه تجلّى تضامن الجزائر الاسلاميــة واخاؤهــا واتحادهــا . . .) (2)

وكان الشاعر كغيره لا يعلم ما يضمره الغيب في طيّاته ، ولا يدري أنّ ما حدث لا يعدو أن يكون سحابة صيف لم يكن برقهـا الا خلّبا ، ذلك أن تلك النشوة لم تكد تغمر القلـوب المتعطّشــة حتى رجــع الوفد الوطني المنبثــق عن المؤتمر من فرنسا ، ولم يحمل معـه ماكان يحلم به الشعب من أماني وآمال ، انه لم يحمل معه أكثر من بعض الوعود . وهل للظالم المغتصــب وعد ؟ ! كــلّا انه يراوغ ويماطــل وتراه يمنّيك ولكن لن يكون ذلك الا سرابا بقيعة ، ولنستمع الى الشاعر وهو يوســع المحتلّ تهكمــا وسخريــة فيقــول :

ماللحقوق الينا غير واصلــــة   وقد سمعنا بها من منذ أزمـــــان ؟
هل عاقها البحر ماذا فهي عاجــزة   عن قطع ما فيه من لجّ وشطـــآن ؟
أم راقها البحر حسنا فهي سابحة   تلهو بما فيه من در ومرجـــان ؟
أم ألحقت ببنات البحر فاحتجبت   عن كلّ قاص من الرّائين أو دانـي ؟ (3)

وما كان محمد العيد الذي عرفناه مرهف الاحساس ، شديد التأثر بمعاناة شعبــه ، يفرح لأفراحه ، ويألم لآلامه الا أن أصيب بانتكاســة نفسيــة بعد ما فشلت أو كادت مساعي المؤتمر الاسلامي وبعد تآمر العدو على الحركة الوطنية ، بتدبير مقتل (الامام كحّــول) والصاق التهمــة بالشيخ (الطيب العقبي) وقد سبق أن عرفنا تلك الصلة الوثقى التي تربط منذ أمد بعيد ما بين الشيخ (الطيب العقبي) والشاعر ، فكان لابد لذلك من أن يلحــق الشاعر — وهو بحوم في هذه الحمى — من تلك النار بعض الشظايا ، وقد أصابه القوم عموما من جرّاء ذلك محنــة وبلاء . فأحس (محمد العيد) حينئذ بأن شبح المأساة الذي أرّقــه في مطلع شبابــه ما يزال قائما ، فضاعــف ذلك من حدة ما بقلبــــه من وجــوم وما بنفســه من آلام وحسرة على مصير الوطن . وكان من ذلك ما زاد فــــي

---

(1) ديوانــه ، ص : 303 .
(2) الشهاب ج 4 م 12 / ربيع الثاني 1355 هـ / جويلية 1936 م ، ص : 201 .
(3) ديوانــه ، ص : 315 .

تعميق ميول نزعته القديمة نحو العزلة والانطواء ، ممّا يمكن أن يلمس بعض ملامحه في قصيدته (يابحر)[1] ، التي لم يذكر الدّيوان تاريخ نظمها ولا مكان نشرها ؛ ولكن المحقّق يمكنه أن يعرف شيئا عن ذلك ، من بعض الاشارات الواردة فيها ، من مثل قول الشاعر وهو يخاطب البحر :

أخشى غدا فيك تغدو　　　أزبادك البيض حمرا
أخشى وغى فيك تحمى　　　فتقلب الماء جمرا (2)

مما يرجّح أن الشاعر يكون قد نظم هذه القصيدة قبيل الحرب العالمية الثانية بقليل ، ويؤكد ذلك ويدلّ في الوقت نفسه على بداية ميله الى العزلة والانطواء ، هذان البيتان اللّذان جاءا في خاتمة هذه القصيدة :

هذا وداع محبّ　　　ينوي فراقك دهرا
ماعنده رأس مال　　　الاّ أماني حسرى (3)

واذن فقد بدأ الشاعر يهيء نفسه الى الفرار من حياة الناس ، الى نوع آخر من الحياة ، نلمس ملامح ذلك في قصيدته (ويخلد الاسلام)[4] ، والتي يمكن للباحث أن يحسّ من خلال الجو النفسي العام الذى يسودها أن الشاعر أصبح يعيش في هذه الفترة ظروفا صعبة يبدو فيها ، وكأن الأرض قد ضاقت به ، وأن نفسه لم تعد تحتمل العيش فيما هي فيه ؛ فسما الى حياة أخرى يكون فيها بعيدا عما يرى من شرور ومظالم ومفاسد ، الى حياة يتقرّب فيها الى كافر ربّه يعبده ويخلص في عبادته . ومما جاء في ذلك قوله :

آه من عشرة القصور فيها　　　ليس ينجى من الشرور اعتصام
ليتني كنت سائحا موطني البيـ　　　ـد ولبسي المسوح والأهدام
وطعامي النبات من كل نوع　　　ومبيتي الكهوف والآكام
وسميري النجوم والطير فيها　　　وعشيري الوحول والآرام
وجهتي للذى هداني وقصدى　　　وصلاتي لوجهه والصيام (5)

---

(1) ديوانه ، ص : 63 .
(2) ديوانه ، ص : 64 .
(3) ديوانه ، ص : 67 .
(4) ديوانه ، ص:176 ، ونشرت بالشهاب ج 6/م 15 جمادى الثانية 1358 هـ/جويلية 1939م .
(5) ديوانه ، ص : 178 .

وقد كانت هذه القصيدة بالفعل تمهيدا لدخول الشاعر في مرحلة جديدة من حياته ، وايذانا لما سيقدم عليه في أعقابها من جديد ، اذ لم يطل به الحال حتى أقدم في يوم من أيام سنة 1941م على اتخاذ قراره بتركه التعليم في مدرسة الشبيبة الاسلامية ومغادرة العاصمة نهائيا بعد أربعة عشر سنة قضاها كلّها في ميدان الصراع مجاهدا ومناضلا .

ولا يسع الباحث الا أن يحاول التعرّف على الأسباب والدوافع التى كانت من وراء هذا القرار.

أحسب أنه لا يخفى على الكثير من المطّلعين على تاريخ الجزائر الحديث ، أن التعليم بالجزائر كان ومايزال عملا وطنيا من أنجع الوسائل وأقواها في النهوض بالأمة وتحريرها من آثار الجهل . ولعل لهذه الأهمية اتخذ الشاعر من مهنة التدريس رسالته ومشروعه كما يحلوله أن يسمى ذلك .

وقضى الشاعر العمر كلّه أويكاد ، يحدب على تثقيف الشباب وتكوينه تكوينا عربيا اسلاميا . وكان المحتل يخشى على نفسه من عواقب هذه النهضة التعليمية التي نشطت في البلاد فسارع الى وضع العراقيل أمامها والبطش بالقائمين عليها ، وكان في اطار هذه المحاولات ماخيّم على الجو من ظروف خاصة قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية حوالي 1938م ، فاعتلى خشبة المسرح من لبس لبوس التظاهر بالتودّد والاحسان الى المشاريع الخيرية في الجزائر . وتحت هذا القناع ، صوّب بعض الحاقدين سهامهم لاصابة احدى القلاع الهامة بالوطن في تكوين رجال الغد المأمول ، وهي مدرسة الشبيبة الاسلامية (1) التي كان الشاعر مديرا لها ، ويصوّر الشاعر بعض ما كانت تقوم به تلك المدرسة، فيقول :

هنا "الشبيبة "في "دار الفلاح "هنا ... خير الكهول هنا خير الشباب هنا .
رسم يخلّد للأجيال حامية ... من الشبيبة تحمي الدّين والوطنا (2)

وكانت تلك المحاولات الماكرة تستهدف في البداية أن تحدث تصدعا معنويا في بناء ذلك الحصن ، ثم تخلص منه الى شلّ حركته وازاحته من ثمّ نهائيا ، من على

---

(1) يذكر الشيخ أبو اليقظان أنها ثاني جمعية في البلاد من حيث الأهمية بعد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ينظر جريدة الأمة العدد : 15 / 17 رمضان 1353هـ / 25 ديسمبر 1934م .

(2) ديوانه ، ص : 544 .

جادّة المسيرة الوطنية . وقد جنّدت لهذه المكيدة مستوطنة فرنسية تدعى السيدة : " سال ميلسي "(1) Selles Mellie وكانت تتظاهر بأنها تقوم بمهمّة " مساعدة اجتماعية " بالولاية العامة ، أو مايشبه ذلك ، وهي في حقيقة أمرها كانت عميلة بمصالح مديرية الشؤون الأهلية بالولاية العامة ، مكلّفة بالجوسسة على نشاطات الحركة الوطنية . فبدأت هذه الجاسوسة أعمالها باتصالها باسم الاحسان ، ببعض الأوساط ، وكان في مقدمة من اتصلت بهم أعضاء جمعية الشبيبة الاسلامية ، فعرضت عليهم استعداد السلطة الفرنسية لتقديم مختلف المساعدات المادية والأدبية للمدرسة ، حتى تستطيع أن تنجو من الاخفاق الذي قد تقع فيه اذا ما جمدت على الحالة التي هي عليها ، في هذه الظروف القاسية التي بدأت فيها ريح الحرب تهب على المنطقة . وسوف تكون المعونة المادية المزعومة لترميم بناء المدرسة وتوسيعها ، وتسديد النفقات اللازمة لتسييرها . أما الدعم المعنوي ، فيكون بترقية التعليم وتطويره ، ولن يتحقق ذلك في منطق المحتلين ، الا بادخال اللغة الفرنسية ، في مواد التعليم بالمدرسة . وكانت هذه العروض قد أصابت بعض أهدافها ، فأحدثت بعض التصدع في كيان (الجمعية) ، وتوزع الرأى بين أعضائها ، فكان من بينهم من أدرك سوء هذه النوايا ، فأراد أن يفوت الفرصة على أصحابها ، الا أن الهجمة كانت شديدة ، وكانت الظروف العامة بمايشيع في أجوائها من نذر الحرب ، في غير صالح الجانب الوطني ، ولم تكن الملابسات مواتية ، بحيث تسمح لهذا الجانب بالمراجعة أو الحركة في الاتجاه الذى يحقق له أهدافه ، ويجنبه السقوط في هذا المزلق . فما كان اذن الا أن تحقق للمحتلين ماأرادوا ، وقد جاء في جريدة (الاصلاح) الصادرة في هذه الآونة ، مايصور بعض هذه الملابسات ، وذلك في قولها (وكان من نظام هذه السنة (أى العام الدراسي 1939 ــ 1940) أن جمعت مدرسة الشبيبة بين التعليم باللغتين : العربية والفرنسية ، حيث أسعدت الجمعية بعض الجهات بتعيين أساتذة جدد ، يقومون بالقاء الدروس الافرنسية (كذا) بهذه المدرسة على نظام المدارس الفرنسية الأخرى ، وتعهدت باعانة جمعية الشبيبة ، اعانة مالية تفي بمرتب الأساتذة المذكورين ، وتحفظ المشروع من السقوط) (2).

واذن ، فقد التحق المعلمون الفرنسيون بالمدرسة وفتحوا بها قسمين ، وعين من بينهم مديرا ، وكانت امرأة تدعى " كليما Cleiment . وكان يساعدها في ذلك المعلم

(1) كانت مهندسة موظفة بالولاية العامة ، وكانت على علاقة بالآباء البيض وخاصة مع رئيسهم (الأب فارن) المتوفي حوالي سنة 1983 ، وتسكن بشارع ذبيح الشريف رقم 69 . وظلت بالجزائر حتى الاستقلال .

(2) العدد : 17/15 ذى الحجة 1358هـ / 23 ديسمبر 1939 م ، ص : 3 .

" سوقان Séguin " ، فما كان اذن الا أن انقلب النظام في المدرسة ، رأسا على عقب ، واضطربت مناهجها ، وتعرض توزيع التلاميذ فيها على الأقسام ، الى اعادة التصنيف من جديد ، وتمادت المديرة في غيّها ، وتجاوزت حد التدخل في شؤون ادارة المدرسة ، وسير التعليم العربي بها ، الى حد مضايقة الشاعر (المدير الرسمي) للمؤسسة ، وتعمد الاساءة اليه . وقد يكون محمد العيد قد صور هذه الظروف التي أحاطت بالمدرسة في هذه الآونة ، الا أن ديوانه لم يسعف الباحث بشيء من ذلك ، ويمكن أن يكون الشاعر قد قال شعرا في ذلك ، ولكنه تعمد الاحتفاظ به لنفسه ، ويرجح هذا الاحتمال ، أني عثرت على بيت له يمكن أن يكون من أصل مقطوعة ، كان محمد العيد قد قالها في تصوير تلك الملابسات ، ولكن لم يصلنا منها الا هذا المطلع :

طغى (أ) (ب) في المكتب (1) على لساني العربي (2)

وبالفعل فقد طغت الفوضى في المدرسة ـ كما يؤكد ذلك بعض من كان الى جانب الشاعر في هذا الوقت ـ وعم الظلم ، واكفهرّ الجو في المؤسسة ، وآل الأمر بها وبأصحابها الشرعيين الى حال ، أصبح من العسير احتماله أو الصبر عليه . فقد ولت تلك الأيام التي كانت تعيشها الشبيبة ، أعياد صفاء ، ومجالس احسان ، وحفلات أنس ، كما جاء ذلك على لسان الشاعر وهو يصف بعض ذلك فيقول :

أحدقت بالشبيبة الأعضاد وفشى الذكر حولها و (الضاد)
صافح الغر يوم حفلتها الغر و صافى به الجياد الجياد
كل عام لنابه حفلات زاهرات كأنها أعياد
تسحر الأنفس الاناقة والروعة فيها والذكر والانشاد (3) .

لقد كانت الأيام بتلك المؤسسة أفراحا وأعيادا ، فانقلبت الى أتراح ومضايقات ، وان الانسان العادي يحس بهذه المفارقة ، بله الانسان الشاعر الذى تكون تلك المفارقة عنده أوضح ، ويكون الاحساس بها في نفسه أقوى وأعمق ، انها أعياد انقضت وأيام خلت ، ويبدو أنها لن تعود ، وأين الشاعر منها ، ومن أمانيه تلك التي كانت يسهر الليالي لبلوغها ؟

---

(1) يقصد الحرفين (A ـ B) اللاتينيتين .
(2) عثرت على هذا البيت لدى زميل الشاعر السيد جلول البدوى .
(3) ديوانه ، ص : 117 .

لقد أصبح الشاعر الأستاذ يشاهد الجيل الذى سهر على تربيته وتكوينه السنوات الطوال يوجّه في نهج غير النهج الذى خطّه له وأعدّه اليه .

وتندلع الحرب الكونية الثانية ، وتمضي سلطات الاحتلال في تشديد قبضتها على الوطنيين الأحرار، وتضيق الخناق عليهم ، فتسجن من تسجن وتنفي من تنفي ، ولا ريب أن يكون محمد العيد في هذه الظروف من بين هؤلاء الذين ركزت حولهم الأنظار، وقد كان محل شبهة منذ أمد بعيد ، فخصّ لذلك برقابة شديدة لأكثر من سبب ، فهو من جهة يشرف على تسيير واحدة من أخطر المؤسسات التعليمية الوطنية في قلب البلاد ، وهو من جهة ثانية شاعر أسهم بفنه في توعية مواطنيه وتصوير تطلعات شعبه ، والدفاع عن قضاياه ، وهو من جهة ثالثة ركن من أركان الاصلاح والوطنية يحمل لواء الدعوة الى مقاومة الاحتلال ومناهضته (1) .

ولهذه الأسباب مجتمعة كان محمد العيد محلّ شبهة تكاد تكون دائمة ، فكانت العيون ترصده في حلّه وفي ترحاله ، وتحسب عليه حركاته وسكناته ، فهو محارب حيث ما وجد في المدرسة أو في النادى أو في الشارع أو في غيرها ، ولعلّه كان يشير الى بعض ذلك في هذه الأبيات :

ـ ان للناس أنفسا	ضاريات على الضرر
ـ وعيونا رقيبة	شرة تقذف الشرر
ـ كلما سار سائر	قلبت بعده الأثر
ـ فانج من كيدها وكن	من أذاها على حذر (2)

وفي وسط هذه الظروف الغامضة التي استهدفت سلطات الاحتلال تحت ضغوطها النيل من ارادة بعض الوطنيين وصرفهم عن أهدافهم الحقيقية ، أيقن الشاعر أن مدرسته مقبلة — ولا ريب — على التوقف ، ففضل أمام ذلك أن يترك المدرسة ويغادر الجزائر العاصمة نظيفا مخلصا ، لضميره ، مفوتا الفرصة على السهام التي تظل تتصيده على قارعة الطريق ، تريد الوقيعة به .

---

(1) يعده (علي مراد) من بين خمسة أشخاص كانوا على رأس الحركة الاصلاحية بالجزائر فيما بين الحربين العالميتين . ينظر (الاصلاح الاسلامي في الجزائر) ص : 137 .

(2) من قصيدته (رفاق الخيرة نشرها سنة 1936 ، ينظر ديوانه : 132 .

انه لم يجد يطق العيش، وهو الانسان الشاعر المرهف الأحاسيس ، في مكان أمست تمرح في ساحاته مشاهد الذل، وتخيم على الهامات فيه صباح مساء ، مختلف الاهانات ، فأصبحت هذه رغبته التي تظل تطارده وتقلق باله ، وانتقلت الى عالم اللا شعور فعبرت صفحات من التاريخ ، وكانت رؤيا (1) مكتوبة بالخط العريض في لوح أحد الأقسام بالمدرسة في شكل بيت من الشعر القديم :

— تلك آثارنا تدلّ علينا   فانظروا بعدنا الى الآثار

وقد صدقت الرؤيا ، وانتهى كل شيء ، وتخلّى عن ادارة جمعية الشبيبة أكابر مؤسسيها ، ومابقيت الا آثار العاملين المخلصين ، فقد غادر الأستاذ محمد العيد العاصمة موليا وجهه شطر بسكرة وقد خلفه على ادارة المدرسة زميله الأستاذ (جلول البدوى) الا انه لم يلبث الّا قليلا حتى تضامن مع زميله الشيخ (عبد الرحمن الجيلا لي) واقتفى الاثنان أثر الشاعر ، وأغلقت المدرسة أبوابها وتفرّق الجمع ، وأوحشت الديار ، وهذا مايعبر عنه الشاعر جلول البدوى في هذين البيتين :

ذهب الرفاق وقد تأثر عقدهم   وانبت حبل الوصل بعد رفاقي
لا صبر لي من بعدهم يرجى ولا   أمل يريح النفس غير لحاقي (2)

ولم يدم هذا التوقف الا بحوست شهور ، استأنفت المدرسة العمل بعدها ، وكانت الجمعية التي تشرف عليها قد اتصلت بأساتذتها القدامى تطلب منهم الرجوع الى العمل فرجع بعضهم ، وأما الشاعر فقد ظل متمسكا بقراره ، وهو في الحقيقة لم يكن وحده في ذلك الموقف ، وانما كان ذلك موقف الكثيرين من أمثاله . فقد ثبت أن الشيخ الطيب العقبي الذى أصبح في هذه الأثناء يشرف على (الجمعية الخيرية) بالعاصمة ، وجمعية الشبيبة ويدير (نادى الترقي) قد طلب من بعض زملاء الشاعر كالشيخ حمزة بوكوشة ، والشيخ فرحات الدراجي ، وكان الأول يساعده في بعض نشاطاته الاصلاحية . وأما الثاني فكان أستاذا في مدرسة الشبيبة ، طلب منهما أن يستمرا في نشاطهما الى جانبه فاعتذرا له . ولعل في هذا ما يؤكد للباحث أن اعتذار الشاعر عن عدم الرجوع الى العمل في الشبيبة انما كان جزءا من موقف عام .

---

(1) ويمكن أن تفسر هذه الرؤيا بوجهين اثنين :
— فهي من ناحية يمكن أن تكون عزاء من الله للشاعر حينما عزم على الرحيل ، فيكون له في ذلك ماقد يخفف عنه ما أصبح يحس به من حدة الشعور بالأسى والحسرة وهو يرغم على ترك مشروعه الذى نذر له نفسه .
— ويمكن أن تكون من جهة ثانية انعكاسا للاحساس بالأسف والمرارة وهو يجد نفسه مدفوعا بقوة الى الانقطاع عن مواصلة النهوض برسالته التربوية . فاختزن ذلك في اللا شعور ثم لم يلبث أن ظهر في صورة حلم حين نام الرقيب .
(2) سمعت هذين البيتين من الشاعر نفسه .

ومهما يكن من أمر فان الشاعر لم يمكث ببسكرة الا نحو ثمانية أشهر، ولعلّها هي المدّة نفسها التي بقيت فيها مدرسة الشبيبة مغلقة ، ثم انتقل بعد ذلك الى مدينة (باتنة) حيث واصل رسالته التعليمية بمدرستها . ولعل هذا يؤكد أن مغادرة الشاعر للجزائر العاصمة لم تكن منه انسحابا من ميدان الجهاد أو تنازلا عن المبادئ ، وانما كانت خطة تكتيكية أملتها ظروف الصراع وطبيعة المرحلة .

واذن فقد واصل محمد العيد النهوض بمشروعه التربوي ومكث بباتنة نحو ست سنوات، يدير مدرستها التي كانت فرعا من مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة ، التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ويحسن أن لا يتصور أن الشاعر قضى هذه المدة بمنعة من تعسف المحتلين ، وان ذلك لأمر مستبعد في بلاد ترصف في أغلال الاحتلال ، لأن العدو الذي دبّر له بالأمس القريب أسباب طرده من العاصمة ، هو عينه الذي وجده بباتنة يترصده على الطريق وينصب له الحبائل . فلم يلبث أن لجأ الى منعه من التدريس وايقافه وتقديمه للمحاكمة .

واذا ما حاول أحد أن يعرف بأي تهمة سيحاكم الشاعر ، فانه لا يعدم من يقول له ان الشاعر أذنب وأن جنايته كبيرة . ألم تره يقوم بتعليم أطفال أبناء وطنه لغتهم ودينهم ، ويوعيهم بذواتهم وذوات من حولهم ؟ أليس ذلك جريمة في منطق من يسعى جاهدا للقضاء على شخصية هؤلاء ، ويحاول ادماجهم في جسم غريب عليهم ؟ ألم يكن التعليم العربي في الجزائر أيام الاحتلال جنحة من الكبائر ؟ أوليس هذا عينه ماكان يقوم به الشاعر في الجزائر العاصمة فأرغم ارغاما على تركه ؟ واذن فان كل حيثيات القضية ليست في صالحه ، والحجة قائمة عليه . وما عليه والحال هذه الا أن يدفع الثمن ، ويعد نفسه للعقاب . وقد صبر الشاعر أمام ذلك ، ولم يفت في عضده ما ناله من أذى وظلم . واستمر في طريقه يؤدي رسالته .

الا أن الذي يمكن ملاحظته على الشاعر في هذه الآونة أن نشاطه كان محدودا في كثير من مظاهره ، بمقارنته مع ماكان عليه في الثلاثينات . غير أن ذلك في الواقع لم يكن خاصا به وحده ، وانما كان سلوكا عاما يشاركه فيه معظم أنداده من العلماء والأدباء، ويمكن تصور ذلك في اطار ظاهرة عامة أصبح يعيشها الوطن تحت ظروف الحرب (1) فشملت آثارها جميع وجوه النشاط الوطني .

---

(1) اندلعت الحرب العالمية الثانية يوم 3 سبتمبر 1939 . وكان قد سبقها مايسبق في العادة اندلاع الحروب من مناوشات وتحرشات وعقد بعض الاتفاقيات .

فقد أوقفت جمعية العلماء أو تكاد جميع أعمالها طوال سنوات الحرب ، ومع ذلك فان محمد العيد لم يكن منزويا في هذه المدة في برج عاج بعيدا عن قضايا الأمة . وانما كان يقوم بالتعليم ويحرص الى جانبه على أن تظل له صلته القوية بالمواطنين هؤلاء الذين كانوا بدورهم ينظرون اليه ، على أنه واحد من العلماء المصلحين ، فكانوا لذلك يتوجهون اليه يستفتونه في بعض القضايا الدينية والاجتماعية ، وكان يرشدهم الى الرأى الصائب فيها . ولا يبخل عليهم بالنصح والتوجيه ، ومما وقع للشاعر من ذلك في هذه الفترة أن أحد المواطنين استفتاه في قراءة الفاتحة عقب أداء الصلاة فأجابه الشاعر بهذه الأبيات :

يسائلني سائل حائـــــر	رجاء أن يجاب وأن يقنعا
أيدعو الامام ومأمومــــه	عقيب الصلاة بالسرّ معا ؟
فقلت له قل لمـــن ردّه	أرى الأمر مما ترى أوسعا
دعاء الجماعة بعد الصلاة	أراه حرى بأن يسمعا
ففيه لفاعله فسحــــة	اليه (ابن حمدون) قد ألمعا
وليس بفرض ولا سنّـــة	ولكن لـه حكم ندب الدعا ... (1)

واذن فقد ظل الشاعر بباتنة يواصل بعض نشاطه العلمي والاصلاحي حتى كانت حوادث (8 ماى 1945) . التي أصابت الحياة الوطنية على اثرها ما أصابها ، نتيجة لما عمّ أرجاء كثيرة من البلاد ، من ظلم وارهاب ، فكان من ذلك أن أغلقت أبواب مدرسة باتنة فتركها الشاعر حينئذ وتوجه الى مدينة (عين مليلة) في حوالي سنة 1947 ، حيث تابع مشروعه التربوى وأصبح يشرف على ادارة مدرسة (العرفان) بها ، وكانت مستقلة ، الا أن أغلب مسيريها كانوا من المصلحين كما كان الشاعر في الوقت نفسه يؤم المصلين ويخطب فيهم بأحد مساجدها الحرة .

ويحسن أن لا نتصور أن الشاعر قد عاش في هذه المدينة أيضا حياة هادئة هنيئة لم يلحقه فيها أذى : ذلك لأن الاحتلال واحد في كامل أرجاء البلاد ، ولذا فقد ظل الشاعر تحت طائل الملاحقة والمراقبة طول هذه المدة ، من طرف محافظ الشرطة ، وقائد فوج الدرك ، وحاكم المدينة ، ومما كان يقوم به ضده هذا الأخير يومئذ ، أنه كلما التقى به يناديه تهديدا (يابربروس) لأن الشاعر كان يصبغ لحيته بالحناء ، فكانت صورته بذلك تذكر ذلك الحاكم بصورة المجاهد التركي (خيرالدين باربروس[2] 1483 — 1546) الذى استطاع أن يتصدى للمعتدين الأوروبيين في عرض البحر الأبيض

---

(1) أملى عليّ هذه الأبيات أحد أصدقاء الشاعر وهو السيد عبد الحميد فاضلي ، وأفادني بأنه سمعها من الشاعر ، وهي غير مدرجة في الديوان .

(2) باربروسا : كلمة ايطالية تعني (ذو اللحية الحمراء) . ينظر (الموسوعة العربية الميسرة) ، ص : 770 .

المتوسط في مطلع العصر الحديث ويصدهم عن سواحل المغرب العربي . وكان الحاكم الفرنسي يستهدف بذلك اللقب ترهيب الشاعر والقاء الرعب في نفسه ، والايحاء له بذلك ، بأن مايقوم به من نشاط وطني لايقل خطورة عن الوجود الفرنسي مما كان قد قام به ذلك المجاهد الاسلامي في وجه أجدادهم الطامعين (1).

الا أن الشاعر واصل رسالته دون أن تستطيع أن تنال من عزيمته تلك الحرب النفسية لمايغمر قلبه من ثقة بالله وحب للوطن وتفان في خدمته . واستطاع أن يقوم الى جانب نهوضه بمهمته التعليمية، بحركة دينية ينشر من خلالها الوعي الديني والاجتماعي في صفوف المواطنين ويصلح ذات بينهم (2)، فكان يسهم بذلك في توجيه الأمة نحو سبل السلام والفلاح ، ويأخذ بأيديها على طريق التحرير ، واستمر على هذا الحال يجمع مابين التدريس والاصلاح حتى اندلعت الثورة الخالدة في الفاتح نوفمبر 1954 م .فأسهم الشاعر في نشاطها منذ الأيام الأولى ، ولم تكن عين المحتل بغافلة عن تحركاته وتحركات أمثاله من الوطنيين الأحرار . وان سلطات الاحتلال لا تجهل غيرة الشاعر عن الوطن وجهاده من أجله ، انها تذكر له أشعاره الكثيرة التي طالما دعا فيها الى الثورة ، وغنى فيها لربيع الحرية .واذا كان ذلك كافيا لوضعه موضع الشبهة منذ أزمان ، فانه — والثورة قائمة — سيكون علامة مميزة ، يجب أن ترصد كل ما يحوم حولها من تحركات . وكانت أولى الاجراءات التي قامت بها سلطة الاحتلال ضده بعد اندلاع الثورة بأيام قلائل هي الحد من اتصالاته بالجمهور ، والقيام باستدعائه للاستنطاق بين الفينة والأخرى . ولم تلبث هذه المضايقات وهذه التحرشات أن انتهت — والثورة في شهورها الأولى — بقيام قاضي التحقيق في عين مليلة — باستدعاء الشاعر يطلب منه التصديق على بعض المناشير التي تندد بالثورة ، وقد هدد بالسجن مسبقا أن لم يفعل ماأمر به ، وعلى الرغم من تلك التهديدات فقد قبل أن يدفع الثمن المشروط ، دون أن يرضى بتنفيذ الطلب المقترح (3) ، فزاد ذلك في حنق العدو وفي تشديد المراقبة عليه ، واستمر الشاعر في طريقه . ولم يمض الا وقت قصير حتى وقفت سلطة الاحتلال على خطر ما يقوم به داخل حجرات مدرسته وخارجها من توعية الشعب بحقيقة الثورة وأهدافها

---

(1) سمعت هذه الرواية من ابن الشاعر السيد عبد الرحيم الذي يعمل حاليا أستاذا باحدى المتوسطات بمدينة بسكرة وذلك في مارس سنة 1982 .

(2) وقد أفادني أحد سكان مدينة (عين مليلة) وهو السيد علاوة حركات . أن الشاعر كان له دور بارز في هذا المجال ومما يذكر له من ذلك ، قيامه بوضع حد لماكان من نزاع بين جمعية العرفان وجمعية مماثلة في ذلك الوقت .

(3) عبد الرحمن العقون (من وراء القضبان) : ص : 160 .

ونفخ روح الجهاد في طلابه وحثه اياهم على تلبية الواجب الوطني فاستجاب له بعضهم ، والتحق بصفوف الثورة [1].

فما كان اذن من رد فعل المحتلين الا أن سارعوا الى وضع حدّ لهذا الخطر بتوقيف الشاعر عن العمل وغلق أبواب المدرسة والاستيلاء عليها ، وتحويلها الى ثكنة عسكرية لجيشهم ،كما فعلوا ذلك في كثير من المدن والقرى الجزائرية أثناء الثورة ، وكان هذا الاجراء الأولي بمثابة تهديد مباشر للشاعر ، سيلحقه ماسيلحقه من الأذى ان لم يأخذ العبرة منه ويجعل حدّا لنشاطه الوطني . الا أن الشاعر لم يعبأ بذلك . وان هو أرغم على الخروج من المدرسة فقد ربض بالمسجد المجاور لها ، وظل يواصل نشاطه ، يؤم المواطنين ويخطب فيهم حاثا اياهم على مواصلة الجهاد والانضواء تحت لواء الثورة . ولم يلبث المحتلون أن فطنوا الى أنّ ماقاموا به ضد الشاعر من اجراءات تعسفية لم تؤت النتائج المرجوة منها ، وتوشك أن تكون عديمة الجدوى ، بدليل أن خطر الشاعر مايزال قائما ، فما كان من المحتلين والحال هذه ، الا أن قرروا وضع حدّ نهائي لنشاط الشاعر ، فأقدموا على ايقافه ، واقتدوه موثقا الى سجن المدينة في شهر جوان 1955م . ثم نقل منه الى سجن (الكدية) بقسنطينة في اليوم الرابع من الشهر المذكور ، فمكث به حوالي (14) يوما . ونشير بهذا الصدد أن الشيخ عبدالرحمن العقون الذى سبق الشاعر الى السجن المذكور ينص في مكان من كتابه (من وراء القضبان) أن الشاعر التحق بسجن (الكدية) يوم 10 جوان وحرر يوم (14) منه [2]، ثم يذكر في مكان آخر من الكتاب نفسه أن الشاعر مكث سجينا مدة (14) يوما [3] ، وقداتصلت به لحل هذه الإشكال فوجدته يميل الى الأخذ بالرواية الأولى [4]. ومهما يكن من أمر فقد قدم الشاعر الى المحاكمة ، موجهة ضده مجموعة من التهم ، يأتي في مقدمتها تحريضه الشعب على الانضمام الى الثورة ومد يد المساعدة لها ماديا ومعنويا . وقد تطوّع للدفاع عنه بعض المحامين الفرنسيين فاتصلوا به ولم يرفض دفاعهم عنه [5] . وأخيراأُطلق سراحه بعد محاكمة صورية تمت في شهر

---

(1) من بينهم : الشهيد رشيد خليفي . وللشاعر أبيات فيه كان قد قالها بمناسبة ، وهي غير مدرجة في ديوانه ، ينظرالملحق ة
والمجاهد على النساخ الذى ما يزال حيا يؤدى واجبه الوطني في وزارةالداخلية . وهوشاعر ، له شعر منشور بجريدة المنار الجزائرية .

(2) ينظر ، ص : 113 .

(3) ينظر ، ص : 161 .

(4) كان ذلك الاتصال في جانفي 1982 .

(5) أفادني بهذه المعلومات ابن الشاعر الأستاذ عبدالرحيم .

جوان 1955 ، وليس كما يرى بعض الدارسين أنها وقعت في سنة 1957[1]. وتذكر بعض الروايات أن الافراج عن الشاعر كان على اثر مجموعة من التدخلات . ويذكر من بين ذلك أن بعض المدافعين من الفرنسيين قد قدّم رسالة مفتوحة الى السلطات الفرنسية في الجزائر يلتمس فيها اطلاق سراح الشاعر بحجة أنه فنّان ، ولا يحق أن يحاكم الأديب على أدبه[2]. وتذكر رواية أخرى أن ذلك انما يعود الفضل فيه الى ما بذله شيخ التيجانية السيد أحمد التيجاني من مساع في سبيل ذلك[3].

ومهما يكن من أمر فقد تم الافراج على الشاعر ، وعاد الى عين مليلة ، ليستأنف عمله من جديد : الا أنه لم يمض على رجوعه الا وقت قصير حتى أعاد جنود الاحتلال الكرة من جديد على الشاعر ، ذات ليلة من ليالي أواخر سنة 1955 م فاقتحموا عليه منزله ، وقد أحاكوا ضده هذه المرة تهمة أخطر من سابقتها ، فقد اتهموه بأنه كان وراء حادثة اعدام المستوطن الفرونسي (جوليان)[4].

ويصف الشاعر بعض ما وقع له في تلك الليلة فيقول :

(ماكدت أنهض لفتح الباب حتى وجدت العسكر قد خطّموه ودخلوا عليّ وهم يصرخون : أيها . . أيها . . لم لا تقومون بالقتل في النهار ؟ أين الفدائيون الذين دخلوا بيتك ؟ أين أخفيتهم ؟ تكلم ! تكلم ! ثم اقتادوني الى الخارج وهناك قاموا بتعذيبي أمام جمع من المواطنين الذين أخرجوهم من ديارهم ثم خلوا سبيلي بعد ما أعدموا أمام أعيننا بعض الأبرياء)[5]. لقد كانت ليلة عسيرة أصاب الشاعر فيها بأس شديد كاد أن يودي بحياته ، لولا عناية الله التي لطفت به[5]، وانتهى ذلك بفرض الاقامة الاجبارية عليه بمنزله ببسكرة في نهاية سنة 1955 ، فظل محصورا بين جدرانه طوال أيام الثورة المباركة .

وان السؤال الذي يبقى مطروحا ويبحث عن اجابة دقيقة هو لماذا وقف الشاعر موقف الموت ، ولم يمت ؟ ولماذا كانت نهايته الاقامة الاجبارية ولم تكن الاعدام ؟

---

(1) ينظر د . صالح خرفي (الشعر الجزائري) ص : 308 .

(2) أفادني بهذه الرواية الأستاذ محمد الطاهر فضلاء وهو عضو في اللجنة المحققة لديوان الشاعر وتربطه صلة وثيقة به .

(3) يردد هذه الرواية أكثر من واحد من المقربين من الشاعر ومن شيخ التيجانية .

(4) أفادني بهذه الرواية أحد سكان عين مليله السيد علاوة حركات الذي سجن على اثر هذه الحادثة .

(5) أفادني الشاعر بهذه الرواية .

( ) ينظر د . أبو القاسم سعد الله (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري) [illegible]

ونحن نعرف أن المحتلين أعدموا من أحرار الكلمة في الجزائر من أمثال الشاعر الكثيرين ، علماء وشعراء وكتابا .

أيكون ذلك لأن الشاعر لم يكن خطرا على العدو بدرجة من قام بقتلهم ؟
ويمكن القول من هذا الجانب أن الشاعر لم يكن على سبيل المثال في خطورة الشيخ العربي التبسي رحمه الله ، بالرغم من انتمائهما الاثنين الى حركة واحدة . فقد عرف هذا الأخير بمواقفه الصلبة تجاه الاحتلال منذ زمن بعيد ، فأدى به ذلك الى أن دفع الثمن أثناء الحرب العالمية الثانية بالقاء المحتل القبض عليه وايداعه السجن العسكري بباتنة .

كما اشتهر أثناء حرب التحرير الوطنية برفضه العرض الذى قدم له لمغادرة الجزائر بهدف القيام بمهام وطنية في الخارج ، وعلق على ذلك بقوله : اذا نحن خرجنا من الوطن فمن يبقى الى جانب الشعب يذكر في قلبه نار الجهاد ، ويوجهه في معركته ضد أعدائه ؟ وقد أدت به هذه الصلابة الى أن كتبت له الشهادة .

أيكون مرد تلك النهاية التي انتهى اليها الشاعر ، الى طبيعة شخصيته القائمة على المسالمة وطلب العافية والابتعاد عن المصادمات والنفور من العنف ، فكان من الطبيعي لذلك أن يكون دوره مقتصرا على النضال بالكلمة ولم يستطع أن يتجاوز ذلك الى حمل ما تتطلبه الحرب من سلاح القوة والعنف ؟

ولا شك أن يكون العدو قد عرف عنه ذلك ففرض عليه ما فرض وهو واثق من أنه لن يقدر على القيام بعمل مادى خطير ضده .

أيكون ذلك لأن العدو كان يأمل أن يستميل الشاعر الى جانبه ، فيصير بذلك ورقة في يديه يستغلها وقتما يشاء في أيّ غرض يشاء ؟

ونذكر بهذا الصدد أن المحتل قام بهذه المحاولة مرتين : كانت الأولى في بداية الثورة بدون طائلة وقد وقفنا عندها . وكانت الثانية ببسكرة أثناء الاقامة الاجبارية في صور شتى الا أن كل تلك المحاولات لم تحقق أهدافها .

وتجدر الملاحظة أن الرسالة لا تستهدف من هذه التساؤلات أبعد من المساهمة في القاء بعض الأضواء على بعض الجوانب الغامضة من حياة الشاعر . وانه لا يخامرنا الشك بأن الاستمرار في البحث حول هذه الجوانب سيؤدى الى نتائج تكون أكثر دقة وأشد قربا الى الحقيقة .

* * * * * *

ومهما يكن من أمر فانا نود أن لا نقطع سلسلة الحديث في هذا الفصل دون أن نقف وقفة متأنية ، نناقش فيها بعض القضايا المتصلة بحياة الشاعر وشعره ، في هذه المرحلة التي تمتد من بداية الثلاثينات الى قيام الثورة .

وتتعلق أولى هذه القضايا بظاهرة سكوت الشاعر طوال مدة الحرب الثانية .

وتتصل القضية الثانية بمناقشة من يأخذون على الشاعر أنه لم يقدم للقضية الوطنية أكثر مما وهب نفسه له من أجلها .

وأما ثالثة هذه القضايا فتتصل بتقييم علاقة الشاعر بجمعية العلماء والاصلاح عموماً في أعقاب الحرب .

ونأتي الى مناقشة القضية الأولى فنشير بادىء ذي بدء ، أن الشاعر قد أتيح لـه خلال هذه المرحلة التي سبقت هذه الحرب مالم يتح له قبلها من النضج الفكري والأدبي بما حصل عليه من المام واسع بضروب المعرفة ، وتمرّس واضح بألوان مختلفة من تجارب الحياة واحتكاك ليس يسيرا بنهضة الأدب العربي الحديث ، وقد توج كل ذلك ماميز هـذه الفترة من حياة الشاعر مما تمثل فيما شهده من اندماج يكاد يكون كليا بحركة النهضة الوطنية بجميع مظاهرها السياسية والاجتماعية والثقافية ، وقد مكنته جميع هذه المؤثرات المختلفة من تعميق نظرته الى الحياة والأحياء ، وتغذية مشاعره واستكمال أدواته الفنية وتطويرها ، مما يلزم لنجاح كل أديب في رسالته ، لانه بقدر ماتتسع آفاق الفنان ، وتتعمق مداركه وتتنوع مصادر تجربته ، وتقوى صلته بالناس والحياة ، بقدر ما تزداد نظرته الى الظواهر والكائنات من حوله ، نفاذا وعمقا ، ويزداد فنه رفعة وسموا ، وهذا ما أتيح لمحمد العيد وسمح لموهبته الشعرية بالنماء والتطور ، ومن ثمّ تجرّد لقول الشعر والاكثار منه .

وقد مرّ معنا أن قصيدته (صدى الصحراء) التي نظمها حوالي 1925 تعد من أقدم أعماله الناضجة ، ومن أبرزها احتفاء بالدعوة والنهضة والاصلاح ، وهي بجميع خصائصها المعنوية والأسلوبية تدل على نضجه الفنّي المبكر ، وتمرّسه فيه . وقد واصل بتلك الروح مواكبته لتطور الحركة الوطنية وتسجيل معظم الأحداث والوقائع التي مرت بها ، دون أن يغفل في الوقت ذاته ، التعاطف مع مايعيشه الأشقاء من تطورات في هذه الفترة . وقد استطاع الشاعر أن يعكس ذلك ، في شعر بلغ مستوى رفيعا ، من حيث صدق التجربة ، وحرارة الانفعال ، وبساطة الفن . الا أن هذه المرحلة توّجت بدخول الشاعر في فترة صمت امتدّت طوال السنوات الواقعة ما بين (1940 — 1947) .

واذا حاول الباحث أن يقف على بعض ما قاله الشاعر من شعر طوال هذه المدة ، فان ديوانه لا يسعفه بشيء ذي بال من ذلك ، غير أننا نستبعد أن يكون الشاعر قد هجر الشعر هجرا كاملا في هذه الآونة ونظن أنه لايستطيع ذلك وان حاول ،

لأن الشعر شعور ملتصق بقلب صاحبه ، وليس من السهولة بمكان التخلص منه . ولهذا فقد يكون محمد العيد هجر القصائد الطوال ، ولكنه بقي ينظم بعض المقطوعات ، لأن جرثومة الشعر لم تمت نهائيا من وجدان الشاعر وتنتزع منه دفعة واحدة . وانما تبقى مع صاحبها بقاء الحياة معه . ولعل من شعره الذى نظمه في هذه المدة : قصيدته (لا أنسى) (1) التي يصور فيها حوادث الثامن من شهر ماى 1945 م .

ويعثر الباحث في ديوان الشاعر على أبيات لا تحمل تاريخا ، ولكنها تحتوي من الاشارات ما يمكن أن ينطبق على حياة الشاعر في هذه المرحلة أكثر مما تنطبق على حياته في غيرها . مما يرجح أن يكون الشاعر قد قالها في هذه الفترة ، وهذه هي الأبيات :

سألزم بيتي قانعا بمعيشتي — رفيقا لكتبي قابسا بعض نورها
وأخرج من بيتي لتعليم فتية — بمدرسة آوتهم في حجورها
فان أثمر التعليم فيها ثماره — فذالك منى نفسي وأقصى سرورها
وان تكن الأخرى فحسبي غنيمة — براءة نفسي واحتساب أجورها (2)

ويبدو من هذه الأبيات أن الشاعر حكم على نفسه بلزوم بيته ومصاحبة الكتب ، واقتصاره على التعليم وحده .

وماذا عن الشعر ؟ وماذا عن الجانب الآخر من شخصيته .

ان محمد العيد عرّفنا في هذه الأبيات بشخصية (محمد العيد العالم) ، وبشخصية (محمد العيد الأستاذ) ، ولكنه لم يقل لنا شيئا عن (محمد العيد الشاعر) الذى طالما أطرب الأسماع بشدوه ، وهزّ القلوب ، وحرّك المشاعر ، وغنّى المستقبل ، ان الشاعر لم يشر . الى ذلك بمجرد الاشارة ، انه نسي أو تناسى الحديث عن الشعر ، وكأنه لم يكن في يوم من الأيام نجيه وحبيب قلبه الذى لم يعرف سواه لغة للغناء ، منذ أن عرف الغناء . ترى ما هي أسباب هذه الغفلة ؟ وما هي دوافع هذا الغياب ؟ بل وما هي بواعث هذه الجفوة ؟ هل جفت ربّة الشعر حبيبها بعد ذلك الوصال الطويل ؟ أم هل أمست ضنينة عنه بما كانت تمنحه اياه بسخاء من عطاء ووداد ؟ أم أن ذلك كله لم يكن ، ولكن الشاعر هو الذى حمل نفسه حملا على هجر حبيب قد تتيّم بهواه زمانا ، وكان له منذ الصبا في جميع أحواله أنيسا ؟ ألم يكن هو القائل ذات يوم ؟

---

(1) وهي بمخطوطة الديوان ج 1 : 161 ، وبالمطبوع ، ص : 325 ، وليس بالمصدرين تاريخ ولا مكان لشرحها .

(2) الديوان ، ص : 519 .

كلفت به طفلا فكنت أصوغـه ... سبائك تبر أفرغت بحصاة
وأنظمه سمطا نضيدا منسقا ... بديع اللئالي محكم الخرزات
وقافية أمست تمثل يوسفا ... بما فيه من يمن وحسن صفات
خلعت عليها من شعوري مطارفا ... وكلّلتها ما شئت من خطراتي (1)

فكيف يستطيع الشاعر والعلاقة بينه وبين الشعر على ما يصف هو نفسه ، أن يطيق الصبر على فراق ترجمان قلبه بعض الوقت ؟ بله أن يحمل النفس الوفية على الهجر والقطيعة ؟

ان السؤال وجيه ، الا أنه ليس من سبيل يسعف الباحث في العثور على الاجابة الشافية المعللة له ، أحسن من الرجوع الى أخبار الشاعر بالتتبع والتحليل ، والى شعره الذي هو أصدق وثيقة لتفسير ملابسات حياته بالاستقراء والدراسة . ونحسب أن من يسلك هذا المنهج سيصل الى شيء من الاطمئنان حول هذا الموضوع . لقد سبقت الاشارة الى بعض الظروف التي عاشها الشاعر قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية وتعرض أثناءها الى محاولة الوقيعة به عن طريق ضرب مدرسة الشبيبة الاسلامية . ولعل تلك المكيدة ترجع الى ماقبل ذلك ، فترتبط بتلك الظروف الغامضة التي دبرت فيها موءامرة الكيد للحركة الوطنية على اثر تجمعها التاريخي في الموءتمر الاسلامي ، وانتهت تلك الموءامرة — كما رأينا — بالقاء القبض على الشيخ الطيب العقبي ، وتقديمه الى المحاكمة ، ثم خلى سبيله ، ولكنه ظل طوال قرابة ثلاث سنوات ، رهن البحث والاستنطاق ، وتعرض أثناء ذلك لامتحان نفسي عصيب . ولسائل أن يسأل وما علاقة محمد العيد بكل ذلك ؟

ونظن أن هذا الاستغراب سيزول من ذهن صاحبه بمجرد ما يتذكر ما مر معنا منذ قليل ، من أن الموءامرة كانت تستهدف في شخص العقبي ضرب الحركة الاصلاحية ، بل الحركة الوطنية بكاملها على اثر وقبتها بعقد ذلك الموءتمر . ونحن نعرف أن محمد العيد كان واحدا من أعضاء تلك الحركة ، كما نعرف أن الشاعر تربطه بالشيخ العقبي علاقة وطيدة خاصة تمتد على مدى سنوات طويلة . ونحن اذا عرفنا هذا وذاك سندرك بلا ريب ، من أن الشاعر سيمسه شرر من تلك المكيدة قلّ أو كثر . وقد عاش الشاعر عقب ذلك في حالة نفسية خاصة يمكن أن يجد الدارس صدى لها في قصيدته (حزب مصلح) التي نظمها بهذه المناسبة . وسيستطيع القارئ أن يحس من خلال اشارات كثيرة فيها ، لعلّ من أوضحها هذا التقابل في بناء القصيدة بين ضمير المتكلم وبين ضمير الجماعة (نحن) ، ان الموءامرة كانت تستهدف الجميع ، كما يتجلّى ذلك في هذه الأبيات :

---

(1) الديوان ، ص : 11 .

ان قوما يا لدم اتهمونـــــا ، وزرهم يوم الحسـاب ثقيـــل
أوردونـا موردا مسترا بـــا طعمه مـر المـذاق وبيــــل
وابتلونا بالأذى فصمدنـــا للأذى والصامدون قليـــــل (1)

وان الذي يمعن النظر في هذه الأبيات ، ويتعمق بعض ألفاظها وصيغها من مثـل : (أوردونا ، اتهمونـا ، وابتلونـا بالأذى) سيحس أن الشاعر به من الضعف ما به ، ولا يستبعد أن يكون الشاعر رأى أمام ما كان يحاك في هذه الفترة من دسائس ضد القـوة الوطنية ورجالها ، انه معني بالأمر ، فأحس أنه محاصـر وأن الخطر يكاد يداهمه ، فجنح الى حياة الهدوء والصمت . ويمكن أن نلمس نواة هذا الاتجاه الذي سوف يركن اليـه الشاعر ولمدة طويلة مقبلـة في قصيدته (استـوح شعـرك) (2) التي نظمها في أعقاب المؤتمر الاسلامي ، مما يدل على أن للنتائج التي أسفر عنها هذا المؤتمر ، أثرا فيمـا سيطغى على الشاعر من شعور ، وذلك من خلال هذه الأبيات التي يؤكد فيها أنـه واقع تحت رقابة مشددة :

قد كدت أجفو الشعر لولا أن لـــي بالشعر بعض تعـلّل وتمتّـــع
الشعر من خيل الخيال فوثبـــه وثب البراق أو البروق الشّـرّع
لا يقتضي الا مجـالا موسعـــا مني ومن لـي بالمجال الموسع ؟
في كل ركن راصد متسمـــــع عني بجانب راصد متسمـــع (3)

وقد صادف أن تعرضت جمعية العلماء في الآونة التي سبقت الحرب ، أي في سنة 1938 الى امتحان عصيب على اثر طلب المعتدلين منها ارسال برقية تأييد الى فرنسا ، فأحدث ذلك تصدعا في وحدة تلك الجمعية وانقسم صفها في أعقاب ذلك الى فريقين : فريـق قابل للطلب ، وعلى رأسه (العقبي) وآخر رافض له ، وعلى رأسه (ابن باديس) وكاد هذا الانقسام أن يعصف بأركان الجمعية فسارع محمد العيد وكان يعرف قيمة الرجلين ومكانتهما عند الأمة وحرصهما كليهما على المصلحة العليا للبلاد ، الى القاء بعض الأضواء على ملابسـات القضيـة ، رغبـة منه في أن يساعد ذلك على اجلاء الموقف أمام الأمـة، ومن أجل ذلك قال هذين البيتين :

---

(1) الديوان ، ص : 129 .
(2) نشرت بالبصائر في : 30 سبتمبر 1937 . الديوان ، ص : 143 .
(3) الديوان ، ص : 145 ـ 146 .

خصمان فيما يفيد الأمة اختصما	اياك أن تذم الخصمين اياكا
كلاهما في سبيل الله مجتهد	فلا تذم من لا هذا ولا ذاكا (1)

وما ان اندلعت الحرب حتى انتهى الأمر بجمعية العلماء الى أن أوقفت أو كادت نشاطها وعطلت صدور صحفها ، رافضة بذلك أن تكون بوقا من أبواق الاحتلال ، يصور ذلك الشيخ البشير الابراهيمي فيقول : (تقرير السكوت من غرر أعمال جمعية العلماء ومن آرائها التي نشطت عنها صدفة الحكمة ومن شواردها التي لا تصاد الا ببعد النظر، ولأن سكت العاقل مختارا في وقت يحسن السكوت فيه ، خير من أن ينطق في وقت لا يحسن الكلام فيه ، ولكل لفظة تمليها الظروف لا الضمائر تثمر سكتة عن الحق ، ما من ذلك بد ، على أنها ما سكتت عن درس ديني أو علمي أو عن نصيحة رشيدة أو عن موعظة حسنة ، وانما قررت السكوت عن كل ما يقال لها فيه قولي) (2).

وهكذا نرى أن جمعية العلماء لم تسكت الا عمّا يملى عليها من الخارج ، وكذلك يمكن تفسير سكوت محمد العيد الذي كان على هذا الطريق الذي اختارته الحركة الوطنية عن وعي وادراك ، فقد رأينا أنه لم يتوقف في هذه الفترة عن نشاطه الديني والعلمي ، ذلك الذي لم تتوقف عنه جمعية العلماء ، كما جاء في الكلمة السابقة ، وانما توقف عن قول الشعر مخافة أن يملى عليه املاء من هذا الطرف أو ذاك ، فحتى يتفادى ذلك سكت الى حين . وصادف أن مرت في هذه الأثناء مناسبة افتتاح دار (الجمعية الخيرية) بالعاصمة . وكان في مثل هذه المناسبات لا يقنع الا بقول القصائد الطوال من مثل قصيدتيه : (أيها الرافعون القصور) (3) التي نظمها سنة 1934 ، والتي تقع في ثلاث وخمسين بيتا) ، و(في ظلال الخير) (4) التي قالها في سنة 1935 والتي تقع في أربع وخمسين بيتا . ولكنه في هذه المرة اكتفى بنظم مقطوعة في عشرة أبيات ، بعنوان (دار الخيرية) (5) يقول فيها :

يا دار شادك للخيرات أخيار	فيضي على الناس بالخيرات يا دار
يا حبذا يوم حادي العشر من رجب	فانه بك في الأيام مختار

---

(1) سمعت هذين البيتين من الشيخ حمزة بوكوشة . وقد وردتا في كتاب الدكتور أبو القاسم سعد الله (محمد العيد آل خليفة) برواية أخرى ، ينظر ، ص : 40 .

(2) افتتاحية البصائر ، العدد : 1 ، السلسلة : 2 ، 1947/07/25 .

(3) الديوان ، ص : 250 .

(4) الديوان ، ص : 254 .

(5) نشرت في الاصلاح ، 2 محرم 1359 هـ / 10 فيفرى 1940م .

كان افتتاحك حفلا فيه ملتئما … تمتعت فيه أسماع وأبصار
في عام ألف من الهجرى تجمعها … الى مئات ثلاث فيه أعصار
الى ثمان وخمسين افتتحت كما … تفتحت في الربيع الطلق أزهار (1)

ونحسب أنه لو لم تكن تدفع الشاعر الى النظم في هذه المناسبة مجاملة صديقه الشيخ المقبي الذى كان رئيسا للجمعية الخيرية ، وكان حبل المودّة بينهما ما يزال قائما ، ولم يشأ الشاعر بما عرف به من حرص على مراعاة شعور الآخرين أن يقطعه دفعة واحدة ، نحسب أنه لو لم تكن تلك الملابسات ماكان الشاعر يظفر بأقل مما ظفر به من شعره ، لأنه لم يكن يحس — فيما يبدو — بحاجة داخلية يومئذ الى قول الشعر ، كما يكشف عن ذلك مضمون المقطوعة السابقة الذى خلا من المعاني التي كان الشاعر يحرص على التركيز عليها في مثل هذه المناسبات ، ويحسن الباحث بذلك وكأن الشاعر لم يكن يرمي من قطعته تلك ، الى أكثر من ابداء رغبة ، في اثبات حضوره الرسمي حتى لايلاحظ عليه من ألفوا أن يطربوا بشعره في مثل هذه المواقف غيابه من الساحة ، وهو في بداية الطريق يمهد الى هذا الغياب . وقد يكون يهدف بذلك من نحو آخر الى تهيئة النفوس الى ذلك الانقطاع الذى سيخلد اليه فيما بعد ، كما يتضح ذلك مما غلب على مقطوعته ، من مثل ذلك الاقتضاب الشديد ، وذلك التعميم المقصود ، وذلك الحرص على التأريخ ، حتى أن نصف المقطوعة اقتصر على ذلك . ونحسب أن الشاعر أحسّ بأنه ليس في نفسه حاجة الى القول ، فراح يلهو بعدّ الأيام والشهور والسنوات ، الأمر الذى جعله يقول ، ولكنه لايقول شيئا ذا بال . وهكذا نلاحظ أن عوامل مختلفة تظافرت كلها لتحمل الشاعر على هجر الشعر في تلك الفترة . ولا يستبعد أن يكون ذلك الشعور بالانتكاسة والخيبة الذى اعتراه في أعقاب فشل المؤتمر الاسلامي عاملا ممهدا لهذه الظاهرة ، يرجح ذلك أن سكوته كان بسكوت جمعية العلماء . كما ان انقسامها الى معسكرين ساعده على ذلك حتى لايغضب هذا الطرف أو ذاك ، الا أن قائلا يمكن أن يقول : ان الشاعر لم يقف أمام تلك الظاهرة موقف الحياد ، وانما قد انحاز بسكوته ، الى أحد الطرفين عن الآخر . بيد أن من يمعن النظر في ملابسات الأمر ويتعمق نفسية الشاعر ، يتبين أن محمد العيد لم يكن بموقفه ذلك منحازا الى أحد ، وانما كان يصدر فيه عن تجربة ذاتية صادقة ، ذلك أنه لمس في طبيعة مزاجه من الدواعي النفسية ما رجح لديه هذه الكفة عن تلك . لقد خشي على شاعريته أكثر مما خشي على نفسه في ظروف الحرب والخوف من ألصق الغرائز النفسية بالانسان من تلك الشباك التي نصبها المحتل ليصطاد

(1) الديوان ، ص : 253 .

بهـا بعض الوطنيين ففـر تحـت تأثير تلك الدوافع من الساحة وركن الى الصمت حتى يفوت الفرصة على أصحابها ويفسد عليهم مخططاتهم ، وحتى لا يقع فيما وقع فيه بعـض الشعـراء المحدثين في بعض الظروف بنظمـه شعرا في جانب أعداء أمتـه (1).

واذن فان سكوت الشاعر لم يكن تراجعا عن المبادىء ، أو هروبا من ميدان التضحية من أجلها ، وانما كان ذلك ـ فيما يبدو ـ خطة حكيمة وتقية رصينة تدخل في اطـار توقف النشاط الوطني العام . ولعل هذا ما كان يعنيه أو يعني بعضـه الدكتـور سعدالله عندما تعرض لمحاولة تعليل ظاهرة سكوت الشاعر فـقال : " تقـول الروايات والمعلومات أنه قد عاش تجربة خاصة جعلته يهجر العاصمة ويصر على عدم العودة اليها مادام شبح هذه التجربة لا يبرحهـا ، وعندئذ سكت عن قول الشعر ، هذا جانب من الرواية ، وهناك جانب آخـر يتحدث به بعضهـم عن عقيـدة وثقـة ، وهو أن بعضهـم أراد الكيد له والوقيعة به ، ولكنه انسحب بشرفـه ، ودخل محرابه يلتمس فيه العزاء والسلوان ، ويدفن الكبرياء والذكريـات " (2).

ويمكن أن يستنتـج من هذه الكلمة أمرين اثنين : فأما أولهما فهو التأكيد على أن الشاعر مـرّ بتجربة خاصة كانت سببا في مغادرته العاصمة وهجر الشعر ، ويمكن أن تكون هذه التجربة أو بعضهـا ماعاشه الشاعر في مدرسة الشبيبـة يوم حيكت حولها الدسائس وما تعرض له أثناء ذلك من مضايقات ، وماعاناه من احساس بالخيبـة . أما الأمر الثاني فهو قضية الوقيعـة بالشاعر . وهذا ما ألمعنا اليه قبل قليل بالاشارة الى محاولـة استمالـته أو اخراجه مما التزمت به الجماعة ، وعلى رأسها ابن باديس من ملازمـة الصمـت .

وعندما انقشعـت سحب الحرب ، وخمدت نيران المعارك ، استأنفت الحركة الوطنية بجميـع هيئاتها مسيرتها النضالية . ولكن محمد العيد لم يظهر في الميدان ولم يجدّد نشاطـه ، فأثار ذلك كثـيرا من علامـات الاستفهـام حول موقفـه . فهل لذلك من تعليـل ؟

ومما يصادف الباحث لأول وهلة وهو ينقـب عن تفسير لهذه الظاهرة مـا يبدو واضحا من أن الشاعر قد يكون ألف أجواء الحياة الهادئة الرتيبـة ولم يستطع بما جبل عليه واشتهر به ، من ميل الى التريـث والحذر ، ان يتخلـص بسرعة من ...

(1) ينظر د . شوقي ضيف (دراسات في الشعر العربي المعاصر) ، ص : 20 ـ 21 .
(2) (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري) ، ص : 120 .

عليـه وألفـه . وكان مايزال فيما يظهر وهو الانسان الشاعر الشديد الحساسية المرهف الشعور يعاني من أشباح تلك السنين الرهيبة المرعبة ، مما جعله يتباطؤ في تجديد نشاطه في ميدان الابداع الفني .

ولعلّ أول قصيدة يكون الشاعر قد كسر بها جدار الصمت الذى تحصّن به لمدة طويلة ، هي (أعزم السير) [1] التي نظمها مساهمة منه في حفل (المعهد الكتاني) بقسنطينة سنة 1947م . وهي لا تعدو أن تكون تعبيرا عما يميز شخصية الشاعر بوقوفه الى جانب كل مشروع يكون في خدمة الوطن . الا أنها لا تقدم شيئا فيما نحن بصدده . ولم يلبث الشاعر بعدها الاقليلا حتى نظم قصيدته (رعد البشائر) [2] وذلك بمناسبة قدوم الشيخ الابراهيمي الى مدينة (باتنة) — وكان الشاعر بها — لتدشين بعض المؤسسات التعليمية فحركت هذه الزيارة وجدان الشاعر وأفعمت قلبه بنشوة الأمل وعاودته الأماني فقام كعادته في مثل هذا المقام يحث أفراد الشعب على مواصلة الجهاد لاتمام المشوار نحو الأهداف . وان هذه القصيدة لتؤكد من جديد ما ألمحنا اليه أكثر من مرة ، من أن القضايا العامة هي التي تحرك الشاعر وتخرجه عن صمته . وماهو ذا (رعد البشائر) بشائر المستقبل الأفضل يهجم على الشاعر فما استطاع ثباتا أمامه ، وما وجد سبيلا الى رده وماكان الا أن استجاب له وأطلق العنان لقلبه يغني للبشير وللبشائر :

بباتنة رعد البشائر لعلعـــا	فأطرب (أوراسا) بها و(الشّلعلعا)
وجادت غيوث البر كل رحابها	فجادت وعادت للعبرات مرتعـــا
وأخصبت الآمال فيها وأينعت	كما أخصب الروض الجديب وأينعـا
فلا غرو أن تزهى بعهد مبارك	لها وتهز الرأس فيه وترفعـا (3)

وكان من المرتقب أن يجد الباحث في هذه القصيدة اجابة واضحة ومحددة عن حقيقة سكوت الشاعر ، وبما تقنع جمهرة المتطلعين الى حقيقة الأمر ، ولكن الشاعر — فيما يبدو — لم يزل في حالة نفسية لم يتهيأ فيها بعد الى ذلك ، الأمر الذى جعله يكتفي بطرح بعض الأسئلة التي تكاد تكون ترديدا وتكرارا لما طرحه ويطرحه بعض المتسائلين عنه ، يقول الشاعر في هذه القصيدة :

---

(1) الديوان : 190 . ويذكر محققو الديوان أن الشاعر قالها في حفل تدشين المعهد الكتاني . ونشرت بالنجاح في : (16/7/1947) . الا أن جامع مخطوطة الديوان السيد (أحمد بوعدو) يذكر في تقديم القصيدة بالجزء 1 : 49 (أن الشاعر قالها في حفل اختتام الدروس بالمعهد المذكور) .

(2) الديوان : 185 . ونشرت بالبصائر ، العدد : 3 / 21 رمضان 1366هـ / 8 أوت 1947م .

(3) الديوان ص : 185 .

وعفوا اذا عفنا القريض فلم نجب | صديقا دعانا للقريض فأسمعا
فيا أسفا يدعى الحمام عشية | ليسجع لكن لا يميل ليسجعا
ترى ؟ خاف بعض الصائدين يصيبه | فيسقط مكسور الجناح مضعضعا
أم التاث من بعض الزوابع لوثة | بها لم يعد يدري الهديل المرجعا
لقد صدناعن قالة الشعر أننا | نرى جلهم قد خاب في جل ما ادعى (1)

ويوشك الشاعر في هذا البيت الأخير ، وفي أسلوب تقريري واضح ، أن يضع أيدينا على سبب من الأسباب بما يزيد في التأكيد من أن سكوته لم يكن عن خوف أو هروب من الميدان ، وانما كان لخيبة أمل من بعض المواقف ، فكان لذلك انعكاس عن نفسية الشاعر . ولم يلبث الا قليلا حتى نظم قصيدته الثانية في هذه الفترة وهي بعنوان (ياشباب) (2) وجاء فيها مايشير أن ماذكره الشاعر في سابقتها حول سكوته ، انما هو بعض عذره في هجره ميدان الشعر ، يقول :

أيها الشعب أنت موضع شعري | وشعوري لا زينب والرباب
لا تلمني على اطراحي للشعـ | ـر فعذري مستوضح منجاب (3)

وقد ظن بعض الناس أن هذين العملين سوف يكونان بداية مرحلة جديدة قد يعود معها الشاعر الى سالف عهده ، وسيدخل بذلك في اطار الانطلاقة الوطنية العامة التي أعقبت نهاية الحرب . ولكن ذلك لم يكن وبقيت القصيدتان وحيدتين في الميدان تستوحشان به ويستوحش بهما ، ولم يعقبهما في ساحة الشعر غيرهما . وظل مكان الشاعر شاغرا في حلبة الصراع الذى استأنفه الوطن ضد أعدائه ، الأمر الذى لفت أنظار بعض اخوانه من الشعراء ، فتعالت الأصوات تتساءل عن كنه هذا الغياب وتتطلع الى معرفة السر في توقف الشاعر عن الشدو الى هذا الأوان .

لقد أدى هذا الشعور الحاد بهذه المفارقة في حياة الشاعر مابين الماضي والحاضر لدى بعض اخوانه الى الاعتقاد بأنه ليس من المنطقي ولا من الوطنية في شيء أن يهتز المواطن العادي لنداء وطنه فيستجيب له ، بينما يظل الشاعر صاحب الأحاسيس الرقيقة والمواقف التاريخية جامدا عن الحركة محجما عن الاستجابة لهذا النداء .

وكانت قصيدة الشاعر أحمد سحنون التي بعث بها الى الشاعر أصدق تعبير وأخلصه عن تلك التساؤلات ، ومما جاء فيها قوله :

---

(1) الديوان ، ص : 139 .
(2) الديوان ، ص : 259 ، نشرت بالبصائر ، في العدد 11 ، 20 أكتوبر 1947 .
(3) الديوان ، ص : 261 .

شاعر الضاد والحمى ما دهاكـــا ... فحرمت النهى ثمار نهاكـــا ؟
ما الذى أسكت المزار عن التغـــ ... ـريد يا ملهمي جعلت فداكـــا ؟
ما الذى عاق يا أخا الوحي والالـــ ... ـهام عن أن تبثنا شكواكـــا ؟
كنت كالطائر الصدوح فما تنـــ ... ـفك يوما مرددا نجواكـــا ،
كنت لا تستطيع صبرا عن الشعـــ ... ـر فمن ذا بمجوره أغراكـــا ؟
عجبا تستبيح صمتك يومـــا ... وبد البغي تستبيح حماكـــا !
كان حب الحمى هواك فلمـــا ... جد جد الحمى تركت هواكـــا ! (1)

وكان لهذه القصيدة مفعولها الكبير في نفس الشاعر فقد حركت وجدانه وهزّت مشاعره وأنطقت جنانه بعد صمت طويل فنظم قصيدا رائعـا يوحي عنوانه (هيجـب وجدى) بطبيعـة الجو النفسي الذى أصاب الشاعر على اثر ذلك ، الأمر الذى جعله يهجم على الموضوع مثار التساؤل ، من مطلع قصيدتـه ، قائـلا :

ناحت عليك سواجع الأطيـــار ... مذ أسكتتك فواجع الأغيـــار
وتساءل الأصحاب عنك فكلهـــم ... متطلعون لأصدق الأخبـــار
من لي باقناع الرفاق فانهـــم ... لم يقنعوا بقواطع الأعـــذار ؟
لم يبق لي في الشعر غير بضاعـــة ... قد لا تروج بمعـــرض الأفكـــار
ولى عن الصبوات عزمي مدبـــرا ... ونبـا عن الندوات والأشعـــار
وعدا تئد الخطى عن رحلـــة ... في طيها استهدفت للأخطـــار
وفقدت فيها المسعفين فلم أجـــد ... سكوى سوى التسليم للأقـــدار
وجنحت للحرم الـــذى فارقتـــه ... زمنا جنوح الطير للأوكـــار (2)

يبدأ الشاعر في هذه الأبيات بتقرير سكوته عن قول الشعر ، ثم يحاول أن يلقي تبعات ذلك ، على مجموعـة من العوامل ، تكاد تكون كلهـا خارجة عن ارادته ، انه يريد أن يقول ان ما تعرض له من هزات عنيفـة وتجارب قاسيـة ، أوشكت أن تفقده زمام السيطرة على امكانياتـه الذاتية ، وهي العامل الأساسي في كل عمل انساني ناجح . ان ذلك هو الذى أقعده عن القيام بدوره المعهود ، والى هذا الحد يبدو حديث الشاعر غائما لم يحـدد طبيعة الدوافع التي أدت به الى أن يلوذ بالصمت ، ولكننا ما نكـاد نمضـي في قراءة القصيـدة حتى نوشـك أن نضع أيدينا على بعض هذه الأبيـات :

---

(1) ديوان أحمد سحنون ، ص : 18 — 19 . وقد نشرت بالبصائر ، العدد : 16 / 22 ديسمبر 1947 .
(2) الديوان ، ص : 328 . ونشرت بالبصائر ، العدد : 20 ، 19 جانفي 1948 .

لاتلحني في الصمت اني ارتضي ... ان الضمير أحق بالاضمار
أما الحمى فهواه بين جوانحي ... يرغي ويزبد زاخر التيار
متدفقا كالموج لكن صنته ... عن شاطيء الحمآت والأكدار
القلب بيت الله فهو منزه ... عن أن تطيف به يد (استعمار) (1)

ان الضمير ملكة شريفة وبيت منزه كريم ، ينبغي أن لا يلج حماه الا كل شعور طاهر شريف ، انه بحر زاخر يتدفق بحب الوطن . ذلك الحب السامي المقدس . وهو لذلك ينبغي أن يصان من أن تدنسه الأهواء الشخصية أو النزعات المغرضة . كما يجب أن يسمو عن المساومة بالمبادىء ، وأن يصمد أمام الانحرافات ، التي قد تحاول أن تبتاعه ليكون ألعوبة في أيد عابثة تستغله لتنفيذ أغراضها .

ان الانسان الشاعر اذا ما وقع في مفترق الطرق ، وكان عليه أن يختار بين أمرين : اما أن يتاجر بضميره ضد مبادئه وضدّ وطنه . واما أن يعتزل الميدان ويصمت . فان الشاعر المؤمن برسالته ، المخلص لوطنه ، سيختار — ولا شك — الطريق الثاني لاعتقاده أن ذلك سيضمن له الشرف لنفسه والوفاء بعهده لأمته ، انه سيسلك ذلك السبيل حتى وان رأى أنه سيكلفه ما سيكلفه من تضحيات وأتعاب ، وسيصبر على ما يلاقي من جراء ذلك منتظرا أول سانحة تزول فيها القيود ، وتتقشع فيها السحب ليطلق العنان لقلبه فيغني لربيع ذلك الحب الخالد . ويمكن القول أن في هذا الموقف الذى وقفه الشاعر ما يدل على أن نطقه بالشعر أو سكوته عنه انما هو حالة نفسية واعية مبعثها المصلحة العليا للوطن ، ولذلك نراه اذا ما رغب أن يقول الشعر ، فانه لايقول ذلك الا اذا كان على درب تحرير البلاد . واذا مال الى الصمت فانه لايركن اليه الا اذا رأى أنه هو الطريق الأسلم في بعض الأحيان . وهذا ما يمكن أن يفسر لنا من بعض الوجوه خروجه من دائرة الصمت الذى لايكون — كما سبقت الملاحظة — الا استجابة للنداءات وطنية عليا . ويزداد هذا وضوحا ونحن نشاهد ان ما لم تستطع المحاولات المتكررة أن تفلح في تحقيقه ، فقد استطاع حدث وطني هام أن يبلغ اليه ، ذلكم هو ظهور (الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها) . فقد هز الشاعر هذا الحدث فلم يكتف فيه بفقرة من النثر يجيب فيها عن ذلك الاستفتاء الذى وجهته اليه جريدة (المنار) (2) تطلب منه رأيه حول الوحدة الوطنية ، وانما أبى الا أن ينظم في ذلك قصيدة استجابة لما وجد في نفسه

---

(1) الديوان ، ص : 329 .
(2) أصدرها الأستاذ محمود بوزوزو ، وقد ظهر العدد الأول منها في : 21 جمادى الثانية 1370 هـ / 29 مارس 1951 .

من الدواعي والحوافز المشجعة على قول الشعر . وقديما نص نقادنا على أهمية الدوافع الداعية الى الابداع الفني [1].

وكذلك نرى أن ملابسات القضية الوطنية هي التي تستطيع أن تقفز بالشاعر من زاوية الظل التي يركن اليها في بعض الأحيان ، الى ساحة النضال والجهاد التي يحرص على أن يكون متواجدا فيها في أغلب الأحيان .

لقد رأى الشاعر أن فقرة من النثر بلغتها التقريرية الباردة لا تستطيع أن تصور ما اعتراه من أحاسيس بهذا الحدث وما اختلج في أعماقه من آمال طال العهد به وهو يحملها بين جوانحه .. ان أثر الوحدة الوطنية لعظيم في تماسك بناء الأمة وثباتها أمام الشدائد ، وان قوتها انما تكمن في قوة تماسكها وتآزرها وان الاحتلال يدرك هذا ، ولذلك لا يفتأ يصوب سهامه بهدف احداث ثغرة أو ثغرات في صرح تلك الوحدة . وان الاحساس بخطورة تلك المحاولات هي التي كانت تحرك الشاعر ، فظل يدعو الى تلك الوحدة ويلح في الدعوة : وها هو ذا يرى ، وكأن الآمال أينعت ، وكأن الجهود تكاثفت لتدعم أسس ذلك البناء وتعلي صرحه ، فعاوده الحنين الى تلك الأيام فقام يهتف للأمل المرجّى ، لهذه الوحدة ، مؤمنا أن وحدة الصف من العوامل الهامة في تنظيم الطاقات ، وتوجيهها نحو أهدافها المتوخاة في تحرير البلاد وتحقيق النصر ، ومما جاء في قصيدته تلك (الوحدة الجزائرية) [2] قوله مخاطبا بني قومه :

تعالوا يابني القطر	نشد الأزر للأزر
ونجبر فادح الكسر	فقد أزرى بنا اللاحي
أذعنا بيننا النقدا	فخلدنا به الحقدا
وهدنا به عقدا	يضم الراح للراح
أجيبوا يا بني أمي	نداء القادة الشمّ
فان الشعب في غم	من التفريق مجتاح
الى وحدتكم عودوا	فداعي العود محمود
وان لم يثمر العود	فلا بشرى لفلاح ...

وقد مزق الشاعر أستار عزلته بعد هذا القصيد وعاد الى بعض ماكان عليه من قبل ، يمجد الفكرة ويعانق الأماني ويحدو مواكب العاملين المخلصين نحو الغايات الكبرى .

---

(1) ينظر ، ابن قتيبة (الشعر والشعراء) ج 1 : 73 وما بعدها .
(2) نشرت بالمنار السنة : 2 ، العدد : 18 — 27 فيفرى 1953 ، ص : 6 . وهي من شعره غير المدرج في ديوانه .
ينظر الملحق .

واستمر على ذلك الحال الى أن فجر الشعب الجزائري ثورته العظمى في الفاتح من نوفمبر 1954 ، فدخل الشاعر على اثر ذلك في تجربة خاصة ، فرضت عليه ظروفها أن يعود الى ماكان عليه من عزلة وصمت .

* * * * * *

ونأتي الى ثاني هذه القضايا ، مشيرين الى أنه بالرغم ممّا كنا قد بيناه في هذا الفصل من نشاطات الشاعر المختلفة التي تعكس اندماجه بكليته في أحداث القضية الوطنية ، ومساهمته المتنوعة في أكثر من مجال من مجالاتها ، فان بعض اخوانه من رجال جمعية العلماء (1) كانوا ينكرون عليه ما يبدو من جانبه ، من عزلة وانطواء ، ولم يكونوا يقتنعون منه بتلك المواقف ، وتلك المساهمة التي لا تكاد تتجاوز في نظرهم، القيام بالتدريس ، وحضور بعض الاجتماعات العامة ، ونظم الأشعار في كثير من الأحداث الوطنية . ويروى بعضهم أن هؤلاء اقترحوا عليه الانضمام الى الجمعية كعضو في مجلسها الادارى ، ليكون موقفه بذلك ، من نشاطاتها أقرب مما هو عليه ، وتكون مساهمته في النشاط الوطني العام أكثر ايجابية ، وأكثر مردودية . الا أن الشاعر اعتذر لهؤلاء عن قيامه بذلك ، لتفرغه للقيام بمشروعه التربوى ، الذى يعتبره من أنجح الوسائل في النهوض بالأمة ، ومن أقواها تجسيدا لأطروحات الاصلاح واشاعتها في صفوفها . ويحسن بالباحث في مثل هذه المواقف أن يتريّث ، ولا يسرع في قبول ما يعرض عليه ، وانما ينبغي أن يتعمق الأشياء ولا ينساق وراء ظاهرها، ويعمل جهده في البحث عن الحقيقة .

ولا يحسن بالمرء من هذا المنظور أن يأخذ ما تعلّل به الشاعر على علّاته ، على أنه مانع من الموانع التي حالت بينه وبين قيامه بأكثر مما قام به ، كما ينبغي عليه أيضا أن لا يسلم بذلك ، وانما يبحث وينقّب ، علّه يجد أسبابا أخرى غير التي ذكرت .

يبدو أن المانع الحقيقي الذى حال بين الشاعر وبين نهوضه بما طلب منه ، لا يمكن فقط ، فيما تعلّل به ، بقدر ما يكمن في مكوّنات شخصيته وطبيعة مزاجه ، واستعداداته الفطرية ، فهو فيما يظهر لم يكن مهيئا نفسيا الا لما نهض به . وانه ليس من المعقول أن يكون بمقدور أيّ انسان النهوض بكل مايسند اليه من مهمات

(1) أفادني بعض المعاصرين أن من بين هؤلاء العلماء ، الشيخ العربي التبسي ، والشيخ محمد خير الدين .

بدرجة من الفعالية واحدة ، كما أنه ليس بالضرورة أن ما يضطلع به شخص ما ، من المواقف والأعمال له مميزات نفسية وعقلية خاصة ، يستطيع أن يقوم به أي امرئ آخر يختلف عنه في هذه الميزات. ولعل هذا مايفسر لنا أن ما نهض به كبار قادة الحركة الاصلاحية من أمثال الشيخ ابن باديس والشيخ العقبي والشيخ الابراهيمي من أعمال ومهام تركت بصماتها على مسيرة الاصلاح والحركة الوطنية عموما ، لم يستطع أن ينهض بها غيرهم لما انفرد به هؤلاء من مميزات لم يكن يتمتع بها سواهم .

ومن هنا فان محمد العيد لم يستطع أن يكون ضد نفسه وضد ظروف حياته ، فقد روى عنه زملاؤه في الدراسة انه كان في طفولته ذا طبيعة خاصة في علاقاته بالآخرين . وكان أهم مايميزه عن أقرانه في تلك الفترة ميله الى الانطواء والعزلة . وقد زاد في تعميق هذا الميل في نفسه ذلك النظام التربوي الصارم الذي كانت أسرته تحرص على وضعه في دائرته ، خشية منها عليه من السقوط في المفاسد والأهواء . وحرصا منها على تربيته تربية اسلامية صحيحة . وكانت نزعته الصوفية أيضا فيما يظهر لا تساعده على ماتتطلبه بعض المواقف من جرأة ومجابهات ، كما كانت تمكن في نفسه لسمات التواضع ونكران الذات ، والنفور من الأضواء ، واجتناب حب الظهور . ولا يخفى أن الشاعرية نفسها تساعد على التمكين لجذور العزلة في نفس صاحبها ، وتجعل الفنان أكثر ميلا من غيره الى طلب الانعتاق والحرية ، وأشد نفورا من القيود التي قد تفرض عليه نوعا من الالتزامات قد لا ترضى بها نوازعه [(1)] .

ويؤكد بعض علماء النفس من جهته (أن الموقف الفني لا يدع للحياة العملية الا النزر اليسير من طاقات الفنان) [(2)] .

واذن فقد تظافرت هذه العوامل مجتمعة : السمات النفسية التي فطر عليها الشاعر من جهة ، والظروف التي خضع لها في طفولته من جهة ثانية ، لتدفع به في مجال من مجالات الحياة العملية يلائم طبعه ويرضي نوازعه . ولعل من بين مايؤكد طبيعة تلك السمات التي جبل عليها ، اختياره للتعليم كمهنة له منذ مطلع حياته وايثاره لها على مهنة الصحافة التي استهل بها حياته ، ثم تركها وتفرغ للتدريس . وما كان ذلك — فيما يظهر — الا لما يتميز به من خصائص لم يكن من شأنها أن تؤهله لغير ذلك من نحو ، ولما ينفرد به التعليم من نحو ثان ، عن كثير من أنواع الوظائف

---

(1) ينظر مخائيل نعيمة (الغربال) ، ص : 139 .
(2) ينظر د . سامي الدروبي (علم النفس والأدب) ، ص : 250 .

الأخرى ممّا يتمثّل في كونه أكثر من غيره ابتعادا عن الأضواء وأخف قيودا، وأكثر حرية، وأشد استقرارا، مما لا تتوفر عليه مهنة الصحافة وما يشبهها، هذه التي تعتبر أكثر حاجة الى الأضواء وأشد تعرضا للتقلبات والأهواء لما قد تتطلبه من ألوان المراوغة وما تقتضيه من أساليب اللّف والدوران، فأيقن الشاعر — وما من أحد — يعرف قدرات الانسان كنفسه، انه لايقدر على ذلك فترك مالا يطيقه الى ما يقدر عليه . ونحسب أن هذا الموقف منه يدل بوضوح على أنه كان صادقا مع طبعه، عارفا قدره عندما مال الى التعليم واختاره عن سواه .

وكان الشاعر الى جانب ذلك كاخوانه المصلحين، شديد الايمان بأثر التعليم في خدمة الوطن والدين والنهوض بهما . وكانت نفسه تلقى فيه ما تلقى من العزاء والسلوى عمّا كان يلقى من أذى، ويلاقي من جحود، وكان يرى فيه مالا يرى الآخرون ويرجو منه ما لا يرجون، ولعلّه الى بعض ذلك يشير في هذه المقطوعة التي يقول فيها :

أرى جل أصحابي ازدادوا بوظيفتي	وقالوا هموم كلّها ووجائع
وقد زعموا عمري مع الشيء ضائعا	وتاللّه ما عمري مع الشيء ضائع
سيرون عنّي العلم والشعر برهة	وتطلع للاسلام منهم طلائع
فمنهم خطيب حاضر الفكر مصقع	ومنهم أديب طائر الصيت شائع
ومنهم ولوع بالقوافي لفكره	بدائه في توصيفها وبدائع
ومنهم زعيم للجزائر قائد	له في مجالات الجهاد وقائع
فهذا رجائي قلته متفائلا	وللشرع رأى في التفاؤل ذائع (1)

ومهما يكن من أمر فان الذى لايكاد يختلف فيه اثنان ان الانسان لايستطيع أن يكون ضد نفسه، ويكون في الوقت ذاته صادقا مع نفسه . كما أنه ليس من الانصاف من جهة أخرى أن نحاسب الآخرين على أنهم لم يفعلوا هذا العمل أو ذاك . وانما الذى يجوز فعله في مثل هذا الحال، أن نقوم ما قد أنجزوه من الاعمال على ضوء ما يتوفر لهم من مؤهلات ومن امكانيات، وما يتحكم فيهم من ظروف لنعرف أيّا منهم كانت أعماله أكثر ايجابية، وأيّا منهم كانت مواقفه أكثر نفعا للناس؟ لنصل في الأخير الى معرفة أن ما نهض به هؤلاء أو أولئك، هل كان على قدر ما في حوزتهم من امكانيات وما وضع تحت تصرفهم من طاقات . أم أنهم كانوا يقدرون على أكثر من ذلك ولكنهم بخلوا ؟

---

(1) الديوان، ص: 379 .

وأحسب أننا اذا ما حاولنا تطبيق هذا المنهج على ما نحن فيه من أمر الشاعر فاننا ندرك بما لا يرقى اليه الشك أن محمد العيد قد قام بنشاطات ان لم تكن أكثر مما بين يديه ، فانها لا تقل عن مؤهلاته النفسية والفكرية . ألم تره كشاعر قام بمواكبة التطورات الوطنية وتصوير معاناة الشعب ومطامحه ؟ ألم يقض معظم سنوات عمره معلما يحدب على تربية الجيل وتثقيفه وتوجيهه توجيها عربيا اسلاميا ، صابرا عن كل ما يلاقي في سبيل هذه الرسالة من عنت وتهمات ، راضيا بكل ما يترتب عنها من مضايقات معنوية ومادية ؟ ألم يكن بهذا وذاك يسهم في مسيرة النهضة الوطنية العامة في حدود طاقاته وبأهم الوسائل نجاعة ؟

وناهيك ما تقوم به في هذا المجال الكلمة الهادفة شعرا ، والكلمة الطيبة تربية ، والكلمة الصادقة اصلاحا . وحسب الشاعر أنه كان في وقت واحد شاعرا ومربيا ومصلحا .

وبعد فانه ليس من المنطق أن نطلب من أحد أن يعطينا أكثر مما عنده أو أن يمنحنا ما ليس بيديه ، اننا نكون قد ظلمناه ان طلبنا منه ذلك .

ولنا في التاريخ الاسلامي أمثلة حية لمواقف تشبه مواقف محمد العيد . فقد ثبت أن حسان بن ثابت شاعر الدعوة الاسلامية كان يقتصر في مناصرته لهذه الدعوة على المشاركة الوجدانية بشعره دون اقتحامه ما يقتحم صاحبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحابته رضوان الله عنهم ، من غزوات ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام لمعرفته العميقة بامكانيات حسان الذاتية وادراكه لصدق عواطفه وحسن نواياه ، كان يكتفي منه بتلك المساهمة ولم يثبت أنه عاتبه يوما على أنه لم يعط الدعوة ما يفتقده .

وعلى الرغم من اختلاف الزمان وتباين المعطيات والملابسات فانه يبدو أن الموقفين يتشابهان ، أو على الأقل فان أحدهما يذكر بالآخر .

ويمكن القول اذن أن محمد العيد كان مسايرا لطبعه صادقا مع نفسه مخلصا لوطنه ، فلم يكن ضنينا عليه بما يقدر عليه . وحسب المرء من العطاء والبذل ما في وسعه .

* * * * * *

ويبدو أن الوقت قد حان للانتقال الى مناقشة النقطة الثالثة ، تلك التي تتمثل فيما ذهب اليه بعض الدّارسين ، من أنّ ولاء الشاعر في أعقاب الحرب العالمية الثانية لم يعد لجمعية العلماء وانما للاصلاح بصفة عامة . ولشخص الابراهيمي بوجه خاص، وأن حماسه للاصلاح لم يبق على أشده كماكان عليه في الفترة الأولى من حياته وانما أصيب بفتور ، وأصبح مجرد تأييد لقافلة الاصلاح .

والرسالة اذ تودّ الوقوف عند هذه النقطة ، لا من أجل أن تنفيها ، وانما من أجل أن تكشف عن مزيد من بواعثها .

وفي الحقيقة فان أقل ما يمكن أن يقال في هذه الظاهرة أنه ليس من اليسير حصرها في مؤثر واحد ، وانما يمكن أن يكون مرد ذلك الى جملة من العوامل ، منها ما هو خاص بالشاعر ومنها ما هو عائد الى بيئته العامة . ولعل ما يأتي من بين هذه العوامل الأخيرة ما كنّا قد ألمعنا اليه من قبل ، مما يدخل فيما ساد الحياة الوطنية من فتور وصل الى حد الجمود في بعض المظاهر ، كما يرجع ذلك من نحو ثان الى التطور الواضح الذى أصاب الحركة الوطنية — وجمعية العلماء جزء منها — في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وقد بدا تطور هذه الجمعية بصورة خاصة في قطعها أشواطا ملحوظة على طريق تكوين الأرضية المعنوية التي يمكن أن يقوم عليها البناء في المراحل اللاحقة . فلم تبق مطالبها محصورة أو تكاد في تحقيق الاستقلال الشخصي للأمة ، ذاك الذى كان يعدّ من الأولويات في بداية النهضة . وانما أصبح الأمر يقتضي منها أن تتبع تلك الخطوة بخطوات أخرى تقرّبها أكثر من تحقيق أهدافها الأساسية في تحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي . وبديهي أن ينعكس هذا التطور في نتاج الشاعر ، فيظهر في معانيه وفي أساليبه .

فقد أصبح الشاعر يحس أن النضال الوطني تجاوز تلك المرحلة التي كانت فيها معظم الجهود معبأة للتمكين للدعوة الاصلاحية في النفوس. كما أيقن أن الشعب دخل في هذه الفترة منعطفا جديدا في صراعه مع الأعداء بما بدأ يقربه من موعد تفجير ثورته . فما كان من ذلك الا أن انعكس في مواقفه وفي شعره يقول الشاعر :

هذه الأرض سوف تبقى عزا | ان تمادت في ظلها الأحزاب
كلنا أخوة من الدين والجنـ | ـس عليها وكلنا أحباب
نبتغي العيش في الجزائر حرا | مطلقا لا يحفه ارهاب (1)

ولعل هذا ما نص عليه الدكتور سعدالله حين قال عن الشاعر (انه تخلى عن نغمته الهادئة ومال الى الثورة بعد فشل المساعي السلمية) (2).

وأما ما يمكن أن يعد من العوامل الداخلية الخاصة بالشاعر، فمن ذلك ماكنا قد لمحنا بعضه مما يطبع مزاجه وسلوكه من ميل الى التروّي والتحفظ والاعتدال وما الى ذلك من السمات النفسية التي كانت تزداد عنده عمقا ووضوحا كلما ازداد به السن تقدما. واذن فان ذلك الموقف من الشاعر انما يدل على وعي سليم منه للظروف المحيطة به.

لقد أحس أن المرحلة التي أصبح يعيشها الشعب في الأربعينات وفي الخمسينات بكل ما طرأ عليها من تطورات ليست هي المرحلة التي كان يعيشها من قبل في العشرينات والثلاثينات.

فالمعطيات لم تكن في المرحلتين واحدة، كما أن القضايا المطروحة في هذه الآونة ليست هي التي كانت معروفة في تلك الفترة. واذن فلا بد أن يترتب على هذا تطور ملحوظ في نظرة الشاعر الى الحياة من حوله، مما ينتج عنه بداهة اختلاف في طريقة التناول وفي أساليب المعالجة لديه، لما جدّ من أمور في محيطه. وكان ذلك أمرا طبيعيا، لأنه لو لم يفعل ما فعل، لما استطاع أن يساير الواقع الجديد ويعكسه في الوقت ذاته بروئية قديمة ووسائل مماثلة؛ ويتوج كل ذلك ما ثبت على الشاعر من أنه وان كان متحمسا لجمعية العلماء لتلاقيه معها في الفكرة وفي الهدف، فانه لم يكن متعصبا لها ضد غيرها، لما اشتهر به من نفور شديد من التحزب لأي جهة كانت، ولما عرف به من الوقوف الى جانب كل المواقف التي يرى أنها تهدف الى خدمة الصالح العام. فقد كان يغمر الجميع بحبه ولا يكنّ في صدره عداوة لأيّ طرف كان، فأقدار الناس عنده بحسب أعمالهم، وليست بحسب ألقابهم ومناصبهم، فكان بذلك يقدر من يقدر، ويجل من يجل لمواقفه وأعماله، فهو ينظر الى الأشخاص كما ينظر الى غيرهم من الظواهر بمنظار الاسلام، الذى لا يقيم الناس عن خلال صورهم أو أقوالهم، وانما يقيمهم من خلال

---

(1) الديوان، ص: 260.
(2) (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى)، ص: 109.

نواياهم وأعمالهم . لقد كان يقدر الجميل ويكبر في عينيه العمل الصالح بصرف النظر عن مصدره ، ويمكن أن يستدل على ذلك بمواقف عديدة ، كان الشاعر قد وقفها من قضايا مختلفة ، مما يزيد في التأكيد على صدق وطنيته وعدم تحزبه لجهة دون أخرى . ويأتي في مقدمة ذلك ما وقفنا عنده في غير هذا المكان مما يتمثل في تهنئته للجمعية الكتانية بمناسبة تأسيس معهدها بقسنطينة ، والعلاقة بينها وبين الحركة الاصلاحية يومئذ ليست على مايرام .

ومن ذلك أيضا : موقفه من (الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية) الذى تجلّى في مباركته لظهورها والدعوة الى مآزرتها . كما يعكس موقفه ذلك أيضا ما كان يقوم به عمليا من تدريسه بمدارس جمعية العلماء وفي غير مدارسها ، ونشر نتاجه في جرائدها ، وفي غير جرائدها . وان أبلغ دليل يمكن أن يتوّج كل ماسبق من أدلة عما نذهب اليه هو مالاحظه الدكتور سعدالله نفسه من ميل الشاعر الى (حزب الشعب) الذى مال اليه الشيخ ابن باديس بعد المؤتمر الاسلامي ويقول في هذا الصدد : (فلماذا لا يقف الشاعر منهم الموقف نفسه ، وله في أستاذه وصديقه قدوة حسنة) [1] . ونلحظ أن في هذا الكلام ما يوحي بأن ماقام به الشاعر في هذا المجال انما هو اتباع واقتداء .

ونحن وان سلمنا لما كان لمواقف ابن باديس من أثر بالغ على الشاعر وعلى أنداده في الجزائر ، فاننا نحسب أن ذلك لم يكن كافيا وحده لحمل الشاعر على اتخاذ ذلك الموقف لولم يكن به استعداد طبيعي اليه ، نابع مما جبلت عليه شخصيته من مرونة واعتدال ، ذلك الذى ألمعنا اليه أكثر من مرة ، لأن القيم النفسية والفكرية لا يفيد في نقلها الى النفوس وغرسها فيها أو اقتلاعها منها أن تملى عليها املاء من الخارج ، دون أن يكون بهذه النفوس ميل داخلي اليها ، يدعم اتجاهها نحو بعض منها ، دون بعضها الآخر ، وهذا ما أكده الدكتور سعدالله نفسه عندما نص مرة أخرى (ان المبادئ الثورية التي كان يؤمن بها والأهداف التي كان يعمل لها [2] تتفق تماما مع مطامح الشاعر التي حملها منذ نعومة أظفاره) [3] . ونرجح أن من يعرف مااشتهر به الشاعر من وقوفه موقف المؤازرة لكل حركة وطنية هادفة لا يستغرب أن يراه يقف موقف الصديق من الذين كانوا مع الاصلاح في جبهة واحدة يدافعون عن المصلحة الوطنية ويجاهدون من أجل السيادة والكرامة . وأما ما يلاحظ على الشاعر من شيوع أفكار الاصلاح في شعره

---

(1) (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى) ، ص : 46 .
(2) يقصد حزب الشعب .
(3) المصدر السابق ، ص : 46 .

وتحمسه لها في بعض الأوقات أكثر من غيرها ، فان ذلك انما يعود لكونه قد فتح عينيه أول مافتحها على هذه الأفكار، ودخل الحياة العملية أول ما دخلها من باب الاصلاح هذا الذي ظلت ملامحه تغلب على تلوين الساحة الوطنية بألوانها طوال فترة العشرينات والثلاثينات . فكانت الحركة الاصلاحية لهذه الأسباب أقرب الحركات الى نفس محمد العيد وأكثرها ملاءمة لمزاجه وطبيعة تكوينه .

أما في أعقاب ما شهدته الحركة الاصلاحية والحركة الوطنية عموما من تطور بعد الحرب العالمية الثانية ، فانه من الطبيعي أن يكون لذلك أثره على الشاعر فيبدو وكأنه فقد بعض حماسه نحو الاصلاح مما قد يفسّره بعضهم بفتور علاقته بجمعية العلماء . وفي الحقيقة فان الشاعر بقي على وفائه لمبادئ الاصلاح وعلى حماسه لنهج جمعية العلماء . الا أن ذلك لم يعد من المناسب أن يظهر في أساليبه القديمة التي كانت تتماشى مع ماكان يومئذ من لقاءات ومهرجانات ، وانما تحوّل ذلك على حدّ تعبير الدكتور سعدالله الى (عمل وأصبح عقيدة داخلية راسخة تؤدي دورها في صمت ووعي ودون انقطاع) (1).

ونميل الى أن هذا التطور الملاحظ في موقف الشاعر من الأحداث ، طبيعي ذلك أنه كان في المراحل الأولى يدعو الى النهضة ويمهد الى الثورة بالتمكين لأسبابها في النفوس ولكنه بتزايد الوعي الوطني في المراحل اللاحقة كان عليه أن يغير منهجه ويكون أكثر صراحة في رسم الطريق أمام الشعب نحو الثورة .

واذا جئنا بعد الى معرفة رأي الشاعر فيما قيل عنه في هذا المضمار فاننا نجده لا يسلم بأنه انقطع عن جمعية العلماء بصورة قد يفهم منها أنه أصبح يحس بأن الركب قد فاتها أو أن منهجها لم يعد يساير الأحداث الطارئة . ويرى أن ما قد يلاحظ من تغيير في لهجته وفي أسلوبه وفي طريقة طرحه للقضايا انما يدخل في اطار التطور العام الذي طرأ على الساحة الوطنية عموما ، فأصاب الشاعر كما أصاب غيره شيء من ذلك، وهو أمر طبيعي يعكس معايشة الانسان للأحداث من حوله . ويرى الشاعر وان حصل أنه بعد عن العاصمة التي يمكن اعتبارها المركز الرئيسي لنشاط جمعية العلماء فانه ظل على استمرار بها وفيّا لمبادئها مناضلا من أجل أهدافها ، وقد أكّد لي ذلك رحمه الله بقوله (اني كنت على صلة غير منقطعة بجمعية العلماء وبمعظم أعضائها وخاصة منهم الشيخ الابراهيمي الذي كنت أحظى باللقاء به أيام كنت أقيم بمدينتي (باتنة) و (عين مليلة) (2).

---

(1) المصدر السابق ، ص : 106 .

(2) سمعت من الشاعر هذا الكلام في ديسمبر 1976 .

ومما يمكن أن يدعم الى جانب هذا ماذهبنا اليه وأكده قول الشاعر السالف ماتعكسه بعض مواقفه وأشعاره مما يعود الى هذه الفترة بالذات كما يتجلى ذلك في حضوره شخصيا الى مدينة بسكرة بهدف المساهمة في الاحتفال المقام بمدرسة التربية والتعليم التابعة لجمعية العلماء (1947) والقائه بهذه المناسبة قصيدته (ياشباب) (1) ومما جاء فيها قوله مخاطبا هيئة العلماء .

أيها التاعبون في عمل الخيـ	ـر ستأتي بأجرها الأتعاب
اصمدوا للعدى وان ضعفنا يقوكم	لا تهابوا من العدى لا تهابوا
حسبنا الله في الأمور ومن ذا	هو كالله قاهر غلاّب (2)

وفي حضوره مرة أخرى الى مدينة قسنطينة سنة 1953 ومشاركته في الاحتفال الكبير الذى أقامته جمعية العلماء بمناسبة تدشين (دار الطلبة) (3) ومساهمته في ذلك المهرجان بقصيدته (بشرى للجزائر) (4) . ومما جاء فيها قوله مشيدا بجهود العلماء في قيادة نهضة الأمة :

هات البشائر للجزائر هاتها	ان الجزائر أبصرت غاياتها
عقدت لها عزماتها فمن الذى	غير الاله يحل من عزماتها ؟
حسب الجزائر نهضة فكرية	كالكهرباء سرت بكل جهاتها
واشكر مساعي هيئة علمية	نوّامنا انتبهوا على أصواتها . (5)

ولعل من أوضح الأدلة على استمرارية الشاعر في الوفاء الى آخر أيامه لمبادئ هذه الجمعية والسير على منهجها مايعبر عنه — كما سنرى — شعره ، الذى قاله بعد الاستقلال ، على الرغم من طول الزمن واختلاف الظروف ، ذلك الذى تجلّى في دعوته بحرارة الى ماكانت تدعو اليه تلك الجمعية ، من المحافظة على مقوّمات الشخصية الجزائرية والدفاع عنها والسير على منهج أصالتها .

ونأتي الى خاتمة الفصل مشيرين الى اننا كنا قد تبينا من آخر ما تطرقنا اليه من أخبار الشاعر أن سير الحياة انتهى به في بداية الثورة الى الاقامة الاجبارية

---

(1) نشرت بالبصائر ، العدد : 11 ، 20 أكتوبر 1947 .
(2) الديوان ، ص : 261 .
(3) أسست هذه الدار لتكون مسكنا لطلاب معهد ابن باديس بقسنطينة .
(4) نشرت بالبصائر ، العدد : 249 سنة 1953 .
(5) الديوان ، ص : 211 — 1121 .

في بيتـه ، وظـل محصورا بين جدرانه ، لايكاد يبرحه طوال حرب التحرير الوطنية . ولما أنعم الله على بلاده بالحرية خرج من عزلته ، وبدأ يخط صفحة جديدة من حياتـه وحياة شعـره . وقد شهد في هـذه الفترة انطلاقته من جديد لمواكبة مسـيرة مجتمعـه على طريق ثورة البناء والتشييد . فنظم في ذلك مجموعة ليست قليلة من القصائد الطوال ، أشاد فيها ببطولات الشعب . . . ونوه بتضحيات الشهداء وغنى لأعـراس الوطـن . . .

ونثر بين يدي الدولة الجزائرية الفتية بعض المعالم التي يمكـن أن تفيد منهـا وهي تضمد الجراح وتجمع الشمل وتعبيء الطاقات للخروج من ظاهرة التخلف ، واللحاق بركب الأمم المتقـدمـة . بيـد أن الشاعر لم يلبـث طويلا في هذا النهـج حـتى انسحـب من الميدان وأدار ظهره عنه عائدا الى ماكان عليه من عزلـة وصمـت .

وهنا يجد الباحث نفسـه أمام تساؤلات كثـيرة : فكيـف كان الشاعر يحيا طـوال حرب التحرير الوطنية ؟ وماذا عن شعـره في هذه الفـترة ؟ وكيـف كان تجـاوبـه مع الأحداث الوطنيـة بعد الاستقـلال ؟ ثم ماذا حدث للشاعر حتى غادر الميـدان وهـجـر الشعر واعتزل الناس وخلص الى حياة روحيـة تفرغ فيهـا الى عبادة اللـه وظل على ذلك النحو معتكفـا في خلوتـه الى أن انتقـل الى جوار ربـه ؟ ثم مـاذا عن تراثـه الشعـري ؟

ان الاجابة عن هذه الأسئلـة هي ما ستكون موضوعـا للمناقشـة والتحليـل فـي الفصـل التالـي .

الفصل الثالث

من المرحلة الاجبارية الى المرحلة الاختيارية

مرّ معنا أن الشاعر كان من بين المناضلين الأوائل الذين بطشت بهم يد الاحتلال ، ولمّا يحل على الثورة حولها الأول ، وانتهى به الأمر الى ما عرفنا من فرض الاقامة الاجبارية عليه في بيته ، فظل به طوال حرب التحرير الوطنية ، وقد خضع خلال تلك السبع السنوات الشداد الى رقابة صارمة حظر عليه فيها مغادرة منزله فعاش بذلك مقيّد الحركة محروما من حريته الشخصية ، معزولا الى حد بعيد عن الحياة والناس معرضا في كل لحظة من الليل أو من النهار ، ككل الجزائريين يومئذ ، الى حملة من حملات الارهاب يفاجئ بها جنود الاحتلال في أيّ ساعة يشاؤون ، من يشاؤون من الأبرياء العزل . كما كان يستدعى بين الحين والآخر الى الاستنطاق . وكان يأتيه أحيانا من يقوم بتلك المهمة الى بيته متسترا وراء قناع من تدفعه الرغبة الى السؤال عنه والاطمئنان عن أحواله .

وبالجملة فقد كانت وضعيته في تلك الأثناء سيئة ، يقول عنها هو نفسه :(1)

(كنت لا أخرج من البيت وكان احتكاكي بالناس لا يتجاوز الدقائق المعدودة ، وكنت أغتنم تلك اللحظات لأؤكد للزوار ، قرب انفراج الأزمة وحتمية النصر ، وكثيرا ما كنت أتلو على مسامعهم قوله تعالى : " اني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ") (2)

ويمكن أن نقف على بعض الملامح من تلك الحياة التي كان يحياها الشاعر يومئذ تحت تلك الظروف القاسية في قصيدته (أبا المنقوش) (3) التي كان نظمها في تلك الأثناء يناجي فيها " جبل أبي المنقوش " الذي يربض على احدى جنبات مدينة بسكرة يحرسها ويدفع عنها بطش الدخلاء ، يقول الشاعر في مطلعها :

أبا المنقوش هل تدرى بحالي ... ما أنت جارى اليوم في الجبال ؟
ببسكرة النخيل حططت رحلي ... وأنت بأرضها حامي الرحال
رأيتك مشرفا أبدا عليها ... كاشراف الولي على العيال
رماني حول سفحك موج دهري ... أسيرا بعد أحداث طوال
فعشت به (كيرس) في سقام ... لدى قومي ولكن في اعتزال
اخال اقامتي جبرا كقبر ... حملت اليه كالجثث البوالي
أرى الأحياء من حولي قريبا ... وهم بالعيش عني في اشتغال
وأعذرهم نعين الخصم يقظى ... ترى شزرا وتنذر بالوبال (4)

وتمضي السنون ثقيلة رهيبة ملتهبة بنيران الحرب ، ذلك الجحيم الذى وجد المرء نفسه في سعيره يكتوى بعذابه ويقاسي من ويلاته وأهواله ، وكان من الطبيعي في مثل هذه الظروف ، التي تحف بها من كل جانب مظاهر الرعب ، وتتحكم فيها سياسة البطش والظلم ، أن تنعدم فيها السيطرة على الأفكار وتفتر الهمم ، وتكل القرائح ، ويفتقد من ثم الجو

---

(1) سمعت هذا القول من الشاعر نفسه

(2) الآية : 93 من سورة يونس .

(3) الديوان ، ص : 425 .

(4) الديوان ، ص : 425 .

الملائم الذى يساعد المفكرين والأدباء على عمليتي التأمل والابداع . وانه لايخفى أن انعدام الأمن وفقدان الاستقرار ، ومايغشى النفس الانسانية على اثرهما من خوف وقلق واضطراب ، لمن أشد العوامل تعطيلا لكل انفعال مبدع ، وقد لفتت هذه الظاهرة انتباه بعض الدارسين المحدثين فنص على أن الأدب قد يمهد للثورة ولكنه لايستطيع النمو في لهيبها لانعدام المناخ الملائم للابداع الفني[1] .

ومن هنا فيجدر بالمرء أن لا يندهش اذا لم يعثر في ديوان محمد العيد على أكثر من أربع قصائد ومقطوعة واحدة[2] ، وأن يكون ذلك هو كل ما يمثل حصيلة ما أنتجه الشاعر أثناء الثورة ، وهذا على خلاف ما يذكر بعض الدارسين من أن للشاعر قصيد تين فقط من نتاج الثورة[3] فهل يعني هذا أن الشاعر هجر الشعر طوال هذه المدة ، أم أنه قال شعرا ولكنه ضاع ؟ يبدو أن الاجابة على هذا السؤال ليست بالأمر الهين الميسور ، الذى تكفي فيه الوقفة العجلى ، وانما يتطلب تقصيا قد لايفي به الا الأخذ بمعطيات المنهج الاستقرائي الذى قد يؤدى اعتماده لما يقوم عليه من تمحيص ونظر ، وأخذ ورد ، الى ما يطمئن اليه الباحث في موضوع بحثه .

وان ما يمكن أن يميل اليه المرء وهو في بداية الطريق يبحث عن تحليل لهذه الظاهرة أن الشاعر يمكن أن يكون قد كتب بعض الشعر أثناء الثورة . الا أنه تعمد اخفاءه حتى لا يسقط في أيدى المحتلين الذين كانوا يسوقون الى السجن من يوقفونه من الجزائريين ، ويجدون بحوزته بعض الحروف العربية ، بله أن يكون ذلك ، مقالا أو قصيدا . وقد يجد الباحث فيما يرويه أحد أقارب الشاعر وهو ابن أخيه الأستاذ محمد الطاهر خليفة الذى يقول (ان الشاعر كان يقرأ على بعض أفراد الأسرة ما ينظم من شعره أثناء الثورة ، ومما أذكر له من ذلك ثلاث قصائد ، سجل في احداها بعض أحداث القضية الوطنية وتطوراتها ، خلال النهضة الحديثة ، وأوقف الثانية على التصوف . وأما الثالثة فقد نظمها بمناسبة الاضراب الأسبوعي الذى قام به الشعب الجزائرى سنة 1957 م استجابة لنداء جبهة التحرير الوطني وهي تربو على مئة بيت كان الشاعر قد صور فيها بعض ماقام به المحتلون من وحشية ومظالم ضد المواطنين الأبرياء ، وكان الشاعر

(1) د . مندور (الأدب ومذاهبه) ، ص : 19 .

(2) وهي على التوالي : (استقلال السودان) (أمير المؤمنين) (مناجاة بين أسير وأبي بشير) (أبا المنقوش) (سأمضي وأترك شعرى) وهي بديوانه على الترتيب : (356 ـ 531 ـ 422 ـ 425 ـ 535) .

(3) د . صالح خرفي (الشعر الجزائرى) ، ص : 224 .

(لشدة تحريه قد كتبها من دون أن يمجمهها) (1)
و يجد الباحث رواية أخرى منقولة من الشاعر يقول فيها : (كنت أكتب وأكتم ما أكتب) (2)
و بصرف النظر عن مدى صحة هذين الروايتين ، وعن حقيقة ما كان يكتب الشاعر في هذه المرحلة ، فاننا ما دمنا لم نعثر له على شئ عن ذلك ـ باستثناء ما سبق الوقوف عنده ـ لا في ديوانه ولا في غيره مما تبقى من آثاره من بعده ، فانه لا يسعنا الا أن نرجح أن الذي كان قد كتبه يومئذ يكون قد أتلف أو أحرق أثناء بعض الحملات الارهابية التفتيشية التي كان المحتلون يشنونها على بيوت المواطنين ومحلاتهم . و ان كل من عاش ظروف الثورة الجزائرية و أحداثها في الصميم لا يجد حرجا في الأخذ بهذا التأويل الذي يعد ـ في نظري ـ واحدا من أهم الأسباب التي أدت الى ضياع كثير من الكتب و الوثائق التي كانت بحوزة الجزائريين في المكتبات الخاصة و العامة .
و أين نحن من أرشيف الثورة ؟ لقد ضاع منه الكثير ، و لقد عاش نفر كبير من الجزائريين أثناء الحرب التحريرية ، تجربة احراق ما بين يديه من و ثائق في ظروف المواجهة ، حتى لا يصل الى أيدى العدو سر من أسرار الثورة ، و يؤكد لدى هذا التخريج ما رواه لي الشاعر نفسه بقوله (كنت قد نظمت أثناء الثورة بعض الشعر ، و هو قليل ، و لكنه قد ضاع مني بسبب ظروف التحرى التي كنا نخضع لها في أغلب الأوقات) (3)

و في الحقيقة فان هذه الظاهرة قد تعرض لها نتاج بعض الشعراء المحدثين بله المتقدمين (4) . و يجوز من جهة أخرى ، أن يكون من بين ما كتبه الشاعر في تلك الظروف بعض المقطوعات الدينية في صورة أدعية أو ابتهالات قد تكون حياته الروحية ، فاضت بها ، في بعض الأحيان ، و لكنه تعمد اخفاءها و لم يشأ أن يذيعها في الناس واحتفظ بها لنفسه ، معتقدا أنها من الخصوصيات التي لا يستحسن نشرها ، و قد عرفنا عنه ، منذ وقت مبكر ، حرصه الدائم على عدم اذاعة مثل هذه الأمور التي تتصل بعباداته و تنسكه ، و هو ميل لم ينفرد به وحده ، وانما عرف به معظم من كان مثله ، ذا نزعة صوفية صادقة .

و اذا لم يرجح لدينا شئ مما ذكرنا وكنا الى ترجيح سكوت الشاعر أميل ، فان الباحث لم يعدم وجها آخر لتفسير تلك الظاهرة .

و يأتي في مقدمة ذلك ، أن محمد العيد لم يكن في صمته هذا ـ ان صح التسليم به ـ بدعا في تاريخ أهل الفكر و الأدب ، ولا في تاريخ الشعر و الشعراء ، لا في القديم ولا في الحديث . ذلك أنه قد حدث .

---

(1) سمعت هذه الرواية من صاحبها في مارس 1982 .
(2) ينظر المجاهد الاسبوعي 26 فيفري 1966 .
(3) سمعت هذه الرواية من الشاعر في ديسمبر 1976 .
(4) د . شوقي ضيف (الادب العربي المعاصر في مصر) ص: 108 .

أن يتعرض بعض الشعراء في حياتـه الى بعض حالات المد والجز ر على اثر بعض الهزات النفسية التي تصيبه أو بعض الملابسات التي تكتنـف حياته فيفتقد في هذه الحـــال القدرة على التلاؤم مع مايجرى في واقعه ويفتقر في الوقت نفسه الى امكانية تغييـر ه فيضطره ذلك الى السكوت ، فيركن اليه بعض الوقت ، وقد حدث أن سكت عن الشعر من لم يمرّ بالظروف التي مـرّ بها محمد العيد ، فقد هجر بعضهم الشعر في السلم طمعا في حطام الدنيا ومخافـة على أرزاقه ، ودون أن يحمله على ذلك ظلم أو ضيم ، كما فعـل حافظ ابراهـــيم [1] . بينما لم يسكت محمد العيد وهو في ظروف الحرب ، وانما أرغم على ذلك ، وهو تحت اجراءات خاصة كانت تحسب عليه فيها الحركات والسكنات . ولم يكن قـد هجر الشعر يومئذ بدافع الخوف على زوال نعمته ، أو عزل من منصب ، أو حرص على دنيا يطلبها ، فان كل ذلك ، أو بعض ذلك ، ماكان محمد العيد الذى قضى معظم حياته معلما حرّا يتقاضـى مرتبه الشهرى الزهيد من الجمعيات الخيرية الأهلية ، يعـرف ذلك أو يحلم بـه . فقد كان يحيا حـياة الكفـاف راضيـا بمـا رافضـا لسواهــــا ، لاعتـقاده أن الطموح لغيرها لا يتأتـى الا لمن يدفع الثمن ، وأى ثمن يطلب من الانسان الشاعر في مثل هذه الحالة ؟ وماذا يملك الشاعر المنفي في بلاده ، المحروم من خيرات أرضها ، حتى يستطيـع أن يقدمه ثمنا لذلك ؟ وأحسب أن أعز ما يملك الشاعر يومئذ هـو قلبه وذلك هو المطلوب من الطرف الآخر . انهم يريدون منه أن يبتاعهم ضميره . ويحق للباحث أن يتساءل أمام ذلك ، هل استطاع أولئك المحتلون أن يحصلوا من الشاعر على شيء ممّا أرادوا ؟

ويمكن لصاحـــب هذا السؤال ، أن يقدّر موقف الشاعر اذا ما عرف أن اولئـــك المحتلين قد فشلوا في تحقيق بغيتهم منه في الوقت الذى نجحوا فيه في استمالـــة بعض العناصر لتصبح أبـواقا في اذاعتهم وفي صحفهـــم .

ولعل هذه النتيجة توضـح لنا أن سكوت الشاعر لم يكن عن طواعية ، وانما قد حمل عليه حملا ، ويمكن أن يكون سكوته على هذا النحو موقفـا ايجابيـا ، لأنه فوت بـه الفرصـة على العـــدو الذى حاول ــ كما مـر معنا ــ أن يحمله على الكلام ضـــد الثـورة [2] .

---

(1) ينظر ديوانه ، الصفحات (19 ــ 25 ــ 35) ، وينظر د . شوقي ضيـف : (الأدب العربي المعاصر في مصر) ، ص : 103 .
(2) ينظر ، ص : 96 من هذا البحـــث .

والى جانب ذلك فان الشاعر لم يكن هو الوحيد من بين الجزائريين الذين لاذوا بالصمت أثناء الثورة ، ويلمس هذه الحقيقة من يتصدى للبحث والتنقيب في آثار معظم الشعراء الجزائريين بحثا عما أنتجوه في الثورة ، فيعود من ذلك وليس بين يديه سوى مثل ما عثر عليه لدى الشاعر أو أكثر منه بقليل (1).

واننا اذا أردنا أن نثبت غير ما أثبتنا ، فاننا واجدون — ولاشك — من يطلب منا الاجابة على هذا السؤال وهو : أين ديوان الثورة الجزائرية ؟ ومَن مِنَ الجزائريين اذا استثنينا — من كان منهم في الخارج ، قد كتب شعرا كثيرا أثناء الثورة ؟

وان الدّارس لايكاد يقف بعد مرور قرابة ثلاثين سنة على اندلاع الثورة التحريرية الا على نزر يسير من الشعر الجزائري الذى كتبه جزائريون ، كانوا يقيمون بالجزائر ابان حرب التحرير ، وليس لكل واحد من هؤلاء الا القصائد المعدودة في الثورة (2). أما أولئك الذين كانوا يعيشون في الخارج ويكتبون الشعر عن الثورة فليس من الانصاف أن نسوّى بينهم وبين اخوانهم الذين كانوا يقيمون على فوهة بركان الثورة فوق أرض الجزائر وذلك لسبب بسيط وهو وجود أولئك الشعراء بالخارج ، في بيئة توفر لهم فيها من دواعي نظم الشعر المختلفة التي نص عليها النقاد مما لم يتوفّر منه شيء لاخوانهم في الداخل.

ولعلّ بما تقدّم يمكن التأكد من عموم هذه الظاهرة وشموليتها في حياة كثير من الشعراء الجزائريين . وما محمد العيد في ذلك الا واحد من كثير ممن كانوا بالجزائر فأجبروا على السكوت ، ولم يتعرض أغلبهم لمثل ما تعرض له ، كما يمكن القول أن معظمهم كان أقل منه قيودا وأخف مضايقات ، اذ لم يثبت أن أىّ واحد منهم قد عاش مثله في ظروف الاقامة الاجبارية ، وان سجن كثير منهم . وأحسبني لست مغاليا ان ملت الى القول بأن من كان بالسجن أثناء الثورة قد يكون في بعض الأحيان ، وفي بعض الظروف أحسن حالا وأكثر شعورا بالاطمئنان من ذاك الذى يعيش خارجه وجها لوجه مع سير الأحداث وفي ظروف استثنائية ، يمكن أن يتعرض في أىّ لحظة فيها لاجراءات القمع والارهاب ، ولربما الموت . وأظن أنه ليس من السهولة أن يسلم أحد بما أذهب اليه حول هذا الموضوع ، الا من كان قد عاش هذه التجربة في وقتها وهذه الظروف الخاصة التي كان يمر بها بعض المساجين في بعض المعتقلات هي التي فسر لنا بعض ما كتبه في الثورة نفر من الشعراء الجزائريين المعتقلين (3).

---

(1) ينظر د . صالح خرفي (الشعر الجزائرى) ، ص : 244 .

(2) ينظر صلاح مؤيد (الثورة في الأدب الجزائرى) ، ومن هؤلاء أيضا مفدى زكريا الذى تعد قصائده التي كتبها من داخل الجزائر ، أثناء الثورة على الأصابع .

(3) من أبرز هؤلاء الشيخ أحمد سحنون الذى يضم ديوانه مجموعة من الأعمال كان قد نظمها وهو رهن الاعتقال .

وانا لن نستبعد من جهة أخرى أن يكون ايمان محمد العيد بنجاعة الخطوة الجبارة التي أقدم عليها الشعب الجزائري بتفجيره ثورته المجيدة ، من بين العوامل التي ساعدته على الميل الى العدول عن قول الشعر والاكثار منه ، في وقت نطق فيه الرّصاص وهو اللغة التي لا يفهم المحتلون الظالمون سواها في كثير من الأحيان .

وقد كان محمد العيد من الشعراء الذين يؤمنون بأن للفنّ رسالة لا تقر عين الأديب الملتزم بقضايا وطنه وأمته ولا يهدأ له بال ، الا اذا رأى أن نتاجه مسخر لخدمتها . ومن ثم كان محمد العيد يرسم لشعره الخطة نحو أهداف مرحلية معينة . واذا ما شاهد أن هذه المقاصد قد تحققت ، أو تحقق بعضها ، فانه يعود من جديد الى رسم خطة ثانية لبلوغ أهداف جديدة .

وقد يكون الشاعر أحس — وثورة شعبه ثمة تحصد نيرانها فلول المعتدين — أن شعره قد أدى جزءا كبيرا من رسالته التاريخية وحقق أعظم هدف من الأهداف التي كان الشاعر يتوخاها منه ، ويوظفه لبلوغها . وان المكانة اليوم أصبحت للسلاح وهو خير وسيلة منذ القديم ، لاحقاق حق ضائع ، وابطال باطل طاغ .

واذن فليس من حرج على الشاعر اذا ركن الى السكوت وقد نطق من لا يسكت حتى يصيب أنبل المقاصد ويبلغ أعلى المرامي . كما أن الشاعر قد عرف — من جانب آخر — برزانته وميله الى التروي والتعقل . ولعله يكون قد أدرك ببعد نظره أن مجابهته وهو الضعيف المكبل بأغلال الأسر، لعدو ظالم غشوم يتحرش بالأبرياء ويظمأ لدماء العزل ، قد يؤدي به الى التهلكة ، من حيث لا يحقق الغاية التي تنفع الوطن ، فمال بذلك الى الصمت عن روية واقتناع . كما مال اليه ابان الحرب العالمية الثانية ، وشاركه في ذلك ، معظم اخوانه من الشعراء والكتاب ، لاعتقادهم أن الكلام يومئذ يضرّ أكثر مما ينفع . وهل يعقل من جهة أخرى أن يطلب أحد من صديقه أن يفعل شيئا ، وهو يعلم أنه اذا ماقام بذلك الشيء سيؤدي به ذلك الى مالا تحمد عقباه ؟

ان هذه الحال شبيهة بما كان عليه الشاعر . واذن فهل من المنطق أن نطلب منه أن يواكب الثورة بأشعاره ، ونحن نعلم أنه ان فعل ذلك ، سيعرض نفسه للخطر من حيث لا يحقق فائدة يعود نفعها عليه أو على وطنه .

ومما قد يرجح ما نذهب اليه بهذا الصدد ، أن الشاعر لم يسكت أيام الكفاح السياسي في الفترة السابقة للثورة ، باستثناء فترة الحرب العالمية الثانية التي رأينا أنه مرّ فيها بظروف خاصة ، وفيما عدا ذلك فانه لم يتخل عن دوره في النضال ، لم يقعد عن ذلك حينما كان يدرك ان للشاعر رسالة ينبغي عليه القيام بها .

وان للشعر دورا يجب أن يؤديه لخدمة الصالح العام . لقد نهض محمد العيد يومئذ بتلك الرسالة وهو يعرف ماسيناله من جرائها من أذى . ولعل في هذا مايؤكد من جهة أخرى ، من أن سكوته في الثورة لم يكن تخليا منه عن مقاصد طالما ضحّى من أجلها ، أو تراجعا عن مبادئ طالما نادى بها ، ودافع عنها . وانما كان ذلك منه خطة حكيمة ، وموقفا رشيدا وفّق اليه بالهام وفضل من الله .

واذا لم نرجح هذا الذي نرجحه ، فبم نفسر عدم سكوته أثناء الكفاح السياسي ، وهو يعلم أن نطقه سيكلفه الثمن ؟ وبم نعلّل ثباته على موقفه واستمراره على هذا الطريق ينظم الأشعار ، يدعو فيها الى النهضة والوحدة والثورة ؟

فلم لايخاف يومئذ ؟ ولم لا يجبن ؟ ولم لا يسكت ؟ .

ان لكل زمان ظروفه : وأن ما تتطلبه مرحلة تاريخية بعينها من المواقف والتصرفات لا يكون بالبداهة هو ذاته ما تقتضيه مرحلة أخرى تختلف عنها في المعطيات والملابسات .

وانطلاقا من هذه المسلّمة كان ما كان بالأمس من متطلبات الأمس . أما اليوم فان له شأنا آخر ، فقد تحققت الغاية المرجوة ، وقد عرف الشعب طريقه ، وفجر ثورته ، ولم يعد بمقدور أية قوة طاغية أن توقف زحفه . وأن ايمان الشاعر بربه لكبير ، وأن ثقته بشعبه لقوية ، وأن مجابهة السلاح بالسلاح نفسه لهي من أنجع الوسائل وأجداها لكل شعب طال ليله وطغى متجبّروه . فلا ضير اذن على شعب يكون ذلك شأنه أن تخرس الأقلام ، بعض الوقت ، في أيدي أبنائه ، لا لسبب الا لأنهم استبدلوها بالبنادق وبالرصاص ، وهم يؤمنون أن حجة ذلك أقوى حجة لاقناع الظالمين ، وأي لسانه أفصح لسان لافحام المغتصبين ، لأن الظالمين كيفما كانوا وأينما حلّوا لا تطربهم لغة البيان ولا تهزمهم العواطف الانسانية ولا يتحركون لأنّات الضعفاء ولا يردون طواعية ما أخذوا ، الا اذا أكرهوا على ذلك ، انهم اغتصبوا حقا بالقوة فلن يردّوه الى أهله الا بالقوة .

وانما يمكن أن نخلص اليه من خلال ماعرضنا من وجوه الرأي في تحليل ظاهرة انعدام شعر للشاعر في الثورة ، أننا ما دمنا لم نعثر على شاهد حيّ ملموس ، يثبت لنا أن الشاعر قد كتب شعرا كثيرا أثناء الثورة ، فاننا نميل الى أنه يكون قد كتب شيئا يسيرا ، لأن طبيعة الشاعرية في نفس صاحبها لا تسمح له بالسكوت المطلق أمدا طويلا ، الا أن ذلك الذي كتبه ، يمكن أن يكون قد ضاع في جملة ما ضاع أثناء الحرب التحريرية من أرواح وأموال وتراث ، وما شعر الشاعر الا جزء يسير من ذلك .

واذا استثنينا هذا القليل الذي نرجح أن يكون قد ضاع بعضه فان الشاعر يكون قد سكت عن قول الكثير لما قدمنا من أسباب مختلفة ، يأتي على رأسها ، انعدام

حوافز الابداع الفني لشاعر يعيش في وسط جحيم حرب ضروس، مكبلا بأغلال الأسر، يحيط به الأذى ويحف به الشر من كل جانب[1]. فأفقده ذلك التركيز والسيطرة على امكانياته الذاتية وحرمه من ثم، من القدرة على التأمل والابداع، وواضح أنه ليس من المستحيل في حق الانسان أن يهرع الى قلبه الخوف في بعض الأحيان فيضعف أمام الشدائد، ويفقد بعض السيطرة على قدراته التأملية والابداعية.

ولعلّ بعض ذلك ما أصاب الشاعر فتوقف أو يكاد عن الابداع، الا أن المؤكد أن قلبه لم يتوقف عن الخفقان بحب الجزائر والاخلاص لها والاعتزاز بمواقف أبنائها الذين كانوا يصنعون في كل يوم أروع البطولات التي أخرس منطقها لسان الظلم وأذابت حرارتها زمهرير الذل، وكانوا يبنون بتضحياتهم عند مطلع وغروب شمس كل يوم لبنة من فجر الجزائر الجديد، وان استطاع الاحتلال أن يجرد الشاعر من حريته الشخصية ويسجنه في بيته ويعزله عن أفراد مجتمعه، فانه فشل في أن ينزع من بين جوانحه قلبه ويعزله كل العزل كما كان يهوى عن المساهمة في معركة شعبه، فقد ظل يعيشها بروحه ووجدانه، يبث العزيمة والصّبر والصمود في كل زائر يحل بناديه على خفاء من العيون المترصدة، وينزع من بعض الضمائر الضعيفة ما يكون قد تسرب اليها من أسباب اليأس والقنوط لشدة الأهوال وعسرة الأحوال يومئذ، مؤكدا لهم انفراج الأزمة، ومذكرا اياهم بوعد الله بالنصر لعباده المؤمنين، ويصوّر الشاعر بعض احساسه في تلك الأيام فيقول:

ماشككنا والشعب فيها كليم	أن نار (الأوراس) من (سيناء)
حيث بارت طور التجلي وصرنا	كلّنا حولها من الكلماء (2)

وكان الشاعر ذات يوم وهو في أسره، وقلبه معلق بمصير الوطن، غارق في التفكير في مستقبله، واذا به يرى بخيال الشاعر المؤمن رؤى البشائر تلوح في الأفق، وهي تحث الخطى مسرعة نحو الجزائر لتمطر أرضها العطشى للحرية، الغرقى في الدماء، سلاما، وتجلي غيوم الظلام عن سمائها، وينجلي بذلك ليلها ويكون الصباح، وينعكس ذلك في عمل من أعمال الشاعر التي كتبها في الثورة وهو قصيدة (مناجاة بين أسير وأبي بشير) ايذانا باستقلال البلاد. ومما جاء في ذلك القصيد قوله:

---

(1) يقع بيته الذى ظل به أسيرا طوال حرب التحرير، في زاوية قائمة في مفترق طرق أربعة، بوسط مدينة بسكرة ؛ ولا يبعد عنه الا بضعة عشرة أمتار، مقر القائد العام للجيش الفرنسي بالمدينة يومئذ ؛ وهو برتبة عقيد.

(2) الديوان، ص : 436.

جزمت بقرب اطلاق الأسيــر   غداة سمعت صوت (أبي بشــير) (1)
فقمت مرحّبا بنزيل يمن   عليّ بكل اكـــرام جديـــر
وجئت أبثه نجوای سرا   ومن للحرّ بالصّوت الجهــير ؟
أناجيه بآمالي وحالــي   وأستفتيــه عن شمس الكســير (2)

* * * * * *

ولم يمض الا وقت يسير حتى تحققت الأماني وأصبح ماكان حلما حقيقة حية ، فخرج الشاعر الأسير من سجنه ، تغمره الفرحة وتهزه النشوة ، وتوفر له من حوافز القول ودوافع الانشاء — وأعلام الحرية خفاقة — مالم يتح له وسيف الظلم مصلت على الرقاب ، فمضى يغني للحرية ، للبشائر ، للثورة المعجزة ، للشعب البطل في جهاده الأكبر ، غناء أطرب الأسماع وهز القلوب فظن أولئك الذين حركتهم تلك الألحان الصادقة ، أن الشاعر قد استعاد سيطرته على الموقف ، وملك زمام أمره ، وانه سيمضي على هذا الطريق بهذه القوة والحرارة نفسها التي عهدت في شعره ، في مرحلة ماقبل الحرب العالمية الثانية . ولكن الحقيقة كانت على غير ماكان يفكر فيه هؤلاء ، ذلك أنه ماكان من الشاعر في هذه السنوات الأولى للاستقلال ، انما كان — فيما يظهر — فيضا وجدانيا لما غمر قلبه من مشاعر الفرحة وهز وجدانه من نشوة الانعتاق غداة الانتصار، فكانت تلك الروائع استجابة لهذه الأحاسيس الحارة ، بالرغم ممّا كان بالشاعر يومئذ من أتعاب وأمراض . ولذلك فان هذه الحال لم تطل به حتى تراجع الى الخلف تحت تأثير عوامل مختلفة تظافرت مع ماأصبح يحس به تدريجيا من مفارقات مابين الواقع بألوانه المختلفة وما بين الآمال العريضة الطموح . فقد أمسى — وقد عاش طوال حياته ملتزما بمواقف واضحة، ومبادئ ثابتة — يرى أن الركب قد بدأت تتفرق به السبل ، وأن أولئك الذين كانوا بالأمس يتسابقون الى فعل الخيرات ، ويتنافسون على بذل الأرواح ، فداء للوطن ، قد أصبح بعضهم اليوم وقد انحرف نحو المصالح الخاصة متخليا عن مواصلة الجهاد ، من أجل القيم والمثل العليا التي سقط من أجلها الشهداء الأبرار .

فما كان من الشاعر الا أن لجأ الى نفسه يستنجد بها مما أمسى يتلبسه من مثل هذه الأحاسيس والخواطر ، فألفاها كما عهدها بالقيم متمسكة ، وعلى المبادئ باقية ، فلم تقدر بذلك على أن تسعفه بما لم تستطع عليه صبرا ، وهو شاب في مقتبل العمر ،

---

(1) طائر صغير معروف في الجزائر ، يستبشر الناس به .
(2) الديوان ، ص : 422 .

بله أن تقوى على أن تلبي له ذلك وهو شيخ هدّت قواه السنون، فجعله ذلك لا يقدر على أن يركب الموجات كما ركبها في ذلك الوقت من يقدر عليها . واذن فلم يبق له الا أن يجر أذياله عائدا الى وكره من جديد ينشد في محرابه ماألفه لسنوات طويلة من حياة العزلة والصمت وألوان العبادة والتصوف .

ونخلص من هذا الى معرفة شيء عن صوفية الشاعر وتصوفه في آخر حياته .
لقد مرّ معنا أن الشاعر كان منذ الطفولة ميالا الى العزلة، قليل الاختلاط بزملائه، يقضي معظم أوقاته مابين المدرسة والبيت، لايكاد يحتك أثناء ذلك الا بالقليل من الناس .ولما دخل الحياة العملية ظل على شيء من ذلك النمط من السلوك، فكان يقضي وقته مابين التحصيل العلمي، وقول الشعر، والخلوة للعبادة، فكان بذلك لتلك النزعة الزهدية الصوفية جذور قديمة متأصلة في أعماقه، فما برحت تعدها وتغذيها أسباب متعددة من ميراثه الصوفي ونشأته الدينية وبيئته المحافظة . وتكوينه العربي الاسلامي، ومعايشته لمأساة أمته . وكانت خاتمة المطاف أن وجد نفسه يتلظّى في أتون حرب ضروس، لم تعتم أمواج الظلم فيها، أن رمت به في خضم بحر من العزلة، غريبا عن الناس ومايسمعون وما يكدحون، وقد سبق أن رأينا تصوير الشاعر لبعض الملامح من ذلك في قصيدته : (أبا المنقوش) (1) .

واذن فقد ركن الشاعر الى ربه في أسره يلتمس عفوه ويرجو رحمته، ويستمد منه القوّة والعون على الاستزادة من طاعته والتزام عباداته، فوفرت هذه الحياة الروحية المناخ الملائم الذى ساعدا ذلك النزوع الصوفي المتمكن من نفسه على أن يعلو ويسمو به الى درجات رفيعة في معارج الايمان والتقى، واستمر على ذلك الحال متفرغا للعبادة، لايتصل بالحياة الدنيا وأهلها الا بحذر وبمقدار، حتى تحقق الأمل وانتصر الشعب، وخرج الشاعر حينئذ من سجنه وقد أضنت جسمه أحداث السنين، وأوهنت قواه أعباء الشيخوخة، وهي مرحلة ضعف طبيعية في حياة الانسان، يميل فيها عادة الى التفكير والتأمل، فيساعد ذلك على تعميق النزعة الروحية لديه . وقد رأينا أن لهذه النزعة جذورقديمة في نفس الشاعر، وصادف أن اصطلحت على تنميتها عوامل مختلفة فظلت ترفدها وتعمق مجراها في نفسه . واذا كان الشاعر يحس بذلك الاحساس وهو شاب في مطلع حياته، فحرى به اليوم وقد بلغ من السن ما بلغ، وأتيح له من طول التأمل وعمق المعاناة مالم يتح له من قبل، أن يخلد الى حياة روحية يعكف فيها على مراقبة النفس واستبطانها والسموّ بها عما يخوض فيه الناس، وعمايلهون به، موليا وجهه نحو ربه منيبا اليه، موءثرا ماعنده على ماعند سواه

(1) ينظر الديوان، ص : 425 .

وإذا كان محمد العيد في شبابه مواظبا على تخصيص وقت معين من بين أوقات يومه يتحرر فيه من أشغال الدنيا ويخلص فيه لعبادة ربّه [1] . فانه اليوم في شيخوخته ، وخاصة بعد عودته من أداء فريضة الحج بالبقاع المقدسة في سنة 1966 م ، فقد أصبح كل وقته له ، فتفرغ بذلك الى خلوة تكاد تكون خالصة يشبع فيها تلك الرغبة الكاملة من هذا الفيض الرباني ، ويعكف فيها على نفسه يجددها في طاعة الله والتقرب اليه بصالح الأعمال وخالص العبادة وصادق الذكر ، وانكبّ عليها يزكيها ، ويزهدها في الحياة الدنيا وزينتها ، ويرغبها في الحياة الأخرى ونعيمها . فأخلد بذلك الى حياة تأملية وأجواء علوية سامية تعلق قلبه فيهما بذكر الله ، واستنارت بصيرته بهدى كتابه العظيم وسنة رسوله الكريم ، واستأنست نفسه بمجالسة الصحابة ، ومقامات الصالحين وأهل المعرفة واليقين في مواقفهم وفي آثارهم . ولعل من أحسن مايعبر عن تأصل النزعة الصوفية في نفس الشاعر واخلاصه فيها بآن ، هذه المقطوعة ((نحن أبدا مع الأبرار)) . التي قالها وهو في خضم معترك الحياة يأخذ منها ويعطي ، ومما جاء فيها قوله :

لأرباب القلوب عهود صدق ... وأقوال تصدّقها الفعال
على القلب السليم بنوا وشادوا ... لهم ملكا وبالملكوت جالوا
وبالظن الجميل جنوا ثمارا ... زكيات بها زكت الخلال
جمال الله أذهلهم فهاموا ... وأدهش بالهم منه الجلال
فما سكنوا الى الدنيا قلوبا ... وما ركنوا لزخرفها ومالوا
فكن أبدا مع الأبرار واجنح ... لهدى امامهم فهو المثال
رسول سنّ سنته طريقا ... معبّدة يباح بها الوصال (([2] .

وأحسب أن المتلقي يحس بسهولة ما يسرى في هذه الأبيات من صدق التجربة وحرارة الانفعال ، اللذين كان الشاعر يعيشهما وهو يحيا في هذه الأجواء الربانية ، مما يعكس بعض الملامح من صوفيته التي تستقي أصولها من صميم الاسلام (الكتاب والسنة) ويمكن لأحد أن يطرح هذا السؤال :

كيف استطاع محمد العيد أن يجمع بين التصوّف والاصلاح في وقت واحد ، وعلى مدى طول حياته ؟

(1) روى لي زميلاه في مدرسته الشبيبة الشيخان : عبد الرحمن الجيلالي وجلول البدوي أن الشاعر كان يخلو بنفسه في أحد أقسام المدرسة بعد صلاة العصر من كل يوم لتلاوة القرآن الكريم والقيام ببعض ألوان الذكر والعبادة .
(2) الديوان ، ص : 230 ـ 231 .

ويمكن أن يزول هذا الاستغراب اذا ما عرفنا من جهة ، انه ليس هناك من تنافي بين الاصلاح والتصوف الصحيح ، كما أن محمد العيد ليس له من الصوفية من جهة ثانية ، الا السلوك التعبدي الذاتي ، أما مواقفه الأخرى الفكرية منها والعملية ، فكلها اصلاحية ومن صميم الاصلاح . فالصوفية عنده ليست طريقة ، وليست منهجا عمليا أو اتجاها فلسفيا ، أو ((د روشة)) ، كما أصبحت في العصور المتأخرة [1].

وانما كانت صوفية سنية عملية لا تقول بالانقطاع عن الدنيا وترك السعي فيها كزهد الرهبانية ، ولا تقول بتلك النظريات المتطرفة القائلة بوحدة الوجود ، والحلول ، والتجلي ، وغيرها مما هو الى الفلسفة والتصوّف النظري ، أقرب منه الى الزهد والتصوّف العملي ، كما تخلو من الاهتمام بالخوارق والمعجزات ، والأخذ بأسباب التوسل بالأولياء والتشفع بهم ، مما هو الى الخرافات والتدجيل أقرب منه الى الايمان الصادق والدّين الصحيح . انها صوفية معتدلة يجمع فيها صاحبها مابين حسن العبادة والعمل الصالح ، يستمد جوهرها من مبادئ الاسلام ، ويقتدي فيها بنهج الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه والسلف الصالح من بعده . وتقوم على الاعتدال والاحسان وتهدف الى تذهيب النفس وتزكيتها . وبهذا فهو بزهده أقرب الى الشاعر (أبي العتاهية) الذى يكون — ولا شك — قد نظر في شعره الزهدى ، منه الى الشاعر (ابن الفارض) أو الى من هو أدنى اليه من هذا الشاعر وهو الأمير عبد القادر الذى يرى بعض الدارسين أنه أوشك أن يدنو في بعض نظراته الصوفية [2] من (ابن عربي) . وهو ان تسربت اليه بعض أنسام من روح أبي العتاهية الزهدية ، فان ذلك لم يطغ عليه الى الحد الذى يجعله يبلغ فيه الى ما بلغ اليه أبو العتاهية من غلو واغراق ، في التزهيد في الدنيا والترغيب عنها ، كما يتجلى ذلك في كثير من شعره الزهدى الذى يعج بالصور القاتمة التي تتراصف تنعي على الأحياء حياتهم . وتمقتهم من السعي في طلبها . وتزدحم فيها المشاهد الكالحة التي تتنابع فيها أشباح الموتى من وراء — مناظر القبور — ويمتزج فيها صخب العويل بحشرجات المحتضرين . وتمتد فيها ساحات المقابر وتطول ، منذرة بهول الفناء وسوء العاقبة ، وغير ذلك مما ينغص على الانسان كل طعم لذيذ للحياة ويقعده عن كل سعي في طلبها ويدعه من ثم خاملا خامدا في حال ليست هي الموت وليست هي الحياة ، وليس هو فيها بميت مستريح ، من ضنك

(1) ينظر أحمد أمين (ظهر الاسلام) ، ج 4 : 230 .
(2) ينظر د . عبد الله الركيبي (الشعر الديني الجزائرى الحديث) ، ص : 242 .

هذه المعيشة وأكدارها وفجائعها ، وليس هو فيها بحي مستمتع بما في الدنيا من أفانين الطيبات . وساع للتزود بنشاط تفيض به من وجوه الباقيات الصالحات ، ليلقى بها وجه ربه ومورا غ عنه .

كما أن محمد العيد يمتاز في زهده عن زهد أبي العتاهية الى جانب ذلك بسمة الصدق ، تلك التي تبرز في ظاهرة التطابق بين أقواله وسلوكه هذا التطابق الذي قد يفتقده الباحث لدى أبي العتاهية بالوضوح نفسه الذي يلمسه لدى محمد العيد . وهذا الاختلاف الملحوظ بين الشاعرين في نظرتهما الى الحياة والكون من حولهما أمر طبيعيّ ، نجم عن تباينهما في أمور كثيرة من أهمها : افتراقهما في المكونات الأساسية لشخصية كل منهما ، مما يتمثل في الاستعدادات الفطرية والميول المكتسبة ، من مثل المزاج ، والنشأة ، والتكوين .

فقد شبّ أبو العتاهية لاهيا مشتغلا بالمجون ، ثم أناب الى رشده في المرحلة الأخيرة من حياته [1].

فانتقل بذلك في سيرته من هذا الطرف الى الطرف المقابل ، فكان في أولهما — فيما يظهر — مفرطا على نفسه ، فأحب أن يكفر في ثانيهما عن ذلك ، فأفرط فيما أحب ، فخرج به ذلك عن حد الاعتدال . وكذلك كان صنيع أبي نواس ، فقد عاش معظم حياته ماجنا عابثا ، وكان الضعف يدفع به بين الفينة والأخرى الى اعلان توبته ثم لم يلبث أن يعود الى ماكان فيه ، ولما كبر انتهى به ذلك الضعف في آخر أيامه الى الانتقال مما كان فيه الى حياة المتاب [2].

أما محمد العيد فلم يكن في حياته كذلك ولا عرف هذه النقلة ، ولا ذاك الغلو . وانما كان في معظم أحواله يميل الى الهدوء ويأخذ بحد الاعتدال ، فشبّ بذلك على التقوى ، وشاب عليهما . وان الدين الاسلامي لاينكر التصوف القائم على الجمع مابين حسن العبادة والعمل الصالح ، والاقبال على الحياة وطلب المجد فيها ، والسعي الى الآخرة ، وان التصوف بهذا المفهوم من صميم الاسلام . وقد تجلى بهذا المنظور في سلوك المسلمين منذ صدر الاسلام الأول . وأصله كما يقول ابن خلدون هو (العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور ، من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة

---

(1) ينظر أبي الفرج الاصفهاني (الأغاني) ، ج 4 : 63 .
(2) ينظر د . شوقي ضيف (العصر العباسي الأول) ، ص : 226 .

والعبادة ، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف ، فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني ومن بعده ، وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة) (1) .

ومما يمكن أن يستدل به على صدق تدين الشاعر واخلاصه في صوفيته . زهده في الدنيا وقد سعت اليه بعد استقلال البلاد ، بكل مغرياتها تطلب ودّه ، فعافها ، وتولى عنها بوجهه . كما يدل على ذلك أيضا اختفاء ذلك الشعور بالحيرة والتبرم من الدهر والناس الذى استولى عليه بعض الأحيان في مطلع حياته ، ومن أحسن ما يعكس ذلك بوجه خاص ، بعض (لزومياته) التي نظمها آنذاك نتيجة لاحساسه العميق بمأساة الوطن قبل أن ينضج عقائديا وفكريا . لأن المؤمن الواعي لا يشكو من الحياة ولا يتبرم من الناس . ويستطيع الدارس أن يلحظ هذه النقلة في بعض النماذج من شعره الزهدى ، فهو اذا كان في صدر شبابه ينظر الى الدنيا بهذا المنظار الأسود الذى نلمحه في مثل قوله من قصيدته (ياقلب) التي نظمها سنة 1936م يقول فيها مخاطبا قلبه :

أقلني جانب الدنيا أقلني ... فالي من متاعبها أئن
الى الأخرى فعرج بي تعرج ... على نار يكاد بما يجن (2)

اذا كان الشاعر يحس بهذا الاحساس في مطلع حياته فانه أصبح بعد ما تخطى هذه المرحلة ، وأصابه بعض النضج ، يضع على عينيه منظارا آخر أقل قتامة وأكثر نصاعة ، كما يتجلى ذلك في قصيدته (دمعة منهمرة) التي نظمها سنة 1952 يقول فيها مخاطبا الشباب :

دنياك معركة يفوز بكسبها ... رأى أسد وهمة قعساء
الفوز والاخفاق بعض عروضها ... يعطي ويأخذ منها الأحياء
من فاته فيها الرجاء فمفلس ... لا يرتجى أبدا له اثراء (3)

وعاد الشاعر في أواخر حياته ، فخلص الى هذا القرار الذى رضي به لنفسه منهاجا ، أحب أن يختم به ما تبقى له من أيام ، يقول :

---

(1) المقدمة ، ص : 363 .
(2) الديوان ، ص : 367 .
(3) الديوان ، ص : 477 .

شغلتنا حياتنا عن مداما — فأمنا مصائر الأيام
ليس غير المتاب حبل نجاة — في حياة لجية الآثام
رب فاقبل متابنا واعف عنا — وأثبنا الرضى وحسن الختام (1)

ومما يمكن أن يبرز هذا التحول في حياة الشاعر بشكل أكثر وضوحا، اختفاء تلك اللزوميات من شعره، تلك التي كانت في مجملها شكلا من أشكال التعبير عن حالة نفسية قلقة، مر بها الشاعر في بعض مراحل حياته، كما يعكس ذلك بوجه خاص بعض لزومياته، من مثل: ((الدنيا... وليت نحوك وجهي؟ جولة طرف؟ الناس؟ رهين المحابس)) وهي بديوانه على التوالي (2).

لقد اختفت مثل هذه الأشعار من نتاج الشاعر وحلت محلها في قلبه تراتيم (المناجاة والابتهالات) التي مال اليها الشاعر في هذه الفترة، وهي تعكس بحق ما خلص اليه من صفاء روحي وسمو وجداني كهذا الذي نسمعه منه وهو يرفع أكف الضراعة الى ربه، شاكرا فضله راجيا ثوابه:

مولاي أظهرت الجميل تفضلا — وسترت ما لا ينبغي أن يظهرا
ولقد برأت اليك من حولي ومن — طولي وجئتك تائبا مستغفرا
نحن العبيد المذنبون ولم تزل — ربا تحب لذنبنا أن يسترا
فاغفر لنا واصفح وكن متجاوزا — عنا لكل السيئات مكفرا
والطف بنا لطفا خفيا واقبنا — من كل سوء باتيا متكررا
واجعل على الايمان عقد قلوبنا — متركزا بكفاحنا متآزرا (3)

وهكذا تكون صوفية محمد العيد أيجابية هادفة، تصدر عن قلب مؤمن طاهر كان يطمح منذ أمد بعيد — وتضاعف ذلك بعد عمر مديد — الى التخلص من ربقة المادة والخلود الى واحة وارفة الظلال، يحرص على أن يكون فيها موفور السكينة، مغمورا بأنوار الايمان يتقرب فيها الى مولاه يعبده ويستعين به ويستهديه الصراط المستقيم، ويرتقب أمره حتى يأتيه اليقين.

ويبدو أن هذه النهاية التي انتهى اليها الشاعر كانت نتيجة طبيعية، لما كان يحيا عليه في أول عهده، وهي في الوقت ذاته ظاهرة ملحوظة في حياة كثير من العلماء والأدباء، ممن ينشأون نشأة دينية، ثم يختلطون بمشاغل الحياة في شبابهم

---

(1) في قصيدته (عاشر وفقا على الجزائر) نظمها سنة 1965. ينظر الديوان، ص: 197
(2) الديوان، ص: (362 — 364 — 369 — 377 — 330).
(3) من مطولته (من وحي الثورة والاستقلال). ينظر مجلة المعرفة الجزائرية السنة: 1 العدد: 11 — 12 (ماي جوان) 1964، ص: 37، وينظر الملحق.

وفي كهولتهم ، ويطول بهم العمر حتى يدركهم الهرم ، ويوهن قواهم الضعف والعجز، فيزداد بذلك ميلهم الى الحياة الروحية ، فلم يلبثوا أن يتفرغوا اليها ، يعكفون عليها دون سواها . وذلك أومايشبهه مايبتدى أنه حدث لمحمدالعيد ، فزهد في الدنيا وأسلم وجهه الى الله مخلصا .

وان الدارس ليقف بكل وضوح على مرحلتين بارزتين في صوفية الشاعر لكل منهما خصائصها وسماتها :

أما المرحلة الاولى وهي التي تكاد تغطي كامل مساحة حياته ، فكان الشاعر يجمع فيها مابين حسن العبادة والتزود بصالح الأعمال ، ولم يقتصر فيها على العكوف للذكر والخلوة ، وانما كان يقوم الى جانب ذلك بنشاطات مختلفة ، يشده فيها الى الحياة وقضاياها والناس وشؤونهم ، والوطن وجهاده ، حبل متين .

وأما المرحلة الثانية وهي التي تمثل السنوات الأخيرة من عمره ، فقد هجر فيها حياة الناس وخلص الى العبادة وأوشك أن يقتصر فيها عليها .

واذا ماحاول الدارس أن يتعرف على النموذج الذى يمكن أن يلتقي به محمدالعيد في صوفيته من بين نماذج المتصوفة المتقدّمين ، فانه لايحتاج الى جهد كبير لكي يدرك أن أقرب مناهج المتصوّفين الى ذوقه هو منهج الامام (أبو حامد الغزالي) الذى سبق أن رأينا أنه يلتقي معه في بعض المواقف . واذا تجاوز الدارس ذلك الى الوقوف عند ما يدعّم هذا المذهب الى جانب ما يحسّه من بين نفحات شعره وما يتملاّه في بعض مواقفه وتصرفاته ، فانه واجد ذلك في أقوال الشاعر نفسه الذى لايفتأ يصرّح باعجابه بالغزالي وثنائه عليه من مثل قوله (اني أحبّ الغزالي ويعجبني مشربه ، وذلك لأنه لايخرج عن الشريعة ولا يهمل العقل) [1]. وهو متأثر أيضا بنهج الامام الشعراني [2] كما جاء ذلك في قوله : (ويأتي في الدرجة الثانية عندى من أئمة التصوف المتقدمين بعد الغزالي الامام الشعراني) [3].

ونحن اذا حاولنا أن نستنطق شعره في هذا المضمار ، فانا واجدونه يعكس هذه الصوفية السّنية البعيدة عن كل غموض ودروشة ، كما تبين لنا ذلك في مواطن شتى من هذه الرسالة . وأما اذا جئنا الى الشاعر نفسه وقد عرفنا من أمر زهده

(1) سمعت من الشاعر نفسه هذا الكلام .
(2) هو عبدالوهاب الشعراني (1491 ـ 1565 م) ، ولد بالقاهرة وعاش بها ، عالم صوفي له مكانة عقلية مرموقة .
(3) أفادني الشاعر بهذا القول .

ماعرفنا ، تطلب منه رأيا يلخّص لنا فيه صوفيته في بضعة كلمات ، فانه لا يبخل علينا بالقول (ان هذه الصوفية لا أستطيع دفعها ، وهي صوفية معتدلة ، تقوم على الكتاب والسنة وهي لذلك تلتقي مع الفكرة الاصلاحية التي تقوم على الأصول نفسها ، وان شئت بيانا أكثر مما سمعت لما أناعاكف عليه ، قلت لك اني أتمثل في صوفيتي بقول أحد الأئمة ، وهو : أني لا أقبل أي خاطر من الخواطر الصوفية الا بشاهدي عدل هما : كتاب الله وسنة رسوله ، وهذا القول هو شعاري في صوفيتي) (1) .

وكذلك يكون زهد محمد العيد وتصوفه ، فليس زهده ذلك الزهد السلبي الذي ينجم عن احساس بالأنانية أو الخيبة ، فيزهد الانسان ليفرّ من العالم وينجو بنفسه ، ولا ذلك الزهد الذي يستهدف أساسا نقد أحوال الناس وتزهيدهم في الدنيا وترغيبهم عما تفيض به من ألوان الحلال الطيب وأصناف الرزق المشروع ، وانذارهم بسواد العاقبة وسوء المصير . وليس زهده ذلك الزهد الذي يلجأ اليه بعض الناس في شيخوخته ببواعث الضعف والهرم ، فيحاول أن يكفّر به عمّا يكون قد صدر عنه من تقصير في ماضيه ، وانما هو زهد ذاتي أصيل معتدل يقوم على الاحسان في العبادة والاحسان في العمل .

وليس تصوّفه ذلك التصوف الفلسفي اللّاهث وراء نظريات الحلول والتجلّي ، ولا ذلك التصوف السلبي الجامد اللّاهي بتقاليد الدروشة والشطحات ، وانما هو تصوف عملي يستهدي بنور كتاب الله ويقتدى بنهج رسوله الكريم ، ويقتفي آثار من جاء بعده من الصحابة والسلف الصالح ، وأهل الصدق واليقين من الصالحين المقرّبين .

وهكذا فان زهده وتصوفه كليهما سلوك ذاتي تعبّدى ، لا يرمي من ورائهما صاحبهما الا الى محاسبة النفس وتزكيتها ، والتقرّب الى الله والفوز بين يديه بالرضا وحسن القبول .

ونأتي في ختام هذه الفقرة الى محاولة استخلاص بعض مايمكن أن يميز زهد وتصوف محمد العيد عن زهد وتصوف غيره ، ونجمل ذلك في الملاحظ التالية :

1 ـ أنه كان زهدا ذاتيا ينبع من ذاته ويصب فيها ، دون أن يقصد به الى نقد اجتماعي أو دعوة الى العزلة ، أو يرمي به الى الانقطاع عن الدنيا ، وترك السعي في طلبها ، واجتناب التمتع بما فيها من الرزق الحلال ، وحمل الناس على الزهد فيها وانذارهم بسوء المصير ، مما قد يحدل كل جهد انساني ، ويوقف كل سعي نحو الجهاد ، والتقدم في هذه الحياة . وواضح أن هذا ليس من الاسلام في شيء ، وهو بعيد كل البعد عن نظرة هذا الدين الى الكون والحياة ودور الانسان فيهما .

---

(1) سمعت من الشاعر هذا الكلام .

2 ـ كان تصوفه سلبيا يقوم على صدق الايمان وحسن العمل ، ويحرص على التوازن ما بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، يدفع صاحبه الى السعي والكدح ، بطلب الدنيا ويطلب الآخرة في وقت واحد .

3 ـ لم يكن زهده زهدا طارئا ناجما عن ضغط خارجي مفاجيء ، أو عن صدمة نفسية ناشئة عن فشل في بلوغ أمر من أمور الدنيا ، وانما كان سلوكا تعبديا فرديا يشبع ميلا الى هذه النزعة ، شب عليه وزادته الأيام بما حبلت به من احتلال للبلاد وسوء أحوال ، وظلم محتل ، تعميقا في نفسه وفي سلوكه .

4 ـ ان الشاعر لم يكن في تصوفه سلبيا ، وقد عصمه من ذلك جملة عوامل : نشأته الصالحة وثقافته الدينية ، ومفهومه السليم للدين الاسلامي وادراكه الصحيح لمقاصده ومراميه ، وكان بذلك بعيدا عما انحدر اليه بعض المتأخرين بجهلهم وجمودهم ممن شغلتهم عن النضال والجهاد من أجل الحياة الكريمة ، تقاليد (الدروشة) ومراسيم (الحضرة) فسقطوا في تلك الشراك وأداروا ظهورهم عن قضايا مجتمعهم وأمتهم .

5 ـ وان زهده أخيرا لم يكن ثورة نفسية منه عن ماضيه ، كما كان لدى بعض الشعراء وانما كان نابعا من ميراثه الصوفي ، ومن صدق تدينه ، ومن عمق احساسه بمأساة أمته فكان بذلك يشبع حاجة شعورية في نفسه .

ويمكن أن يكون من خلال ما تقدم قد اتضح أن تصوف محمد العيد يختلف من حيث بواعثه ومقاصده عن تصوف غيره ، وان كان يربطه بذلك سبب من الأسباب

* * * * *

وتمر الأيام والشاعر عاكف على صوفيته هذه ، مستغرق في خلوته ، مستنفد جل وقته في الطاعات وفي العبادات ، واذا بالأيام من عام 1972 تضعه وجها لوجه أمام حدثين هامين :

أما أولهما فوطني وهو الذكرى العاشرة للاستقلال .. وأما الثاني فذاتي وهو انتخابه عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق .

ومما يمكن ملاحظته بهذا الصدد أن الشاعر اهتزلتلك الذكرى وكان لها حظ وافر في قلبه الذي طالما شدا لحرية الوطن وغنى لاستقلاله ، ففاضت مشاعره بقصيدة كانت ـ فيما أعلم ـ آخر ما نشر له من شعر (1).

(1) نشرت في مجلة (الأثير) الجزائرية ، السنة : 1 ، العدد : 5 / 1 أوت 1972 ، ص : 7 .
ينظر الملحق .

بينما يمضي الحدث الثاني ولم نعثر على مايدلّ أن الشاعر نظم فيه وقد مرّ معنا أنه قال شعرا في مثله ، عندماكان الأمر لايخصه ، وانما يتعلق بالشيخ الابراهيمي (1). وهذا أمر ملفت للنظر. ولا شك أنه يؤكد ماسبقت الاشارة اليه أكثر من مرة من أن الشاعر يهتز للقضايا الوطنية والقومية والمواطف العامة أكثر مما يهتز الى الأمور الشخصية والمواطف الذات

ويذكر بعض الدارسين أن الشاعر سكت بعد سنة 1966 (1) . ولكن ديوانه يقدم لنا قصيدة نظمت بعد هذا التاريخ وهي (هي الهمة القعساء) (2). الا اننا لم نعثر بعدها على شعر منشور باستثناء قصيدته في الذكرى العاشرة للاستقلال التي سبق الوقوف عندها ، او تلك الـ نظمها قبل ذلك أوشرها كتقديم لكتاب (عيون البصائر) للشيخ الابراهيمي سنة 1970.

أو ربما يمكن أن يكون الشاعر قد كتبه واحتفظ به لنفسه ، ولم يشأ أن يذيعه في الناس الا في حدود ضيقة (3).

ويحق بالمرء أمام هذه الظاهرة أن يتساءل : هل سكت الشاعر حقا بعد سنة 1972 ؟ ولماذا ذلك ؟

ولا يسع الدارس الا أن يلجأ مرة أخرى الى الشاعر نفسه ، يستنطقه في بعض مواقفه وفي بعض أقواله وأشعاره ، فلعلّه يلقى هناك مايسعفه باجابة شافية عمايتساءل عنه المتسائلون . .

ان الشاعر لايخيب الظن ، ويمد المرء بشيء مما كان يبحث عنه ، ولو كان ذلك يسيرا ، نصادف ذلك في قصيدته (هذه قمة الفتوة) التي نظمها سنة 1965 . وقد واكب فيها بحرارة وصدق مسيرة بلاده وهي تدعّم أسس السيادة وتعلي صرح المستقبل ، وذلك في قوله :

قد سلوت القريض في عهد شيبي ... وثناني عن حبّه ماثناني
ولكم كان مؤنسا لي حبيبا ... رائعا والشباب في الريعان (4)

وواضح أن الشاعر لم يزد في هذين البيتين على أكثر من تقرير صلة الحب التي تربط بينه وبين الشعر منذ صباه : والتي أرغم على قطعها ارغاما في شيخوخته . . ولكنه لم يضف الى ذلك شيئا آخر ، كأن يفصح عن أي سبب من الأسباب التي يمكن أن تكون وراء تلك القطيعة . . وكاد أن يحوم حول شيء من ذلك ، كما نرى في الشطر الثاني من البيت الأول ، ولكنه آثر الابهام عن البيان ، فأبقى الأمر على ما كان عليه . واذن فما علينا الا أن نمضي مع الشاعر بحثا على تعليل آخر ، يمكن أن يكون أكثر بيانا

---

(1) د . أبو القاسم سعد الله (محمد العيد آل خليفة . .) ، ص : 53 .
(2) الديوان ص : 541 — وهي مؤرخة في : 7 سبتمبر 1967م .
(3) ولمن هذا القبيل مقطوعته التي قالها في تعزية (آل المفزى) بوفاة عميد أسرتهم سنة 1974 ، ينظر الملحق .
(4) الديوان ، ص : 273 .

وأدق تفصيلا . وقد فصل الشاعر فلم يلبث أن وضع أيدينا على سبب من الأسباب ، انه المرض والهرم اللذان اجتمعا عليه فأقعداه عن القيام ببعض الواجبات ، يشير الى ذلك وهو يقدم اعتذاره الى هيئة (اتحاد الكتّاب الجزائريين) . لاستعفائه من الحضور الى الحفل الذى كان من المقرر أن يقام على شرفه تكريما له بمناسبة منحه جائزة الدّولة التقديرية الأولى سنة 1966 ، وذلك في هذين البيتين :

قد تخلّفت آسفا وكفاني مسلّيا علمكم بصادق عذري

قعد العجز بي عن الركب سيرا والهوى معهد مع الركب يسري (1)

وهذا ما يلمح اليه الشاعر بعد هذا التاريخ ، أى في سنة 1970 م وهو يصوّر تلك العلاقة التي أصبحت بينه وبين الشعر ، ويحلّل لها في الوقت ذاته ، وذلك في رسالة وجّهها الى الدكتور (أحمد طالب الابراهيمي) ردّا على رسالة كان قد بعث بها اليه هذا الأخير، يطلب فيها منه أن يكتب تقديما لكتاب والده المرحوم الشيخ الابراهيمي (عيون البصائر) فلم يجد الشاعر بدّا من العدول عن النثر الى الشعر ، فركبه مضطرا ، ودفع اليه دفعا حينما لم يجد لنفسه منه ملجأ ، وقال قصيدة بعنوان (مشاعل حكمة) ، يبدو من خلال معانيها وأساليبها ، وكأنها أمليت عليه املاء . ومما جاء في رسالة الشاعر تلك قوله (الموضوع متّسع الأطراف متشعّب الجوانب ، وعلمت يقينا أنني أعجز عنه ، وأقف دون اتمامه ، ولم أجد بدّا من العدول عن النثر ، الى الشعر الذى هجرني هجرا غير جميل ، فاستعطفته واستنجدته ، واذا به يبيّض الخاطر الكليل بهذا القدر الضئيل وعلى ضآلته ماكنت أظن أنني أظفر بمثله) (2).

وما يفتأ الشاعر يلحّ على أن سبب سكوته انما مردّه الى عجزه يؤكد ذلك وهو يجيب من سأله مثل هذا السؤال .

(لم أعد أقوى لضعف عام في حالتي الصحية على قول الشعر ، ونظم القصائد ، وان كنت لازلت أقول بين الحين والآخر بعض المقطعات والأبيات) (3).

وأحسب أن الشاعر ، وهو يدلف نحو الثمانين من عمره ، سينقص بالضرورة مردوده الفكرى والأدبي ، ولقائل أن يقول ان من يبلغ هذا السنّ لايكون قد بلغ من الكبر عتيا .

---

(1) الديوان ، ص : 551 .
(2) ينظر (عيون البصائر) ، ص : 6 .
(3) سمعت من الشاعر نفسه هذه الاجابة .

والحقيقة أن أمورا كهذه ، لا ينبغي تعميم الأحكام حولها ، ذلك لأن الحقائق المتعلّقة بمثل هذه الظواهر الانسانية لا تخضع لقوانين ثابتة تصلح لجميع الحالات ، وفي جميع الأوقات وانما تتغيّر بحسب الأشخاص وحسب الظروف الخاصة المتصلة بحياتهم ، ولذلك فهي قضايا نسبية أكثر منها أمورا مطلقة . ولهذا فان أعمار الناس لا تقيم بعدد السنوات التي عاشوها بالفعل ، بقدر ما تقدّر بألوان الحياة التي انقلبوا فيها ، وبطبيعة المعاناة التي يكونون قد مرّوا بها ، وبأهمية الأعمال التي تكون قد أنيطت بهم ، واننا اذا نظرنا للشاعر من هذه الزاوية ، فاننا نجده بادىء ذي بدء ، أنه لم يكن من أولئك المحظوظين الذين قضوا أعمارهم يتقلبون في ضروب الرّخاء وأصناف النعيم ، وانما عاش كـكلّ من عاش — وهو يفتقد حريته — حياة كادحة ضئيلة ، كان يكدّ وينصب فيها من أجل أن يلحق بما يسدّ به أوده وأود من هم تحت رعايته .

وأما ماكان يلقاه الوطن وماكان يعيشه الشعب من مظاهر الحرمان والبؤس والقهر تحت نير حكم الاحتلال الأجنبي ، فذلك ما قضى الشاعر العمر كله وهو يحمل همومه ، ويعاني من عمق جراحاته ، ويتجرّع كؤوس الحسرة والأسى من جرائه .

وماذا كان ردّ فعل الشاعر أمام ذلك ؟ ، فهل استسلم لأحزانه واقتصر على أن ينغلق على ذاته ، يذرف دموع التحسر والأسى ، أم أنه كان له موقف من ذلك ، غير ذلك الموقف ؟

لقد رأينا أن الشاعر عاش هذا الصراع جنديا مخلصا الى جانب شعبه ، مسخرا لخدمة قضيته كل طاقاته ، وقدراته ، ناهضا بأنبل المهمّات وأثقل الأعباء في سبيل ذلك ، صابرا عن كل ما لقي ويلقى من أجل ذلك ، من عنت وملاحقات . وقد تظافر كلّ ذلك على تعجيل عوامل الهرم ، وأسباب الضعف اليه ، وكان من ذلك ما كان ، ممّا أضنى جسمه وأوهن قواه وأقعده عن مواصلة المسيرة في طريقه المعهود ، وحكم عليه بملازمة المؤخّرة ، والى أن يلقى وجه ربه .

غير أننا ، وان كنا نقرّ بكل ما تقدّم ، فاننا نستبعد أن يكون لتوقّف الشاعر في أواخر أيامه — ان كان قد توقف حقا — عن كتابة الشعر ، يعود الى ذلك وحده .
ويرجّح لنا ما نذهب اليه أننا نرى كثيرا ممّن عاشوا حتى عمّروا ومع ذلك استمروا يقرضون الشعر ويكتبون النثر (1) .

---

(1) من المتقدمين : لبيد ، والنابغة الجعدي ، والحطيئة ، وغيرهم ، ومن رجال عصرنا الكاتب مخائيل نعيمة .

كما أن المؤمن من جهة أخرى يملك من الطاقات الروحية الصادقة ما يجعله أقوى من الاستسلام الى المرض والعجز ، وأعظم من أن يحني رأسه أمام الشدائد والملمّات، مما يستدعي من الدّارس البحث عن تحليل آخر لهذه الظاهرة .

ويمكن القول أن سكوت الشاعر ذلك ، لم يكن بباعث العجز والهرم فحسب ، كما قد يتوقع بعض الناس ، ويحاول الشاعر أن يتلفّع به من جهته ، وانما قد يكون مرد ذلك الى عدم توفّر بعض دوافع القول أمام الشاعر .

أتراه ينظم في المجال الذاتي . وقد عرفنا أن الشاعر من أبعد الناس على هذا النوع من الشعر ؟

وهل تراه ينظم في الميدان الاجتماعي ، وقد تبين لنا أنه كان في معظم مراحل حياته واحدا من فرسانه ؟ ألم يكن هو القائل ؟

أيها الشعب أنت موضع شعري وشعوري لا زينب والرباب (1)

يبدو أن الشاعر حاول في السنوات الأولى للاستقلال أن يعود الى سالف عهده ، ولكنه لم يلبث أن انكمش على نفسه ، فلم كان ذلك ؟

أيكون ذلك لأنه أحس بشيء من الانتكاسة النفسية لما بدا له من مفارقات بين ماشب عليه ، وما أضحى يشاهده في كبره . لقد شبّ مناضلا في بيئة كان الناس فيها يتسابقون من حوله الى البذل والعطاء من أجل المبادىء والقيم أفطال به العمر حتى أمسى يرى هؤلاء الناس ، وكأنهم أصيبوا بما أقعدهم عن الاستمرار في ذلك النهج ! يضاف الى هذا أن الشاعر نشأ نشأة طبعت شخصيته على القناعة بالقليل من متاع الدنيا ، وترعرع في بيئة كانت المادة لدى معظم أفرادها لا تساوي شيئا ذا بال كبير ، الى جانب ما كانت تحظى به لديهم المثل والقيم من اهتمام بها وحرص عليها ، فعاش الشاعر حتى صار هؤلاء الناس وهم يتزاحمون أكتافا ، ويتهالكون نفوسا ، ويتهافتون تهافتا ، على المنافع الخاصة ، متخلين أو يكادون عن كثير من الحماس للقيام بواجباتهم الاجتماعية والوطنية .

وبالرغم من أن الفنان مجبول في معظم أحواله على الوفاء برسالته الفنية ، وعدم الرضوخ لما يعترض طريقه من أوضاع اجتماعية ، تقف حائلا بينه وبين القيام بها ، بالرغم من كل ذلك ، فان محمد العيد عرف بضعف هذا الجانب في شخصيته ، وهو في ريعان الشباب ، فحرى به أن لا يسعفه ذلك وهو في عهد الشيخوخة

(1) الديوان ، ص : 261 .

يصارع المرض ويعاني من أعراض الهرم ، انه لم يجد في نفسه طبعا أصيلا يساعده على التمرّد ، ولا ألفى بين جنبيه طاقة الشباب تؤازره على ذلك ، فقد جبلت نفسه على حبّ المسالمة والميل الى مجاراة المجتمع ، وأوهنت السنون ما يكون قد تبقى في صدره من عزيمة الشباب ، فلم يبق له والحال هذه الا أن ينسحب من الميدان ويولي وجهه شطر الخلوة التي ألفها طوال عزلته أثناء الثورة ، ليعزى النفس بما حققه شعبه من حرية ومن سيادة ويهتف قائلا :

قالوا سمعت بما جرى فأجبتهم	وطني استقل فلا أبالي ما جرى
حسبي سيادة دولتي في أمتي	وبلوغ شعبي حقه مستوفرا (1)

وبعد فاننا لا نشك في أن لكل عامل من العوامل المتقدمة أثره في توجيه الشاعر نحو الوجهة التي ولّى وجهه شطرها ، وظل عليها رهين بيته ، يعاني من جملة من الأعراض الجسمية والنفسية .

ولا يفوتنا في ختام هذه الفقرة أن نلفت الانتباه الى أن كل ماسقناه من علل لتفسير ظاهرة سكوت الشاعر في هذه الفترة، فانه لا يعدو في الحقيقة أن يكون مساهمة في تسليط بعض الأضواء على هذه الظاهرة ، وقد يمكن البحث فيها بعض الدارسين الى الوصول فيها بفضل عامل الزمن الى رأى يكون أكثر دقة وأشدّ قربا الى الحقيقة .

ومهما يكن من أمر فقد ظل الشاعر يقضي نصف عامه الأول ببيته في بسكرة ، ثم يتحول الى باتنة فيقضي بها نصف عامه الثاني أو معظمه ، واستمر على ذلك الحال حتى لقي وجه ربه ـ رحمه الله ـ راضيا مرضيا وذلك بمستشفى مدينة (باتنة) يوم الأربعاء السابع من شهر رمضان المعظم سنة 1399 هـ الموافق ليوم 31 جويلية 1979 . ونقل جثمانه الى مدينة بسكرة حيث دفن بمقبرة (العزيلات) وذلك في اليوم التاسع من شهر رمضان الموافق لليوم الثاني من شهر أوت .

لقد غادر محمد العيد الحياة الدنيا ورحل عن الناس ولم يخلف وراءه مما يتهالك عنه المتهالكون من حطام الدنيا مايسد لبضعة أيام معدودات ، أو من تركهم بعده من الأعقاب وهم خمسة أبناء ، ثلاثة ذكور وبنتان ، وأم لهم عجوز . وأما ماخلفه من الآثار العلمية فانه من الغنى وشرف القصد ، ما نحسب أنه سيخلد ذكراه في قلوب الأجيال .

* * * * *

---

(1) من مطولته (من وحي الثورة والاستقلال) الحلقة (5) المعرفة ، السنة : 1 ، العدد : 10 ، أفريل 1964 ، ص : 47 . ينظر الملحق .

وان من أهمّ آثار الشاعر العلمية شعره [1] وأهم ما وصلنا منه ، ديوانه ، وقد جمعه لأول مرة تلميذه السيد أحمد بوعدو [2] ، ثم سلمه الى الشاعر في عين مليلة سنة 1952 ، وهذا سلمه بدوره الى الشيخ البشير الابراهيمي نزولا عند رغبته بهدف طبعه [3] الا أن الديوان ظلّ مخطوطا حتى استقلّت البلاد ، وقامت وزارة التربية الوطنية وعلى رأسها الدكتور أحمد طالب الابراهيمي بنشره في طبعة أنيقة جيدة [4] ، وذلك باشراف لجنة من الأساتذة المحققين وهم : الشيخ حمزة بكوشة ، والشاعر جلول البدوي والدكتور صالح خرفي ، والأستاذ محمد الطاهر فضلاء ، وكان هذا الأخير يقوم الى جانب مساهمته في التحقيق ، بمهمة التنسيق بين هذه اللجنة وبين الشاعر .

وقد بدأت اللجنة عملها بجمع نتاج الشاعر من مصادر مختلفة ، يأتي في مقدمتها مخطوطة الديوان الآنفة الذكر التي كانت بحوزة الشيخ الابراهيمي ، الذي كان رحمه الله حريصا أشدّ الحرص على طبع هذا الديوان ، اعتقادا منه بأن شعر محمد العيد انما هو سجل صادق لمسيرة النهضة الوطنية الحديثة . وان بقاءه مجهول بعيد عن متناول أيدي القراء ، لايعد نقصا كبيرا في تصوير هذه النهضة ، وفي تخليد مآثرها للأجيال فحسب [5] ، وانما يعتبر الى جانب ذلك جحودا ونكرانا في تقدير جهود واحد من أبرز من كانوا الشعلة على طريق هذه النهضة ، طوال ما يقرب من نصف قرن .

وقد رجعت اللجنة في عملها الى جانب ذلك المخطوط ، الى كثير من الدوريات الوطنية التي كان الشاعر ينشر بها شعره . كما اتصلت ببعض زملائه وتلامذته ومعارفه وأقاربه ، كما ظلت على اتصال دائم بالشاعر لأخذ رأيه في توثيق ما يحتاج الى توثيق [6] .

وحاولت هذه اللجنة فيما يبدو أن تحافظ على الصورة الأصلية لديوان الشاعر حتى يبقى عمله قريبا منه ، ولذلك لم تقم بأكثر من الجمع والتصنيف والتبويب وتحقيق ما يجب تحقيقه .. وقد حافظت أيضا على ماكان يتصدر أو يعقب بعض القصائد من تعليقات ظهرت أثناء نشرها بالصحف ، بهدف توضيح بعض دوافع القصيدة ، أو الاشارة الى بعض أهدافها .

---

(1) للشاعر بعض الخطب ومجموعة من المقالات المبثوثة في بعض الصحف ، كماكتب بعض المسرحيات النثرية .
(2) ولد بالجزائر العاصمة سنة 1923 وما يزال حيا يرزق ، وللشاعر أبيات ينص فيها على انه راوية شعره ، ينظر الملحق .
(3) أفادني بهذه المعلومات جامع الديوان .
(4) ظهرت الطبعة الاولى سنة 1967 ، ثم اعيد طبعه طبعة مصورة سنة 1979 .
(5) ينظر كلمة التقديم بديوان الشاعر ص (ى) .
(6) أفادني بهذه المعلومات الأستاذ محمد الطاهر فضلاء .

ومما لاشكّ فيه ، أن هؤلاء المحققين قد بذلوا جهودا معتبرة لاخراج هذا المشروع على الصورة التي ظهر عليها ، وهي لا تخلو على كل حال من بعض الايجابيات ، بيد أن الذى يمعن النظر في الخطة التي اعتمدها أولئك المحققون ، يلحظ أنها لم تف بواحدة من الطرق المشهورة في مثل هذا العمل ، ومن أهمّها :

1 — الطريقة التاريخية التي ترتب فيها القصائد ترتيبا زمنيا قد لا ينظر فيه الى موضوعاتها وأغراضها . ومن أهم فوائدها أنها تيسر للقارئ الوقوف على مراحل تطور شعر الشاعر والسير معه خطوة بعد خطوة ، وهو يحقق ذاته في مجال الفن والابداع .

2 — الطريقة التاريخية الموضوعية التي تأتي فيها القصائد منظمة تنظيما تاريخيا ، موضوعيا ، بحسب عمرها الزمني ، وبحسب أغراضها ومعانيها ، فتتابع فيها القصائد الواحدة بجانب أختها ، مطمئنة في مكانها غير قلقة فيه . وكأنهن لآلي منضدة في عقد جميل . ومن محاسن هذه الطريقة أنها تسهل للقارئ الوقوف على تطور الشاعر وادراك مواطن اجادته ، ومواطن قصوره ، وهو يعيش معه على محور واحد تجاربه المتشابهة التي يصل بينها خيط نفسي مشترك أو متقارب .

وهذه الطريقة هي التي أصبحت أكثر رواجا من غيرها في دواوين المحدثين والمعاصرين (1) .

3 — الطريقة التقليدية التي تقوم على تصنيف القصائد بحسب حرف الروى ، وهو آخر حرف من حروف القافية فتجمع في باب واحد كل القصائد ذات القافية الواحدة ، فالقصائد (الهمزية) يشملها باب ، و (البائية) تنطوي في باب آخر وكذلك دواليك . ولا يخفي أن معظم دواوين القدماء وبعض المحدثين (2) تعتمد على هذه الطريقة ، وهي لا تخلو كسابقتيها من محاسن من بينها : أنها تسهل على قارئ الديوان الذى يكون يحفظ بعض نتاج الشاعر ، ولا يعرف لأيّ قصائده يعود ، أن يعثر على ضالته . وذلك بعد عملية بسيطة تتمثل في رجوعه الى الباب الذى يشترك مع ما بين يديه في الروى الواحد . الا أن هذه الطريقة لا توفر للمتلقي ما توفر له الطريقتان السالفتان من الوقوف على تطور فن الشاعر وحسن فهم مقاصده . ونشير الى أن محققي ديوان الشاعر قد حاولوا أن يأخذوا بالطريقة الموضوعية المحورية (3) .

---

(1) واذا كان محققوا ديوان شوقي قد أغفلوا هذه الطريقة ، فان المشرفين على ديوان حافظ لم يفتهم ذلك وخاصة في الجزء الثاني منه .

(2) من بين المحدثين ديوان شوقي وخاصة أجزاؤه الثلاثة الاولى ، أما جزؤه الرابع فلم يأخذ بالطريقة التي ذكرنا ، وانما كان عبارة عن مجموعة من القصائد والمقطوعات جمعت بعد وفاة صاحبها . ينظر (الشوقيات) .

(3) أما جامع مخطوطة الديوان فقد رتبها بحسب حروف الروى وذلك في جزئين .

الا أنهم لم يستطيعوا الوفاء بها من جانبيها البارزين ، لا من جانب الموضوع ، ولا من جانب المنطق ، وجاءت المحاور دونما منطق تتسلسل على ضوئه المعاني ، ودونما موضوع تتوحد في عقده الجزئيات ، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى يغني قليلها عن الكثير منها .

فمن ناحية التسلسل المنطقي تتابعت المحاور على هذا النسق : (أدبيات وفلسفيات) (أخلاقيات وحكميات) (اجتماعيات وسياسيات) (اللزوميات) (الاخوانيات) (الثوريات) (المراثي) . ونظن أن هذه المحاور بهذا التتابع لا تتوفر على ذلك الترابط المنطقي الذي يجعل القارئ يحس أن المحور الأول يمهد للذي يليه ، وأن المحور الثاني يتوج الذي سبقه ، كما يكون ذلك في كل عمل منسجم متلاحم .

وأخال أنه ليس هناك من رابط منطقي يجعل (اخلاقيات وحكميات) تتوسط مابين (اسلاميات وقوميات) التي تتقدم عليها ، وبين (اجتماعيات وسياسيات) التي تأتي بعدها . وقد جعل هذا التنظيم كل مجموعة من هذه المجموعات قلقة في مكانها غير منسجمة مع جارتها .

كما أن (الاخوانيات) الي جانب (الثوريات) وهذه الى جانب (المراثي) .

ان هذا النسق الثلاثي لا يحتاج الى تأكيد للوقوف على ما يظهر عليه من نشاز ، اذ من الواضح الجلي أنه ليس من رابط يربط بين الثوريات والمراثي الا الحزوف . كما أن (اللزوميات) وهي — كما سبقت الملاحظة — شكل من الأشكال الفنية ، أكثر منها موضوعا ذا معاني مشتركة ، لا تخضع هي الأخرى لذلك التسلسل الموضوعي المنشود من نحو ، ولا يستقر بها المكان من نحو ثان ، وهي تتوسط ما بين (اجتماعيات وسياسيات) من جهة و (اخوانيات) من الجهة الأخرى ، اذ ليس هناك من علاقة واضحة تربطها ، لا بهذه ، ولا بتلك .

وليس من المنطقي كذلك أن تجتمع تحت هذا العنوان (اخلاقيات وحكميات) [1] مثل هذه القصائد (تحية العلماء ، أيها الرافعون القصور ، في ظلال الخير) ، وهي كما هو واضح من عناوينها تعالج قضايا اجتماعية ووطنية ، وليس للأخلاق فيها الا الوقفة العجلى ، ولا للحكمة فيها الا البيت المفرد . ولنمضي مع الديوان فستوقفنا في الصفحات الأولى قصيدته (صدى الصحراء) [2] في مجموعة (أدبيات وفلسفيات) وقد مر معنا أنها دعوة حارة الى النهضة ، فكان من المفروغ بذلك ، أن تكون في غير هذا المكان . ونرى أن قصيدة (هذه خطوة) [3] تستقر الى جانبها ، وقد قالها الشاعر في تكريم الأستاذ

---

(1) الديوان ، ص : 245 .
(2) الديوان ، ص : 12 .
(3) الديوان ، ص : 14 .

الهادي السنوسي بمناسبة صدور الجزء الثاني من كتابه (شعراء الجزائر في العصر الحاضر)[1]، فان موضعهما لذلك ليس هذا المكان .

ويعثر الدارس الى جانب هذين العملين على القصيدتين (يادار)[2] و (أسطر الكون)[3] وكلتاهما تصور حيرة الشاعر وتبرمه من الحياة . وواضح من هذا أن النقيض يقف الى جانب النقيض ، اذ النقلة بعيدة والاختلاف بارز ما بين هذين القصيدتين وبين قصيدة (صدى الصحراء)[4] . فالشاعر يستهل كلامه في هذه الأخيرة على لسان جريدة (صدى الصحراء) فيقول :

صفا العيش لي واعتد بعد ظلالي	فما لتكاليف الزمان ومالي ؟
صفا العيش لي وازدان روض مواهبي	وأبدع فضلي واستبان كمالي
ولانت لي الأيام وهي عصيبة	فمالي لا أزهو بنظرة حالي ؟

ويقول الشاعر في (أسطر الكون) :

سئمت على شرخ الشباب حياتي	فحرت، ولم أملك عليّ ثباتي
أرى حظ أرذال النفوس مواتيا	وحظ كريم النفس غير مواتي
فأوجس في نفسي من الدهر خيفة	لعلمي بأن الدّهر ذو غمرات

وأحسب أن القارئ الذى يقرأ هذين القصيدتين ، الواحدة تلو الأخرى وينتقل من موضوع هذه الى موضوع تلك ، سيشعر — ولا شك — بهوة ، وسيحس لا محالة بما يحس به من يكون تحت ظلال من أنسام التفاؤل ثم تلفح وجهه فجأة ريح التشاؤم والحيرة .

وان من يحاول أن يتعرف على بعض أسباب هذا الاضطراب الذى وقع فيه محققوا الديوان فانه لا يحتاج الى جهد كبير ليدرك أن من أهمّ ما أدى بهم الى ذلك ، وحال بينهم وبين تنظيمه تنظيما دقيقا ، ما امتاز به شعر الشاعر من تنوع أغراضه وتداخل موضوعاته وتشابك بعضها ببعض الى الحدّ الذى يصعب فيه في كثير من الأحيان تحديد هوية هذه القصيدة أو تلك ، على وجه الدقة ، فالمضامين متداخلة في نفس الشاعر ومتلاقية في وجدانه قبل أن تتلاقى وتتلاحم في الأشكال اللفظية والصور الفنية .[5]

---

(1) صدر سنة 1927 ، وهي منشورة به ، ص 177 .
(2) الديوان ، ص : 7 .
(3) الديوان ، ص : 10 .
(4) كان الشاعر قد نظم هذه القصيدة بمناسبة صدور جريدة (صدى الصحراء) ، ينظر الديوان ، ص : 12 .
(5) ينظر د . شكري فيصل (الموضوع في شعر محمد العيد) المجاهد الثقافي العدد : 12 ماي 1970 ، ص : 65 وما بعدها .

اننا لا ننكر أن الشاعر كان ينطلق في شعره من هذه الكليات وهي : الوطن والاسلام والمروءة والانسانية وهي منطلقات أساسية في شعره ، الا أنه بمجرد ما يشرع في معالجة واحدة من هذه الكليات حتى تهجم عليه جميعها دفعة واحدة وتتزاحم في ذهنه وبين يديه ، تريد كل واحدة منها أن تسبق أختها الى قلبه فتلجه قبل غيرها ، والى لسانه فيلهج بها ، وتمضي تتزاحم وتتناكب في ساحة الفكر والوجدان بعضها بازاء بعض ولا يجد الشاعر من سبيل أمام ذلك ، وكل تلك المعاني قريبة الى وجدانه ، الا أن يفتح صدره لهذه ، ويرحب بالأخرى ، ويعرض الى ثالثة ورابعة ، كل ذلك وهو يحذر من أن يرضى جانبا على حساب الجانب الآخر ، شأنه في ذلك شأن الأب أمام أبنائه ، يعطف على هذا ويشفق على ذلك ، وقصارى ما يرجوه أن يشملهم جميعهم بعطفه وحنانه . ونرى أنه من الأحسن لبيان ذلك ، أن نقف على واحدة من قصائد الشاعر في محاولة للتعرف على مضمونها ، لندرك بوضوح ما نشير اليه من هذا التمازج والتلاحم مابين معانيها ، تلك الخاصية التي توشك أن تطبع بطوابعها معظم نتاج الشاعر .

ولتكن هذه القصيدة المقترحة من شعره المتأخر حتى يمكن أن نتأكد من استمرارية هذه الظاهرة لديه ، وحتى لايقول قائل ان ما نذهب اليه من تمازج الموضوعات في شعر الشاعر ، انما هي وسمة قديمة كانت واضحة في شعره في مراحله الأولى قبل أن ينضج فنيا ، ولكنه لم يلبث أن تخلص منها فيما بعد الى تحقيق وحدة الموضوع في شعره .

فالقصيدة اذن هي (هذه قمة الفتوة) [1] وقد قالها الشاعر في سنة 1965 بمناسبة اختتام السنة الدراسية بالمعهد الاسلامي بباتنة ، وهي مثبتة في الديوان في محور (أخلاقيات وحكميات) ، وهي الى باب (اسلاميات وقوميات) أقرب كما يتأكد القارىء من موضوعها الذى لايستطيع رده الا الى فرع من فروع كلية العقيدة الاسلامية ، واذن ، فهل تمركز هذا العمل على معالجة هذه الكلية كما يفهمها بعضهم عبادات وشعائر وحسب ، أم كانت شيئا آخر غير ذلك ؟

يظهر أن محمد العيد يفهم اهتمامات الدين الاسلامي كما هي على حقيقتها ، فهما شموليا واسعا ، يدخل في نطاقها الفرد وحاجاته ، والمجتمع وقضاياه ، والوطن وهمومه ، والأمة وتطلعاتها .

---

(1) الديوان ، ص : 265 .

ولهذا نراه يستهل قصيدته بمناجاة يجريها بينه وبين شعره ، ثم يخلص منهـا الى الحديث عن الدين والعلم والعمل والأخلاق ، يدعو الشعب الى التمسك بعقيدته ويحثه شبابا وكهولا ، رجالا ونساء على طلب العلم والاقبال على الحياة ، ويجمع بين ذلك وبين محافظته على ذاته وغيرته على تراث أمته ، وينتقل من ذلك الى الاشادة بثورة شعبه المجيدة وبما صنعته من مفاخر وما حققته من انتصارات ، توجت ببناء الدولة الجزائرية الحرة التي كانت الوحدة الوطنية من أهم دعائمها وأسسها ، ثم يأخذ به الشعور القومي فيقف وقفة متأنية يؤكد فيها على الروابط المتعددة التي تجمع ما بين أقطار الأمة العربية على امتداد الوطن العربي ، دون أن ينسى وهو يتحدث على ذلك أن يفرد فلسطين بوقفة خاصة يصوّر فيها بعض الملابسات التي اكتنفت قضيتها ، وحتى يزيل ما يمكن أن يحس به القارئ لحد الآن من أن الشاعر يكاد يقتصر على بعض القضايا الوطنية والقومية يسارع الى الحديث عن تلك الصلات التي تربط وطنه وأمته بقضايا الانسان في أفريقيا وفي آسيا وفي أوروبا .

وبذلك يأتي الشاعر في عمله هذا على تلك الكليات الأربعة التي قلنا منذ قليل ان شعره يتمحور عليها في معظم الأحيان وهي : الوطن والاسلام والعروبة والانسانية ، ان القصيدة تجمع بين تلك الكليات في نظرة شمولية متماسكة وفي وحدة نفسية واضحة تتداخل فيها الرغبات والتطلعات ويتعانق فيها الماضي والحاضر والمستقبل على درب واحد .

ويمكن القول أن الشاعر استطاع من خلال هذه القصيدة أن يعرفنا ببعض سمات منهجه في تناول الموضوعات الشعرية ، ذلك الذي يبرز بصورة واضحة في تداخل المضامين وتمازجها في شعره ، الأمر الذي يجعل من الصعوبة بمكان أن تنتظم القصائد في نتاجه تنظيما محوريا منطقيا دقيقا ، وذلك ما نحسب أنه كان حائلا كبيرا بين محققي الديوان وبين البلوغ اليه .

ونشير من ناحية أخرى أن اغفال الطريقة التاريخية في تنظيم محتوى الديوان كان له أثره البارز في بلبلة ذهن المتلقي وتشويشه ، وفي تفويت فرصة الفهم الجيد عليه ، لمقاصد الشاعر والوقوف على مراحل تطور فنه . وقد يقول قائل : ان اعتماد المحققين على الطريقة المحورية قد يعفيهم من غيرها ، والواقع أنه لا مانع يمنع المحقق من الجمع بين الطريقتين في وقت واحد .

ويمكن القول أن يتعذر ذلك فيما بين المحاور المختلفة ، ولكنه لا يتعذر بلوغه بين قصائد المحور الواحد ، هذه التي لا نرى مانعا يمنع من ترتيبها ترتيبا زمنيا .

وان الأمثلة على انعدام التقيد بالترتيب الزمني كثيرة في الديوان ، نذكر من بينهما أننا نعثر في محور (أدبيات وفلسفيات) على قصيدة (وداد) في الصفحة 31 وقد قالها الشاعر سنة 1937 ، ثم نمضي فنلتقي في الصفحة 58 قصيدة (صوت من الغيب) التي قالها الشاعر سنة 1936 ، والمفروض أن تأخذ مكانها في الديوان قبل سابقتهما . والى هنا فان البون ليس كبيرا بين هذين العملين .

ونمضي مع محتوى الديوان فنقف في مجموعة (اسلاميات وقوميات) على قصيدة (ذكرى المولد النبوى) ، وذلك في الصفحة 75 ، وقد نشرت سنة 1936 ثم نعثر بعدها في المحور نفسه ، في صفحة (85) على قصيدة (تحية الشهاب للشباب) ، وقد نشرت سنة 1926 . فهذه متقدمة عن تلك زمنيا ، بعشر سنوات ، ولكنهما متأخرة عنها مكانيا ، بعشر صفحات . والأمثلة على ذلك كثيرة . ونشير من نحو آخر أن قصائد ومقطوعات كثيرة جاءت في الديوان غفلة من التاريخ ، ونحن نعرف أن الشاعر كان ينشر شعره في الصحف الوطنية ، وقد مرّ معنا أن المحققين رجعوا في عملية جمع شعره الى هذه الدوريات ، فكان حريا بهم — والأمر كذلك — أن يثبتوا تواريخها وأماكن نشرها ، وانهم لو فعلوا ذلك لكانوا يكونون قد قدموا خدمة جليلة للمتلقّي العادى ، وللباحث المتخصص ، تساعد كلّا منهما على بلوغ مآربه ، بصورة مأمونة ودقيقة ، كما يكونون من نحو آخر قد قاموا بجهد محمود تعود ثماره بالنفع العميم على تاريخ الأدب الجزائرى بوجه عام .

وقد أغفل هؤلاء المحققون من جهة أخرى قسما ليس بالقليل من نتاج الشاعر لم يدرجوه في الطبعة الأولى في الديوان ، كما لم يتدارك ذلك في طبعته الثانية .

وقد لفت ذلك نظر بعض الدارسين فاستدرك على الديوان بعض مالم يظهر فيه من نتاج الشاعر [1].

وقد عثرت من جهتي على مجموعة أخرى من شعر الشاعر (قصائد ومقطوعات وأناشيد ، وأبيات مفردة) لم تدرج في طبعتي الديوان . وقد أفردت لجميع هذا الشعر المستدرك ملحقا خاصا به ، يجده القارئ في ذيل هذه الرسالة .

كما أن هناك جزءا آخر من شعر محمد العيد لم يدرجه المحققون في الديوان ويمكن أن يكون مرد ذلك لأنه سبق أن ظهر في طبعات مستقلة ، ومنه :

---

(1) على آقران (المجاهد الأسبوعي) ، العدد : 399 / 24 ديسمبر 1967

1 ـ مسرحية (بلال بن رباح) وهي في فصلين نظمها الشاعر لتلامذة المدارس تمكينا للروح الدينية في نفوسهم وتعزية للشعب الجزائرى على بلواه [1] .

2 ـ قصيدة مطولة بعنوان (من وحي الثورة والاستقلال) [2] كان الشاعر قد نظمها أثناء الاستقلال وكان ينوى أن يبلغ بها الى الألف بيت ، فتكون بذلك (ألفية الجزائر) [3] التي تخلد مفاخر الأجداد ومآثر الأحفاد على طريق النضال والجهاد ، الا أنه توقف فيها قبل أن يصل الى ذلك العدد ، وان كان قد وصل الى تصوير أكبر قسط من تلك الغاية المرجوة منها ، فجاءت في (456) بيتا .

ويمكن أن يستنتج من كلمة (الثورة) في العنوان ونحن في الاستقلال أن الشاعر كان يريد أن يستدرك ما يكون قد فاته في وقته من تسجيل لبطولات الثورة والثوار ابان صلتها ، وقد حاول أن يصور فيها على كل حال بعض مراحل الكفاح الوطني ، منذ الغزو الفرنسي ، مركزا فيها ، بوجه خاص على تخليد جهاد الشعب وبطولات ثورته الكبرى التي تعد بحق تتويجا لسلسلة من الثورات الوطنية، ومقدمة من نحو آخر للانطلاقة الجماهيرية الكبرى ، على طريق الجهاد الأكبر نحو آفاق الغد الأفضل ، الذى تعلي صرحه اليوم سواعد الأجيال تحت راية الوحدة والعزة والنضال .

ويضاف الى هذا النتاج ما قاله الشاعر بعد صدور الديوان ، وقد مرّ معنا أنه أصبح مقلا في الآونة الأخيرة من حياته لأسباب أحسب أنها لم تعد بعد الذى تقدم بشأنها مجهولة . ولذلك فاننا لم نعثر له من شعر هذه الفترة الا على قصيدتين سبق الوقوف عندهما ، ومما نرجوه ونلح عليه أن لا يبقى هذا الشعر مغفلا منسيا وأن يجمع الى ديوان الشاعر في طبعته المقبلة ، على أن يعنى فيها بتحقيق نتاجه تحقيقا علميا ، حتى تكون صورته لدى قارئه أكثر دقة وأوفى حلة ، وأقرب الى الكمال ، وأن يتدارك في هذه الطبعة ما أشرنا اليه مما افتقدناه في الديوان بطبعتيه السابقتين ، من طرق التحقيق السليم وأساليب الاخراج الجيد .

ونخلص من هذه الوقفة عند أهم مصادر وآثار محمد العيد الشعرية الى الحديث عن اهتماماته ، وأبرز أغراض شعره ، وهذا ما ستحاول الفقرة التالية أن تعرض له

---

(1) طبعت بالمطبعة العربية الجزائرية سنة 1938 .

(2) نشرت في مجلة المعرفة الجزائرية في (6 حلقات) تبدأ في (العدد : 6 / نوفمبر 1963 . وتنتهي بالعدد : 11 ـ 12، ماى ـ جوان 1964) ، وقد أثبت جزء يسير منها في الديوان، ينظر ، ص : 443 .وينظر الملحق .

(3) روى لي الشاعر هذه الرواية .

ان الذى يتصفح ديوان الشاعر وينعم النظر في محتواه بحثا عن القضية الأساسية التي تشغل بال صاحبه سيدرك بوضوح ان العالم الذى يشغل اهتمام الشاعر ، ويملك عليه عقله ووجدانه ، انما هو عالم تدور مضامينه وتتركز انشغالاته حول محاور أساسية يمكن ردها الى أربعة ، لايكاد الشاعر يغادرها الا ليعمقها ، ويمكّن لها . تلكم هي الوطن والاسلام ، والعروبة ، والانسانية ، وهذه هي الكليات الأربعة الكبرى التي تغلب على نتاج الشاعر وتطبع معظمه بسماتها وشياتها .

ويمكــن أن يلمح الى جانب هذه المضامين الأساسية في نتاجه بعض الأغراض التقليدية المعروفة في الشعر العربي القديم ، من وصف ، وحكمة ، واخوانيات ، ومراثي ، وما الى ذلك . بيد أن الذى يلفت النظر في محتوى هذا النتاج بوجه عام ، أنه يكاد يخلو مما يصور عواطف الشاعر الشخصية وأحاسيسه الذاتية بمفهومها الضيق المحدود ، فهل لذلك من سبب ؟

ان الشاعر كان كمعظم اخوانه من الجزائريين يعيش حياة ، لم يكن يحياها ملكا لنفسه ، وانما كان يحياها جنديا ، الى جانب أمته في صراعها مع المعتدين الغاصبين . فأنساه ذلك الاستغراق في الأحداث الوطنية والقضايا المصيرية ذاته ، وشغله عن سماع صوت وجدانه الخاص .

يؤكد الشاعر ذلك فيقول : (ان المجتمع في تلك الفترة فرض علينا أن نطرق مواضيع معينة ولذا جاءت أشعارنا ترفيهية تربوية اجتماعية) (1).

كما لا يستبعد أن يكون تدين الشاعر وتقواه ونزعته الصوفية وارتباط مفهومه لوظيفة الشعر بمفهوم القرآن لها ، لا يستبعد أن يكون لذلك كله ، أثره في الحيلولة بين الشاعر وبين أن يلج ذلك الحمى المشوه .

وان كنا نرجح أن أكبر هذه العوامل تأثيرا على الشاعر في هذا المجال هو العامل الديني ، دون أن يعني ذلك أننا لا نشاطر الدكتور سعدالله الرأى في ما ذهب اليه من أن الشاعر كان متأثرا في ذلك الاتجاه الذى سار فيه في شعره بآراء بعض المصلحين وببيئته الاجتماعية عموما (2). وان كان ذلك في الحقيقة لا يقلل من ميلنا الى تغليب العامل الشخصي في هذا المجال على غيره ، ويرجح ذلك أن الشاعر نفسه كان مصلحا . فكان ذلك النزوع لذلك نابعا عن ايمان وقناعة ذاتية

---

(1) الشعب الأسبوعي ، 1976/10/23 .

(2) ينظر : محمد العيد آل خليفة ... ص : 64 ـ 112 .

داخلية . كما أننا نجد من جهة أخرى أن بعض زملائه الشعراء يشاركه في عامل الاصلاح وفي عامل البيئة ومع ذلك يفوقه في هذا الغرض الذاتي في شعره [1].

واذن فيم يمكن تعليل ذلك الاتجاه لدى الشاعر ، ان لم يكن بتأثير العامل الشخصي الذى يعد من أبرز مظاهره ، الروح الدينية التي تمثلها الشاعر تمثلا مخلصا ، ففاضت في مواقفه وفي شعره . غير أن هذا لا يمنع من أن يكون محمد العيد قد استجاب في بعض فترات حياته الى نداء ضميره الخاص ، وقال بعض الشعر في هذا الباب [2].

غير أن الظروف التي كانت تعيشها أمته يومئذ ، لم تكن تسمح له ولا لغيره من الشعراء الجزائريين ، أن يستجرأ على نشر هذا اللون من الشعر على الناس ، ان تحركت نفسه اليه في بعض الأحيان ، وأقدم على نظمه [3].

لقد كان المجتمع الجزائرى آنذاك — وسيبقى في حاجة الى حصانة دينية وأخلاقية — يرى أن التمسك بالدين من أهم عوامل المحافظة على الذات ، ومن أبرز عوامل الانتصار ، ولذلك لم يكن يتساهل مع من يتهاون بالدين وبالأخلاق والقيم الاسلامية . وكان يسحب ثقته من كل من رأى فيه ما يتجافى مع مبادئ العقيدة ، وما ترشد اليه من فضائل ومثل . واستجابة لهذه العوامل ، وبدافع المعايشة الوجدانية من الشعراء لواقع شعبهم ، كان هؤلاء يحسون أن الحديث عن الذات الفردية ، غناءً أو بكاءً ، في ذلك الوقت الذى كان فيه الشعب يلاقي ما يلاقي من صنوف الذل والبؤس والقهر ، انما هو أمر تأباه النفس الكريمة ويجفوه الوطني المخلص . وهذا ما يفسر للباحث ما قد يلحظه من خفوت صوت العواطف الذاتية في نتاج الشعراء الجزائريين عموما [4].

---

(1) ينظر خاصة الأمين العمودي ، وأحمد سحنون .

(2) أفادني الشيخ حمزة بوكوشة أن الشاعر عاش تجربة خاصة أيام كان طالبا بتونس ، وفيها نظم مقطوعته (قضى الله تعذيبي بها) ، كما نظم ببسكرة في هذا المجال أيضا قصيدته (غزالة تحنو الى غزال) . ينظر الملحق

(3) المساجلة الشعرية التي دارت بين الشعراء الثلاثة : أحمد سحنون ، جلول البدوى ، ومحمد العيد في هذا الغرض مشهورة . وقد نشرها ابن باديس في الشهاب وحاول أن يوحي في ذهن المتلقي بأنها كانت رمزية ولم تكن حقيقية ، ومع ذلك فقد اتخذ منها خصوم الاصلاح ذريعة للتشهير بالحركة الاصلاحية والنيل من سمعة رجالها . كما فعلت ذلك جريدة الطرقيين (الدين الخالص) .

(4) ينظر د . صالح خرفي (الشعر الجزائرى) ، ص : 7 .

ويأتي في مقدمة هؤلاء في هذا المجال الشاعر محمد العيد، فقد مات والده، ثم لحقت به والدته، ثم تبعهما اخوانه الأربعة، الواحد تلو الآخر، وبدون شك يكون الشاعر قد بكى هؤلاء الأقارب بكاء حارا، وحزن عليهم حزنا مضنيا ظل معه حتى وفاته، الا أننا لم نعثر على أي أثر لذلك في شعره، فبم يمكن تفسير ذلك ؟

لقد كان فيما يظهر بكاء الشاعر على أولئك بكاء صامتا، بدون نواح، وحزنا عميقا اخترنه في داخله ودفنه في قلبه، صابرا على لواعجه.

ولعله يكون قد سكب ذلك في بعض الأشعار ولكنه احتفظ به لنفسه، وأبى أن يذيعه في الناس، على عادته في اخفاء مشاعره الذاتية ... فيكون بذلك كغيره من الناس كان يسمع صوت وجدانه، ولكنه لم يكن يود أن يسمع هذا الصوت غيره من مواطنيه، في وقت كان يعيش فيه هؤلاء ماأعظم من ذلك وما أجل ... انهم يعيشون مأساة وطن يرصف في أغلال الأسر، وتكبله قيود الاحتلال. ولعل هذا مايفسر لنا كثرة مراثيه وتهانيه لعديد من الرجال، يخلد فيها مواقفهم الوطنية والقومية والانسانية في الوقت الذي تسجل فيه غيابا مثيلاتها فيمن تربطهم روابط شخصية قويه به، ويعلل ذلك الشاعر نفسه فيقول : " ان ذلك الموقف الذي اتخذته وذلك المنهج الذي التزمت به في شعري، انما هو تعبير عن وجدان الأمة، واني وان كنت قد قلت شعرا في بعض الأشخاص، فلأني كنت أعتبر ذلك جزء أساسيا من عملي الوطني والقومي ".(1)

وقد ترتب على هذه الظاهرة أن الدارس لا يعثر في شعره على مايصور حياته الشخصية بالقدر اللازم، وذلك لأن الوجدان الذي كان يغلب على الشاعر ويلهيه عن ضميره الفردي، انما هو الوجدان الجماعي ... وليس هو وجدان الجماعة الصغيرة (الوطن) فحسب، وانما هو وجدان الجماعة الكبيرة (الأمة) موصولا بكل ما يرتبط به، ويتفرع عنه، من عقيدة، وقيم، وحضارة، وتطلعات ...

وهكذا كانت هذه الكليات (الوطن، والاسلام، والعروبة، والانسانية) محاور أربعة يدور حولها معظم شعر محمد العيد، وتتواجد تلك الكليات في شعره الواحدة الى جانب الأخرى، متداخلة متكاملة يرفد بعضها بعضا، وتصب جميعها في مجرى واحد، وترمي الى أهداف واحدة هي الرغبة في معالجة الواقع والنهوض به.

---

(1) أفادني الشاعر نفسه بهذا الكلام.

ويمكن القول بدءا أن معظم مضامين شعر الشاعر جديدة ، خلافا لما يراه بعض الدارسين[1] ، شأنها في ذلك شأن معظم نتاج شعراء مدرسته .

ويحسن بنا قبل أن نمضي في دراسة الجانب الاسلامي في شعر محمد العيد الذى هو موضوع هذه الرسالة ، أن نتساءل عن مفهوم الشاعر للدين الاسلامي ؟ فهل الاسلام عنده عقائد مجردة وشعائر آلية ينتهي دورها بأدائها دون أن يكون لها ثمرة سلوكية على حاضر ومستقبل القائمين بها ، أم أنه ايمان عملي ، وعبادات تهذيبية ونظم تشريعية ، وقيم روحية ، تهدف الى غاية انسانية سامية ؟ وهل الاسلام قوة حافزة على القيام بالعمل الصالح ، وحركة دافعة الى الاقبال على الحياة وجهاد لتطويرها ، وتطلع الى ما أحسن وأفضل من سبل العيش فيها ، أم أنه خمول وخنوع وتواكل وعزوف عن وجوه السعي والكسب فيها ؟

ان محمد العيد الذى نشأ في بيئة دينية اصلاحية ، وعبّ حتى ثمل من الأفكار الاصلاحية ونهل ما شاء الله له أن ينهل من معين الثقافة الاسلامية الأصيلة ، لم يكن من العسير ولا من الصعب عليه الاهتداء الى وجه الصواب في هذا الأمر . لقد أمدته تلك المؤثرات الاجتماعية والفكرية التي خضع لها في تلك البيئة بمفهوم سليم للدين الاسلامي ، مكنه من الوقوف على حقيقته وادراك كنهه ، وأيقن بذلك أنه ليس فلسفة نظرية ميتافيزيقية تسبح في عالم التجريد ، بعيدا عن حياة الناس وجهادهم وصراعهم من أجل تحسين واقعهم . وانما هو دين عملي ومنهج سلوكي يتصل بالناس حيث يكونون ، يكون معهم في واقعهم الروحي وفي واقعهم المادى ، في حياتهم الفردية المحدودة ، وفي حياتهم الاجتماعية والانسانية الواسعة .

وانطلاقا من هذا المفهوم لحقيقة الاسلام مضى الشاعر يوظف مواهبه الفنية لتحقيق تلكم المقاصد النبيلة . وان الذى يدعم النظر في هذا الشعر الاسلامي بحثا عن القضية التي تستولي على عناية الشاعر فيه ، سينتهي به البحث الى هذه النتيجة ، وهي أن العالم الذى يشغل بال محمد العيد ويغلب على اهتماماته في هذا النتاج انما هو عالم الوطن وعالم الأمة وكل ما يتصل بهما ويتفرع عنهما من مقومات وقيم وقضايا .

ويؤمن الشاعر أن الوصول الى أهدافه في النهوض بالوطن وبالأمة انما يحسن أن يبدأ من التمكين للعقيدة الدينية في النفوس ، ولفت نظر الأمة الى ما تقوم

---

(1) د . أبو القاسم سعد الله (محمد العيد آل خليفة ...) ص : 239 .

عليه من طاقات روحية ومادية كبيرة ، وما تدعو اليه من قيم وفضائل أخلاقية، وما تحث على الأخذ به من أسباب العلم النافع، والعمل الصالح ، والاقبال على الحياة ، والانفتاح على الحاضر والاندماج في قضاياه ، والسعي الدائب لتحسينه والارتقاء به والافادة من كل ذلك في نهضة الأمة وتحريرها . وللوقوف على هذه الجوانب في شعره الاسلامي خصصنا الباب الثاني .

ونود قبل أن نمضي في دراسة ذلك أن نعرب عن رجائنا في أن نكون بما قدمنا ، في هذا الباب الذي بين أيدينا ، بفصوله الثلاثة ، قد وفينا بما وعدنا به من قبل ، في رسم الوجه الثاني للصورة ، التي نحسب أن التمهيد قد رسم وجهها الأول، وأن يكون بهذا وذاك قد اكتمل أطار الصورة التي نريد أن ندرس من خلالها شعر محمد العيد الاسلامي ، باهتماماته المختلفة التي ألممنا اليها منذ قليل، وذلك ما سنخلص اليه في الحين .

الباب الثاني
شعره الإسلامي

الفصل الأول

التمكين للعقيدة الإسلامية
والمنافحة عنها

الفصل الثاني

الإشادة بالحركة الإصلاحية
وكبار قادتها .

الفصل الثالث

الدعوة الى النهوض بالمجتمع في اطار
القيم الإسلامية

الفصل الرابع

التعاطف مع قضايا الأمة والذود عن
مقوماتها الشخصية

الفصل الخامس

الشخصيات الإسلامية .

الفصل الأول

التمكين للعقيدة الاسلامية والمنافحة عنها

مر معنا أن الشاعر كان قد دخل الحياة العملية أول ما دخلها من باب الحركة الاصلاحية ، هذه التي كانت من أكبر الفصائل الوطنية يومئذ ، مناهضة للعدو ، ومن أشدها فعالية في حركة النهضة الوطنية بمختلف مظاهرها وألوانها .

وقد أدرك قادة هذه الحركة منذ البداية أن مايودون النهوض به ، انما يجب أن يبدأ الانطلاق فيه ، من تحرير الدين من الخرافات ، وتحرير العقل من الأوهام ، وتحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي .

وكان محمد العيد بحكم مكانته في هذه الحركة قد اتخذ من تلك المبادئ منطلقات أساسية في شعره عموما ، وفي شعره الاسلامي بوجه خاص . لقد كان الشاعر يؤمن أن الوصول الى تلك الغايات ، انما هو مطلب لايمكن تحقيقه ، الا ببناء الذات الوطنية بناءا محكما ، يقوم أساسا على التمكين للعقيدة الدينية الصحيحة في النفوس ، ولفت أنظار الأمة : أفرادا وجماعة ، الى ما يقوم عليه الدين الاسلامي من طاقات روحية ومادية كبيرة .

واذن فان البحث في هذا الفصل سيتناول بالدراسة والتحليل ، ماجاء في نتاج الشاعر حول هذين المحورين :

1 ــ الاشادة بالاسلام والدعوة الى التمسك به .

2 ــ المنافحة عن العقيدة الاسلامية والتصدى المناوئين لها .

ونأتي الى أول هذين المحورين ، فنصادف الشاعر في بداية الطريق اليه ، يحاول أن يجلي جوهر الاسلام ويشيد بمحاسنه ، ويدعو مختلف قطاعات الأمة الى التمسك بعقيدتهم التي هي من أهم مقومات شخصياتهم ، ومن أنجح الوسائل في أيديهم وأجداها ، لدفع مايجثم على صدر بلادهم من كابوس الاحتلال الأجنبي .

وان من أول ما يلفت النظر اليه من جزئيات هذه الوحدة ، إشادة الشاعر برسالة الاسلام التي اختار لها الله الرسول محمدا (ص) ليبلغ للناس كافة ، دون تمييز بين فرد وفرد ، وجماعة أخرى ، ماتزخر به من مبادئ العدل والمساواة ، هذه المبادئ التي انقلب بفضلها ليل العالمين الحالك بالظلم والظلمات ، الى نهار مشرق بنور الحق وبقيم الاحسان . وانها شريعة الله المثلى التي لا يأمن الزيغ والضلال كل من لم يعتصم بنورها ويهتدى بهدى صراطها المستقيم . ويغمر قلب الشاعر الايمان ، بأن أمة هذا شأن دينها ، سيجلي حاضرها ــ لا محالة ــ رغم قتامته وشدة أهواله عن فجر مستقبل باسم عزيز . . يعبر الشاعر عن ذلك في معرض الاشادة بالنعم التي خصها الله برسوله الكريم فيقول :

واختص بالمنح العظام محمّـــدا — منهم فكان الخاتم المختـــار
آتاه قرآنا يحـــضّ على المـــدى — ويفصّـل الأحكـام والأخبا را
وشريعة تعطي الحقوق سويـــة — للناس لا ميزا ولا استئـثـا را
شمس من الأفق المقدّس أشرقــت — فارتدّ ليل العالمين نهـــارا
ومحجة بيضاء من لـم يعتصــم — بسوائها ضلّ السلوك وحـارا
هيهات يخزى المسلمون ودينهــم — علم الخلود يظـلل الأقطارا (1)

وأحسب أن استخدام الشاعر لكلمة (الحقوق) في هذا المقام بالذات الى جانب مايلازمها في دين الاسلام من (مساواة) هذه التي ألح على تجسيدها ، اثباتا ونفيا بجملة مـــن الكلمات هي (سوية ، لا ميزا ولا استئـثـارا) . أحسب أنه يقصد من وراء ذلك ، أن يوحي للمتلقي بما يدفعه الى وعي واقعه المشين ، وقيامه بالمقارنة بينه ، وبـــين ماهو من حقه في الاسلام ، من حرية وكرامة ، هذه الحقوق التي حرم منها ، نتيجة لسياسة الظلم والعدوان . فعسى أن يزيده ذلك تمسكا بعقيدته وغيرة عليها من جهة ، ويقربه من جهة أخرى الى مايهدف اليه الشاعر من حمله على رفض واقعه والثـورة علـيه .

ويقف الشاعر مرة أخرى عند هـذا المعنى في قصيدته (عيد الحرم) (2) موجهـا الخطاب الى جماعة الاصلاح حاثا اياهم على اقامة صرح النهضة على أسس من مبادىء الدين :

ياوفـد لا تـنم اللّيـــــا — لي في رباطك لا تـــنم
أجد المعارف فهي الســـد — يا موازيـــن القـــيم
وأشـد على الاســــلام أر — كان الفخـامة والعظـــم
دين السماحـــة في الفـــرا — ئض والعدالة في القســـم
دين اشتراع الصـالحــا — ت ودين ايفـاء الذمـــم
دين المرافـــق والمســرا — شد والمكارم والعصـــم
فامنعـه من كـــل الأذى — منع الضراغـم للأجـــم
وارفعـه باسمـك هاديـا — رفع المنـارة للعلـــم (3)

ويتضح من خلال هذه الأبيات تركيز الشاعر على ثلاث أمور هامة هـي :
1 ــ الحث على أن تكون الشريعة الاسلامية هي الأساس لبناء النهضة الوطنية .
2 ــ التصدى لما يستهدف الاسلام من مكـاره .
3 ــ بيان ما تزخـر به الشريعة الاسلامية من محاسـن وفضائل .

---

(1) من قصيدته (هيهات يخزى المسلمون) ، الديوان ، ص : 112 ــ 113 .
(2) ألقاها في الاجتماع العام لجمعية العلماء سنة 1935 .
(3) الديوان ، ص : 100 .

وكأن الشاعر يلمح بتركيزه على هذه المعاني الى ما ستقدم عليه السلطات الفرنسية بعد مدة وجيزة في هذا المجال .

وفي سنة 1937 نظم قصيدته (ياوادي السان)[1] وكانت الجزائر تعيش في هذه الأثناء ، ظروفا خاصة عطى أثر استيلام (الجبهة الشعبية) لمقاليد الحكم في فرنسا[2] .

وفي القصيدة ما يوحي بوعي الشاعر لما تحيكه السياسة الفرنسية من مكائد في هذه الآونة ، ضد الشعب الجزائري ، بتلويحها بمنحه بعض الاصلاحات ، على أن يتنازل في مقابلها على شخصيته الاسلامية ، يتجلى ذلك في تلميحه بأن كل اجراء لا يخدم الشخصية والعقيدة الاسلامية ، انما هو اجراء مرفوض ومردود . يقول في ذلك :

قد (ائتمرنا) فبينّا رغائبنا — جميعها فأجب عنها بتبيان
وكل برنامج في خير ملتنا — وجدنا فهو مقبول بشكران
شريعة الله أولى في الشرائع أن — تمتاز عنها بتفضيل ورجحان
وكيف ننسخ أو ننسى شريعته — ونحن أمة اسلام وايمان (3)

وفي السنة نفسها يشهد الشاعر الاحتفال بتدشين مدرسة (دار الحديث)[4] بتلمسان ويلقى بهذه المناسبة قصيدته (دعاك الأمل)[5] . ويحس القارئ من خلال ما دارت عليه المعاني في هذا العمل ، أن محاولة النيل من العقيدة الاسلامية المشار اليها في القصيدة السابقة ما تزال متواصلة ، مما حدا بالشاعر أن يهتبل الفرصة ويعود الى الاشادة بالاسلام والتذكير بأنه من نعم الله على قومه ، وان أقل ما يستوجب منهم ذلك ، هو ترداد آيات الشكر لخالقهم ، ولا يخفى أن أصدق مظاهر الشكر على النعمة ، هو المحافظة عليها ، ورفض كل محاولة تهدف صرف المتمسكين بها عنها ، يقول الشاعر بهذا الصدد :

فسبحانه — الهنا عدل !
أنار النهى — لنا والمقل
واحسانه — الينا اتصل
وقرآنه — علينا نزل
لقد خصّنا — بخير الملل
ولم يفترض — بها من ثقل
فلا نبتغي — بها من بدل (6)

---

(1) الديوان ، ص : 315 . ونشرت بالبصائر 29 جانفي 1937 .
(2) وصلت هذه الجبهة الى الحكم بفرنسا في : 4 جوان 1936 . وكانت تتألف من الاشتراكيين والشيوعيين .
(3) الديوان ، ص 316 .
(4) دشنت هذه المدرسة في : سبتمبر 1937 . ينظر الأمة لأبي اليقظان العدد : 40 / 19 اكتوبر 1937 .
(5) الديوان ، ص : 233 .
(6) الديوان ، ص : 234 — 235 .

وأحسب أن القارئ يكون قد أحس بهذه الانسيابية التي تتخلل هذه الأبيات، وهي تسري بالقوة نفسها في جميع ثنايا القصيدة، رقة ألفاظ، وسلامة تعبير، وعذوبة نغم، مما يبعث على الرغبة في تلحينها والترنم بها، كأنشودة حلوة جميلة، وهي حافلة الى جانب ذلك بصدق المشاعر ونبل المقاصد مما يجعلها واحدة من عيون الديوان.

ويظل الشاعر يتتبع تطورات القضية الوطنية، وفي السنة الموالية أي في عام 1938 نظم مقطوعته (ياوفد سائل فرنسا) (1) خصيصا لتلقى في حفلة توديع (وفد المؤتمر الاسلامي) الذاهب الى فرنسا حاملا اليها المطالب الوطنية، وقد ضمنها بلغة صريحة واضحة، خلاصة الاهتمامات التي تشغل أنظار الجزائريين يومئذ، بما يجعلها بمثابة لائحة سياسية، أو مشروع برنامج وطني عام، ركز فيها على حث (الوفد) ليكون أحسن ممثل لشعبه في المطالبة بحقوقه، وحضه على رفض كل برنامج يكون من شأنه المساس بعقيدته، مؤكدا له أن من أضاع دينه فقد أضاع أبرز مايميز شخصيته وانسانيته. يقول الشاعر:

يا ابن الجزائر كن مستوفز الحذر ... فان قانونك الشخصي في خطر
اللجنة (2) اقترحت بالامس واقترحت ... فارفض بها كل رأي سيء الاثر
ياوفد سائل فرنسا عن مطالبنا ... الى متى هي تحت البحث والنظر
لا ترض للدين لا محوا ولا غررا ... تنزه الدين عن محو وعن غرر
فمن يعيش بلا دين يدين به ... كمن يعيش بلا سمع ولا بصر
ياوفد نب عن بلاد فيك واثقة ... أزكى النيابة وانشد كامل الوطر (3)

ويمكن أن يستنتج القارئ من خلال البيت الاخير حقيقة الاهداف التي كانت تتوخاها القوى الوطنية، من خلال مساهمتها في حيثيات ذلك المؤتمر، انها (الحقوق الوطنية كاملة) كما ورد ذلك في قول الشاعر في البيت الاخير مخاطبا الوفد الوطني (وانشد كامل الوطر).

* * * * * *

وان ايمان الشاعر بما تفيض به شريعة الاسلام من مبادئ وقيم انسانية نبيلة، وحرصه على الافادة من ذلك فيما ينهض بواقع أمته، واحساسه في الوقت ذاته بما يحيكه المحتلون الاجانب ضدها لاضعاف أثرها في نفوس وسلوك أهلها..
ان كل هذه العوامل حملت الشاعر على أن يعنى في جانب كبير من شعره بالتمكين للعقيدة

---

(1) الديوان، ص: 319 — نشرت في البصائر سنة 1938.
(2) هذه اللجنة كونتها حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا وتم ارسالها الى الجزائر للتحقيق في المطالب الجزائرية.
(3) الديوان، ص: 319.

الاسلامية ، اجلاء لمقاصدها وحضّا على العمل بمبادئها ، ودفعا لشانئيها ، مما يجده الباحث مبثوثا في ثنايا مجموعة كبيرة من قصائده . وهي من الكثرة بحيث يحتاج حصرها والتدليل عليها في مظانها من مصادر شعره الى وقت كبير ، وحيز واسع ، قد يضيق بهما صدر هذه الرسالة ، ولهذا فاننا سنقتصر بسوق القليل من النصوص على ذلك ، بما نحسب أنه يعطي الماماكافية عن نتاج الشاعر في هذا الجانب .

وان من بين ما يلقانا من ذلك وقفة الشاعر في قصيدته (ذكرى المولد النبوى) يهيب فيها بالشعب على أن يمسك بتلابيب دينه بشدة وأن يكون قدوته في ذلك (حزب الله) ، وأظن أن الشاعر — حسب السياق — يعني بتلك العبارة التي طالما استخدمها في شعره (جماعة الاصلاح) ، هؤلاء الذين كانوا يحملون العبء الأكبر يومئذ في قيادة الأمة على طريق النهضة والتحرر . يقول الشاعر مخاطبا شعبه :

أنط ياشعب من دينـ	ـك أطنابا بأوتاد
وهيء مثل ما هيّـ	ـأ حزب الله من زاد
وسر في اثرهم سيرا	قويما غير منآد
ألا فليحي حزب الـ	ـله في نصر وامداد
ألا فليحي دين الـ	ـله لآمنآد لأمآد (1)

ويدعو الشاعر قومه في قصيدته (ويخلد الاسلام) بحرارة واخلاص الى أن يتخذوا من شريعتهم ، دستورهم الذى يلجؤون اليه في جميع أمورهم وقضاياهم ، موضحا لهم ، عن طريق المقارنة ، ما يوجد بين مايشرعه رب العباد لعباده . وبين مايسنه العباد بعضهم لبعض من فروق ، قد تبلغ في بعض الأحيان الى يكون من اختلاف بين الفناء والبقاء . وعلى الرغم مما يشاهده الشاعر من ضعف المسلمين وطغيان الكفر في العصر الحاضر ، فان ايمانه يظل كبيرا بقوة الاسلام وانتصاره على أعدائه وخلوده في آخر المطاف :

واجعلوا الدين رائدا واماما	ليس كالدين رائد وامام
كل مايشرع ابن آدم يفنى	ولما يشرع الاله الدوام
سوف تهوى مبادىء الكفر صرعى	فانيات ويخلد الاسلام (2) .

وأحسب أن الشاعر قد قال هذه الأبيات تحت وطأة احساسه بما بدأ يعصف على الساحة الوطنية من ريح الفتنة ، التي راح المحتلون الأجانب يذكون نارها ، بتلويحهم

---

(1) الديوان ، ص : 78 .
(2) الديوان ، ص : 180 .

بسياسة الحقوق المزيفة ، شريطة التنازل عن مقومات الشخصية الوطنية ، وفي مقدمتها الدين الاسلامي ، مستهدفين بذلك هدم ما بنته جماهير الأمة ، وقواها الحية على مدى سنين طويلة ، من الجهاد والتضحيات ، فخاف الشاعر من خطر ذلك ، فسارع يدعو قومه الى التمسك بدينهم ورفض كل محاولة تبغي بهم بديلا عنه ، مؤكدا أنه ليس كالدين لهم من رائد ، وليس كالدين لهم من امام وزعيم . ويتفطن الشاعر من جهة أخرى ، الى ما تحيكه قوات الاحتلال من مكائد ضد الاسلام والمسلمين ، في هذه الديار عن طريق نفث سمومها في عقلية الشباب ومحاولة ابعادهم عن دينهم ، وتزيين كل ما يتناقض معه في أعينهم ، من سلوك وتصرفات ، مستهدفين بذلك استيلابهم ، واضعاف احساسهم بشخصيتهم ، وتعطيل قواهم ، وهم بذلك انما يعطلون الأمة من أهم ما تملكه من امكانيات ومن طاقات فاعلة .

ويتوجه الشاعر بهذا الوعي في قصيدته (ياشباب) ، الى ناشئة أمته ، وهو يؤمن ، أنهم قواها الحية ودعامتها الأساسية فيما تقيمه من بنيان ، وفيما تؤمله من مستقبل ، يحثهم على التمسك بدينهم ، ويوضح لهم حقيقته وسمو مكانته ، التي لا تدانيها مكانة غيرها ولا شك أنه كان يرمي بذلك الى تنوير بصائرهم لما يحاك ضد شخصيتهم وعقيدتهم من جهة ، ويهدف من جهة أخرى الى تقوية عزائمهم ، ومضاعفة اصرارهم على التمسك بأصالتهم ، يقول في ذلك مخاطبا الشباب :

أنت من عنصر الخلود لباب ... كن الى المجد طامحا ياشباب
نتمنى بالدين أن تتحلى ... من تحلى بدينه لا يعاب
انما الدين لليوث عرين ... لا تغرنك بالهواء الذئاب
انما الدين من المبادئ رأس ... المجد منها وغيره أذناب (1)

* * * *

ويظل الشاعر طوال مراحل حياته ، يضرب على هذا الوتر ، يدعو الى العقيدة ، يبرز محاسنها ويحث على الاعتصام بها . وكان أن استيقظ الشعب ذات يوم عظيم في تاريخه ، وقد وعى نفسه ، وغمره الشعور بالعزة والكرامة ، فثار على مغتصبيه وافتك منهم حريته ، وهو يشيد على دربها حاضره الباسم ، فأبى الشاعر وهو يشاهد شعبه ، يدخل مرحلة الجهاد الأكبر ، وقد قضى معظم حياته في الميدان الى جانبه ، الا أن يدعوه من جديد ، الى ما يزيده صلابة في المحافظة على دينه والقيام به وما يمكنه بأن يذهب في ذلك الى أبعد ما ذهب : فيستغل ما أصبح بين أيديه — وقد زالت دولة الظلم وزالت بزوالها الموانع — من امكانيات هائلة يستطيع بها أن ينفض الغبار عما حاولت قوى الظلم ، طوال ليل القهر أن تطمسه من قيم الأمة ومقومات شخصيتها ، حتى كاد أن يذهب بها النسيان .

(1) الديوان ، ص : 259 — 260 .

يقول الشاعر مخاطبا شعبه :

أيها الشعب قم بديك وابعث قيم الشعب من ثرى النسيان (1)

وبعد ، فقد سبقت الاشارة الى أن قصائد الشاعر التي تطرق فيها الى هذا الجانب ، كثيرة يصعب الاحاطة بها ، ومع ذلك فانه لايفوت هذا البحث أن يثبت بعضها في هذه الفقرة ، تسهيلا لمن أراد الرجوع اليها ، وها هي ذى مرتبة ترتيبا تاريخيا :
(تحية العلماء) [2]، (يا أمة الخير) [3] ، (فتح جديد) [4] ، (رعد البشائر) [5]، (سلوا التاريخ) [6]، (الذكرى العاشرة لفاتح نوفمبر) [7]، (الثورة العظمى كسبنا نصرها) [8].

ولعله يتضح من هذه الأعمال ، ومما سبق الوقوف عنده ، في معالجة الموضوع ، من قصائد ، أن النصوص التي تناولت هذه الناحية في نتاج الشاعر عديدة . ونحسب أننا بما استعرضناه منها ، قد قدمنا النموذج الذى يستطيع أن يرسم صورة عن شعر الشاعر في هذا المضمار . ونلحظ أن من أقرب الموضوعات الى هذه الجزئية ، حديثه عن القرآن الكريم ، هذا الذى سنخلص اليه في الفقرة التالية .

* * * * *

لقد عنى الشاعر في هذا الاطار الذى رسمه ليبين من خلاله عن جوهر العقيدة الاسلامية ويمكن لها في النفوس ، وفي السلوك ، بالوقوف عند رحاب القرآن وقفات تدبّر واعتبار ، وقف يتفيأ من ظلاله ويستمد من ارشاداته وتوجيهاته مايفيده ، في تحقيق غرضه الأساسي من هذا الشعر ، ذاك الذى يتمثل في انارة درب الحق ، والخلاص أمام أمته ، لتبصر طريقها نحو الانعتاق والتحرر .

وان الدارس لشعر محمد العيد ، يدرك بوضوح مدى تأثره بكتاب الله العظيم واستلهامه في شعره ، معنى ومبنى ، ممايجعل الباحث يلمس في ذلك النتاج ، بصمات القرآن بادية عليه في نسق المعاني ، وفي معجمه اللغوى ، وفي صورة الفنية . وان هذه الجوانب أوضح ما تكون في شعره الاسلامي على الأخص . وأحسب أن عناية محمد العيد بهذا الكتاب ، انما تسببت فيها نشأته الدينية ، وثقافته التي رأينا

---

(1) في قصيدته (هذه قمة الفتوة) نظمها الشاعر سنة 1965 ، ينظر الديوان ، ص : 265 .

(2) الديوان ، ص : 247 ، نظمها الشاعر سنة 1931

(3)	"	"	، ص : 147	"	"	"	1939
(4)	"	"	، ص : 181	"	"	"	1947
(5)	"	"	، ص : 185	"	"	"	1947
(6)	"	"	، ص : 193	"	"	"	1950
(7)	"	"	، ص : 433	"	"	"	1964
(8)	"	"	، ص : 233	"	"	"	1964 .

أن جانبا كبيرا منها يقوم على القرآن ، وما يتصل به من العلوم الدينية واللغوية . ومن هنا فان صلة الشاعر بهذا المصحف قديمة وقوية ، ودائمة ، وفي أخباره وشعره ما يؤكد أنه قضى العمر كله وبين يديه هذا السفر الخالد ، يتدبر مقاصده ، ويتذوق بيانه ، ويهتدى بهديه ، يصرح بذلك في قصيدته (أنشودة الوليد) فيقول :

أنفقت وقتي في مدى　　فيه النفائس تنفق
أتذوق القرآن قو　　ت الروح ما أتذوق
أتلو الكتاب مصدقا　　ان الكتاب مصدق
لا سفر أعمر منه في　　شتى العلوم وأعمق
لم لا أزاول درسه　　وأنا اللبيب الأحذق ؟ (1)

وتحسن الاشارة الى مافي الأبيات من اهتمام بظاهرة (ردّ العجز على الصدر) التي تبدو واضحة في الأبيات الثلاثة الأولى .

وقد ازدادت عناية الشاعر هذه بالقرآن تطورا ، على اثر اندماجه في الحركة الاصلاحية ، هذه التي يأتي القرآن الى جانب السنة ، على رأس ما يبنى عليه أساس دعوتها ، ويقوم عليه منهجها في الدعوة الى نهضة الأمة ، والمحافظة على شخصيتها ، وصيانة عقيدتها ، وتخليصها مما يكون قد علق بها ، من شوائب ، واستهدفها من تشويه على أيدى بعض الحاقدين المتعصبين ، وبعض الجامدين المسخرين .

وسيحاول البحث في هذه الفقرة أن يعرض لما جاء في نتاج الشاعر حول القرآن الكريم ، مما يتصل بغرضه الأساسي في الدعوة الى النهوض واليقظة ، يحث أمته بالرجوع الى كتابها ، تستمد منه النور الذى يضيء لها طريق جهادها ، وتحتكم اليه في شؤونها وقضاياها .

وأما مايتصل منه بالجانب الفني في شعره . فان لذلك موضعا آخر من هذه الرسالة . وبديهي أنه مادام هدف الشاعر من حديثه عن ذلك الكتاب ما ذكرنا ، فانه لم يخرج في ذلك الحديث عن هذا الاطار الذى يحقق له تلك الغاية ، بابراز مكانته ، ككتاب عقيدة ، ودستور تشريع ، وسفر قيم ، فيدعو الى الاهتداء بهديه والعمل بمبادئه والتحلي بأخلاقه .

وتجدر الملاحظة الى أن ما كتبه الشاعر في هذا المضمار يمتد على مدى فترة طويلة تبلغ حوالي أربعين سنة ، تبدأ في شبابه في العشرينات ، وتستمر معه الى السنوات الأخيرة من حياته ، في نهاية الستينات ، وقد جاء ذلك في ثنايا قصائد عديدة نظمها بمناسبات مختلفة ولم تكن من بينها الا اثنتان كان الحديث

---

(1) الديوان ، ص : 167 .

فيهما عن القرآن الكريم ، الدافع الأساسي الى نظمهما وهما (هذيان آشيل) [1] و (ختمت كتاب الله) [2]. وان أولى هاتين القصيدتين ، تعد من أقدم ما عثرت عليه من أعماله في هذا الموضوع ، وقد نظمها على اثر ما نشره أحد المتعصبين على الاسلام وهو المستشرق الفرنسي (آشيل) بهدف النيل من الاسلام عن طريق المس بكتابه الكريم ، وفي معرض تفنيد الشاعر لافتراءات ذلك المفترى ، أبان عن حقيقة القرآن ، مركزا بوجه خاص على ظاهرة الوحي القرآنية ، وعدالة كتاب الله ، وسمو رسالته الانسانية وخلوده ، يقول الشاعر في ذلك :

هيهات لا يعترى القرآن تبديل	وان تبدل توارة وانجيل
قل للذين رموا هذا الكتاب بما	لم يتفق معه شرح وتأويل
ماذا تقولون في سفر صحائفه	هدى من الله ممضى فيه جبريل ؟
آياته بهدى الاسلام ما برحت	تهدى الممالك جيلا بعد جيل
فليس فيه لأعلى الناس منزلة	(عدن) وغبه لأدنى الناس (سجيل)
ولا احتيال ولا غمط ولا مطل	ولا اغتيال ولا نقص وتنكيل
(الاشتراكية (السمحاء) [3] مذهبه	في الحكم لو لم تطل فيها الأقاويل (4)

ومما يلفت النظر في هذه القصيدة ، أن الشاعر بناها على ضمير جماعة المخاطبين ، بما يمكن أن يوحي بوعيه أن (آشيل) هذا الذى تحامل على القرآن ، لم يكن وحده في الميدان ، وانما كان نموذجا تقف من ورائه سلطة حاكمة بكاملها . ولكن هيهات أن يحقق أولئك أهدافهم من سفر يضم بين دفتيه كلام الله الذى وعد الله بحفظه حتى يظل المنهل الذى ليس لمعينه من نضوب ، والمشعل الذى ليس لنوره من خفوت والبلسم الشافي والنبراس الهادى لكل من شاء أن يبرأ ، وأن يستقيم ، ويلقانا هذا المعنى في أبيات ثلاثة مفردة بديوان الشاعر ، يقول فيها :

كتاب الله كنز ليس يفنى	وشمس لا يغيب لها ضياء
هدى للمتقين فكن تقيا	وسله من الهداية ما تشاء
تداو به من الاسقام تبرأ	ففيه لكل ذى سقم شفاء (5)

ويبرز الأثر القرآني ، ألفاظا وتراكيب في هذا النموذج ، وفي النموذج الذى سبقه في مثل قوله (عدن ، سجيل ، هدى للمتقين ، الهداية ، جبريل) .

---

(1) الديوان ، ص : 85 ، نظمت سنة 1926 .
(2) الديوان ، ص : 156 ، نظمت سنة 1938 .
(3) هذه الكلمة ليست صحيحة ، والصواب (السمحة) ، ينظر (لسان العرب) مادة (سمح) .
(4) الديوان ، ص : 85 — 86 .
(5) الديوان ، ص : 538 .

ومن الميدان وهو يعلم ناشئة الأمة دينهم ولغتهم ، وما يربطهم بالحياة من حولهم . ويبث في نفوسهم الوعي بذواتهم ، ينظم قصيدته (يامعشر الطلاب) ، يتوجه فيها الى هؤلاء يمهد أمامهم الطريق للقيام بواجبهم نحو الوطن ، وكان على رأس ما دعاهم الى الاعتصام به في هذه القصيدة ، هو القرآن الكريم ، ملفتا نظرهم — وهو يدرك أنهم من أكثر فئات الأمة سرعة وقابلية للتأثر — الى خطورة ما يحيكه المحتلون ضد قيم الأمة ومقومات شخصيتها على أيدى سدنة الضلالة والجمود من بعض الطرقيين المنحرفين . هؤلاء الذين باعوا أنفسهم للعدو ، فأصبحوا بذلك أداة طيعة في يديه يسخرها في أى وقت يشاء لتحقيق ما يشاء من الأغراض ، حتى ولو كان ذلك ضد وطنهم وملتهم . وكان من ذلك أن ذهبوا الى اذاعة سمومهم في صفوف الأمة ، بقصد تنفيرها من الاقبال على فهم كتاب دينها ، والتدبر في معانيه ، رافعين بذلك شعار (صوابه خطأ وخطأه حرام) حتى لا تنتفع الأمة بهديه ، فتظل خاضعة لسلطة (الأشباح) و(الأشياخ) ، ويطول بالتالي ليل أسرها تحت نير الاحتلال الأجنبي ، يقول الشاعر في ذلك مخاطبا الطلاب :

يامعشر الطلاب هل من آخذ	بالذكر أو متمسك بعصامه ؟
فتشرفوا بالأخذ من آدابه	وتعرفوا بحلاله وحرامه
ولكل شيء في الحياة أذية	وأذية القرآن من أقوامه
عملوا على التحذير من تفهيمه	فكأنهم عملوا على اعدامه
هجروا مبادئه الحلى وتنكبوا	أحكامه والخير في أحكامه
زعموا بأن صوابه خطأ وفي	مايزعمون زراية بكلامه
أسطورة ، ان الذى قد قالها	قمن بأن يرتاب في اسلامه (1)

وتشيع في هذا النص بساطة واضحة في معانيه ، وسهولة بادية في أسلوبه ، بما يعكس ميل الشاعر الى التعبير عن مشاعره بأقرب الطرق ، وبأيسر الوسائل ، حتى ليوشك أن ينحدر في ذلك الى مستوى النثر ، والى لغة الحديث اليومي . فاللغة في النص تبدو تقريرية مباشرة . وان استطاع الشاعر أن يوفر لها السلامة والصحة ، فانه لم يستطع أن يضمن لها ما تتطلبه لغة الشعر من ايحاء وظلال وجمال . ولعل الشاعر يكون قد عمد الى ذلك عمدا ، وهو يتوجه بهذا الشعر الى جمهور من التلاميذ ، فأحب أن يوائم بين أسلوبه وبين مستوى من يتوجه اليهم بحديثه ، حتى يضمن بذلك لشعره النفاذ في قلوب متلقيه من جهة ، ويحقق هدفه منه من جهة ثانية ، في وقت كانت الغاية التبليغية عنده مقدمة عن الغاية الجمالية . ويمكن القول أن الشاعر استطاع أن يكشف بسلوكه هذا المسلك عن وعيه لتلك الصلة القائمة بين المبدع وبين من يتوجه اليهم هذا المبدع بفنه . وهذه واحدة من المبادىء الفنية التي نص عليها المتقدمون والمحدثون على السواء .

(1) الديوان ، ص : 90 .

ويؤكد الشاعر بوقوفه عند تلك المعاني التي تناولها في ذلك النص ، حقيقة الواقع التاريخي الذي عاشت في ظله الجزائر طوال فترة الاحتلال الأجنبي ، فقد سمح المحتلون لبعض الكتاتيب والزوايا ، أن تعلم القرآن ، وكانوا يحرصون على أن يكون ذلك ، وفق منهج تعليمي لا يتجاوز تحفيظ القرآن ، الى شرحه وتفسيره ، مما أدى ببعض هذه المؤسسات أن أصبح طلابها يتخرجون منها ، وهم يحفظون القرآن ، ولكنهم لا يكادون في معظمهم ، يفقهون من مقاصده شيئا كبيرا .

وانطلاقا من هذا الواقع كان الشاعر يركز في دعوته الى القرآن على وجوب تدبره ، وانعام النظر في معانيه يقول :

تدبر كتاب الله ان كنت أهله ... فأهل كتاب الله من يتدبر (1)

ويوسع الشاعر من دائرة دعوته هذه لكي لا تبقى محصورة في وسط الشباب فحسب ، وانما تشمل كافة أفراد الأمة ، ويرمي الى ذلك في قصيدته (بلادي) داعيا الأمة الى تنشئة الجيل على هدى القرآن حتى يشب وقد تشربت نفسه ما يدعو اليه من قيم وفضائل ، وناهيك بهذا الكتاب من منهج قويم للتربية الروحية والاجتماعية ، ومن معين ثرى للحياة الكريمة ، فهو الكتاب الوحيد الذي جمع فأوعى بين ما ينهض به الدين ، وبين ما تقوم عليه الحياة الدنيا . واذ يلح الشاعر على هذه الحقيقة القرآنية فانه يريد — فيما أحسب — أن يحمل بني قومه على الأخذ بما يحض عليه دينهم من اقبال على الحياة ، ويفوت الفرصة في الوقت نفسه على أولئك الذين يحرصون على أن يذيعوا في الناس ما يصرفهم عن الدنيا ، وهم عن ملذاتها عاكفون ، يقول الشاعر :

هلم بني قومي الى الذكر نطله ... ففي الذكر أخلاق سمت ومكارم
ولست أرى القرآن الا مناجما ... أتدرون ما تحوي عليه المناجم ؟
على الدين والدنيا وعليهما معا ... شهودا وغيبا فهو بالكل قائم
فربوا عليه الناشئين تلح لهم ... به طرق مشروعة ومعالم (2)

وقد سبق القول أن للشاعر قصيدتين اثنتين فقط كان الدافع المباشر الى نظمهما هو القرآن الكريم من بين سائر ما نظم في هذا الموضوع . وقد وقفنا عند أولاهما قبل قليل ، ونود أن نقف هنا عند ثانيتهما ، وهي (ختمت كتاب الله) ، وقد قالها الشاعر تخليدا للاحتفال الوطني العظيم الذي أقامه الشعب الجزائري ، تكريما لرائد نهضته ، الامام ابن باديس على اثر ختمه لدروس التفسير التي دامت نحو خمس وعشرين سنة (3).

---

(1) الديوان ، ص : 159 . (2) الديوان ، ص : 137 .
(3) شرع الامام في هذه الدروس حوالي سنة 1915 . واستمر فيها الى أن توفي في 16 افريل سنة 1940 . وينظر الشهاب ج 4 م 14 ، ربيع الثاني — جمادى الاولى 1357 هـ / جوان — جويلية 1938 ، ص : 167 .

وقد أشاد فيها الشاعر بالقرآن الكريم ، ونوه فيها بجهود الامام عبد الحميد ، وبعلمه الواسع وفهمه العميق لمقاصد القرآن ، ووقوفه على أسراره واخلاصه الصادق للدين والوطن . وخلص من ذلك الى استخلاص العبرة من هذا المهرجان الكبير بما يفيد أمته ويحقق غرضه الأساسي في الأخذ بيديها الى شاطئ النجاة ، وذلك بدعوته من ناب عنها في هذا الحفل ، من شيب ومن شبان ، الى الافادة من كتاب الله ، بالتدبر في مقاصده ، والتعاهد على الاستمرار بالاهتداء بهديه ، والتجمل بما يحض عليه من آداب ، والاعراض عما ينهى عنه من رذائل ، يقول في ذلك :

فيا محفلا ما مثله اليوم محفل ... حوى معشرا ما مثله اليوم معشر
أفيدك بالقول الذى ليس يفترى ... وأمحضك النصح الذى ليس ينكر
تدبر كتاب الله ان كنت أهله ... فأهل كتاب الله من يتدبر
تعاهد مع القرآن وأب تغيرا ... ألست ترى القرآن لا يتغيّر ؟
فأعرض عن الخلق الذى فيه يزدرى ... وأقبل على الخلق الذى فيه يشكر
اذا كنت حزب الله سرا وجهرة ... فثق ان حزب الله لابد ينصر (1)

ان البساطة والسهولة البادیتان في النموذج الأسبق (يامعشر الطلاب) تتلاحم أيضا في هذا النموذج ، ولكن من دون أن ينزل الشاعر هنا الى ما انحدر اليه أسلوبه هناك ، وانما ظل يحتفظ لصياغته في هذا النموذج بشيء من الجودة والاحكام والجمال ، ولا غرو في ذلك فان الفارق الزمني بين العملين كبير ، (حوالي عشر سنوات) والدوافع اليهما مختلفة ، فقد توجه الشاعر بعمله الأول الى وسط محدود ، وهو التلاميذ ، وأنشأ هذا الأخير ليلقى بمناسبة علمية ، وفي حفل رسمي مشهود . ولا شك أن يكون لهذه العوامل أثرها في اتجاه الشاعر في هذا النموذج الأخير ، وجهة تميزه عن سابقه . وان أهم ما يبدو من ذلك ، غلبة الأسلوب التقريرى البارد هناك ، وسيطرة الأسلوب الخطابي الذى يعكس بعض انفعال الشاعر بموضوعه هنا ، ويتجلى ذلك في مظهرين اثنين : الأسلوب الانشائي المتمثل في النداء ، وفي الأمر المتوالي في الأبيات . وأما المظهر الثاني فيبدو في أسلوب التوكيد الذى تظافرت على ابرازه في النص جملة من السمات من بينها (التكرار ، الترادف ، الطباق ، المقابلة ، النفي الذى يفيد التعميم . وأخيرا أسلوب الشرط) . ويمكن أن يكون الشاعر استخدم كل هذه السمات الأسلوبية ، حتى يوائم بذلك بين أدواته الفنية وملابسات الالقاء والانشاد . ويعبر الشاعر في قصيدته (الثورة العظمى كسبنا نصرها) (2) التي قالها وبلاده

---

(1) الديوان ، ص : 159 .

(2) الديوان ، ص : 238 ، نشرت بمجلة المعرفة ، العدد : 15 ـ جمادى الثانية 1384 هـ سبتمبر ـ اكتوبر 1964 .

تخطو في ظل الحرية خطواتها الأولى ، عن استمراريته في الدعوة الى العمل بدستور الاسلام الى آخر حياته ، ويكشف فيها من نحو آخر عن وعيه بالظروف الجديدة التي أصبحت تكتنف حياة مجتمعه ، وما يتطلب ذلك من بذل الرعاية والعناية أضعاف ماكانت عليه برأس مال الأمة الأول وهو شبابها ، وذلك بتشديد المحافظة على شخصيته ، وحمايته من أخطار ما يمكن أن يستهدفه من محاولات الاستيلاب والانحراف ، في ظل ماتستوجبه المرحلة من انفتاح على مختلف التيارات الوافدة على البلاد ، ولهذا نرى الشاعر يتوجه الى ناشئة الأمة داعيا اياها الى الاقبال على القرآن بالدرس والتحصيل .

ويرى الشاعر أن الشباب ان فعلوا ذلك ، سيضمنون بحول الله لأنفسهم الهداية الى سواء السبيل ، والشفاء من كل العلل النفسية والعقلية :

يامعشر الطلاب هذا عهدكم	فاسعوا لكسب المجد سعي عظام
فتدارسوا القرآن فهو هدى لكم	وشفاء أنفسكم من الأسقام (1)

ونلحظ أن الشاعر يكرر في البيت الأخير ما سبق الوقوف عنده من بيانه ، لأثر القرآن الكريم على النفس الانسانية ، بهديها وشفائها من العلل والاسقام . ولعله يكون بهذا الالحاح على هذا المعنى قد أراد التأكيد عن ايمانه بهذه الحقيقة القرآنية ، ويشاركه في هذا الالحاح على هذا المعنى ، بعض الشعراء الجزائريين كما نرى ذلك لدى الشاعر أحمد سحنون ، الذى يقول عن القرآن :

وهو الكتاب المرتقى	للكائن الانساني
وهو الدواء لمرضى	العقول والاذهان
دواؤنا لو رجعنا	اليه في القرآن (2)

وليس هذا فحسب ، ما نشره الشاعر في رحاب القرآن الكريم من أزهار وألحان ، وان الباحث اذا ما جاء الى استقراء كل ما يتضوع من عبير هذا المصحف في شعر الشاعر ، لتطلب منه ذلك ، الوقوف عند مجموعة كبيرة من القصائد غير التي مرت بنا ، لا يتسع صدر هذا البحث لمعالجتها ، وان كان ذلك لا يمنعنا من اثباتها والتدليل عليها في مظانها من آثاره الشعرية ، حرصا منا على بلوغ ما يطمح اليه البحث ، من احاطة وشمولية ، وتسهيلا من نحو آخر لمن يرغب في الرجوع الى الموضوع ، طلبا للاستزادة والتوسع ، وها هي ذى تلك الأعمال مرتبة ترتيبا تاريخيا : (تحية المولد النبوى) (3) ، (خطك الله) (4) ، (يا قوم) (5) ،

(1) الديوان ، ص : 240 . (2) ينظر ديوانه ، ص : 108 .
(3) نشرت بجريدة الاصلاح السنة : 3 ، العدد : 2 / 5سبتمبر 1929 . وهي من شعره المجهول ، ينظر الملحق .
(4) نشرت بالشهاب ج 8 /م3 ربيع الثاني 1351 هـ/أوت1932 . وهي مجهولة كسابقتها . ينظر الملحق (5) الديوان ص: 94 . نشرت بجريدة (المرصاد) 9 ديسمبر 1932 .

(استوح شعرك)[1] ، (وداع الحجاج)[2]، (يا أمة الخير)[3]، (الثورة العظمى كسبنا نصرها)[4]، (الذكرى العاشرة لفاتح نوفمبر)[5].

وتجدر الاشارة الى أنه ما من عمل من هذه الأعمال ،الا وللشاعر به وقفة قد تطول وقد تقصر ، عند رحاب القرآن الكريم ، وأحسب أن ما استعرضناه في هذه الفقرة من ذلك قد يغني في رسم صورة عن وعيه بحقيقة القرآن ومقاصده ، ويبرز في الوقت نفسه ، المكانة المرموقة التي يحتلها هذا الكتاب من قلب الشاعر ومن عقله . ولعله أصبح واضحا ، ونحن نوشك على نهاية هذه الفقرة ، أن نتاج الشاعر في هذا الموضوع قد تركز بوجه خاص حول ثلاثة محاور أساسية هي :

1 ــ التأكيد على ظاهرة الوحي القرآنية .

2 ــ اجلاء بعض مقاصد القرآن في السمو بمختلف جوانب شخصية الانسان فردا وجماعة، والحرص على ترقية مظاهر حياته العامة .

3 ــ الدعوة الى الافادة من هدى هذا الكتاب فيما ينهض بواقع الأمة ويسمو بحياتها .

ونود أن نلفت الانتباه أخيرا الى أن الشاعر قد ذهب في وقوفه عند رحاب القرآن الكريم الى ما أبعد من هذه الافادة من توجيهاته في حياة الناس العامة ، وذلك بالانتفاع منه عن طريق الاقتباس من بيانه في معجم شعره اللغوى ، وفي صوره ورموزه ، وذلك ما سيصادفنا في مكانه من هذه الرسالة ؟

ونكتفي بهذا القدر من وقوفنا عند هذه الوحدة الأولى من هذا الفصل ، وننتقل الى الوحدة التي تليها وهي :

ــ المنافحة عن العقيدة الاسلامية والتصدى للمناوئين لها :

* * * * *

ونبادر الى القول بأن الشاعر لم يكتف في شعره الذى حرص فيه على التمكين للعقيدة الاسلامية الصحيحة على ذلك الموقف الذى يقتصر فيه على الاشادة بمبادئ الشريعة الاسلامية ، والدعوة الى التمسك بها ، ولفت الأنظار للافادة

---

(1) الديوان ، ص : 149 ، نشرت بالبصائر ، 30 سبتمبر 1937 .
(2) " ، ص : 165 ، " " " ، 21 جانفي 1938 .
(3) " ، ص : 174 ، " " " ، 19 ماى 1939 .
(4) " ، ص : 240 ، نشرت بالمعرفة ، العدد : 15 ، سبتمبر اكتوبر 1964 .
(5) " ، ص : 440 ، نشرت بالمعرفة ، العدد : 17 مارس 1965 .

من كتابها القرآن الكريم ، وحسب ، وانما كان له الى جانب ذلك موقف آخر كان فيه أكثر ايجابية وأشد فعالية ، تصدّى فيه ، يذود عن حمى الاسلام ويدفع عنه كيد الشانئين على اختلاف ألوانهم ، من صليبيين حاقدين ، تحاملوا على الدين الاسلامي وطعنوا في كتابه الكريم ، ومن منحرفين مضللين أساءوا الى هذا الدين بجهلهم وشعوذتهم .

ولعل من أقدم الاشارات في شعر الشاعر التي ترمز الى هذا الموقف ما ورد في قصيدته (صدى الصحراء) (1) التي ألمع فيها الى ما يتعرض له الاسلام من كيد في هذه الديار داعيا قومه في الوقت نفسه الى ضرورة التصدى لهؤلاء الكائدين ، ودفع أذاهم عن الدين . يقول الشاعر مخاطبا قومه :

أفيقوا فهذا الدين بين ربوعكم ... تنازله الأحداث شرّ نزال

تحاول نكباء الضلالة نسفه ... وترميه أشلاء الرّدى بنبال

فقوموا مقامات الدفاع حياله ... ليأمن هذا الدين كل ضلال (2)

فما الأحداث التي تنازل هذا الدين ؟ وما (نكباء الضلالة) التي تستهدف نسفه ؟ أحسب أن ذلك انما هو الاحتلال الأجنبي ، ومن دار في فلكه من صليبيين حاقدين ومشعوذين دجّالين .

وقد أفضنا القول في غير هذا المكان من الرسالة فيما قام به المحتلون الأجانب من محاولات مختلفة بهدف النيل من العقيدة الاسلامية ، وما كان من رد الفعل الوطني تجاه ذلك (3) .

ونأتي في مستهل هذه الفقرة للوقوف عند ما جاء في شعر محمد العيد بصدد هذا الجانب مبادرين الى القول ، بأن من أول ما يصادفنا من ذلك في شعره ، ما جاء في قصيدته (هذيان آشيبل) ذلك الذى يصور بجلاء موقفه الذى وقفه في وجه ذلك المتعصب على الاسلام ، يفند افتراءاته ويدحض مزاعمه ، وينوه في الوقت نفسه بالمسلمين ، وبمبادئ دينهم الحنيف التي تفيض سماحة وتآخيا وعدلا ، يقول الشاعر :

ما بال (آشيل في (الديبش) يسخر من ... آيات محكمة . لاكان (آشيل) !؟
ما بال (آشيل) يهذى في مقالته ... كحالم راعه في النوم تخييل ؟

---

(1) الديوان ، ص : 12 ، نشرت بالعدد الأول من جريدة (صدى الصحراء) الصادره سنة 1925 ، وليس سنة 1924 ، كما جاء في الديوان ، ينظر الصحف العربية الجزائرية) ص: 62 د .. محمد ناصر .
(2) الديوان ، ص : 13 .
(3) ينظر ص (8) وما بعدها .

مابال (آشيل) يزري المسلمين وهم — غر المرائك أنجاب بهاليل ؟
أفكارهم بهدى القرآن ثاقبة — فلا يخامرها في الرأى تضليل
وأمرهم بينهم شورى ودينهم — فتح من الله لاقتل وتمثيل
كيف التعصب من قوم شعارهم — رغم الكوارث اغضاء وتسهيل ؟ (1)

وان الذى يمعن النظر في هذه القصيدة ، يدرك أن الشاعر مال فيها الى استخدام أسلوب يغلب فيه العقل على العاطفة ، ونوع فيه بين الخبر والانشاء . واعتمد على المباشرة دون الخيال ، ليلا ثم بذلك بين أدواته الفنية وبين ما يقتضيه موقف المواجهة من أسباب التروى والاتزان .

ويعثر الباحث على مواقف أخرى للشاعر في هذا المجال ، تصدى فيها لبعض المناوئين للاسلام ، كما يلمح ذلك في قصيدته (دعاة الى الحسنى) التي ندّد فيها بمحاولات اثنين من الفرنسيين هما (كلوبو) و (ببشير) (2) اللذين استهدفا النيل من الاسلام والمسلمين ، يقول الشاعر في ذلك :

بالأمس (كلوبو) أوراها كمثل لظى — واليوم (ببشير) أجراها كمثل دم (3)
شنوا على أمة الاسلام غارتهم — فما جنت أمة الاسلام في الأمم ؟
أهم يريدون أن ينسوا (الفرنجة) ما — (للغول) (4) بالعرب الماضين من رحم ؟
(للسين) (5) ما وان ضنوا بمورده — مقام (شارل) (6) من (هارون) في القدم (7)

ولم يفت الشاعر وهو في هذا المقام أن يسجل بأسى شديد في قصيدته (تحية الشبيبة) ما يحدق بالطفولة الجزائرية المسلمة من أخطار تستهدف عقيدتهم وشخصيتهم عن طريق ما يتعرض له هؤلاء الأبرياء من عمليات التمسيح والتنصير على أيدى اخصائيين في هذا الميدان مسخرين لهذا الغرض من جماعة (الآباء البيض المسيحيين) ، يقول الشاعر في هذا الصدد مجردا من نفسه أحدا يخاطبه على طريقة المتقدمين :

قف معي بالجزائر اليوم واسبر — غور أحوالها بعين وأذن
تجد الطفلة اليتيمة تشقى — تحت خدر تنوء أو تحت خدن
أو لدى (البيض) نصروها وقالوا — أكرمتها يد المسيح بحضن (8) .

---

(1) الديوان ، ص : 86 .
(2) يذكر الديوان أنهما شخصيتان فرنسيتان كانت لهما مواقف عدائية ضد الحركة التحريرية في البلاد ، ينظر ، ص : 104 .
(3) جاء هذا البيت برواية أخرى في مخطوطة الديوان ، ينظر ج 2 : 33 .
(4) اسم يطلقه القدامى على بعض أقطار أوربا ، وعلى فرنسا والفرنسيين خاصة . ينظر دائرة معارف القرن العشرين م7 : 100 — 233 .
(5) يقصد نهر (La Seine) الذى يشق مدينة باريس .
(6) هو شارلمان كان ملكا على فرنسا وايطاليا ، وجرمانيا (742 — 814م) وكانت تربطه بالخليفة العباسي هرون الرشيد علاقة ودّ وصداقة . ينظر دائرة معارف القرن 20 ، م6 : 109 .
(7) الديوان : ، ص 104 . (8) الديوان ، ص : 110 .

حتى لايمكن القول أن هذا المبدأ تمكن من نفسه وسلوكه حتى صار سجية من سجاياه ، وسمة من السمات التي تقوم عليها شخصيته ، وهذا مايؤكده هو نفسه في أخريات أيامه وهو يجيب بعض الراغبين في المزيد من التعرف على مكونات شخصيته ، يقول :

تسامحت والاسلام دين تسامح   وآمنت بالقرآن دون تعصب
اذا كنت في ديني وفي وطني أخا   فلست أبالي أن تخالف مذهبي (1)

ذلكم هو موقف الشاعر من عصابة المتحاملين على الاسلام كما يصوره لنا شعره . وأما موقفه من بعض المضللين الجامدين ، فذلك ما سنحاول التعرف عليه في الفقرة التالية .

* * * * *

حاولنا فيما تقدم أن نرسم صورة عن موقف الشاعر من بعض الصليبيين المتعصبين الذي حاول أن يطمن في جوهر الدين الاسلامي وينال من سموقه وسمو مبادئه .

ونأتي فيما يستقبلنا من حديث لالقاء نظرة على موقف الشاعر من أولئك الجاهلين الضالين الذين استهدفوا بجهلهم وجمودهم النيل من العقيدة الاسلامية ، عن طريق نشرهم للبدع والخرافات في صفوف الأمة . وقد وقفنا في غير هذا المكان من البحث عند موقف حركة الاصلاح من هؤلاء ، وما انتهى اليه أمرهم في الأخير من انحصار وانطفاء (2)، وما مساهمة الشاعر في هذا المضمار الا جزء من جهود المصلحين عامة .

ولعل أول اشارة يعثر عليها في شعر محمد العيد ، يمكن أن تتصل بهذا الموضوع، تلك هي التي وردت في قصيدته (صدى الصحراء) وهو يتوجه بالخطاب الى قومه يوضح لهم مكانة العلماء ، ويدعوهم الى اجلالهم والوقوف الى جانبهم ، ويحذرهم من الاصغاء لما يروجه ضدهم بعض الحاقدين المسخرين ، يخاطب الشاعر قومه قائلا :

أجلوا رجال العلم بين ربوعكم   فقدرهم وافي الرجاحة عالي
ولا تقبلوا فيهم وشاية خائن   ونفثة مغتاب وبغضة قالي (3) .

ويرسم الشاعر بعد مدة وجيزة من هذا التاريخ في قصيدته (لله أيام الزفاف) (4) صورة لهؤلاء الذين يقفون في طريق علماء الأمة ويتواطؤون عليهم مع العدو ، موضحا ما انحدروا اليه ، من انحطاط في الفكر ، وفساد في السلوك . وقد أسلموا أنفسهم للعكوف على القبور يتوسلون بها ، ويتبركون بترابها ، وبعظام النازلين بها ، لاهين بذلك عن السعي في الدنيا وطلب الحياة الكريمة بها ، وبذلك تراهم :

---

(1) الديوان ، ص : 534 .   (2) ينظر ، ص (26) من البحث.
(3) الديوان ، ص : 13 .
(4) نشرت بالشهاب الأسبوعي العدد : 28 / 14 ذو القعدة 1344هـ — 27 ماي 1926 ص : 4 . وهي من شعره المجهول . ينظر الملحق

لا يفتؤون على المقابر عكّفـــا في صورة النّســاك والعبـــاد
وإذا خبرت (فقيههم) لم تلقــه إلا الأصم الفرد في الأعــداد
فهم الى أرض التواكل أخلـدوا فشقوا وتلك نتيجة الاخــلاد (1).

ولعله ليس بخاف ما يبدو في هذه الأبيات من تأثر الشاعر بالأفكار الاصلاحية التي كان الشيخ الطيب العقبي يدعو اليها في هذه الفترة يستنكر فيها ما يقوم به بعض المشعوذين من اتخاذ بعض القبور والأضرحة مزارات يتمسحون على عتباتها ، ويوجّهون أنظار الناس اليهــا .

ولم يلبث أولئك المدجلون أن تمادوا في غيّهم فتجاوزوا ما تفنّنوا في القيام به من أنماط التدجيل وأنواع الشعوذة ، الى محاربة الاصلاح ، ومحاولة النيل من قادته ، باقدامهم على اقتراف جريمة اغتيال الامام ابن باديس ، وقد هزت هذه الجريمة النكراء وجدان الأدباء الجزائريين ، فكتب فيها الكتّاب (2)، ونظم فيها الشعراء (3) يعبر كل منهم عن استيائه ، ويشجب جناية الجناة ، ويهنئ في الوقت ذاته ابن باديس بسلامة النجاة .

ومن بين هذه الأعمال قصيدة الشاعر (حمتك يد المولى) (4) التي تعدّ أول مواجهة صريحة يتصدى فيها محمد العيد لاولئك الجانين ، وقد عمد فيها الى تهنئة ابن باديس بالنجاة ، وندّد فيها في الوقت ذاته ، بما أقدمت على ارتكابه الأيدي الآثمة في حق الاصلاح والمصلحين . وعلى الرغم من التجاء هؤلاء في صراعهم مع الاصلاح الى ما التجأوا اليه من حمل السلاح ضده ، فان الشاعر لم يدع في قصيدته الى انتهاج هذا المسلك ومعاملتهم بالمثل ، ايمانا منه بأن ذلك لا يزيد نار الفتنة الا اشتعالا ، وذلك هو غرض العدو الذي يقف وراء هذا الصراع ، ويعمل جاهدا على اذكاء لهيبه ، حتى يأتي على الأخضر واليابس من قوة الأمة . وادراكا منه لذلك سلك سبيلا آخر في التعامل مع هؤلاء ، يقوم على استمالة قلوبهم ، ومخاطبة عقولهم ودعوتهم الى الحوار والمناقشة ، واجتناب كل ما يثير الضّغائن والاحن . سلك ذلك المسلك ، وهو يرجو أن تحملهم معطياته على الوصول الى اليقين والأخذ به ، وان كان ذلك لم يمنعه من الاستنكار والتنديد بما أصبح يتحكم في سلوك هؤلاء من انحراف ديني وتنكّر للحق وانقياد للأهواء . يخاطب الشاعر أولئك القوم بلهجة يمزج فيها بين الحوار والاستنكار فيقول :

---

(1) ينظر الملحق ص :

(2) من بين هؤلاء : الشيخ مبارك الميلي ، والشيخ العزوزي حوحو ، والشيخ العربي التبسي . ينظر على التوالي (الشهاب) الاعداد (78—82—83 ، 6 جانفي / 3 فيفري / 10 / فيفري سنة 1927) .

(3) نذكر من بينهم : رمضان حمود ، والزاهري والعقبي ، ينظر على التوالي (الشهاب) الاعداد : (78 — 79— 83 ، 6 جانفي / 13 جانفي / 10 فيفري 1927) .

(4) الديوان ، ص : 122 . نشرت بالشهاب العدد : 81 ، 23 رجب 1345هـ / 27 جانفي 1927 .

فهل كان هذا شأن من يدعي التقـــى ؟ وهل كان هذا شأن من يدعي الوصـلا ؟
أماكان ازهاق النفـوس محـرمـــا على القوم أم ظنوا النفوس لهم حلا ؟
اذا كنتم ياقـوم بالحـق قــادة فادلوا ببرهـان اليه كما أدلـي
تنحلـتم ياقـو م فضـل محمـــد ومافيكـم من كان يشبهـه فضـلا
وحمّلتم ياقـو م هـــدى محمـــد من الزيغ أقوالا ينوء بهـا حمـلا
فصورتم الاسـلام كالليـل قاتمـــا من الزيغ والاسلا م كالصبح أو أجلـى (1).

ولم ينتفـع أولئك المنحرفون بهذه الدعوات الى الصلح ، ولم يرتدعوا عن غيهم ، وانمـــا ازدادوا بمرور الأيام انحرافا وضلالا ، حتى صار ادعاء التصوف والمشيخـة من الأمـور التي لا تستدعي من أي واحد يريد أن ينتحلهـا ، أكثر من تلبسـه ببعض المظاهر الشكلية، وقيامـه ببعض الطقوس . ويعثر الدارس على أبيات ترمز الى هذه المظاهر ، نحسب أنـه ليس في شعره الذي عالج به هذا الموضوع ، ما يماثلها في تهكمهـا بهؤلاء ، وفي صريـح عبارتهـا عن دجلهم ، وفي عمـق دلالتها عما صار يتحكم في سيرة أولئك القوم من انحراف في الفكر ، وفساد في السلوك ، بعزوفهـم عن العمل الصالح وزهدهم في طلب العلـم النافع ، وانشغالهم عن ذلك ، بالتفـنن في ضروب الشعوذة وتلفيـق الأباطيـل ضـد الاصلاح وأهله ، يصور الشاعر ذلك في قصيدتـه (تحية الشبيبـة) فـيـقـول :

وفشـا الدّجل فالولاية دعـــوى كل ذي سبحة تطـول وذقــن
وغلا القوم في الولـي فظنـوا انه كالاله يغـني ويقـنـي
وأبوا كوثـر العلـوم عطـاشـا طمعـا فـي ورود علـم لدنـي
فناق موسى بعلـم صاحب موسـى بله بله أتـوا بإفـك وأفـــن (2)

ويغلب على أسلوب الشاعر في هذه الأبيـات أسلوب الخبر ، ولعله لجأ الى ذلـك ليلائم بين أدواتـه الفنيـة ، وبين ما يهدف اليه من تقريـر لتلك الحقيقة التي وصل اليها بعض المنحرفين من فسـاد وزيـغ في عقائدهـم .

وان الصورةالدينيـة في البيت الرابع توحـي بانحطاط مايتشبـث به أولئـك المشعوذون من دجل وخرافات . ومع ذلك فان الشاعر لم يذهب في هذه الأبيات بعيدا في مجابهتـه لأولئك المدجلين . وان قصارى ما انتهى اليه في دحض دعاويهـم، ودفع اتهاماتهـم ضد رجال الاصلاح ، أن وقف من أعمالهم موقف المستنكـر ، كما يعـبر عن ذلك اختلاجـة البيـت الأخير . وفي التصميـل واضح الى استخدام (الجناس) كما يبدو في البيتـين الثاني والرابع ، غير أنه لم يحقق مايستهدف به في الأصل من أثر موسيقـي ، يساعـد في نقل تجربـة الشاعر الى المتلقـين .

---

(1) الديوان ، ص : 123 .   (2) الديوان ، ص : 109 .

وانه لمما يحز في نفس الشاعر ويدمي قلبه أن يرى الاخوة يتناحرون ويشاهد الطائفة منهم تعلن الحرب على الطائفة الأخرى وتستعدي عليها أعداء الملة والوطن ، وعلى الرغم من وطأة الاحساس بهذا الواقع المحزن ، فان الشاعر يظلّ متمسّكا بموقفه الذي لا يألو فيه جهدا باغتنام أية سانحة مواتية للتلويح برايات السلام ، وتجديد الدعوة لأولئك القوم باعادة النظر في سلوكهم وفي مواقفهم ، والنظر اليها بميزان الدين ، فما كان منها على شريعة الله وسنة رسوله ، فهو من الأعمال الصالحة المقبولة ، وما كان منها يتنافى مع ذلك ، فهو بدعة فاسدة ، يجب الاقلاع عنها ، يقول الشاعر :

وأفجر أعداء البلاد خصومة ... أقارب تستعدي عليها الأباعدا
عذيرى من ذي عادة وثنية ... يحيل على الاسلام فيها الشواهدا
هلم الينا أيها الخصم نحتكم ... اليه ونستفرغ عليه الموائدا
فما كان منها سنة كان صالحا ... وما كان منها بدعة كان فاسدا (1)

وحتى لا يظن هؤلاء القوم أن دعوة الشاعر اياهم الى الاحتكام الى الدين والى العقل ، والحاحه على ذلك ، انما كان ناجما عن احساس بالضعف في موقف الحركة الاصلاحية فيزيدهم ذلك الظن تطاولا عليها ، وحتى يبعد الشاعر ذلك الوهم من أذهانهم ، يسارع في أعقاب هذه الأبيات ، الى التلويح بسلاح القوة لأول مرة ، مؤكدا بأنه لا هدنة ولا سلام ، الا تحت راية السنة النبوية الشريفة ، مذكرا الجميع بأن لهذه السنة من أنصار الحق ودعاة الاصلاح ، رجالا قادرين على حمايتها وردع من يبتدع فيها ، يقول في هذا المعنى :

ولا صبح الا سنة نبوية ... فمحص بها الآراء واجل المقاصدا
وحولك أسياف لها وأسنة ... تقارع عنها المحدثات الزوائدا
رجالات اخلاص لها ومبرة ... بها وذووا عزم يدك الشدائدا
يريدون وجه الله فيما تسنّنوا ... به لا يريدون الرّشى والفوائدا (2).

ونلحظ أن الشاعر ، وهو يحاول في هذه الأبيات ، أن يرسم بعض الملامح من جو الصراع القائم مابين الاصلاح والطرقية تتراءى أمام عينيه بعض الصور لما كان يدور من ألوان الحروب والنزاعات في القديم ، فيعمد الى استعارة بعض أدواتها (الأسياف ـ الأسنة) ويجعلها من وسائل النضال في أيدى رجالات عصره ، مما يدل على سيطرة النموذج الفني القديم في ذهنه ، وهو لا ينفرد بهذا الاتجاه ، وانما يشاركه فيه معظم شعراء مدرسة النهضة ، هؤلاء الذين كانوا يحرصون على توطيد صلتهم بمصادر التراث في أساليب شعرهم ، تعبيرا وتصويرا .

وتلفت هذه الأبيات انتباه الدارس من نحو آخر الى أن الشاعر عمد في أول بيت فيها الى وصف كلمة (سنة) بكلمة (نبوية) ، ولعله يريد بذلك أن يوحي

---

(1) الديوان ، ص : 96 . (2) الديوان ، ص : 97 .

للمتلقي بالتمييز بين سلوك فريقين ممن ينتسبون الى هذه السنة : بين جماعة الاصلاح هؤلاء الذين يعملون مخلصين بهدى رسولهم ، ابتغاء مرضاة الله . وبين زمرة من المارقين عن صف الجماعة ، المتخذين من دين الله وسنة رسوله ، حلية يلبسونها وقت الحاجة ، لقضاء مآربهم ومصالحهم الشخصية . ويمكن أن يكون الشاعر يرمز بذلك الى ماقام به بعض المنشقين عن حركة الاصلاح بتأسيسهم جمعية أطلقوا عليها اسم (جمعية علماء السنة) (1) وهم يتوهمون بذلك أنهم يستطيعون أن يستمروا وقتا آخر في خداع الأمة بانتحالهم لهذا الاسم والتستر به في تغطية زيفهم ، واخفاء مآربهم عنها ، ناسين أن هذه الأمة قد بلغت من الرشد ، ما أصبح يسمح لها بالادراك ، ان العبرة في تقييم مواقف الرجال ، انما يكون بالنظر في أعمالهم وفي سلوكهم ، وليس بالنظر الى مايخترعون من أسماء ومايتحلون من مظاهر .

ويلوح الشاعر مرة ثانية بسلاح القوة ، وهو يندّد بتصرفات أولئك المنحرفين . ويحث علماء الأمة على مناضلتهم واستئصال فسادهم ، يؤكد ذلك في قصيدته (من للجزائر) فيقول :

من للجزائر يفتقد	بها اليوم من سفه السفل ؟
من كل مبتكر المكا	ئد في عقائده دخل
يا مشهرين من العزائم	مثل مرهفة الأسل
خوضوا بها الأمواج واعـ	ـلو الشهب واقتلعوا القلل
من قال جلّ عدوكم	قولوا له المولى أجل (2)

ويبدو أن هذا الموضوع قد غلب على اهتمام الشاعر في وقت من الأوقات ، فدفعه ذلك لأن يعرض له في أربع قصائد نظمها في فترة متقاربة لم تتجاوز مدتها ستة أشهر محصورة مابين مارس وأوت 1933 وهذه القصائد هي (تحية الشبيبة) (3) ، (تحية جريدة السنة) (4) (دعاة الى الحسنى) (5) (من للجزائر) (6) ، وان ثالثة هذه القصائد قد نشرت مرتين في مدة لا تتجاوز عشرين يوما ، نشرتها أول مرة (جريدة السنة) (7)

---

(1) تأسست هذه الجمعية لتقف موقف المعارضة من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وذلك بتاريخ 15 سبتمبر 1932 . ينظر على مراد (الاصلاح الاسلامي في الجزائر) ص 145

(2) الديوان ، ص : 421 .

(3) الديوان ، ص : 108 ، ونشرت في الشهاب ج 3 م 9 ، ذو القعدة 1351 هـ / مارس 1933 ، ص : 147 .

(4) الديوان ، ص : 96 . ونشرت في جريدة (السنة) العدد : 2 — 22 ذي الحجة 1351 هـ / 17 أفريل 1933 .

(5) الديوان ، ص : 102 .

(6) الديوان ، ص : 420 .

(7) ينظر العدد : 13 — 3 جويلية 1933 .

ثم أعادت نشرها (جريدة الشريعة)[1] . والأمر نفسه عرفته قصيدة (من للجزائر) فقد نشرت في (الشريعة)[2] ثم ظهرت مرة أخرى في (الشهاب)[3] . وأحسب أن تكرار النشر لهذين القصيدتين في هذه المدة الوجيزة من نحو، والحاح الشاعر على هذا الموضوع في مجموعة من أعماله من نحو ثان، لم يكن ذلك مجرد مصادفة وانما كان استجابة طبيعية لما يدور في الواقع، وهو بذلك يعكس طبيعة هذه المرحلة التي احتدم فيها الصراع وبلغ أوجه بين الاصلاح والطرقية في أعقاب تأسيس جمعية العلماء بوجه خاص .

وقد كان الشاعر من الأوائل الذين تنبّهوا الى هذا الخطر، وحذروا من عواقبه، وحضوا على حسم الرأى فيه ، وذلك في قصيدته (لؤلؤة لماعة في مفرق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)[4] التي نظمها بمناسبة الاحتفال بافتتاح السنة الثانية لجمعية العلماء ، ومما جاء فيها من ذلك قوله مخاطبا العلماء :

أعيذكم أن يذيع الناس ذات غد ... عنكم بأنكم في الرأى أخصام
وأن صرحكم اختلت رقابته ... حتى استوى فيه بنّاء . وهدام (5)

ولم يمض الا وقت قصير على نظم هذه القصيدة حتى استطاعت جمعية العلماء أن تتبيّن نوايا أولئك المدسوسين في صفوفها ، المحسوبين عليها ، فقامت على اثر ذلك بنبذهم من تنظيماتها ، وكشف حقيقتهم للأمة فنزعوا حينئذ من على وجوههم ما كانوا يتسترون به من أقنعة ، وتجندوا لحربها جهارا نهارا ، وأخذ الصراع في أعقاب ذلك منعطفا خطيرا كانت القصائد الأربعة المشار اليها آنفا صدى من أصداء ذلك .

وقد سبق أن استعرضنا قبيل قليل ما جاء بهذا الصدد في القصائد (تحية الشبيبة ، وتحية جريدة السنة ، ومن للجزائر) . وبقي لنا أن نعرض لما جاء حول ذلك في القصيدة التالية (دعاة الى الحسنى) . لقد وقف الشاعر في هذا العمل عند ملابسات الموضوع المعالج في أكثر من موطن فيه ، وكان العلماء المصلحون هم أول من توجه اليهم فيه يذكرهم باستخدام الحجة والمنطق في معالجة ما شب بينهم وبين خصومهم من نزاع

---

(1) ينظر العدد : 2 ، 24 جويلية 1933 . وهي بالمصدرين بعنوان (ليس سوى القرآن من حكم) .
(2) ينظر العدد : 7 ، 28 أوت 1933 .
(3) ينظر الشهاب ج 9 م 11، أكتوبر 1933 . وهي بالمصدرين بعنوان (في الله نحتمل الأذى) .
(4) نشرت بجريدة (النور) لأبي اليقظان ، العدد : 35 ، 24 محرم 1351 هـ / 31 ماى 1932 ، وهي من شعره المجهول ، ينظر الملحق
(5) ينظر الملحق .

وحتى يحملهم على ذلك أعاد الى الأذهان ، ما تقوم عليه حركتهم من دعوة الى الحق عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة ، يقول الشاعر مخاطبا صحبه :

في الأمر بعض التواء غير ذى خطر ... فعالجوا الأمر بالآراء يستقم
سوقوا البراهين ما حفت بكم تهم ... ان البراهين لا تبقى على التهم
نحن الدعاة الى الحسنى فما أحد ... منا بمجترح للشر مجترم (1).

ثم يلتفت الشاعر الى أولئك الخارجين عن اجماع الأمة المنقادين الى نزواتهم وأهوائهم، مؤكدا أنه ليس هناك من حكم ، يمكن الاحتكام اليه في نزاعهم المصطنع مع الاصلاح، غير كتاب الله ، ولم يفته وهو في هذا المقام أن يعرض عليهم من جديد دعوته الى الصلح، مذكرا اياهم بنجاعته وجدواه على الجميع مالم يستمر أولئك القوم على ضلالهم :

يا من تلمس من عاداته حكما ... أخطأت ليس سوى القرآن من حكم
الصلح خير وأحرى أن يلاذ به ... مالم تدس حرمات الله بالقدم (2).

ولكن هؤلاء أصموا آذانهم عن سماع نداءات السلام هذه ، واستمروا في عنادهم واصرارهم على معاداة الاصلاح وحربه فلم يجد الشاعر أمام ذلك ملجأ يلجأ اليه غير الله . فتوجه اليه سبحانه وتعالى يشكو له حال هؤلاء القوم ، ويطلب من الجميع أن يتوجهوا بالدعاء الى الله راجين منه الهداية لمن كان ضالا مبتدعا في دين الله ، أو التعجيل له بما يشاء من وعيده ، فيكفي الأمة والدين شره ، ويحميهما من مغبة أعماله ، يقول الشاعر في القصيدة نفسها :

طال الشقاق بنا يا قوم وافترقت ... منازع الهم فاستعصت عن الهمم
هيا بنا نبتهل يا قوم قاطبة ... ونرفع الصوت بالشكوى ونحتكم
يارب من كان في الاسلام مبتدعا ... منا فوفقه للاقلاع والندم
أو لا فعاجله واكف الشعب فتنته ... بما تشاء من الآيات والنقم

ويلحظ أن الأبيات بمعانيها الصريحة ، وبصياغتها التي يغلب عليها أسلوب الدعاء والنداء ، تصور عمق احساس الشاعر وصدق معاناته لما يمزق الأمة من تناحر وتفرقة وخصام . وحسب أن الشاعر اذ يلجأ الى هذا التعميم الواضح في الأبيات ، فلا يعني ذلك ، أنه يقصد بذلك الأسلوب ، أن يضع المصلحين الى جانب المبتدعين في قفص الاتهام أو أن ينزلهم في منزلتهم من المروق والانحراف ، وانما كان يريد من خلال ذلك أن يؤكد لأولئك الذين في قلوبهم مرض صدق عزيمته في التزامه موقف العدل في هذا الصراع والابتعاد فيه عن التعصب لأي طرف من أطرافه ، فعسى أن يكون لذلك أثره النفسي، في حمل أولئك القوم على رؤية جانب الحق والاذعان اليه ، والنزول عند حكمه . وهذا

---

(1) الديوان ، ص : 103 .   (2) الديوان ، ص : 103 .

أسلوب من أساليب (البديع) يسميه علماء البلاغة (الكلام المنصف) ، وقد شاع استخدامه لدى الشعراء في موقف الحجاج خاصة ، ومنه قول الشاعر (حسان بن ثابت) وهو يخاطب المشركين في همزيته التي مدح فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وهجا قريشا قائلا لهم :

فاما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
والا فاصبروا لجلاد يوم يعز الله فيه من يشاء (1)

فقوله (يعز الله فيه من يشاء) من هذا الأسلوب وهو (أن ينصف المتكلم من نفسه ، أو ممن يتكلم من جهته فيضطر السامع الى الاذعان له ولا يجد سبيلا الى انكاره والمنازعة فيه ، ومنه قوله تعالى ، " وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين " (2) فهو معلوم أن المتكلم ومن معه على هدى ، وان المخاطبين في ضلال ، وانما أبهم الأمر بين الفريقين ليكون أدعى للمخاطب الى الاذعان للحق وترك العناد اذ يرى المتكلم ساوى بينه وبين نفسه وأنصفه (3).

وأحسب أن هذا ليس هو الوجه الوحيد الذي يلتقي فيه الشاعر محمد العيد بحسان بن ثابت وانما هناك أوجه للالتقاء أخرى تجمع بين الشاعرين يأتي في مقدمتها صدور كليهما في شعره عن التزام بفكرة ووقوفه فيها الى جانب الحق ، والاشادة بحامل رايته والتصدى الى الباطل ومناضلة عصابته . وقد انعكس ذلك على التجربة الفنية لدى كل من الشاعرين فطبع شعرهما بسمات متشابهة ، تبدو في ميلهما فيه الى البساطة والسهولة ، والقرب في طرائق التعبير وفي ألوان التصوير .

ولعل ملاحظة وجوه هذا التلاقي بين محمد العيد وحسان من طرف بعض المصلحين هي التي دفعت أحدهم وهو الشيخ مبارك الميلي بأن يطلق عليه اسم (حسان الدعوة الاسلامية) (4).

ولا يفوت الشاعر أخيرا في هذه القصيدة وهو في هذه الفقرة من شعره الاسلامي ينافح عن عقيدة الأمة ، ويدفع عنها كيد شانئيها أن يولي وجهه شطر الشعب الذي يقف بعضه في مفترق الطرق يحثه على الاعتصام بدعوة الحق ، والانضواء تحت لواء الداعين اليها والذائدين عنها ، ويحذره في الوقت نفسه من الانخداع لما تروجه أبواق الضلال في صفوفه من أساليب الشعوذة ، وأفانين التدجيل ، يقول في ذلك :

(1) ديوانه ، ص : 61 . (2) الآية : 24 ، سورة سبأ .
(3) المصدر الأسبق ، هامش ، ص : 61 .
(4) ينظر الديوان ، ص : 142 .

يأيها الشعب لذ بالحق معتصما   واركن الى الائذ بالحق معتصم
لا تفتنك ألحان مزخرفة   غنى بها القوم أوضاعا من النغم
تحملوا بينات مالها صلة   بهم سوى صلة الأنوار بالظلم
وكم يطمح في ايجاد بينة   قوم وجودهم ضرب من العدم

ونرى الشاعر في هذه الأبيات ينوع في أسلوبه مابين الانشاء والخبر ، حتى يلائم بذلك بين كل موقف ، وبين الأدوات المعبرة عنه ، فقد استخدم أسلوب الانشاء المتمثل في النداء والأمر والنهي في البيتين الأول والثاني اللذين كان يخاطب فيهما الشعب .وأما في البيتين الثالث والرابع فقد لجأ الى أسلوب الخبر ، وقصد به بيان حالة أولئك المبتدعين على حقيقتهم ، وقد ساعد على ذلك مافي البيتين من ألوان التصوير وضروب البديع ، ذلك الذي يوحي بأن العلاقة بين هؤلاء القوم ، وبين ما يدّعون من حق ، كالعلاقة مابين الظلام والنور ، أو كالصلة بين الوجود والعدم .

ونتتبع خطوات الشاعر بحثا عن هذا الموضوع في نتاجه فنجده ينظم في العام التالي (سنة 1934) قصيدتين ، أما الأولى ففي (هيهات يخزى المسلمون) .

والظاهرة اللافتة للنظر في هذه القصيدة أن الشاعر أستهلها بمعاني الحمد والثناء لله تعالى ، مجير المظلوم من أذى الظالم ، وحامي الضعيف من جور الطاغي ، سبحانه الغالب القهار .

ويسلك الشاعر في التعبير عن هذه المعاني مسلكا عاما لم يعمد فيه الى الابانة عن شخصية ذلك المظلوم ، أو هوية ذلك الظالم ، يقول :

حمدا لمن في الحق غاث وغارا   ولوجهه عنت الوجوه صغارا
سبحانه زجر القوى عن الأذى   وحمى الضعيف من الأذى وأجارا
الغالب القهار فوق عباده   من ذا يكيد الغالب القهارا (1)

ونحسب أن هذه المعاني ذات دلالة بالموضوع المعالج ، ولكن ليس في الأبيات ما يؤكد ذلك ، وكل مافي الأمر ، هذا التقابل بين القوى والضعيف ، وهذا الالحاح على بعض أسماء الله الحسنى ، التي تبرز عظمة الاله وقدرته الفائقة كل قدرة ، وهذه الأفعال الماضية التي لجأ الشاعر اليها في التعبير عن معانيه . ويمكن أن يستنتج من ذلك أن هناك نوعا من الصراع كان دائرا بين ظالم ومظلوم ، ولكن القدرة الالهية تدخلت لتجعل له حدّا ، وبطبيعة الحال في صالح الضعيف على القوى .

---

(1) الديوان ، ص : 112 .

ويتتبّع المرء القصيدة فيعثر فيها على هذا البيت :

وتنازع الاخوان هذا بالأذى   يسطو وذاك يريد منه الثارا (1)

ويخيل الينا أن البيت واضح الدلالة في الكشف عن هوية طرفي النزاع في الأبيات السابقة ، كما يستنتج ذلك من العبارة (وتنازع الاخوان) فهي تدل على أن الصراع بين أخوين ، وان هما الا (الاصلاح) المنتصر ، و (أصحاب الانحراف) المهزومين . بالرغم من استعانتهم بالأعداء على اخوانهم .

وأما القصيدة الثانية فهي (أيها السامر) ، وقد سار فيها الشاعر على نهجه في سابقتها ، فلم يلتفت الى ذلك الموضوع المعالج الا في ايماءة خفيفة توجه بها الى العلماء ، مؤكدا لهم من جديد حثه على الاستمرار في التمسك بما وضعوا عليه أساس حركتهم ، يوم أن وضعوا لبناتها الأولى على دعائم من الحكمة والمشورة والتآخي ، ملفتا نظرهم أنه اذا ماحدث أن تخلف مختلف عن الموكب ، أو بدت أعراض الاعتلال على عنصر من عناصره ، فانه من سداد الرأى معالجته بالتخلص منه ، وليس باعلان الخصومة ضده ، يتوجه الشاعر بتلك المعاني ، الى معشر العلماء قائلا :

أيها السامر الشهية نجوا   ه لحضاره البليغ كلامه
أبن بالرأى والمشورة ما شئت   بناء فليس يخشى انهدامه
واذا شلّ في الجماعة عضو   فمن الرأى فصمه لا خصامه (2)

وينظم الشاعر قصيدته في (أذن الشوق) سنة 1935 فلا يعثر فيها الدارس عما يتصل بذلك الصراع ، الا على اشارة أكثر من سابقتها ، ايغالا في الايماء والرمز ، ألمح فيها الى ما يلقاه جماعة الاصلاح من مضايقات ومن جفاء ، ليس فحسب من أعدائهم ، وانما من بني قومهم الذين أصبحوا عيونا لأعدائهم عليهم ، وما حملهم على ذلك في نظر الشاعر الا ما يقوم عليه تكوينهم من قصور في العقول ، وضعف في الهمم ، وحقد في النفوس . ويرى أنهم لما عجزوا عن مجاراة العلماء في سمو مقاصدهم ، استيقظت في نفوسهم المريضة الضغائن فلم يتورّعوا عن افراغها حمما من الكيد والحقد على العلماء ، يقول في هذا المعنى :

يا بلادا يلقى النبوغ بها الشؤ   م ويسعى في قتله الحساد
أرغم المرشدون فيك على الصمـ   ـت وبثت عليهم الارصاد
وأجيزوا من قومهم بظنون   سيئات يبثها المراد
ليس الا من اختلاف المزايا   والسجيات تنشأ الأحقاد
أبت البومة المزار رفيقا   و (جفته)(3) لأنه غرّاد (4)

---

(1) الديوان ، ص : 113 .   (2) الديوان ، ص : 115 .
(3) هذه الكلمة كتبت بالبصائر 27 ديسمبر 1935 ص 4 (وقلته) .   (4) الديوان ، ص : 120 .

ويقف الشاعر مرة أخرى من سنة 1936 ، عند هذا الموضوع في قصيدته (رفاق الخير) ، فبدا في هذه الوقفة أطول نفسا من وقفتيه في القصيدتين السابقتين ، الا أنه ظل فيها محافظا على منهجه الذى التزم به في هذا الموضوع وفي معظم موضوعات شعره ، باجتنابه فيه المواجهات والتحديات ، وميله الى مايقابلها من التلميحات والملاطفات ، وأخذ الأمور بالتي هي أحسن .

ان الشاعر يشير في هذه الوقفة بادىء ذي بدء الى صمود العلماء المصلحين في جهادهم واستمرارهم فيه ، ويصور في الوقت ذاته ، تخلي أصحاب الطرف المقابل عن المبادىء المرسومة وخروجهم عن منهجها ، فخسروا بذلك مكانتهم عند الأمة ، ويوضح الشاعر أثناء ذلك بما يعكس اندماجه في الموضوع ما تنطوي عليه نفوس صحابته من نوايا طيبة وارادة خيرة ، لايستهدف من ورائها أبعد من تأليف القلوب ، وتوحيد الجهود نحو الهدف المنشود . غير أن أولياء الشيطان يبدو أنهم كانوا يعرفون ذلك ، ولكنهم يتعمدون تجاهله ، لأنه لايشبع نزواتهم ولا يحقق لهم الأغراض المسخرين لخدمتها ، يقول الشاعر مخاطبا معشر العلماء :

طاب في ظلك السمر فازدهر يا أخا القمر
قد بلا الله من بلا فيك بالسعي واختبر
فتخلى الذى أبى وتحلى الذى صبر
أخسر الناس صفقة نفر منك قد نفر
قد نوينا له الهدى ما نوينا له الغرر
قسما بالذى كفى حزبه غارة الغير
علم الله لم نرد بشرا غافلا بشر
نحن في الخير رفقة مالنا غيره وطر (1)

ويمكن رد ما يلمح في هذه الأبيات من انسجام وخفة الى جملة من الظواهر الفنية يأتي في مقدمتها : هذه الموسيقى القصيرة الخفيفة الناجمةعن صياغة الشاعر تجربته على بحر (الخفيف المجزوء) وتلك القدرة على المواءمة ما بين تلك الايقاعات، وبين جملة من الألفاظ والعبارات القصيرة ، واختيار الشاعر لهاهذه النهاية عند هذه الراء الساكنة التي تضغط بشدة على الصوت في فم القارىء فتحبسه عند الحدّ الذى تشاء ليعود الى استئناف الانشاد في الأبيات الموالية ، حتى لايفوته بذلك ما تتوفر عليه من انسيابية وعذوبة ، لم تستطع — فيما يبدو — تلك الصنعة البديعية ، المتمثلةخاصة في كثرة (الجناس) أن تضعف من أثر تلك السمات في النفوس ، أو تحدّ من قدرة الشاعر في نقل أحاسيسه الى المتلقي بما انتهى اليه ، أو يكاد ذلك الصراع الدائر بين الحق والباطل ، لقد ظهر الحق واعتصم به من أعتصم ، وحاد عنه من حاد .

(1) الديوان ، ص : 132 .

ويختم الشاعر هذه القصيدة بما يبرز تمسكه وثباته على مبدئه في الصلح والمسالمة . فيجدد الدعوى الى جماعته بالاستمرار في نهجهم ، القائم على مقابلة السيئة بالحسنة ، وسبق غيرهم الى العفو عمن ظلم ، والصفح عمّن أساء ، راجيا منهم أن لا يقصروا ذلك عمن خاصمهم فحسب ، وانما يشملوا به حتى الذى خاصمهم وطغى في خصومتهم ، يخاطب الشاعر جماعته بذلك فيقول :

أيها المسلمون لا | تخفروا عهد من خفر
سالموا كل من طغى | في الخصومات أو فجر
حسبنا في جهادنا | أن من جندنا القدر (1)

وأعتقد أن الأبيات واضحة الدلالة عما تغيّى به نفسية الشاعر ، وتقوم عليه شخصيته من تسامح ومسالمة واعتدال ، هذه السمات التي تعد من أبرز ما يميزه من بين الشعراء الجزائريين .

ونلتقي مع محمد العيد في سنة 1937 في قصيدته (استوح شعرك) فنلحظ أنه تعمد فيها اغفال الموضوع المعالج ، فلم يشر اليه الا بهذه اللمحة :

وابنوا المساجد حرّة ليست الى | متحكم تعزى ولا متبدّع (2)

ونخلص الى القول بأن الذى يمعن النظر في هذه السلسلة من القصائد الأخيرة ، ابتداء من (هيهات يخزى المسلمون) والى هذه التي كانت بين أيدينا منذ قليل (استوح شعرك) ، مرورا بتلك التي تتوسطها (أيها السامر) ، (عيد الحرم) (في أذن الشرق) (رفاق الخير) ، ان الناظر في هذه الأعمال يتبين أنها جميعها تشترك في ظاهرة واحدة هي خلوها من ذلك الحوار الذى كان الشاعر قد أقامه ولمدة ، بينه وبين أولئك المنحرفين ، فكان يجادلهم فيه باحسان ، ويدعوهم فيه برفق ولين الى الحق طورا ، ويشهر في وجوههم سلاح القوة طورا آخرا . مما كان واضحا في قصائده تلك التي التقينا بها في بداية الثلاثينات من هذا القرن .

ويحق للباحث أمام شيوع هذه الظاهرة في هذا القدر من نتاج الشاعر أن يتساءل عن البواعث والعلل الرامية اليها ، وعن الدلائل المترتبة عنها . أيكون ذلك ناجما عن طارئ طرأ عن حياة الشاعر الخاصة ، فحمله على التعديل في موقفه من ذلك الصراع الدائر بين الاصلاح والطرقية ، أم يكون ذلك دليلا على أن الصراع نفسه قد خفت حدته في هذه الفترة عما كانت عليه في مطلع الثلاثينات ، فانعكس ذلك على نتاج الشاعر ؟

---

(1) الديوان ، ص : 134 .   (2) الديوان ، ص : 149 .

وان الذى أميل اليه في تفسير هذه الظاهرة ، وما يماثلها من الظواهر النفسية والاجتماعية ، أن يتروّى الباحث ويتجنب جهده التسرع في اطلاق الأحكام ، ويعمد الى استقراء دقيق لحيثيات الظاهرة التي بين يديه ، وتحليل النظر فيما يكتنفها من ملابسات ، وأن يكون حذرا خلال ذلك في الاعتقاد المطلق على بعض النصوص ، في تفسير بعض الحقائق الاجتماعية أو التاريخية ، ذلك لأنه قد يحدث أن يدفع المبدع في وقت من الأوقات ببواعث شعورية ، أو لا شعورية الى تصوير بعض المواقف ، وإظهارها بمظهر ، قد يكون مخالفا لصورتها الحقيقية التي سبق أن برزت عليها في الواقع ، فيترتّب عن ذلك أنّ من أخذها على تلك الصورة ، دون أن يمحّصها ، فانه سيقع في بعض الهفوات ، وسيؤدى به ذلك من ثم ، الى خلل في النتائج التي يصل اليها ، وقد يبلغ ذلك الى حد مجافاة الحقيقة والاساءة اليها .

ويحسن بالدارس انطلاقا من هذه المبادىء الأساسية في منهج البحث العلمي أن يعمل على توسيع دائرة بحثه في الموضوع المعالج ، ويستعين على معرفة وجه الصواب فيه بغير مادة موضوع البحث فيولي — بناء على ذلك — وجهه نحو الساحة الفكرية والأدبية القريبة منه بحثا في آثار الأدباء الجزائريين عما يرجح لديه وجها من الوجوه ، مقارنا ذلك بما يمكن أن ينظمه الشاعر في أعقاب هذه الفترة . وان الناظر في هذا التراث يدرك لأول وهلة أن هذه العناية التي حظي بها موضوع الصراع بين الطرقية والاصلاح لدى الشعراء الجزائريين ، لا تقل عنها ان لم تفقها تلك العناية التي أولاها له اخوانهم الكتاب . وانه لا يخفى أن النثر بطبعه أرحب صدرا من الشعر ، وأكثر ملاءمة منه للتعبير عن مثل هذا الموضوع بما يكتنفه من المناظرة والجدال ، لما يتوفر عليه ذلك الضرب من الكلام . من سمات ، يفتقر الى كثير منها الشعر بقيوده المعروفة . ومن هذا المنطلق نرى أن معظم فنون النثر المعروفة يومئذ في الأدب الجزائرى الحديث ، من خطابة ، ومحاضرة ، ومقالة وأقصوصة قد أسهمت الى جانب القصيدة الشعرية في هذا الصّراع وكانت أداة من أدواته (1). وان الذى يتصفح هذه الكتابات سيدرك أن أشدها عنفا على الطرقية ، تلك التي تعود الى بداية مرحلة هذا الصراع في العشرينات ، وأوائل الثلاثينات من هذا القرن ، والتي اشتهر بها خاصة بعض المصلحين من أمثال (العقبي ، والزاهرى ، والميلي ، وحمزة بوكوشة) في مقالاتهم بصحف الاصلاح يومئذ .

---

(1) ينظر د. عبدالله ركيبي (القصة القصيرة في الأدب الجزائرى المعاصر) ، ص : 23 .

وأما ماظهر بعد هذه الفترة ، فقد كان أقل حدّة وأكثر ليّنا . ويمكن التأكد من هذا الذى نذهب اليه بعقد موازنة بسيطة بين تلك الأعمال التي وصفناها بالشدة، وبين ماظهر بعدها وتزامن مع نتاج الشاعر الذى لمحنا فيه اختفاء ظاهرة المواجهة ، ان من يفعل ذلك سيلاحظ الفرق جليا بين هذين النوعين من الكتابة . وسيتجلّى له ذلك حتى في أعمال الكاتب الواحد ، ولدى أكثر من كاتب ، كما يبدو ذلك — على سبيل المثال — في كتابات الشيخ حمزة بوكوشة ، فان الذى يوازن بين كلمة نشرها هذا الأديب سنة 1935م(1)، وبين كلمة أخرى له نشرها سنة 1937م(2)، سيلاحظ أنه كان في الأولى يدعو الى ضرورة التشدّد مع الطرقيين ، وبخاصة الرؤوس منهم ، ولكنه في الثانية اكتفى بالتعريض والتهكم بهم ، دون التهجم عليهم .

وعلى كل حال فان هذا التطور ، يمكن أن يلمح في صورة أوضح ، في عمل آخر ، يعدّ من أبرز الأعمال التي ظهرت في هذه الفترة في هذا الموضوع ، ذلكم هو سلسلة المقالات التي نشرها الشيخ الميلي رحمه الله ، في جريدة (البصائر) وقد وصل بها الى سبع عشرة حلقة (3)، ثم جمعها ونشرها في كتاب أسماه (رسالة الشرك ومظاهره) (4). وعلى الرغم من حساسية الموضوع الذى تناوله هذا المصنف فان صاحبه استطاع أن يقف فيه موقف العالم الباحث الذى يحتل لديه الكشف عن الحقيقة المقام الأول . فجاء الكتاب بذلك بحثا علميا في جوهر العقيدة الاسلامية عالج فيه مؤلفه ظاهرة الشرك وكشف عن أخطارها ورسم الطريق المثلى الى العقيدة الصحيحة ، القائمة على الكتاب والسنة .

وبذلك فان هذا الكتاب لم يكن لونا من ألوان التحديات ، ولا أسلوبا من أساليب المواجهات التي كانت تسهم قبل هذه الفترة فيما دار حول تلك الظاهرة من مناظرات ومجادلات بقدر ما كان دراسة علمية لظاهرة كانت منتشرة في بعض الأوساط ، في المجتمع الجزائرى في ذلك العهد ، وتتويجا لما تسببت في اثارته من مقاومة لها من طرف المستنيرين من العلماء المصلحين .

ويمكن أن يكون هذا الأثر بهذه المواصفات التي رأينا شاهدا من الشواهد البارزة على ماتميل اليه من خفة حدة ذلك الصراع . ومما يمكن أن يرجح ذلك ، أن هذا

---

(1) ينظر سجل مؤتمر جمعية العلماء ، ص : 138 .

(2) ينظر (الصحف العربية الجزائرية) ، ص : 203 . د . محمد ناصر . نقلا عن جريدة (الليالي) العدد : 15، 10 جانفي 1937 .

(3) ظهرت الحلقة الأولى في العدد : 5 بتاريخ 6 ذى القعدة 1354هـ ، 3 جانفي 1936 ، وظهرت الأخيرة في العدد : 45 .

(4) ظهرت الطبعة الأولى سنة 1937 ، ثم أعيد طبعه سنة 1966 ، ثم طبع طبعة ثالثة سنة 1982 .

البحث ظهر أول ما ظهر على شكل مقالات ، ظلت تنتشر على مدى ما يقرب من سنة كاملة ، ثم ظهر من بعد ذلك في كتاب ، فسمح له ذلك بالتداول على نطاق واسع ، ومع ذلك فانه لم يكن سببا — في حدود ما أعلم — في اثارة أي جدال أو نقاش ضد موضوعه من الطرف الآخر .

ألا يكون هذا مثارا للسؤال ؟ ألا يمكن اعتبار ذلك دليلا على استقرار الوضع وانتصار الحق ؟

هذا ما يمكن أن يستخلص مما قدمنا من آثار لبعض الكتاب الجزائريين ، الى جانب ما استعرضناه في ذلك المضمار من أعمال الشاعر . أما اذا جئنا الى نتاجه في أعقاب الفترة المدروسة ، نستقرؤه ونحاول مقارنته بما وقفنا عنده من آثار أولئك الكتّاب ، بهدف الاقتراب أكثر من الحقيقة في الموضوع المعالج ، فان أول ما يصادفنا من ذلك ، قصيدته التي نظمها في تقريظ كتاب الميلي السابق الذكر وسمّاها (كلمة في الرسالة). (1)
ترى كيف استقبل الشاعر هذا الأثر ؟ وما هو الصدى الذي تركه في نفسه ؟ وماذا عن موقفه من الموضوع الذي يعالجه ؟ ان الدارس لهذه القصيدة يلحظ لأول وهلة أن ظاهرة اختفاء توجه الشاعر بالحوار والمناقشة ، الى زمرة المنحرفين ، الملحوظة في القصائد الأخيرة ، تبدو في هذا العمل ، كأبرز ما تكون ، ذلك لأن الشاعر لم يتوجه فيه الى الطرقيين ، على عادته ، يحاورهم فيه كما كان يفعل في أعماله الأولى ، أو يدعوهم فيه بوضع حد لخصومتهم للاصلاح ، كما لم يلتفت فيه من نحو آخر ، كعهده الى العلماء يوصيهم بالصبر عما يلاقون ، أو يحثهم على الثبات في مجادلة خصومهم بالحسنى .
ان أي شيء من هذا لم يكن ، وانما الذي يظهر بجلاء في هذا الأثر ويوشك أن يطغى على اهتمام الشاعر فيه ، هو اتجاهه فيه اتجاها عاما لا يعنى فيه بالتفصيل بقدر ما عني فيه بتركيز حديثه حول دعوة عامة يحث فيها على الاعتصام بعرى التوحيد ، ويعرض فيها بأخطار الشرك ، ويرسم فيها أخيرا الطريق السليم الى عبادة الله الواحد الأحد . ويبدو ذلك واضحا في هذه الأبيات التي يخاطب فيها الشاعر عبدا من عباد الله قائلا :

فاقبس من التوحيد أعظم جذوة	وتمش تحت ضيائها اللمّاع
ياعبد ثق بالله يكفك وحده	ياعبد سله يجبك بالاسراع
وعليه في كل الرغائب فاعتقد	لا تعتمد أبدا على الاشفاع
واليه بالطاعات كن متوسلا	لا بالمنى وكواذب الأطماع
وبآية المثلى فكن متهجّدا	لا بالأغاني العذبة الايقاع (2)

---

(1) الديوان ، ص : 140 . (2) الديوان ، ص : 140 ـ 141 .

ولعل ما أشرنا اليه آنفا من عدول الشاعر عن تلك المجابهات والتحديات ، وميله الى التعريض دون التصريح يبرز بجلاء في مظاهر كثير في هذه الأبيات وبخاصة في تلك المجموعة من المقارنات في الأبيات الثلاثة الأخيرة التي يقابل فيها بين التوحيد وبين الشرك ، وما تصطبغ به لهجته في حديثه عن الطرف الأول من هذه التركيبة، من وضوح ، تفتقر اليه لهجته في حديثه عن الطرف الثاني منها ، فهو حينما يدعو الى التوحيد يذكره باسمه وبنعوته وبآثاره ، ولكنه حينما يأتي الى التطرق لنقيضه يكتفي بالكناية عنه ، وعن أتباعه بالنعوت وبالألقاب .

ويوشك الشاعر أن يسترسل في بقية القصيدة على هذا النحو العام ، لو لم يغلب عليه طبعه فيرغمه على الوقوف وقفة خاصة يتوجه فيها الى أمته واضعا يديها على الجرح الذي ماتزال منه بقية تنزف في جسمها ، لافتا نظرها الى مايستهدف عقيدتها من تشويه وتدليس ، حاثا اياها بالجنوح الى كنف التوحيد والاعتصام بعراه والاعراض في الوقت نفسه عما تروّج له أبواق المارقين عن الدين ، وعن اجماع الأمة من ضلالات وأوهام ، يقول في ذلك :

يأمة جهلت حقيقة دينها	فتفرقت فيها الى أشياع
العاصف الزعزاع من أهوائها	يشتد اثر العاصف الزعزاع
فأوى من التوحيد خلد اطيبا	وتنشقي من عرفه الفواع
ودعى اللئام المارقين عن الهدى	الخارقين حظيرة الاجماع (1)

وأحسب أن هذه القصيدة بما احتوت عليه من معاني وأساليب ، تعدّ دليلا آخر ، يضاف الى ماسبق الوقوف عنده من أدلة على ترجيح مارجّحناه من خفة ذلك الصراع الذي انعكس في شعر الشاعر ، وفي آثار غيره . ولا نودّ أن نغادر هذا العمل دون أن نلحظ أن الشاعر نزل بفنّه في هذه القصيدة . بل في هذه (الكلمة) كما أسماها الى مستوى فنّي هزيل ، فقد بدا فيها في موقف ، كأنه لم يرد أن يتّجه فيه وجهة التعبير الشعري بلغته وصوره الموحية . وانما آثر على ذلك لغة تقريرية مباشرة ، تحكمت في بنائها الى حدّ بعيد بعض سمات الأسلوب الوعظي ، فجعلها ذلك ذات صلة قريبة بأساليب التعبير في بعض الأعمال التعليمية ، تلك التي تحث على فعل (هذا) وتحض على ترك (ذاك) مما يتماشى مع طابعها التلقيني التعليمي .

ويمكن أن يعلّل هذا الهبوط الفني في ذلك العمل ، برغبة الشاعر في المواءمة ما بين أدواته التعبيرية ، وبين مايهدف اليه الهدف الذي قيلت فيه تلك القصيدة، من تشخيص لأدواء الانحراف الديني المستشري في بعض الأوساط الاجتماعية،

(1) الديوان ، ص : 141 .

ومعالجتها بموضوعية تهدف الى النفاذ في عقل المتلقي واقناعه ، اكثر ممّا ترمي الى اثارته وامتاعه . ولا يستبعد أن يكون الشاعر حرصا منه على أن يظاهر بشعره هدف ذلك الكتاب في اشاعة جو الحكمة ومخاطبة العقل أكثر من مخاطبة القلب ، سلك في عمله ذلك المسلك الذى يعكس بشكل من الأشكال مفهومه لوظيفة الشعر التوجيهية . ويزيد في ترجيح ذلك أن الشاعر نظم في العام التالي ، أى في سنة 1938 م مسرحية (بلال بن رباح) . ويقلب الدارس النظر فيها بحثا عن ملابسات ذلك النزاع ، فلا يعثر فيها الا على شيء من النقد ، يتناول به الشاعر بعض معتقدات العرب في الجاهلية ، مما يمكن اعتباره وجها من وجوه التعريض بضلال أولئك المشعوذين ، ولونا من ألوان التنديد بدجلهم وخرافاتهم (1) ويشجع الدارس على الأخذ بهذا التحليل، وضوح ميل الشاعر في مسرحيته هذه ، الى استخدام ظاهرة الرمز بشكل لافت للنظر ، في كثير من مشاهدها من نحو ، وتماشي ذلك من نحو ثان، مع المنحى العام الذى لمحنا أنه يغلب على اتجاه الشاعر في بعض شعره ، بميله فيه الى التلميح أكثر من التصريح . ولنمضي مع الشاعر فنصادفه في سنة 1939 ينظم قصيدته (يا أمة الخير) وليس بها مما يتصل بالموضوع المعالج الا بعض ايماءة خفيفة للواقع الذى كان ثم انقضى ، ومما يمكن أن توحي به للمتلقي تلك اللمحة أن الحاضر غير الماضي ، كما تومىء الى ذلك هذه الأبيات التي يتوجه فيها الشاعر بالخطاب الى أمته داعيا اياها الى تلبية نداء رسولها الكريم ، قائلا :

يا أمة الخير لبّي	دعاءه وأطيعي
فأوى الى الله تأوى	الى الجناب المنيع
وآزرى حزب (طه)	بجهدك المستطيع
وتابعي هدى (طه)	وشايعي وأذيعي (2)

واللّافت للنظر في هذه الأبيات أن الشاعر توجه فيها الى طرفين اثنين : أما الأول فهو (الأمة) بصريح العبارة . وأما الطرف الثاني فيبدو أنه (الحركة الاصلاحية) التي رمز اليها الشاعر بهاتين العبارتين (حزب طه) و (هدى طه) . يؤكد ذلك أن تلك الحركة هي التي كانت ترفع راية (السنة) وتنادى بأتباعها . ولم يكن في الجزائر يومئذ من يمكن أن يكون أجدر منها بتلك النعوت والصفات . ونلحظ الى جانب ذلك ظاهرة أخرى فنية في الأبيات ، تلك التي تتجلى في توجه الشاعر هذه المرة، الى استخدام أسلوب واحد هو أسلوب الأمر على غير طبعه في الأعمال السابقة المماثلة ، التي كان يزاوج فيها في الغالب بين هذا الأسلوب ، والأسلوب

(1) ينظر الفصل الأول 1 ، المشاهد : (6 ، 7 ، 3) .
(2) الديوان، ص : 174 .

الذى يقابلـــه ، يأمر بالمعروف وينهــى في الوقت نفســه عن المنكــر ، مما يمكـــن أن يستنتــج منه ، أن دابر الباطل قد قطــع ، وأنه لم يبــق في الساحة من الطرفين اللذين كانا بها الا طرف واحد ، هو دعاة الحق والخــير . ويطــول العمر بالشاعر ، وينظم ما شاء اللهله أن ينظم من شعــر ، ويقلــب الدارس النظر في ذلك النتاج على غزا رتــه وتنوعــه ، فلا يعثر فيه على عودة الى مواجهات سنة 1933 ، بل على العكس مــن ذلك ، يلمح من بينــه ما يؤكد تمســك الشاعر بمنهجــه في الاعتدال والمسالمة ، وحرصه على تآلف القلوب ، ونشر الوئام بين النــا س . ، يظهــر ذلك في قصيدتــه (أعزم السير)(1) التي ألقاهــا في حفل بالمعهد الكتانــي بقسنطينــة ، ولا يعنى هذا أن الشاعر نســـي ذلك الماضــي ، فذلك ما لايقــرّه مابــين أيدينا من شعره الذى يدل على أن أحدا ث ذلك الماضــي ، ما تزال حية في قلبــه وفي ذهنــه الى مابعد الاستقلا ل . كما يلــمح ذلك في قصيدتــه (عا ش وقــفــا على الجزائــر) التي نظمهــا سنة 1965 احياء لذكرى وفاة ابن باديس ، فألمع فيهــا الى ماكاد ينال الفقيد من شــر ، على أيدى بعــض المشعوذين سنــة 1926م . كما يستفــاد ذلك من قولــه :

لا ولا أرهبتــه سيطــرة البطـــــش ولا الكيد تحت جنح الظــلا م (2)

ويمكن أن نخلص الى القول من خلال ما تقدم أن ذلك الصراع قد خفت حدته ، ويوشك أن يكون قد انتهــى في هذه الفترة ، وان ظلت الآثار التي تسببت فيه ودعت اليه ، تجذب اليهــا بعض الأدباء ، بين الفينــة والأخرى . وكان من المفروض أن ينتهي ذلك من يوم أن تأسست جمعية العلماء التي حرصت حرصا شديدا على جمع كلمة الأمــة ، فــفــتحت صدرها لكل الجزائريين المخلصين ، فاغتنم ذلك بعض من كان أمرهم بأيد ى أعداء أمتهــم ، وتســـللوا الى صفوفهـــا ، ولم يلبثــوا أن تآمروا عليها وأوشكـــوا أ ن يحدثوا تصدّعــا في بنائهـــا ، لو لم تكلأ عين الله رجالها من العلماء المصلحين ، فتمكنــوا من السيطرة على الموقف وكسبوا المعركــة لصالحهــم ، فانجلت بذلك الحقيقــة ، وانتصر الحق ، وانحســرت موجــة الضــلا ل (3) . وهذا ما سبــق الوقوف عنده فــي غير هذا المكان من الرسالــة (4) .

وان من يستقرىء نتاج محمد العيد في هذا الموضوع يلحظ أن الطابع العــا م الذى يطبعــه في معظم مراحلــه ، هو الميــل الى التحريــض دون المجابهـــة)

---

(1) الديوان ، ص : 190 ، نشرت في النجاح ، 16 جويلية 1947 .
(2) الديوان ، ص : 498 .
(3) ينظر ، على مراد (الاصلاح الاسلا مي في الجزائر) ، ص : 132 .
(4) ينظر ، ص : (3) وما بعدها .

والمسالمة دون العنف ، ذلك أنه بدأه باللين ، وبالوقفة الحجلى ، كما تصور ذلك قصائده الأولى في الموضوع (الله أيام الزفاف ـ يامعشر الطلاب ـ خسطك الله للعباد كتابا ـ لؤلؤة لمّاعة) ويتضح ما تميل اليه بمقارنة هذه المجموعة من قصائده ، بمثيلا تها في نتاج العقبي ، والزاهري ، والسنوسي ، لهذه الفترة .

وانتهى الشاعر في الموضوع في أواخر الثلاثينات الى مثل ما بدأه به ، كما تبينا ذلك في أعماله (هيهات يخزى المسلمون ، أيها السامر ، في أذن الشرق ، رفاق الخير ، كلمة في الرسالة ، بلال بن رباح ، يا أمة الخير) . وأما ما كان بين هذين المرحلتين من نتاجه في هذا المضمار ، وكان به شيء من حرارة المواجهة ، وشيء من التهديد باستخدام العنف ، ذلك الذى تمثله خاصة أعماله التالية (تحية الشبيبة ، دعاة الى الحسنى ، تحية جريدة السنة) ، فذلك انما كان تعبيرا عن ظرف خاص لم يتجاوز حولا واحدا هو عام 1933 الذى أعقب سنة انفجار الأزمة في (1932) بين الاصلاح والطرقية . فكانت تلك القصائد انعكاسا لذلك ، الا أن مد ذلك النزاع لم يلبث أن تراجع في أعقاب تلك السنوات ، فرجع الشاعر على اثره الى طبعه ، ملتزما الاعتدال ، طالبا العافية . وبذلك تكون مراحل شعره قد تواءمت مع مراحل ذلك الصراع .

ويمكن أن يستنتج من خلال هذه الحقائق أن الشاعر كان في مطلع شعره في هذا الموضوع أميل الى التلميح والمسالمة منه الى المجابهة والعنف ، ومما يزيد في تأكيد ذلك أن الشاعر لم يقدم على تلك المواجهة ، عندما أقدم عليها ، الا حينما قسر عليها قسرا ، في أعقاب تلك الظروف التي التجأت فيها عصابة الانحراف الى شنّ حرب صريحة ضد الحركة الاصلاحية تستعدى عليها الأعداء ، فأحس الشاعر أمام ذلك أنه أصبح في موقف لا مندوحة له فيه ، من التصدى لأولئك القوم ، ولا مفرّ له من تسمية الأشياء بأسمائها . فأقدم على ذلك ـ كما رأينا ـ في مجموعته الثلاثية ، الا انه لم يخرج فيها عن ذلك ، عما التزم به في معظم هذا الشعر ، من التمسك بحد الاعتدال ، والدعوة الى الحق بالتي هي أحسن ، ولم يسجل عليه أنه مال الى استخدام أسلوب العنف ، أو التهديد باستخدامه الّا مرّة واحدة في قصيدته (تحية جريدة السنة) التي لوّح فيها باستخدام أسلوب القوة أمام تمادى أولئك القوم في غيهم ضد الحركة الاصلاحية ، وبذلك يكون قد حمل على ذلك الموقف حملا بحوافز الدفاع عن النفس بصفته واحدا من أعضاء تلك الحركة ، وليس ببواعث الرغبة في الهجوم . وفيما عدا ذلك فان قصارى ما بلغ اليه الشاعر في نتاجه الذى تصدّى به لشرذمة الضالّين المضلّلين ، هو وصفه لهم بنعوت لم تكن تتجاوز في غالب

الأحيان حدود التنديد بتحاملهم على الاصلاح ، والتعريض بجهلهم ، والتهكّم بفساد معتقداتهم ، دون أن يفوته في معظم الأحيان أن يرفق ذلك بدعوة هؤلاء دعوة مخلصة الى السلم والى الصلح ، مثلما نراه يلح على ذلك في هذين البيتين :

ألا فقل للذى بالحرب فاجأنا لا تلق بالحرب من يلقاك بالسّلم
وقل لمن نالنا بالظلم منتقما حذار من نائل بالعدل منتقم (1)

ويمكن أن يلمس الدارس بجلاء أكثر ، ما نميل اليه من اعتدال موقف محمد العيد في هذا الشعر عموما ، اذا ما قام بعقد موازنة بين قصائده في هذا الموضوع وبين مثيلاتها في نتاج بعض شعراء الاصلاح [2]. نحسب أنه أن يفعل ذلك سيدرك في يسر وجه الاختلاف بين هذه وتلك ، وسيلحظ أنه بقدر ما كانت لهجة محمد العيد تميل في ذلك الشعر الى اللين والاعتدال والتسامح ، بقدر ماكانت لهجة أولئك الشعراء ، تجنح في معظم المراحل الى الحدة والتطرف والعنف[3].

ويمكن أن يضع الباحث يده على هذه المفارقة ما بين العقبي والشاعر بخاصة ، من خلال مقابلته بين قصيدتيهما ، وهما على التوالي (الدين الخالص) و (كلمة في الرسالة) المنشورتين في الطبعة الأولى من كتاب (رسالة الشرك ومظاهره) للشيخ مبارك الميلي . غير أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام ، أن الشاعر كان بموقفه ذلك يمالىء أولئك المنحرفين ، أو يشك في ضلالهم ، وأن غيره من شعراء الاصلاح ، كان بمواقفه تلك أكثر منه يقينا بفساد معتقداتهم . ونحسب أن كل ما يمكن أن يدل عليه ذلك الاختلاف من المواقف بين الطرفين ، أن كل فريق كان ينطلق في موقفه من شخصيته ، ومن نظرته الخاصة الى الأمور من حوله ، فمحمد العيد لجأ الى ذلك الأسلوب استجابة لطبعه أولا . وانطلاقا فيه ثانيا ، من تمثله لروح الاسلام الداعية الى الحق بالحسنى ، ومن ايمانه بأن ذلك الأسلوب، انما هو أنجع من غيره في تأليف القلوب وتقريب وجهات النظر . كما يمكن أن يكون متأثرا فيه ثالثا ، بتجانيته التي اشتهر بعض أتباعها باعتدالهم[4].

---

(1) الديوان ، ص : 103 .
(2) نذكر من ذلك (الدين الخالص) للعقبي ، نشرت أول مرة بالشهاب العدد : 3 — 30 محرم 1354 هـ / 20 أوت 1925 . وقصيدة الزاهري المنشورة في سجل مؤتمر جمعية العلماء 1935 ، ص : 267 . وقصيدة الطاهر بن عبد السلام (شيوخ الطرق ويذ خهم) شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 2 : 66 .
(3) ينظر عبدالله ركيبي (الشعر الديني الجزائري الحديث) ، ص : 602 .
(4) ينظر محمد الحافظ التيجاني (رسالة الاتصال) ، ص : 21 .

ونظن أن المرء سيزداد يقينا باعتدال موقف الشاعر في هذا المضمار، اذا ما أضاف الى ما عرفه عنه من عدم مجاراته لبعض المتشددين في ذلك الموقف، أنه لم ينزل فيه في الوقت ذاته الى من انحدر اليه بعض الغلاة ممن وقفوا هم الآخرون على الضفة الأخرى الى جانب المشايخ، والمتمربطين، وأدعياء التصوف موقفا متطرفا، ساعدهم على الغلو في تمجيد أولئك القوم، والتنويه ببركات الأغواث والأقطاب، والرفع من مكانتهم الى درجة توشك أن تخرجهم من طبيعة البشر. ويظهر هذا الاتجاه واضحا بوجه خاص في ديوان (منار الاشراف) [1] للشيخ عاشور الخلقي، وفي نتاج الشعراء: الشيخ الرابحي، وأحمد مفتاح، وأحمد الأكحل.

وان هذا المنهج الوسط الذى تجلى به الشاعر في هذا المقام، انما هو جزء من منهجه العام الذى أخذ به في حياته، فانعكس في شعره نتيجة لتعمقه لروح الاسلام الذى ينادى بوجوب الاعتماد في الدعوة الى الله، على الحكمة والموعظة الحسنة، يقول الله عزّ وجلّ: (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) [2]. ومما يزيد في التأكيد على أن هذا الاعتدال الذى يظهر في شعر محمد العيد، انما هو تعبير عن منهج عام أخذ به في كثير من مواقفه، ما يلمح في نثره من ميله الى الأخذ بهذه الخطة في التعامل مع الآخرين. ويبدو أن الشاعر عني بذلك النموذج من الناس الذى يفضل — ما وجد الى ذلك سبيلا — أن يحارب الباطل بالتمكين للحق، ويقارع الفساد بنشر الفضيلة، ويقاوم الضلال بالارشاد الى الهدى. وهو لا يعدل عن هذا الأسلوب ولا يرضى عنه محيدا مالم يدفع الى سواه دفعا، ويقسر عليه قسرا [3].

ويمكن أن يعلل هذا الموقف الذى طبع شخصية محمد العيد، وطبع شعره في هذا المجال، وفي غيره من مجالات الحياة الأخرى بجملة من العوامل يأتي في مقدمتها، مزاجه المعتدل، وميراثه الصوفي، ونشأته الدينية، ونزعته الاصلاحية، ويبدو أن هذه المؤثرات مجتمعة قد اصطلحت على تكوينه، ذلك التكوين النفسي والفكرى، الذى صبغ سلوكه ومواقفه العامة في حياته بطوابع الميل الى الاعتدال والمسالمة، والركون الى الوفاق والوئام، ونبذ التعصب واجتناب أسباب الخلاف.

الا أن النشأة الدينية والنزعة الاصلاحية، ليستا مقتصرتين على محمد العيد، وانما هما أمران يشاركه فيهما غيره من اخوانه المصلحين، ومع ذلك فقد كان الخلاف

(1) طبع بالمطبعة الثعالبية الجزائر سنة 1914.
(2) الآية: 125 — سورة النحل.
(3) ينظر مقاله (عيد المولد النبوى) البصائر العدد: 22 — 5 جوان 1936، ص: 6.

الملحوظ في المواقف بين الشاعر وبين أولئك من الموضوع المصالح . ويمكن القول أنه لم يبق أمام المرء من تحليل يحلل به مايراه من اتجاه الشاعر في ذلك الاتجاه ، الا أن يميل الى ترجيح العاملين الأولين وهما مزاجه ونزعته الصوفية عن غيرهما . واذن فقد صدر الشاعر في موقفه ذلك من ذاته . غير أنه لا يستبعد أن يكون قد تأثر فيه الى جانب ذلك بموقف ابن باديس المعتدل من الموضوع المصالح دون غيره من المصلحين ، لاشتراكهما الاثنين في واحد من ذينيك المؤثرين السابقين وهو تلك النزعة الصوفية .

وسيكون المرء أكثر توجيها لما مال اليه ، اذا ما أضاف الى ماسبق ، أن الشيخ العقبي الذى اشتهر بصلابته في درء الفساد ، ونشر الفكر الاصلاحي ، لم تكن تربطه في حياته أية رابطة بتلك الزوايا التي أصبح بعضها بؤرة لظهور أدعياء التصوف ، وملجأ لمحترفي الشعوذة والتدجيل ، وذلك لنشأته بالحجاز حيث فتح عينيه أول ما فتحهما على الفكرة الوهابية ، فاكسبه ذلك مناعة وحصانة ضد الزيغ والانحراف ، وطبعته تلك الدعوة بطابعها القائم على التمكين لعقيدة التوحيد الخالصة ، والتصدى بشدة للمبتدعين فيها . فكان بذلك من أكثر اخوانه المصلحين استعدادا لعدم السقوط في مدار جاذبية ذلك التصوف السلبي ، ومن أشدهم مقارعة له ومناضلة لأدعيائه . وقد زاد في طبع موقفه بما طبع به من صلابة وشممدة ، ما عرف به من حدة المزاج وفورة الانفعال ، وميله الى الجهر بما يؤمن بأنه الحق ، دون أن يخشى في ذلك لومة لائم .

وأما الزاهرى الذى يشبه موقفه من الطرقية المزيفة موقف العقبي منها ، فهو وان لم ينشأ (وهابيا) كالعقبي ، فانه لم ينشأ كذلك في بيئة وفي أسرة صوفية كمحمد العيد ، ولم يكن طبعه كطبع الشاعر في هدوئه واعتداله وثباته ، وفي حرصه على الركون الى المسالمة وطلب العافية . وان هذا التباين الملحوظ بين الشاعر وبعض زملائه في التكوين النفسي والفكرى ، وانعكسات ذلك على السلوك ، هو الذى يمكن أن يعطي لكل فرد من هؤلاء الأفراد شخصيته المميزة ، ووجهة نظره الخاصة به تجاه ما يحيط به من ظواهر وأحداث . وانطلاقا من هذه المسلمة يمكن القول أن موقف الشاعر المعتدل الذى وقفه من الموضوع المصالح — وهو جزء من موقف عام اتخذه من مختلف قضايا الحياة — انما هو ثمرة من ثمار شخصيته المميزة القائمة على المزاوجة مابين الصوفية والاصلاح ، فهو صوفي مصلح ، ومصلح صوفي ، اصطلح على تكوينه النفسي والعقلي الاصلاح والصلاح ، فأثمر ذلك قوة في العقيدة ، وفهما صائبا لما تقوم عليه من الجمع بين الدين والدنيا ، لقد كان الشاعر يمسك بيد مشعل الاصلاح ، ويشد بالأخرى على راية التصوف السني ، ويصنع لنفسه من هذا وذاك قوة ذاتية فاعلة يناضل بها عن الاسلام الصحيح ، ويخض بها على طلب الحياة الكريمة .

وان الشاعر بسلوكه هذا المسلك الذى يجمع فيه بين الاصلاح والتصوف السني معا ، لم يكن بذلك بعيدا عن روح الدين الاسلامي ، كما لم يكن في ذلك بدعا من قومه ، وانما هو اتجاه سبقه اليه كثير من العلماء والمصلحين في التاريخ العربي الاسلامي القديم والحديث ، من أمثال (الغزالي ، والسنوسي ، والمهدى ، والأفغاني ، وابن باديس وغيرهم) . هؤلاء الذين جمعوا في حياتهم بين التصوف الايجابي ، وبين الجهاد من أجل الحياة الكريمة . ويبدو أن أخذ هؤلاء بهذا المنهج ، انما كان ناجما عن ادراكهم لحقيقة الدين الاسلامي بوصفه قوة روحية ومادية في وقت واحد . وهم اذ يظهرون بذلك المظهر انما يصورون النموذج الأمثل للسلوك الاسلامي الذى يتمثل في السعي الدائب لتحقيق التوازن بين مطالب الحياة الدنيا ، ومطالب الدار الآخرة ، وذلك هو الاسلام في جوهره وفي مقاصده .

ونود أن نشير في ختام هذه الفقرة أن نعقد موازنة بين موقف الشاعر من هؤلاء المبتدعين في الاسلام ، وبين موقفه من أولئك المتعصبين ضد هذا الدين ، يمكن أن تؤدى بصاحبها الى أن يلحظ أن هذين الموقفين يلتقيان في جانب ، ويختلفان في آخر .

أما وجه اللقاء بينهما ، فذاك الذى يتبدى في ميل الشاعر فيهما معا الى الاعتدال ، وغلبة روح التسامح فيهما عليه ، وابدائه ارادة كبيرة في الابتعاد عن التعصب والأهواء . فهو كما لم يجار المتعصبين على الاسلام في تعصبهم ، لم يعامل المنحرفين بمثل أسلوبهم ، ولم يشجع غيره على مسايرتهم في نهج الجريمة الذى انتهجوه ضد الاصلاح ، وكان بذلك أرحب منهم صدرا ، وأوسع منهم أفقا ، وأشد منهم حرصا ، على الصلح والسلام .

وأما الوجه الذى يختلف فيه ذانك الموقفان ، فذلك ما يبدو واضحا في مواجهة الشاعر لأولئك المنحرفين ، تلك التي بدا فيها أطول نفسا ، وأكثر تنوعا لضروب القول فيها منه ، في مجابهته لأولئك المتحاملين على الاسلام . ويمكن أن يرد ذلك لجملة من الأسباب يأتي في مقدمتها :

ان تمسك الأمة بعقيدتها كان قويا ، وأن هوية أولئك المتحاملين على الاسلام كانت معلومة ونشاطهم في محاربة العقيدة كان مكشوفا ، مما قلّل من خطرهم وجعل السّواد الأعظم من أفراد الشعب الجزائرى ، لا تخفى عليه نواياهم ، ولا يخشى عليه من محاولاتهم . ولهذه المعطيات كان ذلك القليل من الشعر يكفي في التنبيه الى نشاط أولئك المتعصبين والتحذير منه . أما فيما يتعلق بنشاط المنحرفين فالأمر مختلف ، وذلك لانتماء هؤلاء الى الأمة ، وانتشارهم في وسطها ، وانتسابهم الى الدين ، وتظاهرهم بمظهره ، الأمر الذى أدّى الى التباس حالهم على بعض الناس في

كثير من الأحيان ، أضف الى ذلك نوعية المبادئ والأفكار التي يعتنقها الشاعر ، وتصاعد حدّة الصراع الدائر مابين الاصلاح والطرقية في فترة من الفترات. ان كل هذه العوامل مجتمعة استدعت من الشاعر أن يقف موقفا خاصا من أولئك الجامدين انعكست آثاره على شعره فطبعته بطابع مميز .

ونخلص الى القول في ختام هذا الفصل ، أن الشاعر كما تبدو في شعره الذي يمكن فيه للعقيدة الصحيحة والمنافحة عنها ، الى مقارعة المناوئين لها على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ، فقد كان له الى جانب ذلك موقف آخر ، أشاد فيه بجماعة الاصلاح الذائدة عن هذه العقيدة ، ونوّه فيه بجهاد قادتها من العلماء المصلحين في مجال الذود عن حمى الدين والوطن ، وذلك ما يحاول البحث أن يجليه في الفصل التالي .

الفصل الثاني

الاشادة بالحركة الاصلاحية وكبار قادتها

ان موقف الشاعر من الحركة الاصلاحية ونضاله في صفوفها يرجع الى أيام شبابه حيث كان في بسكرة ، يسهم بجهوده المختلفة ، وبحماس ملحوظ في نشاطات تلك الحركة، وهي ما تزال في بداية عهدها تتلمس طريقها نحو أهدافها الوطنية البعيدة .

ولعلّ أول عمل فني ، يسجل حضور الشاعر في هذا الميدان ، مما وصلنا من شعره ، هو قصيدته " داعي النهوض "(1) هذه التي حاول فيها أن يصور بعض ما ينوء بحمله كاهل المجتمع الجزائري يومئذ ، مما ينتشر في صفوفه من مفاسد ورذائل . فكشف بذلك في تلك الفترة المبكرة من حياته عن وعي صادق ، وفهم سديد لحقيقة التمدّن والتقدّم الذى تنشده الأمم ، والذى ليس هو في جوهره ، كما يتصوره بعضهم تفسخا وانحلالا وتحللا من القيم الأخلاقية والاجتماعية ، وانما التمدن الحقيقي في نظر الشاعر انما هو حب الوطن والنضال من أجل عزه وسعادته ، يتوجه الشاعر بهذه المعاني الى قومه في لهجة تقريرية ونبرة خطابية واضحة فيقول :

ولا تحسبوا أن التمدن لبسكم — خزا وصرف المال في اللذات
ان التمدن حبكم وطنا غدا — كالأم يحفظكم من الآفات
ان التمدن سعيكم في حله — من كبله برزانة وثبات

ويهيب الشاعر بقومه أن ينهضوا لتخليص وطنهم من تلك الأدواء ، وأن يقتدوا في ذلك بعلماء الأمة ، أولئك الذين وطّنوا أنفسهم على النهوض بتلك الرسالة ، فشرعوا في الخطوات الأولى من مسيرتهم النضالية على ذلك الطريق ، يعبر عن ذلك في القصيدة نفسها :

بالله قوا وطنا غدا من فملكم — في أتعس الحالات والكربات
بالله قوا وطنا تداعى سقفه — لولا رجال أحسن الحولات
فاقوا بحزم وارتدوا حلل العلى — واستعملوا الالحاح في الطلبات
راموا بكل حفاوة هام السهى — للوطن حتى مهدوا العقبات .

ولعل الدارس لايحتاج الى جهد كبير ليدرك من خلال مايلحظ من سمات التعبير في هذين النصين أن الشاعر كان في هذه القصيدة ، في بداية عهده بقرض الشعر، ما يزال غض التجربة، قليل التمرن بالفن الشعرى ، مما يمكن أن يفسر ما يبدو من ضعف من الناحية الفنية فيها ، فطريقة التناول فيها ذاتية ضعيفة ، والألفاظ تقريرية جافة، والتعابير نثرية ثقيلة ، والصور نادرة ، وحسبك هذه الكلمة " قوا " التي ألح الشاعر على تكرارها . وهذه العبارات (في أتعس الحالات ، واستعملوا الالحاح ، فاقوا بحزم ، راموا بكل حفاوة) ، وهذه الكلمات التي تنتهي بها القافية

---

(1) نشرت في النجاح 24 جويلية 1925 . وذكر لي الشيخ حمزة بوكوشة ، ان الشاعر نظمها قبل هذا التاريخ ، وهي من شعره المجهول ، ينظر الملحق .

(الكربات ، الجولات ، العقبات) ألا تحس بما يحدث وقعها في سمعك من ثقل ؟ بالرغم ممّا يتمتع به روى " التاء " من خفة الايقاع التي تجعله من أليق الحروف وأنسبها بهذا المكان ، ولا يسعك أمام هذا الا أن تكون واحدا من اثنين : فان كنت ممن يبحث في الشعر عن معنى وحسب ، فلعلك واجد ضالتك في مثل هذا الذى بين يديك . واما ان كنت ممن ينشد المتعة الفنية في العمل الشعرى لما ينبغي أن يتسم به من لغة موحية مكثفة ، وصور معبرة جميلة ، وأنغام راقصة عذبة ، فانك غير ظافر ببغيتك .

وان القصيدة في مجملها على هذا النحو من الضعف الفني ، ويمكن تعليل ذلك بجملة من العوامل :

لعلّ من بينها تركيز الشاعر في هذا العمل على الوظيفة الاجتماعية أكثر من طلبه الوظيفة الفنية ، ويمكن أن يضاف الى ذلك ، قلة تمرسه بالحياة ، وضعف ثقافته الشعرية وهو في بداية الطريق ، يتلمس سبيله نحو مكانه في سلم الفن الشعرى .

ومهما يكن من أمر فان هذه الروح الدينية والوطنية التي تغلب على هذه القصيدة هي التي ستطغى ، فيما بعد ، على سلوك الشاعر ، واتجاهه الفني ، وستكون الطابع العام الذى سيلون بطوابعه الخاصة حياته وشعره في جميع مراحلهما المختلفة . كما يستطيع الباحث أن يدرك من جهة أخرى ، أن هذا العمل من خلال ما اتسم به من معاني ومن سمات فنية ، يعكس بوضوح أنه من أوائل أعمال الشاعر .

ويواصل الشاعر عزف ألحانه على هذه النغمة ، مشيدا بالاصلاح ، ومهيبا بالأمّة أن تسير على نهجه ، وأن تقتفي أثره ، وأن تلتف حول قادته من الأعلام المخلصين وتنضوى تحت لوائهم .

وتبدو هذه الدعوة مبثوثة في مجموعة كبيرة من قصائده تأتي مقدمتها : أعماله التي ظهرت في هذه الفترة ، من مثل (صدى الصحراء ـ لله أيام الزفاف ـ ما بال آشيل بهذى ـ الشهاب يحيي الشباب) ، ولم تلبث هذه الجهود أن أتت أكلها فتبلورت الأفكار وتظافرت الأعمال ، والتقى أصحابها في جبهة واحدة ، وكان ذلك يوم تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . ويهتز الشاعر طربا بهذا الحدث العظيم في حياة الشعب الجزائرى ، فيدفعه ذلك الى اعتلاء منصة الاحتفال بهذه المأثرة الخالدة ، يهنيء العلماء ويشيد [illegible] ، ويهنئ الأمة ، [illegible] بما [illegible] الا [illegible] ثمار طيبة ، ومن خير وافر على طريق ما تنشده من عزة ومن سؤدد ، يعبر عن بعض ذلك في قصيدته (تحية العلماء) (1) ، مرحبا بهؤلاء ، ومهنئا اياهم قائلا :

(1) الديوان ، ص : 247 ، ونشرت في الشهاب ، ج 6 م 7 ، صفر 1350 هـ / جوان 1931 م ، ص : 381 .

على الرحب حلوا أجمعين على الرحب
فأنتم ضيوف في حمى الله والشعب

طلعتم علينا كالكواكب في الدجى
وسرتم الينا كالسحائب في الجدب

بسطنا لكم منا قلوبا حفية
فدوسوا عليها لا تدوسوا على الترب

مضى زمن والبعد كالسيف مصلت
عليكم مشت للجميع بسلا ذنب

وقد حلّ هذا العيد باليمن جامعا
لشملكم فاستأصل البعد بالقرب

هنيئا لكم هذا اللقاء فانه
بشير بما تبنون من راسخ الحب

أعيدوا على الاسلام هدى محمد
بما كان يمليه على الآل والصحب

فيا عصبة العرفان ياقادة الهدى
تعالوا نرد الشعب، ملتم الشعب.

وبالرغم مما في هذه الأبيات من بساطة المعنى، وسيطرة الأسلوب الخطابي على أدوات التعبير فيها، وقرب خيالها الذى يعتمد على أبسط ألوان البيان التقليدية. فان ذلك لم يمنع الشاعر من التعبير عن احساسه بهذا الحدث، ونقل شيء من ذلك الى المتلقي، مما يجعل الدارس يلمح هذه النقلة التي حققها الشاعر في هذا العمل، بمقارنته مع النموذج السابق، بتحرره فيه من مظاهر الضعف البادية هناك، وطبعه بطابع فني واضح. ويمكن القول أن هذه القصيدة تعدّ من أروع أعمال الشاعر: صدق احساس ونبل مقصد، وجمال تعبير.

ويمسي هذا اليوم من هذا التاريخ، عيدا من أعياد الأمّة تحتفل به وتحيي ذكراه في كل سنة. ويصبح الشاعر من هذا العهد شاعر الجمعية الذى لا يبارى، يبشر بمبادئها ويشيد بمواقفها ويوقف قسطا كبيرا من شعره عما تهدف اليه من مرام وما تصبوا اليه من مقاصد.

ويعثر المرء على شعر غير قليل له في هذا الباب، مبثوثا في ثنايا مجموعة كبيرة من أعماله. الى جانب تلك القصائد التي كان ينظمها في كل سنة خصيصا لتلقى في الاجتماع العام السنوى لجمعية العلماء.

وقد اجتمع له من شعر هذه المناسبة وحدها سبع قصائد يمكن تسميتها بالحوليات(1). وهي على التوالي: (تحية العلماء ـ لؤلؤة لماعة(2) ـ دعوة الى الحسنى(3)

(1) يذكر سعد الله أن الشيخ الابراهيمي كان يطلق على هذه القصائد ذلك الاسم، ينظر كتابه (محمد العيد آل خليفة)، ص: 219.

(2) مرّ معنا أن الشاعر نظم هذه القصيدة سنة 1932 وهي من شعره المجهول، ينظر الملحق.

(3) ألقاها الشاعر في الاجتماع العام، ونشرت بجريدة السّنّة، العدد: 19ـ3 جويلية 1973. وفي تقديمها بالديوان، ص: 102، خطأ في مكان وتاريخ نشرها. وقد سها محققو الديوان فذكروا أن للشاعر حولية أخرى في هذه السنة وهي (من الجزائر)، ينظر الديوان، ص: 420. ويعثر الباحث على رواية في (الشهاب ج 11 م9، أكتوبر 1932، يمكن أن تزيل هذا الالتباس، اذ تنص بأن الشاعر ألقى هذه القصيدة (في مأدبة جماعة نادى الترقي بالعاصمة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين). وواضح من هذه الرواية أن الجلسة التي ألقى بها الشاعر قصيدته، انما هي مأدبة يمكن أن تكون قد وقعت بعد الاجتماع العام المعهود. ومما يرجح ذلك أن القصيدة (دعاة الى الحسنى) نشرت بتاريخ 3 جويلية 1933. بينما نشرت (من الجزائر) في 28 أوت 1933. ونحسب أن هذا السبق الزمني يزيل ذلك الالتباس.

أيها السامر [1]. عيد الحرم [2]. رفاق الخير [3]، استوح شعرك [4]. وقد وقفنا قبل قليل عند أولى هذه الحوليات.

وأما الأخيرة منها فقد ألقاها في مثل هذه المناسبة من سنة 1937، وهي آخر ما عثرنا عليه من حولياته في جمعية العلماء، ونميل الى أنه لم ينظم بعدها في موضوعها نظرا لما طرأ على سير الحركة الاصلاحية وما شهدته من أحداث يومئذ كانت من أشدها تأثيرا عليها (حادثة البرقية) تلك التي وقعت في شهر سبتمبر 1933. ومفاد ذلك أن فرنسا طلبت من الجمعية أن تبعث ببرقية تأييد لها فعرض ذلك في مجلس عام لجمعية العلماء، فانقسم الرأى فيه الى فريقين: فريق يناهض فكرة البرقية وعلى رأسه ابن باديس وفريق يناصر الفكرة وعلى رأسه العقبي. ونجم عن ذلك تصدع في وحدة جمعية العلماء وخروج العقبي من مجلسها الادارى [5].

وكان من الطبيعي اذن أمام هذا المصير الذى انتهت اليه الحركة الاصلاحية، وبالنظر الى تلك العلاقة الحميمة التي كانت تربط الشاعر بقطبيها: ابن باديس والعقبي اللذين تفرقت بهما السبل، كان من الطبيعي أن يدفع ذلك الشاعر دفعا الى وضع حدّ لعهد الحوليات، فكان ذلك، وكانت فيما يبدو (استوح شعرك) آخر وقفة للشاعر على منصة الاحتفال بتلك المناسبة.

وتجدر الملاحظة أن جمعية العلماء استمرت في نشاطها العادى حتى سنة 1939، وقد شهدت هذه السنة اتخاذ قرارها بوقف جميع نشاطاتها، حتى تفوت الفرصة على المحتل الأجنبي، الذى حاول أن يستغل بعض أجهزتها في هذه الآونة لخدمة أغراضه.

غير أن الباحث لا يعثر في شعر محمد العيد ما يدل على أنه قد حضر اجتماعاتها السنوية لعامي (38 - و 1939) وأنه ألقى فيهما شعرا كما كان يفعل في

---

(1) الديوان، ص: 115. وقد ألقاها الشاعر في اجتماع سنة 1934. ونشرت بالشهاب ج 9 م10، أوت 1934.

(2) الديوان، ص: 99. ألقيت في اجتماع سنة 1935، نشرت بسجل مؤتمر جمعية العلماء لسنة 1935، ص: 262، وهي به بعنوان (وأنت لها الحكم).

(3) الديوان، ص: 132. ألقيت في اجتماع سنة 1936. ونشرت بالبصائر العدد: 3 - 17 جانفي 1936، ص: 5، وهي بها بعنوان (نحن في الخير رفقة).

(4) الديوان، ص: 143. ألقيت في اجتماع سنة 1937. ونشرت بالبصائر 30 سبتمبر 1937. وتذكر جريدة (الأمة) لأبي اليقظان العدد: 139 - 12 أكتوبر 1937. أن الشيخ العقبي قد قام على اثر سماعه هذه الحولية وقال (اني لم أقبل في عمرى أحدا الا خطيب الجزائر المصقع الشيخ الفضيل بالأمس، وأمير الشعراء محمد العيد اليوم، فقبله بين عينيه، وكان المنظر مؤثر للغاية).

(5) ينظر الشهاب، ج 8 م14، شعبان 1357 هـ / أكتوبر 1938م. ص: 105.

مـــثلهمـا في السـنوات الفارطــة (1) .

وتجدر الـــملاحظة أن الشاعر أحمد سحنون كان قد أخذ مكانة محمد العيــد في الأربعينات في نظم قصائد (حولية) في الاجتماعات السنوية لجمعية العلماء المسلمين الجزائـريــين (2) .

ونذكر أننا وقفنا عند معظم حوليات الشاعر في أكثر من موطن ، في هذا البحث . وكان من أقرب هذه المواطن الينا ، ومن أكثرها استفادة منها ، الفصل السابق الذى تناولنا فيه دراسة شعر محمد العيد في المنافحـــة عن العقيدة ودفع كيــد الشائنين عنها .

ونلحظ أن الشاعر كان يركز في هذه الحوليات بخاصة على التنويه بمبادئ جمعية العلماء وما تصبو الـــى تحقيقـــه من أهداف على طريق النهوض بالحيـــــاة الوطنية في مختلف مظاهرها الاجتماعية والفكريــة والسياسيــة .

فكان يمكن فيها للعقيدة الاسلامية الصحيحة وينافح عنها ، ويدعو الى الاقبال على الحياة والأخذ بأسباب العلم النافع ، والعمل الصالح ، والتحلى بالفضائل ، والتمسك بعرى الاتحاد ، والافــادة من كل ذلك فيما يمكن الأمــة من التحريـــر ويمدهـــا بأسباب العــزة والتقــدم .

ويمكن القول أن نتاج الشاعر منذ الحولية الأولى (تحية العلماء) أصبح له مذاق مميز ، فقد كان معظمــه قبلها ، تكاد تطغى عليه نغمة الحيرة ، لاحساس الشاعر بالقلق في واقع سيء مضطرب ، الأمر الذى جعله ينشـــد الحقيقـــة ويبحـــث عن الحادى الذى يقود القافلـــة نحو أهدافهـــا . فكان ذلك ـــ فيما يبدو ـــ ممثــلا في جمعية العلمـــاء ، التي يظهر أن الشاعر رأى فيهـــا الأمل ، الذى كان ينشـــده ، فانضوى تحت لوائهـــا ومضى يجاهد على نهجهـــا ، مما أضـفـــى على شعره في هذه الفترة طمعـــا خاصـــا طبعه بطابع الأمل والثقـــة في المستقبـــل .

وقد كان الشاعر الى جانب هذا النشاط الذى يقوم به في اطار جمعية العلماء يسهم بمجهـــود غير قليل فيما تنهـــض به مدرسة الشبيبـــة الاسلامية بالجزائر العاصمـة من أنشطـــة مختلفـــة ، بصفتـــه مديرا لها ، وقد كان بالاضافة الى قيامـــه بمهمتـــــه التعليميـــة بها ، واشرافـــه على اعداد احتفالاتهـــا السنوية ، وكتابـــة التمثيليات لطلابها ، وضعـــا واقتباســا واخراجا ، والقاء الخطب بها ، كان الى جانب ذلك ينظم بمـــــذه

---

(1) سبقت الاشارة الى انعقاد اجتماع سنة 1938 ، أما فيما يتعلق بانعقاد اجتماع سنة 1939 ، ينظر الشهاب ج 1 م15 ، محرم 1358 هـ / فيفرى 1939ك ، ص : 21 .

(2) ينظر ديوانه ، ص : (25 ـ 28 ـ 43 ـ 117 ـ 226) .

المناسبة التي تتكرر أيضا كل عام قصيدا يلقيه بهذا الحفل فاجتمع له من ذلك أيضا مجموعة من (الحوليات) قد تضامي حولياته في جمعية العلماء ، وتلتقي معها في البواعث وفي الأهداف . ونذكر أننا استعرضنا بعض هذه القصائد في صلب هذه الرسالة ونكتفي بالتذكير بها فيما يأتي مراعين في ذلك ترتيبها ترتيبا زمنيا وهي : (صرخة ثورية [1] ـ تحية ووصية [2] ـ تحية الشبيبة [3] ـ ميهات يخزى المسلمون [4] ـ في أذن الشرق [5] ـ بلادي [6] ـ ويخلد الاسلام [7]) .

وكان الشاعر الى جانب مساهمته في هذه النشاطات التي تحييها جمعية العلماء، وجمعية الشبيبة ، لا يتوانى عن الحضور في المناسبات العامة المختلفة التي تخلد وجها من وجوه النهضة الوطنية العامة ، كتأسيس مسجد ، أو بناء مدرسة ، أو فتح ناد ، أو اصدار صحيفة ، أو نشر كتاب .

وان من يستقرئ شعره في هذه المجالات المتعددة يعثر له على مجموعة كبيرة من الأعمال نكتفي بالاشارة الى أهمها حسب ترتيبها الزمني وهي :(تحية الشهاب للشباب [8] ـ يا قوم [9] ـ أيها الرافعون القصور [10] ـ

---

(1) الديوان ، ص : 417 ، نظمت سنة 1932 .

(2) الديوان ، ص : 125 . نشرت بالشهاب ج 3م8 ـ ذي القعدة 1350 هـ /مارس 1932، ص : 216 .

(3) الديوان ، ص : 108 . نشرت بالشهاب ج 3م9 ذو القعدة 1351 هـ/ مارس1933 ص : 147 .

(4) الديوان، ص : 112 . نشرت بالشهاب ج 3م10 ذو القعدة 1352هـ/فيفري 1934 .

(5) الديوان ، ص : 117 . نشرت بالبصائر العدد : 1 ـ فاتح شوال 1354هـ/ 27 ديسمبر 1935، ص : 4 ، وهي بها بعنوان (ومن العلم للمواطن تاج) .

(6) الديوان، ص : 135 . نشرت بالبصائر 28 شوال 1336 هـ / 31 ديسمبر 1937 . وهي بها بعنوان (أبى الله الا أن يضم قلوبنا) .

(7) الديوان ، ص : 176 . نشرت بالشهاب ج 6 م15، جمادى الثانية 1358هـ / جويلية 1939 ، ص : 293 .

(8) الديوان ، ص : 87 .نظمها الشاعر في تقريظ جريدة الشهاب ، وبها نشرت سنة 1926 . كما نشرت بكتاب (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) ج 1 : 25 . وهي بالمصدرين بعنوان (الشهاب يحي الشباب) .

(9) الديوان ، ص : 94 . ألقاها الشاعر بحفل افتتاح (نادي النهضة) بمدينة البليدة ، وتذكر مخطوطة الديوان ج 2 : 37 ـ أنها نشرت بجريدة المرصاد 10شعبان 1351 هـ / 9 ديسمبر 1932 .

(10) الديوان ، ص : 250 ألقيت في حفلة الجمعية الخيرية بقاعة (الماجستيك) بالعاصمة . ونشرت بالشهاب ج 5 م10ـ محرم 1352 هـ / أفريل 1934م .

تحيـة دار الحديـث (1) — كلمـة في الرسالـة (2) — اعـزم السـير (3) — الـى العلـم (4) — بشـرى للجزائـر (5) — في يوم باتنـة المظيم (6) — هي الهمة القعساء (7) .

وقد مرّ معنـا في مستهل هذه الفقرة أن الشاعر بدأ يحذو قافلة النهضـة الوطنية ، وهي في بداية طريقها منذ أوائل العشرينات ، وقد ظل وفيا لها ، يواكـب تطوراتها ، ويبارك خطواتها الى أن أينعـت ثمارها ودنت قطوفها ، وها هو ذا يهتف لها ، وهي تشـق دربهـا في مستهل الخمسينات نحو أهدافها الكبرى فيـقول :

رعى الله في أرض الجزائر نهضـة ... مباركة في العلم تسمو الى النجـم
وترمي الى أهدافها بقصود هـا ... موفقـة الأنظار صائبـة السهـم (8)

وان الملاحظـة الأساسية التي تلفت الانتباه في هذا النتاج الغزير ، أن الروح الاسلامية واضحة فيه ، وأن معظمه متصل بالحركة الاصلاحية فكرة ومنهجا باستـثناء قصيدته (اعزم السير) التي قالها في المعهد الكتاني بقسنطينـة . ويمكن أن يفهم أحد مـن خلال هذا المنهج الذى كان يسير على دربه الشاعر أنه كان منحازا لهذه الحركة دون غيرها ، والحقيقـة أن الشاعر لم يكن كما تبينا في غير هذا المكان من البحث (9) فـي مواقفـه وفي شعـره متعـصبا لطرف من الأطراف وانما كان يبارك بفنـه ونشاطـه كل جهد مخلـص يتصـدى لخدمـة القضيـة الوطنية ، والشخصية العربية الاسلامية .

---

(1) الديوان ، ص : 79 . تذكر جريدة (الأمة) لأبي اليقظان العدد : 139 — 12 اكتوبر 1937 . أنها ألقيت في حفل تدشين مدرسة (دار الحديث) يوم 27 سبتمبر 1937 . وتذكر مخطوطة الديوان ج 1 : 138 — انها نشرت بالبصائر العدد : 116 — 17 افريل 1950 .

(2) الديوان ، ص : 140 — نظمت في تقريظ كتاب (رسالة الشرك ومظاهره) للشيخ الميلي المطبوع سنة 1937 ، وهي به بالمخطوطة ج 2 : 23 بعنوان (شرع الاله الدين للاتباع) .

(3) الديوان ص : 190 . تذكر مخطوطة الديوان ج 1 : 49 . أنها ألقيت في حفل ختم الدروس (بالكلية الكتانية القسنطينية) ونشرت بالنجاح 3 شعبان 1366 هـ / 16 جويلية 1947 .

(4) الديوان ، ص : 202 . تذكر المخطوط ج 2 : 134 . أنها ألقيت في حفل تدشين مدرسة التربية والتعليم بمدينة بسكرة سنة 1951 . ثم نشرت بالبصائر 28 ربيع الثاني 1370 هـ 5 فيفرى 1951 .

(5) الديوان ص : 211 . القيت بحفل افتتاح (دار الطلبة) التابعة لمعهد عبد الحميد ابن باديس بقسنطينة يوم 8 نوفمبر 1953 . ونشرت بالبصائر العدد : 249 سنة 1953 .

(6) الديوان ، ص : 216 . ألقيت في حفل افتتاح مدرسة التربية والتعليم بمدينة باتنة يوم 5 سبتمبر 1954 . ولم يذكر محققو الديوان مكان نشرها .

(7) الديوان : ص ، 541 . نظمت في تقريظ كتاب (القواعد) للشيخ أحمد السرحاني وذلك بتاريخ 7 سبتمبر 1967 .

(8) الديـــوان ، ص : 202 ، من قصيدته (الى العلم) التي نظمها سنة 1951 .

(9) ينظـر ، ص (717) .

وقد كان ذلك النتاج متصلا بالحركة الاصلاحية في الواقع لسبب موضوعي وهو أن هذه الحركة انما كانت في وقت من الأوقات وحدها في الميدان ، رائدة للنهضة الوطنية العامة . وحاملة لراية الدفاع عن هذه الأمة ، وذائدة عما يستهدف مقومات شخصيتها من طمس وتشويه ، ويمكن أن يتأكد من يشاء مما نذهب اليه من خلال تتبعه لأعمال الشاعر في هذا الباب في المراحل اللاحقة التي شهدت فيها الحركة الوطنية تطورا في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فمكنها ذلك من الوصول بجميع فصائلها الى رؤية نضالية تكاد تكون واحدة .

وقد انعكس ذلك على الشاعر فلم يلبث أن ساير هذا التطور في نتاجه ، وانتقل فيه من التلميح تارة بالدعوة الى اليقظة والنهوض للمطالبة بالحق الوطني ، الى التصريح تارة أخرى ، بالحث على اعلان الثورة ضد العدو ، وهذا ما أصبحت تنادي به جميع القوى الوطنية في هذه الفترة .

* * *

وكما خص الشاعر في هذه المرحلة ، الحركة الاصلاحية بشعر كثير ، فقد أوقف كذلك مجموعة ليست قليلة من أعماله على كوكبة من رجالها بصفتهم علماء دينيين ، وزعماء وطنيين ، قضوا حياتهم يذودون على الوطن ويدفعون عنه ، وعن مقوماته وقيمه ، غيلة الظلم ويد الأهوال .

وقد أشاد في هذه الأعمال بمواقف هؤلاء الأعلام ، وهم أحياء يجاهدون ويناضلون ، وأحياء ذكراهم ، ودعا الى اقتفاء أثرهم والسير على نهجهم ، وقد التحقوا بالرفيق الأعلى حيث يرزقون ويؤجرون .

وقد عرفنا أن الشاعر تربطه صلات حميمة خاصة بأكبر أساطين هذه الحركة ، وهم : ابن باديس ، والعقبي ، والابراهيمي . ولذلك فقد خص كل واحد من هؤلاء الثلاثة بجملة من قصائده ، صور فيها ما اكتنف حياة كل منهم ، من ظروف وملابسات ، وما كان له من جهاد ونضال ، في سبيل قيم هذه الأمة ومقوماتها وقضاياها .

ونبدأ باستعراض أعمال الشاعر في ابن باديس فنجدها بلغت أربعة وهي على التوالي : (حمتك يد المولى) ، (ختمت كتاب الله) ، (ياقبر) ، (عاش وقفا على الجزائر) .

ونلحظ أن العملين الأولين كان الشاعر قد نظمهما في حياة ابن باديس وأما الثالث والرابع فقد قالهما بعد وفاته .

وقد ألممنا الى بعض هذه الأعمال ، في أكثر من مكان في هذه الرسالة ، الأمر الذى يجعلنا نكتفي منها هنا ، بما يبرز لنا جهاد هذا الفقيد ونضاله ، على طريق النهضة الوطنية ومساهمته الفعالة في اعداد الفرد الجزائرى اعدادا روحيا وماديّا ، يمكن أن يساعده في القيام ، بأعباء النهوض بالوطن والمساهمة في تحريره .

ونأتي الى أول هذه الأعمال وهو (حمتك يد المولى) (1) وتقع في أربعين بيتا ، وقد نظمها الشاعر في تهنئة ابن باديس بنجاته من حادثة الاغتيال التي تعرّض لها سنة 1926 .

وقد ركز الشاعر في هذا العمل حديثه حول التنديد بمقترفي هذه الجريمة ، وشجب لجوئهم الى العنف ، ودعاهم في الوقت ذاته الى عاظل الاصلاح بدعوهم اليه من الاحتكام الى الشرع والعقل ، وصور الى جانب ذلك نجاة ابن باديس من هذه الحادثة ، وأشاد بموقفه المتسامح من الجاني ، مؤكدا أن ذلك ما كان يكون منه ، لو لم يكن بحق ، داعية حق الى الله ، وساعي خير لبني الاسلام أجمعين ، يخاطب الشاعر ابن باديس ببعض ذلك فيقول :

حمتك يد المولى وكنت بها أولى ... فيالك من شيخ حمته يد المولى
وكادت يد الجاني "المسخر" (2) تعتلي ... يد الشيخ لولا الله أدركه لولا
فوافتك بالنصر العزيز طلائع ... مباركة تترى من الملإ الأعلى
وحفت بروح القدس شخصك فاثبتت ... صبيتك الجلى كرامتك المثلى
لك الله من داع الى الله لم يثق ... بغير كتاب الله والسنة الفضلى
سعا لبني الاسلام بالخير ما سعى ... فأبلى رعاه الله في الخير ما أبلى

ويواصل الشاعر مخاطبته في هذه القصيدة لابن باديس ، داعيا اياه الى الاستمرار في طريقه ، مؤكدا له انتصار الحق على الباطل ، ومذكرا أن ما أصابه على أيدى أولئك الجناة ، انما هو من نصيب كل داعية الى الله ، ويرجو بذلك ألا يكون له من ذلك ما يثبط عزمه ، يقول الشاعر :

فدم يا ابن باديس كما كنت راشدا ... فاني رأيت الرشد يستأصل الدجلا
وخذ بيمين الحق تعل عليهم ... فاني رأيت الحق يعلو ولا يعلى
وان تك قد مستك منهم بلية ... لذلك فالداعي جدير بأن يبلى
حنانيك لا تأخذ بها الشعب انها ... جناية أفراد ذوى همم سفلى
حنانيك لا تعرض عن الشعب وافتكم ... بأدوائه واجمع لأحزابه الشملا (3)

---

(1) الديوان ، ص : 122 . ونشرت بالشهاب العدد : 31 ـ 23 رجب 1345 هـ / 27 جانفي 1927
(2) توجد في مكان هذه الكلمة في الشهاب لفظة (العليوى) نسبة الى الطريقة العليوية .
(3) الديوان ، ص : 124 . البيت الأخير لم يثبت بنسخة الديوان . وهو مثبت بالقصيدة في الشهاب .

وتمتاز هذه القصيدة بقيمتها التاريخية الواضحة الى جانب ما توفرت عليه من قيم موضوعية وفنية ، تلك التي تتجلى في صدق انفعال الشاعر بموضوعه ، وفي تصديه بحرارة للدفاع عن العقيدة وعن حامي حماها ، كما تبدو فيما يلمح من خلال النموذجين السابقين من سمات فنية ، يبرز بعضها في ذلك الانسجام القائم ما بين الألفاظ والعبارات من جهة، وبينهما وبين التجربة الشعرية من جهة ثانية ، ويظهر ذلك أيضا في هذه المسحة الجمالية التي أضفاها الشاعر على الأبيات باغترافه فيها من بيان القرآن ، ألفاظا وعبارات ، وفيما ينساب فيها من ايقاع عذب ، لعل مرده الى هذه الموسيقى الناشئة عن تآلف الأصوات في الجملة الشعرية نتيجة لتركيز الشاعر على بعض الظواهر الأسلوبية ، كرد العجز على الصدر ، والتكرار اللفظي .

وقد مرّ معنا أن بعض الشعراء نظم في هذه الحادثة من بينهم العقبي ، ورمضان حمود ، والزاهري ، وغيرهم[1] .

وان من يوازن بين أعمال هؤلاء ، وبين قصيدة الشاعر سيدرك الفرق بين الطرفين .

ففي الوقت الذى نرى الشاعر يسلك في قصيدته أسلوب الحوار والمناقشة مع الطرفيين نلمح أن زملاءه الشعراء وقفوا في أعمالهم من أولئك المشعوذين موقفا مغايرا . وقد لفت ذلك نظر بعض الدارسين فنص عليه وعلل له[2] .

وأما قصيدة الشاعر الثانية في الفقيد ابن باديس فهي (ختمت كتاب الله)[3] وهي من مطولاته ، اذ تقع في ست وسبعين بيتا ، وقد نظمها تخليدا للاحتفال الكبير الذى أقامته الأمة ، تكريما لذلك الامام بعد ختمه دروس التفسير التي استمر فيها قرابة خمس وعشرين سنة .

وقد استهل الشاعر هذه القصيدة بالاشادة بجهود الامام عبد الحميد في الأخذ بأيدى الأمة الى مناهل العلم ، منوها بواسع معارفه وسداد نظره ، وعمق ادراكه لأسرار القرآن الكريم ، مقارنا اياه في ذلك بالمصلحين الكبيرين (الأفغاني ، ومحمد عبده) . ثم خلص من ذلك الى تصوير جو البهجة الذى شهدته قسنطينة في تلك الأثناء ، ويختم قصيدته كعادته في الغالب بالتوجه الى أمته يغرس في نفوس أفرادها الأمل بانبلاج الفجر ، ويوجه أنظارهم الى ما يمكنهم من أسباب النصر والخلاص ، يقول الشاعر في هذه القصيدة مخاطبا ابن باديس :

---

(1) وتجدر الاشارة أن صدى هذه الحادثة ذهب الى خارج الحدود الوطنية فكتب فيها الكتاب والشعراء بتونس والمغرب ومصر ، ينظر الشهاب العددان : (82 ، 83 ، 3 فيفرى ، 17 مارس 1927) .

(2) ينظر د . عبد الله ركيبي (الشعر الديني الجزائرى الحديث) ، ص : 602 .

(3) الديوان ، ص : 156 ، نشرت بالشهاب ج 4 ، م 14 ، ربيع الثاني ، جمادى الأولى 1357هـ جوان جويلية 1938 ، ص : 263 وهو العدد الخاص بختم تفسير القرآن الكريم .

ختمت كتاب الله ختمة دارس	بصير له حل الغويص ميسير
فكم لك في القرآن فهم موفق	وكم لك في القرآن قول محرر
قبست من القرآن مشعل حكمة	ينار به السر اللطيف ويبصر
وبينت بالقرآن فضل حضارة	أقر لها (كسرى)[1] وأذعن (قيصر) [2]
حكيت (جمال الدين) في نظراته	كأن جمال الدين فيك مصور
وأشبهت في فقه الشريعة (عبده)	فهل كنته أم عبده فيك ينشر ؟
أعد يا ابن باديس الحديث وأبده	بأنعمك اللاتي بها أنت تؤثر

وأما ثالث أعمال الشاعر في هذا المضمار فهو مقطوعته (يا قبر)[3]، وتقع في اثني عشر بيتا، ويؤكد المشرفون على طبع الديوان أن الشاعر كان قد ارتجلها أمام ضريح الفقيد، ثم نوقشت فيما بعد على رخامة، وعلقت على القبر، بينما لا نعثر في مخطوطة ديوانه، مما جاء في هذه الرواية، الا على الاشارة بأن المقطوعة منقوشة على قبر الفقيد، دون الالماع الى أمر ارتجالها، وقد أفادني جامع هذه المخطوطة، وهو السيد (أحمد بوعدو)، برواية أخرى، مفادها أن الشاعر نظم هذه المقطوعة ابان وجوده بالعاصمة، على اثر وفاة ابن باديس، ثم سلمها الى صاحب هذه الرواية، بصفته تلميذه، ثم قام هو بدوره بارسالها عن طريق البريد الى أصدقاء الفقيد في قسنطينة[4]. ويؤكد هذه الرواية الأخيرة ما نص عليه الدكتور سعدالله من أن هذه المقطوعة قد وصلت الى قسنطينة عن طريق مراسلة بين الشاعر وبين السيد (أحمد بوشمال) (5).

ومهما يكن فان من يقرأ قصيدة الشاعر السابقة في ابن باديس، يعجب حينما لا يعثر على مرثية له في الفقيد، باستثناء تلك المقطوعة الآنفة الذكر، وهو وان وقف فيها موقف الاشادة بشخصية ابن باديس العلمية، والتنويه بجهاده في سبيل العقيدة والوطن والتأكيد على وفاء الشعب لنهجه. فانه لم يستطع أن يرقى فيها الى مستوى المناسبة. ولم يتمكن من أن يبدي فيها من الأحاسيس والعواطف ما يتطلبه الموقف الذي أملاها، فجاء لذلك حديثه فيها حديثا عاما ومقتضبا وباردا. ولعل من بين ما يكشف عن بعض ذلك، لجوءه الى استخدام ضمير الغائب، الذي لم يملك القدرة على أن يفلت من سيطرته عليه، ولو مرّة واحدة، فيستخدم فيها على سبيل المثال ضمير المتكلم، ليفصح به عن أثر المصاب، الذي حلّ بالأمة بفقدان واحد من أبرز قادتها. ولا يخفى أن وفاة العلماء نكبة،

---

(1) اسم يطلق على ملوك فارس الساسانيين، ومنهم كسرى الأول (أنو شروان، المتوفى: 579م).
(2) اسم أسرة قديمة من أشراف روما، ثم أصبح يطلق على أباطرة روما، وكان أولهم (كايوس يوليوس، المتوفى: 44 ق م).
(3) الديوان، ص: 474. وتذكر المخطوطة ج 1: 137، انها لم تنشر بأية جريدة.
(4) سمعت هذه الرواية من صاحبها ببيته بالجزائر العاصمة في نوفمبر 1982.
(5) ينظر (محمد العيد آل خليفة)، ص: 37.

من أشد النكبات التي تمنى بها الأمم، أو يستخدم ذلك الضمير ليعبر به عما يمكن أن تكون قد أثارت في نفسه تلك الفاجعة من لواعج الحسرة والأسى، مما يلجأ إليه الشعراء في الغالب، في مثل هذه المقامات للابانة عما يحتربهم فيها من أحاسيس وانفعالات.

ان الشاعر لايوحي في عمله ذلك بشيء من هذه الايحاءات الخاصة، وانما يكتفي فيها باقتسار الكلام ابتسارا، فلعله كان مدفوعا الى ذلك بعوامل النزول عند رغبة من كان يريد نقش عمله ذلك، على قبر الفقيد، كما يمكن أن يكون مرد ذلك الى ظروف الحرب، هذه التي كانت قائمة يومئذ، على أشدها، فاضطراره ذلك بأن ينحو في تلك المقطوعة، ذلك المنحى العام. ومما يحسن التذكير به أن الدارس لايعثر للشاعر على عمل في الفقيد، غير ذلك، الذى رأينا، طوال الفترة الممتدة ما بين تاريخ وفاته في سنة 1940 وبين سنة 1965، بينما يعثر في هذه المدة على أكثر من مرثية في ابن باديس لأكثر من شاعر من الشعراء الجزائريين، ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال الشاعرين: الشيخ أحمد سحنون الذى يشتمل ديوانه على جملة من الأعمال في الفقيد يأتي في مقدمتها: مرثيته فيه، وهي بعنوان (أكسفي ياشموس) ثم تتوالى قصائده في احياء ذكراه وهي (عبدالحميد ابن باديس في ذكراه الأولى) (روح باديس، الذكرى الثانية)، (الذكرى الثالثة للشيخ عبدالحميد ابن باديس) (1).

وأما الشاعر الثاني فهو أبوبكر بن رحمون، وله في رثاء الفقيد (خطب الجزائر) وفي احياء ذكرى وفاته الأولى (أنشودة الذكرى)(2). ونذكر أن البصائر كانت تحفز الشعراء على الكتابة في هذا الموضوع، فاستجاب لها بعضهم، فنظم عمر شكيرى قصيدة في ذكرى ابن باديس(3)، في الوقت الذى لم يسمع فيه صوت للشاعر في هذا الميدان.

وأما رابع أعمال الشاعر وآخرها في ابن باديس فهي قصيدته (عاش وقفا على الجزائر)(4) وتقع في خمسين بيتا. وكان الشاعر قد ألقاها في الحفل الذى أقيم احياء لذكرى وفاة الفقيد بباتنة يوم 21 أفريل 1965.

وقد استهلها باسداء التحية لصاحب هذه الذكرى، وبالترحم على روحه الطاهر، ثم خلص الى الاشادة ببعض مناقبه التي قد تسمو به الى ما تسمو اليه

---

(1) وهي بديوانه على التوالي: (241 ـ 243 ـ 245 ـ 248).
(2) وهي بديوانه على التوالي هي: (49 ـ 55).
(3) ينظر البصائر، العدد: 121، 29 ماى 1950.
(4) الديوان، ص: 497.

مناقب بعض الصحابة رضوان الله عنهم ، ثم يعرج على ذكر ما كان للفقيد من مواقف خالدة في ساحة الدفاع عن حمى الاسلام ، والغيرة على العروبة والذود عن حياض الوطن ، ولعله كان يومئ بذلك الى الشعار الذى كان ينادى به ابن باديس وصحبه من رواد النهضة ، وكانوا في الوقت ذاته يعملون على غرسه في نفوس أفراد الأمة وهو (الاسلام ديننا ، العربية لغتنا ، الجزائر وطننا) ، ويمكن أن يكون الشاعر أيضا يشير الى بعض ما جاء في مقال ابن باديس (لمن أعيش) (1) الذي يتركز أساسا حول تلك المحاور ، يقول الشاعر في تلك القصيدة في معرض حديثه عن الفقيد :

عاش وقفا على الجزائر والاسـ	ـلام يرعاهما وفي الذمام
وغيورا على الشريعة يأبى	غير تشريعها لفض الخصام
وغيورا على العروبة يفشي	ضادها لا هجاءه في الكلام
وغيورا على الجزائر قوميا	صميما من سادة الاقوام

ثم يلتفت الى الفقيد يحمل اليه البشرى بانتصار شعبه ، وتشتد به الفرحة بذلك الظفر ، وما انتهى اليه من عز وسؤدد ، فيتوجه اليه بالنداء : أن انهض ياعبد الحميد لتشاهد ما أصبحت عليه بلادك ، وهي ترفل في أثواب العز والمجد . فلقد طهرت أرضها الطيبة ، دماء الشهداء الأبرار ، وصد عن حماها فلول الغاصبين أبطال جيش التحرير ، وأشاد أبناؤها دولة الجزائر الحرّة . ويؤكد له أن ذلك انما كان ثمرة لما زرع هو وصحبه من المجاهدين الأولين ، وكيف تنسى الجزائر الوفية ذلك ؟ كيف تنسى ما لعبد الحميد من مواقف استمات فيها دفاعا عنها استماتة بعض النفر من سراة السادة التابعين ، ومن اقتفى أثرهم من أئمة هذه الأمة ، وأعلامها العاملين المصلحين أمام الظلم والطغيان ، يقول الشاعر :

كيف تنسى الجزائر اليوم رفدا	كنت تحتل صدره في المقام ؟
يوم جابهت بالدفاع (دلادى)(2)	وهو يرغي مهددا بانتقام
قلت بالمدفع اغتررت وحسبي	مدفع فوقه بسه الله رامي
موقف حاسم شهرت به الانـ	ـكار في وجه من طغى كالحسام
كتحدى (أبي حنيفة)(3) لـ (لمنصـ	ـور) أو (مالك)(4) برفض الحرام

(1) ينظر الشهاب ج 10 م12 ـ شوال 1355 ـ جانفي 1937 .

(2) رئيس وزراء فرنسا في الثلاثينات .

(3) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت (80 ـ 150م) امام أحد المذاهب الأربعة المشهورة في الفقه الاسلامي توفي على اثر تعذيب المنصور أبو جعفر عبدالله ثاني خلفاء بني العباس له ، لامتناعه عن تولي القضاء . وقد حكم المنصور فيما بين (136 ـ 158 هـ) وتوفي 158 هـ .

(4) هو أبو عبدالله مالك بن أنس امام أحد المذاهب الأربعة (95 ـ 179 هـ) أفتى بما لا يوافق أبا جعفر المنصور فضربه هذا الأخير بالسياط حتى انخلعت كتفه .

و (سعيد)[1] و (المنذر بن سعيد) أو (كعمر) والعزّ عبد السلام [2]
أو (كيعقوب) و (ابن يعمر يحيى) أ و (ابن تيمية)[3] فقيه الشام
هكذا أعلن الأئمة قبلا سيف أنكارهم على الظلام (4).

ويمكن القول أن لهذه القصيدة قيمة تاريخية بارزة ، الى جانب ما تتوفر عليه من قيم موضوعية وفنية ملحوظة . وان التنويه بجهود هذا الامام والاشادة بمواقفه في الدفاع عن العقيدة والوطن لا تقتصر على هذه القصائد فحسب ، وانما يعثر الباحث على شيء من ذلك ، مبثوثا في ثنايا كثير من أعماله على طول مراحل شعره ، من مثل : (هذيان آشيل) [5]، (ياقوم هبوا) [6]، (الثورة العظمى كسبنا نصرها) [7] (من وحي الثورة والاستقلال) [8]، (مشاعل حكمة) [9] ، (ومن يخلد الى العلماء يخلد) [10].

ويلحظ أن الشاعر أشاد في أول هذه الاعمال بموقف ابن باديس الذى سارع الى الرد على هذا المستشرق (آشيل) بسلسلة من المقالات ، سبق الوقوف عند ذلك في مكانه من هذه الرسالة [11].

وقد ربط الشاعر هذا الموقف بحدثين بارزين من أحداث التاريخ العربي الاسلامي ، أما أولهما فهو من التاريخ الحديث ، ويمثل موقف الامام محمد عبده الذى تصدّى فيه الى اثنين من المتعصبين عن الاسلام وهما (هانوتو) و (بريتلو) ، بما يمكن أن يؤكد وحدة الدوافع والأهداف بين هؤلاء المتحاملين على الاسلام ، وان اختلف بينهم الزمان والمكان .

وأما الحدث الثاني فيرمز الى تلك النهاية المرعبة التي انتهى اليها أمر أولئك الذين تجرؤوا على حرمات بيت الله الحرام (الكعبة الشريفة) من جند الأحباش بقيادة (أبرهة) [12] أمام جند الرحمن في صورة (أبابيل من الطير) مسخرة بأذن الله للقضاء على القوم الظالمين [13] . ويحاول الشاعر أن يفيد من هذه الحادثة

---

(1) هو سعيد بن جبير من أعلام التابعين . امتحنه الحجاج بن يوسف ثم قتله سنة 93 هـ .
(2) هو شيخ الاسلام عزالدين بن عبدالسلام . كانت له مواقف مشهورة في قول كلمة الحق . (توفي 660 هـ) .
(3) سبقت ترجمته .
(4) الديوان ، ص : 499 .
(5) الديوان ، ص : 36 .
(6) الديوان ، ص : 339 .
(7) الديوان ، ص : 238 .
(8) الحلقة : 6 مجلة المعرفة العدد : 11_12 _ ماى جوان 1964 . ينظر الملحق .
(9) نشرت بكتاب (عيون البصائر) ، ص : 11 للابراهيمي . ينظر الملحق .
(10) الديوان ، ص : 531 .
(11) ينظر ، ص : 17 .
(12) قائد حبشي حاول أن يحتل مكة وأن ينال من الكعبة الشريفة . (13) ينظر سورة (الفيل) .

فيشبه مفعول دفاع ابن باديس وأثره في دحض أباطيل المفترين على الاسلام بمفعول تهديد الله في منتهكي حرمات بيته الحرام . يقول في ذلك :

لا يحدم الحق أنصارا تحيط بـــه ... سورا ولو كثرت فينا الأضاليـــل
هذا (ابن باديس) يحمي الحق متئدا ... كذلك يتئد الشم الأماثيـــل
اني أرى (عبده) المرحوم مندفعا ... يحمي على رغم (مانوتو) (1) وبرتيلو (2)
(عبد الحميد) رعاك الله من بطـــل ... ماضي الشكيمة لا يلويك تهويـــل
دمغت أقوال (آشيل) كما دمغـت ... أبطال (أبرهة) الطير الأبابيـل
عليك مني وان قصرت في كلمـــي ... تحية ملؤهـــا بشـــر وتهليــــل (3).

وتجدر الملاحظة أن للشاعر الى جانب ما ذكر، ثلاث قطع صغيرة لها صلة بابن باديس تصور أولاها رسمه وهو ينظر الى المصحف الشريف (4). وتخلد الثانية رسمه بجانب رسم الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي (5). وأما الثالثة فكانت من وحي مشاهدة الشاعر لرسم ابن باديس ورسم الأمير خالد (6).

* * *

وأما أعمال الشاعر في ثاني أساطين الحركة الاصلاحية ، وهو الشيخ الطيب العقبي ، فكانت أيضا أربعة ، نظم أولها أيام شبابه في صورة مساجلة شعرية بين صديق وصديق ، وقال اثنين منها عقب اطلاق سراح العقبي من السجن الذي دخله في أعقاب اتهامه ، بالتحريض على مقتل الشيخ كحول . وأما رابع أعماله فقد قاله بعد ثلاث سنوات من وقوع هذه الحادثة ، أي في سنة 1939 ، وذلك على أثر الاعلان عن براءة العقبي براءة نهائية من تلك التهمة .

وعلى كل حال فان عمله الأول كان عبارة عن مقطوعة بعنوان (الأقلام أسلاك المناجاة) وهي تعكس بجلاء تأثير الشيخ على الشاعر ، وتصور المكانة التي كان يحتلهـا يومئـذ في قلبـه ، ومما جاء فيهـا من ذلك ، هذه الأبيـات التي يخاطب فيها الشاعر شيخـه قائـلا :

يا صاحب الطبع اللطيف ومنتج الشـ ... ـعر الظريف و " الطيب " الأغصـان
مذ استمعت رقيق شعـرك مـرة ... أدركت سر تمايـل الأغصـــان
أوعيت أسرار البلاغـة كلهـــا ... من قبل عن (قس) (8) ومن (سحبـان) (9)
أم نلتها قدرا علـى عهـد الصبـا ... فسبكتها فـي قالـب الأوزان ؟
أسست من هـذا وذاك مركـزا ... لك في الجوانـح ثابـت الأركـان
هذا شعوري نحو شخصك حاكـه ... طي الكتاب ودم مدى الأزمـان

---

(1) مانوتو جيرائيل (1853 ـ 1944) مؤرخ وسياسي ، كان وزيرا للخارجية الفرنسية .
(2) برتيلو فيليب (1866 ـ 1934) سياسي فرنسي .
(3) الديوان ، ص : 36 .
(4) ـ (5) الديوان ، ص : 520 .
(6) ينظر الملحق .
(7) الديوان ، ص : 546 . ونشرت في (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) ج 1 : 146، للسنوسي .
(8) هو قس بن ساعدة الايادي المتوفي (600م) من خطباء العرب في الجاهلية ، ويروى الجاحظ في (البيان والتبيين) ج 1 : 303 . أن الرسول (ص) رآه قبل البعثة يخطب بسوق عكاظ على جمل أحمر .
(9) هو سحبان بن وائل ، كان من أفصح العرب ، ويضرب به المثل في ذلك فيقال (أفصح من سحبان) جاهلي ، أدرك الاسلام .

وأما ثاني أعماله في هذا الشيخ في مقطوعة أيضا تتكون من تسع أبيات بعنوان (باقة شعر)[1] نظمها بعد خروج العقبي وصاحبه (عباس التركي)[2] من السجن وأهداها لهما . وقد أكد في هذه المقطوعة أن ما نال هذين المصلحين من محنة وعسر، انما هو ابتلاء من الله عز وجل لعباده حتى يمحص من بينهم ، أهل الحق ، من أهل الباطل ، كما أشاد بذلك اليوم الأغر الذى أفرج فيه عنهما ، مؤكدا أنهما سيظلان رمزين بارزين لكل الداعين الى الله من بعدهما ، يخاطب الشاعر بذلك هذين المصلحين قائلا :

(خذا لكما عني)[3] من الشعر باقة ... كذكر كما الزاكي تضوع وتعبق
مضت لكما في الدهر أيام محنة ... وساعات عسر بالأماثل تلحق
بها يمحص الله المحقين في الورى ... ويسحق دعوى المبطلين ويمحق
رعا الله يوما فيه أفرج عنكما ... ولا زال في الأيام كالنجم يشرق
ولا زلتما رمزى نجاة وعصمة ... لكل امرئ في جانب الله يرمق
يحييكما الله الكريم ورسله ... وكل حنيف بالشهادة ينطق .

وأما عمله الثالث في هذا الباب فهو قصيدته (حزب مصلح)[4] ويفهم من السياق الوارد بها وبالكلمة التي قدمت بها في الديوان أن الشاعر نظمها عقب الافراج عن العقبي وصاحبه ، وألقاها في الحفل الذى أقامته جمعية العلماء بنادي الترقي لتهنئتهما ، وان أبرز ما يلفت الانتباه في هذا العمل ، أن الشاعر لم يركز فيه حديثه عن جوانب شخصية العقبي ، كما فعل ذلك في قصائده في ابن باديس ، أو كما سيفعل ذلك في عمله اللاحق في العقبي نفسه ، وانما اهتم فيه بالصورة العامة التي تعكس ملابسات الأحداث يومئذ ، مما يدل على وعي الشاعر وادراكه للأهداف الحقيقية التي كان يتوخاها مدبروا تلك المكيدة من ورائها ، أولئك الذين لا يستبعد أن يكونوا يستهدفون بها عن طريق المساس بشخصية العقبي توجيه ضربة الى جمعية العلماء[5] . ولعل تلك الظاهرة الأسلوبية التي تبدو في التجاء الشاعر الى استخدام ضمير الجماعة في معظم هذه القصيدة ، انما هي دليل من الأدلة على ذلك ، يقول الشاعر :

---

(1) الديوان ، ص : 395 . ونشرت بجريدة البصائر العدد : 34 ـ 11 سبتمبر 1936 ، وبمخطوطة الديوان ج 2 : 41 وهي بالمصدرين بعنوان (باقة من الشعر) .
(2) من المحبين للحركة الاصلاحية توفي 1983 .
(3) توجد هذه العبارة بالمخطوط وبالبصائر على هذه الصورة (لشخصيكما أهدى) .
(4) الديوان ، ص : 129 . نشرت بالبصائر العدد : 38 ـ 9 أكتوبر 1936 . وبالمخطوط ج 2 : 53 ، وهي بالمصدرين بعنوان (نحن حزب مصلح سلفي) .
(5) ينظر الشهاب ج 8 م 14 ، شعبان 1357 هـ / اكتوبر 1938 م ، ص : 105 .

سر مع التوفيــق فهو الدليـــل	حصحص الحــق وبــان السبيــــل
عادلني السراء كأسـا بكــأس	واسقنيها انهــا سلسـبيــل
زال عن موقفنـاكـل ريـــب	فهــو كالمـرآة صاف صقيـل
ان قوما بالـدم اتهمونــا	وزرهم يوم الحساب ثقيـل
أوردونـا مـوردا مستزابــا	طعمـه مر المذاق وبيـل
وابتلونا بالأذى فصمدنـا	والصامـدون قليـل (1)

ويلمح في هذه الأبيات وضوح الأثر القرآني على لغتها، ألفاظا وتعبيرا (سلسبيـل، ريب، حصحص الحق، وزرهم يوم الحساب ....).

ولا تخفى ملاءمة هذه الكلمات للجو النفسي الذى أراد الشاعر أن يصوره من خلالها. ونودّ أن نذكر أن صلة الشاعر بالقرآن الكريم أصيلة وقويـة، الأمر الذى ساعده على أن يفيد من توجيهاته، ومن بيانه، لغة وصورا ورموزا، بشكل ميز طريقته الخاصة في استخدام اللغة في شعـره، وسنقف على ذلك في مكانه من هذه الرسالة.

ومهما يكن من أمر فان الشاعر استطاع أن يرسم في جانب من هذه القصيدة لوحة معبرة عما ساد الأمة على اثر سماعها بنبأ ايقاف الشيخ العقبي، من اضطراب وهم حزن وأسى، كما استطـاع أن يصور في جانب آخر منها، لوحة ثانيـة طافحـة بما غمر الأمة من ابتهاج وارتياح، على اثر اعلان براءة ذلك المصلح.

ويخيل الي أن الشاعر نجح في توفير الأدوات الفنية الملائمة لكل من لوحتيه، فقد وفر للأولى من اللغة والصور ما يرمز الى جو الكآبة والحزن والحيرة، مثلما تعكس ذلك هذه الأبيـات :

(من رأى العقبي)(2) وهو وحيـد	موثـق في (بربروس)(3) عليـل
من رأى (النادى) لـم يبـق الا	لسوى الظلماء فيـه مقيـل
كل شيء فيـه بـاك حزيـن	موحـش مما عـراه محيـل
من رأى الأشيـاخ تملي وتمضي	وتجيـل الـرأى فيما تجيـل
من رأى الشبان هاجوا وماجـوا	وانبروا كالأسد ان غيل غيـل
من رأى الشعب يـروح ويغـدو	وله مثـل الحمام هديـل

ووفر للوحتـه الثانية، مثلما وفـر للأولى، من الأدوات الفنية، ما استطاع أن يوحي بجو الفرحة والسرور كما يبتدىء ذلك في قولـه :

---

(1) الديوان، ص : 129.

(2) هذه عبارة المخطوط أما في المطبوع فقد عدلت الى (فاذا العقبي) كما عدل غيرهما، وحذف من القصيدة كثير من الأبيات.

(3) من أكبر السجون التي شيدها الاحتلال الفرنسي في الجزائر العاصمة. وقد مرّ به كثير من الوطنيين الأحرار. كما استشهد به بعض المناضلين. وقد تحوّل في عهـد الاستقلال الى متحف الثورة.

أيها النادى لك الأمن فانعم   كل ظل في حماك ظليل
أخصب الوادى بأرضك مرعى   وشدا الشادى ومال الخميل
فكأن الأرض حولك خلد   فيضه بالمكرمات جزيل
وكأن النصر فوقك تاج   قدسي صاغه جبر يل
أيها النادى لك الخير فابشر   إن وفد الحلم فيك نزيل

ويمكن القول أن هذه القصيدة تمد بما استطاع الشاعر أن يوفر لها من صدق العاطفة، وحسن التعبير، وجمال التصوير، من أجمل أعماله، ومن أقربها الى النفوس، وهي الى جانب هذه القيمة الأدبية تتوفر على قمة تاريخية بارزة.

وأما رابع أعماله وآخرها في العقبي فهو قصيدة (بشرى البراءة) (1)، وهي من مطولاته اذ تقع في (72 بيتا) وقد نظمها الشاعر وألقاها في الحفل الذى أقيم بنادى الترقي لتهنئة العقبي، وصاحبه عباس التركي، على اثر اعلان براءتهما النهائية سنة 1939، من التهمة التي الصقت بهما افكا وبهتانا.

ونشير أن الشيخ العقبي ظل طوال هذه السنوات الثلاث الفاصلة ما بين وقوع حادثة مقتل كحول (2 أوت 1936)، وبين تاريخ اعلان هذه البراءة في حوالي (جوان 1939)، واقعا تحت طائلة الاستنطاق والتحقيق، فذاق من ذلك ما ذاق من الآلام النفسية المضنية. وقد كانت سلطات الاحتلال الفرنسي تتعمد ذلك به، لعل مرد ذلك لوقوفها على مدى خطورة ما يقوم به من مواقف وأعمال على وجودها بالجزائر، فعمدت الى ماعمدت اليه نحوه حتى تلين عريكته، وتنال من صلابته وجرأته في الحق، وتضعف من أثره على الأمة. وقد أوشكت أن تبلغ بتلك الحرب النفسية التي شنتها ضده، الى بعض أهدافها تلك.

ومهما يكن من أمر، فان أول ما يحس به الدارس في هذه القصيدة، هو ذلك الشعور الصادق الفياض الذى غمر الشاعر وتوهمه بالفرحة، عقب تلك البراءة، فحاول الشاعر أن يعكس ذلك الاحساس، كما يظهر بعض ذلك في هذا المطلع، وهو يتوجه فيه بالخطاب الى مواطنيه، داعيا اياهم الى خلع ثياب الحزن والأسى، وارتداء حلل البشائر والأفراح مكانها، ابتهاجا بعيد الاصلاح والمصلحين، يقول في ذلك:

أعلنوا البشرى فرادى وثبين   جاء نصر الله والفتح المبين
اطرحوا عنكم تباريح الجوى   وافرحوا فاليوم عيد المصلحين
خرج الاصلاح من محنته   وهو عالي الرأس وضاح الجبين
ونجا (العقبي) و (التركي) من   غمرات لامست بضع سنين
حلق النسران في جو هما   واشتفت حسرى قلوب الصائدين.

---

(1) الديوان، ص: 169، نشرت بالبصائر، 29 جويلية 1939.

وخلص الشاعر من ذلك الى الحديث عما يبتلي به الله عباده في هذه الحياة ، امتحانا لايما نهم ، واختبارا لمواقفهم ، مبينا أن ذلك مسلك لا بدّ من أن يعبر عليه من أراد أن يتسنم ذرى المجد ، وعلى ذلك الدرب سار الأنبياء والرسل من قبل في تبليغ رسالات ربهم ، صابرين عما صادفهم من بلاء ، فكتبوا بذلك في الصفحات الأولى من سجل الخالدين .

ثم يتوجه بعد ذلك الى العقبي يهنئه بخروجه سالما من تلك المحنة ، ويعبر له عما يكنه في أعماقه نحوه من حب صادق ، وود خالص ، ووفاء باق ما بقي الزمان لأستاذه ، ورفيق شبابه ، فبلغ في تصوير ذلك مبلغا كشف فيه بعمق عما يحس به من مشاركة وجدانية لما مرّ به ذلك الداعية في تلك الفترة العصيبة من معاناة ، يقول الشاعر :

أيها (العقبي) أقدم ظافـــرا	انك اليوم امام الظافريـــن
لم يزل طول المدى مستحكمـا	بيننا حبل من الودّ متـين
لك إلف ليس ينسى إلفـه	(وخليل) لا يحب الآفلين
عنده مثلك بالصدق هـوى	وله مثلك للشرق حنين
كلما مسك ضـر مسـه	وطفى الدمع عليه والأنين . (1)

ويحس الدارس من خلال ما أراد الشاعر أن يعبر عنه من معان في هذه الأبيات، ومن خلال ما استخدمه فيها من أدوات فنية لتصوير ذلك ، أن العلاقة التي كانت تربط مابين الشاعر والشيخ العقبي لم تكن علاقة عادية ، كما تكون ما بين عالم من علماء الأمة ، وشاعر من شعرائها فحسب ، وانما كانت أشدّ من ذلك ارتباطا ، وأسمى من ذلك مقاما ، لقد بلغت مبلغ ما تكون عليه العلاقة ما بين صديق حميم ، وصديق مماثل .

ويلحظ أن الشاعر لم يسلك في هذه القصيدة ما سلكه في سابقتها باقتصاره فيها ، على رسم الصورة العامة التي اكتنفت ملابسة توقيف الشيخ العقبي . وانما حاول أن يكون في هذا العمل أكثر تفصيلا لتلك الملابسات وأشد حرصا على ابراز بعض خصاله وبعض مواقفه ، فأشاد في هذا الصدد بقوة شخصيته ، وعزة نفسه ، وقوله كلمة الحق ، ونوه خاصة بما أظهره في هذه البلية من حكمة ، ومن رباطة جأش ، ومن قدرة فائقة في دفع التهمة ونقض دعاوى المغرضين ، مؤكدا له ، بأنه لم يكن واحدا من عظماء هذه الأمة فحسب ، وانما كان فردا في أمة ، كما أنه لم يكن وحده فيما لقي من آثار السجن ، وانما كان الشعب الى جانبه سجينا معه ، يشاركه

---

(1) الديوان ، ص : 171 .

آلامه وأشجانــه ، ثم يهنئه بنصر الله له الذى أنجاه من هذه المكيدة ، داعيا اياه الى أخذ مكانــه كما كان بين اخوانــه في قيادة نهضــة الأمــة . يخاطب الشاعر ذلك المصلح بهذه المعانـي قائـلا :

قد عرفناك عزيز النفـس لا — ترتضي في موقف أن تستكين
لم تكن في مجلس الشرع سوى — ثابت مستبسل القلب رزين
تنقض الدعوى بقول فيصل — وترد الشك منها باليقين
كنت فردا فيه حلت أمـة — وسجينا معه الشعب سجين
وحباك الله نصرا باهرا — أصبح اليوم حديث السائرين
فانتصب فينا زعيما وانتهج — للمعالي كل نهج مستبين .

ومما يحسن ملاحظته في نهاية دراسة هذه المجموعة من قصائد محمد العيد التي قالها في صديقه الشيخ العقبي ، أنها تنتهي بسنة 1939م . وأن الباحث لا يعثر له على عمل في الموضوع بعد هذا التاريخ ، مع العلم أن الشاعر استمر ينظم الشعر في رفيقي العقبي : ابن باديس ، والابراهيمي الى ما بعد الاستقلال . وان الذى يتذكر ما أشرنا اليه قبل قليل ، مما كان يربط بين الرجلين من علاقة ، قد تأخذه الدهشة ، ويحار في تعليل لهذه الظاهرة ، وسيتضاعف ذلك في نفسه — ولا شك — اذا تذكر أن الشيخ العقبي ، قد توفي سنة 1960 م ، وليس في شعر الشاعر مرثية فيه ، أو أى أثر بعد ذلك في احياء ذكراه ، وقد يبلغ به الاستغراب الى مدى بعيد ، اذا ما أدرك من نحو آخر ، أن الشاعر كان قد كتب — وكأنه يستكثر ما نظم في العقبي — الى القائمين على طبع ديوانه ، يترجاهم ، ألا ينشروا اثنين من قصائده فيه ، وهما (باقة شعر) و (حزب مصلح) السالفتين ، وأن يكتفوا فيما قال في العقبي بنشر رابعة أعماله وهي آخر ما نظم في الموضوع ، وآخر ما وقفنا عليه .(1) ولا نملك أمام هذا الموقف ، الا أن نتساءل ، أيكون الشاعر قد أقدم على ذلك القرار بدافع داخلي أم أنه دفع اليه دفعا ، بحوافز خارجية ؟

وعلى كل فان الدارس يصادف الدكتور سعد الله ، يحاول أن يعلل لعدم رثائه للعقبي ، بالظروف العصيبة التي قضاها أسيرا في بيته أثناء الثورة ، ونحن اذا قبلنا ذلك التعليل في عدم رثائه له في هذه الفترة ، فبم نعلل لهجره القول فيه ذلك ، طوال الفترة الممتدة ما بين الحرب العالمية الثانية ، وبين اندلاع ثورة نوفمبر 1954 ؟

---

(1) يوجد هذا الطلب بخط يد الشاعر في المخطوطة ج 2 : 146 .

وبم نعلل ثانية تناسيه لصديقه فيما بعد الاستقلال ؟ وقد رأينا أن الشاعر رجع في هذه الآونة الى الميدان من جديد، ونظم مجموعة من القصائد في رثاء واحياء ذكرى رفيقي العقبي في الجهاد والاصلاح، ابن باديس والابراهيمي، ولم تشهد له مثل ذلك في العقبي . ويمكن للدارس أمام هذا أن يرد ذلك الموقف من الشاعر في المرحلة الأولى، الى خروج العقبي من جمعية العلماء عقب حادثة البرقية التي وقفنا عندها في أكثر من موضع من الرسالة، وانتهاجه بعد هذا التاريخ نهجا خاصا به في الدعوة الى الاصلاح، ثم أن الشاعر لم يلبث أن توقف في أعقاب هذه الفترة عن التعليم بمدرسة الشبيبة الاسلامية، وغادر العاصمة نهائيا، وسكت عن قول الشعر طوال سنوات الحرب، فيمكن أن يكون تركه لقول الشعر في العقبي في هذه الفترة مظهرا من المظاهر .

وأما سكوته عن ذلك بعد الاستقلال، فلعله يكون استمرارا لما قبله، أو يكون ناجما عن وعي الشاعر للرأي السائد الذي أصبح يومئذ ينظر للعقبي بسبب بعض مواقفه بغير الرؤية التي ينظر بها لرفيقيه في الاصلاح، ابن باديس والابراهيمي، فأحب الشاعر وهو قد عرف بمسايرته للتيار العام في المجتمع — أن يساير تلك الظروف، ويحتفظ بحبه ووفائه لصديقه في نفسه، كما احتفظ بأشياء كثيرة، مما يتصل بوقائع النهضة الوطنية وملابساتها، ومواقف بعض رجالها، وما اكتنف بعض وجوه حياته الخاصة، وكان - رحمه الله - في هذا الجانب لما يميز شخصيته من حذر، وحب للعافية شحيحا، بقدر ما كان في غيره سخيا، بصورة واضحة مشهودة .

ومهما يكن من أمر، فان موقف الشاعر من العقبي، يمكن أن يذكر من بعض الوجوه بموقف الشيخ محمد عبده من أستاذه الأفغاني الذي لم يثبت أنه كتب اليه أيام محنته أو رثاه بعد وفاته وان اختلفت الدوافع الى ذلك بين الموقفين[1].

* * *

وأما قصائده في ثالث أساطين الحركة الاصلاحية، الشيخ محمد البشير الابراهيمي، فقد بلغت خمسا، كانت أولاها عبارة عن مراسلة شخصية بين الشاعر والشيخ الابراهيمي، وكانت تربط بينهما رابطة ودّ وصداقة قوية، فكان الابراهيمي يقول للشاعر (ولدي)، وكان الشاعر يرد عليه فيقول (أبي) . والقصيدة بعنوان (بين عالم وشاعر)[2]، وهي متوسطة الحجم لا يتجاوز عدد أبياتها (28 بيتا) .

---

(1) ينظر عباس محمود العقاد (محمد عبده)، ص : 117 .

(2) الديوان، ص : 392 ، نشرت بالشهاب ج 3م12 ربيع الأول 1355 هـ / جوان 1936م، ص : 137 .

كان الشاعر قد نظمها ردّا على كتاب وفد اليه من ذلك المصلح ، فاستهلها بارسال التحية اليه ، ثم خلص من ذلك الى الحديث عن أثر كتابه على نفسه ، ذاك الذى كان كقميص يوسف عليه السلام ، فكما ردّ ذلك القميص الى سيدنا يعقوب عليه السلام بصره ، وأذهب عنه الحزن ، فكذلك كان فصول كتاب الابراهيمي على نفسية شاعرنا ، الأمر الذى دفعه — وكان يمر حسبما يبدو في تلك الأثناء — بظروف نفسية عصيبة الى الاستزادة من شيخه ، من مثل تلك الكتابات ، لما كان لها من أثر طيب على نفسه ، ومما جاء من ذلك في تلك القصيدة قوله :

أبي (البشير) سلام زاك وشوق كبير
لازالت فينا منارا بضوئه نستنير
وافي كتابك يهدى اليّ المنى وبشير
تذكو العبارة فيه ما ليس يذكو العبير
قد ارتددت بصيرا فكيف يضوى البصير ؟
قميص (يوسف) ألقي به عليّ (البشير)
يا آسي اليأس زدني كشفا فأنت خبير .

وأما ثاني أعماله في الابراهيمي فهو قصيدته (تهنئة الابراهيمي بعضوية المجمع اللغوى) (1) قالها في تهنئته بانتخابه عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1954 ، وهي قصيرة لايتجاوز حجمها العشرين بيتا . وقد استهلها الشاعر بتقديم أزكى التحايا للشيخ الابراهيمي ، ورفع تهاني الجزائر قاطبة اليه لما بذل من جهود من أجل بناء صرح نهضتها ، والذود عن مقوماتشخصيتها ، يقول الشاعر :

حيي الرئيس الأريحي شمائلا العبقرى فواضلا وفضائلا
وارفع اليه عن الجزائر كلها شكرا لطائله المخلد طائلا
فلقد أقام بها يجاهد مرشدا ويذود عنها بالبيان مناضلا
متصعبا في حقها متصلبا متسامحا في حقه متساهلا

ونلحظ أن في هذه الأبيات ميلا الى استخدام الصنعة البديعية استخداما مكثفا يبدو فيه الجناس والطباق متشابكين ، الكلمة بجانب أختها ، كما يتلاءم ذلك في البيت الأخير بوجه خاص (متصعبا ، متصلبا) (متسامحا ، متساهلا) .
وكانت المناسبة في هذا العمل ملائمة ، أكثر مما كانت عليه ، في عمله السابق الحديث عن جوانب شخصية الابراهيمي العلمية ، فعمد لذلك الى التنويه بسعة معارفه ، وبطول باعه في ميدان العلم واللغة والأدب ، مما قد يرقى به الى مقامات

---

(1) الديوان ، ص : 410 ، نشرت بالبصائر العدد : 264 — 26 مارس 1954 .

المتقدمين من فصحاء العربية، وبلغائها من أمثال (سحبان بن وائل) و (قس بن ساعده) ، وقد عرف منه ذلك أولوا العلم فأحلوه مكانته اللائقة به بينهم ، يقول في ذلك :

قل " للبشير " رفعت هامة أمة ذلت وشعب كان قبلك خاملا
مازلت تكشف عن خفي لبوفه حتى تهين للنواظر ماثلا
أخجلت أقطاب البيان فمن يكن (سحبان)[1] أو (قسا)[2] يلاقيك (باقلا) (3)
أدركت في الفصحى مداركلم يكن في العصر ذو أدب اليها واصلا
باريت فيها (المجد)[4] عبر "محيطه " والمجد لا يعدو المجد العاملا
لازلت في فلك المعارف كوكبا قطبا يلوح لنا وبدرا كاملا

ويلحظ أن قصر القصيدة ، قد ساعد الشاعر بوجه من الوجوه ، على أن ينجح في توفير جانب كبير من وحدة الموضوع فيها ، فجاءت معانيها تدور حول محاور متقاربة لم تخرج في مجموعها عن معاني التحية ، والتهنئة ، وابراز ما بلغ اليه الابراهيمي من درجة علمية رفيعة . وقد وظف للتعبير عن ذلك أسلوبا يقوم على الوضوح والسهولة ، ولا يحفل بالخيال ، ولا نعثر فيه الا على بعض الصور القريبة من مثل هذه الكناية (رفعت هامة أمة) وهذا التشبيه البسيط المألوف (لازلت كوكبا) . والصورتان شديدتا الاتصال بمخزون الشاعر من التراث الشعرى . ويمكن الاشارة في هذا الصدد ، بأن الشاعر لا يضرب بوجه عام في خياله ، ومرد ذلك لجملة من العوامل تكشف هنا بالالماع الى واحد منها وموضوع ثقافته القائمة على التراث المتميز بوضوحه وقرب خياله .

وأما ثالث أعماله في هذا المضمار فموقصيدته (أبت النفس أن تراك عديما)(5) وقد نظمها الشاعر في رثاء الشيخ الابراهيمي وألقاها أمام ضريحه يوم توديعه الى مثواه الأخير بمقبرة (سيدى محمد) بالجزائر العاصمة ، بتاريخ 21 ماى 1965 .

والقصيدة متوسطة الحجم نسبيا ، اذ تقع في ثلاث وأربعين بيتا ، وقد افتتحها الشاعر بالاعراب عن أثر الفاجعة التي ألمت به ، وبالشعب الجزائرى ، وبالأمة العربية جمعاء ، على اثر نعي عالم من أعلام الأمة ، فقال :

---

(1) ، (2) سبق ترجمتهما .
(3) رجل يضرب به المثل في العي .
(4) هو مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى (729 ـ 817 هـ) صاحب معجم (القاموس المحيط) ، ينظر ترجمته في مصنفه هذا ج 1 : 7 .
(5) الديوان ، ص : 488 . ونشرت بمجلة المعرفة العدد : 19 ، ماى جوان 1965 ، ص : 111 .

قم بحق الاخاء وأرث حميما | راحلا مخلص الولاء صميما
صد عنك الذي دنا منك ودّا | وحنا عاطفا عليك كريما
حم موت " البشير " فاكتأب الشعب | وأصغى الى النعي كظيما
فجعت أمة العروبة في الها | دي لمن ظل نهجها المستقيما

وان سمات الأسلوب الخطابي تطل على القارئ من أول كلمة في هذا المطلع ، ولعل الشاعر عمد الى ذلك حتى يلائم بين أدواته ، وبين موقف الانشاد الذي وجد نفسه فيه . ومهما يكن فقد خلص الشاعر من هذه المقدمة الى ما كان قد ألمح اليه في القصيدة السابقة ، مما تحلى به الابراهيمي من مكانة علمية مرموقة ، ووجد الفرصة مواتية هنا لتعداد مناقب الفقيد ومآثره ، والاشادة بها ، فأسهب في بيان ذلك ، واذا كان قد قارنه من قبل بثلاثة أعلام (سحبان وقس ، والفيروزابادى) فقط ، فانه هنا يضمه الى جانب جملة من مشاهير أعلام اللغة والأدب المتقدمين من أمثال (الخليل ، والأصمعي ، والكسائي ، وابن دريد ، والصاحب بن عباد) ، فقد كان هؤلاء أعلاما في وقتهم ، وكان الابراهيمي يشبههم في وقته ، يقول الشاعر :

كان بحرا من المعارف زخا | را وذخرا من الفنون جسيما
ود ماغا وعن " المحيط "(1) محيطا | ولسانا حوى " اللسان "(2) قويما
رافق الكتب والمكاتب دهرا | وتقصى أعلامها تعميما
كان لـ " الأصمعي "(3) و" ابن دريد "(4) | و" الكسائي "(5) في الليالي نديما
بادل " الصاحب "(6) الأديب نثيرا | مثلما ساجل " الخليل "(7) نظيما (8)

ونلحظ أن الأسلوب في الأبيات تقريري واضح ليس فيه من الخيال الا بعض الصور التقليدية البسيطة .

---

(1) يقصد معجم (القاموس المحيط) للفيروزابادى ، وقد طبع في أربعة أجزاء أكثر من مرة .

(2) يعني معجم (لسان العرب) لصاحبه محمد بن مكرم بن منظور المتوفي بالقاهرة سنة 711 هـ . وقد طبع هذا المعجم في عشرين مجلدا أكثر من مرة .

(3) وهو أبو سعيد عبد الملك بن قريب من أكبر علماء اللغة والرواية ، وأوسعهم اطلاعا وحفظا ، ولد في البصرة سنة 122 هـ . وتوفي فيها سنة 216 هـ .

(4) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، من كبار علماء العربية . صاحب معجم (جمهرة اللغة) ولد في البصرة سنة 223 هـ . وتوفي في بغداد سنة 321 هـ .

(5) هو الحسن علي بن حمزة الكوفي ، كان اماما في اللغة والنحو والقراءات . توفي سنة 189 هـ بالري ، وقيل بطوس سنة 183 هـ .

(6) هو أبو القاسم اسماعيل بن عباد الطالقاني ، وهو من الأدباء الوزراء ، ولقب بالصاحب لأنه كان يصحب الكاتب ابن العميد . توفي 385 هـ .

(7) هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، أكبر علماء زمانه في العربية ومختلف علومها ، واضع علم (العروض) ، وصاحب كتاب (العين) وهو أول معجم في اللغة العربية . ولد في البصرة حوالي سنة 100 هـ ، وتوفي فيها سنة 170 هـ .

(8) الديوان ، ص : (488) .

وينتقل الشاعر مما كان فيه من ابراز بعض الجوانب ، من شخصية الابراهيمي الى تقديم آخر تعازيه ، وتعازي الشعب الجزائري بأكمله ، لا ُسرة الفقيد ، مبينا أن ذلك المصاب لا يخص (آل الابراهيمي) وحدهم ، وانما هو خطب الا ُمة قاطبة .

ثم يأتي الى نهاية قصيدته فيختمها بالتنويه بمآثر الفقيد ، ومواقفه النضالية من أجل الجزائر ، والاسلام ، والعروبة ، وبالدعاء له بالرحمة وحسن القبول ، يخاطب الشاعر ، الفقيد فيقول :

يا أخي الحق ان قصرت عن القو	ل فما قصر الفؤاد كليما
أنت بيضت وجه شعبك فخرا	بيض الله منك وجها وسيما
فلقد كنت للعروبة فيا	ولدين الاسلام رمزا حكيما
ولقد كنت للجزائر طودا	بين أطواد ها تشق السديما
فاتت أخراك مطمئنا فيها	ضفت رحمان للعباد رحيما
وتسنم فردوسها وتنسم	روحها راويا بها تسنيما (1)

وتتلامح في هذا النموذج الا ُلفاظ والتعابير القرآنية ، في أكثر من بيت فيه ، وقد وفق الشاعر في اختيارها لملاءمتها للجو النفسي الذى يحس به في هذه اللحظات وهو يترحم على صديق حميم .

ويلحظ أن هذه القصيدة ، على الرغم من توفرها على قدر من وحدة الموضوع ، ومحاولة الشاعر للاعراب عن شعوره بهذه الفاجعة ، وتصوير أثرها على ضمير الا ُمة ، فانه لم يستطع أن يرقى فيها معنى ومبنى الى مايتطلبه المقام الذى أنشأت من أجله ، والدوافع التي دفعت اليها ، فبدت عاطفته فيها فاترة بعض الفتور ، وكأنها لم تأخذ فيها مداها المطلوب ، وظهرت امكانياته الفنية فيها محدودة ، ويحس قارئها ، وكأن الشاعر كان فيها مختنقا لم يجد الجو الملائم الذى يساعده على أن يفصح عن كل ما أراد أن يفصح عنه ، مما يمور بنفسه ، فظل شيء من ذلك مخزونا بها . وسيتأكد الدارس مما نذهب اليه ، حينما يقف بين يدى عمل الشاعر اللاحق الذى قاله بعد هذا التاريخ ، في احياء الذكرى الا ُولى للفقيد الابراهيمي .

ويبدو أن الشاعر نفسه أحس بذلك الضعف الذى وصفنا في القصيدة ، فألمع اليه بقوله :

يا أخي الحق ان قصرت عن القو ل فما قصر الفؤاد كليما

ولعل ذلك يرجع الى الظروف الموضوعية التي كانت سائدة يومئذ ، والى احساس الشاعر — وقد اشتهر بذكائه وشدة حذره — بالملابسات التي كانت تكتنف مواقف

---

(1) الديوان ، ص : 490 .

الابراهيمي آنذاك . يبدو أنه كان من بين هذه العوامل ، ما حد من حريته وأضعف بالتالي من قواه الابداعية .وان دل هذا على شيء ، فحسب أنه يدل في جملة ذلك ، على تأثر الانسان بما يجري في محيطه ، وأثر ذلك عليه في توجيهه وتحديد مواقفه وتلوين ما يصدر عنه بألوانه وشياته .

وبموازنة بسيطة بين هذه القصائد ، وبين مثيلاتها في ابن باديس ، وفي العقبي ، نلحظ أن الشاعر كان في حديثه عن العقبي يشبهه في فصاحته وبلاغته بـ (قس) وبـ (سحبان) كما كان في حديثه عن شخصية ابن باديس، يقرنه بأعلام الاصلاح الديني والاجتماعي في الوطن العربي الاسلامي ، من ابن تيمية الى محمد عبده . وأما حديثه عن الابراهيمي فانه يضعه فيه في مصاف من رأينا من أعلام اللغة والبيان في تاريخ الأدب العربي ، ولم يشذ عن هذا السلوك الا مرة واحدة ، وذلك في قصيدته (رعد البشائر)[1] وقد نظمها على اثر دروس قام بها الابراهيمي بمدينة باتنة ، وكان الشاعر يومئذ بها ، فجعل الابراهيمي فيها يجمع بآن ، مابين نبوغ كتاب العربية وشعرائها ، وبين اهتمامات أهل الفلسفة وأصحاب التصوف ، فهو عنده كالاولين كما في قوله :

ويرجز (كالعجّاج)[2] لي أو ك (رؤبه)[3]   أراجيز تسليني وان كنت موجعا
أرى لك طبعا في القريض مطاوعا   وذاكرة في حفظ ماشئت أطوعا
فلو شئت شأو (الشنفرى)[4] لبلغته   ولم تقتلع حتى تبز (المقفعا)[5]
ولو شئت احصاء لما قد حفظته   لفاخرت (حمادا)[6] به و(ابن أصمعا)

وهو عنده من نحو آخر ، كأصحاب الطائفة الثانية ، يقول في القصيدة نفسها :

---

(1) الديوان ، ص : 185 ، ونشرت في البصائر العدد : 3 ـ 8أوت 1947 . وهي بعنوان (ومانحن الا أمة ذات نسبة) .

(2) هو عبد الله بن رؤبة ، من تميم وهو من مشاهير الرجاز في الشعر العربي ، ويذكر ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) ج 2 : 591 ـ أنه سمي العجاج بقوله (حتى يعج عندها من عجعجا) .

(3) وهو رؤبة بن العجاج ، وهو كأبيه راجز . وديوانه مطبوع في (مجموع أشعار العرب) ج 3 : 3 ، ينظر (الشعر والشعراء) ج 2 : 594 .

(4) هو ثابت بن أوس الأزدي (ـ 510م) لقب بالشنفرى ، وقيل اسمه ، ومعناه عظيم الشفتين . وهو من الشعراء الصعاليك الذين عرفوا في العصر الجاهلي . ومن أشهر آثاره الشعرية (لامية العرب) . ولها أكثر من عشرين شرحا ، ولها طبعة مع (لامية العجم) للطغرائي . بشرحيهما للزمخشري والصفدي ، بتحقيق عبد المعين الملوحي .

(5) هو عبد الله ابن المقفع بن داذويه ، ولد بفارس سنة 106 ومات بالبصرة سنة 145 هـ كان من اعلام الكتاب في العصر العباسي الاول .

(6) هو حماد الراوية ابن ابي ليلى (96 ـ 145 هـ) كان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها ، واسع الحفظ ، عارف بالقديم والحديث .

لقد عنّ لي من درسه أن عقلـــه　　بفلسفة دينيـة قد تشبعـــــا
أراه بما يرقى المراقـي فكـــرة　　وينزع فيها (للغزالي)منزعـــا
ويكشف عن صوفيــة سلفيـــة　　الى وردها الصافي (القشيري)[1]ألمعا

وأحسب أن اقحام الشاعر لهذا الجانب في شخصيـة الابراهيمي انما هو أثر من آثـــار ماكان يعيشـــه الشاعر نفسه في هذه الفترة التي نظم فيها القصيدة ، وقد مرّ معنا أنـه مال في هذه الآونة (الا ُربعينات) الى العزلة والسكوت ، ولا شك أن يكون ذلك قد ساعده على تعميـق مطالعاته في آثار الفلا سفـة والمتصوفـة المسلمين ، مما يكون قد أيقظ فـي نفسه ذلك النزوع الصوفي الكامن في أعماقـه فألفـى في الحديث عن هذا الجانـــب مجالا من مجالات التنـفيس عن مكوناته ، ولونا من ألوان التعبير عن الحياة الشعورية التي كان يحياها يومئـذ وأسلوبا من الا ُساليـب التي يلجأ اليها المرء أحيانـا ، لاسقـاط ما يحـس به في داخلـه من غيره . وأما عمله الرابع في الموضوع فهو قصيد ة (يارائد الشعـب) [2] وهي واحدة من مطولاتـه ، اذ تقـع في أربع وثمانـين بيتـا ، وقد نظمها احياء للذكرى الا ُولى لوفـاة الابراهيمـي ، وألقاهـا في الحفل الذي أقيم لهذا الغرض بقاعـة ابن خلدون) بالجزائر العاصمـة يوم 21 ماي 1966 م .

وقد افتتحهـا بالاشادة بمآثر الفقيد النضاليـة وبآثاره العلمية والفكرية ، تلـك التي مهدت الطريق أمام الشعب الجزائري ، وكانت له بمثابـة الا ُرضيـة الصلبة الـتي وقف عليها ، وفجـر من فوقهـا ثورتــه الخالدة ، وذلك في أسلوب تقريري يلائم موقـف الانشاد الذي وجد فيـه نفسه ، يقول مخاطبا الفقيـد :

ذكرى وفاتك احيـاء لا ُعمـــال　　من صنع عزمك أم بعث لا ُجيـال ؟
أم نشر صحف جهـ د تمت عن قيم　　عليـا بها ونضال منك ذي بـال ؟
أم عرض ثورة شعب نلت قائدهـا　　بالرأي قبل أن يصلى بها صالـي ؟
يارائد الشعب للا ُهداف سرت به　　دينـا ودنيـا بفكـر منك جـوال

ويخيـل الي أن القارئ لهذا المطلع يحس بنفـس جديد يسـري في القصيدة ، لـم يعهـده مـن قبل في سابقتهـا ، ويخلص الشاعر من هذه الوقفـة العامة الى وقفـة خاصة يركز فيها حديثه على ابراز مكانة الفقيد العلمية والاجتماعية ، وينوه فيها بجهوده المحمودة في ايقاظ الشعب الجزائري ، وبعثـه الى الحياة من بعد أن كاد يموت ،

---

(1) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشـيري النيسابوري (376 ـ 465 هـ) فقـيه وصوفي ، ولد بنيسـابور وبها توفي ، من أشهر آثاره (الرسالة القشـيريـة) فـي علم التصوف . وهي التي يلمح اليـه الشاعر في البيـت الا ُخـير .

(2) الديوان ، ص : 510 .

وانقاذه من ظلمات الجهل من بعد أن أوشك يقضي عليه الاهمال والنسيان .وما كان ذلك الا بما نشر الفقيد في أوساط الأمة من علم وبث فيها من رأى .

وتعظم هذه الأعمال في أعين الشاعر وتسمو في نفسه فيحمله ذلك على طرح جملة من الأسئلة التقريرية التي ينتهي فيها الى التأكيد أن ما نهض به الفقيد من أعباء ، وما قدمه من خدمات لأمته ، انما يذكر المرء بما قام به عيسى عليه السلام حين أحيي الموتى ، أو ما قام به (البشير) حين القى قميص يوسف عليه السلام على وجه أبيه سيدنا يعقوب صلوات الله عليه ، فارتد بصيرا ، يقول الشاعر مخاطبا الفقيد :

أحييت بالعلم شعبا سيق معظمه	للقبر في كفني جهل واهمال
وجئت بالنور في يمناك ترفعه	تجلو الغياهب عن أبصار ضلال
هل كنت (عيسى) الذي أحيا الرفاة بما	أحيا وبدل آجالا بآجال ؟
أم (البشير)(1) الذى ألقى القميص على	(يعقوب) طبا بنور للأسى جالي ؟
أم (البشير) الذى ألقى العظات على	شعب الجزائر مزموقا باجلال ؟

نلحظ أن الصورة الدينية واضحة في هذه الأبيات .

ويبدو أن الشاعر وجد نفسه في هذه القصيدة لطبيعة الحياة التي كانت تجرى من حوله ، أقل تقييدا وأكثر حرية مما كان عليه في عمله السابق . فأطلق العنان لنفسه ، لا ليضرب في أغوار الماضي البعيد ، ويتحاشى الحديث عن الحاضر ، كما فعل ذلك في قصيدته الفارطة عن الابراهيمي حينما قرنه بالعلماء المتقدمين ، واكتفى في ابراز جهوده في خدمة الوطن ، على اشارات سريعة وعامة ، وانما عمد في هذا العمل الى الكشف عما كان للفقيد في حاضر الناس من جهود مختلفة لم يقف به عزمه فيها على حدود الجزائر وطنه الصغير فحسب ، بما كان له من أيادى على نهضته ، ثم على ثورته ، وانما استطاع أن يمد في اثر تلك الجهود لتشمل وطنه الكبير ، العالم العربي الاسلامي لما كان للابراهيمي من آثار في المدينة المنورة ، ودمشق ، والقاهرة ، وباكستان ، وفلسطين وغيرها .واذا كان الشاعر كما لاحظنا في عمله السابق ، لم يستطع أن يطيل الوقوف في تصوير ذلك الواقع الوطني ، واكتفى هناك بملامسته بدون التعمق فيه ، فانه في هذا العمل استطرد لتصوير بعض ما يجرى في ذلك الواقع من قضايا وأحداث ، وقد اختار منها ما هو أقرب الى موضوعه كقضية التعريب التي كانت مطروحة يومئذ بحدة ، كمطلب جماهيرى ، وغيرها من القضايا الاجتماعية فأدلى برأى في كل منها ، وخلص من ذلك الى دعوة قومه ، باقتفاء أثر الفقيد والاقتداء به وبأصحابه ، والنهاج نهجهم ، ويرجع من جديد الى ذكر ما ألمع اليه في مطلع

(1) وهو (يهوذا) رابع أولاد سيدنا يعقوب عليه السلام .ينظر تفسير النسفي ج 2 : 237 .

قصيدتـه مما كان للا براهيمـي من أيادي وأعمال ، كانت المهاد لثورة نوفمبر المجيدة التي انتهت الى ما انتهت اليه ، من ظفر وانتصار ، مذكرا بما كان للروح الدينية من أثر في ذلك ، يعبر عن ذلك فيقـول :

لعلنا نقتفي أثر البشير (بـه)(1) في كل غرس له خصب واغلال
وماله من يد طولى وتوعيـة للشعب في الثورة العظمى وأعمال
كم خطط الخطط المثلى لما وجلا أهدافها وتحرى خير منوال
حتى علت جبهة التحرير وانتصرت وقررت وضع أوزار وأثقال
وأقبل الجيش مرفوع اللواء علـى أرض الجزائر طلق الوجه والبال
وكيف يهزم أبطال لنا شفعوا رمي الرصاص بتكبير واهلال ؟

ومما يلفت النظر في هذه القصيدة عموما ، ان الموضوعات فيها متعددة ، وهذه سمة توشك أن تكون عامة في نتاج معظم شعراء المدرسة الكلاسيكية المتجددة التي يعد الشاعر واحدا من أصحابها ، وتجدر الملاحظة أن وحدة الموضوع تأتي في مقدمة العناصر الفنية ، التي طالبت بعض المدارس المجـدّدة ، وعلى رأسها (مدرسة الديوان) بضرورة توفرها في القصيدة الحديثة ، وقد اتخذت منها تلك المدارس بابا واسعا نفذت منه الى توجيه نقد عنيف لبعض الشعراء المحدثين .

ونلحظ أن القصيدة التي بين أيدينا ، على الرغم من افتقارها الى وحده الموضوع، وتشعب الحديث فيها ما بين الماضي والحاضر ، وامتداده على مساحة طويلة ، تشمل الوطن والأمة ، فانها تتوفر على جملة من السمات الموضوعية والفنية ، التي تسمو بقيمتها الأدبية ، ويأتي في مقدمة ذلك : ما يبدو فيها ، من عمق اندماج الشاعر بموضوعه ، وصدق عواطفه فيه ، من مثل قوله يخاطب الفقيد :

اني دعيت الى الذكرى لأشهدها وانما تعرض الذكرى على السالي
تا الله ما خطرت سلواك في خلدي يوما ولا عبرت ذكراك من بالي
كأن موتك ما مرت فجيعته ولا خلت لحظة من عامه الخالي (2)

ويظهر ذلك أيضا فيما أبداه في القصيدة ، من قدرة ملحوظة في ابراز مناقب الفقيد ، ومآثره الجلى على نهضة الجزائر وثورتها ، وما انعكس من ذلك على الجانب الفني في القصيدة ، فبدا فيما تحلت به من إحكام التعبير وحسن التصوير ، ولعلنا نذكر أننا افتقدنا معظم هذه الخصائص في العمل السابق ، ونحسب أن ذلك ، انما مرده الى ما ألمعنا اليه من قبل من اختلاف الظروف الموضوعية التي كانت تحيط بالشاعر هنا ، وتحف به هناك ،

---

(1) الضمير يعود على العلم في البيت السابق .
(2) الديوان ، ص : 501 .

فقد كان في العمل يعيش في عام 1965 م وهو في تاريخ دولة الجزائر الفتية ، غير سنة 1965م ، التي شهدت ميلا دعمله الذى بين أيدينا . وحسب أن هذين الموقفين المختلفين للشاعر ، انما يدلان على وعيه لما يحيط به ، وقدرته في الوقت نفسه على التطور والتكيف مع الأحداث .

وأما خامس وآخر عمل للشاعر ، يتصل بالابراهيمي ، فهو قصيدته (مشاعل حكمة) (1) وهي متوسطة نسبيا ، اذ تقع في أربعين بيتا ، ولهذا العمل قصة ، ذلك أن الشاعر دفع اليه دفعا ، في وقت يبدو أن الالهام الشعرى فيه قد جفاه أويكاد ، وانه لم يعد يملك القدرة على السفر الى وادى (عبقر) ، أو أنه لم يشأ أن يسافر اليه ، كما كان ، ليستوحي منه روائعه التي كان يطلع بها على الناس ، أيام كان بينه وبين ذلك الوادى ، أوثق الصلات ، وكان بينه وبين الوحي بالشعر ، أطيب العلاقات ، إن الشاعر قال هذا العمل في غضون 1972م ، على اثر رسالة وافته من السيد الدكتور أحمد طالب الابراهيمي يلتمس فيها منه ، أن يتفضل بكتابة تقديم لكتاب أبيه المرحوم (عيون البصائر) .

الا أن الشاعر رد على هذا الالتماس بهذه القصيدة التي بين أيدينا ، وهو يرجو أن تقوم مقام التقديم الذى اعتذر عن القيام به بعدة أعذار (2) .

واذن فقد نظم الشاعر هذا العمل بدوافع خارجية ، وبعد أن مضى على هجره ساحة الشعر ، وقت ليس بالقصير ، ذلك أن أحدث قصيدة اشتمل عليها ديوانه ترجع الى سنة 1967 وهي (هي الهمة القعساء) (3) . ومهما يكن من أمر ، فماذا عسى أن يجد القارئ في هذا العمل ، مما وقفنا عنده في أعماله السابقة في هذا الموضوع ؟

لقد استهل الشاعر قصيدته بالاشادة بكتاب الفقيد ، وقد وجد نفسه وهو ينظم عملا سيكون في مكان التقديم لهذا الكتاب مدفوعا الى الحديث عما كان بينه وبين صاحب هذا الأثر من صلات أدبية ، ثم خلص من ذلك الى التنويه كعهده ، بشخصية الابراهيمي العلمية والأدبية ، وبمكانته الاجتماعية ، وبما كان يربطه بالامام ابن باديس من صلات أهلته لأن يخلفه على رأس جمعية العلماء ، وقد أدى به هذا الحديث عن هذين العالمين ، الى تذكر من كان الى جانبهما في هذا الميدان ، فحمله الوفاء للجميع ، والرغبة في الاقتداء بهم في الوقت نفسه على أن يهتف بالتحية لاولئك الاعلام ، مشيدا بدورهم في النهضة الوطنية الحديثة التي كانت المهاد

---

(1) نشرت بكتاب (عيون البصائر) ، ص : 11 .
(2) جاء ذلك في فقرة من رسالته المنشورة بالمصدر السابق ، ص : 6 .
(3) الديوان ، ص : 541 .

لثورة نوفمبر العظيمة(1) . فقد غرس أولئك الاعلام المجاهدون البذور الأولى لهذه الثورة في النفوس وفي العقول ، وفي السلوك ، وجاء من بعدهم خلف اقتفى الأثر ، وسار على الدرب ، وفجر الثورة ، وحقق النصر ، ومضى يشيد على أرض الجزائر الحرة الدولة الجزائرية العصرية ، يشير الشاعر الى بعض ذلك فيقول :

سلام على الأعلام ماطاب ذكرهم — وآثارهم في العلم والعلم يخلد
لقد زرعوا زرعا فأخرج شطأه — كأخصب محصول من حب يحصد
وأبقوه للأجيال ذخرا مباركا — وزادا من الذكرى لمن يتزود
واقبل جيل بعدهم غرس ثورة — عصامية يرجو النمو ويشهد
ويبني على أرض الجزائر أمة — مثالية في وعيها ويشيّد (2)

ويبرز النسق القرآني جليا في الأبيات في معانيها ، وفي طريقة التعبير ، والتصوير بها ، ونلحظ أن الشاعر يلتقي في صورته الدينية في البيت الثاني ، بصورة مماثلة لدى الشاعر حافظ ابراهيم في بيت يتحدث فيه عن (محمد عبده) وهو :

زرعت لنا زرعا فأخرج شطأه — وبنت ولما نجتني الثمرات (3)

وينهي الشاعر قصيدته كعادته في معظم أعماله باستخلاص العبرة فيما يفيد الوطن ، وينفع الأمة في يومها وفي غدها ، في دينها وفي دنياها .

ويحسن أن نذكر أن اشادة الشاعر بمواقف الشيخ الابراهيمي ومآثره لم يقتصر فيها على هذه القصائد التي وقفنا عندها فحسب ، وانما يعثر المرء على شيء من ذلك في أعمال أخرى كان الشاعر قد نظمها في مناسبات مختلفة كان لذلك المصلح بها صلة ، نذكر بعضها حسب ترتيبها الزمني : (تحية دار الحديث) (4) ـ (بين أميرين) (5) ـ (تهنئة الأزهر بشيخه الجديد) (6) ـ (فتح جديد) (7) ـ (حسن الظن بالله) (8) .

---

(1) ينظر الشيخ أحمد حماني (مجلة الثقافة العدد : 38 1 أفريل 1977 ، ص : 105 .
(2) عيون البصائر ، ص : 12 .
(3) ديوانه ، ج 2 : 130 .
(4) الديوان ، ص : 79 ، ألقاها في حفل تدشين (دار الحديث) يوم 27 سبتمبر 1937 .
(5) الديوان ، ص : 396 ، نظمها الشاعر على اثر حادث سيارة وقع للابراهيمي ، ونشرت بالشهاب ج 2 م 13 ، شعبان 1356 هـ / أكتوبر 1937 م ، ص : 378 .
(6) الديوان ص : 206 ، ونشرت بالبصائر العدد : 208 ـ 17 نوفمبر سنة 1952 .
(7) الديوان ، ص : 181 ، وهي بالمخطوطة ج 1 : 92 . وتذكر كلمة التقديم بها أن الشاعر قالها حوالي 1947 . وينص تقديمها بالنسخة المطبوعة أنها نشرت في مجلة (العبقرية) العدد : 1 : ـ 1366 هـ (تلمسان) .
(8) الديوان ، ص : 533 ، ثلاثة أبيات بذلك العنوان ، يذكر تقديمها بالديوان ، أن الشاعر ارتجل أولها ابان تهنئة لوداع صديقه الابراهيمي على اثر زيارته له في مرض وفاته ، ثم أكمل لها البيتين الأخيرين من بعد ذلك .

ونشير في نهاية دراستنا لهذه الأعمال في الابراهيمي ، ان الشاعر استطاع في هذه الأخيرة منها ، بالرغم من تقدم سنه ، وهجره قول الشعر من زمان ، بأن يجمع فيها شتات شعوره وفكره ، وينتقل فيها من معنى ، الى آخر ، متصل به ، دون أن يخلّ ذلك اخلالا كبيرا بوحدة الموضوع ، بيد أنه لم يستطع أن يجول فيها كما كان يجول ويطيل النفس في مثيلاتها ، فبدت لذلك عاطفته فاترة بعض الفتور ، وكانت حركته في عرض المعاني محدودة ، وانعكس ذلك على الجانب الفني في القصيدة ، فجاء الأسلوب بها يميل الى التقرير ، ويخلو من كثير ، مما كان يتحلى به أسلوبه في مثل هذه المواقف ، من طول نفس ، وغزارة مادة ، وتنوع مشاعر . ولعلّ مرد ذلك الى ما ألمعنا اليه من قبل ، من أن الشاعر لم ينطلق في هذا العمل من نفسه ، كما كان في معظم الأعمال السابقة ، وانما أملي عليه ذلك املاء من الخارج ، وفي مرحلة كان فيها ، قد أفرغ يديه من صناعة الشعر ، ومن مصاحبة الشعراء ، ومصادقة العباد ، وولّى فيها وجهه نحو ربّه ، منصرفا اليه بكليته ، صارفا اليه قلبه ، وجميع جوارحه ، مشتغلا بعبادته عن سواها .

وان المرء يشم عبير هذه الحياة الروحية ، يعبق في ثنايا هذه القصيدة معنى ومبنى من مطلعها الى خاتمتها ، كما يمكن أن يستنشق ذلك الشذى في معظم قصائد الشاعر في هذه الآونة .

ومهما يكن من أمر موقف النقاد من القيمة الأدبية لهذه القصيدة ، فان قيمتها التاريخية ، واضحة ، كعمل من الأعمال التي جادت بها قريحة الشاعر في آخريات أيامه ، (سنة 1970) ، وقد مرّ معنا أن الشاعر لم ينشر له بعد هذا التاريخ سوى قصيدة واحدة ، وهي التي أسهم بها في تخليد الذكرى العاشرة للاستقلال ، ولعلّ بذلك تكون قد طويت آخر صفحة في سجل عهد طويل دام قرابة نصف قرن لم يفتر فيه الشاعر عن العطاء ولم يتأخر عن النضال الا في بعض الحالات الاستثنائية التي يمكن أن يتعرض فيها أي انسان لبعض آثار الضعف ، وفيما عدا ذلك فقد كان في معظم مراحل حياته في الطليعة ، فقد كان كذلك يوم أن كان الناس في مجتمعه يعطون الكثير ولا يأخذون الا القليل ، ثم صار في المؤخرة يوم أن أضحى هؤلاء الناس أو بعضهم يأخذ الكثير ولا يعطي الا القليل .

* * *

ويوشك أن يكون الحديث بهذا قد أشرف على نهايته في هذا الفصل ، غير أننا لا نودّ أن نغادره حتى نقف وقفة نستخلص فيها بعض الملاحظ تتصل بما دار حوله النقاش في هذا الفصل .

1 ـ ان الذى يمعن النظر في نتاج محمد العيد في هذه الفقرة يلحظ اندماج الشاعر بموضوعاته وانفعاله بها ، ووضوح عاطفته فيها مما قد يجعل المتلقّي يحس أن الشاعر لم يصدر في هذا الشعر عن بواعث خارجية منفصلة عن ذاته ، وانما كان ينطلق فيه من داخله ، ولم يحمله على النظم في موضوعاته ، الا ايمانه بأنها جزء منه .

2 ـ أن الشاعر قد خصّ ابن باديس والعقبي والابراهيمي بقصائد من شعره دون غيرهم من العلماء المصلحين ، وهذا مردّه في نظرى الى مجموعة من العوامل يأتي في مقدمتها : أن هؤلاء الأعلام الثلاثة ، انما كانوا هم أكبر قادة الحركة الاصلاحية ، والنهضة الوطنية الحديثة في الجزائر ، لما لهم من أدوار مميّزة في مسيرتها ، وللمهام الخاصّة التي اضطلعوا بها ، والمكانة المرموقة التي كانوا يحظون بها في نفوس أفراد الأمة ، بالاضافة الى ما اكتنف حياة هؤلاء من حوادث وأحداث ، وما كان بين الشاعر وبين هؤلاء من صلات خاصة ، لم ترق اليها علاقته بغيرهم من اخوانهم العلماء .

ولهذه العوامل مجتمعة خصّهم الشاعر بما لم يخصّ به غيرهم .

ويحسن ألّا يفهم من هذا أن الشاعر قد أغفل جهود من كان الى جانب هؤلاء في الميدان ، وانما نراه قد نوّه في كثير من شعره بمساهمة جميع المصلحين في النهضة الوطنية ، ودعا الشعب الى الالتفاف حولهم ، والوقوف الى جانبهم ، وقد وقفنا عند ذلك في مواطن كثيرة من هذه الرسالة ، كان آخرها ما لاحظناه في قصيدته (مشاعل حكمة) التي هتف فيها من الأعماق محيّيا تحية إخلاص وودّ ، جميع أعلام الجزائر .

3 ـ لقد قال محمد العيد بعض قصائده في أعلام الاصلاح أثناء حياتهم ، تخليدا لما اكتنف تلك الحياة ، من ملابسات ومواقف ، وقال بعضها الآخر في أعقاب وفاتهم ، احياء لذكراهم ، واستمرارا في الاشادة بجهادهم وجهودهم من أجل العقيدة والوطن ، وانّ ما يلفت الانتباه في هذا الجانب ، أن الشاعر نظم في ابن باديس والابراهيمي في حياتهما ، وبعد وفاتهما ، واستمر في ذلك الى ما بعد الاستقلال ، ولكنه لم يفعل مثل ذلك فيما يتصل بثالثهما العقبي الذى تنتهي قصائده فيه بانتهاء الثلاثينات ، ولم نعثر له على شعر بعد ذلك في رثائه ولا في احياء ذكراه ، وقد سبق تحليل ذلك في مكانه من هذا البحث (1).

4 ـ كان الشاعر واعيا لعمله الفني في حديثه عن هؤلاء الأعلام ممّا طبع قصائده في كل واحد منهم ، بطوابع مميزة أبرزت ما يتسم به من صفات وما اشتهر به من مواقف ،

---

(1) ينظر ص : 219 .

فالامام ابن باديس يغلب على شخصيته العلم والاصلاح ، ويغلب على شخصية الابراهيمي سمة العلم باللغة والأدب . وأما العقبي فيجمع بين اصلاح الأول وأدب الثاني . فهو الى جانب ما اشتهر به كداعية اصلاح ، كان خطيبا لايجارى ، وشاعرا في الوقت نفسه . وان نجاح محمد العيد في توفير هذه الطعوم المختلفة لقصائده في أولئك الأعلام [illegible] من النعوت والمناقب ما يتلاءم مع شخصيته ، ان ذلك يمكن أن يدل على صدق عاطفته ، كما يمكن أن [illegible] الأعمال في الوقت نفسه ، طابع الخصوصية الذى يبتعد بها عن ظاهرة التعميم ، ويدنو بها مما تتميّز به ، كل شخصية من تلك الشخصيات من مواقف وآثار .

5 — ولعلنا نكون قد تبيّنا من خلال ما تقدّم ، ان قصائد الشاعر في هؤلاء المصلحين ، تتوزع على مسافة زمنية طويلة ، تمتد من أول عهده بالشعر الى آخر أيامه به ، من (صدى الصحراء) (1) التي نظمها سنة 1925 ، الى (مشاعل حكمة) (2) التي نظمها سنة 1970 .

وبديهي أن هذا الاختلاف الزمني بين هذا النتاج سيترتب عله تباين في أعماله ، من مرحلة الى أخرى ، في بعض معانيها ، وفي بعض وجوه صياغتها ، لما ينشأ عن ذلك من اختلاف التطورات والأحداث بين فترة وأخرى ، ويكون له أثره ، في تطور نظرة الشاعر للحياة والناس من حوله . ويمكن أن نميّز في هذا الشعر مرحلتين اثنتين ، يأتي الاستقلال حدّا فاصلا بينهما ، وهو حدّ مميّز بصورة كبيرة في حياة الجزائر والجزائريين ، كما يتميز في حياة كلّ قوم ، ينتقلون من زمن العبودية الى زمن السيادة . وانّ ما يمكن ملاحظته في هذا النّتاج في المرحلة الأولى ، أن الشاعر كان يركّز فيه على الاشادة بجهود رجال الحركة الاصلاحية في وضع أسس النهضة الوطنية ، وخدمة قضايا الأمة ، والمنافحة عن قيمها ومقوّمات شخصيتها ، ودعوة هذه الأمّة الى مؤازرة قادة نهضتها ، والسير في طريقهم ، ويسهم به الى جانب ذلك بفعالية فيما ينهض به هؤلاء الأعلام من مقاومة الانحراف الديني ، وتصحيح العقيدة ، ومقارعة أعداء الوطن . ويظهر ذلك خاصة في حرص الشاعر على بعث الأمل والثقة في نفوس أفراد الشعب ، وتوعيتهم بأهدافهم الوطنية ، والتمكين لقيم الجهاد في ضمائرهم ، ورسم الطريق أمامهم نحو استرداد الحق المغتصب .

وأما قصائده في المرحلة الثانية فقد استمر فيها يذكر بجهود أولئك الرجال ، وتضحياتهم من أجل الأمّة ، بيد أنه نحا فيها منحى جديدا يظهر في تأكيده ، على أنّ ما ينعم

---

(1) الديوان ، ص : 12 .

(2) ينظر (عيون) البصائر ، ص : 11 — للابراهيمي .

به الشعب الجزائرى اليوم ، من مظاهر الحرية والكرامة ، انما كان ثمرة من ثمار تلك البذور التي كان لأولئك الرجال شرف المساهمة في غرسها في نفوس أفراد الأمة ، ورعيها من بعد ، حتى أينعت ، وأثمرت ثورة انتهت بتحقيق الاستقلال ، وينطلق من هذه المعاني الى تمجيد هذه الثورة ، والاشادة بأبطالها ، والتنويه بما تحاول الدّولة الجزائرية الفتية أن تقيمه من نظام وتملي صرحه من عمران .

ويركز في الأخير على ظاهرة القدوة بسيرة هؤلاء الأعلام واقتفاء أثرهم في خدمة الأمّة ، والاخلاص لمبادئها ، والتضحية من أجل أهدافها .

وأما من الناحية الفنية فان ما يمكن تمييزه والاشارة اليه في هذا الجانب أن قصائده في المرحلة الثانية ، تميزت بوضوح الأثر القرآني فيها ، في لغتها ، وفي صورها ، أكثر مما كان من ذلك في قصائده في المرحلة الأولى ، ولا يعني هذا أن الشاعر لم يكن في تلك الفترة واقعا تحت تأثير القرآن الكريم ـ وقد مضى معنا أنه كان طوال حياته مواظبا على تلاوته والاستشارة بهديه ـ وانما الذى نريد أن ننص عليه أن ذلك التأثير، وجد في المرحلة الأخيرة من حياته ، مناخا ملائما تمكن خلاله من التغلغل في نفس الشاعر ، وفي ذهنه ، لملابسات حياته الخاصة أثناء الثورة ، وبعد الاستقلال وما أصبح يعيش في ظلاله من أجواء التصوف ، وبميله اليه من عزلة ، الأمر الذى سمح له أكثر من أىّ وقت مضى بالعكوف على تلاوة القرآن الكريم والتعمق في فهم معانيه وتذوّق بيانه ، فانتقل ذلك الأثر بهذه الكثافة الى شعره الأخير فظهر فيما اصطنع فيه من طرائق التعبير وضروب التصوير .

6 ـ يلحظ المرء بوضوح في هذه القصائد ظاهرة وفاء الشاعر لجمعية العلماء ويحسن في هذا المجال ، أن نميز بين أمرين اثنين : بين الوفاء للشيء ، وبين فرط التحمس له .

أما الوفاء فيبدو أن الشاعر لم يعتره الاحساس في يوم من الأيام بالجفاء لهذه الجمعية ، كما رأيناه هو نفسه يؤكد ذلك في أقواله ، ويشهد عليه شعره في جميع مراحله ، ويمكن للدارس أن يلمس ما نذهب اليه ، ليس في شعر الشاعر الذى قاله في هذه الجمعية ، في الفترة التي كانت تشهد فيها ، أوج نشاطها فحسب ، وانما في شعره الذى نظمه بعد ذلك الى أواخر حياته . لقد استمر الشاعر يلهج بذكر هذه الجمعية ويشيد بمآثرها من أول قصيدة قالها في اجتماعها التأسيسي الأول (تحية العلماء) [1] . الى ما قبل آخر قصيدة نشرت من شعره (مشاعل حكمة) ، تلك التي ألمع فيها الى خلافة الابراهيمي لابن باديس على رأس هذه الجمعية ، وأشاد فيها

---

(1) الديوان ، ص : 247 .

بجهود هما ، وجهود غيرهما من الأعلام على طريق النهضة والثورة ، وقد ظهر ذلك الوفاء في أشكال مختلفة ومظاهر شتّى ، فبدى طورا في معرض حديثه عن مظاهر النهضة ومساهمة هذه الجمعية في مختلف وجوهها في الفترة التي سبقت الثورة ومهدت لها ، كما يتجلى ذلك في أعماله هذه (الى العلم)[1] (بشرى للجزائر)[2] (في يوم باتنة العظيم)[3].

كما ظهر ذلك طورا ثانيا في مجموعة قصائده التي نظمها في أعلام هذه الجمعية وأشاد فيها بمواقفهم ومآثرهم في سبيل الأمة .

7 — وان آخر ما يمكن استخلاصه من شعر الشاعر في هؤلاء المصلحين أنه كان يحس بقوة أن حركة هؤلاء ، انما هي امتداد لحركة من سبقهم على هذا الطريق في العالم العربي الاسلامي . ويؤمن أن الصلة حميمة بين ما كان قد دعا اليه أولئك هناك ، وبين ماكان ينادى به هؤلاء هنا . وتتضح هذه الرابطة بوجه خاص في حديثه عن الامام ابن باديس الذي يرى في جهاده وأعماله صورة لجهاد وأعمال بعض المصلحين الرواد في العصر الحديث كالأفغاني ، ومحمد عبده ، وقد يذهب في هذه المقارنة الى أبعد من هذا التاريخ ، فيعمد في بعض شعره الى تشبيه بعض مواقف الامام عبدالحميد في شجاعته وتحديه للظالم بمواقف مماثلة كان قد وقفها بعض الأئمة وبعض المصلحين الأولين ، من أمثال (أبي حنيفة) و (مالك) من الأئمة ، و (عزالدين بن عبدالسلام) ، و (ابن تيمية) من المصلحين . الا أن الذي يلفت نظر الدارس اليه في حديث الشاعر عن هذه الصلة بين المصلحين في الجزائر وفي غيرها، هذان الملحظان :

أما أولهما فيتمثل في انعدام أي ذكر في هذا الشعر للمصلح الكبير (محمد رشيد رضا)، وهو تلميذ محمد عبده ، ومن أبرز من تمثل اتجاهه وسار عليه في الوطن العربي الاسلامي من بعده . وقد رأينا أن المصلحين الجزائريين كانوا منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي واقعين تحت تأثير حركته ، وكانوا يصرحون بذلك ويعتزون به ، كما مرّ معنا أن مجلته (المنار) كانت تأتي الى الجزائر وكان المثقفون الجزائريون ينهلون بحماس من عطائها ويرقبونها في تطلع شديد .

وقد حدث أن توفي هذا المصلح سنة 1935 ، فلم ينظم الشاعر في رثائه شيئا ، بينما قد فعل ذلك بعض المصلحين ، فكتب ابن باديس[4] ، وكتب أبو اليقظان[5] في الموضوع .

---

(1) الديوان ص : 202 ، نشرت بالبصائر العدد : 140 — 5 فيفري 1951 .
(2) الديوان ص : 211 نشرت بالبصائر العدد : 249 — 4 ديسمبر 1953 .
(3) الديوان ص : 216 ، ألقاها الشاعر في الاحتفال بتدشين مدرسة باتنة يوم 5 سبتمبر 1954 .
(4) ينظر (الشهاب) ج 7 م 11 — رجب 1354 هـ / اكتوبر 1935 .
(5) ينظر د . محمد ناصر (أبو اليقظان والقضايا الاسلامية العربية) الثقافة العدد : 22 — أوت — سبتمبر 1974 .

وقد مرّ معنا أن الشاعر نفسه قد رثى الأمير (شكيب أرسلان) المتوفي سنة 1946، وقد كان مقلا في هذه الفترة ، ولم يفعل مثل ذلك في الفقيد (رضا) في فترة الثلاثينات وهي من أخصب مراحل حياته انتاجا .

ونحسب أن يكون وراء هذا السلوك ما وراءه من الأسباب . ونبادر الى القول بأن نتاج الشاعر ليس فيه ما يعين على تحليل ذلك .

وعلى أية حال يمكن أن يكون الشاعر قد وقف ذلك الموقف بدافع تعاطفه مع التيجانية التي كان لهذا المصلح معها مواقف جريئة(1) .

وأما الملحظ الثاني فذاك الذى يتبدى في إغفال الشاعر الحديث عن (الحركة الوهابية) وعن مؤسسها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، وهو يتحدث عن الصلة بين المصلحين الجزائريين وغيرهم ، مع تعرضه في ذلك الحديث لبعض الذين سبقوا هذا العالم على هذا الطريق ، وكان هو امتدادا لهم ، ولبعض الذين جاوزوا من بعده ، وكانت حركاتهم امتدادا لحركته .

ونحسب أن هذا السلوك من الشاعر انما هو دليل واضح ، يضاف الى ما سبقه من أدلة على معايشته لأحداث وطنه ووعيه لما كان يدبر المحتل الأجنبي من مكايد لضرب الحركة الاصلاحية والنيل منها بشتى الوسائل ، وكان من بين ذلك محاولته الحاق تهمة (الوهابية) بها لما عرفت به هذه الحركة من انتهاجها منهج الصرامة في مواقفها ، ومن تحفظها من الاقبال الشديد على المدنية الغربية ، وهو يهدف بذلك الى تصوير هذه الحركة ورجالها بصورة من يميل الى التعصب والعنف ومعاداة الحضارة الحديثة، عله بذلك يمكن أن يشوه سمعتهم واضعاف أثرهم في الأمة .

ويمكن أن يكون الشاعر قد تحاشا ما تحاشاه من عدم الالماع الى الحركة الوهابية وصاحبها بدافع ادراكه لهذه المحاولات ، فسكت عن ذلك حتى يفوت الفرصة على أصحابها ، ويقف بذلك الموقف في صميم حركة الفصل المضادة التي يقوم بها الجزائريون تفنيدا لتلك الدعاوى ، واحباطا للأغراض المستهدفة منها .(2)

ونصل بهذا الى نهاية هذا الفصل الذى حاولنا أن نعرض فيه بالدراسة والتحليل لشعر محمد العيد الذى أوقفه على الاشادة بالحركة الاصلاحية حامية الاسلام، والتنويه بجهود قادتها الذائدين عنه .

---

(1) ينظر الشيخ محمد الحافظ التيجاني (الانتصاف) الحلقة : 3 ، ص : 13 وما بعدها .

(2) ينظر ص : (33) من هذه الرسالة .

ويحسن أن نذكر أن العقيدة الاسلامية ، انما هي شجرة ثمارها القيم السامية والأخلاق الفاضلة ، ولذلك كان من الأهداف الأساسية للدين الاسلامي تكوين مجتمع انساني صالح ، تنتشر بين أفراده الخلال الحميدة ، وتتحكم في العلاقات القائمة بينهم قيم الحق والخير والعدل .

ولا شك ان ادراك الشاعر لهذه الحقيقة هو الذى دفعه بأن يولي عناية فائقة بالجانب السلوكي في حياة الناس ، ويحرص على أن يكون لشعره امتدادات وظلال في مسار حياتهم الاجتماعية والوطنية .

وان الذى يستقرئ شعره في هذا المجال يجده قد أوقف جانبا كبيرا منه على التمكين للسلوك القويم ، في حياة الأفراد في مجتمعه ، بنشر الفضيلة ومحاربة الرّذيلة ، والتأصيل في نفوسهم لعوامل التآزر والوحده بينهم ، وحثهم على الأخذ بأسباب العلم ، والعمل ، والاقبال على الحياة ، بما يكون من شأنه أن يساعدهم على النهوض بمجتمعهم ، وتحرير وطنهم . وهذا ما ستفرغ الرسالة الى معالجته في الفصل التالي .

الفصل الثالث

الدعوة الى النهوض بالمجتمع في اطار القيم الاسلامية

لقد عني الاسلام أيّما عناية ببناء شخصية الانسان، فردا وجماعة على أساس من التوازن، في مطالبه الروحية والمادية، يوفّر للجسم ما يقوم به، ويوفّر للروح ما تزكو به. ومن هنا كان منهج الاسلام في ذلك يختلف كامل الاختلاف عمّا كان سائدا لدى الامم السابقة سواء منها تلك التي كانت تجعل القوّة الجسمية هي المثل الأعلى للشخصية، فتكاد تهمل ما دونها، أو تلك التي كانت تولي معظم عنايتها للروح وتهمل ماسواها.

ان الاسلام يقف وسطا بين هذه وتلك، فيشجع على العناية بالقوة الجسمية، ويؤكد في الوقت ذاته على الاهتمام بالنواحي الرّوحية والفكرية المكمّلة لها، ويرى أنه بهذا المنهج القويم يمكن بناء الشخصية الانسانية المتكاملة المعتدلة.

ويرادف هذا الاهتمام بالانسان فردا، الاهتمام به جماعة ومجتمعا، وهذا ما يفسر لنا ما شرعه الاسلام من ضوابط وحدود توضّح الرّوابط التي تربط ما بين الأفراد وتتحكّم في علاقاتهم، وتبيّن في الوقت ذاته تلك الصلة الوثقى القائمة ما بين الدين والأخلاق في الشريعة الاسلامية.

وممّا يحسن ملاحظته في هذا الصدد أن المنهج الاسلامي في بناء الشخصية الانسانية المتوازية المتكاملة لا يقتصر على تحديد ما ألمعنا اليه من ضوابط ومعالم في حياة الفرد والمجتمع فحسب، وانما يحرص الى جانب ذلك على أن يشمل بالتقويم والتوجيه ما يبدعه الانسان بعقله وبقلبه من علم وفكر وفنّ.

ومن هذا المنطلق أعطى الاسلام لصناعة الكلمة مفهوما [illegible] يتماشى مع مبادئه وأهدافه، وحمّل صاحب [illegible] في الوقت نفسه، رسالة تتمثل في تسخير [illegible] الابداعية، لنشر قيم الحق والعدل والخير والجمال، بين أبناء البشرية جمعاء.

ونصادف في مقدمة النصوص الاسلامية التي توضّح أسس هذا المنهج، القرآن الكريم الذى يرسم الاطار الذى ينبغي أن يتحرك فيه الشاعر المؤمن، وتنمو في ظله رسالته الفنية، بدعوته الى الاتجاه في العمل الشعرى اتّجاها، يستهدف تهذيب النفس، وتزكية الرّوح، والسمو بها في معارج الفضيلة والصلاح، يقول الله تعالى:
((والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنّهم في كلّ واد يهيمون، وأنّهم يقولون ما لا يفعلون، الّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا اللّه كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا))[1].

---

(1) الآيات: (24 ـ 25 ـ 26) من سورة (الشعراء).

ويزيد الرسول صلّى الله عليه وسلّم توضيحا لبعض جوانب هذه الرسالة الشعرية فيقول : ((انّما الشعر كلام مؤلّف ، فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحقّ منه فلا خير فيه))(1) .

ويحرص الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بدوره على التأصيل لهذه الأسس الأخلاقية لرسالة الشّعر في كتابه الى أبي موسى الأشعري ما نصّه : " مر من قبلك بتعلّم الشعر ، فانه يدلّ على معالي الأخلاق ، وصواب الرأى ، ومعرفة الأنساب"(2).

وعلى هذا المنهاج سار شعراء الدّعوة الاسلامية في صدر الاسلام في أشعارهم ، واقتفى أثرهم من بعدهم نفر غير قليل من الشعراء في مختلف عصور الأدب العربي ، ينشرون الفضيلة ، ويذودون عن قيم الحق ، والعدل ، والخير ، والجمال (3) .

ويحتل الشاعر محمد العيد في هذا المضمار بين شعراء العربية في العصر الحديث ، مكانا مرموقا لتشبّعه بروح الاسلام ، وتمثله لمبادئه في القول وفي العمل ، في الفكر وفي السلوك ، الأمر الذى جعله يؤمن بوظيفة الشعر التربوية والاجتماعية ، ويقول بهذا الصدد : " ان المجتمع في تلك الفترة فرض علينا أن نطرق مواضيع معيّنة ، ولهذا جاءت أشعارنا توجيهية تربوية اجتماعية "(4)

وأدّى به هذا المفهوم من جهة ، وظروف مجتمعه من جهة أخرى ، الى نظم شعر غير قليل ، يدعو فيه الى السمو بالسلوك الفردى والاجتماعي ، ايمانا منه بأن ذلك ، انما هو من أقوى الدعائم وألزم الشروط للنجاح في بناء نهضة اجتماعية ، يمكن أن ترفع من قدرات الأمة على طريق التحرّر والانعتاق .

ونلحظ أن الفكرة الاسلامية في هذا الشعر ، انما تتمثّل في التحلّي بما يرشد اليه الدين الاسلامي من سلوك قويم ، واجتناب ما ينهى عنه من خلق ذميم . ومن هنا نرى أن الشاعر يحرص على تقوية الوازع الديني ، في ضمير الفرد ، ويؤصل في نفسه لجملة من الفضائل ، كالشعور بالواجب ، وايثار المصلحة العامّة ونكران الذات ، والانفتاح على الحياة ، والأخذ بأسباب التقدم فيها ، والاعتصام بالحلم والصبر ، والتعلّق بالحق والعدل . كما سعى في الوقت نفسه على أن تكون العلاقات بين أفراد المجتمع ، قائمة على أساس من التعاون والاتحاد ، ومبادىء المساواة والاحسان ، وهو يهدف بكل

---

(1) ينظر ابن رشيق (العمدة) ج 1 : 27 .
(2) المصدر السابق ، ج 1 : 28 .
(3) ينظر أحمد الشايب ، (أصول النقد الأدبي) ، ص : 81 .
(4) ينظر الشعب الأسبوعي ، 1976/10/28 .

ذلك الى ما ترمي اليه دعوة الاسلام في بناء الفرد وإعداده اعدادا روحيا ومعنويا ، يمكّنه من القيام بواجبه الديني والاجتماعي والانساني . وكان الشاعر ينطلق في هذا الشعر من مفهومه السليم للأخلاق ، على أنها ليست قواعد نظرية تجريدية بعيدة عن الواقع ، وانما هي منهاج عملي يتجلّى في الحياة العملية في سلوك الفرد ، وفي مواقف المجتمع ، تخليا عن المفاسد والرّذائل ، وتحلّيا بما يطهر النفس الانسانية ، ويحدّ من نزواتها ، ويسمو بها في معارج الرقي الانساني ، يقول الشاعر :

الخلق تخلية وتحلية ومـا أسّ الفضائل غير ترك الذّام
قد أفلحت نفس زكت وتطهّرت وسمت لكبح جماحها بلجام (1)

ان محمد العيد من الشعراء الذين يؤمنون بأن قوة أيّة أمّة ، انما تكمن الى حدّ بعيد في صحة عقيدتها ، وسمو أخلاقها ، لاعتقاده بما للفضيلة من أثر حميد في بناء شخصية الأمّة ، ووقايتها ممّا قد يصيب أفرادها من انحراف خلقي ، يؤثر تأثيرا سلبيا على قوامم النفسية والفكرية ، ممّا يؤدي الى اضعاف بنية الأمة ، وتدهور صحتها العامّة .

وانطلاقا من هذا الشعور ظلّ محمد العيد يهيب بشعبه أن يعتصم بمبادئ دينه ، وأن يتحلّى بما يأمر به من تقوى ، وبما يرشد اليه من خلق كريم ، يقول في ذلك :

وقوام الشعوب خلق سليم مستقيم فكن قويّ القوام
وبتقوى الاله فخذ منها لك زادا لعيش دار الدّوام (2) .

وان الشاعر حينما يدعو الى السلوك القويم ، انما يكون نصب عينيه ذلك النموذج الاسلامي الذي تحقق في مواقف وسير رجالات الاسلام الأولين ، ممن تأدّبوا بآداب القرآن ، وترعرعوا في مجتمع السنة ينهلون من هدى الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه ، ويقتدون بهدى سيرته ، وان أحسن من تخرج من تلك المدرسة ، واهتدى بذلك الهدى ، هم الخلفاء الراشدون رضوان الله عنهم . فقد تجلى ذلك في سلوكهم ، صدقا ، وعزّة ، وحلما ، وعلما ، وما الى ذلك من الخلال الكريمة التي ساد بها المجتمع الاسلامي الأول ، وبها يؤكد الشاعر أن الجزائر ستحيا ، ان أحيا أبناؤها تلك السجايا في نفوسهم وسلوكهم ، يعبر عن ذلك مخاطبا قومه :

من فيكم يحيي خلالا أربعا يحيي الجزائر بالخلال الأربع
صدق (العتيق) وعزّة (الفاروق) في حلم (ابن عفان) وعلم (الأصلع) (3)

---

(1) الديوان ، ص : 241 .
(2) الديوان ، ص : 500 .
(3) الديوان ، ص : 149 .

ان محمد العيد من الشعراء الواقعيين اللذين تفتقت عندهم صدفة المجتمع فعاش لذلك طوال حياته الى جانب جماهير شعبه ، يقاسمها الآمال والآلام يحيا ما تحيا من معاناة ، ويعيش ما تعيش من قضايا ومشكلات .

ولعلّه لا يخفى على الكثير ما قاساه الشعب الجزائري في هذا العصر ، من مأساة اجتماعية حقيقية ، تحت نير حكم الاحتلال الفرنسي ، هذا الذي استهدف النيل من كيان المجتمع الجزائري بطرق شتّى ، فلم يكتف بالاستيلاء على قواه المادية التي أصبحت في معظمها تحت سيطرته ، وانما حاول الى جانب ذلك أن يجرد الشعب من كل قوة معنوية يمكن أن تساعده في ردّ كيد أعدائه ودفعهم بالتالي الى اعلان الثورة ضدهم .

وكان مما قام به المحتل في هذا المجال نشره المفاسد والأدواء الاجتماعية المختلفة ، واشاعته الفاحشة في أوساط المجتمع ، فعاش الشعب الجزائري من جراء ذلك ما عاش من تغلغل في بنائه الروحي والفكري ، مما كاد أن يؤدي به لولا وقوف أمثال محمد العيد ، من علماء ، وأدباء مصلحين ، سخروا طاقتهم الابداعية والفكرية والفنية ، لتصوير تلك المفاسد الاجتماعية وتشخيصها ، وبيان مخاطرها على حاضر ومستقبل الأمة ، ووصف الدواء الملائم لها . وقد كتب الشاعر نتاجا ضخما نفث فيه عما أوشك أن يقضي عليه من لواعج الأسى وبوا عث الأسف ، لما آل اليه أمر الأخلاق في مجتمعه ، وما صار عليه سلوك كثير من الناس في بلاده ، وهم يجهرون بالمعصية حين يصبحون وحين يمسون ، يقول الشاعر :

أسفي على الأخلاق صوّح زهرها ... فينا وغور مالها من منبسج (1)

ولعل من أبرز ما يصور ذلك في شعر الشاعر هذه المقطوعة التي رسم فيها لوحة قاتمة ، لبعض ما فشا في المجتمع الجزائري ، من مظاهر الفساد ، تتابع فيها المشاهد ، وتتعاقب الصور ، الواحدة تلو الأخرى ، عاكسة ما ينخر في جسم المجتمع من آفات ، وما يهد قواه من آثام ، تعمل جاهدة على اضعافه ، وعرقلة جهوده ، على طريق الانعتاق والتحرر .

يقول الشاعر :

فرط الناس في الحدود فأمست ... تتبارى في دوسها الاقدام
نشر الكفر في حمى الدين ذكرا ... ه وأحيت عمودها الأصنام
وغدا البغي ظافرا حوله الجنـ ... ـد عزيزا تظله الأعلام
وفشا الزور والقمار على الأر ... ض وراج الخنا بها والمدام
واستطار الفساد واستفحل الشـ ... ـر وعم الأذى وطمّ الخصام
هذه الطرق للمناكر سوق ... وعليها من العصاة ازدحام
تبصر العين كل ما يؤلم القلـ ... ـب فكم في قلوبنا آلام (2)

---

(1) الديوان، ص : 147 .

(2) الديوان، ص : 177 .

ولم يقف محمد الصيد عند حدّ تصوير تلك السلبيات ، معرّضا بها ، مستنكرا لها ، داعيا الى الاقلاع عنها ، فحسب ، وانما عمد — بالاضافة الى ذلك — الى الوقوف طويلا عند ما يمكن أن يكون علاجا ناجعا لتلك الأدواء ، وباعثا حقيقيا الى الشفاء من عللها . ويبدو أنه لم يجد ما هو أنجح في معالجة تلك الآفات الاجتماعية التي استفحل داؤها وانتشر خطرها في البلاد ، من الحث على الاعتصام بمبادئ الاسلام ، والتمسك بأهداب الفضائل ، وايقاف خطر الشر ، باذاعة فعل الخير بين الناس .

ومن بين ما قاله في ذلك ، هذه اللوحة التي يمكن أن تقابل اللوحة التي سبقتها ، وتعمل على ابطال أو اضعاف مفعولها السيّء ، فقد حاول الشاعر أن يبث من خلالها دعوة حارة مخلصة ، يهيب فيها بقومه أن يعضوا بالنواجذ على مايزخر به دينهم من فضائل ، ويفيض به من قيم اجتماعية وانسانية . كفيلة — ان هم اعتصموا بها — أن تقيلهم من العثرة ، وتخرجهم مما يتخبطون فيه من ظلم وظلمات ، ويحمل ذلك الشاعر على أن يقف من قومه موقف الواعظ فيتلو على مسامعهم جملة من العظات والتوجيهات ، في نبرة خطابية واضحة :

تعالوا بني الاسلام للحق انه ... به قامت الأكوان مسنونة النظم
أقيموا حدود الحق في السخط والرضى ... أقيموا حدود الحق في الحرب والسلم
وروضوا على خلق الثبات نفوسكم ... فقد كان خلق المرسلين أولى الحزم
وخطوا على الاخلاص أس أموركم ... وسيروا على نهج السداد الى القدم
وكونوا مع القرآن يحمد قلوبكم ... وخلوا هواكم جانبا فالهوى يعمي (1)

ويلحظ أن الشاعر عالج الى جانب ما تقدّم في مواطن كثيرة من شعره ، عدد غير قليل من الآفات ، ومظاهر الانحراف الاجتماعية كالبخل والتعصب ، والتواكل والاهمال والخمول والخنوع ، وغيرها من عوامل الضعف في المجتمع . وقد أولى عناية خاصة بآفتين اجتماعيتين هما : الخمر والانتحار . أما ظاهرة الخمر فقد نظم فيها مقطوعة بعنوان (الخمر)(2) عالج فيها أخطار هذه الآفة ومضارها على الشخصية الفردية والاجتماعية للأمة . ومما جاء فيها من ذلك قوله :

الخمر شربة رجس أم ارجاس ... الخمر صاعقة تهوى على الراس
ما الخمر الا ظلام للنفوس فلا ... يغررك منها شعاع لاح في الكاس
على الفؤاد بها النيران موقدة ... وفي الدماغ لها دقات أجراس
وكيف تطفئ نبراسا حباك به ... رب البرايا وتبقى دون نبراس
فحطم الكأس واهجر كل رفقتها ... تعش سعيدا وتأمن ألسن الناس

---

(1) الديوان ، ص : 204 .
(2) الديوان ، ص : 281 .

وأما ظاهرة الانتحار التي أصبح يلجأ اليها بعض الشباب الطائش ، بدوافع بعض المركبات النفسية ، والانحرافات الخلقية ، فقد كشف الشاعر عن مساوئها وندّد بخطرها ، وذلك في قصيدته (دمعة منهمرة على فتاة منتحرة) (1) ومما جاء فيها حول تلك الظاهرة مخاطبا فتاة انتحرت :

لا أستبيح لك التردى انه ... رغم اضطرارك زلة لكراء
في كل كارثة لكل موحد ... أمل له في كشفها ورجاء
من كان مرتكز اليقين فعسره ... يسر عليه وبؤسه نعماء
ما كان حل المشكلات بحادث ... للنفس فيه على الشقاء شقاء
ان انتحار اليائسين جناية ... عظمى يبوء بخزيها الجبناء
دنياك معركة يفوز بكسبها ... رأى أسد وهمة قعساء
من فاته فيها الرجاء فمفلس ... لا يرتجى أبدا له اثراء.

* * *

ولم يقتصر الشاعر في دعوته هذه الأخلاقية على النهج العام الذي يستهدف السمو بالأخلاق الاجتماعية العامة وانما كان له الى جانب ذلك منهج آخر يقوم على الاهتمام بالسلوك الفردي ، ويحرص على السمو بشخصيته ، وصيانتها من الأمراض والعلل النفسية والفكرية ، اعتقادا منه أن الفرد الصالح ، انما هو النواة الحقيقية لمجتمع صالح وقوى ، موقنا أن الفئة التي يصدق علاجها أكثر من غيرها من مجتمع الأفراد ، انما هو فئة الشباب تلك الطاقة الحيّة التي هي بمثابة القلب في جسم الانسان ، لدى كل أمة ، يصلح حالها بصلاحه ، ويفسد بفساده ، لما يتمتع به الشباب أكثر من غيرهم من القدرة على التأثير والتأثر ، وعلى الأخذ والعطاء . وانه ما من أمة يمكنها أن تحمد السرى في جهادها ، وتقطف ثمار العمز من نضالها ، الا اذا كان لها من الشباب من تحلى بالفضائل وتجمل بالقيم ، يقول الشاعر في هذا المعنى :

ان الشباب اذا اهتدى بلغ المدى ... من وعيه وأقر عين الرّاعي
وهل ارتقت شتى الشعوب وهل نمت ... الّا على أيدى الشباب الواعي (2)

ولهذه الأهمية ، أوقف محمد العيد قسطا وافرا من شعره الأخلاقي ، على توجيه الشباب والعناية بأخلاقهم ، يدعوهم فيه الى التمسك بكل ما يصون شخصيتهم ، ويسمو بها . ويمكن القول أن القيم التي رأينا الشاعر ، يحرص على التأصيل لها في معالجة الأخلاق الاجتماعية ، هي ذاتها التي أدار عليها شعره في السمو بشخصية النشء .

---

(1) الديوان ، ص : 475 ، نشرت بالبصائر العدد : 204 ، 20 أكتوبر 1952 .
(2) الديوان ، ص : 545 .

وهل من أحديثك بأن هناك ما هو أحسن من الدين ، وأنجع من العلم في السمو بشخصية الانسان ؟ وانطلاقا من هذا الايمان حرص الشاعر على أن يضع أيدى الشباب على المفهوم السليم للإصلاح ، هذا الدين الذى تقوم مبادئه على الجهاد ، من أجل الحصول على القوة الروحية والمادية معا ، للفوز في الدنيا وفي الآخرة ، يخاطب الشاعر الشباب بذلك في قصيدته (تحية ايها النادى) (1) فيقول :

أعيدوا (به) (2) للدين عهد طلوعه	على الأرض فجرا جاليا كل مظلم
ولا تنسوا الدنيا فان متاعها	مشاع لكم في الكسب غير محرم
لقد مرّ عصر السعي للروح وحده	ببعث (بن عبد الله) بعد (ابن مريم)

ويحرص الشاعر على أن يلفت نظر الشباب ، الى كل ما يدعم شخصيته ، ويمدها بأسباب القوة والمنعة ، من مآثر ومحامد ، فتراه يبدئ القول ويعيد ، فلا يمل ولا يكل من تكرار النصيحة والوصية ، ترسيخا للفضائل ، وتأصيلا لما في النفوس ، يقول من قصيدته (صرخة ثورية)(3) :

شباب الجزائر طبب بالاخا	ء فقد حزت في رعيه الأسبقيه
أناديك للخير خير النداء	وأوصيك بالحق حق الوصيه
ذر الخوف تعرف ثنايا السلوك	فمن هاب خاب وضل الثنيه
ونفسك بمها مع البائعين	كرام النفوس لبارى البريه
وجسمك رضه يسل كالمصب	ويشتد كالصعدة السمهريه
وذلك للروح في الصالحات	فما هو للروح الا مطيه
وداو الميول بهدى الرسول	فقد مسها طائف الطائفيه

ويتوجه الى الشباب من جديد ، بيد أنه لا يعمد هذه المرّة ، لا إلى الأمر ولا الى النهي ، وما الى ذلك من أساليب الطلب المعهودة لديه في مثل هذا المقام ، وانما يعدل عن ذلك الى هذا الأسلوب التقريرى ، الذى أحسب انه يستهدف به تقرير هذه الحقيقة ، وهي أن الشباب الذى تحلى بالخلال الحميدة والسجايا الكريمة ، وليس هو ذاك الذى نفض يديه من الحياة ، وزهد في طلبها ، وباع نفسه للشيطان واتبع هواه فتردى في حمأة الفاحشة ، فأضله ذلك عن سواء السبيل . يقول الشاعر :

انما يسعد البلاد شباب	ذو حفاظ لعرضه وصيان
لا شباب بات الحياء وأمسى	بين (حان) يحسو الخمور (وخان)
أو شباب يظل هيمان يلهو	بالأغاني معاكسا للغواني
أو شباب على التراث تعدى	فتردى في هوة الكفران (4)

(1) الديوان ص: 92 . نشرت في الشهاب ج 9م 11، رمضان 1354هـ / ديسمبر 1935 ص: 525 .
(2) يعود الضمير على (النادى) .
(3) الديوان ، ص : 417 .
(4) الديوان ، ص : 269 .

ونلحظ أن محمد العيد لم يلتزم في أشعاره التي خاطب بها الشباب ، أسلوبا واحدا كهذا الذى رأيناه ، يقوم على النصيحة والارشاد وما الى ذلك من سمات الأسلوب الخطابي ، وانما نراه يستخدم الى جانب ذلك ، أسلوبا آخر قوامه الايحاء والتلميح دون المباشرة والتصريح ، أسلوب يرسم المعالـم الى الأهداف ، ويومىء للدروب الموصلة لها ، دون أن يمسك باليد اليها . ولا يخفى ما لهذا المنهج من آثار تربوية واضحة تتأتى له ، بما يتمتع به من مرونة ولين في مخاطبة النفس الانسانية ، وفي معالجة أدوائها بطريقة تجعل المريض يحس ، وكأن ذلك الدواء نابع من داخله ، وليس مفروضا عليه من الخارج ، فيتلقفه ويقبل عليه عن رضا وطيبة خاطر .

ويتجلى هذا المنهج بصورة خاصة في مجموعة من الأناشيد نظمها الشاعر على ألسنة الشباب وجعلها ناطقة باسمهم معبرة عما يجيش في خواطرهم ، ويشيع في سلوكهم ، أو يجب أن يشيع في سلوكهم ، من فضائل ومثل ، فيتأصل ذلك في نفوسهم وفي مواقفهم ، ومن تلك الأعمال (نشيد كشافة الرجاء) (1) الذى يصطف فيه الشباب أنفسهم معلنين :

(2)

فنحن كشافة " الرجـــــاء "	ونحن جوابة البــــلاد
أخلاقنا الصدق والأمانة	والرفق والحذق والفطانة
والعلم والحلم والرزانة	والعزم والحزم والرشاد
في عزمنا اليوم أن نعيدا	تاريخنا الماضي المجيدا
ومن يكن عزمه شديدا	لابد أن يبلغ المراد

ويسلك الشاعر هذا المسلك في نشيده " شباب عقبة "(3) مؤكدا على عزم الشباب بالتحلي بما يسمو بشخصيتهم من فضائل .

وان حرصه على هذا الجانب الأخلاقي في حياة النشء دفعه بأن يضع نشيدا خاصا في هذا المضمار أسماه (النشيد الأخلاقي) (4) .

ويمكـــن أن يكون المرء قد تبين من خلال ماسقناه من نماذج من نتاج الشاعر في الشباب ، انه يولي عناية خاصة بهذا القطاع قد لا يبلغ الى شأوه فيها كثير من زملائه . واذا كان هناك من يمكن أن يضارعه منهم في هذا المضمار ، غزارة النتاج ، وتركيز اهتمام ، فنحسب أن ذلك الشاعر لا يكون الا الشيخ أحمد سحنون الذى يعكس ديوانه هو الآخر اهتماما ملحوظا بشباب الأمة .

* * *

---

(1) الديوان ، ص : 567 ، نشر في البصائر العدد : 35 — 18 سبتمبر 1936 ، ص : 7 .
وفي الشهاب ج 6 م 12 جمادى 1 ، 2 — 1355 هـ / اوت سبتمبر — 1936 ، ص : 288 .

(2) كانت الجمعية الكشفية بقسنطينة ، وكان رئيسها الشيخ (ابن باديس) .

(3) الديوان ، ص : 578 .

(4) وهو من شعره المجهول ، ينظر الملحق .

ويأبى الشاعر وهو يحرص على التمكين في النفوس لما يرقى بشخصية الفرد والمجتمع ، الا أن يفرد موضوع العلم بعناية خاصة ، لا تقل حماسا عن دعوته الى التحلي بالفضائل والمثل ، ويتّضح ذلك فيما بثّه في كثير من شعره ، وفيما أوقفه على العلم من قصائد عديدة ، داعيا فيها الى تعظيمه ، وتكريم رجاله ، والبذل بسخاء على مشاريعه . كما نوّه فيها بآثاره الحميدة في تهذيب الفرد وترقيته ، والنهوض بالأمة والسير بها أشواطا بعيدة على طريق ما يحقق لها عزتها وتقدمها .

ولا يفوته وهو في بداية طريقه الى هذه المقاصد ، أن يؤكد على ضرورة صيانة العلم ، بما يساعده على تحقيق تلك الأهداف المتوخاة منه ، وذلك بربطه بالدين والأخلاق . ولذلك فهو لا يحث على العلم المطلق ، وانما يقيد ما يحث على طلبه من معرفة بالوازع الديني والأخلاقي ، فهو يؤمن أن العلم لا يؤتي ثماره المطلوبة منه ، الا اذا كان له من سلطان الدين ما يوجه خطواته نحو سبل الرشاد ، وما يصونه من الانحراف والزلل . يقول في ذلك :

اذا لم يكن للعلم دين يقوده تحرف عن نهج الهدى وتنكبا (1)

وهو في دعوته هذه الى العلم ، والحاحه على طلب المزيد منه لا ينسى أن يقرنه بما يزكو به ، من قيم وفضائل ، يقول في ذلك :

وصن العلم بالفضيلة يجللك ويحللك رتبة (الجرجاني) (2)

وان العلم الذى يدعو اليه محمد العيد ، ليس هو ذاك الذى يفتك بالبشرية ، ويهدم حضارتها ، ويثير النزاع بينها ، وانما هو العلم الذى يمكن للقيم الفاضلة في نفوس الناس ، وينشر بينها المحبّة والتعاون والسلام ، ويرشدهم الى سبل الحق والخير والرشاد . يقول في ذلك من قصيدته (خطر العلم على البشرية) (3) .

لا أرى العلم هدى مالم يكن صافحا عن زلّة الجهل حليما
وأمينا عادلا في حكمه وكفيلا بالمواخاة زعيما
يعرض الحق على الخلق كما يرشد الخلق الى الحق حكيما
هذه مأثرة العلم التي قد أثرناها عن العلم قديما (4)

ويصادف الباحث في حديث الشاعر عن العلم ، بعض الملامح القريبة مما تدعو بعض مناهج التربية الحديثة الى الأخذ به في ميدان نشر المعرفة بين الناس ، ولعل من ذلك ما يلمح في هذه الأبيات التي يخاطب فيها الشاعر العلماء قائلا :

---

(1) الديوان ، ص : 195 .
(2) الديوان ، ص : 227 .
(3) الديوان ، ص : 336 ، نشرت بالبصائر ، 23 اكتوبر 1950 .
(4) الديوان ، ص : 337 .

وحي على نشر العلوم فانهـــا   حصون لحفظ الشرق من خطر الغرب
توخوا بها البحث اليسير وأخلصوا   مدار كما للناس من بحثها الصعب
وخوضوا بها بحر الحياة تكن لكم   سفينة أمن فيه ، مأمونة الثقب (1)

ويمكن أن يلفت الانتباه في هذه الأبيات مبدآن اثنان من مبادئ التربية الحديثة . أما أولهما فيتمثل في تبسيط العلوم والتدرج فيها من المعلوم الى المجهول ، ومن السهل الى الصعب ، حتى تكون بذلك في متناول طالبيها .

وأما ثانيهما فيتمثل في ربط المعرفة الانسانية بمحيط الانسان ، والاستعانة بها فيما يساعد على تطوير حياته والسمو بها .

وان محمد العيد على قدر ما يبدو معتزّا بأصالته ، وغيورا على تراثه ، وحريصا على التمكين لذلك في نفوس الجيل ، فانه لم يكن منغلقا على ذاته مديرا ظهره عن كل جديد ، وانما كان يعيش عصره بكل وعي وتبصّر ، مسايرا لأحداثه ، متفتحا على معطياته ، الأمر الذى جعله وهو يقوم من الشباب مقام المرشد أن يكون يقظا لما يحيط بحياتهم من ملابسات العصر وما يخالط واقعهم من مبتكراته ، وما يغزوهم وهم في ديارهم من مظاهر التجديد التي تطلع بها عليهم المدنية الحديثة ، مما فيه ما هو نعمة ، وما فيه ما هو نقمة .

وكان محمد العيد يحس وهو يجد نفسه في ذلك المكان يحدو قافلة النهضة نحو أهدافها المنشودة ، ألا يترك الشباب ، وهم عدة الأمة في بلبلة من أمرهم ، يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، ولا يعرفون ما يأخذون ممّا بين أيديهم من مظاهر هذه المدنية وما يدعون منها . ولذلك يتقدم فيتصدر الموكب ويحاول أن يقبض بأيديهم ، ويشدّ من عزمهم على الاعتزاز بماضيهم ، والتمسك بأصالتهم ، بقدر ما يحثهم على الانفتاح والاقبال على معطيات عصرهم ، غير أنه لا يفوته أن يحذرهم من خطر ما تعجّ به تلك المدنية من مظاهر زائفة ، لم يستطع أن يسلم من آثارها كثير من المسلمين في عالمنا المعاصر ، في الوقت الذى ظهر فيه عجز معظمهم ، عن الافادة الحقة من محاسن تلك الحضارة ، يقول الشاعر في هذا المعنى موجها خطابا به للشباب :

ويا نشأة القطر حقّ التّنـــاد   الى رد عزّتنا الدّابـــره
نقلتم عن الغرب عرى الـــرؤوس   وبعض بمارجه الساحـــره
فأين ملاجئه القـائمـــات ؟   وأين مكاتبه العامـــره ؟
وأين معامله الصـاخبـــات ؟   وأين معارفه الزاخـــره ؟
اذا أصبح الناس غلف القلـــوب   فما تنفع الرؤوس الخاسرة ؟ (2)

---

(1) الديوان ، ص : 248 .   (2) الديوان ، ص : 252 .

وكما توجه الشاعر الى الشباب بهذه الروح ،لم يفته أن يتوجه أيضا بمثلها الى من يشرف على تكوينهم ، وفي هذا الاطار نراه يرسم للمعلم ، مربي الأجيال المنهج السليم الذي يستطيع أن ينجح به ، فيما يناط بكاهله من تكوين نشء صالح وقوى ، وان من أبرز ما يميز هذا المنهج من سمات — في نظر الشاعر — هي الأصالة بكل قيمها ومقوماتها ، والمعاصرة بكل علومها وفنونها ، يقول الشاعر في هذا المعنى مخاطبا المعلم :

قل للمعلّم أكثرت الحلول الـــتي   أن صرت في حيرة منها وبلبال
حافظ على الروح فيما تقتنيه وسل   عن كل مستورد للروح فتال
وخذ ، ودع من فنون العلم مقتنيا   فانها ذات ألوان وأشكال
ما أحوج الشعب في العصر الجديد الى   نشء جديد لعلم العصر نخال !
مخضرم القطف يذكو من ثقافته   عرف الورود وريح الشيح والضال (1)

ويحس الباحث ، وكأن الشاعر ، وهو يخاطب الشباب ويدعوه الى العلم يريد أن يعقد مقارنة ، بين ما وصل اليه الغربيون في هذا العصر من تطوّر صناعي مشهود مكّنهم من التحكم في كثير من مظاهر الكون من حولهم ، وبين ما يتخبّط فيه قومه اليوم من تأخر وانحطاط ، مشيرا الى أن هذه المفارقة ماكانت تكون ، وأن الغربيين ما كانوا يحتلون تلك المكانة التي جعلتهم يتربعون في المقدمة ، بين شعوب العالم ، لو لم يخضعوا أهواءهم وأنفسهم لتلك الممارسة الواعية لأسباب العلم . كما أن المسلمين ماكانت مدنيتهم تنحدر الى ذلك الدرك الأسفل الذى هي عليه اليوم ، لو لم يفرطوا فيما كان بين أيدى أسلافهم من معرفة حصلوا عليها نتيجة لما أخذوا به أنفسهم من ارتياد الآفاق ، والضرب بسهم وافر في مجالاتها ، سعيا وراء اكتساب العلم والمجد ، فأتاح لهم ذلك في فترة طويلة من فترات التاريخ أن يتسنموا ذروة العز والسؤدد في قيادة موكب الحضارة الانسانية ، فجاء أخلافهم من بعدهم ففرطوا وأضاعوا ذلك الاستعداد الذى أوشك أن يكون سجية من سجايا الاسلاف ، فزحزحوا عن تلك المكانة ليأخذها من هو أحق بها منهم من أبناء الغرب وحفدته .

ولعل التاريخ الانساني لن يشهد دورة ثانية في بلاد العرب والمسلمين ، الا اذا تدرع أهلها بما سبق أن تدرّع به أجدادهم ، من تحرّر من كل العوائق المادية والمعنوية ، وتفتحوا على تجارب الآخرين تفتحا يسمح لهم باستغلال امكانياتهم الذاتية ولا يلغيها ، وأقبلوا على العلم والعمل وتشبّعوا بروح الجهاد والنضال ، يقول الشاعر مخاطبا الشباب :

---

(1) الديوان ، ص : 504 .

ياشباب العلم قدس مشعــــــلا | لك جلي ظلم الكون اتقـــادا
والحقوا الرواد في أجوائهـــــم | انهم بالكشف جابوهـا طـرادا
مارسوا الأسبــاب فانقادت لهم | وأضعناهـا فلـم تبـد انقيـادا

سابقوا الأنجم فـي أفلاكهـــا | وامتطوا فيها الصواريخ جيـادا
أين نحن اليوم من أهدافهـــم؟ | انهم قد أدركوا منهـا القيـادا
فتحرر وتـفتـــح مثلهـــــم | واتسع فكـرا ، وعلمـا ، واجتهـادا
كل علم فـي ازديـــاد دائـــم | يقتضـي المرء من العلم ازديادا (1)

وبهذه الروح يتوجه الشاعر الى عموم الشعب ، داعيـا اياه الى الأخذ بكل مايسمو بشخصية أفراده من معارف ، لافتا نظره الى أن الكون كلّه بين يديه ، ميدانا للبحـث ، ومجـالا للتفكير ، يقول في ذلك :

ياشعب ان الكون حقلك فاحترث | وا زرع فحقل الكون أخصب مزرع (2)

وليس بغريـب على محمد العيد ، المتشبع بروح الاسلام ، أن تكون نظرته الى العلم على ذلك النحو ، الذى هو من صميم دعوة الاسلام اليه . ونودّ أن نلفت النظر في ختام هذه الفقرة المتعلقـة بحديث الشاعر عن العـلم الى بعض الملاحـظ :

1 — ان ربط محمد العيد بين العلم والدين من جهة ، وبين العلم والأخلاق من جهة ثانية ، يشبـه فيه صنيـع بعض شعراء مدرستـــه ، وبحضرنـا من هؤلاء الشاعـــر حافظ ابراهيم الذى ربط ما بين العلم والأخلا ق في بعض أعماله ، يأتي على رأسهـا قصيدته التي أنشدها في مدرسـة بورسعيد [3] ، وقريـب من ذلك ما قام به أحمـد شوقـي ، كما ينص على ذلك بعض دارسيـه [4] .

2 — ان دعوة الشاعر الى العلم تمتد على مساحة زمنيـة طويلة ، تبدأ مع بداياتـه الأولى على طريق الشعـر ، كما تصور ذلك قصيدتـه (صدى الصحراء) ويستمر يلهـج بهـا الى آواخر أيامـه ، كما يتجلّى ذلك في آخر ما نشر له في أعمال ، وهو قصيدتـه في الذكرى العاشرة للاستقـلال التي وقفنـا عندها قبل قليـل . ونتخلل بين هذه ، وتلك وقفـات عديـدة وقفهـا الشاعر في رحاب العلم والمعرفـة ، نعثر عليها في غير ما مر معنـا من أعمالـه ، نذكر بعضهـا بحسب ترتيبـه التاريخي (يامعشر الطلاب) (5)

---

(1) من قصيدته في الذكرى العاشرة للاستقلال — مجلة الأثير العدد : 5 فاتح أوت 1972 ، ص : 7 . ينظر الملحق .
(2) الديوان ، ص : 149 .
(3) ديوانه ج 1 : 219 ، بتاريخ 29 ماى 1910 .
(4) د . محمد حسين هيكل (مقدمة الشوقيـات) ج 1 : 12 .
(5) الديوان ، ص : 89 ، نظمهـا سنـة 1928 .

(يافتيــة العلم شـــدوا العزم)[1] ــ (خطك الله للعباد كتابـا) [2] ــ (وبخلـــــد الاسلام)[3]ــ (رعد البشائر)[4] ــ (الترحيب بالحجاج)[5] ــ (الى العلم) [6]ــ (فــي يوم باتنة العظيم)[7] ــ (هذه قمــة الفتوة)[8] .

3ــ ونحسب أن الحاح الشاعر على الدعوة الى العلم بهذه الغزارة ، وهذه الاستمرارية، يبرز بوضوح مساهمته الكبيرة في هذا الميدان . ويقدم من ناحية أخرى صورة جلية عــن ادراكه لأهميــة العلم في النهوض بالأمــة .

* * *

ان الشاعر حرصا منــه على تحقيـــق الغرض الذى ينشده في اصلاح حال مجتمعه لم يخص بدعوته تلك الى العلم ، والى السلوك القويم فئة دون أخرى من فئات المجتمــع ، وانما كان يحاول أن يمس بذلك كل القطاعات الاجتماعيـــة . فكان من ذلك هذه العناية الخاصة التي أولاها للمرأة ، وهي نصف المجتمع ، بدعوته دعوة حارة الى حسن تربيتها وتعليمهـــا والنهوض بشخصيتها ، وتصوير ما يحدق بها من انـــحراف ، موضحا خلال ذلك دورها ومكانتها اللائقـــة بها في المجتمــع .

ويصادف الباحث في مقدمة ذلك هذه الدعوة التي يتوجه بها الشاعر الى العلماء، وهم قادة الأمة ، داعيا اياهم الى السهر على حسن تربية المرأة :

أذوى العمائم علموا وتعهـــــدوا ... بالوعظ والذّكرى ذوات البرقـــع
أتوا النســاء تصيبهـــن من الهدى ... يخرجن نشـأ كالرماح الشـــرع (9)

ويلحظ أن الشاعر يقترب فيما ورد في هذين البيتين من جانب المعنى ، ومن جانب الصياغة مما جاء في هذا الموضوع في قصيدة حافظ ابراهيم السابقة الذكر ، ولا غرو في ذلك فان كلا الشاعرين ينتمـــي الى مدرســة فنيــة واحـــدة .

---

(1) الديوان ، ص : 231ــ ألقاها الشاعر في المؤتمر الثاني لطلبة شمال افريقيا المسلمين المنعقد بالجزائر العاصمة في 27 أوت 1932 .ونشرت في السنة نفسها في النشرة الثانية لهذا المؤتمر.وهي بها بعنوان (اليوم أســـدى) .
(2) مر معنا أنها من شعره المجهول ، ينظر الملحق .
(3) الديوان ، ص : 176ــ وقدرأينا أنها من حولياته في مدرسة الشبيبة لسنة 1939 .
(4) الديوان ، ص : 185ــ نشرت في البصائر العدد : 3 ــ 8 أوت 1947 .
(5) الديوان ، ص : 194 ــ نظمت سنة 1949 .
(6) الديوان ، ص : 202 ــ نظمت سنة 1951 .
(7) الديوان ، ص : 216 ــ نظمت سنة 1954 .
(8) الديوان ، ص : 265 ــ نظمت سنـة 1965 .
(9) الديوان ، ص : 149 .

ويبدو أن الشاعر أحس، وكأنه بتلك اللمحة الخاطفة الى موضوع المرأة لم يفرغ مما يود أن يقوله بشأنها، فعكف في السنة نفسها على نظم نشيد بعنوان (نشيد نساء الجزائر) [1] دعا فيه النساء الى اليقظة والاستجابة لدواعي العمل على طريق النهضة، ومن متحليات بالفضائل، متقربات الى الله بالطاعات، صائنات أعراضهن وأشرافهن، ثم خلص من ذلك الى دعوتهن، بدعوة القرآن الكريم، بالمكوث في بيوتهن للقيام بواجباتهن تجاه الأزواج والأولاد. ومما جاء في هذا الصدد في هذا النشيد قوله :

سرن سير الحرائر   خلف ركب العشائر
يانساء الجزائر

سرن نحو الذي دعا   للمعالي فأسمعا
يانساء الجزائر

قرن في البيت انه   يقتضيكن فنسه
يانساء الجزائر

كن في البيت للرجل   نسوة فذة المثل
يانساء الجزائر

كن في البيت للولد   هاديات الى الرشد
يانساء الجزائر

عشن للجيل ألسنا   مرشدات وأعينا
يانساء الجزائر

ثم رجع الشاعر الى معالجة الموضوع مرة أخرى. وقد حزّ في نفسه ما تعانيه المرأة الجزائرية من سوء الأخلاق قد يعود اليها ذاتها تحمّل القسط الأكبر من العوامل المتسبّبة فيما هي فيه، وذلك بارتدائها لأثواب ليست من زيّ قومها وهجرها لمبادئ دينها، وتوليها عمّا ترشد اليه من فضائل وقيم، لو هي حملت نفسها على التمسك بها والاهتداء بهديها لكان لها من ذلك مايجعلها سيدة أمرها، ويصون عرضها، ويحفظ لها شرفها، ويبدو أنها لن تبرأ من هذه الأسقام، ولن ترى الشفاء من تلك العلل، الا اذا رجعت الى ماشرع لها الله في كتابه العظيم، وما سنّه لها رسولها من هدى كريم، يقول الشاعر في هذا المعنى من مقطوعة بعنوان (فتاة العصر) :

ان الجزائر أمست بنتها غرضا   لكل رام بسهم الغي مأجور
ما بالها هجرت آداب ملّتها ؟   ما بالها أعرضت عن خير دستور ؟
ان الذي برأ الجنسين خوّلها   حقوقها في كتاب منه مسطور
لو أنها اقتبست من نوره وجلت   من روضه التحقت في الطهر بالحور

---

(1) الديوان، ص : 574، نشر في الشهاب ج 9م11، رمضان 1357 هـ / نوفمبر 1937 م، ص : 154.

عافت تقاليد ها المثلى وقد سطعت ... أنوارها وارتمت في كل ديجور
ما جلّ آرائها المستحدثات سوى ... مستوردات مداها غير مشكور
في كل مرحلة تزداد ظلمتها ... في الرأي فاقرأ عليها سورة (النور) (1)

ويأبى الشاعر بعد هذا التشخيص، لما ألمّ بالمرأة الجزائرية من علل العصر، وأمراضه، ووصف الدواء الملائم لها، الا أن يعود الى ذلك، فيزيد القول فيما أجمل من مواطن الداء تفصيلا، ويفيض فيما أوجز فيه من أسس العلاج بيانا، يفعل ذلك وهو يخاطب العلماء في قصيدته (ويخلد الاسلام)[2]، واضعا أيديهم على جملة من الأسس التربوية التي تساعد على تكوين المرأة، تكوينا اجتماعيا صالحا يحفظ لها كرامتها ويمكنها من القيام بواجبها الاجتماعي على أحسن وجه، يقول الشاعر في ذلك :

علموا المرأة الحقائق في الديـ ... ـن فقد طوّحت بها الأوهام
علموها كيف النظام وكيف السـ ... ـعي في بيتها وكيف القيام
علموها كيف الرعاية للطفـ ... ـل وكيف التلقين والالهام
علموها كيف التودّد للزو ... ج وكيف التقدير والاعظام
علموها كيف الوقاية ممّا ... هاجمتها بشره الأيام
كيف تنجو من الشرور نساء ... لا يواري وجوههن لثام
عصمة المرأة احتجاب وصون ... وإباء وعفة واحتشام (3)

يمكن أن يلحظ في البيتين الأخيرين ما يشير الى رأي الشاعر في قضية (الحجاب والسفور) هذه التي أخذت بحظ وافر من عناية الكتاب والشعراء في هذا العصر، ويمكن أن يستنتج من ذلك الرأي ما يوضح وقوفه في هذه القضية الى جانب الحجاب ضد السفور.

ونود أن نشير الى أن الشاعر لم يكن يقتصر في دعوته هذه الى تعليم المرأة على مجال القول دون الفعل، وانما كان قد طبقها عمليا في مدرسة الشبيبة التي كان يشرف على ادارتها، وكان التعليم بها يجمع ما بين البنات والذكور. وقد تخرج منها من الطالبات، من هن يقمن اليوم بدور اجتماعي ملحوظ [4].

ونلحظ أن الشاعر في الأبيات السابقة التي يعود تاريخها الى سنة 1939 م، لم يتجاوز في حديثه عن المرأة، حدود الدعوة الى تعليمها، وحسن تربيتها لتستطيع القيام بواجبها في اطار بيتها، كأم تسهر على تربية أطفالها، وكزوجة تحرص على توفير أسباب الطمأنينة النفسية لزوجها. الا أننا نراه في أعقاب الاستقلال يطور نظرته تلك الى المرأة، ويخرج بها من تلك الحدود الضيقة الى مجالات أوسع وأرحب.

---

(1) الديوان، ص : 279.
(2) الديوان، ص : 076، من حولياته في مدرسة الشبيبة سنة 1939.
(3) الديوان، ص : 179.
(4) من مثيلات السيدة شامة عضو الأمانة العامة للاتحاد الوطني للنساء الجزائريات.

انه لم يعد يتكلم عنها بتلك اللهجة التي توحي وكأنها انسان مظلوم ، يستجدي بعض حقه من سلطة ظالمة ، لعلها لم تكن في نظره ، الا تلك العوائد البالية التي تراكمت مع مرور العصور على العرف في المجتمع الاسلامي ، ومكنت لها ظروف الاحتلال وما صاحبها من تخلف مادي ومعنوي في نفوس الأفراد والجماعات .

ان الشاعر ينطلق من هذه النظرة فيطلع في سنة 1965 قصيدته (هذه قمة الفتوة)(1) فيقف فيها عند قضية المرأة وقفة تبدو أكثر تطورا من نظرته السابقة الى الموضوع ، بتلميحه فيها الى فكرة المساواة بين الرجل والمرأة ، والالحاح على تعاونهما في شؤون الحياة ، شريطة أن يكون ذلك التعاون المنشود بينهما قائما على أساس من المبادئ الأخلاقية التي تربط العلاقة ما بين الرجل والمرأة ، وتوضح لكل منهما حقوقه وواجباته الاجتماعية ، وترسم لكل منهما حدود الدائرة التي يمكنه أن يتحرك فيها فيشملهما بذلك ، ما يجب أن يشملهما من طهر وعفاف ، ويتحكم في الصلة بينهما ما ينبغي أن يتحكم فيها ، من أسباب التعاون المثمر النزيه ، فيمنح ذلك كلاًّ من الرجل والمرأة القدرة على أن يحقق ذاته ، ويحفظ كرامته ، ويسهم في الرفع من شأن المجتمع واعلاء صرحه ، يقول الشاعر في ذلك مخاطبا المجتمع :

علّم البنت فهي للبيت أسّ	وقوام لهيكل البنيان
انما الشعب عنصر بشري	من نساء لنا ومن ذكران
وقف بجنسك في الحياة رجالا	ونساء مواقف الأقران
واذا ما تعاونا في مرام	فعلى البرّ لا على العصيان
بين هذا وهذه من عفاف	برزخ حاجز فلا يبغيان
بين هذا وهذه واجبات	وحقوق عن فعلها يسألان .

ومع كل ما يبدو في هذه الأبيات من تطوّر في نظرة الشاعر الى المرأة فاننا نراه ما يزال يؤكد على دورها في المنزل ، كما يظهر ذلك في البيت الأول .

ويبدو أن الشاعر قد خشي أن يأخذ الظن ببعض الناس فيفهمون أنه ذهب بعيدا ، في نظرته تلك الى المرأة ، فدفعه ذلك الى التعقيب على أبياته السابقة ، بأبيات توحي بأن ماسبق أن نص عليه ، انما هو من صميم دعوة الاسلام ، وذلك بتوجيهه النظر الى ما كان بين الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبين زوجه (أم المؤمنين خديجة) رضي الله عنها ، تلك التي وقفت الى جانبه ، تحمل معه عبء الحياة في بعض مجالاتها ، وتؤازره فيما يدعو اليه . ولا يفوته في هذا الصدد أن يذكر بموقف النبي من المرأة ، وبما سنّ للرجال من أمته من نظم ، توضح العلاقات بينهم وبين النساء ، وبما وعد به المحسنين منهم الى النساء ، من جزيل الأجر ، وعظيم الثواب ، يقول الشاعر في ذلك في القصيدة نفسها :

(1) الديوان ، ص : 265 .

قد أعانت خديجة سيّد الرّســـــ — ـل برأي وثــروة وحنــــان
ولقد سنّ للرجــال وصايـــــا — ومزايــا لعشـرة النســــوان
أو ما استعطف الرجال عليهـــ — ـنّ وأوصى برفقهــم بالعوانـــي
أو ما أنقذ الفتــــاة من الــــوأ — د ومضم الحقوق والحرمـــان
أو ما بشّـر المربّـــي للبنـــ — ـت بأمـن اللظى وسكنى الجنان
هذه قيمة الفتــاة لدى الشّـــر — ع فـدع عنك غمطها بامتهـان (1)

وان الروح الاسلامية واضحة في هذه الأبيات وفي سابقتها ، في معانيهما وصورتهما بما يؤكد ما ألمعنا اليه من بروز هذه السمـة بخاصة في شعره في المرحلة الأخيرة من حياته . ويعود الشاعر مرّة أخرى الى هذا الموضوع ، فيشيـد خاصة بمساهمـة المرأة الجزائريـة الى جانب أخيها المجاهد في ثورة التحرير المظفـرة . ويرى أنّ توفـر ذلك التعاون فـي المجتمع ، انما هو سبب من أسبا ب التقدم الاجتماعي المنشو د . ولا ينسـى أن يذكر بمـا كان قد نصّ عليه من قبل ، في مثل هذا الموقف ، من ضرورة اقامة ذلك التعاون ، على أســس من التقوى والطهر ، حتى يؤتي ثماره المرجوة منه ، وحتى لا يتسـلل اليه ما يدنّسـه مما حذر منه الاسلام من علاقات مشبوهـة ، يقول الشاعر في مطوّلته (من وحي الثــــورة والاستقـلا ل) (2)

قد أقدم الجنس اللطيف مناضــلا — مع صنوه الجنس الكثيف فأبصـرا
وتعاون الجنسـين حسـن تـــوازن — يفــوز مجتمـع عليـه تـوفـرا
لكن ســداه لنا ولحمتــه التقـى — والطهر فلنربأ به أن يقـذرا
يأبي لنا الاســـلام الا صونـــه — ليكـون من كـل الدنات مطهـرا

ونشير في ختام هذه الفقرة أن ما يمكن استخلاصه من حديث الشاعر عن المرأة بوجـه عام ، أنه كان متفتحا فيه ، معتدلا ، وظل يمسك فيه بالوسط ، لا يميل الى هذا الجانـب ، ولا الى ذلك الجانب . ويمكن للمرء أن يلمس بوضوح اعتدال الشاعر في هذا الموقف اذا ما عمد الى مقارنـة بينه ، وبين موقف شاعر جزائري آخر وهو (صالح خبشا ش) (3) مـن هذا الموضوع . لقد وقف هذا الشاعر موقفا واضحا الى جانب السفور في وقت مبكر من عمر النهضة الجزائرية ، وتساءل في جرأة عن الوقت الذي ستقدم فيه المرأة الجزائرية على نـزع ذلك الحجاب ، وذلك في قصيدته (المرأة الجزائرية والحجاب) (4) . ومما جاء فيها قوله مخاطبا المـرأة :

---

(1) الديوان ، ص : 269 .
(2) الحلقة الثالثة (المعرفة) العدد : 8 — فيفري 1964 . ينظر الملحق .
(3) ولد بحيّ (وادي يعقوب) الذي يبعد على مدينة قسنطينة بثمانية أميال في سنة 1904 توفي في غضون الحرب العالمية الثانية ، ينظر ترجمته في (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) ج 2 : 79 — للسنوسي .
(4) المصدر السابق ، ص : 94 .

تركوك بين عبـــاءة وشـقـــاء مكوّوبـة في الليلـة الليـــلاء
مغلولة الايدى بأسول جقصـــة محفوفـة بكتـائـــب الارزاء
دفنوك من قبل الممات وحبـــذا لو مت قبل تفاقــم الادواء
ماذاك الا لجهـالـة بيننـــا وغباوة الفتيـات والا بنـــاء
فالى متى هذا الحجاب الى متى؟ أ إلى التلاشي أم لـيوم لقــاء ؟

ويلحظ أن الشاعر يلتقـي في هذا الموقف الوسط من نحو آخر ، بموقف الشاعر حافـــظ ابراهيم المعتدل من المرأة(1) ، وبموقـف شوقي الذى دعا الى السفور ولكنه قيـــده بالتقوى وبالعفاف (2).

وفي الحقيقة فان هذا الموقف المعتدل هو موقف عامة قادة الاصلاح بوجه عام في مختلـف البلاد الاسلاميــة .

وان هذا التشابه الملحوظ بين الشعراء في هذا الموضوع يوكـد من جهته ما ألمعنا اليه في مستهل هذه الفقرة من تقارب بين شعراء مدرسة النهضة في الروح العام في شعرهم، وفي روءيتهم للقضايا المطروحـة في عصرهم ، وفي بعض الأفكار والمعاني وبعض أساليـب الصياغـة .

* * *

وتحسن الاشارة الى أن من بين ما كان الشاعر يستعين به في دعوته هذه الى النهوض بالفرد والمجتمع جملة من المناسبات المختلفة يأتي على رأسها بعض الأعيـــاد الدينية ، هذه التي كان الشعب الجزائرى يجد فيها أيام محنته بوجه خاص متنفســا يتنفّس منه عما يعانيه من ضيق وكبـت وقهر . وتراه لذلك يقبل عليها يستمدّ منها ما يجدد عزيمته ، ويقوى في نفســه الايمان بربـه ، والثقـة بامكانياتــه الذاتيـة .

وكان الشعراء الجزائريون لهذه الغايات ، يسارعون الى اغتنام هذه المواقف التاريخية ، ليمكنوا في نفوس مواطنيهم عن طريقهـا ، لما توحي به ، وترمز اليه ، من مثـل اجتماعية ، وأبعاد انسانية .

ويأتي على رأس هذه المواسم الدينيـة التي حاول الشاعر محمد العيد أن يفيد منهـا هـذه الافادة ، شهر رمضان المعظّم ، وموسم الحج ، وعيد المولد النبوى الشريــف ، كان ينظم في هذه المواسم بهدف ايقاظ قومــه ، ولفت انظارهم الى الانتفاع بما تزخر به من مواقف الادكار ، ومشاهد الاعتبار ، فيما يسمو بحياتهم ويعلى صرح حاضرهم ، ويأخذ بأيديهـم علـى طريـق المستقـبل المنشود ، معـبرا بذلك عن مفهومــه لوظيفة الشعر

(1) ينظر قصيدته في مدرسة بورسعيد سنة 1910 ، ديوانه ج 1 : 219 .
(2) ينظر د . ماهر حسن فهمي (شوقي شعره الاسلامي) ، ص : 147 .

رسالة الشاعر في الحياة ، الامر الذى جعله لا يحفل بالمناسبة الدينية لذاتها وانما لما تمثله من مواقف ولما يمكن أن ترشد اليه من عبر[1].

وكان من نتائج هذا المنهج الذى سلكه الشاعر في هذه المناسبات ، انه لم يكن يعنى عناية كبيرة بما حدث فيها من وقائع ، وانما الذى كان يأخذ بكبير اهتمامه في حديثه عنها ، انما هو النهوض بالواقع والسمو به .

ونأتي بادئ ذى بدء الى الحديث عن نتاج الشاعر في شهر رمضان المعظم ، فنجد أن أول ما يصادفنا من ذلك ، مقطوعة بعنوان (وداع رمضان) [2] تتكون من سبع أبيات.

ثم يلقانا في مكان آخر من الديوان ثلاث أبيات بعنوان (شهر الصيام) [3] وهذان العملان يكادان يتناولان معنى واحدا وهو الاشادة بعبادة الصوم ، والتنويه بفضل شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، والحث على الاكثار من الطاعات فيه بصيام أيامه ، وقيام لياليه ، تقرّبا الى الله وزلفى .

ويلقانا بعد ذلك قصيدته (شهر الصيام)[4] التي تقع في أربعة وثمانين بيتا . وقد أدار الشاعر فيها الحديث عن الاشادة بشهر رمضان ، شهر الصيام والقيام والاحسان، منوّها بآثاره الحميدة على الفرد والمجتمع .

ونحسب أن وفاء الشاعر لمفهومه لرسالة الفنان الاجتماعية ، هو الذى يمكن أن يفسر لنا حرصه على اهتبال مثل هذه الفرص ، واستغلالها استغلالا اجتماعيا ، يهدف منه الى النهوض بالمجتمع ، وتطوير الحياة العامة للمواطنين ، ان وفاءه لهذا المنهج لم يفسح المجال أمامه ليخرج عن بعض تلك الخطوط الكبرى التي تربطه بتلك الأهداف ، كأن يشير الى ما وقع في هذا الشهر من جهاد وغزوات على امتداد حقب التاريخ الاسلامي .

ان اهتمام الشاعر بالمحيط ، وما يدور فيه من صراع وأحداث ، شغله عن ذلك وجعله يركز في هذه القصيدة التي بين أيدينا على ناحيتين اثنتين متكاملتين ، تؤثر وتتأثر احداهما بالأخرى ، وهما : الناحية الدينية ، والناحية الاجتماعية ، فنراه يشيد في الناحية الدينية بفضل شهر رمضان ويبرز فائدة الصوم ، وما يحرزه الصائم من الثواب ، وما يلحق بالمفطر من مظاهر العقاب ، ومما جاء من ذلك قوله :

---

(1) ينظر د . سعد الله (محمد العيد آل خليفة . .) ص : 142 .

(2) الديوان ، ص: 373 ، نشرت في البصائر العدد : 47ـ26 رمضان 1355هـ/ 11 ديسمبر 1936 ، ص 7 .

(3) الديوان ، ص : 414 . نشرت في البصائر العدد : 44 ـ5 رمضان 1355هـ/ 20 نوفمبر 1936 ص : 1 . ولم يرد بالديوان ذكر لتاريخ ومكان نشرها .

(4) الديوان ص : 151 . نشرت في البصائر 3 رمضان 1356 هـ/ 13 نوفمبر 1937 . وبالمخطوط ج 2 : 95 ـ وهي بالمصدرين بعنوان (تحية شهر الله رمضان المعظم) .

أطل على البرية بالسلام ... ولح باليمن ياشهر الصيام
وحل على بني الاسلام ضيفا ... كريما بين رعي واحترام
فحت المسلمين بمشتبل ورد ... من القرآن مفتر الكمام
مزرت قلوبهم هز الروابي ... وسقت لما الهدى سوق الغمام
وامنت الخليقة وهي غرقى ... تكابد كل دفع واصطدام

وان الشاعر لايقتصر في حديثه عن رمضان ، على هذا الجانب الديني منه فحسب ، وانما يعمد الى ابراز ما ينتج عنه مما تقوم عليه أساسا حقيقة العبادات في الاسلام، من آثار وحكم اجتماعية واضحة ، ويؤدي به ذلك الى الحديث عن الناحية الاجتماعية في رمضان بجانبيها المعنوي والمادي . ويدعو في الجانب المادي الى المسارعة بالبرّ والاحسان ، ويرسم في هذا المضمار مشهدا معبّرا يتوفر على قدر غير يسير من الحيوية والحركة ، يصور فيه حال البؤساء في بلده مجسّدا في شخص واحد ممن كانت تمتلئ بهم الجزائر في عهد الاحتلال البغيض،

ويردف هذا المشهد بدعوة حارة الى الاحسان ، يهيب فيها بقومه على أن يسارعوا لاغاثة المعوزين ، يقول في هذا الشأن :

مآس كالسهام رمت فأصمت ... بلادا مثل أهداف السهام
وبؤس يترك الأحشاء منا ... جوائش في اضطراب واصطرام
تعالوا للندى قومي تعالوا ... تنالوا بالندى أقصى المرام
تعالوا نأس مطرحا جريحا ... لعل لجرحه وشك التئام
تلافوا بالندى حيا كميت ... كان محله بعض الرجام (1)

ويأبى الشاعر الا أن يكمل بقية الصورة فيرسم الوجه الآخر لها ، بوقوفه عند الناحية المعنوية من الحياة الاجتماعية ، فيقدم لقارئ شعره ، ما يمكن أن يعد من بعض الوجوه منهجا سلوكيا ، يرسم ما يجب أن تكون عليه أخلاق المؤمن الصائم في رمضان وفي غير رمضان ، فيدعو أخاه المسلم الى جملة من القيم السلوكية الحميدة ويحذره مما يقابلها من الصفات الذميمة حتى يكون له من هذه ومن تلك ما يوطد علاقات الاخاء والود بينه وبين غيره من الأفراد ، بما يعود عليه وعلى مجتمعه بوجه عام ، بالتعاضد والمحبة ، يقول في ذلك :

أخا الاسلام قد آخيت دينا ... صيامك فيه رابعة الدعام
أتى رمضان وهو أجل شهر ... أقمه لكبح نفسك كاللجام
تحام الفسق فيه فليس يرجى ... قبول الصوم الا بالتحامي
اذا راماك ذو سوء بسوء ... لإضرام العداء فلا ترام
ولا تظلم فقيرا باتهار ... ولا تظلم حقيرا باتهام (2)

---

(1) الديوان ، ص : 154 .

(2) الديوان ، ص : 155 .

وبعد فلعل هذا التكامل المشار اليه سلفا ما بين الناحية الدينية والناحية الاجتماعية في هذه القصيدة ، هو الذى يفسر لنا هذا القدر من وحدة الموضوع الذى استطاع الشاعر أن يوفره في عمله هذا فبدت معانيه وهي تدور حول محور واحد هو رمضان والصيام وما يتصل بهما ويتفرع عنهما من آثار دينية واجتماعية .

وأما عمل الشاعر الثاني في هذا الباب فهو قصيدته " بلادى "(1) وهي من مطولاته اذ تقع في تسعين بيتا ، وأحسب أن عنوانها سيوحي للمتلقي بماسيتناوله الشاعر ضمنها من معان وعواطف ، مما يتصل بمنهجه في شعره الديني بوجه عام، ذلك الذى يقوم على ربط الحقائق الدينية بمظاهر الحياة العامة ، وقضايا المجتمع ، فالشاعر ينظم قصيدته في مناسبة دينية ، ولكنه يختار لها عنوانا وطنيا يعكس بوضوح وقوة رؤيته لما يربط ما بين الوطن والدين ، وتتجلى هذه الرؤية من مقدمة القصيدة ، حين نرى الشاعر يستهلها بهذا المطلع الذى يناجي فيه بلاده ، ويقدم لها خالص التحية ، وصادق الوفاء ، ويتلو في خشوع بين يديها صلوات الحب والاخلاص :

بلادى فداك الرّوح والله عالم — عليك سلام خالص القصد سالم
يحييك مشتاق على القرب مشفق — من البعد مشغوف ، بحبك هائم
له فيك ألوان من الرأى عدة — فأبيض وضاح وأسود قاتم
تباكره في صبحه غير نائم — وتطرقه في ليله وهو نائم
فآونة فيما يرى متفائل — وآونة فيما يرى متشائم
على أن رأى الفال أقوى علائما — وتقوى الأماني حيث تقوى الملائم (2)

ويخلص من هذا الاستهلال الى مخاطبة قومه ، ووضعه اياهم في الصورة وجها لوجه أمام ما ينتظر منهم الوطن الأسير من ذود عن حياضه ، مؤكدا أن الحق المغتصب لن يسترد الا بالنضال الدائب والجهاد المستمر ، يقول في ذلك :

الى الحقّ ولّوا أيها القوم وجهكم — الى الحق لا يأخذكم فيه لائم
فما ضاع حق للمحامين واجد — ولا ذاع حق للمحامين عادم
هلم نبن عن حقنا في بلادنا — فكم فيه مرتاب وكم فيه واهم
وقل بني قومي : دعوا الجبن وانهضوا — لفك رقاب أثقلتها الأداهم (3)

ثم يؤكد الشاعر أن الحياة الكريمة معركة ، ولذلك فلن يتبوأ فيها شعب من الشعوب مكانته اللائقة ، بين الأمم ، الا اذا تسلّح لها بما يلزمها من أسباب القوة وأعدّ لها ما تتطلبه من عدد الجهاد ، وأعلن الثورة على الظالمين ، وكذلك كان بالأمس الأجداد ، فهل يكون الأحفاد اليوم كذلك ؟ يقول الشاعر :

---

(1) الديوان ص: 135 ، ألقاها الشاعر في احدى الاحتفالات بمدرسة الشبيبة بالجزائر العاصمة، ليلة 23 رمضان ثم نشرت في البصائر 28 شوال 1356 هـ/31 ديسمبر 1937، وهي بها بعنوان : (أبى الله الا أن يضم قلوبنا) .

(2) الديوان ، ص: 135 . (3) المصدر السابق، ص: 136 .

هلمّ نبارك فالحياة معارك ... هلمّ نقاحم فالحياة مقاحم
هلمّ نشر في المؤمنين جميعهم ... دويا له مثل الرعود دماد م
هلمّ نبع للـه ما ابتاع منهم ... ففي البيع أرباح لنا وغنائم
هلم بني قومي الى المجد نعله ... فنحن له منذ القديم دعائم (1)

وان الباحث يلمح بوضوح من خلال ما ورد في النموذجين السابقين من معاني . وما تخلّل أولهما من الحاح على كلمة (الحق) التي تكررت (ستّ مرّات) ، وما جاء في ثانيهما من تكرار كلمة (هلمّ) أربع مرات . وما يبدو بين هذين الكلمتين من ترابط وتلازم فالأولى -كما هو واضح — غاية ، والثانية وسيلة من وسائل تحقيق تلك الغاية .وأخال أن في ذلك كله دلالة موحية الى ما يودّ أن يبلغ اليه الشاعر من حمل قومه على الاسراع في تفجير نار الثورة على أعدائهم لاسترداد الحق المغتصب . وهل هناك من غاية يستهدفها الشاعر ، ويناضل من أجلها الشعب ، أجل وأسمى من استرجاع السيادة الوطنية ؟ ان كل الجهود الفردية والجماعية معبّأة للوصول الى ذلك الهدف . ويصل الشاعر هذا الحديث بما وقف عنده في القصيدة السابقة ، من وجوه الحكمة الدينية والاجتماعية للصوم . ويعود وهو يوشك على نهاية القصيدة الى ما ابتدأها به من مناجاة توشك أن تكون هي نفسها التي استهل بها قصيدته ، ذلك أن الأداة واحدة هنا وهناك ، وهي هذا الأسلوب القائم على النداء ، وكذلك المعنى واحد في الموطنين ، وهو تصوير حال الوطن .وأما الشيء الوحيد الذى قد يختلف هنا ، عنه هناك ، فهو المخاطب ، فهناك القوم ، وهنا شهر رمضان ، وكيف ذلك ؟

ان الشاعر يتوجه الى شهر رمضان بسلسلة من الأسئلة عن حال الوطن . فهل يا ترى سيشفى الوطن من علله وأسقامه ؟ وهل سيرتفع عنه ذلك الضرّ الذى مسه ، ونزل بقلوب أبنائه فسكنها منذ أزمان ؟ وهل ستزول تلك الأغلال التي ظلت طويلا تكبل أيدى الجزائر وتحمي رقاب أهلها ؟ وهل سيغدو الوطن بعد ذلك حرّا طليقا سيّد نفسه ، يشمل العدل بنيه ، ويجمع بينهم في ظل استقلاله صفاء ودّ ، وكرم حياة ؟ يتوجه الشاعر بالسؤال عن ذلك الى رمضان فيقول :

ألا هل لنا ياشهر فيك مراشد ... ألا هل لنا ياشهر فيك مراحم ؟
تروح وتغدو في الجزائر كلّها ... أوزام للصبر الجميل هوازم
فمن محدق بالجد ما هو ثائر ... الى مودع في السجن ما هو جارم
وياشهر هل تعطى الجزائر حقّها ... ويفرج عنها ضيقها المتلاحم ؟
وهل تلتقي فيها القلوب على الرضى ... وتخطئها أحقادها والسخائم ؟ (2)

---

(1) الديوان ، ص : 137 .
(2) الديوان ، ص : 138 .

ان انفعال الشاعر الصادق بموضوعه ، وايمانه الراسخ بمستقبل بلاده ، ان ذلك لم يدعه أن يترك الاجابة عن تلك الأسئلة لغيره ، أو للأيام التي ستكشف عنها ، وانما يسارع هو ذاته ، فيجيب عنها ، بما يؤكد ما سبق أن أبداه في مستهل قصيدته من تفاؤل واستبشار ، يجيب الشاعر عن تلك الأسئلة ، فيقول :

أجل ستحظى الجزائر بالأماني الغالية ، وسينجلي عنها ليل الاحتلال الطويل ، وسيمكنها الله عن طريق الجهاد والثورة من حريتها ، وستذهب عنها وبدون رجعة ، آثار تلك السنوات العجاف ، وسيعقب ذلك على أرضها ، فجر من الحرية ، لاظلام ولا ظلم بعده . يؤكد الشاعر ذلك فيقول :

بلى سوف يحي الله كلّ ربوعها ... فتزكو بواديها وتزهو الحواضم
ومنّا لها في الخوف حام وحارس ... ومنّا لها في الحيف كاف وناقم
ومنّا لواء في الميامين خافق ... ومنّا شهاب للشياطين راجم
ومنّا جبال في الحلوم شوامخ ... ومنّا بحار في العلوم خضارم (1)

ويمكن أن يلمح المرء بوضوح من خلال ما تقدم أن الشاعر وهو في مناسبة دينية كان حال الوطن قد استغرقه ، وأوشك أن يقضي عليه الأسى لما يقاسيه ، لولا أن النفس المؤمنة ذلك شأنها في الحياة ، تسمو فوق واقعها ، مهما تكن الأحداث ، وتصطنع من أسباب اليأس والأحزان طريقا للابتسامات والأفراح .

وكذلك كان محمد العيد فلا هو استسلم للأحزان ، ولا هو اقتصر على تصوير الواقع الأليم فحسب ، وانما وقف موقفا أكثر من ذلك ايجابية ، وأكثر من ذلك فعالية ، الأمر الذى مكّنه من أن يملك زمام أمره ، يصعد فوق المأساة ، ويمضي يرسم معالم الطريق أمام شعبه ، نحو أسباب النهضة ، ونحو أسباب الخلاص . وكان من جملة ما لفت النظر اليه بهذا الصدد ، وحث على التحلى به ، التمسك بالدين ، والاقبال على الحياة ، والتزود بالعلم والاعتصام بعرى الأخوة والاتحاد ، وامتطاء صهوة الجهاد . ونذكر أن هذه القيم تأتي على رأس ما قامت عليه النهضة الوطنية الحديثة من دعائم وأسس .

ويمكن القول اذن أن الفرق واضح بين ما تطرقت اليه هذه القصيدة ، وبين ما حاولت أن تعالجه سابقتها . ولا يخفى ما سيترتب عن ذلك بين العملين من تباين في طريقة عرض المعاني وفي أدوات التعبير .

ويمكن أن يتبين المرء ذلك بعقد موازنة بسيطة بين ما مرّ معه هنا ، وما لمحه هناك .

---

(1) الديوان ، ص : 738 .

ولعل أول ما يتبدى من ذلك ، تلك الوحدة الموضوعية التي تظهر أكثر وضوحا في العمل الأول ، منها في هذا العمل ، كما يكشف عن ذلك تركيز الشاعر فيه على الناحيتين الدينية والاجتماعية ، وهما دعامتان أساسيتان من دعائم الحياة الوطنية .

وهو في هذه القصيدة الأخيرة ، وان كان قد تشعب به الحديث الى ألوان مختلفات من مظاهر الحياة الوطنية ، فقد استطاع أن يربط بين كل ذلك بخيط نفسي واحد . كما أنه لم يغفل فيها كلية ما تطرق اليه في العمل الأول من جوانب الدين ، وانما كل ما هنالك أنه تناول ذلك تناولا خفيفا ، طغى عليه اهتمامه فيه بالناحية الوطنية التي تبدو أكثر بروزا في هذه القصيدة حتى لتوشك أن تطغى على غيرها من المعاني الأخرى .

وأما في الجانب الفني فنلمح عناية الشاعر بالتصوير في عمله الأول . كما يبدو في ذينك المشهدين ، مشهد الجلة ومشهد المتسول البائس أكثر من عنايته به في عمله الثاني ، ويدل ذلك بوضوح عن وعيه لعمله الفني وحرصه على المواءمة بين التجربة الشعورية ، وبين أساليب التعبير عنها ، فهو ينظم قصيدته (شهر الصيام) للنشر ، بينما ينشيء قصيدته (بلادي) للالقاء والانشاد .

وواضح ما بين الموقفين من وجوه التباين ، ونحسب أن لهذا الفرق أثرا في اختلاف وجوه الصياغة بين العملين . فجاء الأسلوب الخطابي واضحا في هذه القصيدة الثانية أكثر من وضوحه في المتقدمة عنها ، ومن أجل ذلك أيضا غلب على طرائق التعبير فيها ، الأسلوب الانشائي الذى كان أكثر ملاءمة لموقف الشاعر ، وأكثر قدرة من غيره عن الافصاح عما يمور بين جوانحه من انفعال وما يعتمل في وجدانه من أحاسيس ، ونلحظ أن هذه المشاعر لم تكن في العمل الأول على هذا القدر الذى كانت عليه في هذا العمل ، من الحرارة والصدق . وتتجلّى هذه السمة فيه بخاصة في أكثر من موقف ، وأكثر من صورة ، ولعلها تبدو أول ما تبدو في هذه الرؤية الجديدة التي كان الشاعر يصدر عنها في النظر الى ماحوله ، ثم تظهر من بعد ذلك في تلك الروح المتفائلة بمستقبل الوطن ، المفعمة بالثقة بنصر الله له ، وفي نبل المقاصد التي كان يتوخاها . وفي انسجام أفكاره ، وبساطة تعبيره ، وفي هذه المواءمة أخيرا ما بين التجربة والصياغة المعبرة عنها . وان القصيدة بهذه القيم الموضوعية والفنية التي توفرت عليها يمكن أن تعد من بين عيون قصائد ديوان الشاعر .

* * *

وأما موسم الحج فقد نظم فيه الشاعر ثلاثة أعمال ، اثنين منها في توديع الحجاج ، وثالثها في الترحيب بهم ، ويتمثل عمله الأول في قصيدته (وداع الحجاج)(1) وتقع في خمسة وسبعين بيتا ويستهلها بمخاطبة الحجاج بهذا المطلع قائلا :

استقبلوا وجه الحجاز وسيما   وأستنشقوا روح الاله نسيما

وتبدو الصنعة البديعية واضحة في هذا البيت في أكثر من مظهر ، في ظاهرة التصريع التي تعد من بين السمات البارزة في شعر محمد العيد وفي نتاج شعراء مدرسته بوجه عام ، وفي ظاهرة الجناس الذى يتجلى في مكانين من البيت (استقبلوا — استنشقوا) (وسيما — نسيما) .

ويمضي الشاعر بعد هذا المطلع في تصوير ملابسات وداع ركب الحجاج ، وما يحتمل في قلوب مودعيهم من مشاعر وأحاسيس ويسمح لنفسه بعد هذه المقدمة أن يلقي على مسامع أولئك الحجيج درسا في مناسك الحج وأركانه حتى ليكاد يأتي على جميع تلك المناسك والأركان ، وذلك بطريقة وعظية وبلغة مباشرة تقريرية تذكر المرء ببعض أهداف أصحاب المنظومات التعليمية وبعض طرق الصياغة التي تتحكم في أساليبهم .

ثم يرتحل مع ركب الحجاج بعد اتمامهم هذه الفريضة الى زيارة المدينة المنورة مهتبلا الفرصة ليحملهم التحية الصادقة لرسول الله عليه الصلاة والسلام ولأصحابه من الأنصار والمهاجرين . ثم يتوجه على طريقة المتقدمين الى مخاطبة واحد من قومه كما يفهم من السياق في هذه الأبيات :

واذا رغبت الى جسيم فى المنى   فاركب اليه من الأمور جسيما
حث الخطى للعز واسلك نهجه   ولو أن نهج العز كان جحيما
لو خاف موسى أن يحل به ردى   في الطور لم يكن للاله كليما (2)

فما هي هذه المنى ؟ وما هو هذا العز ؟ ثم ما هي في الوجه الآخر تلك الأمور الجسام؟ وما هو أخيرا ذلك النهج ؟

أحسب أن الشاعر كان يرمز بجزئيات الوجه الأول من هذه التركيبة الى شيء واحد هو (الحرية) وهي أغلى الأماني التي مهرها الشعب الجزائرى على امتداد تاريخه الحديث تضحيات غالية .

ويرمز في الوجه الثاني من ذلك الى (الثورة) هذا المركب الصعب الذى ظل الجزائريون يتداولون الركوب على صهوته جيلا بعد جيل ، ومما يمكن أن يرجح هذا التأويل كلمة (جحيما) الواردة في البيت الأخير ، أن نار الثورة هي الجحيم الذى سيأكل

(1) الديوان ، ص : 162 نشرت في البصائر ، 21 جانفي 1938 ، وبالمخطوط ج 2 : 109 ، وهي به بعنوان (توديع الحجاج الكرام) . (2) الديوان ، ص : 164 .

فلول الأعداء وسيصنع للشعب الجزائري طريقه نحو الغد ، الأفضل .

ويتضح ذلك المعنى أكثر بما ترمز اليه تلك الصورة الدينية في البيت الثالث وسيزداد بيانا في الأبيات التالية التي سيلتفت فيها الشاعر الى الأمة ، يرسم أمامها الطريق الى ما دعاها اليه من عز وسؤدد ، ذاك الذى لن تناله ولن تبلغ اليه ، الا اذا سلكت اليه سبيله بتعاليها عما يتهافت عنه بعض ضعاف النفوس من بهرج الوظيف ، وبريق الباشين ، ووقوفها في الطرف الثاني الى جانب قواتها الحية ، تلك التي تأخذ بأيديها الى ما يقربها من أهدافها ، بوضع أيديها في أيدي الله ، واخلاص الثقة به ، والاهتداء بكتابه ، فهو سبحانه المعين والناصر لكل الشعوب المستضعفة :

يا أمة شقيت ببعض رعاتها	وتحملت منها العذاب أليما
ابغي التحرر واشدي الاصلاح لا	تبغي (الوظيف) وتنشدي (التوسيما)
الا من أن تتقي بربك نية	وتشايعي قرآنه تحكيما
فهو الذى يزع الشعوب مساعدا	وهو الذى يسع الذنوب حليما (1)

وأما قصيدة الشاعر الثانية في هذا الموضوع فينبغي أن ينتظر الدارس عقدا كاملا من الزمن حتى يعثر عليها ، وهي بعنوان القصيدة السالفة نفسه (وداع الحجاج)(2) وتقع في اثنين وثلاثين بيتا ويستهلها الشاعر بصيغة الجمع السالفة نفسها فيدعو الى تشييع ركب الحجاج قائلا :

شيّعوا بالقلوب وفد العتيق	واذرفوا الدمع من دم كالعقيق

نلمح أن في هذا المطلع كسابقه ميل الى الصنعة البديعية والبيانية كما يظهر ذلك في ظاهرة التصريع ، والجناس من جهة ، وفي تلك الصورة الحسية الجامدة من جهة أخرى .

ويخلص من ذلك الى تصوير مشهد الحجاج ، وهم يتأهبون الى تلبية نداء ربهم ، ثم يفرغ الى الحديث عن واقع وطنه وبطريقته الخاصة التي فرضتها عليه ظروفه القاهرة، والتي تقوم على التلميح دون التصريح ، ولذلك اتخذ حديثه عن الوطن في هذا العمل أشكالا متعددة ، فقد بدأ كلامه بتقديم التماسه الى الحجاج ، يرجوهم فيه الدعاء عند العتبات المقدسة ، ولمن ذلك ترى ؟ فهل هو للشاعر نفسه كما كان عند بعض المتقدمين ، أم هو دعاء لجماعته ؟ نحاول أن نتعرف على ذلك من خلال هذه الأبيات :

---

(1) الديوان ، ص : 165 .

(2) الديوان ، ص : 192 ، نشرت في البصائر العدد : 53 — 1948 .

أيها الراحلون شوقتم القلـــب لما لا ينال بالتشويــق
اننا أصدقاؤكم فاذكرونا فمن الواجبات ذكر الصديــق
أذكرونا عند الوقوف بطود قدسي بالذكريات أنيــق
أذكرونا عند المقام وفي البيت ، وعند الرسول ، والصّدّيــق
بدعاء مؤكد صادق العزم من الله بالقبول حقيــق (1)

ويقترب الشاعر من هدفه أكثر فيوضح للحجاج من يعنيهم بذلك الدّعاء الفارط فيخاطبهم ثانية :

أسألوا الله راحة للمعنّى واسألوا الله عصمة للغريــق
وأسألوا الله عزة ورشادا وسدادا لشعبنا الافريقــي

فمن هو هذا المعنّى ؟ ومن هو هذا الغريق ؟ ثم من هو هذا الشعب الافريقي ؟

ان اشارات كثيرة في تركيبة معنى الأبيات ، وفي أسلوب صياغتها يمكن أن تدل على أن المقصود بذلك الحديث ، انما هو الشعب الجزائرى . فهو الذى يعاني من آلام الأسر ويطمح الى التحرير ، وهو الذى يكابد آثار الغرق ويصبو الى النجاة .

وهذه الدلالة اللفظية (الضمير) في (شعبنا الافريقي) ألا توحي تلك الدلالة بما أوحت به سابقتها ؟ أليس الشعب المعنّي بذلك هو شعب الشاعر ؟

ولكنه لجأ الى أسلوب التعميم عمدا ، لأنه لم يستطع في تلك الظروف الخانقة المحيطة به أن يصرح بمراده ، وهذه سمة واضحة في شعره وفي شعر كثير من زملائه .

وان الذى مرّ معنا في القصيدة السالفة من ذلك ، ليس ببعيد ؟ وهو الذى نراه هنا في ختام هذه القصيدة ، أليس هو من ذلك القبيل ؟ ان الشاعر يتوجه في هذه الخاتمة الى الشعب ، يدعوه الى الجهاد لتحقيق عزته وسيادته ، لكنه لم يقل له ذلك بأسلوبه المعهود الذى يزاوج فيه بين الأمر والنهي ، كأن يقول له : افعل هذا ، ولا تفعل هذا . وانما يعمد هذه المرة الى أسلوب آخر يحاول أن يبلغ به الى ذلك الهدف ، ولكن بطريقة تضمن له النجاة من ظلم الأعداء ومكرهم . فهو يؤكد ان الرقي والحرية مطمحان ساميان لن يبلغ اليهما شعب من الشعوب الا من نزع عن نفسه ثوب الغفلة وتحلى باليقظة ، وكان صادق العزم في جهاده ، شديد الغيرة على وطنه ، أوليس ذلك ما يود الشاعر أن يرمز اليه في هذه الأبيات ؟ :

ليس أهلا أن يستقل ويرقـى غير شعب من الهوى مستفيـق
ثابت في نضاله مستميـت وغيور على حماه شفيـق (2)

---

(1)(2) الديوان ، ص : 193 .

ويخشى الشاعر أن يكون فيما تقدّم من كلامه ما يضيق على الشعب ما هو واسع، أو يذهب به الى حد القنوط في الخروج من محنته فيسارع الى ابعاد تلك الهواجس عن ذهنه، ونزعها من نفسه، فيردف ذينيك البيتين بهذا البيت :

لا يعطف طائف الإياس بقومي قد ينتاج الرحيق بعد الحريق (1)

ونحسب أن هذه الأهداف المنشودة في هذه الأبيات، وفي مثيلاتها من شعر محمد العيد الاسلامي هي التي كانت الباعث الذي حمل القائمين على مجلة (هنا الجزائر)(2) على حذفها من القصيدة حينما أرادوا نشرها بمناسبة الحج في مجلتهم، على الرغم من وجودها في مصدرها، فقد رأينا قبل قليل أن القصيدة تتكون من اثنين وثلاثين بيتاً، والذي حدث أن محرري تلك المجلة قد انتقوا منها ما يلائم أغراضهم — ستة وعشرين بيتاً فقط، اختاروا واحداً وعشرين بيتاً من أولها، ثم قفزوا على ستة أبيات — ثلاثة منها هي آخر ما عرضنا له —(3) ليحطوا رحالهم على بقية القصيدة المكونة من خمسة أبيات، فأصبح عندنا بذلك قصيدة جديدة تتكون من ستة وعشرين بيتاً بدلاً من اثنين وثلاثين بيتاً كما هي في الأصل(4).

ونلحظ أن الأبيات المحذوفة هي ما كان يركز عليه الشاعر في مثل هذا النتاج لصلته بالواقع الوطني، وبذلك يمكن أن تكون هذه العملية، من أبرز الشواهد على خطورة ما كان الشاعر يستهدفه من مقاصد من خلال هذا النوع من الشعر، كما تدل من نحو آخر على طبيعة الدور الذي كانت تقوم به يومئذ، الصحافة المرتزقة في خدمة أغراض الاحتلال.

ومهما يكن من أمر ذلك، فإن ما يمكن قوله في ختام دراسة هذه القصيدة أنها تلتقي بسابقتها في ظاهرة الاندماج في الواقع، والرغبة في معالجته، وفي الالتفات إلى الماضي بهدف رؤية صورة الحاضر من خلاله، كما تشتركان من وجه آخر، في الميل

---

(1) الديوان، ص : 193.

(2) كانت تصدرها مديرية الاذاعة والتلفزة الجزائرية التابعة للسلطات الفرنسية.

(3) أما ثلاثتها الباقية فهي قوله :

ويح (افريقيا) تنقضت عهود وهي رهن الأسر والتطويق

أين أسلافها الذين بهم قبـ ـل غزا (طارق) حمى (الذريق)؟

لم نجد بعدهم بها غير خلف تكتبه الأغراض بالتفريق

ينظر الديوان، ص : 193.

(4) وينظر (هنا الجزائر) العدد : 4 — ذي القعدة 1371 هـ / 4 أوت 1952، ص : 11.

الى استخدام أسلوب التلميح ، دون التصريح .

وإذا كان من فرق يمكن أن يلاحظ بين القصيدتين ، فلعلّ ذلك ما يبدو في طريقة التناول والمعالجة ، فاذا كانت القصيدة السابقة قد وفرت شيئا من وحدة الموضوع ، فان هذه القصيدة لقصرها نسبيا ، قد استطاعت أن تكون في ذلك أشد تماسكا ، وأكثر تركيزا على الموضوع المعالج .

وتلقانا قصيدة الشاعر الثالثة والأخيرة في هذا المضمار بعد سنة من سابقتها وهي تحمل عنوان (الترحيب بالحجاج) [1]، ولعل سائلا يسأل لماذا لم يكن لمحمد العيد شعر في هذا الموضوع بعد هذا التاريخ .

ونحاول الاجابة عن ذلك بحياة الشاعر وحياة وطنه . لقد فجر الشعب الجزائري بعد هذه الفترة بقليل ثورته المجيدة في الفاتح من نوفمبر 1954 ودخل الشاعر في اثر ذلك ظروفا استثنائية خاصة سكت فيها عن الشعر أو يكاد ، ثم جاء الاستقلال وتوفر له من فرص القول وأسبابه ما لم يتوفر له طول حياته ، فدخل بذلك في منعرج جديد ، أغناه عن اقتناص ما كان يقتنصه هو واخوانه من الشعراء الجزائريين من قبل من مناسبات وأعياد ، كانوا يهتبلونها لينفسوا بها عما يحسون به مما يعانيه شعبهم .

وقد صادف أن حجّ الشاعر سنة 1966 ولم نعثر له على شعر في ذلك ، ولعل مرد ذلك لما ذكرناه ، ولما عرف عن الشاعر بوجه عام من عدم ميله الى الحديث عن نفسه ، وبخاصة ما كان منه متصلا بعباداته .

ومهما يكن فان هذه القصيدة التي بين أيدينا تقع في سبعة وأربعين بيتا وقد أطل فيها الشاعر على موضوعه من مطلعها واستهلها كسابقتيها بتوجيه الخطاب الى الحجاج يرحب بهم ويهنئهم ببلوغهم مقصدهم الشريف، وعودتهم منه سالمين غانمين . يقول :

حباكم بحج البيت أكرم من حبا فأهلا وسهلا بالحجيج ومرحبا

ويخلص من هذا المقطع الى الحديث عما وفرته الحضارة الحديثة من وسائل نقل عصرية أصبح في مقدورها أن تطوى بالمسافرين آلاف الأميال في بضع ساعات قلائل فتوفر لهم بذلك الكثير من الوقت ، وتجنبهم غير قليل من مشاق السفر وأتعابه .

ويغتنم هذه الفرصة ليذكر قومه بما جاء به دينهم ، وقامت على أساسه الحركات الاصلاحية في العالم الاسلامي ، في القديم وفي الحديث ، من حث على تحرير العقل ، واستخدامه في البحث عما تزخر به الأكوان من ظواهر وأسرار ، واقبال على العلم والمعرفة ،

---

(1) الديوان ، ص : 194 ، نشرت في البصائر العدد : 94 — 7 نوفمبر 1949 . المخطوط 1 : 51 وهي بالمصدرين بعنوان (الترحيب بعودة الحجاج من بيت الله الحرام) .

مبينا لهم أن الغرب الذى يهيمن على أمرهم ما كان يستطيع أن يصل الى ما وصل اليه الا لأنه أطلق العنان للعقل ، وسعى في طلب العلم وأقبل على الحياة .

وأن المسلمين ما انحدروا الى ما انحدروا اليه من تأخر وضعف الا لأنهم عطلوا قواهم العقلية واستسلموا للتواكل وفرطوا في الأسباب ناسين أن الحياة معركة ، وأنه لن يفوز بالغلبة فيها ، الا من تسلح لها بسلاح العقل ، وأقبل على الحياة ، وأخذ بأسباب التقدم العلمي ، يقول الشاعر في ذلك :

ولم نسع سعي الغرب للكشف بالحجى — عليه فلم نكسب مع الغرب مكسبا
اذا ما رأينا الغرب أبدى بدائعا — فغاية ما نبديه أن نتعجبا
حياة الورى حرب لهم دون مدنة — تغلب فيها بالحجى من تغلبا
لذاك أبى التمكين في الأرض وطننا — وراوده المستعمرون فما أبا
نقول على الله اتكلنا بزعمنا — ومن يتكل حقا عليه تسببا (1)

وبعد أن هيأ الشاعر النفوس بدعوته تلك الى اليقظة ، التفت الى الوطن فأحزنه حاله ، فتساءل والحسرة تقطع قلبه ، الى متى ونحن لاهون والأعداء يدوسون أرض الوطن ، وينهبون خيراته ؟ الى متى ونحن راضون عن وضعية الذل والهوان تلك التي أسلمنا اليها تقاعسنا للقيام بالواجب ؟ فأغرى بنا ذلك عدونا ، فاستضعفنا وفعل بنا وبالوطن ما تفعل الذئاب بالأغنام السائبة ، يقول الشاعر :

لنا وطن مثل الفراديس بهجة — فكيف راضينا أن يداس وينهبا ؟
وكيف راضينا أن نعيش أذلة — ضعافا يرانا الغير أحقر من هبا ؟
حيارى كقطعان جفتها رعاتها — فأغرت بها خصمين ذئبا وثعلبا ؟ (2)

وواضح أن الشاعر يستهدف من تكرار الاستفهام التوبيخي في هذه الأبيات استنهاض الهمم ، وبعث الشعور بالعزة في النفوس ، فيهب القوم لتخليص وطنهم من قبضة المحتلين .

ثم يتوجه الشاعر من جديد الى الحجاج يعظهم ويبرز لهم الحكمة من حجهم ، وواضح أن تناول معنى من المعاني في جانب من القصيدة ثم الرجوع اليه في مكان آخر منها ثانية ، ان هذا العمل يؤثر على تماسك البناء في العمل الابداعي .

ومهما يكن من أمر فقد خلص الشاعر من ذلك الى وقفة شديدة الاتصال بما كان قد عالجه من أمر الوطن وتكاد قتامة صور ذلك الحاضر المرير التي يبدو أن طيفها لم يبرح خياله ، تؤثر عليه فتؤدى به الى الهروب من واقعه ، الا أن الرغبة في معالجة ذلك الواقع والسمو به ، كانت أقوى في وجدانه ، وأبلغ من غيرها فيه ، فوقف بذلك موقفا وسطا ، كشف فيه عما يوضح مفهومه السليم للتصوف ، ويؤكد مرة أخرى على طبيعة

---

(1) الديوان ، ص : 194 .

(2) المصدر السابق ، ص : 195 .

صوفيته القائمة على الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، كما يبدو في خاتمة هذه القصيدة ، وهو يمد فيها يدا يناضل بها ويكدح من أجل حياة سعيدة في هذه الدنيا ، ويمد يده الأخرى لتعمل صالحا ، وتجاهد ابتغاء مرضاة الله ، يقول الشاعر :

فيا أيها الانسان دنياك صعبة ... فكن أنت فيها في كفاحك أصعبا
ويا أيها الانسان انك كادح ... الى الله كدحا ما خلقت لتلعبا
فان طبت نفسا تلقه عنك راضيا ... وان سوءت سعيا تلقه عنك مغضبا (1)

وتلتقي هذه القصيدة مع سابقتيها في الهدف الأساسي منها ، وهو الرغبة في النهوض بالواقع الاجتماعي والسمو بوجوه الحياة المختلفة فيه ، وتبدو أقرب الى الأولى في كبر حجمها ، وفي ظاهرة الالتفات الى الماضي ، وان كانت صورة ذلك الماضي بها أكثر شمولا ، وأشد تنوعا مما هي في غيرها ، كما أنها أكثر من سابقتيها وضوحا في الحديث عن الحياة الوطنية ، وأقل منها ميلا الى أسلوب التلميح ، ولعل أهم ما يميزها أيضا الى جانب ذلك ، تلك الوقفة الصوفية السريعة ، وذلك الميل الى المقابلة ما بين الحاضر والماضي في أكثر من موطن في القصيدة ، فقد قارن الشاعر في الصورة الأولى ، ما بين قومه وهم على ما هم عليه من التأخر والجمود ، وما بين الغرب الذى سيطر على العلم بعقله ، فسيطر على الحياة والأحياء من حوله . ويعقب هذه الصورة بوقفة أخرى بناها على جملة من الاستفهامات ، كان يهدف بها — ولا شك — الى اعادة الثقة لقومه بامكانياتهم الذاتية فيكون لهم من ذلك ما يحملهم على تغيير واقعهم والنهوض بحياتهم .

وان الملاحظة الأساسية التي تلفت الانتباه اليها أكثر من غيرها في هذه القصائد ، هي أن الشاعر لم يكن في واحدة منها يصدر بدافع مناسبة خاصة ، كالتأريخ لأمير أو صاحب جاه ، وانما كان ينطلق في جميعها من مناسبة عامة ، يؤرخ فيها لسفر الحجيج عموما ، وهذا ما يؤكد — كما سنعرف — من أن لشعر المناسبات المختلفة لدى الشعراء الجزائريين ، طعما خاصا قد لا يتوفر في شعر غيرهم ممن لم يعيشوا في ظروف مثل ظروفهم .

وتتلامح تلك الروح الجماعية في جميع مطالع هذه القصائد التي يحرص الشاعر على استهلالها من أول بيت فيها باسناد الكلام الى ضمير الجماعة .

وقد سلك الشاعر في هذه الأعمال سبلا شتّى من ألوان التعبير ، نوع فيها بين هذا الأسلوب وذاك ، الا أنها تتسم في مجموعها في هذا الجانب ، بسمات فنية ، توشك أن تكون مشتركة بينها ، ويأتي على رأسها غلبة الأسلوب المباشر ، والنبرة الخطابية ،

---

(1) الديوان ، ص : 197 .

وشيوع ظاهرة البساطة في المعاني ، والسهولة في أدوات التعبير ، في كثير من مقاطعها ، حتى لتكاد تنحدر فيها أساليب الصياغة أحيانا الى لغة النثر التقريرية الباردة ، التي تفتقر الى قدر كبير مما تقتضيه لغة الشعر من الايحاء والظلال ، غير أن ذلك لم يمنع الشاعر من استخدام ما يعد من سمات أسلوبه الاساسية ، في هذه القصائد ، وأعني به ، ظاهرة التلميح الى بعض الأهداف دون التصريح بها .

ولعل الشاعر كان بميله الى هذه الخصائص الأسلوبية المختلفة ، سواء منها ما هو متصل بالمباشرة ، أو ما هو مرتبط بالتلميح ، كان يراعي في ذلك ظروف مجتمعه الموضوعية ، فسلك لكل طريق سبيله ، ولبس لكل مقام لبوسه ، ولعل هذا ما كان يعنيه بقوله في هذا البيت :

أصرح أحيانا بقصدي واضحا   وألحن أحيانا فهل أنت فاهم ؟ (1)

وبعد فلعله يمكن القول ، أن الشاعر بدا في جميع هذه القصائد ، صادقا مع نفسه واعيا لعمله الفني ، بما مكنه من طبع جميع هذه الأعمال بجملة من السمات الموضوعية والفنية ، استطاعت أن تكشف بعض الملامح من شخصيته ، وتصور بعض التصوير ، مفهومه لوظيفة الشعر ، ورسالة الشاعر في المجتمع .

وان الملاحظة الأساسية التي يمكن أن تستخلص من دراسة نتاج الشاعر في موسمي رمضان والحج أنه كان يستهدف من ذلك الشعر ، ما كان يرمي اليه عادة ، في سائر جوانب شعره الاسلامي ، مما يتمثل في التأكيد على صلة الدين الاسلامي المتينة بمختلف مظاهر الحياة العامة ، وبيان اثر ذلك في بناء شخصية الفرد المعنوية والمادية ، والحرص على الافادة من مآثر هذين العيدين بما يمكن للروح الدينية في نفس الفرد ، ويساعد على السمو بالأوضاع الاجتماعية بما يوفره من أسباب التآخي والتعاضد والاتحاد ما بين أفراد الأمة ، مما يكون من شأنه تدعيم موقفها ، وترسيخ قدمها في الصراع الدائر بينها وبين أعدائها .

* * *

وأما مناسبة المولد النبوي الشريف ، فقد وصلنا من شعر الشاعر فيها (ست قصائد) لم يتجه في واحدة منها اتجاه المتقدمين من شعراء المدائح النبوية ، وانما سلك

---

(1) الديوان ، ص : 139 .

فيهـا مسلكا جديدا ، يقوم على استخلاص العبرة من سيرة صاحب هذه الذكرى ، بما يسمو بواقع قومـه ، ويدفع بهم نحو تحقيـق أهدافهـم الكبرى في الرقي والتحرير .

ونلفت الانتباه الى أن الحديث عن هذه القصائد في هذه الفقرة سيقتصـر علـى استعراض بعض المقاطع المتصلة منها بمحور هذا الفصل ، على أن نعود اليها بالدراسة والتحليل في فصـل مقـبل .

ونبادر الى القول بأن الشاعر قد أطل على ملابسة الواقع في جميع مولدياتـه ، غير أن تلك الاطلالة كانت بسبب متفاوتـة بين قصيدة وأخـرى .

وان أول ما يلقانا من ذلك ، ما جاء في قصيدته الأولى (تحية المولد النبوى) (1) مما يمكن أن يقترب فيه الشاعر من معاني شعراء الضعف ، وهو يتوجه بالخطاب الـى الرسول (ص) يشكو اليه حال أمتـه ، وما تلقى من أذى وحيـف على أيدى حكم أجنبي ظالم ، عاث في أرضهـا فسـادا وأذاق أهلهـا العذاب نكالا .

ان الشاعر يتوجـه الى الرسول (ص) بهذه الأسئلـة : ألهذا الظلم يارسول الله من نهاية ؟ ألا يكون يانبي الله لرضاك عن أمتك ما يحميهـا من ذلك الجـور؟ ثم يتوسل به عندالله ليرفع عن أمته ما بها من ضيـق ويبدلها بـه أمنا و سلاما . يقول ذلك مخاطبا الرسول :

أتذوق أمتك النكال مضاعفـا ... من عائث في أرضها متمـرد؟
ويسوسهـا حكم أجـذ مبـتر ... قاس كأن بنوده من جلمـد
أو لم تكن حصنا لها في كربهـا ... دنيا وعدتهـا في يوم الموعـد ؟
فاشفع لها عند الاله وسل لهـا ... منه الأمـان ، وعذبه ، واستنجـد (2)

ونلحـظ أنه على الرغم مما يعلو هذه الأبيات من مسحة صوفية خفيفـة ، فان الشاعـر استطـاع أن يقـف فيها بالقرب من صميم الواقع ، وأن يضـع يده على موطن الداء الذى ظلت أمته تعاني من آلامـه آمادا طويلة ، وهل هناك داء أشد ضررا على الأمم مـن علـة الاحتلال الأجنبـي ؟

ونشير من جهة أخرى أن ما يلاحظ في حديث الشاعر من تعميم ، فاني أحسب أن ذلك ، انما كان مقصودا ، وأن الشاعر مدفوع اليه دفـعا بعوامل مختلفة ، لعل من بينهـا : ما عرف عنه من سعة الأفق ، وشمولية النظرة الى الأمور من حولـه ، مما طبعه بطابع

---

(1) من شعره المجهول، ينظر الملحق

(2) ينظر الملحـق

الغمرة في مواقفه ، وفي نتاجه ، كما يتجلى لنا ذلك في الأبيات التي تكشف عن حرصه على الأمة ، مصورا في اطار وطنه الصغير ، وهو يؤمن ايمانا قويا ، أن وطنه أكثر من ذلك ، انه يمتد في نظره حيثما ينشر الاسلام ألويته وحيثما يوجد المسلمو ن .

فشا الاسلام في شرق وغرب   وألف بين مصرى وصيني (1)

وناهيك أن جلّ بلاد الاسلام ، كانت يومئذ تحت سيطرة الاحتلال الأجنبي ، والمسلمو ن جميعا سواسية ، فيما يتخبطون فيه من غبن وضعف ، وقهر ، أليست الظروف واحدة أو توشك أن تكون كذلك يومئذ حيثما حللت في أيّ بلد من بلا د المسلمين ؟

ويمكن من جهة أخرى أن يكون الشاعر يقصد بكلمة الأمة ، وطنه الجزائر بالذا ت ، ويرجح هذا الاحتمال ما يراه الدارس في نتاج كثير من الجزائريين كتابا وشعراء ، باستخدامهم كلمة الأمة في أعمالهم وهم يقصدون بها (الجزائر) حتى صار ذلك الاستعمال ظاهرة ملحوظة في كتاباتهم .

ولعلّ تفسير ذلك مرده الى سياسة الاحتلال الفرنسي الذى كان يحاول أن يغرس في بعض النفوس الضعيفة أن الجزائريين لا يمثلون أمة ، وانما هم أشتات من قبائل متفرقة لا يربط بينها ما يربط بين الأمة الواحدة ، من أواصر وصلات ، فتكون من ذلك لدى معظم الجزائريين ردّ فعل قويّ جعلهم يطلقون على وطنهم في أعمالهم الفكرية ، والأدبية اسم (الأمة) تأكيدا على أصالته وتميزه ، وتفنيدا لادعاءات أعدائه .

ومهما يكن من أمر ذلك فان الدارس ، يعثر على شيء من ذلك الاهتمام بالحاضر في مولدية الشاعر الثانية وهي (خطك الله للعباد كتابا) (2) التي حاول أن يلتفت فيها الى ما ينهض بالوطن ، مما تحسسنا ميله اليه في المولدية الأولى ، ولكنه لم يقو على الافصاح عنه هنالك ، بينما استطاع هنا ، أن يرسم الطريق اليه ، ويضع الأيدى على أسبابه .. يقول مخاطبا قومه :

يارفاقي أظلنا عصر جد   فتعالوا نشد للنا منه عصرا
يارفاقي على العروبة فاحيوا   وبنوا الحرب بالمروبة أحرى
وأجيبوا في الحق دعوة داع   من سوى الله ليس يسأل أجرا (3)

وتبدو الروية الاصلاحية واضحة في معاني هذه الأبيات وفي صورتها التعبيرية ، كما يتجلى ذلك ، وخاصة في هذه الكلمة (يارفاقي) التي كررها الشاعر مرّتين ، ولا يخفى ما توحي به تلك اللفظة من انتماء الشاعر الى رفاق ، تجمعه واياهم طريق واحد ،

---

(1) الديوان ، ص : 584 .
(2) وهي من شعره المجهول ، ينظر الملحق
(3) ينظر الملحق

وأهداف واحدة ، وما أولئك الا صحبه من أعضاء الحركة الاصلاحية الذين كانوا يومئذ في بداية مسيرتهم النظامية ، اذ لم يمض على تأسيس جمعيتهم الا حوالي سنة . فأحب الشاعر أن ينثر بين أيديهم بعض ما يمكن أن يسترشدوا به ، وهم يشقون طريقهم بالأمة ، نحو ما يرقى بها ويحقق آمالها .

وتبرز هذه العناية بالحاضر ، بشكل أكثر بروزا في مولديته (ذكرى المولد النبوي)(1) هذه التي تزامن تاريخ نظمها مع ظهور بعض أوجه التباين في الرأي بين بعض أقطاب الحركة الوطنية ، في أعقاب انعقاد المؤتمر الاسلامي سنة 1936 .

وكان العدو يهول من ذلك ويزيد بوسائله المختلفة ، الظاهرة منها ، والباطنة في اذكاء فتيل الخلاف .

وكم كان يود المحتل أن يتطور ذلك الى فتنة تأتي على الأخضر واليابس مما بدأ يعطي ثماره من الجهود الوطنية .

وكان محمد العيد الذي يعيش الواقع في الصميم ، واعيا بما يدبر العدو للوطن من مكائد ، الأمر الذي حمله على أن يولي عناية ملحوظة بهذا الجانب من حياة قومه ، فتوجه اليهم بالخطاب المباشر ، يحذرهم من أخطار الانقسام والتفرقة ، ويحضهم على جمع شملهم ، والوقوف في وجه العدو وقفة رجل واحد ، لافشال محاولاته واحباط دسائسه ، يقول في ذلك المعنى مخاطبا قومه :

وقوا أنفسكم نـــا ... ر عداوات وأحقـــاد
يزيد الخصم ايقـــادا ... لها من بعــد ايقـــاد
أتنشقون أضــدادا ... وما أنتم بأضــدا د ؟
فلستم غير أعضــاء ... على الاصلاح أعضاء
أجيبوا كل إبــراق ... من الباغي بإرعاد
ولا تحنوا الظلام ... ولا تحنوا لجلاد
بغت واستكبرت (عاد) ... ولم تغلب (أخا عاد) (2)

وواضح أن البيت الأخير عميق الدلالة عن تأثر الشاعر بالصورة التعبيرية في القرآن الكريم، وهذه واحدة من سمات التعبير والتصوير في شعره ، في معظم أغراضه ، كما يبرز لنا ذلك في مواطن كثيرة من هذه الرسالة .

واذا كان الشاعر قد ألمح في هذا النص الى خطورة الانقسام على كيان الأمة ، وحث قومه على ضرورة الاعتصام بالوحدة الوطنية لمواجهة ما يحدق بهم من أخطار، فاننا نراه يولي عناية بارزة لهذه الظاهرة في أكثر من مكان في ديوانه ، نذكر من ذلك هذه الأعمال (يا أمة الخير ــ فتح جديد ــ الى العلم) (3) .

---

(1) الديوان ، ص : 75 ، نظمت 1937 . (2) الديوان ، ص : 78 .
(3) وهي في ديوانه على الترتيب : ص : (174 ــ 181 ــ 202) .

ويعمد الشاعر في مولديته (أنشودة الوليد)[1] الى رسم صورة من صور الجهاد من حياة الرسول (ص) وهو يقود عساكر الايمان ويجابه بها فلول الشرك والوثنية ، ويضرب — وعين الله تكلأه — أروع الأمثلة في الثبات ورباطة الجأش ، ويظهر قدرة فائقة في السيطرة على ادارة العمليات القتالية في أصعب الظروف وأشدها احراجا ، مما مكنه بمدد من الله أن يهزم بقليل من العدة والعدد ، جحافل المشركين ، ويردهم على أعقابهم خاسئين خاسرين . يعبر الشاعر عن هذه الحقائق ، وهو يخاطب الرسول (ص) في هذه الأبيات :

ياقائدا في الحرب صف جنوده لايخترق	لي أسوة بك في دفاعك يوم خط الخندق
والصحب بالأحزاب تفزى والمدينة تحدق	مازالت ترفد بالمدد من السماء وترفق
حتى رأيت القوم يهزم جمعهم ويمزق (2)	

ونحسب أن هذه الأبيات واضحة الدلالة ، عما يحسّ به الشاعر من معاناة شعبه الأمر الذي دفعه أن يختار — وهو يؤمن أن الكلام يدون عمل لايدفع البليات — هذا الموقف بالذات الذي وقفه الرسول (ص) في غزوة (الخندق)[3] يخطط للمعركة ، ويدير دفة القتال في ظروف صعبة جدا لم تكن فيها الفرص بين المسلمين والمشركين متكافئة . ولا شك بأن الشاعر كان يهدف من وراء هذا الاختيار الى احياء قيمة الجهاد في نفوس أفراد أمته ، ولفت أنظارهم الى خطورتها فيما يطمحون الى بلوغه من مقاصد .

ولا يستبعد أن يكون الشاعر يقصد — وهو يرسم هذه اللوحة من جهاد بطل الأبطال في هذه الغزوة بالذات — أن يلفت من خلالها نظر أمته الى الطريق الأمثل الذي يجب أن تسلكه ، والمثل الأعلى الذي ينبغي أن تحتذيه ، وهي تصارع الطاغوت وتتلمس سبلها نحو الثورة والتحرير . ويرجح ذلك أن حديثه عن القدوة واضح في الأبيات .

ويمكن القول من جهة أخرى أن حرصه على أن يكون في شعره قريبا من الحاضر ، هو الذي يفسر لنا اختياره لهذه الغزوة بالذات ، لما يمكن أن ترمز اليه من بعض وجوه الشبه ، بين ما تعرض له المسلمون الأولون فيها من شدة وبلاء ، وما قابلوا به

---

(1) الديوان ، ص : 166 .
(2) الديوان ، ص : 168 .
(3) وتسمى أيضا غزوة (الأحزاب) وقد وقعت على الأرجح في شوال سنة خمس للهجرة . ينظر ابن كثير (السيرة النبوية) ج 3 : 180 وما بعدها .

ذلك ، من ايمان وشجاعة[1]، وبين ما كان يمرّ به الشعب الجزائري آنذاك من تكالب قوى الشر والطغيان عليه ، وما كان يواجه به ذلك من صمود ومقاومة .

ويخلص الشاعر من هذه الوقفات الى خاتمة هذه القصيدة ، فيتوجه فيها بما أصبح سمة غالبة في كثير من أعماله ، وتعني به ، اهتمامه باستخلاص العبرة من شعره بما يساعد الأمة على النهوض بحاضرها . الا أن الذى طبع هذه الخاتمة بطابع خاص أن الشاعر لم يسلك الى تلك المعاني ذلك السبيل الذى كان يسلكه اليها من قبل ، كأن يعمد فيها الى أسلوب الارشاد والنصح ، وانما لجأ الى أسلوب آخر يبدو فيه بعض الايحاء ، ويتجلّى في صورتين اثنتين :

يشير الشاعر في الصورة الأولى ، وبصيغة المفرد المتكلم الذى يمكن أن يكون هو نفسه الى ما يمكن اعتباره تجسيدا لما أصبحت عليه الحياة الوطنية في بعض وجوهها من حيوية ونشاط ، محاولا أن ينقل ذلك الى شعبه ، فيتوجه اليه بالخطاب قائلا :

ياشعب أنداء الربيـــ	ـع على ربوعك تهرق
السوسن التحفت بـــه	أكنافها والزنبق
أنا زهرة فيها تنمـــ	ـى حرة وتنمق (2)

ويواصل الشاعر مخاطبته شعبه في الصورة الثانية ، فيعرب له عن استعداده للوقوف في الصف الأول ، جنديا مخلصا ، الى جانبه ، يدفع عنه شرّ الأعداء ، وما يكيدون له بهدف النيل من شخصيته ، عن طريق محاولات التجنيس والاندماج ، مؤكدا له في الوقت نفسه ، أن شعبا يترسم هدى نبيه ، ويسير سيرته ، على نهج الجهاد والنضال ، لا يخشى عليه ، وعلى أصالته مما يدبر له من دسائس ومؤامرات ، وأن ذلك كله سيذهب أدراج الرياح ، وسيفوز بالعقبى ، وتكون له في الآخر ، الغلبة والنصر على أعدائه ، يخاطب الشاعر بذلك شعبه قائلا :

أنا بمهة يرمى بهـــا	صدر العدو ويرشق
أنا صارم في وجه مـن	ينوى ابتلاءك يمشق
ان الذى يبغي (اندما	جك) في سواك لأحمق !
لا ينمحى شعب بشا	رات الرسول مطوّق
أنت الحنيف فلا تخف	ان الحنيف موفّق (3)

---

(1) ينظر القرآن الكريم (سورة الأحزاب) الآيات من (8 — 27) ، وينظر ابن كثير (السيرة النبوية) ج 3 : 201 .

(2) الديوان ، ص : 168 .

(3) المصدر السابق ، ص : 168 .

وعلى الرغم من سيطرة النموذج الفني القديم على الشاعر في هذه الأبيات وخاصة في جانب التصوير منها ، كما يظهر ذلك في هذين الصورتين (أنا نبعة ..) (أنا صارم ..) اللتين استمدهما من مخزونه من التراث الشعرى ، على الرغم من ذلك ، فان الدارس لا يعدم أن يكشف من خلال تلكما الصورتين موقف الشاعر من قضية شعبه ، وقدرته على الايحاء بذلك ، كما يلمس في الوقت ذاته ، مدى ما كان يمثله الشاعر من خطورة وتحدّ للعدوّ ، وهو يكتب للناشئة الأمة ، مثل هذه الأشعار التي يستطيع كل واحد منهم أن يعبر من خلالها عن تصميمه للدفاع عن الوطن وتحريره .

ويخيل اليّ أن الذى يمعن النظر في الأدوات الفنية التي وظفها الشاعر في النموذج الأول ، بما اشتمل عليه من لغة معبرة ، وصور موحية ، يمكنه أن يدرك ما أراد الشاعر أن يرمز اليه من خلالها ، مما بلغ اليه الوطن من أوجه الحيوية والنشاط ، وما يتطلع اليه من مقاصد على طريق المستقبل الباسم .

والشيء نفسه يمكن قوله حول النموذج الثاني الذى استطاع الشاعر بما وفّر فيه من عناصر لغوية وتصويرية ، أن يعرب لشعبه عن وقوفه الى جانبه في معركته ضد أعدائه ، ويؤكد له في الوقت نفسه انتصاره فيها عليهم .

ويمكن القول بذلك أن الشاعر استطاع ـ بما وفر في ذينك النموذجين ، من أدوات التعبير والتصوير ـ أن يوائم بذلك بين أسلوبه وبين الجوّ الذى أراد أن يمكن له في نفس المتلقي في كل صورة .

ويتوجه الشاعر بالخطاب الى أمته في مولديته الخامسة (يا أمة الخير) (1) باعثا في نفسها النخوة والاعتزاز بذاتها ، مؤكدا لها أن رسولها الذى تحتفل بذكراه ، لا يرضيه أن تخنع لظالم ، أو تستكين لمغتصب ، ويضع بديها عما يساعدها على الخروج مما هي فيه ، ويأتي في مقدمة ذلك ـ في نظره ـ اللجوء الى الله سبحانه وتعالى ، بالتمسك بدينه ، والعمل بما يدعو اليه من جهاد ، واتحاد ، واجتناب أسباب الفرقة والنزاع . يقول الشاعر مخاطبا أمته :

محمد ليس يرضى	أن توصى بشنيع
محمد ليس يرضى	أن تخلدى لوضيع
فأوى الى الله تأوى	الى الجناب المنيع
بيحيى له كلّ غال	بجنة الخلد بيحيي
ان الشقاق فظيع	يدعو لكل فظيع
والشاة للذئب سهم	ان فرطت في القطيع (2)

---

(1) الديوان ، ص : 174 . (2) المصدر السابق .

ولا يخفى أن الشاعر، بحديثه في هذه الأبيات عن الجهاد، وتحذيره من مغبة الخلاف ، يكون قد جمع بين قيمتين اثنتين ، سبق أن تناولهما في المولديتين السالفتين (ذكرى المولد النبوى) و (أنشودة الوليد) وإن رجوعه اليهما من جديد في مولدية ثالثة ، يدل ـ في نظرى ـ على أكثر من دلالة واحدة ، فهو يكشف من جهة ، عن عمق ايمان الشاعر بما لهذين القيمتين من أثر فعّال على حاضر الوطن ومستقبله بما يساعده على النجاح في عملية بناء صرح نهضته ، وتمكينه من قطف ثمرة حريته . كما يمكن أن يدل من جهة ثانية، على وعيه بعمله الفني ، وقدرته على التنويع في طريقة تناوله للمعاني ، وأدوات التعبير عنها ، مما يفسر لنا أن الشاعر لم يكن يكرر معانيه لمجرد التكرار ، وانما كان يقوم بذلك تقريرا لأفكاره ، وتحقيقا لما يتوخى منها من أهداف .ويتضح ذلك من خلال اعتماده على أكثر من طريق لعرض تلك المعاني وصياغتها . فانه في هذه القصيدة (يا أمة الخير) قد لجأ الى الاجمال في حديثه عن الوحدة الوطنية ، بينما نراه في قصيدته السابقة (ذكرى المولد النبوى) قد ذهب في حديثه عن هذا الموضوع مذهب التفصيل ،كما أنه اختار للتعبير عن ذلك ،أسلوب الخبر في الثانية وأسلوب الانشاء في الأولى . ثم اننا نراه من جهة أخرى يدعو الى الجهاد في (يا أمة الخير) دعوة ، توشك أن تكون أكثر صراحة، وأدق تفصيلا ، مما أشار به اليها في قصيدته (أنشودة الوليد) .

وأحسب أن هذا التباين بين طرق العرض وهذا الاختلاف في أساليب الصياغة ، انما يؤكد ما ذهبنا اليه من وعي الشاعر لعمله الفني ، وحرصه على البلوغ فيه ، الى ما ينشد من خلاله من مقاصد وغايات .

واذا كنا قد رأينا الشاعر في مولديته الأولى (تحية المولد النبوى) يتوجه الى مخاطبة الرسول (ص) ، يشكو اليه حال أمته في لهجة عامة ، تعلوها مسحة صوفية، فاننا نراه في مولديته السادسة والأخيرة (سلو التاريخ) يرجع الى ذلك الأسلوب ، ولكن برؤية متطورة ، تميل الى التصريح ، أكثر مما تجنح الى التلميح ، وتعمد الى رسم الأهداف ، أكثر مما تتجه الى الايماءة اليها ، يعبر الشاعر عن بعض ذلك وهو يقف بين يدى حضرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، يرفع اليه تحيات الشعب الجزائرى ، وينقل اليه ما يلقى من حيف وجور على أيدى المغتصبين الطغاة ، أولئك الذين لم يفعلوا به ما فعلوا الا لأنه تأبى على محاولاتهم لزحزحته ، عما جاء به نبيه من مبادئ وقيم ، ويختم الشاعر وقفته هذه ، متسائلا بما يفيد التقرير، بأن شعبا يفيض صدره بحب رسول الله وبالرغبة في الاهتداء بهديه لن تخيب مساعيه ولن تذهب جهوده سدى ، يخاطب الشاعر النبي بذلك فيقول :

عليك سلا م شعب فيك يــؤذى ... ويرمى بالتعصب والجمـود
ضعيف ماله في العيش حـظ ... سوى دمع يسيل على الخدود
يشح عليه بالتحرير دهــر ... سخا بالملك حتى لليهــود
فكاد يبوء بالخسران ممــا ... يلاقي اليوم من فشل الجهود
وكيف يبوء بالخسران شعـب ... يكن ولاءه لك في الكـبود ؟ (1)

أحسب أن الذى يمعن النظر في الأبيات ، يحس بما توحي به مما وصل اليه الشعب الجزائرى ، وهو على أبواب الخمسينات ، من سوء واقع ، ونكد عيش ، وخيبة أمل ، من كل ما استخدم من مساعي ، ووسائل لاسترداد الحق الوطني المغتصب .

ويعود الشاعر مرّة أخرى الى هذا الموضوع ، متسائلا عن ذلك اليوم الذى سينهض فيه الشعب الجزائرى من كبوته ، ويحقق أمانيه في الحرية والاستقلال ، مثلما حقق ذلك بعض الشعوب الشقيقة والصديقة :

وهل شعب الجزائرى مستفيــق ... من الأحلام مطرح الركـود ؟
وهل هو بالتحرير سوف يحظـى ... كأمة (ليبيا) أو (كالهنـود) ؟

ويسارع الشاعر الى الخروج من هذه الاستفسارات بالنفي الذى يفيد التقرير، حتى لا يذهب الظن ببعض من يذهب ، فيحسب أن محمد العيد من أولئك الشعراء الذين يظنون أن تحرير الشعوب ، انما تكفي فيه الأماني ، دون خوض المعامع ، وركوب المخاطر . فيتوجه بذلك الى رسم الطريق أمام شعبه نحو تلك المقاصد ، مؤكدا أن تحرير الشعوب ، انما هو من المطالب التي لن ينالها الا شعب وعى طريقه ، وصمم على الجهاد ، وأعلن الثورة ، وخاضها حربا مقدسة صبر فيها على عظيم الشدائد وسخى فيها بجسيم التضحيات ، يقول في هذا المعنى :

ولا يعطى التحرر غير شعـب ... يجيب الى المعامع حيث نودى
سخي بالفدى ان سيم ضيمـا ... وخوصم في مطالبـه وعودى
فليس يهاب زمزمة الحوادى ... وليس يخاف دمدمة الرعـود

ثم ينتهي الشاعر من هذا الحديث الى ما يمكن اعتباره نتيجة له ، فيعبر في بيتين اثنين ، عن ايمانه العميق ، وثقته الكبيرة ، في نصر الله لشعبه ، وتمكينه من الظفر على أعدائه :

أحقا أن الاستعمــار أودى ... به عدوانه أو كاد يـودى؟
اذا فمشيئة المولي تعالـي ... قضت بشعورنا بعد الهمود .

ان الشاعر يتساءل في البيت الأول ، بما يفيد التأكيد عن مصير الاحتلال الأجنبي ، ثم يجيب في البيت الثاني بما يتماشى مع نواميس الطبيعة ، وسنن التاريخ في مثل

---

(1) الديوان ، ص : 199 .

هذه الأمور، فيؤكد بأن قضاء الله لواقع، وأن الشعب الجزائري لثائر ، وأن عدوه لمهزوم، وتلك هي النتيجة الحتمية التي انتهى اليها كل ما دار في تاريخ البشرية جمعاء، من صراع بين الحق والباطل .

ونلحظ أن الشاعر يستخدم للمرة الثانية في شعره لفظة (الاستعمار) ، وقد كان من قبل، يشير اليه بألفاظ عامة ، تدل عليه ولا تصرح باسمه .كما نلحظ من نحو ثان أن البيتين يعبران بقوة عن ايمان الشاعر الكبير بمستقبل وطنه ، ويمكن اعتبارهما من هذا الجانب من تنبوءاته بالثورة المجيدة التي سيقدم شعبه على تفجيرها في الفاتح من نوفمبر سنة 1954 ، أى بعد حوالي ثلاث سنوات من تاريخ نظمه هذه القصيدة ، ويؤكد ذلك من وجه آخر اندماجه في أحداث القضية الوطنية ووعيه بالمسار الذى كانت تسير فيه، وادراكه للتطورات التي تمرّ بها مدّا وجزرا .

ونخلص في ختام هذا الحديث عن وجوه افادة الشاعر من شعره في احياء ذكرى المولد النبوى الشريف الى القول، بأنه استطاع أن يوثق من وجوه الصله بين هذا الشعر، وبين الواقع الذى يعيش فيه ، وأن يعكس فيه جوانب كثيرة من حياة الأمة ، فقد استبدل الواقع فيه بالخيال وانتقل فيه من الانقياد لجاذبية عوالم الغيب ، الى التعبير عن وجدان الأمةوتوجيهها نحو الاقتداء بهدى رسولها فيما يقوى في نفسها التمسك بعقيدتها ويمنحها القوة على الصمود ، ويأخذ بأيديها على طريق التحرر والعزة .

وأخال أن رغبة الشاعر جلية في الافادة من هذا الشعر، بما ينفع الأمة في دينها ودنياها ، عن طريق التمكين لقيم الجهاد ، والتعاضد ، والاتحاد في حياتها . مما يعكس بقوة وفاءه لمنطلقه في تكريس فنّه وتسخيره لخدمة قضايا الوطن ، ومعالجة أدواء المجتمع . واهتبال هذه المناسبة وغيرها من المواسم الدينية ، لا لتهنئة أمير أو صاحب جاه ، كما اشتهر به بعض الشعراء ، وانما لبلوغ مرام دينية ، وتحقيق غايات اجتماعية وانسانية ، ايمانا منه ، بأن ذلك ، انما هو من المهام الأولى للشاعر نحو أمته ومن المبادئ الاساسية التي عمل الدين الاسلامي على غرسها في النفوس ، ونشرها بين الناس .

* * *

ويمكن القول بعد هذا الذى استعرضنا من نتاج الشاعر في تلك المناسبات الدينية ، وفيما وقفنا عنده مما نظمه في مناسبات أخرى مختلفة في غير هذا الفصل ، أن الشاعر كان يصدر في معظم ذلك النتاج عن انفعال صادق ، ومعاناة واعية لما تعيشه أمته من أوضاع تحت حكم الاحتلال الأجنبي ، الأمر الذى جعله يحرص على أن يفيد من تلك المناسبات فيما يساعد على النهوض بالوطن وتحريره .

وقد رأينا أن الاعياد المختلفة كانت تحتل مكانا مرموقا في حياة الشعب الجزائري، لما كانت تتيحه له من فرص التعبير عن الارادة الوطنية يومئذ ، ذلك أن اجتماع المواطنين في تظاهرة دينية يحتفلون فيها بعيد المولد النبوي الشريف ، أو يحيون فيها ليلة من ليالي رمضان المعظم ، أو يودعون فيها اخوانهم الذين يتأهبون للرحيل الى البقاع المقدسة ، أو يظم شملهم تجمع ثقافي يمد فيه بعضهم يده الى بعض ، من أجل بناء مسجد تنتشر من فوق منابره الدعوة الى اعلاء كلمة الله ، والجهاد في سبيل الوطن، أو افتتاح ناد يشعّ من أروقته الوعي الديني والوطني ، أو تأسيس مدرسة تقوم بتعليم ناشئة الأمة دينهم ولغتهم ، وتغرس في نفوسهم حب الوطن ، والتضحية من أجله . ان كل هذه المناسبات كانت تحمل من الدلالات والرموز في بلد كالجزائر ، يمر بتجربة خاصة ، مالا يمكن أن تدل عليه في غيره من البلدان ، انها أيام خالدة في حياة الشعب الجزائري متصلة بوجدانه ، ووجدان شعرائه ، وهي لذلك يصدق عليها ما قاله بعض الدارسين عن بعض المناسبات ، التي يكون من شأنها أن (تحرك نفس الشاعر وتهزها من الأعماق فتدفعها الى الافاضة بمكنون ما فيها) (1) . ويوضح لنا هذا القول أن الحكم المطلق الذي يصدره بعض المحدثين على عامة شعر المناسبات باستهجانه واستنقاصه ، بدعوى ضعف الجانب الوجداني فيه ، انما هو حكم يجافي الحقيقة، ويشتمل على غير قليل من الغلوّ . ويمكن ردّه بما يزخر به الشعر العربي القديم والحديث من أعمال خالدة ارتبطت ببعض الأحداث التاريخية في حياة الأمة ، واستطاع أصحابها — لصدورهم فيها عن انفعال صادق — أن يحققوا فيها ذواتهم ، وأن يبلغوا فيها مستوى فنيا رفيعا ، كما يبرز ذلك في بعض أعمال أبي الطيب المتنبي وأبي تمام ، وابن الرومي من المتقدمين ، وحافظ ابراهيم ومحمد العيد ومفدي زكرياء من المحدثين . وغير هؤلاء وأولئك من الشعراء الملتزمين .

كما يمكن ردّ ذلك من جهة ثانية الى أن بعض من كان يستنقص هذا النوع من الشعر ، قد لجأ اليه من بعد ، كما يتجلّى ذلك في صنيع الكاتب عباس محمود العقاد (2) .

وعلى هذا الأساس فان التقييم السليم لهذا النوع من الشعر ، انما يحسن ألا يغفل الدارس عند النظر فيه أمرين اثنين :

— أما أولهما فهو طبيعة المناسبة والملابسات الموضوعية المحيطة بها .

— وأما ثانيهما فهو نوعية الدوافع التي تحرك الشعراء الى القول في هذه المناسبة، أو تلك .

(1) ينظر د . محمد حسين هيكل (ثورة الأدب) ص : 63 .
(2) ينظر د . شوقي ضيف (دراسات في الأدب العربي المعاصر) ص : 69 .

ولا يخفى أن المناسبات متعدّدة ومتفاوتة ، وهي تستمد جوهرها مما ترمز اليه وتأخذ قيمتها من البيئة والظروف التي نبتت في ظلها ، وكذلك البواعث النفسية التي تدفع الى النظم فيها ، فهي متباينة من شاعر الى آخر .

ونحن اذا نظرنا الى نتاج محمد العيد بهذا المنظور ، فان أول ما يصادفنا من ذلك أن المناسبة في شعره ، كما هي في شعر معظم زملائه ، تتشابك فيها عدة عناصر دينية وسياسية واجتماعية في وقت واحد . ويظهر ذلك في كثير من أعماله ، ويمكن أن نكتفي في التدليل على ذلك بقصيدته (تحية العلماء) التي رأينا أنه قالها في الاجتماع التأسيسي الأوّل لجمعية العلماء .

ان هذه القصيدة تؤرخ لظهور منظمة تعتبر من جهة تحدّيا صارخا يعكس شعور الأمة في أعقاب الاحتفال الذى أقامته فرنسا بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلالها الجزائر . وهي من جهة ثانية تعدّ خطوة بارزة على طريق تجديد الوعي الديني ، وتحرير الاسلام مما علق به من شوائب وبدع ، وتطوير المجتمع الجزائرى وتحريره من كل أسباب الخور والضعف .

وأظن أن تخليد هذا الحدث بعمل شعرى ليس من الانصاف أن يعد في درجة واحدة مع عمل فنّي آخر يكتبه صاحبه ، في افتتاح نادٍ للألعاب ، أو في تصوير بعض خصوصيات بعض ذوى الحظوظ من الناس .

وأما من حيث الدوافع فقد رأينا أن الشاعر كان يصدر في معظم ما مرّ معنا من شعره في المناسبات المختلفة عن انفعال داخلي صادق ، فالمؤثر الذى يحركه لقول ذلك الشعر ، لم يكن هو الجرى وراء الشهرة أو الحرص على مصلحة خاصة ، وانما كان دافعا نابعا من ذاته يحفزه على المشاركة الوجدانية لقومه ، والالتزام بقضاياهم ، فكان بذلك ينظم ما ينظم وهو يحس أنه صاحب رسالة اجتماعية ووطنية ، فهو يقول في قصيدته (حزب مصلح)(1) التي نظمها في أعقاب ملابسات توقيف الشيخ العقبي سنة 1936 ، موضحا البواعث التي تدفعه الى قول الشعر في مثل هذه المناسبات :

لم يقف بي موقف القول الا	أمل سلم وقصد نبيل
هو حظي أن يفتني حظ	وخليلي أن يخني خليل
لا أرى الألقاب الا بروقا	راجعات الطرف وهو كليل

(1) الديوان ، ص : 129 .

ويوضح مرة أخرى الدوافع التي تحركه ، والأهداف التي يرمي اليها من مثل تلك الأعمال في قصيدته (ياقوم هبوا)[1] التي نظمها على اثر زيارته مدينة قسنطينة واجتماعه بشبابها يقول في ذلك :

وقصيدة قد قلتها كي يهتدى ... بعظاتها ما قلتها ليقالا

ويمكن أن يكون قد اتضح مما تقدم أن المناسبة في شعر محمد العيد ، من نوع خاص ليس البطل فيها ، شخصا من ذوي الحظوظ والجاه ، وانما البطل فيها هو الشعب ، وليست العواطف التي تمور في صدر الشاعر تحت وطأة الانفعال بها ، عواطف نفعية آنية ، وانما هي أحاسيس اختمرت زمنا في أعماقه ، ثم يأتي حدث من الأحداث فيحرك أوتار نفسه ، فتفيض بشعر نابع من وجدانه المستغرق في وجدان أمته . وهذا ما يفسر لنا ما نراه من اندماج ذات الشاعر فيما ينظم في بعض المناسبات ، كما يتلامح ذلك في كثير من أعماله ، يمكن أن نسوق كشاهد عليها ، قصيدته (تحية العلماء)[2] تلك التي رأينا أنه نظمها بمناسبة تأسيس جمعية العلماء ، وقد استطاع أن يعكس فيها بعض الملامح مما ترك ذلك الحدث من أثر على قلبه ، يقول في ذلك :

فكم سرني اقباله واقتباله ... ببشر على بشر وخصب على خصب
وكم سرني حظ الجزائر عندما ... تناهى اليها سالما آمن السرب
وكم سرني جمّ من الشعب حادب ... عليه كمثل الطير في مورد الشرب

ونلمح في الأبيات هذا الالحاح على كلمة (سرني) بصيغتها ، هذه الماضية ، وباسنادها الى ضمير المتكلم المفرد (الذى هو الشاعر) في ثلاثة أبيات متتالية ، وهذه اللفظة (كم) التي تتقدمها في كل مرة ، وهي تدل بمعناها اللغوى على الوفرة والتعدد ، يخيل الي أن هذا الأسلوب لا يخلو من دلالة نفسية عميقة .

ويعود الشاعر في هذه القصيدة ذاتها ، يعبر عن ذلك وهو يخاطب العلماء قائلا :

شكرت لكم يارفقة العلم وصلة ... أعدتم بها معنى السرور الى قلبي
فدوموا بها مستعصمين أعزة ... وعودوا برضوان وفضل من الرب

ويبرز الشاعر مرة أخرى ما توحي به تلك المناسبات من مشاعر في نفسه ، وما تترك في صدره من أثر ، وذلك في قصيدته (تحية أيها النادى)[3] التي ألقاها في حفل افتتاح نادى (التقدم) بمدينة البليدة ، ومما جاء فيها من ذلك قوله :

---

(1) الديوان ، ص : 339 ، نشرت بجريدة المنار العدد : 9 ـ 5 أكتوبر 1951 وهي بها بعنوان (ياقوم هبوا لاغتنام حيا تكم) ، واكتفت كلمة تقديمها بالديوان في ذكر مكان وتاريخ نشرها ، باثبات اسم الجريدة والسنة ، دون ذكر العدد واليوم والشهر . بالاضافة الى ذلك حددت السنة بـ (1951) وهو خطأ .   (2) الديوان ، ص : 247 .

(3) الديوان ، ص : 29 ، ونشرت في الشهاب ج 9 م 11 رمضان 1354 هـ / ديسمبر 1935 ، وينظر المخطوطة ج 2 : 19 وهي بالمصدرين بعنوان (ألا أيها النادى تحية الشاعر) .

نداء سرى في ممعي ماسرى د مــــي ... فلبيت من قلبي صداه ومن فمـــي
نداء سرى كالكهرباء فهــز نـــــــــي ... وما هزني الا لحــفـل مكـــر م
وما هزنـي الا لنـــــــاد مبـــــارك ... يقل كأفـق أوجهـا مثـل أنجـــم

ولعلّه أصبح من الواضح أن هذه المناسبة ومثيلاتها عندالشاعر ليست مايراه بعض الدارسين من المناسبات التافهة الحقيمة [1]، وانما هي لديه موسم عظيم ، يقول عن ذلك فـــي القصيدة نفسهــا :

ويافتيــة النادى ســلا م ورحمـــــة ... وبشـرى فهذا اليوم أعظم موســم
رفعتم به رأس العـروبـة عاليــــــا ... وعدتم على الاسلا م فيه بانعـــم

ونذكر أن هذا الامتزاج بين (الأنا) و (نحن) في شعر محمد العيد لايقتصر على هذه الأعمال فقط ، وانما لمسناه في أكثر من عمل له ، ومن ذلك ما ألمحنا اليه في دراســة قصيدتيــه (أنشودة الوليــد) و (بــلا دى) [2].

الا أن الشاعر في الواقع لم يكن يكثر من استخدام ضمير المفرد المتكلم في شعره ، وليست تلك الظاهرة — في نظرى — ناجمة عن ضعف الصلة بين وجدانه وشعره ، وانمامردها الى ما استهربــه من نكران ذاته ، واستغراقه في ذات مجتمعه من جهة ، والى ملابسات بيئتــه التي كانت تقتضي في معظم الأحيان ضمور شخصية الفرد أمام شخصية الجماعـــة ، واختفاء المشاعر الذاتية وراء العواطف العامة من جهة ثانيــة .

وكان من نتائج ذلك أن كان الشاعر يلتجيء في كثير من الأحيان الى استخـــدام ضمير جماعة المتكلمين ، بطريقــة توحي للمتلقين بأنه يدمج مشاعره في مشاعر قومه ، وهــذا مايفســر أنه لم يكن ينطلق في ذلك الشعر من دافع ذاتي أناني ضيــق ، وانما كان يصدر فيه عن باعث داخلي موصول بوجدان الأمة يعبر عن احساسه بالوفاء برسالته النضالية .

ويمكن ملاحظة الفرق في هذا الجانب مابين الشاعر، وبين بعض المحدثين لما ألمعنا اليــه قبل قليل ، من اختلاف المناسبات ، وتباين البواعث النفسيــة الدافعــة الـــى النظم فيهــا من شاعر الى آخر .

وقد لاحظ الدكتور أبو القاسم سعدالله بهذا الصدد ما بين محمد العيد وحافــظ ابراهيم في هذه الناحية ، فهو يرى أن الشاعر (لم يكن ينظم الحوادث واليوميات والوفيات كما كان يفعل حافظ ابراهيم، ولكنه كان يحس وينفعل ، ويعيش مأساة الشعب . . ويترجم هذه الأحاسيس والانفعالات في شعر صادق نظيــف) [3].

---

(1) د . محمد حسين هيكل (ثورة الأدب) ، ص : 63 .
(2) ينظر ، ص : (273) و (257) من هذا البحث .
(3) ينظر (محمد العيد آل خليفة) ، ص : 147 .

ونميل أن لوكانت هذه الموازنة بين محمد العيد ، وشوقي في هذا المجال ، لكانت تكون أكثر دقة من اقامتها بين محمد العيد وحافظ ابراهيم ، لما بين هذين الشاعرين من أسباب التلاقي في بعض ظروف حياتيهما، وبعض جوانب شخصيتهما . وفي كثير من الدوافع التي كانت تحرك كلا يهما لقول الشعر في هذا المضمار . ومهما يكن من أمر ، فاننا لا نظن أن سعدالله كان يهدف بتلك المقارنة أن ينفي عن حافظ ابراهيم صدق مشاعره في كل ما نظم من شعر في المناسبات المختلفة ، بقدر ماكان يريد أن يثبت بذلك صدق هذه العواطف في معظم ما قاله محمد العيد في هذا المجال .

ويمكن القول بهذا الصدد أن نتاج الشاعر في هذا الباب ، وان كان في معظمه نابعا عن انفعالات صادقة ، فهو ليس على وتيرة واحدة ، في درجة حرارة تلك الأحاسيس ، وذلك بسبب ما ذهبنا اليه من قبل من اختلاف في طبيعة المناسبة ، وتباين الظروف النفسية التي يكون عليها الشاعر بين مرحلة وأخرى . وهذا ما نصّ عليه سعدالله نفسه ، حينما ميز بين نوعين من شعر المناسبات لدى الشاعر ، فلاحظ أن صنفا يرتبط بمناسبة لها مكانتها في قلب الشاعر ، فيأتي حيا معبرا . وأن ضربا آخر تدفع الشاعر اليه مناسبة لا تربطها بنفسه صلة قوية ، فيأتي باردا باهتا . ومرد ذلك في الواقع الى طبيعة العواطف التي تتحرك في هذا الشعر .

ولا يخفى أن الشاعر اذا ما افتقد الدافع الداخلي في نظمه لأيّ عمل كائن ماكان ، فان ذلك العمل يأتي خاليا من نبض الحياة باردا ، كما يتلاءم ذلك في بعض ما نظمه محمد العيد مجاملة لبعض الأصدقاء ، تهنئة أو تعزية ، أو تقريظا من مثل هذه الأعمال (هنيئا) (1) ـ (عزاء لتركيا) (2) ـ (تقريظ كتاب تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب) (3) وكما نص على ذلك بعض الدارسين في نتاج بعض المحدثين (4)

---

(1) الديوان ، ص : 393 ، قالها الشاعر في تهنئة صديقه الشيخ فرحات الدراجي ببنتيه التوأمين ، ونشرت في البصائر ، 10 جانفي 1937 . وينظر المخطوطة ج 2 : 65 . وقد أحس الشاعر بضعفها ، ووقف على ما فيها من أخطاء عروضية ، كان قد نبه اليها الشيخ موسى الأحمدي في كتابه (المتوسط الكافي في علم العروض والقوافي) ص : 166 ، فأقره الشاعر عليها . وكتب بخط يده في المخطوطة يطلب من جامع ديوانه ألا ينشر هذا العمل .

(2) الديوان ، ص : 470 ، نشرت في الشهاب ج 9م14 ، رمضان 1357هـ / نوفمبر 1938 ، ص : 156 ، وهي به بعنوان (أعزي تركيا) .

(3) نشرت بجريدة الاصلاح العدد : 13 ، 27 فيفرى 1930 ، وهي من شعره المجهول ينظر الملحق

(4) د . طه حسين (شوقي وحافظ) ص : 149 .

أما اذا كان ذلك نابعا من الذات ، فانا نلمسه — كما رأينا — في مواطن كثيرة من شعر الشاعر ، صدق تجربة ، وحرارة انفعال ، وانسجام تعبير ، كما تبدى ذلك خاصة في مولدياته وفي حولياته بنوعيها ، وفي قصائده في بعض أعلام الجزائر ، وفي بعض المناسبات الدينية ، ولعل توفر هذه السمات في شعر الشعر هي التي حملت بعض الدارسين على التنويه به ، فقال سعد الله عنه انه : (في جملته من أنجع شعر المناسبات في هذا العصر ، لما يتميز به من صدق ، وما يبشر به من آمال ، ولأنه لم يكن يريد به وجه أحد ، ولم يكن يطمع من ورائه في مال أو سلطان ، ولكنه كان يعبر به عما في نفسه من عاطفة متأججة ، وايمان بالشعب وآماله المشروعة) (1) .

ويقول بهذا الصدد الشاعر موسى الأحمدي نويوات :
(ان شعر محمد العيد ليس شعر المناسبات كما يتبادر الى الذهن ، انما اتخذ الملتقيات فرصا للتعبير عن آرائه ، وللاعراب عن عاطفته الجياشة ، والمبادئ التي آمن بها . فقضى مايقارب الستين سنة في الدفاع عنها) (2) . كما يمكن أن يصدق على نتاج الشاعر في هذا الميدان ما علل به الدكتور محمد مندور لظاهرة شيوع شعر المناسبة في نتاج أحمد شوقي ، بارجاعه ذلك الى طبيعة مزاجه وظروف حياته وحياة مجتمعه (3) .

يمكن أن ينطبق بعض ذلك على محمد العيد ، مع اختلاف بطبيعة الحال ، بين الشاعرين في البواعث وفي الأهداف ، بين ماننظم كل منهما في ذلك المجال .

وآية ذلك أن الشاعر وجد نفسه في وسط شعب ، يحكمه عدو غاشم بأيد من حديد ، فدفعه ذلك الى اغتنام بعض المناسبات ، يبدئ فيها القول ويعيد ، معبرا عما يساعد شعبه على النهوض والتحرير ، مما أضفى على نتاجه ، ونتاج معظم زملائه في هذا الباب لونا خاصا ، لصدوره منبعثه عن ذواتهم ، فأعانهم ذلك على أن يقطعوا أشواطا على طريق تطوير العملية الابداعية ، وتطويعها للتعبير عن حياة أمتهم . ويبرز ذلك بشكل واضح ، بعقد موازنات بين شعر هؤلاء ، وشعر من سبقهم في الجزائر بوجه خاص من شعراء أواخر القرن التاسع عشر ، هؤلاء الذين لم يكونوا ينظرون الى تلك المناسبات نظرة شعراء الاصلاح لها ، ولا كانوا يستهدفون منها أهدافهم، فجعل ذلك بعض الدارسين يميز بين شعر الفريقين وينص على أن أولئك الشعراء ، انما كانوا يقفون بما ينظمون في هذا المجال ، موقفا سلبيا لم يقو في أحيان كثيرة على ملامسة

(1) ينظر (محمد العيد آل خليفة) ص : 131 .
(2) من محاضرة له بمهرجان محمد العيد الشعري الثاني المقام ببسكرة مارس 1983 ، ص : 10 . بعث لي بنسخة منها في ماي 1983 .
(3) ينظر (فن الشعر) ، ص : 97 .

الأحداث المحيطة بهم ، بله أن يصبو الى تطويرها ، والاندماج فيها ، كما طمح الى ذلك ، وبلغ اليه في أحيان كثيرة شعراء الاصلاح (1).

ولعل بهذا يمكن القول أن كثيرا من شعر محمد العيد الذي واكب به أحداث البلاد ، لا يجوز تصنيفه من بين ذلك النتاج الذي حكم عليه بعض الباحثين بضعف الصلة بينه وبين الشعر الحقيقي (2).

وآية ذلك أن الشاعر ألفى نفسه في أتون صراع دائر بين شعب يدافع عن كيانه ، وبين عدوّ يريد أن يبتلعه ، فما كان منه الا أن وقف الى جانب شعبه ، يناضل من أجل هويته ، ويسهم في صنع مستقبله ، فجاء شعره لذلك سجلا صادقا للتطورات المختلفة التي مرّت بها البلاد خلال ما ينيف عن نصف قرن من الزمن .

ولا شك أن اتجاه الشاعر بنتاجه في هذا المسلك ، انما يعكس مفهومه لوظيفة الشعر ، ورسالة الشاعر في المجتمع ، وهو مفهوم قديم ، فقد تحقق أن الشاعر الجاهلي كان يحس أنه صاحب رسالة نضالية واقعية فكان بذلك يقف الى جانب قبيلته ، يذود عن شرفها ، ويسهم فيما تطمح الجماعة الى تحقيقه في واقعها من مثل اجتماعية وانسانية (3).

ولما جاء الاسلام كان شعراء الدعوة الاسلامية هم أحسن من تبنى هذه الرسالة ، بتسخيرهم فنّهم للدفاع عن الدين الجديد ونصرة صاحبه في صراعه ضد المشركين .

واستمر هذا المفهوم لوظيفة الشعر ماثلا في أذهان ، وفي نتاج كثير من الشعراء على امتداد عصور الأدب العربي . ولعل من أبرز من تمثل هذا الدور ، واتخذ من شعره بناء عليه ، أداة للمنافحة عن العقيدة الاسلامية ، ووسيلة من وسائل الصراع ذودا عن كيان الأمة ، كوكبة كبيرة من شعراء الحروب الصليبية (4) ، ونفر غير قليل من الشعراء في العصر الحديث ، هؤلاء الذين فتحوا أعينهم على الحياة فوجدوا أمتهم بين مخالب أخطبوط الاحتلال الأوروبي ، تغالب أطماعه ، وتدفع عن نفسها شرّه ، فما كان منهم الا أن ارتموا في خضم ذلك الصراع ، يذودون عن كيان أمتهم ، ويدفعون عنها كيد أعدائها ، ويرسمون الطريق أمامها نحو النهضة والتحرر ، فطبع ذلك شعرهم بطوابع النضال والالتزام (5).

---

(1) د . أحمد شرقي (الشعر الوطني الجزائري) ، ص : 135 .
(2) د . محمد حسين هيكل (ثورة الأدب) ، ص : 55 .
(3) ينظر د . موهوب مصطفاى (المثالية في الشعر العربي) ص : 36 وما بعدها .
(4) ينظر د . عمر موسى باشا (أدب الدول المتتابعة) ص : 465 وما بعدها .
(5) ينظر د . شوقي ضيف (في النقد الأدبي) ص : 196 .

ويقول الشاعر بهذا الصدد :

(ان المجتمع في تلك الفترة فرض علينا أن نطرق مواضيع معينة ولذا جاءت أشعارنا توجيهية تربوية اجتماعية) (1) .

ويلمح في شعره الى هذه الرسالة التي كان ينهض بها أيام الاحتلال الأجنبي ، فيقول :

جعلت الشعر في الدنيا نجيبي — فكان لخاطري كالترجمان
ولم أكفف عن استنهاض شعبي — به لآراه في أعلى مكان
لذاك رجوت أن يبقى كذخر — لشعبي رافع للذكر باني (2)

ويؤكد ذلك مرة أخرى في معرض حديثه عن شعره فيقول :

وقفت على الشعب جهدي به — وكرست عمري الى الآخر
فديوان شعري بمرآته — جلا غابر الشعب للحاضر
أقدمه مشعلا ثاقبا — الى شعبي البطل الثائر
ليسمى على ضوئه هادفا — الى المجد في ركبه السائر
هدية من بهوى شعبه — تتيم مذ فطرة الفاطر (3)

وواضح أن هذه الأبيات تبرز اندماج الشاعر في واقع مجتمعه ، وانتهاجه في معالجة أدوائه نهجا واقعيا استمدّه من ظروف محيطه وأحداث بلاده ، ولم يكن متأثرا فيه بأية واقعية ، مهما تكن من ذات اليمين ، أو من ذات اليسار . ويمكن القول أن الشعر الجزائري المعاصر قد أوشك أن يفقد هذه الخاصية وهذا التوازن المشار اليه على أيدي عدد غير قليل من المنتجين .

وتحسن الملاحظة بهذا الصدد أن انضواء الشاعر تحت لواء الحركة الاصلاحية ، ووقوعه تحت جاذبية بعض شيوخها ، قد ترك في نفسه بعض ما جعله يصدر في معظم شعره عن رؤية للحياة ، مشدودة الى الفكر الاصلاحي ، الأمر الذى عمق في ذهنه المفهوم النضالي لرسالة الشعر . فأصبح ينظر الى هذه الرسالة بنظرة المصلحين اليها ، هؤلاء الذين كانوا يرون أن الشعر يفعل فعل الخطابة في النفوس ، يقول أحدهم : (الشعر صنو الخطابة في تحريك الشعور واثارة العواطف وايقاظ الهمم وتوجيه الشعور) (4) .

---

(1) ينظر الشعب الأسبوعي ، 28 أكتوبر 1976 .
(2) من قصيدته (فاتحة ثناء وابتهال) ، الديوان ص : 3 .
(3) من قصيدته (الاهداء) الديوان ص : 5 .
(4) ينظر د . محمد ناصر (الشعر الجزائري الحديث ــ اتجاهاته وخصائصه الفنية) ص : 486 نقلا عن البصائر العدد : 179 ، 7 جانفي 1952 .

ومن هذا المنطلق كان المصلحون ينظرون للشعر على أنه وسيلة من وسائل الكفاح ، وكانوا لذلك يحثون الشعراء على أن يتجهوا بأشعارهم في هذه الوجهة .

يقول الشاعر عن الدور الذي كان يقوم به الامام ابن باديس خاصة في هذا المضمار :

كان عبد الحميد في الرأي قطبا — مرشدا للعقول والافهام
مثل (عبد الحميد) (1) خطط منهـ — ـاجا قويما لقادة الأقلام (2)

ويمكن القول أن الشاعر كان ينطلق في شعره — الى جانب تأثره بمفهوم شيوخه لرسالة الشعر — من قناعة ذاتية ، لأنه كان واحدا من هؤلاء المصلحين يشبههم في الفكر وفي السلوك وفي الذوق .

* * *

وقد ترتب على اتجاه الشاعر بشعره في هذه الوجهة الوظيفية ، ظاهرة فنية طبعت أسلوبه بطابع الوضوح والجهارة والمباشرة والتقريرية ، وما الى ذلك من سمات الأسلوب الخطابي التقريري (3) .

وفي الحقيقة فان هناك مجموعة من العوامل تظافرت لتحمل الشاعر على أن يصب تجربته في ذلك القالب الفني الذي اختار أن يصبّها فيه ، ويأتي في مقدمة ذلك : ثقافته ، واحتذاؤه للنموذج الفني القديم ، وتأثره بشيوخه في مذاهبهم الفنية ، والتزامه بظروف مجتمعه ، ومراعاته الغاية التي ينشدها من هذا الشعر ، والجمهور الذي يتوجه به اليه (4) .

فقد رأينا أن ثقافة الشاعر كانت قائمة في معظمها على التراث ، وعلى العقل ، وهي لذلك أقرب الى الدراسات العلمية الموضوعية القائمة على الوضوح منها الى أيّ نوع من أنواع المعرفة الفنية . كما أنه لم يفد الافادة اللازمة من التجارب الأدبية الحديثة لعدم اطّلاعه اطّلاعا مباشرا على الآداب الأجنبية . وكان الى جانب ذلك ، يستقي ذوقه الفني من ذوق شيوخه ، الذين كانوا يؤثرون القيم الفنية التقليدية ، بما تشتمل عليه خاصة ، من يسر التعبير ، وقرب الخيال ، وجهارة الايقاع . وكان هؤلاء في الوقت ذاته — وهم يمثلون الحركة النقدية في البلاد يومئذ — يطرون الشاعر ويظهرون اعجابهم بفنه ، فشجعه ذلك على التشبث في شعره بتلك الخصائص ، والاستمرار في نسجه على ذلك المنوال .

---

(1) هو عبد الحميد الكاتب من أبرز أعلام الكتاب في العصر الأموي توفي 132 هـ .
(2) الديوان ، ص : 498 .
(3) د . محمد ناصر (الشعر الجزائري الحديث اتجاهه وخصائصه الفنية) ص : 210 .
(4) د . سعد الله (محمد العيد آل خليفة ...) ص : 66 .

وكان الشاعر بالاضافة الى ذلك ، يعيش الى جانب شعبه ما يدور بينه ، وبين عدوه من صراع وقتال ، فاقتضى منه ذلك أن يكون صاحب رسالة نضالية ، وأن يوظف شعره للنهوض بتلك الرسالة ، فانعكس ذلك على اهتمامه بالموضوع ، أكثر من عنايته بالناحية الفنية . ولا شك أنه يكون كذلك ، متأثرا بالمفهوم الاسلامي للأدب . ولا يخفي أن الأدب في الحياة الاسلامية — كما ينص على ذلك بعض الدارسين — ليس (تنفسا فنيا مجردا عن كل غاية ، وانما هو تنفس له غاية في نطاق مصلحة الجماعة)[1].
كما استوجبت منه تلك الرسالة الشعرية من ناحية أخرى أن يراعي الحظوظ الثقافية والأذواق الفنية للمتلقين الذين يتوجه اليهم بشعره ، ويمثل معظم هؤلاء جمهورا يعاني من علل كثيرة اجتماعية وثقافية ، فكانت لذلك حاجته الى من يعالج أسقامه ، أكثر من حاجته الى من يرفه عنه ، وكان يعيش أوضاعا خاصة لا تسمح له بالتفاعل اللازم مع الابداع الفني ، حتى يصل الى الخفي من المشاعر ، والغامض من الصور فيه . كان الجمهور في شغل عن ذلك بما يكابد من قهر ، وبما يدفع عن نفسه من خطر ، وكان أقصى ما يطالبه في هذه الحالة من أدبائه — وهم جنوده — أن يسارعوا الى نجدته بما بين أيديهم من أدوات فنية ، فيسهمون بها لدفع كابوس الاحتلال الجاثم على صدره .

ونحسب أن الذي لايختلف فيه اثنان أن ما يليق ببيئة ، ينعم فيها الناس بحياة الدعة والاستقرار ، من ألوان الفن قد لايليق ببيئة أخرى يغالب فيها الناس أسباب القهر والخطر .

وقد تفطن النقاد العرب القدامى الى أثر البيئة في الشعر ، فصنفوا مؤلفاتهم على هذا الأساس[2] . وان تعليل ابن الرومي لما جاء في شعر (ابن المعتز) من ظواهر فنية ، بأثر بيئته الخاصة ، شائع في أوساط الكتّاب والشعراء[3] .

وقد أدرك الشعراء الجزائريون هذا الأثر فقال أحدهم : (لو أن شوقي أوحافظ أو معروف الرصافي نشأوا في وطننا ، وتعاطوا التعلم في مدارسنا ، لما كانوا أشعر من أحمد الغزالي أو الأمين العمودي)[4] .

ويمكن القول على هذا الأساس أن ما أشار اليه الدكتور محمد مندور وهو يتحدث عن فنّ الأسلوب لدى بعض الكتّاب من أن الأسلوب الواضح من شأنه أن (يترك القارئ في موقف سلبي)[5] . ان هذا الحكم لايصح أن يطلق على علاته في جميع الأحوال ، وفي

(1) د . شكري فيصل (المجتمعات الاسلامية) ص : 325 .
(2) من أبرز النقاد وأسبقهم الى هذا المنهج محمد بن سلام الجمحي المتوفي سنة 231 هـ . وذلك في كتابه (طبقات الشعراء) .
(3) ينظر أحمد حسن الباقوري (أثر القرآن الكريم في اللغة العربية) ص : 31 .
(4) هو الشاعر الجنيد أحمد مكي . ينظر (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) ج 1 : 96 ، السنوسي .
(5) ينظر (في الميزان الجديد) ص : 22 .

جميع البيئات ، ولا يمكن أن ينطبق على جمهور الشاعر وهو يحيا تلك الحياة التي عرفنا ، ولعل العكس هو الذي يؤدي الى تلك النتيجة ، التي نص عليها ذلك الناقد ، في مثل مجتمع الشاعر . لأن من البديهي أن من لا يدرك مرادك لا يستجيب لك ، ولا يطول الوقت حتى يتحوّل عنك الى غيرك . واذن فقد ساعدت عوامل مختلفة على أن يعمد الشاعر الى صياغة تجاربه الشعورية في قالب فني بسيط في معانيه ، واضح في أسلوبه ، قريب في خياله وهو يفعل ذلك حتى يوائم مابين شعره ، وبين الموقف الذي ينشد فيه ، وبينه ، وبين الغاية المتوخاة منه .

ان الشاعر كان ينظم معظم هذا الشعر للالقاء ، فكان لذلك يجهد نفسه ليوفر في شعره أسباب التأثير على المتلقين باثاره فيه ، الالفاظ الجزلة القوية ، والتعابير الواضحة الرنانة ، التي تهز القلوب ، وتشحذ العزائم ، وتحفز الهمم ، حتى لا يكاد يحفل فيه في بعض الأحيان بما يتميز به الأسلوب الشعري ، من لغة موحية شفافة ، وصور معبرة جميلة ، وايقاع موسيقي عذب .

ويحسن ألا يفهم من هذا أن الشاعر كان يجهل طبيعة العمل الفني وما يقتضيه من جمال وجلال ، يكون مبعث جانب كبير منه ، ناجما عن استخدام المبدع ، للغة استخداما مكثفا ، يميل فيه الى الافادة مما تتمتع به الألفاظ ، والتراكيب من دلالات ايقاعية ، وتصويرية ، وايحائية ، دون أن يقتصر في ذلك على الجانب المعنوي فحسب . وقد جاء في شعره ما يلمح الى شيء من ذلك ، مثل قوله :

انما الشعر ريشة	كل نفس لها وتر
انما الشعر لوحة	غير محدودة الصور (1)

وكان الشاعر يلفت نظر تلامذته الشعراء الذين تعلموا صناعة الشعر على يديه الى هذه الحقيقة ويوجههم في هذا الاتجاه (2).

كما ان اختيار الشاعر لتجاربه ، ذلك الأسلوب المميز بخصائصه الخطابية ، لايمكن أن يعني أنه لم يكن يملك القدر الكافي من الحاسة الفنية التي يساعده على الارتفاع بفنه الى مستوى أكثر من المستوى الذي ظهر فيه . يؤكد ذلك ما استطاع أن يحققه من السمو الفني في بعض الأعمال التي كان يتوجه فيها الى الخاصة كحولياته في جمعية العلماء ، هذه التي كان يميل فيها الى شيء من اظهار القدرة اللغوية ، والتجويد الفني الى حد ، قد يؤدي به في بعض الأحيان الى الاغراب في معجمه

---

(1) الديوان ، ص : 402 .
(2) أفادني بهذه المعلومات أحد تلاميذه وهو الشاعر أحمد بوعدو .

اللغوى ، مما يجعل المتلقي العادى يحتاج الى جهد للوقوف على أسرار ألفاظه ، والأمثلة على ذلك كثيرة في شعره . بينما نراه في بعض قصائده التي يتوجه بها الى العامة ، في مناسبات مختلفة ، يتعمد اليسر والسهولة والمباشرة ، حتى يلائم بذلك بين فنه ، وبين جمهوره ، وقد جذب اتجاه الشاعر بفنه نحو السهولة والتبسيط انتباه بعض زملائه ، وهو الشاعر جلول البدوى فلفت نظره اليه ، فكان من رده على ذلك : أنه صاحب رسالة ، وأن من يقف موقفه من قضايا شعبه ، يحسن به أن يراعي في فنه ملابسات هذا الموقف .

واذن فان حياة الشاعر ، وحياة مجتمعه ، والأهداف التي يتوخاها بشعره ، أن هذه العوامل هي التي أوحت اليه بذلك المذهب الفني الذى صاغ فيه تجاربه الشعورية ، وهي التي جعلته من ثم ، يؤثر في شعره قيمة التوصيل ، على قيمة الجمال .

وفي الحقيقة فان اتجاه الشاعر في هذا المسلك ، قد حدّ في أحيان كثيرة من قدرته الابداعية ، ومن موهبته الشعرية وكان ذلك الميل منه بالنزول بفنه الى مستوى جمهوره كثيرا ما يكبل تدفقه ، وحرارة عواطفه ، فيأتي شعره وعليه مسحة من الرتابة والنثرية والتقريرية .

وكان افراطه في بعض الأوقات في استخدام مثل تلك السمات كالوضوح والجهارة وايثاره الدلالة المعنوية دون غيرها ، أن جعل لغته تأتي أحيانا جافة محددة ، تفتقر الى كثير من الرواء والشفافية والتكثيف ، هذه الخصائص التي تعدّ من أبرز ما يميز لغة الشعر عن لغة غيره . ويظهر ذلك الضعف في لغة الشاعر خاصة ، في الأعمال التي تكون صلتها بقلبه ضعيفة ، كأن يكون في غير وقت الشعر ، أو تكون نفسه فارغة من البواعث الداخلية التي تحمل عليه . ولكنه يدفع اليه من الخارج بدافع من الدوافع المختلفة ، فيكره حينئذ نفسه على النظم فينظم شيئا ، فيأتي على قدر استعداده باردا ضعيفا ، كما نرى ذلك في مجموعة غير قليلة من أعماله كان الدافع اليها مثل ما ذكرنا .

ومهما يكن من أمر ذلك فان اهتمام الشاعر بالموضوع ، ومراعاته لملابساته ، ونزوله بفنه الى المستوى الذى نزل اليه ، لم يؤد به ذلك الى اهمال الناحية اللغوية في شعره ، بل على العكس من ذلك فقد أظهر عناية فائقة في المحافظة على صحة اللغة وسلامتها وجزالتها وتماسكها . الأمر الذى مكنه من أن يحرّر لغته من كثير ، مما كانت ترسف فيه اللغة لدى المتأخرين من عوامل الضعف والتكلف والتصنيع ، وسمح له في الوقت ذاته بأن يسمو بها عن مظاهر الركاكة ، والابتذال والعامية وما الى ذلك مما انحدرت اليه اللغة الشعرية على أيدى بعض من

جاء بعد جيل الشاعر ممن يحاول النظم في الجزائر[1] وهو من هذه الناحيـــة يختلـف عن كثير من دعاة التجديد الزائف ، أولئك الذين استطاعوا أن يسيئوا عن طريق اختفائهم وراء أقنعـة الاهتمام بالموضوع ، الى اللغة العربية ، ويساعدوا بقصد أو بغير قصـد على النيـل منهـا[2].

وقد عبر الشاعر عن موقفه من قضيـةاستخدام اللغة في الأدب عموما ، فـي احدى خطبه ، وهو موقف يتلاءم مع مذهبه المعتدل الثابت ، الذي أخذ به في كثير من القضايا ، التي واجهته في حياته ، ويبدو ذلك في معارضته لاستخدام العامية فـــي الأدب من جهة ، ودعوته الى تبسيط الفصحى من جهة أخرى ، ولم يترك دعوته هـــذه محصورة في مجال النظر فحسب ، وانما طبقها عمليا في شعره ـ كما رأينا ـ باتهاجـــه فيه منهـج التبسيـط والتيسـير .

وقد يظن بعضهم أن هناك شيئا من التناقض ، بين ما ينزع اليه الشاعر من ميل الى تبسيـط فنه ، بهدف الاقتراب فيه من جمهوره ، وبين ما يصطنع فيه من لغة وتعابير ، يغـترفها بكلتـا يديه من معجم الشعـر القديم . وفي الحقيقـة فان النزعتين تتكاملان لتحقيق هدف واحد وهو النهوض بالمجتمـع في اطار من المحافظـة على لغته ، بربطها بالتراث الذي يصونهـا مما يستهدفها من أخطار . وقد ازداد الشاعر في أواخـر حياته ميلا الى اليسر والى الـقـرب في لغته ، كما يعكس ذلك معظم شعره لهذه الفـــترة . ويمكن أن يكون مردّ ذلك لكبر سنّه ، وما يترتب عنه من ضعف في القدرة الابداعية ، كمـا يمكن أن يكون شيء من ذلك ناجما عن ادراك ووعي لما أصبحت تتمتـع به اللغة تحـت راية الحرية من مناعـة وحصانة لا يخشـى عليها في ظلها ، مما كان يخشى عليها منـه ، في غيابها من أخطـار .

وما نودّ أن نلفت الانتباه اليه أخيرا بهذا الصدد أن الشاعر لم ينفرد بهذا المنهج في شعره من بين شعراء عصره ، وانما كان ذلك ظاهرة عامة ، يشاركه فيها معظم شعراء مدرسته في الجزائر ، وفي غيرها من البلاد العربية ، لوجود هؤلاء في وضع اجتماعـــي وسياســي متقارب الى حدّ ما ، فرض عليهم من ناحية ، مواكبة الأحداث المتعاقبة السريعة ولم يتح لهم من ناحية أخرى ما يتطلبـه التجويد الفني من أسباب التأمل واستبطـان النفس والاستغراق في مشاعرهـا . وبالرغم من ذلك فقد استطاع هؤلاء الشعراء أن يصوروا في نتاجهم بيئاتهم ، ويواكبوا تطورات أحداثها ، ويعكسوا صدقهم ووفاءهم بالتزاماتهم نحو الوجدان الجماعـي لأمتهم .

(1) ينظر د . محمد ناصر (الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية) ص : 280 .
(2) ينظر نازك الملائكة (قضايا الشعر المعاصر) ص : 296 .

واذا كان النقد الموجه الى هؤلاء الشعراء ينحصر في أنهم كانوا يعكسون في شعرهم ما يجرى في مجتمعاتهم بأساليب المتقدمين ، فان ذلك في الواقع كان من أثر المرحلة التي كانوا يعيشون فيها ، وهو لم يفقدهم — على كل حال — أصالتهم، بل كان على العكس من ذلك ، من الضمانات الأساسية في هذا الجانب لهم ، ولمن اقتفى أثرهم من بعدهم وانفتح أكثر منهم على التجارب الانسانية من شعراء المدارس الحديثة ، هؤلاء الذين تحقق على أيديهم التطور المنشود للشعر العربي الحديث في ظل محافظتهم فيه على الأصالة ، ومسايرتهم فيه بآن لمتطلبات العصر من حولهم ، في الوقت الذى عجز فيه عن بلوغ ذلك من ضعفت صلته بتراث أمته من دعاة التجديد غير الأصيل ، وسقط في دائرة الاستيلاب الفكرى والأدبي الأجنبيين ، فأصبح بذلك يصدر في نظمه أو يكاد عن روئية مستوردة ، وذوق أجنبي ، وأدوات مستعارة .

ويوضح لنا ذلك أن الشاعر الحقيقي الذى يمكنه أن يعكس بصدق حياة قومه ، هو ذاك الشاعر الذى يتمثل قبل كل شيء تراث أمته فيحصن به نفسه ، ثم يعمّق من بعد ذلك ، معرفته بما شاء من مختلف فروع المعرفة الانسانية .

ونأتي في نهاية هذا الحديث الذى حاول أن يسلط بعض الأضواء على شعر المناسبات في نتاج الشاعر ، ويعلل لبعض وجوه الصياغة الغالبة على مذهبه الفني ، الى خاتمة هذا الفصل مسجلين فيها ما يمكن استخلاصه مما دار حوله النقاش في مختلف فقراته من ملاحظ :

1 — كان الشاعر يصدر في معظم شعره في هذا الفصل عن ايمان قوى بطاقات الاسلام الروحية والمادية ، وتبدو تلك الروئية واضحة فيما أرشد اليه من فضائل وفيما دعا اليه من وجوه التكافل الاجتماعي ، كما تتبدى تلك النظرة في توجيهاته الى الشباب ، وفي موقفه من المرأة ومن دورها في المجتمع .

2 — كان يدعو قومه بدعوة الاسلام ، وهو يحثهم بالانفتاح عن الحياة ، والأخذ بأسباب الحضارة والتقدم ، ويوازن في هذا المجال بينهم وبين غيرهم حتى يكشف لهم عن مدى تخلفهم، ويعمل في الوقت ذاته على حفز هممهم للحاق بركب الأمم المتقدمة . ونلمح بهذا الصدد أن الشاعر لايقتصر على التشخيص للأدواء الاجتماعية فحسب، وانما يردف ذلك بوصف العلاج الملائم لها ، فيلفت نظر قومه الى الأسباب التي يمكن أن تساعدهم في عملية الخروج من طور الاحتلال والتخلف الذى هم فيه يتخبطون ، الى طور الحرية والتقدم الذى اليه يطمحون . ولا يفوته أن يقرب دعوته هذه الى قومه بالمعاصرة ، بدعوته اياهم الى التمسك بما يضمن لهم أصالتهم، حتى لايمس ذلك الانفتاح المنشود على تجارب الآخرين ، قيم الأمة ومقومات شخصيتها .

3 ــ يبدو محمد العيد في هذا النتاج قوى الايمان بالله ، شديد الثقة به ، ممــا ساعده على القيام بر سالته الاجتماعية ، ونفســه مفعمة بالأمل ، متفائــل بمستقبل أمته ، حريص على التمكين لهذه الأحاسيس في نفوس أفرادها . وهو وإن انتابتــه في بعض الفترات ــ لشدة تأثره بما يجرى في مجتمعــه ، وعدم قدرته على التــلاؤم معــه ــ بعض مظاهر الــضعف الانساني فركــن الى العزلة ، فان ذلك لايبلغ بــه لإيمانه القوى الى درجة تمني الموت ، أو القائه أسلحة الجهاد ، وإغلاقه أبوابه في وجوه الناس كما فعل ذلك بعض الشعراء [1] . بل قصــارى ما كان يقوم به كردّ فعل عن ذلك أنه كان يسكت ويترك المجال فسيحا للنضال أمام غيره ، ريثما يزول عــن نفسه ذلك الاحساس بالضعف ، ويستأنف دورة جهاده ، كما يعكس ذلك شعره الذى نظمه في الفترة الممتــدّة مابين نهاية الحرب العالمية الثانية ، واندلاع الثورة التحريرية ، والذى كتبــه في أعقــاب الاستقــلا ل .

4 ــ ويمكن القول أن الشاعر استطاع بتلك النظرة ، وبذلك التناول لبعض القضايــــا الاجتماعية ، أن يعبر عن معاناته واقع مجتمعه ، ومسايرة تطور نهضتــه . وأن يسهم بنصيبــه في ايقاظ الوعي الاجتماعي ، وتنميــة الحس الوطنــي ، بما يمكن أن يكــون قد ساعد على تعميق احساس الفرد والمجتمع بالأخذ بمبدإ الجهاد في هذه الحياة ، ومسايرة تطورات العصر لضمان التحرر والانعتــاق .

5 ــ وقد أبدى الى جانب ذلك وعيا واضحا بعمله الفني ، وهو ينهض بهذه الرسالة الشعرية ويتجه بها نحو جمهور كان حظه من التربية الفنية بسيطا ، ويهدف بها الــى تحقيق غايات نضالية أكثر مما يرمي بها الى مقاصد فكرية أو جمالية ، وقد تجلّى ذلك الوعي خاصة في حرصه على توفير شــيء من المواءمــة ما بين طبيعة هذه التجربة الشعورية ، وبين خصائص الصورة الفنية المعبرة عنهــا . مما يكشف عنه ميلــه في ذلك الشعر الى البســاطة ، في معانيــه ، والسهولة في أسلوبه ، والقرب في صوره ، فسمح له ذلــك بالبلوغ فيــه الى معظم مراميــه منــه .

ونخلص مما تقدم أخيرا الى القول بأن الشاعر بدا في هذا الفصل حريصا علــى توظيــف امكانياتــه الفنيــة لاستنهاض بني وطنــه ، وتدعيم موقفهــم في الدفاع عــن شخصيتهم الفردية والاجتماعية ، بتمكينــه للعقيدة الاسلامية في نفوسهم ، وحثه اياهم على التحلّي بما ترشد اليه هذه العقــيدة من قيم وفضائل ، والاقبال عما تدعــو اليه من علم وعمــل ، والأخذ بما تحث عليه من جهاد وثورة . الا أن الذى يمكن ملاحظته بهذا الصدد ، أن ذلك الحرص لم يقــف بالشاعر وهو يمزج ما بين شعوره

(1) من أبرز هؤلاء شاعــر المعرة أبي العلاء

الديني ، واحساسه الوطني في نطاق هذه الدائرة المحدودة بحدود وطنه الصغير، وانما تعدى بعملية المزاوجة تلك ما بين ذينك الشعورين في نفسه ، الى ما أبعد من محيطه القريب ، فظهر ذلك في مظهر آخر ، يتمثل فيما سنشاهده في الفصل التالي من تلاحم ما بين ذلك الاحساس الديني ، وبين شعور الشاعر بما يجرى في وطنه الكبير ، ومعاناته لما تعيشه أمته العربية الاسلامية ، ذودا عن مقوّمات شخصياتها ودفاعا عن قضاياها وأحداثها . . .

الفصل الرابع

التعاطف مع قضايا الأمة والذود عن مقوماتها الشخصية

انتهى البحث في الفصل السابق الى التأكد من أن الشاعر كان قد سخر فنه للنهوض بالشخصية المعنوية والمادية للمجتمع، وذلك بدعوته الى مايدعو اليه الاسلام من تجمل بالفضائل، وأخذ بأسباب العلم والعمل، وركوب مخاطر الجهاد، واقبال على الحياة وطلب المجد والعز فيها.

وحضه في الوقت نفسه على اجتناب ما ينهى عنه هذا الدين من أسباب الضعف والخور، وعوامل التفرقة والشقاق، على أن يكون له من كل ذلك ما يمكنه من مجابهة الأعداء وتحرير البلاد.

الا أن الذي يمكن ملاحظته بهذا الصدد أن الشاعر لم يكن مقتصرا في هذه الاهتمامات على حدود وطنه الصغير، وانما كان يتشوق فيها الى أبعد من ذلك فيتعاطف مع أمته العربية الاسلامية في قضاياها وأحداثها، ويذود عن شخصيتها ويبشر بمستقبلها. وكان هذا الشعور في نفسه مزدوجا يجمع ما بين العروبة والاسلام، فلم يكن عربيا صرفا، ولا اسلاميا صرفا، وانما كان عربيا اسلاميا في آن واحد، وهو لاينفرد بهذه الميزة وانما يشاركه فيها معظم شعراء وكتاب مدرسته في الجزائر، وفي معظم البلاد العربية، وتعد هذه الخاصية في الحقيقة امتدادا لمفهوم القدامى لما بين العروبة والاسلام من صلات التكامل والاتحاد كالصلات القائمة بين العناصر المكونة للحضارة العربية الاسلامية.

ومن هنا كان الشاعر ينظر الى هذين المقومين على أنهما عنصران متداخلان متشابكان تداخل وتشابك العوامل التي تؤلف التراث العربي الاسلامي عبر العصور. ويؤكد الشاعر على هذه الحقيقة في بيت يخاطب به ناشئة الجزائر مؤكدا لهم بأنهم هم الورثة لما بين أيديهم من تراث أمتهم العربي الاسلامي:

أنتم خلائفنا على ميراثنا ... وتراثنا العربي والاسلامي (1)

ويؤمن الشاعر أن العروبة انما هي الأرومة والمحتد، وأما الاسلام فهو الرابطة التي لا ترقى الى درجتها رابطة أخرى غيرها:

الملّة السّمحاء آصرة لنا ... فوق الأواصر والعروبة مولد (2)

وما كان يمكن أن ينتظر من شاعر كمحمد العيد تشبع بروح الاسلام والعروبة صبيا، وتفاعل مع أحداثهما يافعا، وعاش هجمة الغرب الصليبية على تراثهما المشترك وحضارتهما الواحدة في الجزائر وفي غيرها من أقطار الأمة العربية الاسلامية، ما كان ينتظر من شاعر مثله

---

(1) الديوان، ص: 440.   (2) الديوان، ص: 229.

أن يقف الا ذلك الموقف الذى يمزج فيه مزجا واضحا ما بين العروبة والاسلام حتى ليوشك أنه ما كان يذكر واحدا من هذين المقومين الا ويذكر بجانبه المقوم الآخر، ويمكن للمرء أن يعثر على شواهد كثيرة عن ذلك في شعره في مراحله المختلفة، وفي كثير من موضوعاته وأغراضه .

يلحظ ذلك في حديثه عن نفسه ، وعن مواطنيه ، وعن بلاده ، وعن بعض قضايا الأمة العربية ، وبعض مقومات شخصيتها .

ومما جاء من ذلك في شعره وهو يتحدث عن شخصيته قوله :

يسائلني عن نسبتي كل وافد ... عليّ وعن شعري وعن كنه مطلبي
فقلت لهم أرض العروبة موطني ... وديني هو الاسلام، والقدوة النبي (1)

واذا كان الشاعر قد قدّم العروبة على الاسلام في البيتين السابقين فانه يعمد الى تقديم الاسلام على العروبة في حديثه عن مواطنيه فيقول :

تؤلفنا الملّة المرتضا ... ة ، وتجمعنا رحم العروبية (2)

ونحسب أن في الكلمة (المرتضاة) بعض ايحاء ، فلربما يكون الشاعر أراد أن يرمز بها ، وقد وصف بها (الملّة) الى أن اقبال الجزائريين على الدين الاسلامي انما كان عن رضى وأنهم كما رضوا به بالأمس دينا لهم ، فانهم سيظلون متمسكين به شريعة لهم . ويكاد مضمون هذا البيت يذكرنا ببيت الشيخ ابن باديس الشهير وهو قوله :

شعب الجزائر مسلم ... والى العروبة ينتسب (3)

الا أن بيت الشاعر أسبق على هذا البيت .

واذا كان لابدّ من تعليل لذلك التقديم ، وذلك التأخير ما بين العروبة والاسلام في النصين السابقين ، فانا نحاول أن نتلمس ذلك في عامل الزمن ، وما يكون لذلك من أثر في تطور فكر الشاعر ونظرته الى الأمور من حوله .

ان الشاعر قدم الاسلام على العروبة في فترة مبكرة من حياته ، فالبيت الأخير مأخوذ من قصيدته (صرخة ثورية) وقد نظمها سنة 1932 ، وفي هذا الوقت كانت الحركة الاصلاحية على أشدّها ، وكان الشاعر منغمسا في صميمها ، يعيش حياتها ويحيا أفكارها ، وكان الاسلام من أقوى دعائم هذه الحركة فيما تدعو اليه من نهضة ، وفيما تهدف اليه من تحرير . وكانت الأفكار القومية ما تزال آنذاك لم تتبلور في الأذهان

---

(1) الديوان ، ص : 548 ، من مقطوعة بعنوان (يسائلني) .
(2) الديوان ، ص : 417 .
(3) من قصيدته (تحية المولد الكريم) نشرت في المنهاج ج 4 م 13 ربيع الثاني 1356هـ 1937 م ، ص : 200 .

ولم تأخذ مكانها الحي ستأخذه في الفترة اللاحقة التي شهدت ميلاد عمل الشاعر الذى تقدمت فيه العروبة على الاسلام . وقد نظم الشاعر ذلك العمل في أواخر حياته ، وكان في هذه الآونة واقعا تحت تأثير بعض المؤثرات القومية في أعقاب حصول الجزائر على استقلالها وقيامها بتوطيد أواصر الأخوة بشقيقاتها في الوطن العربي الذى كان يشهد يومئذ مدّا قوميا سياسيا واضحا أوشك أن يغلب على سواه من التيارات في الساحة العربية .

وكما رأينا الشاعر يمزج ما بين العروبة والاسلام في حديثه عن نفسه فكذلك نراه يمزج بينهما في حديثه عن بلاده الجزائر ، فهي في نظره :

انما تربة الجزائر معهد عبقريّ لثورة العظماء
وهي أرض الاسلام ذي المبدا السمح وأرض العروبة العرباء (1)

ويعزف على الوتر نفسه في حديثه عن دولة الجزائر المستقلة فيقول :

فلتحي دولة شعبنا عربية عرباء ، اسلامية الأحكام (2)

وان ايمان الشاعر القويّ بتمازج هذين العنصرين لايقف به عند هذه الحدود الوطنية الضيّقة ، وانما يتعدّى ذلك ليشمل به بعض البلاد الشقيقة ، كما يعكس ذلك قوله في هذا البيت :

ما أمّة السودان الا أمّة عربية وكتابها القرآن (3)

ويتبدّى هذا المفهوم أيضا في نظرة الشاعر الى الوحدة المنشودة التي يجمع فيها بين فكرة الجامعة الاسلامية التي نادى بها روادالاصلاح في العالم العربي الاسلامي في فجر النهضة الحديثة ، وبين بعض الأسس التي بنيت عليها الجامعة العربية التي نجح الأجانب في اقامتها على أنقاض الفكرة السابقة مستهدفين بذلك احداث انقسام في وحدة العرب والمسلمين ، وزرع أسباب الشقاق والخلاف بينهم حتّى يتسنّى لاولئك الأجانب اضعاف الجميع واخضاعهم لسيطرتهم .

ان الشاعر على الرغم من احساسه الكبير بما يجرى في عروقه من دماء عربية أصيلة ، وبالرغم من تصاعد الاتجاه القومي وبروزه على أصعدة كثيرة في الفترة الأخيرة . فانه يظل بالرغم من كل ذلك ينظر الى تلك الوحدة بمنظور عربي اسلامي والمستمع اليه وهو ينشد باعتزاز قائلا :

---

(1) الديوان ، ص : 436 .
(2) الديوان ، ص : 244 .
(3) الديوان ، ص : 356 .

وطن العروبة كلّه وطن لنـــــا ... في (مصر) أو (بغداد) أو في (الشام)
وليزد هو وطن العروبة وليـــدم ... مجد العروبة فيه والاســـــلام (1)

ويأتي على المعنى نفسه وهو يتحدث عن مستقبل الأمة العربية ، ولكن بلهجة أقسوى وأوضح :

سنوا لي الجهود حتّى تراهـــا ... فخمة الحكم ضخمة السلطـــان
ولواء الاســلام فـي كـــل أرض ... خافقا يجتمي به الخـافـقـــان (2)

ويكاد الشاعر في حديثه عن هذه الوحدة يقترب من فكرة الجامعة الاسلامية التي تضمّ الرابطة الدينية فيها كل من دان بالاسلام من الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وديارهم :

في وحدة الاسلام أوثق جامـــع ... يحوي بني الاسلام من كل الـورى (3)

وسيصادفنا هذا المفهوم أيضا في موقف الشاعر من قضايا بعض البلاد العربية فيمـــا يستقبلنا من حديث .

ومن هذه الرؤية التي تمزج ما بين العروبة والاسلام ينطلق محمد العيد فـــي موقفـــه من قضايا وطنه الكبير ، وفي حديثـــه عن أهم المقومات الشخصية للأمة العربيـــة الاسلامية وهي العقيدة الاسلامية ، واللغة العربية ، والتاريخ العربي الاسلامي .

وقد سبق أن ألممنا في الفصول المتقدمة بشيء مما يتصل بأهم هذه المكونات وهي الرابطـــة الدينية من حيث التمكـين لها في النفوس ، والمنافحة عنها ، والحـــث على التحلّي بما ترشد اليه من قيم ، والحض على استلهامها في النهوض بالمجتمـــع وتحريـــره .

وأما المقومـــان الآخران وهما اللغة العربية ، والتاريخ ، وامتدادات هذا الأخير خاصّة على حاضر الأمة العربية الاسلامية ، وقضاياها ، فقد كرّس الشاعر أشعارا كثيرة عليهما : اعتزازا بالعربية ، بوصفها لغة عقيدة المسلمين ، ولسان العرب ، ودعوة الـــى نشرها ، وذودا عنها . واشادة بالتاريخ ، باعتباره تراثا مشتركا تتلاحم فيه أمجاد الاسلام مع مآثر العروبة ، وابرازا لكنوزه ، وحضا على استلهام مفاخره في بناء حاضـــر الأمة وصيانة مستقبلها ، وان اجلاء موقف الشاعر من تلك القضايا ودراسة شعره حولها هو ما سيكون موضوعا لما سنناقشـــه في هذا الفصل مبتدئين فيه بدراسة شعره فـــي موضوع اللغة العربية مرجئـين الحديث عن شعره حول الماضي وظلاله على الحاضر الى الفقرة التي تأتي بعد ذلك .

(1) الديوان ، ص : 244 . (2) الديوان ، ص : 273 .
(3) من وحي الثورة والاستقلال (الحلقة 4) ، المعرفة العدد : 9 — ملوس 1964 ص : 35 . ينظر الملحق .

اذا كان علماء الاجتماع قد نظروا الى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية تربط ما بين ماضي الأفراد وحاضرهم ومستقبلهم ، وتحقق الانسجام والوحدة بينهم ، فان بعض المفكرين ممن عني بالبحث في قضية انشاء القوميات في العصر الحديث ، يرى أن اللغة انما هي من أهم المقومات التي تكون شخصية أمة من الأمم باعتبارها روح الأمة وعبقريتها ، ومستودع تاريخها وحضارتها ، ووعاء مزاجها ومشاعرها(1).

وما كان يمكن أن تكون الأمة العربية في هذا الجانب ، بدعا من الأمم ، ولا كانت لغتها كذلك . وان الناظر في العلاقة بين هذه الأمة وبين لسانها يلمس أن اللغة العربية ، انما هي المعبر الصادق عن قيم هذه الأمة ، والمسجل الأمين لتراثها ، والعامل القوّي الذي طبع شخصيتها بسمات واضحة في الوجدان والفكر وأسلوب الحياة ، وعمق الاحساس في نفوس أفرادها بكيانهم الذاتي وشخصيتهم المميزة . وقد زاد في توطيد هذه الصلة بين الأمة العربية وبين لغتها ، نزول القرآن الكريم بها ، الأمر الذي زاد في فاعليتها في تحقيق الاندماج الكامل ، بين جميع أبنائها ، وجعلها لسان رسالة الاسلام فانطلقت مع سرايا الفتح وكتائبه ، تجوب آفاق المعمورة ، وقد أصبحت لغة الدعوة والحوار والعمران ، تحمل للناس كافة ، شريعة الاسلام السمحة ، ومثله السامية ، فأقبل عليها كل من دخل في هذا الدين ، يتعلمها ويحذق لسانها ، تدفعه الى ذلك دوافع فهم تعاليم الدعوة الجديدة ، فخرجت بذلك من محليتها الضيقة ، الى عالمية واسعة ، وظل الأمر على ذلك النحو ، حتى دار التاريخ دورته ، بعد أن تنازعت المذاهب والنحل أهواء أبناء هذه الأمة وتفرقت بهم السبل ، وخرج أمرهم من بين أيديهم ، وحل بهم ما حلّ من النكبات والمحن ، وأصاب لغتهم ما أصابها في جملة ما لحق بعناصر حضارتهم المختلفة . ولولا دستور الاسلام ، القرآن الكريم الذي ظل يحمي هذه اللغة ويدفع عنها الأذى ، ويمدها بعوامل النماء والحياة ، لآلت الى ما آلت اليه بعض اللغات القديمة من انحسار وانطفاء ، لما اصطلح عليها من محن الدهر ، على اثر ابتلاء الأمة العربية الاسلامية في العصر الحديث بالاحتلال الأجنبي الذي استهدف النيل من كيانها ومقومات شخصياتها .

وقد كانت الجزائر في مقدمة أقطار هذه الأمة ، تعرضا لهذا الاحتلال ، وابتلاء بتلك المحاولات . وقد رأينا في غير هذا المكان من الرسالة ، مدى شراسة تلك الحرب الصليبية التي شنّها الفرنسيون ضد اللغة العربية في اطار حملتهم الشاملة للنيل من شخصية الأمة . كما تبينا في المكان نفسه ردّ فعل الشعب الجزائري الذي لم يرضخ لتلك السياسة ، وانما قام يتحدّاها ، واستطاع أن ينجح في وضع خطة معاكسة لها ، يقوم

(1) ينظر (دراسات في المجتمع العربي ص: 188 . تأليف فئة من الأساتذة الجامعيين .
(2) ينظر محمد الباقر بن سمية (الشعب) 13 ربيع الاول 1400هـ / 31 جانفي 1980م [...]

على نشر العربية، واحياء تراثها، والتأصيل لها في النفوس وفي العقول وفي ميادين الحياة المختلفة . وفي هذا الاطار تدخل ساهمة محمد العيد، بمواقفه المتعددة، مصلحا، ومربيا وشاعرا، دفاعا عن لسان الأمة، واشادة بلغة عقيدتها، وترجمان حضارتها

وان أول عمل يصادف الباحث، من أعمال الشاعر التي وصلت الينا، وفيه الماع الى هذا الموضوع، ذلك هو قصيدته (يامعشر الطلاب) (1)، التي مر معنا أنه نظمها في أعقاب ختمه لكتاب (القطر) لابن هشام على طلابه ببسكرة . ونلحظ أن الشاعر قد ركز حديثه في هذا الحفل على الاشادة بالعلم وبيان مكانته، وحث الطلاب على الجدّ والاجتهاد في كسبه . وخلص من ذلك الى حضهم على العناية بلغتهم، مبينا لهم أن حياتهم مرهونة بحياتها . وذلك درس ما فتيء التاريخ يتلوه على مسامع الورى، مؤكدا أن ما من أمة تفقد لسانها الا وتفقد بذلك شخصيتها ووجودها، يتوجه الشاعر بهذه المعاني الى الطلاب قائلا :

لا تهملوا هذا اللسان فـفقدكـم ... في فقده ودوامكم بدوامــه
فكأنما هو عقد در فائـــق ... رصفا وعلم النحو سلك نظامه (2)

ويقف الشاعر على منصة الاحتفال بمدرسة الشبيبة الاسلامية بالجزائر العاصمة سنة 1935، ويلقي قصيدته (تحية ووصية) فيحث فيها قومه - في جملة ما حثهم عليه - بتأسيس المدارس والاقبال على العلم . واغتنم هذه الفرصة فحضهم على صيانة العربية وحمايتها موضحا لهم ما يوجد بينها وبين كتابهم القرآن الكريم، من وشائج حميمة :

بني وطني أعلوا المدارس تعلكم ... بتعليم جهال وارشاد ضـــلال
وصونوا بها الفصحى التي بكتابكم ... (أشادت ببرهان)(3) وساغت كسلسال (4)

وفي وقفة مماثلة للشاعر على هذه المنصة من عام 1939م، ألقى قصيدته (ويخلد الاسلام)، فرسم فيها بعض معالم الطريق أمام أعين أمته، وأخذ يبديها نحو ما يساعدها على اخراجها من محنتها وتمكينها من أسباب الخلاص، وكان على رأس ما لفت نظرها اليه، وحض أعلامها على نشره في أوساطها، وتذليل الصعاب من أمامها للظفر به، هو العلم والمعرفة . على أن يكون العلم بدينها، والعلم بلغتها، في مقدمة ما تعنى به، ولكي يزيد من شدة اقبال قومه على لغتهم، ويعظم من شأنها في نظرهم، عمد الى الكشف عن بعض ما تمتاز به، من جمال رائع وبيان بديع، وقد

(1) الديوان، ص: 89هـ نشرت في الشهاب 1928م.
(2) الديوان، ص: 91.
(3) في المخطوط ج 2 : 67، توجد هذه العبارة (تناغت كموسيقى).
(4) الديوان، ص: 127.

فائقة على البحث والدرس، لا تقل عن قدرة غيرها في هذا المجال ، وناهيك بلغة تقتبس بيانها من بيان العرب ، وتستمد خلودها من خلود كتاب الله القرآن الكريم ، يقول الشاعر مخاطبا العلماء :

علموا أمة الجزائر فالعلـــ ـــم دليل لخيرها وزمام
علموها دينا من الله سمحا ليس فيه اصر ولا ارغام
ولسانا حروفه نيرات مطربات كأنها أنغام
أبديا لا يعتريه فناء عربيا ما شابه اعجام
صالحا في اللغات للدرس كالمسـ ـجد تجلى شذوره وهو خام
باهت البيد زخرف الروض بالفصـ ـحى وتاهت على القصور الخيام (1)

وما كانت دعوة الشاعر هذه ، التي حث فيها قومه على التمسك باللغة العربية والاقبال على تعلمها ، بقائمة اياه وهو يشاهد ما تتعرض له من اجراءات تعسفية وقوانين جائرة ، ماينفك المحتلون يصدرونها تباعا لتضييق الخناق في وجهها ، واضطهاد القائمين على نشرها ، الأمر الذى جعل الشاعر يحس أن الواجب يقتضي منه ، أن يطور موقفه من اللغة ، ويتجاوز به حدود الدعوة بصيانتها ، الى التصدى للكائدين لها . وهو مؤمن أن هذه المهمة ، انما هي جزء أساسي من رسالة اى شاعر مخلص لأمته ، ملتزم بالدفاع عن مقومات شخصيتها ، وسرعان ما دفعه ذلك الايمان الى التوجه بندائه الى صديقه (الشاعر) ، فيحثه أول ما يحثه ، بأن يغير على شعبه المهان، ويثأر لمقدساته المداسة ، ويأتي في مقدمة ذلك لغته التي تغزى في عقر دارها بشتى وسائل القمع ، وبمختلف ألوان الجور والحيف ، مؤكدا أن المحتلين انما يفعلون ذلك ، باللغة العربية لوقوفهم على حقيقة الرابطة التي تربط ما بينها والقرآن الكريم ، فهي لسانه وهي المساعدة على نشر مبادئه والتمكين لشريعته ، وهيهات هيهات أن يكون لأولئك الغزاة ما أرادوا من الكيد لمقومات هذه الأمة ، ولها من ربها كاف وواق ولها من أبنائها حماة ، تملأ قلوبهم الغيرة عليها وتفيض جوانحهم استعدادا للدفاع عنها وعن مقدساتها ، يقول في ذلك مخاطبا نفسه أو صديقه الشاعر :

غر لشعب معذب مستضام مفتن
ولسان غزته في أرضه جم ألسن
يبتغي الخصم دفنه تحتها شر مدفن
وهو عال مردد في نداء المؤذن
القوانين حوله كالسلاح المسنن
والقرارات ضده معلن اثر معلن (2)

---

(1) الديوان ، ص : 179 .
(2) من أخطر هذه الاجراءات قانون 8 مارس 1938 الذى يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر .

ذنبه أن سفره خالد منذ أزمن
موغل في انتشاره ممعن في التمكن (1)

ويوسع الشاعر من دائرة حديثه عن اللغة العربية في قصيدته (الترحيب بالحجاج) فيتناولها في اطارها الحقيقي كمقوم من مقومات الشخصية الاسلامية ، وكلسان لجميع المسلمين ، لأنها لغة دينهم ، ويصور في هذا المجال ظاهرة انصراف بعضهم عنها لوقوعهم تحت مؤثرات الاستلاب الثقافي واللغوى ، وانقيادهم لما يروج له بعض المستشرقين ، وبعض من تتلمذ على أيديهم من أبناء هذه الأمة ، من دعاوى مغرضة ، اتخذت أشكالا مختلفة ، وكانت تستهدف جميعها النيل من الفصحى عن طريق المناداة بالتساهل في قواعدها طورا ، واستبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي ، كما حدث بالفعل في تركيا ، طورا آخر ، والاقبال على اللهجة العامية المحلية بدلها طورا ثالثا .

وتفنيدا لهذه الدعاوى وتأكيدا على التمسك بأصول الفصحى ، ينص الشاعر على أن العربية ، انما لم تسمّ من بين اللغات بهذا الاسم ، الا لما تتميز به من فصاحة وبيان ، مما يعد من بين أهم سماتها وخصائصها ، يعرب عن ذلك في معرض حديثه عن أقر مؤتمر الحج في جمع شمل المسلمين واتحاد كلمتهم على اختلاف ديارهم بالمشرق والمغرب :

قضى بولاء المسلمين جميعهم ووحدتهم في الأرض شرقا ومغربا
ولو أذعنوا لاسترهبوا الغرب شوكة وكان لهم في كل مؤتمر نبا
ولو آثروا الفصحى على لهجاتهم لردوا الى أحضانها من تغربا
فان لسان الضاد لم يعز أصله (ليعرب) بين اللسن الا ليعربا (2)

ويذهب الدكتور سعدالله في تعليقه على هذه الأبيات الى (أن الشاعر لايقصد بكلمة المسلمين الا العرب) (3) وهذا تأويل لايقبله السياق المعنوى واللغوى في الأبيات ، كما لايتماشى مع الاتجاه الفكرى العام للشاعر .

وما نميل اليه بهذا الصدد أن يكون الشاعر يقصد بحديثه ذلك المسلمين والعرب كليهما . ويرجح ذلك جملة من الدلائل من بينها : تصريحه بكلمة (المسلمين) ، وهذه الدلالة اللغوية في كلمة (جميعهم) التي تفيد التوكيد والتعميم ، فيشمل ذلك المسلمين والعرب ، لأنّ العلاقة بينهما كالعلاقة بين الجزء والكلّ . وأخيرا ذلك التمازج ما بين العروبة والاسلام الذى اشتهر الشاعر بالانطلاق منه فيما يتناول من قضايا وأطروحات :

---

(1) الديوان ، ص : 323 .
(2) الديوان ، ص : 196 .
(3) ينظر (محمد العيد آل خليفة ...) ص : 145 .

ويوضح الشاعر بصورة أكثر جلاء ، ما سبق أن ألمح اليه فيما يتعلق بمحاولات المحتلين المختلفة للنيل من اللغة العربية ، عن طريق ما يقومون به من اقصاء أهلها عنها عنوة تارة ، وبصرف نظرهم عنها والهائهم بغيرها من اللهجات العامية واللغات الأجنبية تارة أخرى ، ويعرب الشاعر بهذا الصدد عن اصرار الشعب الجزائرى ، وتصميمه على التمسك بلغته العربية ، الذى ليس له من لسان يعبر عن شخصيته المميزة سواها . ولا غرو في ذلك مادام هذا الشعب عربيا مشدودا بأكثر من رابطة الى كيان الأمة العربية ، هذه الأرومة التي سيبوء بالخيبة كل من رام ابعاده وفصله عنها ، يقول في ذلك :

ونقصى عن الفصحى ونلهى بغيرها	وليس سوى الفصحى لسان لنا رسمي
وما نحن الا من سلالة يعرب	فمن رام عنها فصلنا باء بالرغم (1)

ويبدو أنه ليس في شعر الشاعر ، الذى تطرق فيه الى هذا الموضوع ، بيت يفوق البيت الأول في ايجازه وعمق دلالته ، عن محاولات الاحتلال الفرنسي ضد اللغة العربية ، وفي قوة تعبيره في الوقت ذاته عن صمود الشعب الجزائرى أمام تلك المحاولات ، دفاعا عن لغته واصرارا على التمسك بها ، ورفضه كل بديل عنها .

وإذا كان الشاعر قد حرص في مساهمته ، طوال مراحل الكفاح الوطني ، على أن يكون لمقومات الشخصية العربية الاسلامية ، مكان الصدارة في شعره ، فان الدارس يلحظ أنه ظل وفيا لهذا الاتجاه الى ما بعد الاستقلال .

وإن أول ما يصادفنا من شعره الذى يصور موقفه ، من تلك المقومات في هذه المرحلة ، ما يلمح في مطولته التي أكد فيها بوجه خاص على تلك الصلة الحميمة القائمة ما بين العربية وبين القرآن الكريم ، وهدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومما جاء فيها من ذلك قوله :

ما ملة الاسلام الا عصمة	زكى الاله بها النفوس وطهرا
هي ديننا الرسمي فيه ضماننا	في حكمنا وأماننا أن نكفرا
وكتابنا الذكر المنزل رحمة	ولساننا الفصحى الغنية مصدرا
لغة الرسول (محمد) و (كتابه)	وكفى فكل الصيد في جوف الفرى (2)

وإن الذى يمعن النظر في موقف الشاعر من اللغة العربية في هذه المرحلة يدرك أنه انتقل فيه الى طور جديد اختفى منه ذلك الالحاح على درء الخطر عنها ، لأن من كان يكيد لها قد طوحت به الأيام خارج حدود الوطن ، وبذلك أصبح أمر العربية ، وسائر مقومات الشخصية ، بين أيدى أبنائها ، يلمح الى ذلك فيقول :

---

(1) الديوان ، ص : 205 .

(2) الحلقة (3) المعرفة العدد : 8 ـ فيفرى 1964 م . ينظر الملحق .

وتولى على (الجزائر) حكـــم   لاشتراكيـة (الجزائر) بانـــي
عربي اللسان والوعـي ثـــور   ى المبادئ جزائرى الكيـا ن (1)

واذن فان العربية أصبحت تعيش في هذه الفترة ، أوضاعا جديدة انتقلت فيها من طور المحافظة على الذات ، والدفاع عن النفس الى الإصرار على استرجاع كامل سيادتها عن المواطن التي كانت مبعدة عنها طوال عهد الاحتلال البغيض ، والطموح الى أبعد من ذلك بأن تأخذ مكانها في مجالات البحث والدرس الى جانب غيرها من اللغات ، للافادة من ثمار العلم والمعرفة الانسانية المختلفة ، بما يثريها ، ويزيد في غناها ويمكنها من التطور والتجدد .

وكان الشاعر يحس أن هذه المهام جليلة لن يقوى على النهوض بها الا جيل الشباب ، ولذلك نراه يتوجه الى هؤلاء فيرسم أمامهم الطريق الى هذه الأهداف ، ويحثهم على السعي لاكتساب المعالي ، وطلب أسباب المجد ، على أن يكون في مقدمة ما يعنون به : الاقبال على تعلم لغتهم ، والاخلاص لما تقوم به البلاد من جهود في ميــدان التعريب ، يقول في هذا المعنى :

يامعشر الطلاب هذا عهدكـــم   فاسعوا لكسب المجد سعي عظـــام
وتعلموا فصحى اللغـات فانهـــا   علويـة الأسرار والأنغـــــام
كونوا مـع التعريب واحموا جنبـه   لاتنسخوه بنقطـــة الاعجـــام (2)

ويقف الشاعر مرّة أخرى عند قضية التعريب هذه التي أصبحت يومئذ قضية الساعة بالجزائر ، واذا كان في أبياتــه السابقة قد اعتبر الطالب طرفا أساسيا في انجاح هذه العمليــة ، فهو هنا يرى أن الطرف الثاني في هذا النجاح انما هو المعلم . ومن هذا المنطلق يتوجه الى المعلم حاثّا اياه على النهوض برسالته التربوية والوطنية . ويأبى الا أن يضـع يده على جملة من العوامل التي يرى أنها ضروريــة له للنجاح في هذه المهمة ، يقـول في ذلك :

قل للمعلّم أكثرت الحلول الــــى   أن صرت في حيرة منها وبلبـــال
أراك في حملة التعريب قائد مـــا   فكيف تفشل من تثبيـط خـذال
أد الرسالـة ما وإتاك حـاضرهــــا   وكن بمستقبل التعريب ذا فـال
ان الفروع بــه تسمو بفطرتهـــــا   الى الأصول فطمعهـا بآمـــال (3)

وينبغي أن لايفهم من الحاح الشاعر ، على الدعوة الى تعلّم العربية ، وحضه على نصـرة التعريب ، انه من دعاة الانغلاق والانطواء على الذات ، وتشجيع الاستغناء عن اللغات

---

(1) الديوان ، ص : 270 .   (2) الديوان ، ص : 240 .
(3) الديوان ، ص : 504 .

الأجنبية ورفض الانفتاح عليها . وانه لا يظن بالشاعر هذا الظن الا من جهل حقيقة ما تقوم عليه شخصيته مع تشبع بتعاليم الاسلام الداعية الى تعلّم اللغات ، وتمثله للفكرة الاصلاحية التي مافتيء أعلا مها ينادون بالسير على هذا الطريق[1] . وقد دعا الى ذلك الشاعر نفسه في احدى خطبه بمدرسة الشبيبة الاسلامية بالعاصمة التي حض فيها على النهوض بالعربية ، والتمسك بها ، وعلق على ذلك بقوله (ولا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام ، التحذير من اللغات الأخرى التي لها مزاياها التي لا تنكر)[2] ، واذا كان الشاعر قد لجأ الى التعبير عن هذه الفكرة بلغة النثر ، وحرص على أن تبقى محصورة في نطاقه ، فلم يشأ أن ينقلها الى مجال الشعر طوال فترة الاحتلال . فان مردّ ذلك قد يكون لاحساسه بما كانت تعانيه العربية يومئذ ، من مضايقات واضطهاد ، الأمر الذى جعله لا يقدر على التصريح بهذه الدعوة على نطاق واسع . ومما يؤكد ذلك أن الشاعر حينما أيقن بزوال خطر الاحتلال على تلك اللغة ، فانه لم يتوان في تسخير شعره للدعوة بحرارة الى تعلّم جميع اللغات ، والانكباب على الافادة من مختلف ثقافاتها ومعارفها ، غير أنه يمكن أن يكون قد خشى من أن تؤول دعوته هذه على غير ما يقصد منها ، ونحن نعيش في عصر الصراع الفكرى واللغوى ، فسارع إلى تقييدها بأن يكون للعربية محل الصدارة فيما يحض عليه ، والتمس في ذلك الى وضع القضية فيما يشبه معادلة تمثل اللغة العربية فيها ، الطرف الأول ، وتكون مهمتها الريادة والقيادة وتمثل طرفها الثاني ، اللغات الأجنبية ، ويستعان بها على الاطلاع والتزود بمختلف عطاءات العقل البشرى ، يعبر الشاعر عن هذه الأطروحة في قصيدته التي بعث بها الى اتحاد الكتاب الجزائريين ، في أعقاب تكريمه بمنحه جائزة الدولة التقديرية الاولى في الآداب سنة 1966 م ، يقول في ذلك متحدثا على لسان قومه :

نطلب العلم باللغات جميعـــا	لا نبالي منها بسهل ووعـــر
قد فتحنا لها المجال فسيحـــا	ولسان الفصحى أحق بصدر
كيف يقضى بموته وهو حـــيّ	في شرايينا مع الدم يجـــرى
غير أنا لا نكتفـــي بلســـان	عن لسان مهما تناهى كبحر
فمن اليعربـــي نقبس نـــورا	ومن الأعجمي بالكشف ندرى
ومن العدل أن يسيرا ســواء	مستجيبين للجوار بيســـر (3)

ويمكن أن يعد مضمون البيت الأخير مبالغة من الشاعر بجعله اللغة الأجنبية تقتسم مناصفة مع اللغة العربية ، مجال الحركة في دارها . ونظن أن ذلك انما يدلّ بوجه من الوجوه

(1) ينظر (الشهاب) ج 4م11 — ربيع الثاني 1354 هـ / جويلية 1935م ، ص : 224 .
(2) ينظر جريدة الأمة لأبي اليقظان العدد : 101 — 8 ديسمبر 1936م ، ص : 3 .
(3) الديوان ، ص : 550 .

عما طبعت عليه شخصية الشاعر من ميل الى المرونة وحب الى الاعتدال ، ونفور من الغلو والتعصّب ، غير أننا نرى من جهة أخرى ، أن هذا السلوك من الشاعر انما يمكن اعتباره تكريسا لمرض من أخطر الأمراض الموروثة عن فترة الاحتلال الأجنبي والذى ماتزال بلادنا تعاني من علله في عدة ميادين من حياتها الاجتماعية والثقافية ، ونعني به وباء الازدواجية اللغوية الذى استفحل أمره في البلاد ، وكاد أن يصبح تقليدا من التقاليد الواجب احترامها والمحافظة عليها في جميع مظاهر حياتنا ، من أشدها قاصة الى أعظمها قداسة .

ويعود الشاعر ثانية الى هذا الموقف بعد سنة من تاريخ عمله السابق ، وذلك في قصيدته (هي المهمة القعساء) (1) التي نظمها في تقريظ كتاب (القواعد العربية) لصاحبه الشيخ أحمد السرحاني (2) . ويبدو وكأن الشاعر من خلال ما تناوله في هذا العمل من جوانب الموضوع المعالج ، قد أحسّ بشيء من اجحافه للعربية واغماطه اياها حقها في قصيدته الفارطة حينما كاد أن يسوى بينها وبين اللغة الأجنبية فيما أعطاه لكل منهما من نشاط في الحياة الوطنية العامة . كما يبدو من نحو آخر وكأنه أحسّ بأن هذه الوقفة ستكون آخر وقفة له حول هذا الموضوع فكان له من هذا وذاك ما دفعه بأن يرجع الى تلك القضية ثانية ، فيجلي موقفه منها ، ويكشف عن رأيه الأخير فيها ، فتوجه الى الشباب حاثا اياهم أن يحلوا لغتهم العربية محل الصدارة والريادة من اهتمامهم ونشاطهم ، ولكي يحملهم على ما أراد أن يحملهم عليه ، ويزيد في تعميق الشعور في نفوسهم بحب هذه اللغة والاقبال على تعلمها ، أبى الا أن يشيد ببعض ماتمتاز به هذه اللغة من سمات متعددة تجعلها تحتل مقاما مرموقا بين سائر اللغات ، وكاد أن يلخص بذلك معظم ما نصّ عليه في نماذجه السابقة مما تميزت به العربية من خصائص ، أليست هي لغة القرآن الكريم ولسان هدى الرسول العظيم محمد عليه الصلاة والسلام ؟ أليست هي وعاء حضارة الاسلام ومستودع أمجاد العرب والمسلمين ؟ ألا تتوفر هذه اللغة على قدر ليس بالقليل من الثراء والمرونة والقابلية على التطور ومسايرة الجديد بما يجعلها تحتل مكانها اللائق بها بين اللغات ، ولا يجحد سوق ذلك المكان الا معاند مكابر ؟ ونلحظ أن الشاعر لم ينس وهو في هذه الغمرة من النشوة والاعتزاز باللغة العربية ، أن يجدد دعوته الى قومه بالعناية باللغات الأجنبية التي تعد بمثابة القنوات للمعرفة الانسانية ينتقل عن طريقها ما يبدعه العقل البشرى من مكان الى آخر ، ومن أمة

---

(1) الديوان ، ص : 541 .

(2) أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تولى بعد الاستقلال ادارة ثانوية عباس لغرور بمدينة باتنة توفيّ في أواخر السبعينات .

الى أخرى ، الأمر الذى يجعل تجربة الانسان وطاقاته العلمية انما تكون على قدر ما يكون له من المام بهذه اللغات وتحصيل من معارفها ، يعبر الشاعر عن هذه المعاني بقوله :

فيا نشأنا الشرقي هيا الى العلى ... كركب له فصحى اللغات كرائد
لسان كتاب الله والمصطفى معا ... ومفخرة العرب الجدود الأماجد
وكنز علوم الشرق في عصر نهضة ... لنا سادت المعمور من غير جاحد
ولا ينكر الفصحى وحسن بيانها ... ووفر غناها غير خصم معاند
وحيّ على درس اللغات وحفظها ... ففي حفظها قنص العلوم الشوارد
قد استظهرت بعض اللغات ببعضها ... كمثل الزنود استظهرت بالسواعد
فمن نال منها اثنين فاثنان شخصه ... وما كان واعي واحد غير واحد (1)

نحسب أنها تضمنته هذه الأبيات من تأكيد على احلال العربية محل الصدارة ، والاشادة بما تمتاز به من سمات ، والتعقيب على ذلك بالدعوة الى الاهتمام باللغات الأجنبية ، نحسب أن ذلك انما يعكس موقف الشاعر من هذا الموضوع أكثر من غيره ، وهو بذلك أقرب الى شخصيته مما ورد في عمله السابق الذى لا يستبعد أن يكون قد اضطر اليه اضطرارا لمراعاة مقتضى الحال ، ودفع اليه دفعا بحوافز المجاملة ، لأن الأمين العام لاتحاد الكتاب الجزائريين يومئذ كان من بين الأدباء الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية وهو السيد مالك حداد ، بالاضافة الى أن الذى أخذ الجائزة مناصفة مع الشاعر بهذه المناسبة ، كان أيضا من بين أولئك الكتاب ، وهو الأديب محمد ديب . ويبدو أن هذه الملابسات هي التي دفعت الشاعر بأن يظهر بما ظهر عليه من مبالغة في انصاف اللغة الفرنسية .

ويمكن أن يكون هذا التصرف من الشاعر من جهة أخرى ، رغبة منه في مجاراة الرأى العام يومئذ الذى جعل تلك الجائزة التقديرية مناصفة بين أديب يكتب بالعربية ، وآخر يكتب بالفرنسية .

ويحسن بنا أن نشير ، ونحن نوشك على الفراغ من هذا الموضوع أن الشاعر كان قد أتى على ذكر اللغة العربية وألمع اليها بوجه من الوجوه في غير ما عرضنا من أعماله ، ولاعتقادنا أن ما سقناه من نماذج قد يكفي في رسم صورة واضحة من موقفه من هذا الموضوع ، لم نشأ أن نكثر من سوق الأمثلة خشية من الاطالة أكثر مما فعلنا ، غير أننا أحببنا بدافع الرغبة في استقراء جوانب البحث أن نلفت الانتباه الى أعمال الشاعر التي وردت فيها تلك الاشارات مرتبة ترتيبا زمنيا وهي : (خطك الله للمهاد كتابا — تحية الشبيبة — من للجزائر ؟ — ذكرى شاعرين ، بلادي —

---

(1) الديوان ، ص : 541 .

الترحيب بالحجاج — يامصر — تأبين الشاذلي خزندار — قدوة الشباب — ثورة بنت الجزائر — نشيد عقبة — الذكرى العاشرة لفاتح نوفمبر — الثورة العظمى كسبنا نصرها) [1].

ويمكن أن نستخلص في ختام هذه الفقرة جملة من النتائج نسوقها فيما يلي :

1 — كان الشاعر ينظر الى اللغة العربية برؤية خاصة قد يختلف فيها مع بعض من تطرق الى ذلك الموضوع من الشعراء المحدثين . ويبدو ذلك في كون الشاعر لم يقتصر في حديثه عن اللغة العربية كمقوم من مقومات الشخصية العربية الاسلامية وحسب ، وانما نظر اليها كمعظم المفكرين والأدباء الجزائريين [2]، وكبعض شعراء العربية الرّواد [3]، بنظرة أوسع وأشمل وأجل . فهي عنده من قبل ذلك ومن بعده ، لغة القرآن الكريم ، ولسان هدى الرسول العظيم محمد عليه الصلاة والسلام ، ووعاء رسالة الاسلام ، ومستودع حضارته وأمجاده ، وأداة فهم تعاليمه وشريعته . ولهذه الأسباب اتّسم حديثه عنها بطابع مميّز عني فيه — الى جانب الاشادة بخصائصها والحثّ على نشرها ، والدعوة الى التمسّك بها — بالتأكيد على صلتها الحميمة بالعقيدة الاسلامية ، وهي صلة قديمة نصّ عليها القرآن الكريم في مواطن كثيرة منه ، كما نصّ عليها الحديث الشريف . معبّرا بذلك عن ايمانه بالحقيقة القائلة بأن العربية بدون اسلام انما كانت أشتاتا من اللهجات ، وانما الاسلام هو الذي مكّنها من عوامل الحياة ، ومنحها عناصر الخلود ، وهو الذي أمدّها مع عصر الفتوحات بقوة الانتشار وأسباب الشمول ، وامدّها في عصر الضعف بعوامل المقاومة والصمود ، فلم يقو على أن ينال منها ما اصطلح عليها من محن .

ومما تجدر ملاحظته في هذا الصدد أن التركيز على هذه الصلة في الشعر العربي الحديث قد بدأ يخف لدى بعض الشعراء فأصبح بعضهم ينظر الى اللغة العربية بمنظار قومي أكثر مما ينظر اليها على أنها لغة القرآن ، ولسان العقيدة الاسلامية مدفوعا الى ذلك بضعف العامل الديني في نفسه ، وبتأثير جملة من العوامل الأجنبية [4]، في حين أن الالحاح على هذه الصلة ظلّ من السمات المميزة ، ليس فحسب في شعر محمد العيد ، وانما في شعر معظم زملائه من الجزائريين الذين لم يقعوا تحت تأثير تلك العوامل السابقة ، فظلت العقيدة الدينية قويّة في نفوسهم ، ومن أقرب هؤلاء الى الشاعر

---

(1) أولى هذه الأعمال من شعره المجهول ينظر الملحق أما بقيتها فهي بديوانه على التوالي في هذه الصفحات (103 — 420 — 383 — 135 — 94 — 344 — 479 — 406 — 430 — 573 — 438 — 238) .

(2) ينظر (عيون البصائر) ص 191 للشيخ الابراهيمي — ينظر د . حنفي بن عيسى (الثقافة) العدد : 4 — سبتمبر 1971 — ص : 55، وينظر دواوين الشعراء الجزائريين .

(3) ينظر د . عمر الدقاق (الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث) ص 208 ومابعدها .

(4) المصدر السابق ، ص : 217 .

في هـذا الشعور هو الشيخ أحمد سحنون .

وان الدارس لنتاج الشاعر في هذا الموضوع لايكاد يعثر فيه على مايشير الى أنه قد غيّر موقفه هذا من اللغة العربية ، كما ظهر ذلك في شعر بعض الشعراء الذى أصبح ينظر اليها على أنها عنصر قوميّ مستقل عن العقيدة الاسلامية .(1)

2 — تميز الشكل الفني الذى صبّ فيه الشاعر هذه المعاني هو الآخر بمظهر خاص، لم يلجأ فيه الشاعر الى تخصيص عمل أو أكثر من أعماله يستعرض فيها ميزات هذه اللغة ويكشف عن قدراتها المختلفة على مجاراة العصر ، والتعبير عن متطلباته والحثّ على العناية بتطويرها ، ويدفع عنها أخيرا ما رماها به بعض المغرضين من أسباب القصور والعجز ، كما فعل ذلك بعض الشعراء يأتي على رأسهم حافظ ابراهيم في قصيدته الشهيرة (اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها) (2).

ان محمد العيد لم يسلك هذا المسلك ، ولعل مردّ ذلك لكونه كان يحسّ أن ذلك المنهج لايقوى على استيعاب تجربته الخاصّة ، ولا يقدر على الوفاء بالغرض الذى يتوخّاه ، ولذلك نراه يفضل أن يصوغ معانيه في شكل وقفات متعددة قد تطول وقد تقصر بحسب الموقف النفسي للشاعر ، وتنعكس في صورة أبيات مبثوثة في أطر فنية مختلفة من أعماله تشمل القصيدة والمقطوعة والأنشودة ، وتستغرق مساحة زمنية تكاد تغطى كامل مراحل شعره .

ولعلّ الدارس لايحتاج الى جهد كبير ليدرك البواعث التي أدّت الى هذا التباين الملحوظ ما بين الشاعر وبين حافظ ابراهيم بوجه خاصّ في موقفهما من اللغة العربية ، وفي الشكل الفني الذى اختاره كلّ منهما للتعبير عن تجربته . وانا نحسب أن ذلك انما يرجع الى طبيعة الظروف الموضوعية العامّة التي مرت بها العربية في كل من الجزائر وغيرها من البلاد العربية . ولعلّه لم يعد يخاف على كثير من الدارسين أن ما تعرّضت اليه العربية وما يتصل بها من قيم وتراث من حملات الاضطهاد والجور في أرض الجزائر لم تشهد مثله في عنفه ، في أيّ قطر من أقطار العروبة والاسلام .

3 — وبالرغم من أن الشعراء العرب قد أدركوا في مختلف أقطارهم نوايا المحتلين الرامية الى ضرب العقيدة ، واللغة العربية معا ، مما ترتّب عنه تشابه في مواقفهم من هذين المقومين وتماثل في دفاعهم عنهما ، الا أن المرء يمكنه أن يلحظ — نتيجة للظروف الخاصة التي مرّ بها ذلكما العنصران في الجزائر — بعض ما يميّز موقف الشعراء الجزائريين

---

(1) ينظر د . عمر الدقاق (الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث) ، ص : 219 .
(2) ديوانه ج 1 : 194 ، وقد نشرت سنة 1903 . وتتكون من ثلاثة وعشرين بيتا .

من الموضوع عن موقف غيرهم في البلاد العربية ، ويبدو ذلك في جملة ما يبدو في الحاحهم على الموضوع ، وفي كثرة تناولهم له ، وتداولهم عليه ممّا جعله يتوزع على مساحة كبيرة في شعرهم .

4 - ويمكن القول أن هذه الخصوصية في الملابسات التي اكتنفت وضعية العربية في الجزائر هي التي جعلت الشاعر يحس أن قضية اللغة ، انما هي قضية مصير يسة يجد نفسه وجها لوجه أمامها كلّما جاء ليطرق موضوعا من الموضوعات المتصلة بحياة الأمّة . ولعل هذا الأساس هو الذى يفسّر كثرة وقوفه على هذا الموضوع والحاحه عليه ، لقد فرض ذلك الصراع الذى دار حول هذه القضية بين المحتل الأجنبي الذى حاول بكل جهده أن يجهز على العربية في الجزائر ، وبين الشعب الذى بذل كلّ مافي وسعه للمحافظة عليها والذود عنها ، فرض ذلك الصراع على الشاعر أن يغتنم مختلف الفرص التي تعن له ليحض على التمسك بالعربية الفصحى ونبذ سواها ، ويحث على الاعتزاز بها ، والغيرة عليها ، فجاء شعره في هذا الموضوع للأسباب التي ذكرنا موزّعا بين كثير من أعماله ، وممتدا على مساحة زمانية كبيرة .

5 ـ كان الشاعر يتحدث عن العربية في اطار ثلاثة محاور هي : الاسلام ، العروبة ، الوطن .

وقد كان أوسع هذه المحاور وأشملها : المحور الأول ، وكان أضيقها آخرها .
ذلك أن الشاعر وان كان قد تحدث عن اللغة العربية أحيانا في اطار وطنه باشارته الى ما تعرضت اليه في الجزائر من تضييق وارهاق ، وما كابد أهلها في سبيل المحافظة عليها ونشرها من عنت وأذى ، فانه لم يتحدث عنها كظاهرة خاصّة بهذا الوطن أو ذاك ، وانما كان يتناولها في مجال واسع كلغة للدين الاسلامي وكلسان لجميع المسلمين . ولعلّ مما يؤكد ذلك أن الشاعر لم يطلق على اللغة العربية ولو مرّة واحدة ـ على كثرة تناوله للموضوع ـ ذلك التعبير الذى أصبح شائعا اليوم في الأوساط الاعلامية والأدبية ، ونعني به مصطلح (اللغة الوطنية) ، هذا الذى لعل أصحابه يستهدفون الاستعانة من خلاله بالمشاعر الوطنية المتأججة في نفوس الأفراد غداة الاستقلال وبعده لحملهم على الاعتزاز باللغة العربية وهي لغتهم والنهوض بها ، واحلالها المحلّ اللّائق بها في مختلف أنشطة حياتهم العامّة ، ولربما يرمون به من نحو آخر الى أن قضية اللغة ، انما هي قضية وطنية تعني كل وطن حرّ ، وان من استهان بها يكون كمن استهان بالمكتسبات والمطامح الوطنية .

6 ـ ان الشاعر وان استمر ينظر الى العربية من زاوية واحدة في جميع مراحل شعره على أنها لسان القرآن الكريم ولغة الدين الاسلامي ، فان طريقة تناوله لها قد مرّت بمرحلتين اثنتين :

كان الشاعر في أولاهـا — وهي التي تتقدم الاستقلال — يشيد بخصائص العربية ، ويندّد باضطهاد المحتلين لها ، ويدعو قومه الى المحافظة عليهـا .

واستمر في المرحلة الثانية — وهي التي تلي المرحلة السابقة — يدعو الى ماكان يدعو اليه من قبل ، بيد أنه أضاف الى ذلك شيئـا يمكن اعتباره جديدا وهو حرصه على توجيه عناية قومه باللغات الأجنبية والانفتاح على معارفها ، هذا الذى لم يستطع كما رأينا أن يجرؤ على الدعوة اليه من قبـل .

7 — أكثر الشاعر من استعماله لكلمة (الفصحى) واطلاقه اياها على اللغة العربية حتى ليوشك أن يقتصر على هذه الصفة دون سواها . ونذكر أن هذه الكلمة قد وردت فيما مرّ معنا من نماذج في هذا الموضوع حوالي تسع مرّات من مجموع أربعة عشر نموذجا . وانما لظاهرة لافتـة للنظر حقا ، ونحسب أن الحاح الشاعر على ذلك انما يعكس احساسـه ووعـيه بخطورة ما يقابل تلك الصفة في الاستعمال اللغوى ، اذ أن ما يقابل اللفظ (الفصيح) كما هو معلوم ، انما هو اللفظ (العامي) ويمكن أن يستنتج من ذلك أن الشاعر كان واعيا بما يدورَ في الساحة الوطنية بالقرب منه ، وبما كان يجرى في الساحة القومية بعيدا عنه من مكائد ودسائس كانت تستهدف في مجموعهـا أهدافا واحـدة ، وان تنائت بينهـا الديار ، وتتمـثل جميعها في النيل من مقومات الشخصية العربيـة الاسلامية عن طريق ما يروج له بعض المستشرقـين وبعض المخلصين لأفكارهم ممن تتلمذ لهم من أبناء الأمة من دعوات تحض على التساهل في قواعد اللغة العربية وتحثّ على استعمال اللهجات العامية وتشجع استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي ، وقـد ظهرت هذه الأصوات أولّ ما ظهرت في الوطن العربي بمصـر في آواخر القرن التاسـع عشر على أيدى بعض المستشرقـين الانجليز ، وكان من أبرزهم وأشدهم عداء للعربيـة وللاسلام يومئذ هو (وليـام ويلككـس) الذى قام بنشاط ملحوظ تشجيعـا لما ينادى به ، وكان من بين ذلك ، قيامه بترجمة بعض الفصول من الانجيل الى العامية المصرية . وقد تلقـف دعوته هذه في مصر بعض المخلصين لها ، وكان من أبرز من تبناها من هؤلاء وحمل على عاتقه الترويج لها باخلاص وحماس الكاتـب سلامـة موسـى (1) .

كما قد أثـيرت هذه القضية في لبنان على أيام الانتداب الفرنسي في أعقاب الحرب العالمية الأولى ونشط لخدمتها نفر غير قليل من أبنائـه (2) .

---

(1) ينظر د . عمر الدسوقي (في الأدب الحديث) ج 2 : 42 وما بعدها ، وينظر مصطفى صادق الرافعي (تحت راية القرآن) ، ص : 51 .

(2) ينظر د . عمر الدقاق (الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث) ، ص : 203 .

وأما في الشطر الثاني من الوطن العربي ونعني به المغرب، فقد شهدت هذه المحاولات في مختلف أقطاره نشاطا متزايدا وظهر في أشكال مختلفة استمرت طوال فترة الاحتلال الأجنبي، نذكر من بينها ما قام به الفرنسي (هنري بيراز (HENRY PERES)[1].

8- وقد كانت هذه المحاولات في حقيقة أمرها لا يستهدف منها النيل من اللغة العربية فحسب، وانما كان يراد بها في الوقت ذاته المساس بعقيدة الأمة لما هو قائم بينها وبين هذه اللغة من وشائج وصلات. ويمكن أن يتحقق من شاء أن يتحقق مما نذهب اليه لمعرفته شيئا واحدا، وهو أن هذه العامية التي يدعو اليها أولئك المغرضين انما هي عبارة عن أشتات من لهجات محلية شديدة الاختلاف فيما بينها من قطر الى آخر، وتفتقر في مجموعها الى القدرة على نقل التجربة الانسانية واستيعاب ما يجود به العقل البشري من علوم واكتشافات، وهي من قبل ذلك ومن بعده، قاصرة على فهم تعاليم الشريعة الاسلامية، وعاجزة على صيانة التراث العربي الاسلامي، وهي بهذه المواصفات الموضوعية لا تجعل الانسان يحس بالميل الى استخدامها الا في نطاق محدود مما يقوم به من أنشطة في مختلف مجالات الحياة.

ولعلّ من خلال ما تقدّم يتضح أن الترويج للعامية انما كان يراد به قطع الصلة بين الأمّة وبين مصادر شريعتها، والحيلولة بذلك من جهة أخرى بينها وبين الافادة من تراثها والعمل على اغنائه وتطويره. وتجريدها بالتالي من القدرة على المحافظة على كيانها ووجودها.

9- وبحسب أن الشاعر من أجل المساهمة في افشال هذه المحاولات كان يلحّ على استعمال كلمة الفصحى تعبيرا عن اللغة العربية ليوحي بذلك بضرورة التمسك بها واجتناب ما يناقضها من عامية ولهجات محلية تلك التي يحرص بعضهم على التمكين لها في حياة الناس بأشكال مختلفة تجاوزت التحريض والحث على الاقبال عليها، الى محاولة التأليف والكتابة بها[2]، الا أن الذى ينبغي الاشارة اليه بهذا الصدد أن جميع تلك المحاولات وان حققت بعض أهدافها في بعض النفوس المريضة، فانها لم تقو على أن تجد لها بقعة في قلوب السواد الأعظم من الأمة، وبقيت محصورة في مكان ضيق محدود الى أن انطفأت أمام صمود هذه الأمّة واصرارها على التمسك بمقومات شخصيتها ومحافظتها على كيانها وأصالتها.

---

(1) ينظر أنور الجندي (الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا)، ص: 167.
وينظر مصطفى الأشرف (المعرفة السورية) فيفري 1964، ص: 73.

(2) سبقت الاشارة الى محاولة (وليام ويلككس) للكتابة بها في مصر. وأما في الجزائر فقد حاول ذلك (هنري بيريس).

وإذا ما حاول الدارس أن يتعرف على رأى للشاعر يكون أكثر تعبيرا مما مرّ به حول موقفه من العامية فانه لن يظفر به في شعره ، وانما هو واجده في نثره في معرض ردّه عمن نادى بأن تكون الروايات التي يضعهـا الشاعر لطلابه مكتوبة بالعامية ، يقـول الشاعر بهذا الصدد (وجوابنا عن ذلك أن الروايات باللغة العامية وان كانت تستحسن في بعض المواقف العامة للتأثير على الأوساط العامية لكنها لا تستحسن بحال من مدرسة تعمل للعربية وتقدم مصلحـة تلاميذها على كل مصلحة . . . فلنسر دائما فـي طريـق الفصحى) [1] .

وما دمنا قد تعرفنا على موقف الشاعر من العامية ، من نثره فاننا نـرى أنه مـن المفيد أن نوفق ذلك تحقيقا للشمولية ، بالتعرف على موقفه من الفصحى ، من ذلك الفن ونلمح ذلك في قوله (فلنسر دائما في طريق الفصحى ولنسع جهدنا في نشرها بكـل الوسائل ولنبرهن عن حبّنا لله بحبّ رسوله ، وعن حبّ رسوله بحبّ العرب ، وعن حبّ العرب بحب العربيـة ، وعن حبة العربية بالعناية بها والاقبال عليها . ولنعوّد ألسنتنا على النطق بها ، ولنعرب عن وجود أمتنـا حية بين الأمم بالمحافظـة على لسانهـا القومـي) [2] .

وقد تمـثل الشاعر هذا الموقف نظريا وعمليا فكان حريصا في شعره على صحة اللغة وسلامتها . فخلا شعره بذلك من الضعف اللغوى الا ما ندر ، وابتعد ابتعادا كلّيـا عن الاستعمال العامي والمسف من الألفاظ . ويمكن القول أنه من هذه الناحيـة مثل بارز من بين الشعراء الجزائريين الذين لم يسقطوا فيما يروج له بعض أدعيـاء الأدب في البلاد العربيـة [3] .

ونصل بهذا الى الفراغ من تحليل ودراسة موقف الشاعر وشعره في موضوع اللغـة العربية وهـو ـ كما نعرف ـ المحور الأول من محورين اثـنين ، عقـد هذا الفصل من أجل دراستهمـا .

أما المحور الثاني فيعكس موقف الشاعر من التاريخ وامتداداته في حاضر الأمة ، وذلك ما ستـحاول الفقرة المقبلـة معالجتـه .

---

(1) من خطاب له ألقاه بمدرسة الشبيبة الاسلامية بالجزائر العاصمة ، ينظر جريدة الأمة لأبي اليقظان العدد : 101 ، 8 ديسمبر 1936 م ، ص : 3 .

(2) المصدر السابق .

(3) ينظر نازك الملائكة (قضايا الشعر المعاصر) ، ص : 290 .

حاولنا فيما تقدّم من دراسة في هذا الفصل أن نتعرف على شعور محمد العيد نحو واحد من عناصر شخصية الأمة وهو لسانها، ولغة عقيدتها . ونأتي بعد ذلك لنحاول أن نتعرّف فيما يستقبلنا من حديث على ذلك الاحساس نحو ثالث مكونات تلك الشخصية وهو تراث هذه الأمة وأمجادها وامتدادات ذلك على قضايا الحاضر وتطلعات المستقبل .

ولعله لايخفى أن مكانة التاريخ في حياة الشعوب لاتقل عن المكانة التي تحتلهـــا اللغة في تلك الحياة ، وآية ذلك أننا اذا أيقنـــا أن اللغة هي روح الأمة وعبقريتهــــا ، فان التاريخ هو السجل الذي يحفظ لتلك الأمّة حصيلة ما أبدعته تلك العبقرية عـــبر مختلف أجيالها ، ويخلد مفاخر أبطالها وسير عظمائها بكل ماتشتمل عليه تلك السير من مواقف ومآثر ، وتقديرا لقيمـة التاريخ هذه تحرص الأمم الحية على ماضيها حرصها على حاضرها ، ويدفعها الى ذلك ايمانها بأنه ما من أمة تنسى ماضيها أو تتنكر له ، أو ترد ريبه الا وتقود نفسها بيديها الى مزالق الضعف والهوان ، وتحكم على مصيرهـــا بالاندثار والفناء . واعتبارا لهذه الخطورة التي يمثلها التاريخ في مسيرة الأمم كانت معظم موجات الغزو التي تتعرض لها الشعوب المستضعفة يحاول أصحابها بهـدف ارضاخهـا والسيطرة عليها ، المساس بتراثهـا عن طريق التشكيك في قيمه والتهافت على كنوزه بالتزويـر والتدليس ، علهـم يحدثون بذلك هوة نفسية بين هذه الشعوب وبين تاريخها فتفـقد بذلك الثقـة بحاضرها بفقدها الثقـة بماضيها فتخضع لهـم وتستكـين .

والسؤال الذي يمكن أن يطرح في هذا المجال هو : هل استطاعت تلك المحاولات أن تمر نحو أهدافها وتصيب مراميها من وجدان الأمة وعقلها دون أن تصادف في طريقها الى ذلك ، من يصدها ويكشف زيفها ، أم أنها كانت ما تكاد تنطلق من مكانهـا حتى تفاجأ في أحيان كثـيرة برد فعل قويّ يعمل على احباطهـا .؟

يحدثنا التاريخ نفسه أنه مامن أمة الا وتكون قد أنجبت في معظم مراحل حياتها من يقف بالمرصاد لمن يستهدف النيل بما يتصل بشخصيتها المعنوية والمادية .

ويلعـب المفكرون والأدباء في هذا المجال دورا ملحوظا ، ذلك أنهم ما يكادون يحسون بالخطر يداهم أمتهم حتى تراهم يهبون مسرعين لرد كل غيلـة عنهـا .

وقد كانت الأمّة العربية الاسلامية من بين هذه الأمم التي ابتليت في العصر الحديث بالاحتلال الأجنبي فامتحنت به في تراثها وحضارتها . فما كان من قادة الفكر والأدب فيها الا أن سارعوا الى نجدتَها ساهرين على احياء أمجادها ونشر تاريخها ، ولفـت نظرها الى أسراره وكنوزه ، والتصدي في الوقت نفسـه لفضح تلك الحملات المضلّلة التي تستهدف النيـل منـه .

ويدخل في هذا الاطار ماقام به قادة النهضة الوطنية الحديثة في الجزائر من جهود في خدمة تاريخ الأمة وحضارتها . وما مساهمة الشاعر في هذا الميدان الا جزء من ذلك الجهد ، ويمكن أن نتبين في نتاجه في هذا الباب اتجاهين اثنين :

يتمثل أحدهما في عناية الشاعر الواضحة بتخصيص قصائد كثيرة في تشجيع المؤلفين في التاريخ والعاملين على احياء التراث والتنويه بجهودهم في هذا المجال ، نذكر منها تقريظه لكتاب (محمد عثمان باشا) (1) للأستاذ أحمد توفيق المدني ، وتقريظه لكتاب (عقبة بن نافع القائد المظفر) (2) للشيخ عبد الحميد بن حبة ، وتقريظه لكتاب (تاريخ الجزائر القديم) (3) للأستاذ سليمان الصيد .

ويبرز الاتجاه الثاني في حرصه على لفت نظر الأمة الى ماضي تراثها من مآثر ومفاخر، وحثها على الافادة منها فيما يمكنها من الخلاص .

وقد اجتمع له من هذا وذاك جملة من الأعمال تدور معظم معانيها على الاشادة بماضي الأمة والدعوة الى الاعتزاز به والتصدي لحملات المشككين فيه ؛ وتمتد هذه الأشعار على مساحة زمنية كبيرة تكاد تغطي جميع مراحل شعره ، كما تمتد في الواقع على مساحة مماثلة ، يبرز الشاعر فيها اهتمامه في وقت واحد بأمجاد الوطن الصغير ، والوطن الكبير ، ويدمج فيها بآن ما بين العروبة والاسلام في كلية واحدة يتشابك فيها عز الماضي بجهاد الحاضر . ويكاد يتخللها جميعها ايمانه بما للتاريخ من قوة على شحذ الهمم وايقاظ العزائم وامداد الأجيال بما ينير أمامها معالم الطريق نحو التحرير والخلاص ، ومن ذلك ما جاء في هذين البيتين :

وشهادة التاريخ أوثق حجة   تجلو الأمور وتكشف الأحوالا
فتدارسوا التاريخ والتمسوا به   للنشء رمزا عاليا ومثالا (4)

ان الشاعر يأسى لواقع أمته ، ويتألم لما تلقاه على أيدي الظالمين من أهوال فيمد بصره الى الماضي فتتلامح له في آفاقه صفحات من المجد التليد ناصعة ، وصفحات أخرى من العز الأثيل التي ماتزال رغم الأحداث متماسكة لم تقو ظلمات السنين على أن تطفيء شعلتها فظلت بمرور الزمان مشعة ساطعة ، فيسارع الشاعر الى الاشادة بالماضي من أجل الحاضر ، مدفوعا الى ذلك بايمانه بدور التاريخ ، ومفهومه له بأنه مجموعة من حلقات متسلسلة من الأعمال والمواقف يصنعها السلف لتكون نبراسا للخلف يستضيء بها لمواصلة الطريق نحو مراقي العز والسؤدد والمجد . يقول في ذلك :

---

(1) الديوان ، ص : 311 .
(2) من شعره المجهول ينظر الملحق
(3) من شعره المجهول ينظر الملحق
(4) الديوان ، ص : 339 .

ماضٍ من الأعصار ناء زاخـــر بالحادثات ذكرته اجمـــالا
تبني عليه كما تشاهد حاضرا يبني عليه شبابنا استقبـــالا
حلقات أعصـار يماسك بعضهـا بعضا على أجيالنا تتوالـــى (1)

لقد عرفنا قبل قليل أن الشاعر يفزع الى الماضي ليس لطلب النجاة به من أهـوال الحاضر، وانما يلجأ اليه بدوافع البحث في كنوزه عن علاج لعلل الواقع وأدوائـه .

وانه لمن أشد ما يحز في نفسه أن يرى قومه وهم يرصفون في أغلال الذل والهوان، فيتساءل في حيرة عميقـة موجها خطابه الى فئة الشباب منهم خاصـة :

أتخضع للضيم يابن الأبـــاة وتطرق مستسلمـا للأذيـــه ؟
أما في عروقك أزكـى الدمـا ؟ أما في فؤادك أزكى الحميه ؟
حنانك أنت رسـول النجـاة فأدرك من الهالكين البقيـــه
ولا تنتصـر للبكـا بالبكـــا وتبد الشكيـة عند الشكيـــه (2)

ولكن الشاعر لقوة ايمانه وصدق شعوره لم تطل به هذه الحيرة وسرعان ما انتقـل من ذلك السؤال الحائر الى العلاج الناجع وهو العودة الى مآثـــر الأجداد وبعثهـا في الحاضر . ولن يكون ذلك بطبيعة الحال بالبكاء عن الأمجاد الضائعة أو التأسي عن المفاخر التليدة وانما يكون ذلك بامتطاء ماركب الأسلاف عبر ماضيهم المجيد من مخاطر الجهاد وما صنعوه من أمثلة البطولة وهم يجوبون أقطار الأرض يفتحون أمصارها وينشرون فـي أرجائها رايات الحق والعدل والاحسان ، ويخضعون لدولة الاسلام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم والرومان في مشرقنا وفي مغربنا .

ان الشاعر تواق الى تلك العهود الزاهية ، وكم يثلج صدره ويقر عينيه أن تستعيد أمته تلك الأمجاد وتستلهمها وهي في طريقها تبحث عن مخرج لما مما تتخبط فيه مـن درك وهوان ، يقـول في أعقاب الأبيات السابقة من القصيدة نفسها مخاطبا قومه :

الى الكشف عن تركات الجـدود فكم بينها من كنوز خـفيـــه
الى بعث سلطاننا المشرقـــي وبعث فتوحاتنا المغربيـــه
زمان (الرسول) الى الواجهات يعبي السرية بعد السريـــه
زمان الخلافـة عليا اللـــوا على الكسرويـة والقيصريـــه
زمان العمائـم فوق العروش وصوت العروبة يعلـو دويـــه
فيا عظم شوقـي الى الفاتحين رجال الشهامـة والأريحيـــه .

واذا كان الشاعر قد وقف في الأبيات السابقة عند الأمجاد الاسلامية فانه لا يفوته في الوقت ذاته أن يقف وقفات مماثلة عندما كان لأجداده العرب من أثر في الحضـارة

---

(1) الديوان ، ص : 340 .
(2) الديوان ص : 418 من قصيدته (صرخـة ثوريـة) .

الانسانية ، يذكر قومه بذلك الأثر الذي كان لأسلافهم حتى يستعيدوا الثقة بأنفسهم فيعملون على تغيير واقعهم ، ويكشف بذلك من ايمانه ـ كما سبق أن بيّنا ـ بتداخل عناصر الحضارة العربية الاسلامية من نحو ، وبتشابك مكوّنات التراث العربي الاسلاميّ الذي يعتبره ميراثا للجزائر من نحو ثان . واذن فان الشاعر يلجأ الى ذلك التراث بملامحه الاسلامية وبمآثره العربية كلّما اصطدم بالواقع السيء الذي تعيشه أمته بين خنوع للظلم ، واستسلام للجهل ، وخلف بين الأشقاء ، وادبار عن الحياة ، أن الشاعر يفزعه ذلك الحاضر فيولي وجهه نحو الماضي ، منقبا عما كان لأمّته فيه من مجد وعز وحضارة ، محاولا أن يذكّرها بذلك ، فعسى أن تستيقظ من سباتها فتلتفت الى نفسها وتتكر ما بها فتنهض للّحاق بركب الأمم الراقية . يقول في ذلك :

ان للعرب في الحضارة قدما   قدما للورى عليها استناد
كم وعووا في الحجاز من قبل (روما)   و (أثينا) من حكمة وأفادوا
وعت الأرض كلّ ما عاد من (عا   د)[1] عليها وشادة (شدّاد) (2)
وأضعنا الآثار فامحت الطّر   ق وضلّت من بينها الرواد
أيها المشرقون في ظلم التاريـ   ـخ هل عصركم علينا يعاد ؟ (3)

وواضح أن الشاعر في هذه الأبيات يضخم من تاريخ العرب القديم حتّى ليوشك أن يجعله أضخم من تاريخ الرومان واليونان ، ولعله لم يدفعه الى ذلك الّا محاولات الاحتلال لتشويه التراث العربي الاسلامي والحطّ من شأنه ، فجاء منه ذلك كردّ فعل على تلك الاجراءات .

ويقف الشاعر في مولديته (ذكرى المولد النبوي) وقفة متأنية يشيد فيها بالدولة العربية الاسلامية التي بنى دعائمها الرسول صلى الله عليه وسلّم وخلفه على رأسها من بعده رجال مخلصون ساروا على نهجه فسادوا الناس عدلا واحسانا ، فكان لتلك الشمائل الطيبة أن أينعت على أيديهم سلطانا مهابا ونظاما محكما وحضارة زاهرة ذاع صيتها في آفاق الدنيا يومئذ ، يقول في ذلك :

سلوا عن دولة الاسـ   ـلام كم باهت بأجناد
وسلوا عن دولة الشام   سلوا عن ملك بغداد
حضارات فواش في   جماعات وأفراد
وسلطان شديد البأ   س لم يمنح لـ (شداد)
وأعراس لنا في الأر   ض لا تحصى بتعداد (4)

---

(1) يقصد عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح ، وهم الذين بعث الله فيهم رسوله (هود عليه السلام .

(2) هو بن عاد الذي ملك الدنيا وبنى مدينة (ارم) الذي ورد ذكرها في القرآن ، ينظر تفسير النفسي ، ج 4 : 354 .

(3) الديوان ، ص : 119 .   (4) الديوان ص : 77 .

وإن الشاعر لايتحدث عن الماضي من أجل الماضي ، وإنما يتحدث عنه ليقابل بين ما كان في ذلك الماضي الزاهر ، وبين ما هو كائن في هذا الحاضر المشين بدافع ايقاظ المشاعر ، وحفز الهمم لاحياء ذلك المجد التليد ، والافادة منه في بناء الحاضر والمستقبل ، ولذلك نراه في القصيدة نفسها يصل بين طرفي المقابلة فيرسم الى جانب الصورة الماضية صورة أخرى مقابلة لها فيقول متحدثا عن ذهاب تلك الأمجاد :

محاها الدّهر كالبحر — بأمواج وأزباد
فأودى شاطيء الخلد — وأودى طيره الشادى
وخر الرّوض أمواد — على أنقاض أعواد
تعالى الله كم أعقب — اعداما بايجاد
فردّر ا مجد ماضيكم — وحوطوه بأرصاد (1)

وإذا كان الشاعر قد توجّه بالخطاب في النصين السابقين الى شباب الجزائر خاصّة فانه يوسع من تلك الدائرة قليلا ، ويتوجه هذه المرّة الى شباب المغرب عامة . وقد عرفنا من قبل أنه لايقصر اهتمامه على الواقع المحلّي الضيق وحسب ، وإنما الذى كان يؤرّقه ويشغل باله بوجه عام هو حاضر الأمّة سواء أكان ذلك في هذه الدّيار ، أم في تلك الديار ؟ سيان عنده أكان ذلك هنا ، أم كان ذلك هناك ؟ ومن هذا المنطلق نظم قصيدته (يافتية العلم) (2) تحيةوتكريما لطلبة شمال افريقيا المسلمين المؤتمرين بالجزائر العاصمة سنة 1932 عاقدا عليهم الآمال الكبار في النهوض بمغربهم والسعي في تحريره ، ويرسم أمامهم لبلوغ تلك المقاصد لوحتين اثنتين ، صوّر لهم في الأولى الحاضر ، وما يعجّ به من عناء وأكدار ، يقول :

يافتية طلعوا كالزهر في وسط — كالأفق جالت به الأكدار كالسحب
النجدة النجدة ارعوا للشمال يدا — عليكم فهو بين النزع والعطب
هزّوا القلوب قنا واعلوا النهى حصنا — وأنقذوه سراعا من يد الغلب (3)

ويرسم لهم في اللوحة الثانية الماضي وماكان فيه للسلف الفاتحين من عز أثيل ، ولعله يلمح بذلك للخلف ، بأنهم لو استناروا به في حاضرهم لكان لهم أكبر عون على تخليص شمالهم الافريقي مما يتخبّط فيه من علل وأدواء ، يقول الشاعر :

ألستم نسل آباء به سلفوا — كانوا له وزرا من غارة النوب ؟
واذ أعدّ له (عثمان) (4) عدّته — واذ رماه من الأصحاب بالنجب

---

(1) الديوان ، ص : 71 . (2) الديوان ، ص : 231 .
(3) الديوان ، ص : 231 .
(4) هو عثمان بن عفّان ثالث الخلفاء الراشدين وفي عهده تم فتح افريقية (تونس) .

وماغزا (ابن ابي سرح)[1] ممالكـه حتى هوى عرش (جرجير)[2] من الرهب
غدت عليه من الأصحاب غاديـة فأسفرت فيه عن فيناتـه عجـب (3)

وان اللافت للنظر في هذه القصيدة أن الشاعر يمكن أن يكون قد استفاد فيها من (عمورية) أبي تمام في الروح العام ، وفي الوزن والقافية ، وفي بعض الصور والتعابير .

كما نلحظ أن هناك فرقا واضحا بين حديث الشاعر عن الفتح في هذه القصيدة ، وبين حديثه عنه في القصيدة السابقة ، فهو هناك كان يتحدث عن الفتوحات الاسلامية بصورة عامّة ، بينما هنا يبدو أنه راعى المقام وهو يخاطب الشباب المغربي فركّز حديثه عن الفتوحات التي تمت في هذه الديار من عهد الخليفة (عثمان بن عفان) رضي الله عنه ، وقائده على سرايا الفتح عبدالله بن أبي سرح الى عهد من تلاهم من الصّحب على قيادة الجيش الاسلامي ومواصلة حركة الفتح حتى دكّت حصون الظلم ، وزلزلت من تحت أقدام الظالمين عروشهم ، وعلا صرح العدل في تلك الربوع ، ويعود الشاعر الى الحديث عن هذا الشمال في قصيدته (وداع الحجاج) ، ولكنه يطلق عليه هذه المرّة لفظ (افريقيا) فيأسى لحاضره من جديد ، ويألم لما يرصف فيه أهله من أغلال فيدفعه ذلك الى هذا السؤال الحائر : ألم تكن هذه البلاد هي التي أنجبت من قبل من الأبطال من خاض عباب البحر واقتحم المخاطر وفتح الأمصار ؟ ألم يغز بالأمس (طارق) حمى (لذريق) ؟ أين أولئك الأسلاف ؟ وأين الأخلاف منهم اليوم ؟ يبدو أنهم مضوا وخلفهم من بعدهم خلف فرط في الاعتزاز بماضيه فأضعفت قواه العلل ، وهدّت كيانه الأسقام . وانه لن يبرأ من تلك الأمراض الا اذا وفّر لها أسباب العلاج الناجع ، من اتحاد كلمة ، وسعي الى نهضة ، وتصميم الى جهاد ، وغيرة على وطن ، وثقة بمستقبل ، يقول الشاعر :

---

(1) هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح كان على رأس الجيش الاسلامي الذى فتح افريقية سنة 27 هـ ، وقيل 23 هـ ، بأمر من الخليفة عثمان بن عفان . ينظر ، ابن عذارى المراكشي (البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب) ج 1 : 8 .

(2) هو البطريق جرجير قائد جيش الروم بافريقية الذى قتل أثناء فتحها من جيش المسلمين بقيادة عبدالله بن أبي سرح . ينظر ، المالكي (رياض النفوس) ، ص : 11 .

(3) الديوان ، ص : 231 .

وبح (افريقيا) نقضت عهـــود ــ ومي رهن للأسـر والتطويـق (2)
أين أسلا فما الذين بهم قبـ ــل غزا (طارق)(1) حصن (لذريق)
لم نجد بعد هم بما غير خلـف ــ تكبته الاعراض بالشر يـسق
ليس أهلا أن يستقل ويرقـى ــ غير شعب من الهوى مستفيـق
ثابـت في نضاله مستميـت ــ وغيور على حماه شفيـق (3)

ونذكر أن الدوافع التي دفعت الشاعر ليتحدث عن افريقيا تكاد تكون هي نفسها التي حملته على أن يتطرق الى تاريخ الأتراك بالجزائر ، فنراه يقف عنده وقفات عديدة أشاد فيها بمواقف (آل عثمان) الصلبة في الدفاع عن حوزة الاسلام ، وردّ غيلة الكفر عن بلاد المسلمين . ونلمح ذلك في جملة من أعماله من بينها (تحية دار الحديث ــ ياقوم هبوا ــ تقريظ كتاب محمد عثمان باشا) (4).

ومما جاء في هذا العمل الأخير في الاشادة بعدل دولة الترك ، وفي التنويه بمواقف رجالها في وجه الطامعين من الأوروبيين قوله :

حكومة الديوان دلّت على ــ عدل من الترك لهم يشكر
قامت على الشورى فما دونها ــ وال بأمر الحكم يستأثر
قف حول بحر الروم مستفسرا ــ فكم وعى الأخبار مستفسر
وقل له مستطلعا قل له ــ هل تذكر الأتراك هل تذكر ؟
هل تذكر (الرياس) تعلو لهم ــ قسرا عن البحر وتستأثر ؟
صالوا فلا (الأسبان) تثنيهم ــ ولا (الفرنسيس) بهم تظفر (5)

ونلحظ أن الشاعر يختلف في هذا الموقف من الأتراك اختلافا جليا عن معظم الشعراء المشارقة ، هؤلاء الذين وقفوا من الأتراك موقفا مغايرا وصل ببعضهم الى حدّ التجرؤ على الانتقاص من الأتراك والحقد عليهم . وفي الحقيقة فان هذا التباين في وجهات النظر حول الأتراك لايقتصر على الشعراء هنا ، والشعراء هناك فحسب ، وانما يشمل المفكرين والمؤرخين أيضا ، ويمكن أن يعلل ذلك باختلاف الظروف والملابسات التاريخية التي مرّت بها كل من بلاد المغرب وبلاد المشرق ، في ظل الحكم العثماني ،

---

(1) هو طارق بن زياد (نحو 50 ــ 102 هـ) من أهل المغرب ، قاد الجيش الاسلامي الذى فتح الأندلس في عهد الفاتح موسى بن نصير (92 ــ 711 م)
ينظر (الأعلام) للزركلي ج 3 : 313 .
وينظر (الموسوعة العربية الميسرة) ص : 1146 .

(2) هو ملك (القوط) (روديك (Roderic, Le Roi Visigoth
والعرب تسميه :(لذريق أو رذريق) وهو الذى خف بجيش كبير لملاقاة الجيش الاسلامي بقيادة طارق بن زياد .والتقى الجيشان عند بحيرة (لاجندا) وهناك هزم طارق لذريق وقتله .
المصدران السابقان ــ الصفحة نفسها .

(3) الديوان ، ص : 193 .

(4) وهي بالديوان على التوالي في الصفحات (79 ــ 339 ــ 311) .

(5) الديوان ، ص : 312 .

كما يمكن أن يعود ذلك في الوقت نفسه الى قوّة الاحساس بالرابطة الدينية ، أو ضعفه في نفوس الناس هنا وهناك ، الا أنّ الذى يلفت الانتباه في حديث الشاعر عن الأتراك أنه يوشك أن يقتصر فيه على تاريخهم بالجزائر ، ولم يحاول فيه أن يمدّ بصره الى أبعد من ذلك ، كأن يتحدث عن دولتهم في المشرق ، بما طبع حديثه بطابع محلّي ، وأبرز من نحو آخر طبيعة المنهج الواقعي الذى التزم به في شعره بما جعل حديثه في معظم الموضوعات شديد الاتصال بالواقع الذى يجرى من حوله .

ويولي الشاعر وجهه شطر القبلة الأخرى حتى لا يبقى مقتصرا في هذا الحديث على تصوير ما في ماضي أمته من مآثر وأمجاد ، وحثها على الاستثارة بما في تغيير واقعها فحسب ، وانما تصدى بالاضافة الى ذلك لافشال تلك الحملات المضللة التي استهدفت التشكيك بماضي أمته ، والحط من شأن تراثها ، محاولا أن يذكر أولئك القائمين عليها بما كان للأسلاف من سلطان ، وما كان لهم من أياد في نشر ألوية الحق والعدل والاحسان بين جميع الأمم . ولا يفوته أن يصرخ في آذان هؤلاء في الوقت نفسه بما كان لأولئك الأسلاف من سلطة عليهم هم أنفسهم ، ألم يكونوا بالأمس يدفعون الضريبة لهم مقابل أن يسمحوا لهم بالعبور عبر مياه البحر ؟ ألم يكن ذلك مظهرا من مظاهر قوة الأجداد ، وهو في الوقت ذاته ، مثل حيّ على ضعف المحتلين واستخذائهم ؟ يقول الشاعر :

ان قوما من الجزائر كانوا	يملكون الجهات برا وبحرا
ولهم في الهدى وفي العلم شأن	جاء قوم فأوجسوا منه نكرا
فرموهم بالشائنات وقالوا	ما وجدنا لهم من السعي أمرا
وجلا البحث في الثرى عن تراث	ستروه عن أعين الناس سترا
ويحثهم يخطون آثار شعب	كان كالنجم مشرقا مشمخرا
كان للبحر مالكا حيث تجتز	سفنهم فيه تعطه عنه أجرا (1)

ويقف الشاعر على أطلال مدينة (تمقاد) الرومانية الرابضة على سفوح جبال الأوراس ، فيقرأ في صورها صفحات من الآيات والعظات ، فينظم قصيدته (أطلال وقفة على تمقاد)(2) ، محاولا أن يفيد فيها — كما هو دأبه — من ذلك التاريخ القديم فيما ينهض بالحاضر ويخلص وطنه من أدوائه .

---

(1) الديوان ص : 452 .
(2) الديوان ، ص : 351 ، ونشرت في البصائر العدد : 293 — أكتوبر 1954 ، خلافا لما يذكره الشيخ عبدالرحمن الحقون من أن البصائر نشرتها بعد اندلاع الثورة ، فكان ذلك من أسباب سجنه . ينظر كتابه (من وراء القضبان) ص : 160 .

وقد رأيناه في عمله السابق يقف وجها لوجه مع المحتلين واستمر في هذا العمل في موقفه ذلك، مما سمح له بأن يرسم للغزاة (الأحفاد) صورة عن النهاية الوخيمة التي انتهى اليها الغزاة (الأجداد) على هذه الارض حينما تم اجلاؤهم على أيدى أبطال الفتح الاسلامي الذين طهروا منهم البلاد وأراحوها من جورهم العباد .

وان في ذلك لدرسا وأيّ درس ، وعسى أن يعي ذلك أحفاد أولئك الظالمين فيرتدعوا عن غيهم ، ويرفعوا أيديهم عن هذه البلاد قبلما تدور عليهم الدوائر وينتهي بهم المآل الى نفس المصير ، يقول الشاعر :

فمن مبلغ الرومان أنّ عبيدهم ... غدوا سادة غر اكرام الشمائل ؟
رعت دولة الاسلام بالعدل أرضهم ... فصار (ابن مازيغ) أخا (لابن وائل) !.
وجدت مجالا لادّكار وعبرة ... فجلت برأى صائب غير فائل
وودّدت في سرّى (فتلك بيوتهم)(1) ... وحسبي به قولا لأصدق قائل
فهل ترعوى عن ظلمها وفسادها ... أو آخر لم تجهل مآل الأوائل ؟(2)

وان من يوازن بين هذا النموذج والذى سبقه يلمس أن لهجة الشاعر في هذا الأخير اتسمت بقدر من الشعور بالقوة والرغبة في التحدى مما افتقر اليه سابقه ، ومردّ ذلك في نظرى الى طبيعة التجربة الشعورية ، والى الفارق الزمني بين العملين ، فان النموذج الأول مأخوذ من قصيدته (الى صديقي الجيلالي) ، وقد نظمها بدافع المجاملة التي تكون بين صديق وآخر ، وفي زمن مبكر سنة 1933 . وأما عمله الثاني فقد قاله بدافع الادكار والعبرة ، وفي وقت كان فيه الشعب الجزائرى قد أتمّ عدته لاعلان ثورته ولم يبق بينه وبين ذلك الا بضعة شهور . وأحسب أن التباين في هذين الجانبين قد يكفي لتعليل ما بين النموذجين من اختلاف في القوة والضعف .

ونذكر أن هذه هي الوقفة الوحيدة التي وقفها الشاعر عند أثر من آثار الجزائر ما قبل الاسلام ، وقد رأينا أن حاضر أمته هو الذى دفعه الى ذلك ، فلجأ الى تاريخها القديم ليقرأ فيه بعض ما كان لرجالاتها مع أسلاف من يحتلون أرضها حتى يقابل بين ذلك ، وبين ما ينتظر أحفاد أولئك الظالمين على أيدى أبناء هذه الأمة من سوء المصير، ونحسب أن الشاعر من أجل هذه الغاية عني بذلك التاريخ ولولا ما كان يعنى به ، كما لم يكن له اهتمام كبير بتاريخ العرب قبل الاسلام . ولعله أصبح من الواضح لدينا أن الدافع الذى يحرك الشاعر في حديثه عن التاريخ ، انما هو الواقع الذى بين يديه والمستقبل الذى يتطلع اليه وقد بدا ذلك في كثير من شعره ، فكان المرء ما يكاد

---

(1) يشير الى الآية الكريمة (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعلمون) سورة النمل الآية رقم 52 التي تروى قصة ثمود قوم صالح .
(2) الديوان ، ص : 353 .

يلمحه يبدأ بالماضي ويدخل في دائرته حتى يراه وقد خرج منه مسرعا الى أرض الحاضر ، ويدل ذلك بوضوح على أن الماضي لا يمثل عنده أكثر من منطلق ينطلق منه ومتكىء يستند عليه ليقوى على مغالبة أهوال الحاضر وهمومه ، ان أحداث الحاضر الأليمة هي التي تهز وجدانه ، وان مآسيه المحزنة هي التي تؤرق قلبه فنجده لذلك يألم ويتأثر لما تتقلب فيه أمته من ألوان القهر ، وما تتجرعه من ضروب الهوان ، ليس في الجزائر فحسب ، وانما على طول امتداد ديار العروبة والاسلام ، لأنه يؤمن أن مواطن الاسلام واحدة ، سواء منها تلك التي توجد بالشرق ، أو تلك التي توجد بالغرب ، ذلك لأن الاسلام انتشر في المعمورة فألف بين قلوب أهلها فأصبحوا بنعمته اخوانا :

فان مواطن الاسلام جسم ... وموطن شرقها مأوى (الوتين) (1)
فشا الاسلام في شرق وغرب ... وألف بين مصريّ وصيني (2)

ومن هذا المنطلق كان الشاعر يتأثر بما تكابده الجزائر ، كما يتألم لما تعانيه تونس ، أو يمر به المغرب ، أو يحياه الأهل في القدس ، أو في غيرها من البلاد العربية الاسلامية يقول في ذلك :

تروح وتغدو (في الجزائر) كلّها ... أزام للصبر الجميل هوازم
فمن محدق بالجند ماهو ثائر ... الى مودع في السجن ماهو جارم

وفي (تونس) الخضراء شمل مبدّد ... وفي (المغرب الاقصى) أذى متفاقم
وفي (القدس) الباكي الحزين فضائع ... توالت وأنكاد طغت ومآثم
فيا شهر هل في الأرض يكشف كربنا - ... ويبعث فيها مجدنا المتقادم ؟
وهل يبسط الاسلام في الأرض ظله ... وتنتشر الفصحى وتعلو العمائم ؟ (3)

* * *

ويقود الشاعر هذه الرغبة في الاطلالة على الحاضر التي لا يقف فيها عند حدود ما يجري في محيطه القريب ، وانما يتجاوز بها ذلك لتشمل ما يحدث في ذلك الحاضر الواسع البعيد الذي يضم الى جانب قضايا المغرب مشكلات المشرق .

---

(1) وهي بالديوان ، (الوثين) بالمثلثة ، ولعل ذلك تصحيف عن (الوتين) بالمثناة ، كما أثبتناه وهو عرق في القلب اذا انقطع مات صاحبه ، ينظر (القاموس المحيط) مادة (وتن) ج 4 : 276 .

(2) الديوان ، ص : 584 .

(3) الديوان ، ص : 138 .

لقد اهتز الشاعر في أحيان كثيرة لما يجرى في الشرق ، ومن ذلك هذه الوقفة التي ركز فيها على تشخيص ما يشخر في حاضره من علل وأسقام ، ولم يقتصر فيها على أسلوب التشخيص فحسب ، وانما أردفه بما يصلح له ويلائمه من علاج . واذا كانت أمراض الشرق كما يراها الشاعر تتمثل فيما يسود واقعه من تفرقة وتناحر طائفي ، وما ترتفع في محافله من شعارات زائفة ، وما تتردى فيه غالبية جماهيره في أسباب الضعف وما آل اليه حالهم من أدبار عن الحياة ، وترك لباب الجهاد ، وهروب الى الماضي ، فرارا من مشكلات الحاضر ، والاكتفاء في الوقوف عند ذلك الماضي بالتغني بمفاخره والبكاء على أمجاده الضائعة .

فاذا كانت تلك هي أهم أدواء الشرق، فان العلاج الذى يراه الشاعر نافعا لذلك ، انما هو الاعتصام بالتآخي والاحتكام الى الدين فيما يحدث بينهم من نعرات طائفية أو نزعات مذهبية ، والانفتاح على الحياة ، وطلب المجد والعز فيها ، والأخذ بأسباب العلم والاقبال على العمل ، ورفع رايات النضال من أجل بناء حاضر عزيز يكون في مستوى ماكان لهذه الأمة من مجد تليد وعز أثيل ، يقول في هذا الصدد :

يابني الشرق عصمة بالتآخي	فالتآخي مذبة للنفور
حكموا الدين في الطوائف وابنوا	دوركم بالرجال لا بالصخور
ودعونا من التشاؤم وامضوا	في المساعي بغبطة وسرور
يابني الشرق زاولوا العلم حيا	ودعونا من نبش ما في القبور
يابني الشرق حركوا العزم فيكم	وثبوا في الحياة وثب النمور
واستميتوا في جانب العز تحيوا	خالدى الذكر رغم كر الدهور (1)

ويحسن أن لا يذهب الظن ببعضنا بعيدا ، فيحسب أن اهتمام الشاعر بحاضر الشرق وقضاياه ، يقتصر على هذه الوقفة العجلى التي رأينا ، تلك التي لم تطمح الى أكثر من تشخيص بعض العلل التي يشكو من أعراضها بعض أبنائه في مختلف أقطارهم .

وأحسب أن الذى يطلع على المكانة التي يحظى بها الشرق في قلب الشاعر وشعره ، لايراوده شيء من ذلك الظن ، ألم نقف قبل قليل عند قوله :

فان مواطن الاسلام جسم ... وموطن شرقها مأوى الوتين

ولذلك فان المتصفح لشعر محمد العيد في هذا المجال يلحظ أن حاضر الشرق يمتد على مساحة كبيرة في شعره ، ويحظى باهتمام كبير لديه ، مما يجعل تلك الوقفة الكلية الخاطفة التي مرّت بنا والتي لم تكن تعنى بتسمية بلد بعينه ، ولا بذكر أحداث بذاتها ، لا تقوى على أن تعكس ذلك الاهتمام أو ترسم صورة صحيحة له . وان الدارس لهذا الشعر

---

(1) الديوان ، ص : 106 .

يلفت نظره ، هذا العدد الكبير عن القصائد الذى أوقفه الشاعر على كثير من بلاد الشرق يواسي بعضها في أحزانه ويشاطر بعضها في أفراحه ، ويأتي في مقدمة تلك البلدان ، (مصر) هذه التي تحظى بمكانة خاصة في قلب الشاعر وفي شعره لا تضارعها مكانة غيرها باستثناء ما تحتله في وجدانه البقاع المقدسة ، حيث بيت الله الحرام في مكة المكرمة ، أو مقام الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة ، أو بيت المقدس في فلسطين السليبة .

ونذكر من بين أعماله المتصلة بأرض (الكنانة) قصيدته في تحية مجلة (نور الاسلام) [1] . وتتجلى فيها الروءية الاسلامية واضحة ، في صورتها التعبيرية وفي حديثه عن مصر ، والاشادة بدورها وجهود علمائها في نشر الاسلام وخدمته . ومما جاء فيها من ذلك قوله :

بشر المسلم الحنيف بما في	أفق مصر من نهضة وشعور
وأحطه علما بما شيع فيه	من شموس منيرة وبدور
شيخة من أئمة الدين جدوا	في التداعي الى الهدى والبرور
وبـ(نور الاسلام) شقوا دجى الكفـ	ـر ونور الاسلام أسطع نور .

وان المقابلة واضحة في البيت الأخير ، بين (نور الاسلام) و (دجى الكفر) .

ونلقى بعد ذلك قصيدته (يا مصر) [2] التي نظمها في مواساة الأشقاء في أرض الكنانة ، على اثر الاعتداء الانجليزى على منطقة القنال سنة 1952 .

ويمزج فيها الشاعر مزجا واضحا ما بين العروبة والاسلام في بيت واحد يخاطب فيه المصريين متحدثا عن شخصيتهم :

فلسطين الشهيدة قدرتكم	حنائف ملة وحماة ضاد

وتتجلى الروح الاسلامية واضحة في قصيدته (تهنئة الأزهر بشيخه الجديد) [3] التي ضمنها تهاني الشعب الجزائرى الى شقيقه الشعب المصرى بثورته على الظلم

---

(1) الديوان ص : 105 ، نشرت في الشهاب ج 1 م 7 ، رمضان 1349 هـ / فيفرى 1931 م ، ص : 27 ، وهي بالمخطوط ج 1 : 117 ، وليس بالديوان أية اشارة الى مكان وتاريخ نشرها .

(2) الديوان ، ص : 344 ، ونشرت في البصائر ، العدد : 178 ـ 179 ، جانفي 1952 ينظر المخطوط ج 1 : 94 ، وهي بالمصدرين بعنوان (حي على الجهاد يا مصر) ، وهي بهما أيضا تتكون من واحد وستين بيتا بينما هي في المطبوع تشتمل على واحد وخمسين بيتا فقط .

(3) الديوان ، ص : 206 ، ونشرت في البصائر العدد : 208 ـ 18 نوفمبر سنة 1952 م .

في يوم 23 يوليو 1952 منوّها فيها بالثمرات الأولى لتلك الثورة التي بدا بعضها في تعيين الشيخ (الخضر بن الحسين) [1]، على رأس مشيخة جامع الأزهر الشريف.

وتتلاحم العروبة والاسلام تلاحما قويا في قصيدة الشاعر (العروبة أمنا الكبرى) [2]، وتبرز بوجه خاص في حديثه عن المكانة الكبرى التي يحظى بها جامع الأزهر في قلوب الجزائريين، وعن أواصر الأخوة التي تربط ما بين الشعبين الشقيقين: الجزائري والمصري، يعبر الشاعر عن ذلك بقوله:

ان (الكنانة) المبارك عندنا	يحج كالبيت العتيق ويقصد
ما نحن الا أخوة من أسرة	كرمت أرومتها وطاب المحتد
الملة السمحاء آصرة لنا	فوق الأواصر والعروبة مولد
هيهات تقدر أن تفرقنا يد	والله يجمع شملنا ومحمد (3)

ونلحظ أن الصورة الدينية بادية في البيت الأول، الذي يذكرنا بمعناه وألفاظه وصورته ببيت للشاعر (أحمد شوقي) في الموضوع نفسه وهو:

ان الذي جعل العتيق مثابة ... جعل (الكنانة) المبارك كوثرا (4)

ونحسب أن مظاهر الاتفاق بين عناصر البيتين جلية مما لا يحتاج معه الى بيان. وقد واسى الشاعر (مصر) بالاضافة الى ما مر معنا، بفقدها شاعريها الكبيرين (حافظ) و (شوقي) في عملين متميزين [5]، وأحيا ذكراهما في عمل ثالث [6].

ونحسب أن هذه الوقفات العديدة التي لمحناها في شعر محمد العيد، نحو مصر، قد تكشف للدارس عن هموم الشاعر للعروبة والاسلام، وتبرز في الوقت نفسه تلك المكانة الخاصة، التي تحظى بها أرض الكنانة وشعبها الشقيق في قلب الشاعر الذي لا يمل من تكرار اسم (مصر) والاشادة برسالة الأزهر، وجهود رجاله في نشر الاسلام وخدمة قضاياه. ويمكن للمرء أن يقف عند ذلك، الى جانب ما مر معه، في مواطن شتى من ديوان الشاعر [7].

---

(1) هاجرت أسرته من بلدة (طولقة) بولاية بسكرة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر بسنوات الى بلدة (نفطة) من منطقة (الجريد) بتونس، وبها ولد 1293 هـ ـ 1875 م. ثم انتقل الى مصر وبها تدرج في مراقي العلم الى أن أصبح رئيسا لمشيخة جامع الأزهر الشريف.

(2) الديوان ص: 226، نشرت بالمعرفة العدد: 14 ربيع الثاني 1384 هـ/ أوت 1964م.

(3) الديوان، ص: 227.

(4) ينظر (الشوقيات) ج 1: 152، من قصيدة قالها بمناسبة الشروع في اصلاح الأزهر سنة 1923م.

(5) وهما بديوانه على التوالي ص: (454 ـ 457).

(6) الديوان، ص: 493.

(7) ينظر ديوانه (220 ـ 238 ـ 271).

وأما الأرض المقدسة في الحجاز فقد عبر الشاعر عن حبه لها وشوقه اليهـا ، واشادته بها ضمن عديد من أعماله ، نذكر من بينها (يا شرق — رثاء غازي الاول — وداع الحجاج — أنشودة الوليد — سلوا التاريخ — نشيد عقبة — فقدنا مليكا عادلا — من وحي الثورة والاستقلال — الحلقة الاولى) (1).

وقد نظم الشاعر عمله ما قبل الأخير على اثر وفاة المرحوم الملك (عبدالعزيز آل سعود) عاهل المملكة العربية السعودية ، فأعرب فيه عن تعازي شعبه الى شقيقه الشعب السعودي بتلك الفاجعة التي ألمت بـه .

وتتضح الروح الاسلامية في هذا القصيد خاصة في حديثه عن مناقب الفقيـد وسعيه في خدمة الاسلام والمسلمين ، ويستهلها بهذا المطلع الفاجع قائـلا :

لك الويل من نعي به هتف البرق	فريع له الاسلام واضطرب الشـرق
فقدنا مليكا عادلا ظاهر المـدى	بانصافه في الحكم وانتصر الحـق
أقام حدود اللـه بالسيف وازعا	وبالدين قانونا فدان لـه الخلـق
وحاط حجيج البيت بالأمن بعد ما	عثا في الحجاز البدو واسدت الطرق (2)

ثم يمضـي في بيان جهود الفقيد ومشاريعه المختلفة ، للنهوض بالجزيرة العربيـة وتطويرها . ويخلص من ذلك الى اسداء تحيات الشعب الجزائرى اليه ، مشيدا بمواقفه البرة ، نحو المهاجرين الجزائريين ، ومؤكدا في ختام ذلك عما بين الشعبين الشقيقين الجزائرى والسعودى ، من أواصر الأخوة التي تأتي رابطة الاسلام على رأسها ، يعبر عن ذلك في أسلوب يشع منه الأثر الاسلامي في ألفاظه وفي تراكيبـه ، كما يظهر فـي هذه الأبيـات :

ألا أيها الحامي الجزيرة انـنـا	سنحييك عن شعب يرى جهده الرّق
عطفت على من جاء منه مهاجـرا	فلم تلتفت منه الى أرضـه عـنـق
فحمدا على حمد به تلهج اللهـا	لفضلك تمجيـدا كما تسجع الـورق
وشكرا على شكـر لسبقـك بالنـدى	وآل سعود كلهـم لهم السبـق
خلائف أبطال وأعقـنا ب ذاذة	زكا الفرع منهم مثلما قد زكا العـرق
وما نحن الاخوة رغم بـيـنـنـا	أشقـاء في الاسلام ما بيننا فـرق (3).

وان اللافت للنظر في هذه القصيدة ، أن الشاعر لم يتطرق فيها الى الحديث عـن الدعوة الوهابية ، بالرغم من وجوده في مناخ ملائم لذلك ، وهو في موقف يترحم فيه على واحد من الأسرة السعودية التي تبنت الفكرة الوهابية منهجا سياسيا واجتماعيـا .

---

(1) وهي الديوان على التوالي (29ـ6 — 467ـ162ـ166ـ193ـ578ـ482) ما عدا الأخيرة فقد نشرت في المعرفة العدد : 6 — رجب 1383هـ/ نوفمبر 1963م ينظر الملحـ

(2) — (3) الديوان ، ص : (482 — 484) .

ولعله يعد من أشد رجالاتها تحمسا لهذه الدعوة ، ومن أكثرهم حرصا على تطبيق أفكارها على مختلف مظاهر الحياة في مجتمع الجزيرة العربية . ويبدو أنه اكتفى من ذلك الحديث ببعض التلميحات الواردة في اشادته بمناقب الفقيد ، مما يقربه مما اشتهرت به الفكرة الوهابية من نشر المفهوم السليم للاسلام ، ونصرة الحق ، واقامة العدل بين الناس ، واشاعة الأمن في البلاد ، وتطبيق حدود الشرع الاسلامي على الحياة .

وقد سبق التعليل لاغفال الشاعر ذلك الحديث .

ويواسي ليبيا الشقيقة بما تمر به من محن أيام الاحتلال الايطالي ، ويترحم على بطل ثورتها الشهيد (عمر المختار) [1] في قصيدته (عمر المختار الشهيد) [2] ، ويستهل عمله ذلك بتخليد ذكرى هذا الفقيد ، مضمنا معانيه ، تلك الحقيقة القرآنية التي تنص على أن الذين يقتلون في سبيل ليسوا أمواتا ، وانما هم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين [3] .

ويخلص من ذلك الى الاشادة بمناقب ذلك الثائر وبطولاته ، وانتصاراته في حربه ضد الطليان ، يقول مخاطبا الفقيد :

خلدت بالذكر خلود الجبال — فأنت في الدنيا حديث الرجال
ما أنت بالميت فمش خالدا — ما كان بالميت شهيد القتال
أراك عند الله مستبشرا — من فضله ترزق في خير حال
ياعمر المختار في قومه — للطعن والزحف بهم والنزال
والبأس في البؤس وذود الحمى — وحنكة الرأى وحذق الجدال
ياهازم البغي بجيش العدى — يامورد الطليان ورد النكال

ولا يفوته أن يندد في هذا العمل بجرائم الايطاليين ضد الشعب الليبي الشقيق ، ثم يلتفت في ختام قصيدته الى هؤلاء الاخوة ، مستسمحا اياهم على اقتصار شقيقهم الشعب الجزائرى في مواساته لهم ، على تلك المشاركة الوجدانية ، موضحا أنه لم يقعد على أكثر من ذلك ، الا لأنه مثلهم ، يرصف في الأغلال وفي المحن ، يعبر عن ذلك وهو يخاطب الشهيد :

في ذمة التاريخ ما نلت من — خير وشر في رضى واحتمال
المز لله وأنصاره — فلا ترع قومك حرب سجال
قد شقت الشقة من بيننا — وبينهم فيها فجز الوصال
ليس لنا جهد لاسعافهم — عفوا فلا نملك غير المقال

---

(1) من الأسرة السنوسية ، قائد الثورة الليبية ضد الاحتلال الايطالي أعدم ـ 1931م .
(2) نشرت بجريدة المرصاد العدد : 1 ـ 14 شعبان 1350 هـ / 27 ديسمبر 1931م ص : 2 ، وهي من شعره المجهول ، ينظر الملحق
(3) ينظر الآيات (169 ـ 171) من سورة آل عمران .

ويلمع الشاعر في قصيدته (رثاء غازي الأول ملك العراق) التي واسى فيها الشعب العراقي الشقيق بوفاة ملكه، الى الوشائج الأخوية التي تربط مابين البلاد العربية، وتمتد على امتداد عصور التاريخ العربي الاسلامي، ملمحا أثناء ذلك الى الأسباب التي تضعف من تلك الروابط وتقف حجرة عثرة في طريق الوحدة المنشودة ما بين تلك البلاد، يقول في هذا الصدد:

(بغداد) يا أخت (الجزا ئر) ياربيبة (يعربيا)
ووريثة (المجد) المؤثل في (دمشق) و (يثربيا)
ما كل حقك أن تشيـ ـطرك الحداد وتيجبيا
لو أن ورد الشرق عـز لما تكدر مشربيا
ولكان منا منكب فيه يساند منكبيا
وتألف الجنس المشتت شمله وتقربيا (1)

ونود أن لانغادر الحديث عن هذه القصيدة دون الالماع الى ماجاء فيها من الناحية الفنية بخاصة، من صور دينية تعكس الأثر الاسلامي في فكر الشاعر، كما تعبر عن ذلك هذه الأبيات:

لاحي باق في الصبا د ولوعلى الشمس احتبى
أين (ابن داوود)[2] الذى تخذ العواصف مركبا
ودعا الوحوش فأقبلت تسعى اليه العيد بي
والطير في ديوانه تحمي الرؤوس تأدبا
والجن تخدم ملكه وتخاف ان يغضبا
فسبا بذلك (بلـ قيس)[3] التي ملكت (سبا) (4)

وواضح أن الشاعر استفاد في هذا النموذج من قصة سيدنا (سليمان) عليه السلام الواردة في مواطن كثيرة من القرآن الكريم[5]. واستطاع أن يرسم في تلك الأبيات بعض الجوانب من ألوان الهيمنة التي منحها المولى عز وجل النبي سليمان عليه السلام بجعله الرياح بأنواعها، والحيوانات بأصنافها، والجان بأجناسه تتحرك كلها باذن الله، طوع أوامره. وقد وفق في ابراز تلك الملامح في مشهد معبر، نابضة صوره بالحيوية والحركة، وموحية باحساس الشاعر وايمانه بتلك النهاية التي يحني رأسه أمامها كل كائن حي.

---

(1) الديوان، ص: 469.
(2) يقصد النبي سليمان بن داوود (ت— حوالي 932 ق.م)، وقد ورد ذكره في القرآن ست عشرة مرة.
(3) وهي بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل ملكة سبأ من أهل مأرب باليمن.
(4) الديوان، ص: 468.
(5) من أبرزها ما ورد في سورة (النمل).

ويعزي الشاعر الشرق بأجمعه ، برحيل مصلحه الكبير أمير البيان (شكيب أرسلان) (1) بقصيدة لم يكتب لها أن تنشر في الصحف يومئذ ولا أن تدرج من بعد ذلك في ديوانه ، وما دريثا لذلك من سبب ، وما وقفنا على من أشار اليها باستثناء ما ألمح اليه (أبو القاسم سعدالله) بشأنها ، من أن الشيخ الابراهيمي رفض أن ينشرها بالبصائر (2). وقد عثرت على مسودتها بمكتبة الشاعر ببيته ، ويبدو الأثر الاسلامي فيها واضحا ليس في معانيها فحسب ، وانما في صورتها التعبيرية وبخاصة فيما حفلت به من الاشارة الى قصص الأنبياء عليهم السلام . ويرفع الشاعر الى تونس الشقيقة ، تعازي الجزائر ومشاركتها الوجدانية الصادقة برحيل كبير شعرائها (الشاذلي خزندار) ولا يفوته أن يؤكد لها بأنها ليست وحدها في الاحساس بهذا المصاب وانما يشاركها في أحزانها به كل أبناء المغرب ، الذين تربطهم جميعا أواصر من الأخوة لا تنفصم ، تأتي في مقدمتها العروبة والاسلام جنبا الى جنب ، يبدو ذلك في قوله مخاطبا الأشقاء في تونس:

يابني (الخضراء) هذا جهدنا	في مصاب كلنا منه حزانى
كلنا فيه سواء فلنكن	كلنا فيه معينا ومعانا
بورك (المغرب) من دار لنا	بوأتنا من مغانيها كنانا
نحن فيها أسرة واحدة	اخوة دينا وجنسا ولسانا (3)

ويمكن أن يستنتج من الأبيات ، رغبة الشاعر في تعميم التأثر بهذا المصاب والتأكيد على ذلك من خلال استخدامه لكلمة (كلنا) واصراره على تكرارها ثلاث مرات .

كما عزى الشاعر تركيا التي تربطها بالجزائر ، رابطة العقيدة الدينية في أحد رجالها وهو (مصطفى كمال : 1881 ــ 1938م) بمقطوعة لا يتجاوز عدد أبياتها اثنتي عشرة بيتا .

ونود أن نذكر بهذا الصدد ، ان الشاعر ليس له في مواقف هذا الرجل سوى هذا العمل ، ولذلك فهو وحيد من نوعه في ديوانه ، أضف الى ذلك أنه لم يرق الى ما بلغت اليه بعض أعماله في مثل هذه المواقف ، طول نفس ، وعمق عواطف ، وجمال تعبير ، فجاء في شكل مقطوعة ، منقطعة الأنفاس في عدد أبياتها وفي بحرها (مجزوء الوافر) ، باردة في معناها ، ثقيلة في مبناها وزاد في ذلك ما ينوء به كاهل حرف الروي (الزاي) من ثقل ، وما ينعكس من ذلك على وجدان الشاعر وعقله . ويمكن أن يعلل ذلك بضعف الدوافع التي حركت الشاعر على نظمها ، فهو كما يتضح من موضوعها ، لم يقلها للاشادة أو للافتخار بذكر الرجل ، كما فعل ذلك الشاعر (محمد اللقاني بن السايح) (4) في قصيدته

---

(1) توفي سنة 1946م.
(2) ينظر (محمد العيد آل خليفة . .) ص 66 .
(3) الديوان ، ص : 481 .
(4) رحل والده من الطيبات بناحية توقورت فاستقر بنفطة في تونس وبها ولد سنة 1313هـ ، وتوفي بتونس العاصمة في 15 ذي الحجة 1389هـ / 21 فيفري 1970م . ينظر ترجمته في (شعراء الجزائر ...) ج 1 ص 30

(النصر العزيز)[1] عقب انتصار (أتاتورك) على اليونان . وانما أنشأها لعزاء تركيا ، احساسا منه بقوة تلك الروابط الأخوية التي تربط الشعب الجزائرى بشقيقه الشعب التركي ، ولم تنفصم عراها عبر الأزمان . وتتلا مح هذه الرغبة في التعزية بادية في المقطوعة في أكثر من مظهر من مظاهرها ابتداء من عنوانها (عزاء لتركيا) [2] ، ثم في هذا التكرار الذى يبدو في هذه العبارة (أعزى تركيا) ، التي تكررت في المقطوعة على قصرها ، ثلاث مرات في ثلاثة أبيات :

أعزى تركيا في مســـ ... تخف بالردى هازى
أعزى تركيا في قـــا ... ئد للحرب نهـاز
أعزى تركيا فيــــه ... وأرثيه بايجاز

ولعل هذه العبارة (وأرثيه بايجاز) في البيت الأخير ، قوية الدلالة في بيان دوافع الشاعر وأهدافه معا من هذا العمل .

ولا يستبعد أخيرا أن يكون الشاعر يهدف به الى مجاملة الامام ابن باديس الذى كتب مقالا في رثاء مصطفى كمال . ومما يؤكد ذلك أن العملين في جزء واحد من مجلة (الشهاب) [3]. ومهما يكن من أمر فان موقف الشاعر من هذا الرجل لم يبلغ ما بلغ اليه موقف الشاعر (محمد السايح بن اللقاني) في قصيدته الآنفة الذكر .

واذا بدا من خلال بعض هذه المواقف أن حقيقة أتاتورك قد غابت على بعض الجزائريين في بداية الأمر لانبهارهم بمواقفه الأولى في التصدى لأعداء الاسلام ، فان هذه الحقيقة قد اختفت عن أعين كثير ممن كانوا أقرب من الجزائريين الى ميدان مجريات الأحداث ، ومع ذلك مضوا يدبجون القصائد في مدح أتاتورك والاشادة به ، كما يبدو ذلك في عمل شوقي[4] قبل اقدامه على تغيير موقفه منه بعد اسقاطه الخلافة [5].

وعلى الرغم من أن العامل الديني غير واضح في هذه القطعة ، فاننا نميل الى أنه هو الذى كان يحرك الشاعر ويقود خطواته في هذا الميدان لما عرفنا عنه من ايمانه العميق بتلك الرابطة الدينية التي تربط بين المسلمين في جميع ديارهم . ويحس الشاعر بهذه الصلة احساسا قويا الى درجة أنه دفعه أكثر من مرة الى الاعتزاز بانتمائه الى المسلمين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم ، ومن ذلك قوله :

---

(1) ينظر (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) ج 1 : 33 ـ الهادى السنوسي .
(2) الديوان ص : 470 ، ونشرت في الشهاب ج 9 م 14 ، رمضان 1357هـ/ نوفمبر 1938 ، المخطوط ج 1 : 157 ، وهي بالمصدرين بعنوان (أعزى تركيا) .
(3) ينظر الجزء السابق من الشهاب .
(4) ينظر مثلا قصيدته (انتصار الأتراك في الحرب والسياسة) الشوقيات ، ج 1 : 59 .
(5) ينظر قصيدته (خلافة الاسلام) الشوقيات ج 1 : 105 .

ياحاسبا أبي أمير مسلما ... عن مسلم، أخطأت في الحسبان
ان تعزني فالى ذوى حقيقة ... وهم الالى ايمانهم ايماني
قومي بنو الاسلام من حمر ومن ... صفر ومن بيض ومن سودان (1)

ولعله لم يبق بعد هذا البيان شك بأن هذا الشعور الديني الفياض في نفس الشاعر هو الذى كان وراء عزائه للأتراك في آسيا، وهو الذى سيحمله في الوقت ذاته، كما سنرى بعد قليل، على أن يشارك (الأحباش) في افريقيا، معاناتهم، انه يألم أشد الألم لما يلقى الأحباش على أيدى الظالمين الايطاليين من عنت، وقهر، وقد كانت بلادهم في فجر الدعوة الاسلامية، ملجأ لوفد المهاجرين الأولين[2]. وكانوا هم أنفسهم خير أجير، وخير معين لهؤلاء الصحابة، فأخلوهم ديارهم وأحسنوا وفادتهم وأكرموا مثواهم، أن الشاعر يذكر ذلك الصنيع لأهله، ويودّ أن يعيد الفضل لذويه، فيعمد الى نظم قصيدة في أعقاب سقوط الحبشة على أيدى الاحتلال الايطالي، يعبر فيها لأجداد (بلال) مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام، عن مشاركة الشعب الجزائرى الوجدانية لهم في محنتهم. ولم يفته أن يبين لهم أنه لايملك القدرة على أكثر من ذلك، وهو يعبر بمثل ما يعرون به من تجربة، ويرصف في مثل ما يرصفون فيه من أغلال، يقول في ذلك :

يامهجرا كالخلد فيها مضى ... لاذ به واستأمن المؤمن
هل تذكر الأصحاب تسرى بهم ... الى حماك الأينق الأيمن ؟
اذ (بكة) تبكي وهم في الدجى ... عنها (ابن مظعون)[3] بهم يظعن
واذ رسول الله يرجو لهم ... ما يجمع الشمل وما يضمن
انا مدينون لخل خلا ... نحي له الذكرى ولا ندفن
يامعشر (الأحباش) صبرا لما ... يدمي من الجرح فما يدمن
أنتم لنا رغم النوى اخوة ... فما علينا خطبكم هين
ماعندنا حول سوى ما به ... من التمازى تلبس الألسن (4)

وبالرغم من نبل القصد الذى حرك الشاعر في هذه الأبيات وصدق شعوره فيها، فانه لم يستطع أن يتخلى عن بعض مظاهر مذهبه الفني بترصيع أبياته ببعض الحلي البديعية المتمثلة خاصة في لون الجناس المفضل لديه الذى يتبدى في مواطن كثيرة في هذا النموذج. ويمكن القول من خلال ما مر معنا في شعر الشاعر من هذه الألوان البديعية، أنه كان كمعظم شعراء مدرسته، يميل الى استخدام بعض الألوان البديعية في شعره لا لما كانت تستهدف اليه لدى معظم شعراء عصر الضعف، هؤلاء الذين كانوا يقصدونها

---

(1) الديوان، ص : 544.
(2) كانت هذه هي أول هجرة في الاسلام، أمر الرسول (ص) صحابته القيام بها. وكان من بينهم عثمان بن عفان، أبو حذيفة، الزبير بن العوام.
(3) هو عثمان بن مظعون الذى كان على رأس هؤلاء المهاجرين.
ينظر ابن هشام (السيرة النبوية) ج 1 : 344.
(4) الديوان، ص : 293.

في معظم الأحيان لذاتها ، وانما كان يقتفي في ذلك اثر بعض الفحول في عصور ازدهار الشعر العربي ، ولعل من أقربهم اليه في هذا الجانب ، الشاعر أبا تمام . ولهذا فان محمد العيد يعمد الى الصنعة البديعية كوسيلة فنية يهدف بها الى توضيح أفكاره واجلاء عواطفه وتوشية أسلوبه بوجه خاص [1]. وكان من أشهر هذه الألوان وأكثرها شيوعا في شعره ، (الجناس) بأنواعه ، وقد أظهر ولعا شديدا بهذا اللون ، ولعل ذلك لما يتميز به من ايقاع موسيقي يلائم ما يجد فيه نفسه من مواقف الانشاد ، ويأتي (رد العجز على الصدر) في المرتبة الثانية بعد الجناس ، لما يتوفر عليه هذا اللون أيضا من نغم وايقاع . ويمكن القول أن هذه الظاهرة لشيوعها في شعره قد أصبحت من المقومات العامة لأسلوبه يصادفها الدارس في جميع مراحل شعره . وبالرغم من ذلك فانها لم تقو على أن تحد من وهج العاطفة وتدفق الشعور ، أو تضعف من أثرهما في وجدان المتلقي في مواطن كثيرة من شعره .

* * *

واذا كان من اللافت للنظر أن الشاعر يجيد التعبير عن أحزان شعبه في مواساة الأشقاء في أتراحهم فانه لا ينزل عن تلك المكانة في تدبيج التهاني لأولئك الاخوة في أفراحهم وأعراسهم .

وله في هذا الباب شعر كثير يصادفنا في مقدمته قصيدته التي نظمها احتفاء بحصول ليبيا الشقيقة على استقلالها سنة 1952 ، وتتجلى الروح الاسلامية في أكثر من موطن في هذه القصيدة ، تبدو في حديثه عن جهاد السنوسيين ، وفي اشادته ببطولة الثائر عمر المختار ، وفي بيان مكانة الشهيد عند الله تلك التي المع اليها في عمله السابق في هذا الشهيد ، ومما جاء من ذلك في هذا العمل قوله :

ان (السنوسيين) شهب دجلة ... وعتاق ميدان وأسد نزال
سن الاغارة (أحمد) الغازي لهم ... كالليث سن الفتك للأشبال
ومضى بهم (عمر) الشهيد يقودهم ... للحرب يلأم لأمة الرئبال
كتب الاله له الشهادة مرة ... ليفوز منه بطعمها المسال
ويكون حيا غير ميت عنده ... جذلان يرزق أطيب الآكال
في كل قلب مؤمن ذكرى له ... أبدية قرنت بكل جلال (2)

ونلحظ أن أثر القرآن واضح في معاني هذه الأبيات وفي صياغتها بما يعكس صدق وقوة الروح الدينية في نفس صاحبها .

---

(1) ينظر د . سعدالله (محمدالعيد آل خليفة . .) ص : 227 .
(2) الديوان ، ص : 349 .

ومن هذا الشعر أيضا قصيدته (أمير المؤمنين غنمت نصرا) (1) التي عبر فيها عن تهاني الشعب الجزائري لشقيقه الشعب المغربي بحصوله على الاستقلال وعودة ملكه المغفور له (محمد الخامس) من منفاه الى بلاده مظفرا سنة 1955 م.

ويتضح الأثر الاسلامي في هذه القصيدة من عنوانها وفي بعض المعاني والقيم الاسلامية التي أحبّ الشاعر أن يبثها بين أيدى الأشقاء في المغرب، وهم في طريقهم الى بناء دولتهم المستقلة. كما يتجلى ذلك الأثر في حديثه وهو يتوجه بالخطاب الى الملك مهنئا اياه بالنصر، ومشيدا في الوقت نفسه بوفائه للأشقاء، بجهوده في توطيد الروابط الأخوية التي تربط ما بين المغرب، وما بين المشرق، مؤكدا بهذا الصدد عن ايمانه بوحدة بلاد الاسلام حيثما حل الاسلام، وألّف بين قلوب الناس سواء أكان ذلك في مصر أم في الصين؟ يقول الشاعر:

أمير المؤمنين غنمت نصرا	كأنك عدت من غزو يمين
وفيت فلم تخن للشرق عهدا	ومثلك من رعى عهد الخدين
فأكدت الصّلات به لتبقى	وحاشيت الصريح من الهجين
فان مواطن الاسلام جسم	وموطن شرقها مأوى الوتين
فشا الاسلام في شرق وغرب	وألف بين مصري وصيني (2)

وتتضح الروح الدينية في هذه الأبيات في معانيها وصياغتها، كما تتجلى ذلك خاصة في بعض الألفاظ والتراكيب القرآنية، وفي الصورة الشعرية في البيت الأول. كما لم يفت الشاعر أن ينظم قصيدة يزفّ فيها أصدق التحايا الى السّودان الشقيق تعبيرا عن أفراح الشعب الجزائري بأعياد استقلاله (3)، وقد مرّت معنا اشارة الشاعر في هذا الفصل الى شخصية السودان العربية الاسلامية (4). ومما يمكن ملاحظته الى جانب ذلك في هذه القصيدة أن الروح الاسلامية تتجلى فيها في أكثر من مظهر، وبخاصة في الجانب اللغوى منها، فان الذى يتملى هذه الناحية يدرك سيطرة كبيرة للألفاظ والتراكيب القرآنية على معجم الشاعر اللغوى مما يعكس أثر القرآن على وجدانه وعقله.

ونذكر أن ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم، موضوعا وصورة، ظاهرة قديمة وشائعة بين العلماء والأدباء منذ العهود الأولى للاسلام. وفي العصر الحديث أقبل أدباء النهضة في اطار محاولاتهم للافادة من التراث عموما، على هذا الكتاب المعجز

---

(1) الديوان، ص: 581، ونشرت في البصائر العدد: 246، 9 جمادى الأولى 1375هـ/ 23 ديسمبر 1955م.
(2) الديوان ص: 584.
(3) الديوان، ص: 354.
(4) ينظر، ص: 296.

ينهلون من روحه ، ويقتبسون من أساليبه ، حتى صار الشعور السائد بين معظمهم، بأنه ليس من فضل لأديب منهم لم يلتفع في أدبه بلغة القرآن الكريم.[1]

وفي هذا الاطار كانت افادة الشاعر محمد العيد من هذا المصحف ، من طرق صياغته ، للصلة القوية التي كانت تربطه به ، تعبدا ، ومدارسة ، وتدريسا .

وتأتي اللغة الشعرية في نتاجه على رأس عناصر العملية الشعرية غنى ووفرة من كلام الله ، كما تبينا ذلك ، وسنتبينه في كثير من النماذج المدروسة ، والتي سنعرض لها بالدراسة فيما يأتي .

وتبدو هذه الظاهرة في نتاجه ، في اللفظة المفردة ، وفي التعبير المركب ، وبصورة توشك أن تغطي معظم مساحة شعره المدروس ، وغير المدروس ، مما يجعلها من السمات المميزة لأسلوبه .

ويمكن القول من خلال ما دار حوله النقاش في هذا الفصل أن الشعر الجزائري الحديث لم يقعد عن دوره في المحافظة والتمكين لأواصر الأخوة بين الشعب الجزائري وبين أشقائه في العالم العربي الاسلامي ، ولم يقصر في تصوير معاناته الصادقة لما مروا به من محن وإحن .. ومن انتصارات وظفر ..

ويخيل اليّ أن من يقرأ ما استعرضناه من نتاج يدرك أن الشعراء الجزائريين — على الرغم مما كان يحيط ببلادهم من أسوار وعوائق — قد استطاعوا ليس فقط أن يحافظوا على ما يربط بين شعبهم وبين أمتهم من وشائج وصلات ، وانما تجاوزوا ذلك وتشوفوا الى بعيد ، فعاشوا أحداث أمتهم .. عاشوها بحاضرها الثائر ، وبماضيها العزيز ، بواقعها المؤلم ، وبأمجادها التليدة ..

ولكن كثير هم الذين قد غابت عن أذهانهم هذه الحقيقة فأدى بهم ذلك الى شيء من النسيان أو التناسي[2] . وقلة هم الذين حاولوا أن يتفادوا ذلك النقص فرفعوا أقلامهم للكتابة عن الجزائر، وعن الأدب الجزائري ..

وياليتهم لم يفعلوا ، لأنهم جانبوا فيما كتبوا أسباب الكتابة العلمية ، ووقعوا في مغالطات باقتصارهم في مؤلفاتهم عن النتاج المكتوب بالفرنسية وحده ، وخرجوا من ذلك بنتائج مشوهة تنفي أو تكاد عن الجزائر صفة العروبة ، لأنهم نفوا أو يكادون أن يكون فيها أدب عربي حديث ..

---

(1) ينظر د . جميل صليبا (إتجاهات النقد الحديث في سوريا) ، ص: 180 .
(2) ينظر الشيخ محمد البشير الابراهيمي (عيون البصائر) ، ص: 437 .

فأستاذنا الدكتور ابراهيم الكيلاني يؤكد في مقدمة كتابه "أدباء من الجزائر" من أن (الأدب الجزائري الحديث يكاد يكون كله مكتوبا بالفرنسية لا بالعربية[1]. وهناك من دفعه الجهل بحقيقة الشعب الجزائري الى أبعد من ذلك فراح يخلط خلطا عجيبا غريبا..

وهاهي ذي الدكتورة سعاد محمد خضر تخرج على الناس بكتابها "الأدب الجزائري المعاصر" ولم تكد تذكر فيه الأدب العربي في الجزائر بشعره ونثره الا عرضا، وفي اشارات عابرة، وكلمات معدودة، وليتها وقفت عند هذا الحد ولم تجشم نفسها مشقة البحث عن ايجاد حلول لمشكلات وهمية.. وسأكتفي بالاستدلال على ذلك بسوق رأي واحد من آرائها قد يعطي صورة واضحة على منهجها في هذا الكتاب.

فهي ترى أن الحياة الجديدة التي بنتها الجزائر في الاستقلال والتي (تسمح لمختلف القوميات بالتعبير بلغتها، ستساعد على خلق واغناء الأدب القومي الواحد، والذي يعبر عن واقع الأمة الجزائرية كلها بمختلف قومياتها وفئاتها..) (2)

ان المرء يقف مشدوها أمام تفسير هذا الكلام المفهوم !
أين نحن في الجزائر من تلك القوميات المختلفة ! ؟ وأين نحن من تلك الفئات ! ؟
ألا يدل هذا الكلام على أن صاحبه يجهل حقيقة الأدب الجزائري المعاصر، ولا يعرف حق المعرفة نفسية الشعب الذي أبدعه، ولا ملابسات الواقع التي اكتنفته، وأحسبني أوكد أن أولئك الدارسين ماكانوا يقصرون فيما وقعوا فيه من تجافيهم في أبحاثهم لعين الصواب، الا لأنهم كانوا قد انطلقوا في كتاباتهم من غير مصادرها الأساسية. واعتمدوا فيها الاعتماد الكلي على مراجع أجنبية، أنهم أقاموا دراساتهم عما كانت دور النشر ووسائل الاعلام الغربية، تحرص فني فترة الثورة على الترويج والاشهار له خدمة لمخططات سلطات الاحتلال الأجنبي، تلك التي كانت تستهدف من وراء ذلك أغراضا سياسية مكشوفة..

ولا أستبعد أن مشاركة أولئك الدارسين لنا في ارتياد هذه الروضة من رياض الشعر الجزائري الحديث، والوقوف على ما تزخر به من ألوان وطوابع أصيلة سوف يمكنهم من تغيير نظرتهم ويسمح لهم بتكوين تصور جديد لحقيقة الأدب العربي في الجزائر المعاصرة.

* * *

ولعل القارئ بعد مصاحبته للباحث في هذه الجولة المتأنية بعض التأني في شعر محمد العيد عن الماضي وعن الحاضر، والمتذوقة بعض التذوق ما يعبق في هذا الشعر من أفراح الشعب الجزائري بأعراس الأشقاء.. وما يطفح به من عميق الأحزان وخالص المواساة لهؤلاء الاخوة في أتراحهم، لعل هذا القارئ يسأل هذا السؤال:

وماذا عن فلسطين، هذه القضية الكبرى في حياة العرب والمسلمين في شعر الشاعر؟

نلحظ بادئ ذي بدء أن قضية فلسطين تعد من بين أبرز القضايا المعاصرة التي حظيت باشتغال واهتمام كبيرين من نفس الشاعر، وآية ذلك أنه ألم اليها في ثماني مواطن من ديوانه وكان في كل منها يحاول أن يتعلى مأساتها ويكشف عن عللها ويندد بمصائبها ويتعاطف مع همومها ويعبر في الوقت ذاته عن ارادة قوية وثقة كبيرة في تحريرها وقهر مغتصبيها.

وان الذي يلفت الانتباه اليه في موقف الشاعر من هذه القضية أنه كان يمزج فيه ما بين العروبة والاسلام فينظر اليها بمنظور اسلامي طورا، وبمنظور عربي طورا آخر. وهو يعبر بذلك أحسن تعبير عن مفهومه للعروبة والاسلام الذي وقفنا عنده في مستهل هذا الفصل.

---

(1) ينظر، ص: 3. (2) ينظر الأدب الجزائري المعاصر، ص: 288.

ويمكن القول أن هذه المزاوجة ظلت قائمة في جميع مراحل شعره وبذلك فهو يختلف في هذا الجانب عن غيره ، كما سنتبين ذلك في موضعه .

ومهما يكن من أمر ذلك فان الذى يلعم النظر في نتاجه في هذا المضمار يقف فيه على مرحلتين بارزتين :

تغلب في أولاهما هذه النظرة ، وترجح في ثانيتهما كفة الرؤية المقابلة .

وتمتد المرحلة الأولى من سنة 1936 الى سنة 1948 ، ونعثر فيها على خمسة نماذج للشاعر في هذا الباب . نصادف الروح الاسلامية جلية في أول نموذج منها وهو قطعته (بني التاميز) (1) التي قالها سنة 1936 م على أثر الثورة الفلسطينية تنديدا بدور الانجليز في صنع هذه المأساة ، ومما جاء في مطلعها من ذلك قوله :

بني (التاميز) قد جرتم كثيرا   فهل لكم عن الجور ازدجار
أفي أسواقكم نصبا وقصبا   تسوم (القبلة) الأولى التّجار
أخال (القبلة) استجرت فداء   كما للبحر باللجج استجار .

ونمضى مع الشاعر فنعثر له في السنة الموالية على قطعة(2) كان قد قالها على اثر الاعلان عن تقسيم فلسطين ، تبدو فيها النظرة العربية واضحة كما يتلامح ذلك في هذا المطلع :

ياقسمة القدس أنت ضيزى   لم يعدل القاسمون فيك
ضوا على الحيف لم يبالوا   بما جرى من دم سفيك
القدس للعرب من زمان   لم يقبلوا فيه من شريك

ولا ننتظر الشاعر طويلا حتى يطلع علينا بعد أقل من شهرين بقصيدته (استوح شعرك)(3) فرجع فيها من جديد الى الحديث من فكرة التقسيم ، الا ان الجديد في كلامه هذه المرة أنه طبع بطابع الروح الاسلامية على خلاف المرة السالفة .

ونلمح ذلك في هذه الأبيات التي يتوجه فيها بالخطاب الى بلاده حاثا اياها على الاسراع في نجدة القدس (القبلة الأولى) بما يدبر لها من مكائد وما يراد بها من شر :

هلا أغثت القدس منك بلفتة   غيرى على شعب هناك مروّع
القبلة الأولى تضج وتشتكي   من قسمة المستأثر المستلقع
ضمي احتجاجك لاحتجاج حماتها   واستنكرى تقسيمه واستفظعي (4)

---

(1) الديوان ، ص : 374 ، وهي من لزومياته ، وقد نشرت في الشهاب ج 9 م12 ، رمضان 1355 هـ / ديسمبر 1936م . التاميز نهر ببريطانيا .

(2) الديوان ، ص : 314 ، وهي بعنوان (تقسيم فلسطين) ، وقد نشرت في البصائر 12 جمادى الثانية 1356 هـ / 20 أوت 1937م .

(3) الديوان ، ص : 143 ، نشرت في البصائر ، 30 سبتمبر 1937م .

(4) الديوان ، ص : 147 .

وهكذا نلحظ أن الشاعر زاوج بين النظرتين في ظرف متقارب جداً .

ونتابعه في هذه المرحلة فلا نلبث حتى نفاجأ بدخوله الى مرحلة من الصمت سبق الوقوف عندها في موضعها من هذه الرسالة ، وتمتد معه هذه الفترة من سنة 1940 الى 1947 ، وتشهد سنة (1940) خروجه بجدية من صمته على اثر ميلاد قصيدته (ميجست وجدى) (1) ، وقد كانت فكرة تقسيم فلسطين ما تزال مطروحة فرجع اليها للمرة الثالثة في هذه القصيدة ، بعد أن كان قد تعرّض اليها قبل أكثر من مضي عشر سنوات ، كما مرّ معنا في النص السابق ، واللافت للنظر في هذا العمل أن الشاعر نظر الى تلك القضية بروءية مزدوجة كما يتلامح ذلك في البيت الثالث خاصة من هذه الأبيات :

القدس لابن القدس لا لمشرد	متصهين ومهاجر غـدّار
يالجنة التقسيم حدث عن الهدى	وسخرت منه فبوءت بالانكار
القبلة الأولى التي استصغرتها	هي للعروبة قبلة الأنظار
أصبحت من بين اللجان مدينة	عند الاله لرسله الأبرار
موسى وعيسى والأمين محمد	سيطالبونك بالجحيم الجاري (2)

وبعد مرور حوالي شهرين من هذا التاريخ نشر الشاعر قصيدته (فلسطين العزيزة) (3) على اثر نكبتها سنة 1948 ، فعبر فيها عن ايمانه برعاية الله لها وبتصميم العرب على تحريرها ، يقول في مطلعها :

فلسطين العزيزة لاتراعي	فعين الله راصدة تراعي
وحولك من بني عدنان جند	كثير العدّ يزأر كالسباع
اذا استصرخته للحرب لبّى	وخفّ اليك من كل البقاع

ونستخلص من خلال هذه النماذج الخمسة المتزامنة نسبيا أن الشاعر كان يزاوج فيها بين الروءية الاسلامية ، والنظرة العربية ، وفي زمن متقارب ، مما يمكن أن يستدل به على قوة احساسه بتلازم العروبة والاسلام في وجدانه وفي فكره في وقت كان فيه الشعور القومي بمفهومه السياسي قد كاد أن يغلب على غيره في نفوس بعض الشعراء ، فدفعهم ذلك الى النظر في قضية فلسطين وفي غيرها بمنظار قومي صرف ، ولا يستبعد أن يكون الشاعر قد تأثر بهؤلاء بعض التأثر في تلك النماذج التي رأينا أنه ينظر فيها الى قضية فلسطين مثل تلك النظرة .

---

(1) الديوان ص : 328 ، نشرت في البصائر العدد : 20 — 19 جانفي 1948 .

(2) الديوان ، ص : 330 .

(3) الديوان ، ص : 334 ، ولم يرد تقديمها بهذا المصدر على الاشارة بأنها نظمت في نكبة فلسطين في جمادى الأخيرة 1367 هـ .

ويزيد الباحث ترجيحا لذلك مغايلته للطريقة التي كان يعالج بها الشاعر في الفترة نفسها تطورات القضية الوطنية والتي كان يغلب فيها العامل الديني على غيره ، لانه لم يكن ينطلق فيها بتأثير وجهات نظر بعيدة عن بيئتـه ، وانما كان يصدر فيها من ذاته ومن طبيعة الظروف الموضوعيـة المحيـطة بـه .

وان الذى يمكن أن ننتهـي الى استخلاصه بعد هذه المناقشة أن الرؤية الدينية كانت في تلك النماذج بوجه عام أوضح منها في غيرها . ومرد ذلك أن الشاعر في هـذه الفترة كما تبينا في غير هذا المكان من البحث كان يعيش بكليتـه في بيئـة سياسيـة واجتماعية وثقافيـة كان للعامل الديني فيها فعالية كبيرة في توجيهها والتحكم فـي أحداثها ، بينما كان الشعور القومي الخالص فيها ، ما يزال لم يعرف طريقه اليها بالقوة التي عرفها في بعض البيئات العربية . وينبغـي أن لا يفهم من هذا الكلام ان احسـاس الجزائريـين بعروبتهم كان في هذه الآونة ضعيـفـا . وانما الذى نود أن نشير اليـه بهذا الصدد أن ذلك الاحساس لم يكن قد طغى على سواه في نفوسهـم كما كان قد فعل في نفوس غيرهم ، ثم أنه لم يأخذ لديهم المظهر السياسـي الذى احتلـه لدى سواهم ، والذى سيظهـر به في بلادهم في المراحل اللاحقة . ونحسب أن الذى يطلع علـى التاريخ الجزائرى الحديث ويتكشـف من خلاله على التحديات التي جابههـا الجزائريون من أجل التمسك بعروبتهم والتصدى لحملات التغريب والفرنسة ، سيلمس بوضوح أن اعتزاز الجزائريين بانتمائهم للأرومـة العربية ظل قويا في قلوبهم وفي عقولهم كما تبين لنا ذلك في شعر الشاعر وكما يتجلى في نتاج غيره من الكتاب والشعراء الجزائريين ، وبخاصة منهـم رجال الرعيـل الأول .

ونأتي الى شعر الشاعر في المرحلة الثانية حول هذه القضيـة فنبادر بالقـول بأن شعره فيها انما يعود جميعه الى فترة الاستقلال . وقد سبق أن رأينا أن بيئـة الشاعر في هذه المرحلة أصبحـت على خلاف ما كانت عليه في المراحل السابقة ، فقـد أضحـت مفتوحة بشكل ملحوظ في معظم اتجاهاتهـا على الأفكار القوميـة مما أدى بالشاعر الى وقوعـه تحت بعض تلك المؤثرات وبالتالي أدى به ذلك الى وضوح الاتجاه القومـي في شعره بصـورة لم يشهدها من قبـل .

ونسارع الى القول بالنظر الى الملابسات التي اكتنفـت حياة الشاعر دون أن نخش مجانبـة الحقيقة أن شعره في فلسطين في هذه المرحلة سوف تتضح فيه النظرة القوميـة ، كما تجلت في شعره في الآونة نفسها في بعض القضايا العربية الأخرى ، مثلما تعكـس ذلك بعض أعماله من مثل (تحية شاعر ـ العروبة أمنا الكبرى ـ الذكرى العاشرة لفاتح نوفمبر) (1) .

---

(1) وهي بديوانه على التوالي : (220 ـ 326 ـ 433) .

وتصادفنا هذه النظـرة العربية الى قضية فلسطـين في أولى تلك القصائد ، وقد نظمها في تحية الرئيس جمال عبد الناصر أثناء حلوله بالجزائر سنـة 1963 ، ومما جاء فيها عن فلسطين قوله متسائـلا :

فمتى نرى شعب العروبة آمنـا ... في الأرض من شعب اليهود الخاسر ؟
ونرى فلسطين استعادت مجدها ... والى حماها عاد كل مهاجـر
ونرى اليهود جلوا كما جلـوا ... عن أرض يثرب في الزمان الغابـر (1)

الا أن الأثر القرآني واضح في هذه الأبيات في لغتها وفي صورها .

وتبدو تلك النظرة أكثر وضوحا في قصيدته (الثورة العظمى كسبنا نصرها) (2) التي نظمها الشاعر بعد مرور عام على تاريخ سابقتها أي في سنة 1964 ، ويقول فيها عن فلسطـين :

ان العروبة تستعـد لنسف مـا ... بذر اليهود لها من الألغـام
ما ضم مؤتمر العروبـة شملهـا ... الا ليعلن عن فداها الحامـي
قد أرعب العرب اليهود بعقـده ... ومحا (الامام) خرافة (الحاخام)
ستري فلسطـين العزيزة مثلمـا ... كانت مثابـة حرمـة وذمـام (3)

ونصادف مثل هذه الرؤية في النموذج الآخر من شعر هذه المرحلة وذلك في قصيدته (هذه قمة الفتوة) (4) التي نظمها 1965 ، وعبّر فيها عن مشاعر الجزائر نحو الشعب الفلسطيني الشقيـق ، ومما جاء فيها من ذلك قولـه :

نحن شعب الفـدى (فلسطين) منّا ... والينا والحكم للأرجوانـي
قل لمن سامها احتلالا وغصبـا ... سوف تدري بلاءنا في الطّعان
ان (نهر الأردن) للعرب نبعـا ... ومصبا من أقـدم الأزمـان
و (فلسطين) لـ (لجزيرة) جـزء ... عربي من عهدها الكنعانـي (5) .

ونظـن من خلال هذه النماذج الثلاثة الأخيرة أن ما ألمعنا اليه قبل قليل من وضوح الاتجاه القومي في شعر الشاعر في هذه المرحلة ، قد أصبح أكثر وضوحا ، الا أن الذى نودّ أن نلفت الانتباه اليه بهذا الصدد أن هذه النصوص وان لم يظهر فيها العامل الديني في أفكارها بالقوة التي تجلى بها ، في نصوص المرحلة الأولى ، فان الـذى يتملـى الصورة الفنية فيها يرى أنها من هذه الناحية غنيـة في طابعها الاسلامـي الذى يتلاءم في لغتها وفي صورها بشكل قد لا يقل عن الشكل الذى بدا عليه ذلـك

---

(1) الديوان ، ص : 244 .
(2) الديوان ص : 238 ، ونشرت بالمعرفة العدد : 15 جمادى الثانية 1384هـ / سبتمبر اكتوبر 1964 .
(3) الديوان ، ص : 244 .
(4) الديوان ، ص : 265 .
(5) الديوان ,ص : 271 .

الطابع في النماذج الأولى ، ولعلنا لا نكون مغالين اذا قلنا انه قد يكون ذلك في هذه النصوص التي بين أيدينا أوضح منه في تلك النصوص، كما يتجلى ذلك فيما تتوفر عليه في صورتها التعبيرية من مظاهر دينية يبدو بعضها في هذه الألفاظ والتراكيب القرآنية من مثل (آمنا ، الفدا ، العهد ، الامام ، السافكين ، دم النبوة ، الساجدين لعجل السامري) . ويبدو بعضها الآخر في هذه الصور الدينية (كما جلوا — عن أرض يثرب) — (مثلما — كانت مثابة حرمة وذمام) .

ومن شاء أن يزداد يقينا مما نذهب اليه فما عليه الا أن يعود الى نماذج المرحلتين ويعقد بينها مقارنة بسيطة فانا نرجح أنه ان يفعل ذلك سيخرج منه بالملاحظة نفسها التي وصلنا اليها في النظرة التي بسطناها فيما بين أيدينا من هذا الحديث أو بما يقرب من ذلك .

وقد يكون هذا الاستنتاج الذى خلصنا اليه من هذا التحليل مثار استفهام لدى بعض الناس، فيتساءل : كيف يمكن أن تكون الصورة الدينية في نتاج الشاعر الذى قاله في فلسطين بعد الاستقلال أكثر وضوحا منها في شعره الذى قاله في الموضوع نفسه قبل ذلك بالرغم من أن الأفكار القومية كانت يومئذ أقل بروزا منها في هذه الفترة الأخيرة ؟

وفي الحقيقة أن الذى يتعمق الأمور ويستقرىء التطورات المختلفة التي اكتنفت حياة الشاعر في مختلف مراحلها فانه لا يصعب عليه أن يظفر بالاجابة الشافية على هذا التساؤل .

ذلك أنه لا شك أننا مازلنا نذكر أن الشاعر نشأ نشأة دينية انتهت به الى الانضواء في الحركة الاصلاحية وظل يتقلب في هذه الوسط الديني الاصلاحي ، ويتغذى من مختلف معطياته الفكرية والروحية الى أن خلص به الأمر في المرحلة الأخيرة من حياته ، الى ما نعرف من أمر العزلة التي فرضت عليه طوال سنوات الثورة .

ولنرجح أن تكون هذه الفترة من أحسن فترات عمره مواتاة له على اشباع نزوعه الصوفي المتأصل في نفسه بسبب ظروف الوضع التي كانت تحيط به من نحو، وما أتيح له من نحو آخر في هذه الآونة من خلوة تفرغ فيها الى العبادة والذكر . ولما جاء الاستقلال خرج الشاعر من هذه العزلة ، غير أنه ألفى نفسه واقعة في هذه الأثناء تحت جاذبية نزعتين مختلفتين ، كانت كل واحدة منهما تريد أن تظفر به لنفسها .

كانت النزعة الأولى تود أن تشده بقوة الى حياته الروحية التي أعتادها أثناء عزلته ، وكانت النزعة المقابلة تدفع به نحو تجديد صلته بالناس على النحو الذى كان عليه قبل هذا العهد .

ومكذا وجد الشاعر نفسه في وسط الطريق ، يقدم رجلا في هذا الاتجاه ، ويقدم أخرى في الاتجاه المقابل .

وكان مجتمعه في هذه الآونة مقبلا بشدة على الأفكار القومية ، لعله يحاول بذلك أن يعوّض ما حرم منه في الماضي من أسباب الصلة القوية ـ كما كان يريد ـ بتلك الأفكار . فكان على الشاعر وقد اشتهر بمراعاته لمشاعر الناس من حوله ونفوره من الظهور بمظهر الخارج عن اجماعهم ، أن يحمل نفسه على مجاراة القوم بعض المجاراة في هذا الاتجاه .

وينبغي أن لا يفهم من هذا الكلام ، أن التيار القومي لم يعرف طريقه من قبل بوجه من الوجوه الى قلب الشاعر ومن ثم فلم يكن له مكان في شعره .

ونحن نعرف أن الشاعر كان طوال حياته عميق الاحساس بعروبته قوي الاعتزاز بها كما اتضح لنا ذلك في مواطن كثيرة من شعره .

وانما الذى نود أن ننصّ عليه بهذا الصدد أن تلك الأفكار القومية لم تكن لديه في تلك الفترة ، كما لم تكن لدى معظم مواطنيه بمفهومها السياسي الذى أصبحت تعنيه في قاموس السياسة العربية المعاصرة . واذن فقد بدأ يتغلغل في الجزائر هذا التصور الجديد لمفهوم القومية في أعقاب الاستقلال . وأصبح يحس به كثير من الجزائريين احساسا قويا (1) . وكان من الطبيعي أن ينتقل شيء من هذا الاحساس الى الشاعر وهو المرآة التي تنعكس عليها مشاعر الشعب فظهر ذلك في بعض أشعاره ، وخاصة منها تلك التي كان يعالج فيها بعض القضايا العربية .

ويلحظ أن الشاعر وجد نفسه في موقف استدعى منه أن ينظر الى بعض القضايا المعاصرة بهذا المنظار القومي ، وكان في الوقت ذاته يحيا بقوة حياته الروحية .. وماذا عسى الشاعر أن يفعل وهو بين هذين القوتين اللتين تتنازعان وجدانه وعقله ؟ الناس من حوله يودّون منه أن ينظر الى الأمور بمنظارهم ، والفكرة الاسلامية تغمر حياته النفسية والعقلية حتى لا تكاد تدع مجالا فيهما لغيرها . وتوشك أن تكون الغلبة في الظاهر للقوة الأولى ، فنرى الشاعر يتحدث عن فلسطين بمنظور قومي واضح استطاع أن يعرقل بعض الشيء ذلك المدّ الديني على أن يجد سبيله الى النور في شعره عن طريق المعاني ، فكان على الفكرة الاسلامية أمام ذلك أن تتحرك وتبحث عن مظهر آخر لما تعبر به عن نفسها في هذا الشعر ، فلم تجد غير الناحية الفنية فبدت فيها ، فجاءت لذلك ، الألفاظ والتعابير والصور الدينية تتلامح من خلال معاني تلك الأشعار ، معبّرة بطريق غير مباشر عما يمور في أعماق الشاعر

---

(1) ينظر د . أبو القاسم سعد الله (محمد العيد آل خليفة ..) ص : 50 .

من احساسات دينية قوية ، ربما يكون قد حاول أن يضعف من قوتها حتى لا يحجب نورها على أعين بعض الناس ما يودّون أن يروه في شعره من أفكارهم الجديدة .

ويميل الى أنه لهذه الأسباب بدا الأثر الديني على الناحية الفنية في شعره الأخير في فلسطين أكثر بروزا منه في شعره في الموضوع نفسه في المراحل السابقة ، ومما يزيد في ترجيح ذلك أن هذه الظاهرة الدينية الفنية لم تكن مقصورة على هذا الغرض من شعره ، وانما يمكن القول أنها كانت سمة بارزة في معظم معاني شعره في المرحلة الأخيرة من حياته ، كما سنتبين ذلك في مكانه من الفصل المقبل .
وعسى أن نكون بهذا التحليل قد أجبنا عن السؤال المطروح . ولعلنا له بما يمكن أن يوضّحه ويزيل ما كان في بعض الأذهان من التباس حوله .

ونخلص من هذا الغرض الى هذه النتيجة التي لا نشك في أن ينازعنا في صحتها من كان قد شاركنا الرأي في صواب ما كنا بصدد المناقشة فيه . وتتمثل هذه النتيجة في القول بأن الروح الاسلامية هي التي كانت تغلب على وجدان الشاعر وعقله في مجمل شعره في قضية فلسطين .

ولا نود ونحن نوشك على الفراغ من هذا الفصل أن نعود الى تلك الملاحظ المختلفة التي كنا قد استخلصناها من دراسة كل فقرة من فقراته ، وانما نحب فقط أن نلفت الانتباه الى بعض الظواهر البارزة التي استطاعت أن تطبع بطوابعها معظم القضايا التي كانت موضع نقاش في هذا الفصل :

1 — ولعل من أبرز تلك الظواهر وأكثرها شمولية في هذا الشعر ، هي ظاهرة المزاوجة ما بين العروبة والاسلام في نظرة الشاعر الى مختلف القضايا المدروسة في هذا الفصل .

ويمكن القول بهذا الصدد أن الشعور الاسلامي في تلك الرؤية يكاد يرجح على غيره في كثير من الجوانب . يأتي في مقدمتها ما يبدو في حديث الشاعر عن اللغة العربية بربطه اياها في أغلب الأحيان بكتاب الاسلام وشريعته ، وفي حديثه عن ماضي الأمة الذي لا يكاد يخرج فيه عما يتصل بظهور الاسلام باستثناء وقفة واحدة نظر فيها الى تاريخ العرب في الجاهلية ، ولعله كان يقصد بها حفز همم أفراد الأمة وتحدّي أعدائها أكثر مما كان يهدف منها الى التمجيد والافتخار . ويظهر ذلك الرجحان أيضا في عدم عناية الشاعر بتاريخ الجزائر قبل الاسلام ، فيما عدا اشارة واحدة تلك التي لمحناها في عمله (وقفة على أطلال تمقاد) وقد كان طابع التحدي جليا فيهما .

وقد استمرت هذه الغلبة لذلك الشعور بارزة في معالجة قضايا الأمة المعاصرة وتصوير أحداثها، على الرغم من محاولة بعض النظريات الوافدة من الخارج بهدف اضعافه والتقليل من أثره .

2 ـ وأما الظاهرة الثانية فتبدو في مفهوم الشاعر للتاريخ بأنه المعين المتجدد الذي لا يحسن الاقتصار في الحديث منه، عند حدود التغني والافتخار بأمجاده، وانما ينبغي بعد ذلك وقبله، أن تتجه الأنظار في الحديث عن الماضي نحو ما يرقى بحاضر الأمة ويسمو بمستقبلها، وهذا ما جعله يغتنم الفرصة في كثير من الأحيان، وهو يتحدث عن الماضي ليطل منه على أحداث الحاضر محاولا أن يلفت الانتباه الى ما في أمجاد الأمة، لما من شأنه أن يحفز الهمم ويقوى العزائم ويبعث الثقة في النفوس بما يقوى فيها الاحساس بذاتها والثورة على أعدائها .

3 ـ كان الشاعر ينطلق في بعض الأحيان في حديثه عن هذين المقومين : اللغة والتاريخ، وبخاصة هذا الأخير وما يتصل به من قضايا الحاضر، من ملابسة بيئته وأحداث محيطه، وهو أمر طبيعي ليس فيه ما يشينه، وان المنهج ذاته كان يصدر عنه في مثل هذه الموضوعات شعراء مدرسته في مختلف البلاد العربية .

وهو بالرغم من انتهاجه ذلك المنهج، وانطلاقه في تلك الموضوعات من خصوصيات وسطه فانه كان ينحو فيه في أغلب الأحيان منحى عاما يستهدف منه الى جانب ما يفيد وطنه الصغير، ما يرقى بوطنه الكبير، وما يسمح له في الوقت ذاته بالتأكيد على تلك الصلات الحميمة التي تربط ما بين الشعب الجزائرى وأشقائه، والتعبير عن مشاركته الوجدانية لهم في آلامهم وآمالهم .

4 ـ وأما الظاهرة الأخيرة فتتعلق بالناحية الفنية، وكنا قد لمحناها في حديث الشاعر عن اللغة العربية، وهي بارزة هنا كذلك في حديثه عن التاريخ، وتتمثل في كون الشاعر لم يوقف على الأحداث التاريخية قصائد معينة وانما كان يتحدث عن مآثر الماضي في ثنايا أعمال كثيرة من شعره، تشمل المقطوعة والقصيدة والأنشودة . فقد يحدث أن يكون يعالج في بعض هذه الأطر الفنية حدثا من أحداث الساعة، أو يتناول قضية من القضايا السياسية أو الاجتماعية، أو الثقافية التي يمور بها حاضره فيدعوه ذلك الى الوقوف عند بعض مفاخر أمته، يلفت النظر اليها ويحث على استلهامها للتغلب على مشكلات الواقع، ويلمح في الوقت نفسه الى أن أمة تكون تملك ماضيا عزيزا مثل ماضي أمته وسلطانا قويا مثل سلطانها لا يمكن أن تطول سيطرة الأعداء على أرضها فيوقظ بذلك الشعور بالاعتزاز في نفوس أفرادها، ويمكن في صدورهم للاحساس بالثقة في الذات فينهضون للسمو بواقعهم والثورة على أعدائهم .

ونخلص في نهاية هذا الفصل الى القول بأن الشاعر كما عني بالوقوف وقفات متأنية عند ماضي الأمة وتسجيل بعض أحداثه بهدف لفت النظر الى ما في كنوزه من مآثر ومفاخر ، والافادة منها في النهوض بالحاضر واستشراق آفاق المستقبل فقد عني كذلك ، وللغرض نفسه بالوقوف عند سير بعض الشخصيات التاريخية الاسلامية ، ممن كان لهم دور بارز في حياة هذه الأمة في القديم وفي الحديث ، وهذا ما سيحاول البحث أن يستجليه من نتاج الشاعر في الفصل المقبل .

الفصل الخامس
الشخصيات الاسلامية

يبدو أن الشاعر يؤمن أن تلك الصفحات المستعرضة من تاريخ الأمة العربية الاسلامية بكل ما تزخر به من مفاخر وأمجاد انما كان فيها لبعض رجالاتها ذكر مشهود لما قاموا به من أدوار في قيادة هذه الأمة ، فكريا ، وميدانيا .

ويظهر أن هذا الايمان هو الذى حمل الشاعر بأن لايغادر ذلك الماضي وأن لايطوى تلك الصفحات دون أن يتعلى بعض ما تشتمل عليه من سير عظماء تلك الأمة ، محاولا أن يبرز ما تطفح به تلك السير من أعمال . . وما تحتوى عليه من مواقف . ويرى الشاعر أنه ليس من الجدير بأمة تملك مثل تلك الطاقات وتنتسب لمثل اولئك الرجال ، أن يخضع أبناؤها لظالم أو يحنوا رؤوسهم لمغتصب ، راجيا أن يكون لهؤلاء الأخلاف من مواقف أولئك الأسلاف ما يعيد لهم الثقة بحاضرهم ويبعث فيهم الشعور بالنخوة والعزة ، فينهضون لتغيير ما بأنفسهم ، واعلان الثورة على أعدائهم .

وان المتصفح لانتاج الشاعر في هذا المضمار يلمس بوضوح أن الشخصية التاريخية الأولى التي حظيت بالمكانة المرموقة في قلبه وشعره هي شخصية الرسول محمد (ص) .

وتأتي في المرتبة الثانية من بعد الرسول (ص) شخصيات الخلفاء الراشدين ، وبعض من نهج نهجهم من الصحابة والتابعين ، وبعض من اقتفى أثر هؤلاء وأولئك عبر العصور ، من عظماء هذه الأمة ، علماء وزعماء . .

ونأتي في مستهل هذا الفصل لنتناول بالدراسة ما جاء في انتاج الشاعر حول شخصية الرسول (ص) ، على أن نردف ذلك بالنظر فيما جاء في شعره حول بقية الشخصيات الأخرى القديمة منها والحديثة .

لقد جاء محمد (ص) من عند ربه برسالة الحق الى الناس كافة ليخرجهم من الظلمات الى النور ، وينقذهم من درك ما يتخبطون فيه من ويلات الظلم والجور ، ومن انحطاط ما يتعثرون فيه من مظاهر الفساد والضلال ، وينقلهم مما يتحكم في علاقاتهم من عداء وخصام ، الى ما سيسود حياتهم من اخاء ووئام . فكان بذلك الرحمة المهداة للعالمين ، والمنقذ الأكبر للبشرية مما عانت عبر تاريخها الطويل . . والبطل الأعظم الذى يجدر أن يتسابق الى الاسترشاد بمواقفه عظماء الأبطال .

وحري بأمة تنتسب الى هذا الرسول العظيم أن تسعى لتفيد مما تزخر به سيرته الشريفة من المواقف والمحامد ، وما تفيض به من الآيات والعبر ، مستلهمة منها المنهاج السليم الذى ينير أمامها الطريق نحو أهدافها .

وسنرى أن من أجل هذه المقاصد كانت شخصية الرسول (ص) في مقدمة الشخصيات التاريخية التي تعلق بها قلب الشاعر وارتبط بها عقله ففاض ذلك على لسانه ابداعا صادقا هادفا ، يصب في اتجاهين اثنين :

ـ أما الاتجاه الأول فهو ما يعكس ما يموج بنفس الشاعر من حب خالص لشخص الرسول (ص) ، وشدة اعجاب بمواقفه وسعي لاكتساب مرضاته .

ـ وأما الاتجاه الثاني فذلك الذي يظهر في حرص الشاعر على لفت نظر أمته الى ما في سيرة رسولها من مواقف ، وحثها على استخلاص العبر منها فيما ينهض بحاضرها ويمكنها من أسباب العزة فيه .

وأما المظهران اللذان يظهر فيهما هذا الشعر باتجاهيه ، فأولهما ما يتمثل في البيت المفرد ، أو في بعض الأبيات المبثوثة في هذه القصيدة أو في تلك ، تعبيرا عن شوق الشاعر الى عهد الرسول (ص) ، استغاثة به من آلام الحاضر ، أو حثّا على احياء سنّته ، أو حرصا على ابتغاء مرضاته . ومن أمثلة ذلك ما يتلامح في مواطن شتى من ديوانه[1] .

وأما المظهر الثاني فذاك ما يتبدى في جملة من القصائد كان الشاعر قد نظمها احتفاء بذكر المولد النبوى الشريف . وقد سبق أن استعرضنا بعض المقاطع منها في الفصل الثالث من هذا الباب ، تبينا من خلالها أن الشاعر اتجه فيها اتجاها واقعيا ، حرص فيه على المساهمة في النهوض بالمجتمع ، ومواكبة تطورات القضية الوطنية .

ونحن لا نأتي الى هذا الحديث لنعود الى ذلك ثانية ، وانما لنتناول تلك المولديات من زاوية أخرى ، وذلك بأن ندرسها كقصائد في فنّ المديح النبوى ، محاولين التعرف على مكانتها من بين ذلك التراث الضخم في الشعر العربي من جهة ، والوقوف عند مساهمة الشاعر من بين الشعراء في هذا الضرب من القول من جهة ثانية . وحتى يفي الدارس بذلك رأى أن المنهج السليم يقتضي منه أن يسبق ما ينوى القيام به ، بكلمة عن فنّ المديح النبوى في الشعر العربي وهذا ما سيكون موضوع الحديث في الفقرة التالية .

تربط نشأة المدائح النبوية في الشعر العربي بظاهرة التصوف (2) ويرجعها بعضهم الى ماقبل ذلك ، فيعد من أوائلها مديحة الشاعر الأعشى[3] (الدالية) التي مطلعها

---

(1) يعثر على ذلك في الصفحات التالية (3ـ123ـ163ـ169ـ179ـ195ـ221ـ229ـ 330ـ235ـ249ـ269ـ234ـ236ـ301ـ355ـ418ـ420ـ597) وفي مطولته (من وحي الثورة والاستقلال) ينظر الملحق
(2) ينظر د . زكي مبارك (المدائح النبوية) ، ص : 14 .
(3) هو ميمون بن قيس وكان أعمى ، ويكنى أبا بصير كان جاهليا ثم أدرك الاسلام في آخر عمره ، ورحل الى الرسول (ص) ليسلم . الا أنه مات قبل ذلك بقرية باليمامة . ينظر أبي قتيبة (الشعر والشعراء) ج 1 : 257 .

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ماعاد السليم المسهدا (1)

ومديحة الشاعر (كعب بن زهير المتوفي 24 هـ) التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول (2)

غير أن الدكتور زكي مبارك يستبعد أن تكون هاتان القصيدتان من فنّ المدح النبوي ، ويعلل ذلك باختلاف دوافع صاحبيهما عن دوافع أصحاب ذلك الفن . . فهؤلاء يصدرون في مديحهم عن حب صادق واخلاص واضح للرسول (ص) ، ورغبة صادقة في مديحه . . ولم يكن شيء من ذلك باعثا من البواعث التي حملت الشاعر الأعشى على نظم قصيدته ، وانما قالها سعيا وراء التكسب . كما لم يكن بعض ذلك دافعا للشاعر كعب على انشاء مديحته . وانما كان قد ألجأه اليها حرصه على النجاة (3).

واذن فان البذور الأولى لهذا الفن يمكن ارجاعها الى (حسان بن ثابت) شاعر الدعوة الاسلامية لما توفر عليه شعره الذي يمدح فيه الرسول (ص) ويذود به عنه من سمات الجد والصدق والاخلاص (4).

وتعاقب على هذا الطريق من بعد (حسان) كثير من الشعراء في مختلف عصور الأدب العربي ، الى أن أصبح هذا الفن في أعقاب العصر العباسي ، غرضا قائما بذاته له من الخصائص والطوابع ما يميزه عن غيره في سائر أغراض الشعر العربي الأخرى (5).

ومما تميز به هذا المديح في عصر الضعف بوجه خاص كثرة الاشتغال به وغلبة روح التصوف عليه ، ووضوح ظاهرة الافراط في الصنعة والتكلف على معظم ماظهر منه في هذا العصر . ولا يكاد يستثنى من ذلك الا بعض المدائح التي صدر فيها أصحابها عن انفعال صادق . تأتي مدائح الشاعر (البوصيري 608 ـ 696 هـ) في مقدمتها ، لما تفيض به من حب خالص للرسول وعاطفة صادقة في مديحه ، ولما اتسمت به من اقتصاد واضح في أسلوبها .

وقد نالت قصيدة البوصيري (البردة) من بين مدائحه الأخرى من الشيوع والاعجاب لدى خاصة العرب والمسلمين وعامتهم مالم تحظ بمثله غيرها ، فحمل ذلك كثيرا من الشعراء والكتاب ، ممن عاصروا صاحبها ، أو ممن جاءوا بعده الى العصر

---

(1) ديوانه ، ص : 171 .
(2) ينظر المصدر السابق الصفحة نفسها .
(3) ينظر د . زكي مبارك (المدائح النبوية) ص : 17 ـ (الموازنة بين الشعراء) ص : 180 .
(4) المصدر السابق ، ص : 28 .
(5) ينظر د . عمر موسى باشا (أدب الدول المتتابعة) ص : 458 .

الحديث ، على الاشتغال بها : معارضة وتشطيرا ، أو شرحا وتفسيرا ، مما هو مبثوث وشائع في كثير من كتب الأدب . وقد ذكر الشيخ خالد الأزهري في شرحه عليها عددا كبيرا ممن عنوا بها هذه العناية [1]. ولم تلبث المدائح النبوية أن تحولت على أيدي شعراء الضعف بتأثير انهماكهم في الصنعة ، ورغبتهم في اظهار البراعة اللفظية ، وطغيان ظاهرة التكلف عليهم ، الى منظومات توشك أن تفقد قيمتها الموضوعية والفنية حتى لا يكاد في أحيان كثيرة يخلو بيت واحد فيها من لون من ألوانه .

ومن أشهر هذه البديعيات قصيدة الشاعر (صفي الدين الحلي المتوفي 750 هـ) وقد سماها (الكفاية البديعية في المدائح النبوية) ، وقصيدة الشاعر (عزالدين الموصلي المتوفي 789 هـ) التي وضع لها شرحا سماه (التوصل بالبديع الى التوسل بالشفيع) .

وقصيدة الشاعر (ابن حجه الحموي المتوفي 837 هـ) التي شرحها في كتابه (خزانة الأدب) . وغير هؤلاء كثيرون [2]. والظاهرة العامة في هذه البديعيات أن الغرض فيها لم يعد مدح النبي (ص) وانما أصبح تعليميا بحتا [3]. وقد انتقلت هذه المدائح من المشرق الى المغرب عن طريق منشئها الأول وهو التصوف . ويذكر بعض الدارسين أن أول شاعر مغربي عرفت له مديحة نبوية هو (ابن خمسارة الخطابي المتوفي 637 هـ) [4] . وعلى أية حال فقد عرفت هذه المدائح في كنف التصوف ازدهارا وخاصة في العهد العثماني الذي كثرت فيه الطرق الصوفية ، وانتشرت في بلاد المغرب انتشارا واسعا ، كما ألمحنا الى ذلك في مكانه من هذه الرسالة . مما أدى الى زيادة الاهتمام بمظاهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف [5]. حتى أصبحت هذه الموالد ظاهرة عامة تنتشر في معظم أرجاء العالم الاسلامي ، مما يمكن القول معه أنه صار لكل طريقة مولد ، ولكل طريقة قصة مولدية خاصة بها [6].

---

(1) ينظر الشيخ خالد الأزهري (شرح البردة) ، ص : 14 وما بعدها .
(2) ينظر المصدر السابق ، ص : 28 . وينظر د . زكي مبارك (المدائح النبوية) ص : 179 ، وينظر د . شوقي ضيف (النقد) من سلسلة (فنون الأدب العربي) ص : 107 وما بعدها .
(3) ينظر المصدر السابق ، ص : 103 .
(4) ينظر محمد بن تاويت ، محمد الصادق عفيفي (الأدب المغربي) ، ص : 200 .
(5) ينظر د . أبو القاسم سعدالله (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 2 : 255 .
(6) ينظر د . زكي مبارك (المدائح النبوية) ، ص : 264 .

وان الذى يمعن النظر في المدائح النبوية في الشعر الجزائرى الحديث لهذا العهد يلمس بوضوح غلبة سمات التصوف على خصائصها في المعنى وفي المبنى نتيجة لدورانها الى ما قبل قيام النهضة الوطنية الحديثة ، في فلك التصوف واغترافها من معينه ، وتمركزها أساسا كما تصورها نصوصها المبثوثة في بعض المصادر[1]، والمراجع [2] حول معاني التوسل وطلب الشفاعة بالرسول عليه الصلاة والسلام ، والحديث عن مولده ونسبه ومعجزاته ، وبعض صفاته حديثا مجردا لا تربطه بالواقع الا صلة واهية ، ويأبى لها التأثير الصوفي السلبي أن لا تقتصر على هذا الاتجاه الغيبي فحسب ، وانما تتجاوزه الى الوقوف عند عتبات بعض القباب تمدح شيوخها وتتبرك بهم أحياءا وأمواتا[3]، ويستغرقها ذلك دون أن تقوى على مغادرته الى شيء مما يمس حياة الناس ويصوّر واقعهم ويقوى الاحساس في نفوسهم بما يجرى فيه مما تدعو اليه رسالة الاسلام وتحث عليه سيرة الرسول (ص) من خلال ما تزخر به تلك من مبادئ ، وما تفيض به هذه من مواقف الجهاد من أجل حياة كريمة عزيزة .

وقد ظلت تلك المدائح الصوفية على ذلك النحو الذى وصفنا حتى جاء العصر الحديث فأصابها على أيدى بعض الشعراء ما أصاب سائر أغراض الشعر العربي من تطوّر وتجديد نتيجة لما طرأ على الحياة من مؤثرات مختلفة أدّت بالشعراء الى أن ينحو بتلك المدائح منحى جديدا ساعد على تحريرها الى حدّ بعيد مما كانت ترصف فيه من مظاهر الضعف المتمثلة في ظاهرة المدح لذاته ، وفي تركيز الاهتمام على الجوانب الروحية دون غيرها ، وفي افراطها في الصنعة . لقد تخلّصت من معظم ذلك وأصبح على رأس ما تعنى به ، وتحرص على تحقيقه ربط موضوعها بواقع الناس ومستجداتهم بهدف النهوض بهما . فاتجهت لذلك نحو ابراز مواقف الرسول (ص) واجلاء صفحات مشرقة من صور الجهاد في حياته ، وتوجيه نظر الأمة الى استخلاص العبرة من ذلك بما يساعدها على السمو بحياتها وتمكينها من أسباب السيادة والعزة ، وهذا ما استطاع أن ينهض به معظم ما قيل في احياء ذكرى المولد النبوى الشريف ، في نماذج الشعر الجزائرى الحديث الذى

---

(1) ينظر ديوان (منار الأشراف على فضل عصاة الاشراف ومواليهم من الأطراف) للشاعر عاشور الخلفي .
— وينظر (تعريف الخلف برجال السلف) أبي القاسم الحفناوى .

(2) (الشعر الديني الجزائرى الحديث) عبدالله ركيبي ، (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 2 ، د . أبوا القاسم سعدالله .

(3) ينظر (منارالأشراف على فضل عصاة الاشراف ومواليهم من الاطراف) عاشور الخلفي ، — وينظر ديوان (منة الحنان المنان) للديسي ، مخطوط .

ظهر في أعقاب ظهور الحركة الاصلاحية ، وقيام النهضة الوطنية الحديثة لصدور الشعراء فيه عن روية جديدة تكاد تخالف تمام المخالفة تلك الروية الصوفية التي كانت تتحكم في مثل ذلك الشعر الى تلك الحقبة المشار اليها ، مما جعله يظل في معظمه مرتبطا أشدّ الارتباط بما يشبهه في التراث الشعرى العربي القديم في موضوعه وفي صورته ولا يكاد يستثنى من ذلك الا بعض المدائح القليلة التي حاولت أن تلمس واقع النا س لمسا خفيفا لم يسمح لها بأكثر من الالماع الى بعض وجوه ذلك الواقع دون القدرة على الاندماج فيه (1).

ولعلّ هذا التطور الذى نحسب أن الشعر الاصلاحي قد حققه في هذا المجال هو الذى جعل بعض الدّارسين يميز ما بين نوعين من المدائح النبوية في الشعر الجزائرى الحديث ، وذلك ما ينص عليه الدكتور عبدالله ركيبي في قوله : (ويمكن التفريق بين نوعين من المدائح النبوية في الشعر الجزائرى الحديث ، النوع الأول هو ماكان امتدادا للتراث القديم في هذا الموضوع وهو يرتبط أساسا بالنظرة الصوفية الى حدّ كبير . أما النوع الثاني فهو الذى اتخذ من مدح الرسول (ص) مبدأ للدعوة الى النهوض واليقظة ، وذلك بعد أن تطورت الحياة الفكرية والأدبية والسياسية) (2).

ويرجع ذلك في الواقع الى معطيات النهضة الوطنية والى الحركة الاصلاحية بوجه خاص تلك التي عملت على قيادة وتوجيه الحركة الأدبية في الجزائر ، فكان من ذلك أن تخلص الشعر الجزائرى الحديث من كثير مما كان يكبّله من مظاهر الضعف من جانبي التصور والتطبيق ، واستطاع شعراء النهضة أن ينقلوه نقلة واضحة من عوالم الغيب الى مجريات الواقع ، وأن يسيروا به أشواطا على طريق تقريبه من اهتمامات الأمة والتعبير عن قضاياها وهمومها .

وقد كانت هذه الحركة وهي تحرص على توجيه الأمة نحو المنابع الصافية من دينها ، وتعمل على التمكين في نفوس أفرادها لكل ما ينهض بشخصيتهم ويسمو بحياتهم واعية لما يقوم به بعض جيوب الطرقية المنحرفة من نشاط سلبي ، شمل بعض الوجوه من الحياة الوطنية ، وكانت مظاهر الاحتفال بذكرى المولد النبوىّ الشريف على رأس المواسم الدينية التي ما فتئت بعض هذه الطرق تستغلّها بجهلها وجمودها استغلالا لا سيئا أضرّ بكيان الأمة لما تسبب في نشره في أوساطها من بدع وضلالات كانت العامل المباشر في شلّ بعض طاقاتها وصرف نظرها عن واقعها .

---

(1) ينظر د . عبدالله ركيبي (الشعر الديني الجزائرى الحديث) ، ص : 112 .
(2) ينظر المصدر السابق ، ص 51 .

وكان الاصلاح — احساسا بخطر ذلك على الدين وعلى الوطن — يغشى بعض مجالس الطرقية ويحضر ما تقيمه من موالد بهدف توجيهها الوجهة السليمة ، واغتنام الفرصة لنشر المفهوم السليم للاسلام في داخل تلك الأوساط وفي خارجها ، وإفهام الناس بأن الاحتفال الحقيقي بهذه الذكرى الكريمة لا تكون بما تتشبث به وتعمل على ترسيخ قدمه بعض تلك الطرق من المظاهر والطقوس والأقوال ، وانما يكون باستخلاص الدروس والعبر من سيرة صاحبها والعمل بما جاء به من هدى ، والتجمّل بما تحلى به من سلوك قويم ، وخلق كريم سعيا وراء تحقيق حياة حرة كريمة مثلما نجد ذلك في مولدية للشاعر " أحمد سحنون " يصور فيها المنهج السليم والمغزى الحقيقي في احياء تلك الذكرى فيقول :

ويا أمة توجتها السما بعثه خير الورى أحمدا
بمولده فاحتفوا باسمه غدا لهدايتنا مولدا
ومنه اقتبسوا قوة في الكفاح غدا تنصروا وتفوزوا غدا
فلم يكن ما مسكم من جراح سوى بانحراف سبيل الهدى
فعودوا له ان تريدوا النجاح وأن لا تضيع المساعي سدى (1)

ويمكن القول أن من أسبق الشعراء الجزائريين وعيا لهذا المفهوم وهذا المغزى للموالد هم شعراء المدرسة الاصلاحية بحكم وقوعهم تحت تأثير الفكر الاصلاحي ، الأمر الذي جعلهم يتجهون في شعرهم الذي يحيون به ذكرى المولد النبوي وجهة جديدة طبعته بطابع التركيز على الواقع والاعراض عما غالى في الخوض فيه معظم الشعراء المتصوفين من قبلهم . بحصر اهتمامهم في دائرة الماضي دون أن تكون لهم القدرة على أن يبعثوا في نفوس الناس من الاحساس ما يحملهم على التفكير في محيطهم والعمل على تحسينه . وينبغي أن لا يفهم من هذا الحديث أن العناية بالماضي كانت من اهتمام أولئك الشعراء وحدهم ، وأما شعراء الاصلاح فلم يكونوا يلتفتون الى ذلك الجانب ، وانما الذي ينبغي أن ندركه من تلك الاشارة أن كلا الطرفين كان يعني بالماضي ، الا أن وجه الاختلاف بينهما يكمن في الرؤية اليه ، فالمتصوفون كان الماضي يستغرقهم ويكتفون منه بالوقوف عند حدود التغني به ولا يكادون يتجاوزون ذلك الى مابعده . أما الاصلاحيون فكانوا يمدون أبصارهم الى أمجاد ذلك الماضي ، لا للتغني بها فحسب وانما لنقل صورها الى الناس ، أولنقل الناس الى وقائعها ليبنوا على أسسها حاضرا قويا عزيزا . وهذا — فيما يظهر — وجه من وجوه التباين بين هؤلاء وأولئك في نظرتهم الى الماضي .

---

(1) ديوانه ، ص : 133 .

وانطلاقا من هذه النظرة كانت قصائد شعراء الاصلاح تحرص على ربط الأمة بحاضرها وتمكن في نفوس أفرادها لما يساعدهم على ترقيته ، ولعل من أبرز هؤلاء الشعراء وفاءا لهذا المنهج ، وأكثرهم استجابة لمراميه ، الشاعر محمد العيد ، كما يبدو ذلك في معظم شعره . وفي شعره الذى أوقفه بخاصة على تخليد ذكرى المولد النبوى الشريف (1).

ونظن أننا بهذه البسطة قد وفينا ببعض ما وعدنا به في مستهل هذا الفصل بوسمنا بعض الملامح لفن المديح النبوى وللمراحل التي مرّ بها في تاريخ الشعر العربي . ويبقى لنا أن نعرف بعد ذلك شيئا عن مساهمة الشاعر في هذا الفن ، وذلك ماسنحاول القيام به فيما يستقبلنا من حديث سالكين اليه منهجا يقتضي قدرا من التأني ، ومن سعة الصدر ، ومن طول النفس للوفاء بما تتطلبه تلك الخطة من استقراء دقيق لنتاج الشاعر في هذا الميدان ، واطالة الوقوف عند نماذجه وانعام النظر فيها والتأني في تحليلها والقيام بعقد بعض الموازنات بين هذه النماذج بعضها ببعض .

ولاشك أن الأخذ بمثل هذا المنهج سيساعد الدارس على معرفة ما كان يشد الشاعر اليه في هذا النتاج ، وما كان يأخذ باهتمام غيره في مثله ، كما أنه سيمكنه في الوقت ذاته من اكتشاف بعض معالم التطور ، ورصد بعض وجوه الالتقاء ، وبعض وجوه الاختلاف فيه ، بينه وبين غيره ، مما يؤدى بالتالي الى ادراك مكانته من بين الشعراء في هذا الضرب من القول .

يعثر الباحث في نتاج الشاعر الذى استطاع الوصول اليه على ستة أعمال كان قد نظمها في احياء ذكرى المولد النبوى الشريف ، وتأتي في مقدمتها من حيث الترتيب التاريخي ، قصيدته (تحية المولد النبوى) (2). وتتكون من خمسين بيتا على بحر (الكامل) ، وهي غير مدرجة في ديوان الشاعر ، ولعل ذلك كان باشارة من الشاعر نفسه ، أو كان نتيجة لسهو وقع فيه محققو شعره ، بيد اني أميل الى ترجيح الاحتمال الأول واستبعد أن تكون أيدى المحققين لم تستطع أن تطول الى مصدر القصيدة وهو - فيما أحسب - ليس من المصادر البعيدة المنال عليهم وعلى الشاعر نفسه الذى كانت تربطهم به صلة خاصة أثناء جمعهم لشعره ، وكان من بين دواعي هذه العلاقة أن يرشدهم الى ما يخفى عليهم من مظان شعره ، كما استبعد أن يكون هؤلاء المحققون

---

(1) ينظر د . صالح خرفي (الشعر الجزائرى الحديث) ص : 54 .

(2) نشرت في (الاصلاح) السنة : 3 - العدد : 2 - 2 ربيع الثاني 1348 هـ - 5 سبتمبر 1929 م ، وهي من شعره المجهول ، ينظر الملحق

قد وقفوا على هذه القصيدة وتعمدوا اغفالها بمبادرة من أنفسهم ، وهم يعرفون أن ذلك انما يكون على حساب القيمة العلمية لما هم عاقدون العزم على النهوض به .

واذن فاني أميل في تفسير هذه الظاهرة الى ما سبق ترجيحه ، وهو أن الشاعر نفسه ، هو الذي قد يكون وراء ذلك لسبب من الأسباب ، ربما يكون من بينها ومن أهمها في الوقت ذاته ، ما يتبدى على القصيدة — وهي من أقدم ماوصلت اليه يد الباحث من نتاج له في موضوعها — من مظاهر الاقتفاء بمثيلا تها في التراث الشعرى العربي ، مما صبغها بمسحة صوفية ، وجعل الروئية الاصلاحية فيها التي خلص اليها الشاعر بكليته فيما بعد ، غائمة وغير واضحة . فلعل الشاعر يكون قد رأى لهذه العوامل أن القصيدة لم تعد تعكس وجهة نظره ، ولم تعد تمثل شخصيته لافكريا ولا فنيا ، بعد الذى انتهى اليه من تطور في روئيته الموضوعية والفنية على أيام طبع ديوانه وهو في آخر حياته ، فأوحى للناشرين باغفالها ، ونذكر أن هذا القرار من الشاعر لم يقع على هذه القصيدة وحدها ، وانما شمل غيرها مما يقرب منها فنيا في شعره ، ولعله لايخفى أن الشاعر لم يكن بتصرفه هذا بدعا من الشعراء ، ولا كان عمله ذلك ظاهرة فريدة في تاريخ الشعر العربي ، وانما هذا الذى قام به ، انما هو أمر ملحوظ في نتاج بعض الكتاب والشعراء ، وان من أقرب الأمثلة الينا والى الشاعر نفسه من هذا الصنيع ، مالم ينشر من نتاج الشاعر أحمد شوقي — وقد يكون تعمد اغفاله — وهو جزء ليس بالقليل من شعره ، ظهر من بعده وهو الذى يعرف باسم (الشوقيات المجهولة) (1) .

ومهما يكن من أمر ذلك ، فان آثار احتذاء القديم المشار اليه في هذه القصيدة تبدو في غير ما موضع ، وفي أكثر من مظهر فيها مما يجعلها أقرب ما تكون في روئيتها وفي معناها الى مدائح البوصيرى وأضرابه ، وما يشبه ذلك من أعمال الشعراء الجزائريين المتقدمين على عصر الشاعر . ويخيل اليّ في هذا الصدد أن محمد العيد كان واقعا ساعة ابداع هذه القصيدة تحت تأثير هذين النموذجين ، فكان يغترف بيد من هذا ، وبيد من ذاك . ويمكن أن يلمح ذلك التلاقي بين الشاعر وبين البوصيرى في (همزيته) بخاصة أول ما يلمح ، في تحرير كل من الشاعرين ، من تلك المقدمة الغزلية ، وفي هجوم كل منهما على موضوعه من أول عمله ، وفي وقوعهما الاثنين على معان متقاربة في مطلعي قصيد تيهما ، بما يعكس رغبتهما في الرفع من مكانة الرسول (ص) من بين الرسل قاطبة ومن بين الناس أجمعين ، كما ترمز الى ذلك لدى محمد العيد هذه الأبيات من مطلع مولديته ، التي يخاطب فيها أحد الأشخاص بقوله :

---

(1) يقع هذا العمل في جزئين — صنعة د . محمد صبرى (نشر دار المسيرة) بيروت ، ط 2 — 1399 هـ / 1979م .

قم فاحتفل واعقد بشهر المولـــد ذكرى لتاج الأنبيـاء (محمـــد)
قم فاقتبل بالبشر ليلتـــه الـــتي سادت على الدنيا بأعظم سيـــد (1)

ويقول الشاعر بعد ذلك :

تتقاصر الأمثال دون مقامـــه فمقامه فوق السهـا والفرقـــد
كتقاصر المشكاة في تمثيلهـــا للنور والفاني نقيض السرمـــد (2)

وأحسب أن هذه المعاني تتصل بأكثر من سبب بما جاء في مطلع همزية البوصيرى يخاطب فيه الرسول (ص) بقولـه :

كيف ترقى رقيك الأنبيـــاء ياسماء ما طاولتها سمـــاء
لم يساووك في عـــلاك وقد حـــا ل سنا منك دونهم وسنـــاء
انما مثلوا صفاتـــك للنـــا س كما مثـل النجوم المـاء (3)

ويقع البوصيرى على ما يقرب من هذا المعنى في (بردته) أيضا فيقول :

فاق النبيين في خلق وفي خلـــق ولم يدانوه في علم ولا كـــرم
وكلهم من رسول اللـه ملتمـــس غرفا من البحر أو رشفا من الديم (4)

ويخرج من هذا التخصيص الذى وصل فيه الى قناعة في بيان قيمة الرسول (ص) من بين الرسل ، الى تعميم يؤكد فيه ايمانه بفضله وعلو مكانته على العالمين قاطبة ، فيقـول في القصيدة نفسهـا :

فان فضل رسول الله ليس لـــه حدّ فيعرب عنه ناطق بفـــم
فمبلغ العلم فيـه أنـــه بشـــر وأنه خير خلق الله كلهـــم (5)

ويبدو أن وجه الشبه كبير بين ماقاله محمد العيد وبين ماقاله البوصيرى في المعنى وفـي المبنى ، وان كان من فرق في ذلك ، فلعله ما يبدو في طريقة التعبير لذى كل منهما ، حيث نرى أن ما أسهب فيه البوصيرى ، قد أجاز فيه محمد العيد .

ويلتقي الشاعران مرة أخرى فيما شاع في مدائح المتصوفة خاصة من حديثهم عـن (النور المحمدى) و (الحقيقة المحمدية) ، وفيما يؤمىء الى الفكرة القائلة بخلق الكـون من أجل محمد (ص) ، وخلقـه قبل أن يخلق (آدم) عليه السلام ، يقول الشاعر فـي هذه المولدية :

---

(1) — (2) ينظر نص المولدية في الملحق
(3) ديوانـه ، ص : 1 .
(4) — (5) ديوانه ، ص : (193 — 194) .

هو الذى ذرأ الاله عباده ... وجماده من نوره المتوقد (1)

ثم يخاطب الرسول قائلا :

ياحاملا علم النبوة في الورى ... وأبو الورى في الطين لم يتجسد (2)

أليس هذا المعنى بقريب من معنى البوصيرى في هذا البيت :

وكيف تدعو الى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدم ؟ (3)

وان هذا المعنى كذلك من بين ما يتقابل فيه الشاعر مع بعض من تقدمه من شعراء المدائح النبوية من الجزائريين ، أولئك الذين طغت على أعمال معظمهم في مطلع العصر الحديث ، النظرة الصوفية ، فحكمت عليهم بالدوران في فلك الغيب والمغيبات الذى أسرهم اليه أسرا شديدا ، لم يكد يسمح لكثير منهم بأن يستيقظ في نفوسهم في أغلب الأحيان كبير اهتمام بما يجرى في واقعهم الذى يعيشون فيه وما يدور فيه بين وطنهم وبين أعدائهم من صراع (4) .

ويقترب الشاعر أيضا من أولئك الشعراء بعض الاقتراب فيما يبدونه من اهتمام كبير بالصفات المادية للرسول ، غير أنه لا يجاريهم في طريقة تناولهم لتلك الصفات التي تقوم على أسلوب التعداد الذى لا يهدف أحيانا الى أبعد من مجرد التعداد ، ان الشاعر لا يفعل ذلك وانما يتحدث عن تلك الصفات حديثا تعلوه مسحة من التصوير استطاعت أن تطبعه ببعض الحيوية والحركة ، كما يتجلى في هذه الأبيات :

وتأملت فيه نساء الحي في ... طفل وديع بالملاحة مرتدى
سمح الملامح ناعم كالورد في ... أكمامه أو كالغزال الاغيد
متناسب الاطراف مثل خليسة ... مصقولة أو مثل سمط ز برجد
أو مثل دمية صانع متفنوق ... في النحت فنان الانامل مفرد

وأحسب أن الصورة في البيت الأخير ، التي تقوم على تشبيه الرسول في طفولته ، بدمية في يد نحات ماهر ، يقلل من القيمة التصويرية في هذه الأبيات التي لفتت نظر بعض الباحثين فنوهوا بها (5) .

ولا أستبعد أن يكون الشاعر قد وعي ذلك فيما بعد ، فكان من بين الدواعي الفنية التي حملته على تعمد اغفاله نشر هذه القصيدة .

وتحدث الشاعر أيضا في هذا العمل عن بعض معجزات الرسول وهي من أهم ما تعاقب عليه وبالغ فيه الشعراء المتصوفة في مدائحهم ، بيد أن محمد العيد لم يكثر منها

---

(1) ـ (2) ينظر نص المولدية في الملحق

(3) من قصيدته البردة ينظر ديوانه ، ص : 192 .

(4) ينظر د . عبدالله ركيبي (الشعر الديني الجزائرى الحديث) ، ص : 91 .

(5) ينظر المصدر السابق ، ص : 39 .

ولم يوغل في الحديث عنها ايغالهم ، وانما اقتصر على واحدة منها فقط وهي معجـــزة (الاسراء والمعراج) . ولعل مرد ذلك لما ترمز اليه هذه المعجزة من قدرة اللــــه وعظمته ، وما توحي به من حرية مشيئتـــه وقوة ارادته ، يقول الشاعر في صورة لا تخلو من بعض الحيويــة والحركـــة :

يا من رقى فوق السموات العلــــي	متبوءا متن (البراق) الا ُسعـــد
وعليه أملاك تحـف جلا لــــــه	بطراق عز في الفضـــــاء ممـــدد
والعرش مبتهج بـــه والمنتهـــى	وملا كــه من ركـــع أو سجـــــد
والله ملكشف اليـــه بذاتــــــه	والنا س بين مصـــدق ومفنـــــد
قسما بمشهدك الذى أوتيتـــــه	ما زاغ طرفك عنـــد ذاك المشهد (1)

ويحســن أن لا يفهم من هذه المقابلة بين الشاعر وبين من سبقه من الشعراء في هذا المضمار أن ما وقع عليه من معاني وما استهدفه من مقاصد ، انما هو عينه ماكان يحرك أولئك الشعراء من قبله . وان المتعمق في الا ُمر يدرك أن أقصى ما نود أن نومئ اليه فـــي هذا الشأن أن بين الشاعر وهو في أول عهده بهذا الموضوع ، وبين أولئك الشعراء ، بعض وجوه التلاقي التي أحسب أنها أقل أهمية من وجوه الاختلاف التي يأتي في مقدمتها ما يلحظ من تباين في الا ُهداف وهي جوهر العمل بين الجانبين .

أظن أنه لا يخفى أن عددا ليس قليلا من أولئك الشعراء ، انما كان يرمي في الغالـــب من مدائحه الى غايات ذاتية أو خاصة ، ولا يكاد يخالطها كبير عناية بالمقاصد العامة ، بينما نشاهد محمد العيد — وقد مر معنا أنه من الشعراء الذين يؤمنون بأنهم أصحاب رسالة — ماكان يصدر في قصيدته هذه ، وفي معظم شعره بدافع تلك الغاية الفردية الشخصيـــة ، وانما الذى كان يحركه ، ويرمي اليه في الغالب ، في الوقت ذاته في شعره ، انما هو المصلحة العليا للا ُمة . وان حرصه على هذا المرمى وسعيه اليه ، هو الذى يفسـر للدارس تلك العوامل التي ساعدت الشاعر على الافصاح من مطلع عمله عن مقصده منه ، رغم تلك الا ُجواء الروحيــة التي كان يتنفس فيها هناك ، وكانت تحاصره وتضغـــط عليه من كل الجوانب ، ومع ذلك ، فقد تمكن من الانفلات منها . وهو عما ترمز اليــــه أهدافـه قائـــلا :

وأعد على الا ُسماع من تاريخـــــه	عبرا لكل موفـــق ومســـــدد (2)

ان استخلاص العبر من سيرة الرسول ومن مواقفه فيما ينفع الا ُمة وفيما يفيدها ، هو الذى يغلب على اهتمام الشاعر ، وهو الذى يمثل أسمى غاياته ويميز مولدياته وغيرها من شعـــره الاسلامـــي .

(1) — (2) ينظر نص المولدية في الملحق

ولا شك أن من يقف عند بعض هذه المرامي في هذه القصيدة ، يتضح له أن الرؤية الواقعية لم تختف منها ، وان بدت عليها مسحة من التصوف رقيقة .

ويمكن القول أن الفكرتين ، النظرة الصوفية من جهة ، والرؤية الواقعية الاصلاحية من جهة أخرى ، كانتا تعيشان في هذا العمل جنبا الى جنب ، مما يفسر تعايشهما قبل ذلك وبعده في قلب الشاعر وفي عقله .

وان تلك الوقفة عندما بدا لنا أنه من سمات التصوف ، تسلم الباحث الى ما يتبدى من جهة أخرى أنه من ملامح الفكرة الاصلاحية ، ولعل أول ما يومئ الى ذلك ، ما جاء في حديثه عن جهود الرسول (ص) في نشر دعوة ربه وجهاده المشركين دونها ، وذلك في قوله :

والله بعد الأربعين أمده ... منه بشرع بالحدود مؤيد
واختاره للعلم خير معلم ... واختاره للسلم خير ممهد
والجاهلية محدق سلطانها ... في العالمين بمتهم وبمنجد
فدعا العباد الى السلام مسارعا ... في نصحهم بعزيمة لم تخمد (1)

ثم يتوجه الى الرسول (ص) بالخطاب وهو يصور بعض ما تحلى به من سمو الخصال والفعال فيقول :

في فعلك السامي المؤيد بالهدى ... فقه الحنيف وأسوة المتعبد
لك في صلاح العالمين اجادة ... كإجادة الإكسير صوغ العسجد
وعليك نور من صفاتك مرشد ... للمستخير ومصلح للمفسد (2)

ويبدو أن ما تضمنته هذه الأبيات من اشارة الى الجو الذي كان يناضل في وسطه الرسول (ص) وما كان يحدق به من جاهلية وما ارتبطت به دعوته من حث على العلم ، وترغيب في السلم ، واعتماد على النصح والارشاد ، ومن استهداف الى الصلاح والاصلاح ، يبدو أن كل هذه الكلمات من المعجم اليومي للحركة الاصلاحية ، ومن المبادئ الأساسية التي يقوم عليها منهجها في الدعوة وفي العمل . وان وضع هذه الصورة الى جانب الصورة السابقة ، يجعل الباحث يلحظ المكان الذي يقف فيه الشاعر في هذه القصيدة ما بين الفكرة الاصلاحية التي بدأت تغزو عقله ووجدانه من زمان ، ولما تستول عليه بعد ، وبين ما ترعرع في ظله ، وما بقي في نفسه منه بقية من أفكار التصوف .

وان هذا الموقف الوسط الذي نشير اليه يتجلى أحسن ما يتجلى ، في الخاتمة التي أنهى بها الشاعر قصيدته ، فهو لم يبنها على منوال المتقدمين فيضمنها معنى التسبيح والدعاء حينا ، أو الصلاة على الرسول والتوسل به حينا آخر ، ولا هو تجرّد

---

(1) — (2) ينظر نص القصيدة في الملحق .

فيها من جهة ثانية من كل أثر لذلك ، ونهج لنفسه فيها منهجا خاصا به ، انه لم يفصل هذا ولاذاك ، وانما كان يقف بين بين ، يتحدث عن ذاته حديثا يقترب فيه من خواتم بعض الشعراء المتقدمين حينما يتوجهون بالخطاب الى الرسول (ص) معربين له عن هدفهم من مدحه ، الذى لم يكن أكثر من ابتغاء مرضاته ورجاء شفاعته ، واذنه لهم بورود حوضه الكريم ، ويتحدث عن الجماعة بما يبرز نزوعه الى الواقع وحرصه على النهوض به ، ويوضح في الوقت نفسه تأثره في ذلك ببعض المتقدمين .

وتبدو الصورة الأولى في هذه الأبيات التي يخاطب فيها الشاعر الرسول (ص) قائلا :

يا من جعلت رضاه لي مقصدا	وأراه يسعفني بهذا المقصد
هل أنت تسمح بالشفاعة لي وهل	في الحوض تفسح لي وتكرم موردى ؟
حث العباد الصالحون ركابهم	وبقيت بعد ركابهم في فدفد (1)

ويتجلى موقفه الثاني في هذه الأبيات ، التي تكشف عن تألم الشاعر وتوجعه لما آل اليه حال الاسلام والمسلمين من بعد نبيهم ، فيتوجه الى حضرة الرسول (ص) بالشكوى قائلا :

أشكو اليك بما تجدد من أذى	بعد التحاقك بالرفيق الأصعد
عصفت على الاسلام بعدك صرصر	فتبدد الاسلام كل مبدد
وجرت بأرض المسلمين حوادث	شتى كأمواج الخضم المزبد (2)

وبعد فمهما يكن الشاعر قد بلغ اليه في قصيدته هذه من تلميح الى ما يجرى في محيطه فانه لم يبلغ فيها ما سيبلغ اليه في مثيلاتها في المراحل المقبلة من نضج وتطور ، فهو وان كان قد التفت في هذا العمل بعض التفاتة الى واقع أمته وأشار الى بعض ما يعتوره من علل ، فانه قد اكتفى بذلك ، ولم يتجاوزه الى الحديث عما تتطلبه تلك الأدواء من أنواع الدواء ، فهو لم يدع الى نهضة ، ولم يرسم الطريق الى ما تقوم عليه من علم وعمل وجهاد ، مما سيكون من صميم أهدافه في مولدياته المقبلة .

وقد بدا بالاضافة الى ذلك مشدودا في الجانب الفني من قصيدته هذه أيضا ، بقوة الى التراث ، تعبيرا وتصويرا ، كما يتجلى ذلك في جملة من الألفاظ التي استمدها من مخزونه من الثقافة القديمة من مثل (السها ، الفرقد ، السرمدى ، الاكسير ، المسجد ، فدفد ، أجذ ، مبتسر ، متهم ، منجد) وغيرها مما يشبهها مما هو مبثوث في مواطن كثيرة من القصيدة .

---

(1) — (2) ينظر الملحق

وأما جانب التصوير فيتجلي في هذه الصور الضارب معظمها في أعماق القديم، فيشبه الشاعر بعضها ملاحة الرسول (ص) وجماله في طفولته، بـ (الغزال الاغيد) و(بخلية نحل معسولة) و(سمط زبرجد)، ويمثل بعضها الآخر أثره في هدايته العالمين واصلاح أمرهم بـ (اجادة الاكسير صوغ المسجد). وتتراءى له بعضها ثالثا فداحة الخطوب التي حلت ببلاد المسلمين وكأنها (أمواج الخضم المزبد) وتتبدى له في بعضها قسوة حكم الاحتلال الاجنبي وجوره حتى لكأن بذلك (بنوده من جلمد).

وأحسب أن في هذه السمات الفنية، وفي تلك الخصائص الموضوعية التي سبق ذكرها، دليلا آخر يضاف الى ما مر معنا من الدلائل تؤكد جميعها على بقاء الشاعر الى هذا التاريخ موصولا — وبخاصة من الناحية الفنية — بجاذبية من تقدمه من الشعراء على هذا الطريق، مما حال بينه وبين السمو الى ما أشرنا اليه، مما قصر فيه من أهداف، ولا يستبعد أن يكون ذلك من نحو آخر، واحدا من العوامل التي تكون قد لعبت دورا هاما في حمل الشاعر على عدم ادراج عمله هذا في ديوانه، لما أصبح يرى من فروق بينه وبين ما بلغت اليه أعماله المماثلة اللاحقة: من قدرة على تصوير ملابسات المحيط ومساهمة فعالة في تطويره والنهوض به مما قعدت دونه هذه القصيدة، التي تعكس بصدق شخصية الشاعر في هذه الفترة التي لم يحظ فيها بما سيحظى به من بعدها من وضوح الرؤية الاصلاحية لديه وغلبتها على غيرها في فكره، وذلك في أعقاب ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي شهدت على إثرها الحركة الاصلاحية تطورا واضحا أصاب الشاعر قدر غير يسير منه، انعكس صداه فيما نظم من بعد من شعر.

وتلقانا مولديته الثانية في مستهل هذه المرحلة الجديدة وهي تحمل هذا العنوان (خطك الله للعباد كتابا)[1]، وتتكون من واحد وأربعين بيتا على بحر (الخفيف).

واذا كان ليس لدينا ما يؤكد لنا من أن الشاعر كان قد ألقى قصيدته السابقة في احدى الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف، قبل أن ينشرها في جريدة الاصلاح، اذ ليس في الكلمة التي قدمتها بها هذه الجريدة الى جمهور قرائها ما يشير الى شيء من ذلك، فان الأمر مختلف بالنسبة لهذه القصيدة التي نشرتها مجلة الشهاب، وجاء في تقديمها لها ما يؤكد أن الشاعر ألقاها في الحفل الذي أقامه نادي الترقي بالعاصمة احياء لذكرى المولد النبوي الشريف وذلك عام 1351 هـ الموافق لـ 1932 م (2).

---

(1) نشرت في (الشهاب) ج 8 م 3 ربيع الثاني 1351هـ / أوت 1932م. ص: 410، وهي من شعره المجهول ينظر الملحق

(2) ينظر [illegible]

والقصيدة كسابقتها لم تدرج في ديوان الشاعر ، لعل للأسباب نفسها المشار اليها فيما تقدم من دراسة .

ونبادر الى القول بأن آثار القديم بادية على القصيدة في معظم بنائها معنى وصورة في أكثر من مظهر ، ولعلّ أول ما يتبدى من ذلك هذا العنوان التقليدي الذي هو شطر بيت من القصيدة ، وهو عمل لم يعد يعمل به المحدثون في الكثير من نتاجهم ، وان الشاعر نفسه قد تخلّى عنه في آخر حياته ؛ ويبدو ذلك بصورة أوضح فيما قام به عند طبع ديوانه بتغيير معظم عناوين قصائده التي كانت في الاساس أشطار أبيات(1) .

ومن ملامح القديم كذلك هذه المقدمة الطويلة التي وان لم يبنها الشاعر على ما كانت تبنى عليه مثيلاتها لدى أغلب المتقدمين من شعراء المدائح النبوية من معاني الغزل والنسيب ، فانه لم يستطع أن يتخلص فيها من كل أثر للقديم الذي يبدو في حرصه على بيان فضل الرسول (ص) والالحاح على الرفع من مكانته من بين الرسل قاطبة ومن بين الناس أجمعين ، كما تعكسه هاتان العبارتان (يا أفضل الرسل قدرا) و (أفضل الخلق طرّا) الواردتان في هذين البيتين :

وأبو البنين قلبا وكيفا	ولسانا وأفضل الخلق طرا
لا رعى الله معشرا لم يراعوا	لك قدرا يا أفضل الرسل قدرا (2)

وقد وقفنا عند ما يشبه هذا المعنى في القصيدة السابقة ولاحظنا هناك أن الرغبة في بيان فضل الرسول (ص) ، والحرص على الرفع من مكانته منزعان قديمان يأتيان في مقدمة ما اشتهر به البوصيري في مدائحه خاصة ، وما شاع من بعد في شعر المتأخرين .

ويبدو ثالثا أثر ذلك التراث في هذه القصيدة في تلك العناية الواضحة ببعض مظاهر الصنعة التي تتجلى أكثر ما تتجلى في الاهتمام بالصور البيانية ، وفي ألوان البديع .

ويتجلّى ذلك بخاصة في تلك القائمة الطويلة من الصور الموروثة المتلاحقة التي قلّد بها الشاعر مقدمة قصيدته في معرض حديثه عن الرسول (ص) ، كما يبدو ذلك في هذه الأبيات :

---

(1) كنا قد ألمعنا الى ذلك عند معالجتنا لكثير من قصائده المدروسة .
(2) ينظر نص القصيدة في الملحق .

رحمة الله للورى من مقر — لك دينا ومعرض عنك كفرا
وهدى منه للورى وسراج — ويقين لهم وحق وبشرى
وصراط لهم الى الله هاد — وصلاة مجابة منه كبرى
خطك الله للعباد كتابا — في سلوك العباد دنيا وأخرى (1)

وأما مظاهر البديع فتتوزع على كثير من هذه الأبيات في القصيدة ، فقد جاء فيها من أمثلة (الجناس) قوله (الشعر والشعرى / مغرم ومغرى / نافس ونفس / أجار وأجرى) ، ومن أمثلة (المقابلة والطباق) ، هذه العبارات : (من مقر لك دينا / ومعرض عنك كفرا) ، (نعمى وبؤسى / ليلا وفجرا / حلوا ومرا / خيرا وشرا) .

ولعل في هذه السمات الفنية ما يكفي للتأكيد من أن الشاعر حينما كان ينظم قصيدته هذه كان النموذج القديم للمدائح النبوية ، وبخاصة مدائح البوصيري — التي اشتهرت من بين غيرها بسمو مقصدها وجودة أسلوبها — ماثلا أمام عينيه ، فأحس — وهو حديث العهد بهذا اللون من الشعر — بالحاجة الى أن يترسم خطى ذلك النموذج ، وأن يتلمس طريقه وهو بعد في مستهله على هديه .

وماذا بعدما جاء في هذه القصيدة ؟

ان الشاعر انتقل من تلك المقدمة التي رأينا الى الحديث عن نسب الرسول (ص) فأشاد بمحتده الكريم ، ونوه بذلك الشرف العظيم الذي خصت به العناية الالهية والدته السيدة (آمنة بنت وهب) ، بأن كانت أما لأفضل مخلوق وأبر مولود وأكرم نبي في العالمين ، جاء من عند ربه رحمة مهداة للناس كافة لينقذهم مما يتخبطون فيه من هوان وضلال ، ويخرجهم برسالة الاسلام من الظلمات الى النور :

بنت وهب رزقت منه ابن وهب — وأبا همة كريما أغرا
ليس في المنجبات مثلك أما — حرة أنجبت من النسل حرا
أنت أوتيته من الله كنزا — كل ما جاءه على الاثر أثرى
وأبر البنين قلبا وكفا — ولسانا ، وأفضل الخلق طرا
جرت الحادثات نعمى وبؤسى — فأجار الحدود فيها وأجرى
وتفشى الضلال في الكون ليلا — فأفاض الهدى على الكون فجرا (2)

ثم ينتقل من هذه الوقفة عند نسب الرسول (ص) وبعض صفاته الى الحديث عن معجزاته حديثا يختلف عما ألفه الدارسون لدى المتقدمين من شعراء المتصوفة ، أولئك الذين يعنون في هذا الموضوع بالتعداد ويغالون في هذا التعداد . ان محمد العيد لاينهج ذلك النهج في هذا الموضوع ، وانما يختط لنفسه خطة خاصة يركز فيها على واحدة من معجزاته هي أعظمها وأهمها ، انها معجزته الخالدة : (القرآن الكريم) . فيقف عند هذا

---

(1) ينظر نص القصيدة في الملحق
(2) المصدر السابق

الكتاب مرتين اثنتين في مكانين مختلفين من قصيدته هذه ، ممّا يحببه الدارس الأدبي على من يأتي بمثله من الشعراء في عمله الفني ، ويكون ذلك بمعالجته لمعنى من المعاني ثم يتركه الى غيره دون أن يستوفيه ، ثم يعود اليه ثانية ، فيؤثر ذلك في بناء القصيدة وفي وحدة موضوعها . ويكون من ثمّ مدعاة لتفكك جزئياتها ، وانعدام الترابط والتماسك المطلوب بين وحداتها ، ممّا يؤدي الى بلبلة ذهن المتلقي ، ويفوّت عليه فرصة الفهم الجيّد ، والتذوق الحسن للعمل الابداعي الذى بين يديه . وهذه ظاهرة لم يسلم من الوقوع فيها بخاصة كثير من شعراء عصر الضعف . كما لم يستطع الشاعر البوصيري نفسه — على الرغم مما امتازت به مدائحه من اخلاص في القصد وصدق العواطف — أن يتجوفيها من بعض وجوه ذلك النقص، كما يبدو ذلك في (همزيته) وهو يتحدث عن نسب الرسول ومولده وعن بعض صفاته ذلك الحديث الذى جاء غير متماسك وغير مترابط ، وبدا فيه غير قليل من التفكك والاضطراب (1).

وعلى أية حال فان الشاعر خلص من هاتين الوقفتين عند رحاب القرآن الكريم الى خاتمة قصيدته ، وهنا يحسن بنا أن نتساءل : هل وقف الشاعر في هذه الخاتمة ذلك الموقف الوسط الذى لمحناه في القصيدة السابقة ، أم أنه نهج فيها نهجا آخر ؟

يبدو أن الشاعر استطاع أن يحقق — بعد الذى أصابه من تطور في أعقاب مضي حوالي خمس سنوات على اقامته بالعاصمة — قدرا ملحوظا من الأصالة الفنية مكّنه من أن يسلك في خاتمته مسلكا يخالف مسلك المتقدمين في خواتمهم التي تقوم على معاني الدعاء والتوسل ، كما أنه لم يتأرجح فيه بين هذا الاتجاه أو ذاك ، وانما خلص في هذا الشأن الى منهج خاصّ سيصبح تقليدا عاما لديه يلوّن معظم شعره وأعني به التركيز في الخاتمة على استخلاص العبرة من هذه الذكرى الكريمة والافادة من سيرة صاحبها بما يحقق منهجه العام في النهوض بالأمة ويسمو بواقعها ، ويرقى بحياتها ، ويمكن في نفوس أفرادها لأسباب العزة والتقدّم .

وهل هناك ما يساعد على بلوغ تلك المآرب أحسن من الانفتاح على العصر ومواكبة تطوره ، والاغتراف من معين العلم والتوسع في طلبه ، والتمسك بمقوّمات الشخصية الوطنية من دين ولغة وأصالة ؟ يقول الشاعر في ذلك مخاطبا صحبه :

يارفاقي أظلنا عصر جـديد ... فتعالوا نشد لنا منه عصيرا
وفشا العلم حولكم فأجيلوا ... فيه طرفا وأمعنوا فيه فكرا

---

(1) ينظر ديوانه (الصفحات من (1 — 29) .

يارفاقي على العروبة فاحيوا ... وبنو العرب بالعروبة أحرى
وذروا ضاد ما المحجب يطلع ... في سماء اللغى على الجيل بدرا
وأجيبوا في الحق دعوة داع ... من سوى الله ليس يسأل أجرا (1)

وان بدا أن الشاعر كان يترسم في هذه القصيدة بعض ملامح القديم فانه استطاع الى حدّ ما أن ينتهج فيها نهجا خاصًا يحقق فيه أصالته وطابعه الشخصي كما يتجلى ذلك فيما استهلّ به هذا العمل وفيما اختتمه به ، وفيما كان وسطا بين هذا وذاك . لقد استطاع بادىء ذى بدء أن يتحرر في هذه المولدية من الطابع التقليدى الذي تبنى عليه في الغالب مثيلاتها لدى المتقدمين من الشعراء ، وبعض المحدثين ، ذاك الذي يتمثل في تلك المقدمة الغزلية حينا ، وتلك الخاتمة الدعائية التوسلية حينا آخر ، وفيما يتوسطهما من مدح تغلب عليه المعاني الصوفية ، كما استطاع أن يتخلص فيها أيضا من ظاهرة المدح لذاته ، ومن سيطرة روح النظم ، وأن ينطلق فيها من منطلق آخر يصدر فيه عن واقعه وعن ذاته ، كما يكشف عن ذلك انفعاله بموضوعه واندماجه فيه ، ذلك الذي يتبدى في صور شتى يأتي في مقدمتها تلك الرؤية الواعية بمشكلات المجتمع ، المتفتحة عن قضايا العصر ، المدركة لأسباب العزة والسيادة فيه . كما يبدو ذلك أيضا في حديث الشاعر عن المكانة الرفيعة التى يحظى بها شعر المولد الشريف لدى الشعب الجزائرى ، وفي تصويره لتلك المشاعر الرقيقة التي تفيض بها قلوب الجزائريين وهم يحيون ليالى الاحتفال بهذه الذكرى . ويظهر ذلك أخيرا في افصاحه عن الحب الساكن قلبه نحو الرسول (ص) المتجدّد بتجدّد ذكرى مولده في كل سنة . يعبر الشاعر عن ذلك فيقول :

وسقى الله في الجزائر شعبا ... لا يوازى بشعر ذكراك شعرا
حركته ذكرى الرسول فأهدى ... لك حفلا شجي القلوب وأسرا
غير بزّ و من ورد ذكراك قلب ... لك في كل برهة منه ذكرى

ومما استطاع الشاعر أن يحققه الى جانب ذلك في هذه القصيدة ممّا يكشف عن تفاعله مع الواقع وتطوره ، ما يتلامح خاصة في الجانب الفنّي منها ، وهو تخلصه من ذلك التعداد لصفات الرسول (ص) لمجرّد التعداد ، وتحرره من ذلك الالحاح على الصفات المادية خاصة بتصوير جماله ومحاسنه مما ولع به المتصوفة خاصة ، ومن الايغال في ذكر معجزاته ، وممّا عني به بعض الشعراء من مظاهر الغلو وألوان المبالغات .

وبعد فان محمد العيد لم يكن يمدح الرسول (ص) لمجرّد المدح والاشادة ، وانما كان يمدحه ويشيد بما جاء به من دين قويم ، وما تحلى به من خلق عظيم لوجوب

---

(1) ينظر نص القصيدة في الملحق .

الانتفاع بذلك . وان حرصه على هذا القصد الذى يتمثل في استخلاص الدروس من هذه الذكرى هو الذى جعله لا يقنع بمجرد لفت النظر الى ذلك ، وانما ينص عليه نصّا صريحا بذكر لفظ (العبرة) ذاتها وهو يتحدث عن الرسول (ص) ، ويشبه أخلاقه الكريمة بالكتاب الذى رسم فيه الله للناس مواطن كثيرة للعبرة والموعظة الحسنة :

خطك الله للعبـــاد كتابـــا في سلوك المعاد دنيا وأخـــرى
كم لهم فيه (عـبرة) واهتــداء لو أحاطـوا ببعض ما فيه خبرا

وتفصح هاتان البيتان بوضوح عن مرمى الشاعر في شعره هذا ، والذى سيكون الطابع المميّز لما يتوخاه في بقيته من أهداف .

ويمكن للباحث بعقده موازنة بسيطة بين هذه القصيدة وسابقتها أن يلمح في غير عسر في موضوعيهما وفي صورهما ، تلك النقلة الواضحة التي شهدها الشاعر على طريق التطور بعد ما مرّ على مكوثه في العاصمة حوالي خمس سنوات سمحت له بان يكون أشد احتكاكا ما بالتيارات الفكرية والادبية السائدة بها ، بما مكنه من توسيع أفق ثقافته وتعميق مفهومه للحياة ولرسالة الشاعر بها ، وساعده على أن يخطو هذه الخطوة بشعره نحو تحريره من جزء كبير من تلك النظرة التقليدية التي لمسنا أنها كانت تسيطر على عمله السابق في الموضوع وفي الصورة بتحرر قصيدته هذه من ملامح ، تلك الرؤية الصوفية التي بدت واضحة هناك واختفت هنا لتحل محلها الفكرة الاصلاحية والرغبة في الولوج الى ساحة الواقع من بابه الواسع . كما بدا ذلك في جانبها الفني بتحررها من كثير ممّا شاع في سابقتها من غريب اللفظ ومن قديم التصوير ممّا ساعد الشاعر على أن يقترب أكثر في عمله هذا من أمور الناس وشؤون الحياة .

ويمكن أن يتلمس المرء مظاهر هذه النقلة ، وبعض ملامح تلك الفروق بشكل أكثر وضوحا بوضعه في آن واحد هذه الصورة التي رأى الشاعر عليها في هذه المولدية الى جانب تلك الصورة التي شاهده عليها في سابقتها ، وهو يجهد نفسه دون أن تسعفه السنتان اللّتان قضاهما بالعاصمة الى ذلك الحين أن يذهب في عمله ذلك الى أكثر ممّا ذهب . وأظن أن المرء ان فعل ذلك فانه سيقف بنفسه عمّا استطاع أن يبلغ اليه الشاعر في هذا العمل الى حدّ واضح في تحقيق ذاته موضوعيا وفنيا ، ممّا لمسنا ملامحه في أكثر من مكان في هذه القصيدة .

وأما قصيدة الشاعر الثالثة في هذا الباب فهي (ذكرى المولد النبوى)(1) وتقع في سبعين بيتا ، وقد أنشدها في الحفل الذى أقامته جمعية الشبيبة الاسلامية بنادى الترقي بالعاصمة احياء لذكرى المولد النبوى الشريف .

---

(1) الديوان ص : 75 ، نشرت في جريدة الجزائر 17 ربيع الأول 1356 هـ / 28 [illegible]

وان الدارس لهذه القصيدة يدرك أن صاحبها ، استطاع أن يحافظ فيها على منهجه الواقعي الذى ألمع اليه في أول مديحة له ، ودعم أسسه في المولدية السالفة ، التي تبدى فيها بجلاء ، حرصه على توثيق الصلة بين ما يتناول من معاني ومايجرى في الواقع الذى يحيا فيه من جهة ، وبين هذا الواقع ونفسه من جهة ثانية ، اندماجا في اهتمامات الجماعة ومعايشة لقضاياها وتعبيرا عن عواطفها مما يمكن أن يستدل عليه من خلال بنائه لجملة من معانيه على صيغة (ضمير الجماعة) ذلك الذى يطغى استعماله في مقدمة القصيدة ، ويتخلل بعض الأبيات في ثناياها ، بصور شتى . كما يمكن أن يكون الشاعر قد استهدف بذلك الأسلوب تدعيم مايراه ، من مغزى هذه الموالد ، لما تراه جماعة الاصلاح فيهـا حتى يقوى بذلك على بلوغ مراميه في توجيه الرأى العام للأمة الى الطريق الأسلم الذى يمكنها من استخلاص العبرة من هذه الذكرى ومن سيرة صاحبها وهديه فيما ينفعهـا ويرقى بحياتها ويدفع بها على طريق العزة والتقدم . وهذا ما يبادر الشاعر من مقدمة عمله الى الاشارة اليه ، بكشفه عن البواعث الحقيقية التي تدفعه الى القول ، وافصاحه عن الأهداف المتوخاة من ذلك . ان الرغبة في احياء السنة الشريفة والاقتداء بهـدى صاحبها ، والعمل بماجاء به من شريعة وقيم ، تلكم هي أهم ماكان يرمي اليه معظم شعراء الاصلاح . — والشاعر واحـد منهـم — من خلال ما كانوا ينظمون من شعر بهـذه المناسبة ، ولنستمع الى الشاعر وهو يؤكد ذلك في مطلع مولديته هذه فيقـول :

ألا أنعم أيهـاالنـادى ... بذكرى مولـد الهـادى
لقد جئنـــــاك ورادا ... علـــى آثـــار وراد
وقمنـا فـي مسـرات ... وأفــراح وأعيـــاد
نحيي خيـر مولـــود ... بدا فـي خـير ميـلاد
نحيي سيدا في الخلـ ... ـق متبوعــا بأسيـــاد
نحيي مرشـدا لم يبـ ... ـخ منهـم أجر ارشـاد
نحيي داعـي الحسـنى ... نحـي راعـي الضـاد
نحيي منـه أخلاقـا ... زكيـات كـــأوراد
نحيي منـه أمجـادا ... منـوطـات بـأمجـاد
نحيي شرعـه الوضّـا ... ح مثـل الشمس في الـراد
نحيي عصره المعتـا ... ز في يمـن واسعـــاد

ولا يخفى على الدارس المتبصر ، دلالة الالحاح من الشاعر على صفات بعينها من شمائل الرسول من مثل (الهادى ، المرشد ، داعي الحسنى ، راعي الضاد) ، انها لم تـأت مصادفة ، وانما كان الشاعر يتقصدها لأنها تتصل بأكثر من سبب بمبادىء وأهــداف الفكرة الاصلاحية القائمة على الارشاد والدعوة الى الحسنى ونشر الفضائل وبعث الأمجاد واحياء اللغة العربية ، تلك المبادىء التي يعمل الشاعر على نشرهـا في المجتمع والتمكين لها في النفوس . وكأن الشاعر بذلك التركيز على قيم ومعـان خاصة ، وبصياغته لهـا

تلك الصياغة في أسلوب تقريري يقوم على التكرار الذى يقتضيه موقف الانشاد من نحو، ويعبر من نحو آخر على الرغبة في الوضوح والبيان، والتأكيد، كأنه يريد بذلك أن يرسم المنهاج السليم الذى يحدد ما ينبغي أن تكون عليه مراسيم احياء هذه الذكرى، وما يجب أن يستهدف فيها . ويوضح في الوقت نفسه ما يجب الابتعاد عنه مما هو شائع في بعض الأوساط مما يتنافى مع الدين الصحيح .

ومهما يكن من أمر ذلك فان الشاعر لم يستطع في هذا العمل على الرغم من التجائه فيه الى أسلوب التكرار أن يفصح عن كل مايمور في وجدانه من شحنات الحب لشخصية الرسول (ص) والاجلال لمقامه، وهو مقيد الى أرضية ذلك الواقع، فلجأ الى وسيلة أخرى من وسائل التعبير والتصوير، ملتمسا فيها ما يكون أبلغ في الدلالة عما يحسه ويشعر به، وما يساعده على الانطلاق الى آفاق أرحب وأوسع، انه يمتطي هذه المرة متن الخيال ويطوى على أجنحته بمعية ركب من ذاك الحفل المقام، آلاف الأميال ليحل الجميع بمكة المكرمة وينزل بواديها الطهور فتكتحل العيون بما يعلو أفقها من سناء، وتهتز الجوانح طربا بما يحف بها من بشر وبهاء على أثر ميلاد رسول الانسانية الأعظم، الكريم الشمائل، الشريف النسب، الهادى الى دين الحق، يقول الشاعر عن رحلته الخيالية :

رحلنا رحلة منها	خرقنا كل معتاد
طوينا الأرض والاجيا	ل أبعادا لا أبعاد
وجئنا مكة الفضلى	فجسناها كرواد
ألا يا وادى الكعبـ	ـة لا أقفرت من واد
قد ازدادت بك النعمى	لطفل فيك مزداد
كريم طبعه سمح	كمثل الغصن مياد
من الآثام معصوم	الى الطاعات منقاد (1)

ويفرغ من هذه الوقفة التي رجع فيها ثانية الى الحديث عن الميلاد، وعن النسب، وعن الشمائل، الى التلميح الى الغاية منها مما ألمعنا اليه من قبل ببياننا، أن الهدف الأساسي من احياء هذه الذكرى في منظور محمد العيد وفي منظور زملائه، انما هو العمل على تصحيح ذلك المفهوم السائد لهذه الاحتفالات لدى بعض الأوساط، تلك التي لا يهمها في الغالب من ذلك الا المظهر، مما يكاد يجرد هذه الذكرى من كل سلوك، عملي فيه نفع للناس، بل ربما تكون في بعض الأحيان عاملا من عوامل السلب لما يشاع فيها من مظاهر الفساد . وكان المصلحون يحرصون على توجيه ما يقام في هذه المناسبة الوجهة السليمة التي تؤكد على استخلاص العبرة والافادة منها بما ينهض بقومهم ويسمو بواقعهم ويأخذ

---

(1) الديوان، ص : 76 .

بأيديهم للخروج مما هم فيه من درك وهوان ، وهل هناك أبلغ وأجدى في نيل ذلك المرام ، في مثل هذا المقام من دراسة الماضي واستلهام حقائقه وتضميد جراح الحاضر ببلسمها . وتحقيقا لذلك عمد الشاعر الى الوقوف وقفة متأنية استعرض فيها جملة من المواقف والمشاهد ، يقرأ الدارس فيها أول ما يقرأ ، صفحات ناصعة من سيرة الرسول (ص) تبرز حقيقته كرحمة مهداة من عند الله للعالمين ، وتوضح جهوده في نشر الدعوة وارساء دعائم الدولة الاسلامية ، يقول في ذلك :

ألا يا حبذا ذكرى   أقمناها لميعاد
بها نستعرض التاريـ   ـخ من خاف ومن باد
سلوا التاريخ عن بدر   رحيم للورى فادي
سلوا التاريخ عن أرض   حماها من يد العادي
سلوا عن دولة الاسـ   ـلام كم باهت بأجداد (1)

وكأن الشاعر لم يقنعه هذا الحديث العام الذي ألمح فيه الى العبرة من هذه الذكرى، فأحب أن تكون له وقفة أخرى أكثر خصوصية مؤكدا فيها لقومه ضرورة التآخي والاتحاد ، ويحذرهم من نتائج التفرقة والنزاع . وفرغ من هذا الحديث الى نهاية قصيدته فختمها لا بما يختم به الشعراء المتصوفة مدائحهم من معاني التوسل والشفاعة وما الى ذلك ، وانما ختمها بما يزيد منهجه الواقعي تدعيما وفعالية ، وذلك بدعوته الشعب الى التمسك بدينه واستلهام حقائقه في مسيرته النضالية ، واقتفاء آثار رجاله العاملين المخلصين . وان كان في هذه الخاتمة ما يقربه من خواتم بعض المتقدمين ، فلعل ذلك ما يبدو في ظاهرة الدعاء ، بيد أنه حتى في هذه السمة يتميز عن بعضهم بالتوجه في دعائه الى الله لا لنفسه ، وانما لنصرة دينه ، يقول بهذا الصدد مخاطبا شعبه :

أنط ياشعب من دينـ   ـك أطنابا بأوتاد
وهيء مثلما هيأ حزب   الله من زاد
وسر في اثرهم سيرا   قويما غير منآد
ألا فليحي حزب الله   في نصر وامداد
ألا فليحي دين الله   آمادا لآماد (2)

ويمكن أن نكون قد تبينا من خلال ما تقدم أن الشاعر كان في عمله هذا أكثر وفاء لمنهجه الواقعي ، وهو وأن كان ينطلق فيه من التاريخ فان جل اهتمامه فيه كان ينصب على الحاضر ، ذلك أن الحديث عن ذكرى ميلاد الرسول (ص) وعن سيرته ودعوته ودولته وعصره ، انما كان الهدف من كل ذلك ، هو معالجة الحاضر والنهوض به . ولعل ذلك من أبرز ما تميز به هذا العمل الى جانب محافظة الشاعر فيه عما حققه من قبل من سمات التطور المختلفة التي وقفنا عندها في تحليل القصيدة السابقة والتي رأينا أنه يخالف

(1) ـ (2) الديوان ، ص 77 [illegible]

فيها ماشاع من خصائص هذا الفن لدى من سبقه من الشعراء الجزائريين من مثل تحرره من المقدمة الغزلية ، ومن المدح من أجل المدح ، ومن مثل ابتعاده عن الافراط في ذكر معجزاته والايغال في تعداد صفاته المادية بوجه خاص، وما الى ذلك .

وينبغي أن لا يفهم من هذا الحديث أن الشاعر بتحرره من بعض المظاهر الفنية التي سادت في المدائح النبوية ، في عصر الضعف قد تحرر من كل سيطرة للقديم على فنه وهو واحد من شعراء مدرسة الاحياء في تاريخ الشعر العربي الحديث ، هؤلاء الذين تقوم صناعتهم الفنية بشكل ملحوظ على بعث التراث والاغتراف من نماذجه ، والافادة منه .

ومن هذا المنطلق ظلت صلته بالقديم قوية كما تبدو في معانيه تلك التي لم تخل من الحديث عن الميلاد والنسب وبعض الشمائل ، وتظهر هذه الصلة أشد ما تظهر بخاصة في الجانب الفني من عمله ، هذا الذى بقي فيه وفيا لبعض القيم الفنية القديمة ، كما تعكسها جملة من الخصائص يأتي في مقدمتها : هذا الميل الى الصناعة البديعية التي عرفنا فيما مضى أنها واحدة من مميزات أسلوب الشاعر، ومما يبدو منها واضحا في هذه القصيدة ، ظاهرة (رد العجز على الصدر) ، هذه التي تعد الى جانب الجناس والطباق والمقابلة ، من أبرز الألوان البديعية التي كلف الشاعر بها ، ويمكن أن نمثل لهذه الظاهرة الأسلوبية من هذا العمل الذى بين أيدينا ، بهذه الأبيات :

لقد جئناك (ورادا)	على آثار (وراد)
نحيي (خير مولود)	بدا في (خير ميلاد)
نحيي (سيدا) في الخلـ	ـق متبوعا (بأسياد)
نحيي (مرشدا) لم يبـ	ـغ منهم أجر (ارشاد) (1)

ومن مظاهر القديم أيضا هذه الرغبة في مشاركة المتقدمين في أخيلتهم وصورهم البيانية التقليدية مما هو مبثوث وواضح في مواطن كثيرة من القصيدة مما قد يغني بيانه عن التمثيل له .

وهذا الالحاح أيضا على بعض المظاهر الأسلوبية التي يأتي في مقدمتها : التكرار الوارد في مطلع هذه القصيدة ، والذى تجلى في الحاح الشاعر على كلمة (نحيي) تسع مرات في مستهل تسع أبيات متتاليات .

ولا شك أننا نذكر من خلال ما تقدم من دراسة أن الشاعر كان يكثر من استخدام أسلوب التكرار بأنواعه المعروفة ، ولأغراض شتّى لعل أهمها الرغبة في تثبيت معانيه واقرارها في ذهن المتلقين وتقوية حماستهم لها(2) . وهذه هي بعض أغراض التكرار

---

(1) الديوان، ص : 75 .

(2) ينظر د .بعدالله (محمد العيد آل خليفة ...) ص : 217 .

كما نص عليها بعض القدامى [1]. أما المحدثون فقد تطرق بعضهم الى هذه الظاهرة الأسلوبية من وجهة جديدة ، فوقف عند أنواع التكرار ، ووضح بعض أغراضه وبعض دلالاته النفسية والموسيقية ، وكشف عن محاسنه ومساوئه [2].

وعلى أية حال فان مايمكن قوله بعد داستخدام الشاعر لهذا الأسلوب ، فانه يكاد يقترب في توظيفه له من طريقة المتقدمين ، فكان كثيرا ما يطلبه لحاجته اليه في مواقف الالقاء ، وفي معرض توكيده معانيه .

ولا أخال أنه كان يلجأ اليه لضعف أوتقليد ، أو الى أي شيء من هذا القبيل .. مما أصبح يلحظ بعضه في صناعة هذه الظاهرة لدى بعض المعاصرين [3].

ونلحظ الى جانب التكرار ظاهرة الدعاء التي تدل من الناحية النفسية على ارادة قوية في حب الخير ، وتتلامح هذه الظاهرة أول ما تتلامح في هذا المطلع التقليدى :

ألا أنعم أيها النادى بذكرى مولد الهادى

كما تبدو من بعد ذلك في هاتين البيتين :

سقاك الله من ركب مشوق للمدى صاد
ألا ياوادى الكعبة لا أقفرت من واد (4)

وأخيرا في هذه الخاتمة :

ألا فليحيي حزب الله ذي نصر وامداد
ألا فليحيي دين الله آمادا لآماد (5)

وبعد فان بذت مظاهر الرغبة في السمو بالواقع واستخلاص العبرة من قصيدته السالفة بتلك الدعوة العامة الموجزة الى النهضة اعتمادا على الدين والعلم والمحافظة على المقومات الشخصية للأمة ، فان تلك الرغبة في هذا العمل تأخذ من الشاعر عناية أوفر وحيزا أوسع يتجلى ذلك فيما رأينا من الحاحه على استلهام الماضي من أجل الحاضر وفي تلك الدعوة المركزة التي توجه بها الى مواطنيه يحثهم فيها على جمع الكلمة والوعي بمكائد العدو واعداد العدة لمناهضته ، واحباط مناوراته ، وتتويج كل ذلك بالحض على التمسك بالدين واستلهامه في جميع صور الجهاد الوطني لما في ذلك من تحقيق للفوز وضمان للانعتاق .

---

(1) ينظر ، ابن رشيق (العمدة) ج 2 : 73 وما بعدها .
(2) ينظر ، نازك الملائكة (قضايا الشعر المعاصر) ص : 230 وما بعدها .
(3) ينظر المصدر السابق ، ص : 257 .
(4) ـ (5) الديوان ، ص : (76 ـ 78) .

أما المولدية الرابعة فهي (أنشودة الوليد) (1) وتقع في أربعة وخمسين بيتا على بحر (الكامل المجزوء) ، نظمها الشاعر على لسان أحد الفتيان لتكون أنشودة الجيل ، كما يوحي بذلك عنوانها في احياء الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف ، وطبعت لتلك الغاية طبعة مستقلة سنة 1938م ، تيسيرا لتداولها بين المواطنين ، وبخاصة في أوساط الطلاب .

ويمكن للباحث أن يتساءل بادىء ذى بدء عن الدوافع التي حملت الشاعر على أن يتوجه في هذه القصيدة ، هذه الوجهة وأن يسلك فيها هذا المسلك الجديد ؟

ان معرفة الجواب ستكون ميسورة للسائل اذا ما تذكّر أن الشاعر قضى معظم حياته عاملا في حقل التربية ، ممّا سمح له بأن يكون في أقرب المواقع من بيئة الشباب ومن أكثر الناس خبرة بميولهم واتجاهاتهم .

والى جانب ذلك كان واحدا من زمرة الشعراء الذين يؤمنون بأنهم أصحاب رسالة اجتماعية تفرض عليهم المساهمة الفعّالة فيما يقوم به وطنهم من عملية البناء النفسي والفكرى لأفراد الأمة .

وبديهي أن أية عملية من هذا النوع يمكن أن لا يخالفها النجاح الّا اذا بدأها صاحبها من الأساس . ومن دعائم هذا الأساس في حياة كلّ أمة هم شبابها .

ومن هذا التصور كان حريا بالشاعر أن يخص أطفال بلاده وهم ركائز بنائها وخميرة مستقبلها ببعض شعره ، فكان من ذلك هذه القصيدة التي خطا فيها خطوة جديدة على طريق التطور في موضوعها وفي صورتها ، فهو لم يبنها كما عودنا في غيرها على ذلك الأسلوب المباشر الذي يقوم على الأمر والنهي والارشاد ، وما الى ذلك من سمات الأسلوب الخطابي ، مما يمكن أن يدل على أن الشاعر كان خبيرا بقيمة وأثر كل أسلوب من الأساليب الفنية ، ويفسر لنا ذلك في الوقت ذاته أنه عندما كان يعمد الى استخدام الأسلوب التقريري لم يفعل ذلك ، لأنه لا يقدر على غيره ، وانما كان يفعل ذلك لشعوره بأنه ، أيّ ذلك الأسلوب ، من أكثر الأساليب ملاءمة لما يتناول من موضوعات ، نظرا للظروف الموضوعية المحيطة به . وهذا في حدّ ذاته — فيما نحسب — دليل كاف على وعي الشاعر بعمله الفني .

ونذكر أن الفنّان الخبير هو الذى يملك القدرة على أن يحقق قسطا وافرا مما يشترط في نجاح العملية الابداعية ، مما يتمثل في توفير تلك المواءمة ما بين التجربة الشعورية ، وبين وجوه الصياغة المعبّرة عنها . ولعل حرص الشاعر على توفير هذه

---

(1) الديوان ، ص : 166 ، المخطوطة ج 2 : 44 .

المعادلة في عمله الفني هو الذي يساعد على تفسير هذه الوجهة الجديدة التي ولّى وجهه شطرها في هذه القصيدة ، بأن أقامها على أسلوب يخلو من كثير من سمات الخطابة ، ويومىء بشيء من الايحاء . فأجراها على لسان أحد الفتيان ، وأنطقه بما شاء من المعاني ، وبما أراد من العواطف والأحاسيس ، وهو يرمي من وراء ذلك بأن تكون منبرا لكل الشباب الجزائرى يعربون من خلاله طوع أنفسهم عمّا يختلج بين جوانحهم من مشاعر وتطلعات ، فيكون ذلك أجدى في النّفع ، وأدعى في التأصيل لما يريد أن يوصل له من مبادىء وغايات . ولا يخفى ما لهذا المنهج التربوى من أثر في بناء النفوس وتوجيه الأفكار ، وهو يعبر بوضوح عن شخصية محمد العيد المربي الذى قضى معظم حياته عاملا في حقل التربية يحدب على تكوين الجيل واعداده اعدادا قويا يعينه على القيام بواجبه أحسن قيام .

ونحسب أن وعي الشاعر الملحوظ بعمله الفني ، وطبيعة الأهداف التي كان يومىء اليها ، بالاضافة الى نوعية وتقنيات هذا الأسلوب الذى أخذ به ، قد أعانه كل ذلك على أن لا يستهل قصيدته هذه بما كانت تفتح به في الغالب معظم المدائح النبوية ، من تلك المقدمات الطويلة ، سواء ما كان منها في الغزل أو النسيب ، أو ما كان منها في الحمد أو التوسل وغير ذلك ، أو بما كان هو نفسه قد استهل به مولدياته السابقة مما بدا في اشادته بشهر المولد ، وبيان دواعي الاحتفال به ، وانما هجم على موضعه منذ مطلع القصيدة بالاعراب عن مكنونات وجدانه وما يفيض به من حبّ للرسول (ص) وتعلق بهديه وتجمل بأخلاقه ، وهو يستخدم في ذلك (ضمير المفرد المتكلّم) وهو التلميذ الذى أنشأ الشاعر قصيدته على لسانه وأنطقه بما يمور في وجدانه يقول في مستهل هذا العمل :

بمحمد أتعلّق   وبخلقه أتخلّق
وعلى البنين جميعهم   في حبّه أتشوّق
نفسي الفتية دائما   من حبه تتحرق
وجوانحي مهتاجة   ومدامعي تترقرق
مالي وللصب التي   تختار لي وتنسق
أنا مسلم أهوالهدى   بسواه لا أتحقّق
بخلال أحمد أرتدى   وبحبّه أتمنطق (1)

ثم أعقب الشاعر ذلك ببيان فضل يوم وشهر ميلاد الرسول (ص) وما غشي العالم على اثر ذلك من بشر وابتهاج ، وما علا الوجوه من نضارة وسناء . ثم عاد من جديد ليؤكد للرسول (ص) على لسان ذلك الفتي — وهو يعني ولا شك سائر الناشئة الجزائرية ، ومن ورائهم عموم الشعب الجزائرى بمثله سيكون

---

(1) الديوان [illegible]

أسرع أترابه الى ما يرضيه ، وانه سيكون جنديه الغازى بأمره ، وحسب أن في هذا ما فيه من ايحاء وتوجيه غير مباشر للشباب بأن يمدوا أنفسهم للجهاد دفاعا عن العقيدة والوطن ، وتحقيقا لما تملق عليهم الأمة من آمال . وتذهب به عاطفته الصادقة المشبوبة بحب الرسول (ص) وديله الى استخدام أسلوب القسم بصيغة (المفرد المتكلم) دائما تأكيدا على ثباته وثبات شعبه على العقيدة التي لن تستطيع أية قوة أن تنال مثقال ذرة من ايمانه به ، أو تزحزحه قيد أنملة عن نهجها :

أنا أسرع الفتيان فيني ما ترتضيه وأسبق
جنديك الغازى بأمـ ـرك يوم يغزو الفيلق
قسما بربك انني من غيره لا أفرق
اني على البيضاء مـ ـدل الخطى لا أزلق
لا أنثني عنها ولو أصلى الجحيم وأشنق (1)

وأخال أن الشاعر في البيت الأول بما تضمنه من طرق التعبير وخاصة فعلي التفضيل (أسرع ، وأسبق) يريد أن يمكن في نفوس الشباب لروح التنافس الشريف فيما يرضي الله ورسوله ويساعد على تحرير الوطن .

وينتقل الشاعر من هذا الحديث ليقف وقفة أخرى يغذى فيها العقل والوجدان مما تفيض به سيرة الرسول (ص) من عبر ومواقف . ويحسن بنا أن نذكر بهذا الصدد أن الشاعر لم يتناول ما تطرق اليه من مواقف تلك السيرة ذلك التناول القائم على السرد لصفات النبي (ص) ، والتعداد المجرد لمعجزاته مما ولع به كثير من شعراء المدائح النبوية المتقدمين ، وانما اتجه في ذلك اتجاها خاصا رأى أنه يخدم ما يود أن ينهض به من خلال هذا الشعر في خدمة أمته . ولذلك نراه يركز على جوانب خاصة من حياة الرسول (ص) لايمانه بأن أمته في أمس الحاجة اليها ، وهي تعيش تحت نير حكم أجنبي ظالم ، وتحاول جهدها أن تتخلص منه ، وانطلاقا من هذه الرؤية عمد الشاعر الى رسم صورة من صور الجهاد في حياة الرسول (ص) مؤكدا على استخلاص العبرة من مواقفه ، وملحا على الاقتداء به فيما يساعد الأمة على الخروج من محنتها .

ونشير الى أن هذه القصيدة قد نالت حظا وافرا من اعجاب الأمة بها ، مما حملها على تلحينها والمثابرة على انشادها في الاحتفالات التي تقام احياء لذكرى المولد النبوى الشريف ، ولم تكن تبلغ الى تلك الحظوة — فيما أحسب — الا بما استطاع الشاعر أن يوفر لها في موضوعها ، وفي صورتها من نبل المقصد ، وصدق الشعور ،

(1) الديوان ، ص : 167 .

وسمو المعنى ، ويسر التعبير . وقد تمكن بهذه الأنشودة وبمثيلاتها أن يساهم بفاعلية الى جانب اخوانه من شعراء الحركة الاصلاحية في تحقيق جملة من الأهداف، كان الاصلاح يتوخاها من هذه الاحتفالات المولدية بتوجيهه اياها نحو ما يخدم الصالح العام ، وينفع الأمة في دينها ودنياها ، ويفوت الفرصة في الوقت نفسه على بعض جيوب الطرقية المنحرفة التي كانت تسيطر على بعض هذه الموالد وتستغلها لمآربها بما يجردها من مغزاها الحقيقي ، ويحرم الأمة من الانتفاع بها .
ويبدو أن محمد العيد قد ذهب في قصيدته هذه الى أبعد مما بلغه في غيرها على طريق تعميق منهجه العملي الذى بنا عليه معظم شعره ، كما يتجلى ذلك في عدوله عما تعج به مدائح بعض المتقدمين وبعض المحدثين من التركيز على معاني الميلاد ، والنسب ، وتعداد الصفات ، وسرد المعجزات المختلفة ، فقد شغله عن ذلك ما أصبح يأخذ باهتمامه في هذا الشعر من بذل عناية خاصة فيه تتصل بحياة الناس أكثر مما تتصل بغيرها . وان مقارنة بسيطة يمكن أن يقوم بها المرء في هذا المجال ، يوازن فيها بين مولديات الشاعر ، وبين مدائح بعض المحدثين ـ وليكن ذلك الشاعر (أحمد شوقي) الذى اشتهر أكثر من غيره بمدائحه في هذا العصر ـ سيتبين منها أن الشاعر كان مشدودا في مولدياته الى الحاضر أكثر مما كان (شوقي) مشدودا اليه في مدائحه .

ويبدو اهتمام محمد العيد بالحاضر في جملة من السمات تأتي على رأسها هذه الواقعية التي تتبدى في قدرة الشاعر على معايشة الحاضر الاجتماعي والوطني ، وتصوير ما كان يدور فيه من صراع أخذ أشكالا مختلفة بين عدو يحاول أن ينال من كيان شعب بالقضاء على شخصيته وتذويبه في جسم غريب عليه ، وبين ردود فعل قوية صادرة عن ذلك الشعب لاحباط ما يدبر ضده من مناورات ودسائس . وتسلمنا هذه الخاصية الى خاصية ثانية واضحة في هذه المولدية ، وهي اندماج الشعر بالموضوع المعالج ، وظهور شخصيته فيه ، ذاك الذى لمحنا بعض مظاهره في مولدياته السابقة ، ونراه يتبدى هنا في هذه المولدية في أجلى صوره وفي أكثر من مظهر ، ولعل من أسبق الدلائل على ذلك هذا الاتجاه من الشاعر للتعبير عن معانيه بصيغة (المفرد المتكلم) الذى مكنه من طبع موضوعه بطابعه الشخصي الذى يعكس صدقه وأصالته ، وهو ينوع في هذه الصيغة باستخدامه (الضمير المتصل) طورا و (الضمير المنفصل) طورا آخر ، ولعل من أفصح تلك الصيغ تعبيرا عن ذات الشاعر هذا الضمير المنفصل (أنا) الذى كرره أربع مرات ، كما تتجلى هذه الخاصية فيما تفيض به هذه القصيدة من تدفق عاطفي وفيض وجداني ، ويحمل الدارس هذا وذاك على الاحساس بما يملأ صدر الشاعر من ايمان واعتزاز بالاسلام ، ومن حب واخلاص للوطن .

ويمكن القول من خلال ما تقدم أن القيمة الموضوعية لهذا العمل تكمن فيما استطاع صاحبه أن ينثر فيه بين يدى أمّته من قيم الجهاد والنضال، وفيما وجه اليه أنظار ناشئتها من مقاصد تربوية سامية وغايات وطنية نبيلة .

وقد ساعد على التمكين لهذه القيمة في نفوس المتلقين ما وفّر لها الشاعر في الجانب الفني من عمله ، من سمات الوضوح والسهولة والقرب ، بما بذل فيه من جهد في اختيار ألفاظه وتهذيبها ، وفيما اختار له من موسيقى بحر (الكامل المجزوء) بتفعيلاته الراقصة الطروب ، التي أضفت على المعاني جوّاً من الخفة والحركة لم تستطع قافية (القاف) على ثقلها أن تحدّ من انطلاقه ، أو تضعف من حيويته .

وكان من تظافر تلك الخصائص الموضوعية والفنية في هذا العمل ما مكنه من أن يكون — كما أحب له الشاعر أن يكون — نشيد الموالد في كثير من الجهات في الجزائر .

ونأتي الى خامس مولدية للشاعر وهي (يا أمة الخير) [1]، وليس في الديوان ما يشير الى مناسبة نظمها ، ولعل ذلك أغفل لوضوحه من محتواها . وهي من أقصر مولدياته ؛ اذ تقع في ثلاثين بيتا . ويستهلها الشاعر ومن أول بيت فيها بدون مقدمة تقليدية ، بتوجيه الخطاب الى أمته التي يحل بها شهر الربيع ، شهر ميلاد نبيها ليحييها بما يحقق به من حسن وجمال ويذكرها بقصة ميلاد أعظم رسول بعث في العالمين :

حياك شهر ربيع	بكل حسن بديع
مذكرا برسول	للعالمين شفيع
مبارك حل فيه	حلول غيث بريع
أهل فيه بصوت	عذب، وسمت وديع
فكان أذكى وليد	وكان أزكى رضيع
وكان خير رسول	للمشركين قريع

ونذكر أن حديث الشاعر عن هذا الشهر هنا ، وحديثه عنه في مولديتيه السابقتين (ذكرى المولد النبوى) و (أنشودة الوليد) لم ينفرد به وحده وانما هو ظاهرة شائعة في معظم قصائد المديح النبوى في القديم وفي الحديث ، ومن أقرب الأمثلة الينا على ذلك قصائد شعراء الاصلاح المماثلة . ونودّ أن نسوق على ذلك شاهدا من هذه الأعمال مقتبسا من مولدية (في ربيع الجمال شع ربيع النور) [2]

(1) الديوان ، ص : 174 ، نشرت في البصائر العدد : 166 ، 28 ربيع الأول 1358هـ / 19 ماى 1939 ، وليس بها حديث عن مناسبتها .

(2) نشرت في البصائر العدد : 24 — 12 ربيع الثاني 1367 هـ / 23 فيفرى 1948م .

طريق جديد يلفت الأنظار الى الافادة من سجايا الرسول (ص) وخلاله الحميدة فيما ينفع الأمة ويسمو بواقعها .

ويتقدم الشاعر خطوة الى الأمام في قصيدته هذه ، وهو على ذلك الطريق الذي شقه في المولديات السابقة ليبحث فيه عن أخصب المواطن في استخلاص العبرة من هذه الذكرى ، وأكثرها نجاعة في توجيه أمة تتلمس دروبها نحو النهضة والتحرير ، فيسلمه ذلك الى الايمان بأنه ليس هناك أبلغ ولا أجدى على تلك الأمة في تنيل ذلك المرام من الاستنارة بما جاءها به نبيها من نور وهدى ، فان في ذلك ولا ريب ما يحيي فيها روح الجهاد ، ويمكن في نفسها لارادة الثورة على الطغيان ، ويجمع شملها ، ويجنبها خطر الشقاق ، ويحرص على أن يختم قصيدته بما يزيد دعوته تلك الى أمته بالسير على طريق الجهاد ووحدة الصف تأصيلا في نفسها بحضه اياها على التمسك بـرأس الفضائل وأس النجاح ، وما ذلك الا دينها الحنيف ، وأن تأخذه بقوة وتقف منه ومن المنافحة عنه والانتصار له موقف السادة الصحابة رضوان الله عنهم من الرسول (ص) وهم يتقدمون الصفوف يفدونه ويذودون عنه وعن دعوته ، فان في سيرة هؤلاء النفر من الرجال المثل الأعلى ، وفي مواقفهم الأسوة الحسنة ، وبهم يجب أن تقتدي الأمة وعلى منهجهم ينبغي أن تواصل مسيرتها النضالية نحو أهدافها المنشودة ، يخاطب الشاعر أمته بذلك قائلا :

يا أمة الخير لبي	(دعاءه)[1] وأطيعي
قومي بدينك قومي	قوية لا تميعي
كوني (لطه) كجند	من صحب (طه) شجيع
فدوا من الضيم (طه)	ودينه بالنجيع
فاقفيهم تحت ضوء	من الرجاء سطيع
وتابعي هدى (طه)	وشايعي وأذيعي (2)

وبعد فان الذي يمكن أن يخرج به الدارس من تحليله لهذه القصيدة وانعام النظر في محتواها وفي صورتها ، انما هو وقوفه عند ذلك الميل الواضح الى استخلاص العبرة من احياء ذكرى المولد النبوي الشريف بما يسمو بواقع الأمة ويأخذ بأيديها على طريق العزة والتقدم .

وأما ما يمكن ملاحظته من جانب الصياغة في هذا العمل ، فان أول ما يصادف الدارس من ذلك هذه القدرة التي تحلى بها الشاعر بتوفيره لمضمونه الواقعي ذلك ما يوائمه من تعبير بسيط وتصوير قريب المعكس كل ذلك في جملة من السمات

---

(1) الضمير في هذه الكلمة يعود على القرآن في أبيات سابقة .

(2) الديوان ص : 175 .

والظواهر الأسلوبية ، بدا جانب التعبير فيها بوجه خاص ، في سهولة الألفاظ وسلامة التراكيب . وتجلى جانب التصوير منها في تلك الألوان البيانية المستمدة من التراث القديم ، كما يظهر ذلك في هذين البيتين :

مبارك حل فيه　　حلول غيث بربيع
والشاة للذئب سهم　　ان فرطت في القطيع (1)

وأما أهم ما يلفت النظر من الظواهر الأسلوبية ، فذلك التكرار الذى مرّ معنا انه من سمات أسلوب الشاعر ، ويبلغ هنا شطرا كما يلمح ذلك في هذين البيتين المتتاليين :

محمد ليس يرضى　　أن توصي بشنيع
محمد ليس يرضى　　أن تخلدى لوضيع (2)

وتكراره لكلمة (طه) خمس مرات .

وان كان لذلك من دلالة فان أقربها — في نظري — رغبة الشاعر في تقرير المعنى وتوكيده بهدف ترسيخه واثباته في ذهن المتلقي .

كما ساعدت في تقريب هذه المعاني وإجلاء تلك المشاعر ، موسيقى بحر (المجتث) بأنغامها العذبة وايقاعاتها القصيرة ، وما تخلل ذلك من موسيقى داخلية نجمت من تلك القافية العينية ومن ذلك التوافق الصوتي الذى توفر بين بعض الكلمات في القصيدة ، فتظافرت تلك العناصر مجتمعة لتضفي على جو القصيدة الى جانب طابع الخفة والانسجام ، طابع القوة والإحكام .

وان الناظر بوجه عام في موسيقى مجموع مولديات محمد العيد ، يخرج بتصور واحد يكشف له عن ارادة صاحبها في اختياره لها بحورا قصيرة أو مجزوءة ، يهدف من ورائها الى تحقيق ما ييسر لها أسباب الانشاد والانتشار .

وتتكامل تلك الجوانب الموضوعية منها والفنية في هذه المولدية ، لتبرزها في صورة أهم ما يميزها ، الصدق والوضوح في معانيها ، والبساطة والقرب في صياغتها . وقد كان الشاعر يتوخى ذلك في معظم شعره ويعمد اليه عمدا ، تحقيقا لغرضه الأساسي من هذا الشعر ، وهو التبليغ والتوصيل ، توصيل أكبر قدر ممكن من طاقات الوعي والتوجيه لأمة ، السواد الأعظم من أفرادها أميون ، أو ممن لم ينالوا من التعليم الاحظا بسيطا .

وقد كان بعض قرّاء شعر محمد العيد ، ومنهم من كان يقف منه في مكان يخوله معرفة قدرته اللغوية ، وما يتمتع به من امكانيات فنية ، يلاحظ عليه باستغراب شديد ذلك الميل منه الى طبع شعره بتلك الطوابع الفنية القريبة الواضحة (3) . الا أن الشاعر كان واعيا

---

(1)(2) الديوان ، ص : 174 .

(3) أفادني بمضمون هذه الرواية الشاعر جلول البدوى .

بعمله ، وكان يرد على من توجه اليه بذلك النقد ، بأنه يقوم بما يقوم به على بصيرة ودراية لاحساسه احساسا قويا بأنه واحد من مدرسة شعرية تضم رعيلا من الشعراء يؤمنون جلهم بأنهم جند قضية وأصحاب رسالة ، وانهم لن يستطيعوا خدمة هذه ، ولاتلك ، وهم يعيشون بين ظهراني أمة لم تسمح لها ظروفها الموضوعية التاريخية ، أن تنال من الثقافة قسطا كبيرا الا أن ينهجوا في شعرهم هذا النهج القائم على الوضوح والبساطة في الأفكار ، واليسر والقرب في التعبير وفي التصوير . ويمكن للدارس أن يتبين قدرة الشاعر في المحافظة على ذلك المنهج والوفاء له ، من خلال هذه القصيدة ومن خلال غيرها من مولدياته ، ومن نصيب وافر من شعره .

ونترك هذه المولديات الخمس المدروسة التي جاءت في فترة زمنية ليست متباعدة نسبيا ، وبخاصة منها ثلاثتها الأولى ، تلك التي قالها الشاعر متعاقبة الواحدة تلو الأخرى في سنوات ثلاث متتالية هي سنوات (1937 — 1938 — 1939) .

ويحسن بالدارس الذى يستقرىء نتاج الشاعر في هذا المجال أن ينتظر مدّة قد تصل بضع سنوات بل عقدا ونيفا من الزمان ، أى من سنة 1939 م ، تاريخ نظم القصيدة السابقة الى سنة 1950 بالتحديد حتى يعثر على المولدية السادسة للشاعر .

ولعل مرد ذلك الى أن الشاعر كان — كما سبق الوقوف عنده في غير هذا المكان — قد انقطع أو يكاد عن قول الشعر في هذه الفترة الواقعة ما بين بداية نشوب الحرب العالمية الثانية وبين أواخر الأربعينات .

ويعثر الباحث في هذه الآونة على جملة من القصائد لعدد من شعراء الاصلاح ، نظمت احياء الذكرى المولد النبوى الشريف ، نذكر بعضها مرتّبا ترتيبا تاريخيا : (من وحي الميلاد) (1) للشاعر جلول البدوى ، (شباب محمد) (2) للشاعر أحمد سحنون ، (في ربيع الجمال شعّ ربيع النور) (3) للشاعر عبد الكريم العقون ، (وحي الذكرى) (4)

---

(1) نشرت في البصائر العدد : 22 — 28 ربيع الأول 1367 هـ — 9 فيفرى 1948م .

(2) ديوانه ، ص : 197 — نشرت في البصائر العدد : 23 — 5 ربيع الثاني 1367هـ 16 فيفرى 1948 م .

(3) نشرت في البصائر العدد : 24 — 12 ربيع الثاني 1367 هـ / 23 فيفرى 1948م .

(4) نشرت في البصائر ، العدد السابق .

للشاعر الربيع بوشامة [1] ، (من وحي السيرة) [2] للشاعر أبي بكر بن رحمون [3] .

وقد سار هؤلاء الشعراء في معظم هذه القصائد على طريق الشاعر محمد العيد ، اشادة بالذكرى وربطا بين ما ترمز اليه وبين واقع الشعب بما يمكّنه من الانتفاع بها فيما يسمو في مختلف مظاهر حياته العامّة .

وان كان هناك من وجه للاختلاف بين هذه القصائد وبين مثيلاتها في نتاج الشاعر، فذاك ما يمكن ملاحظته فيما تعاقب على تناوله أولئك الشعراء بحديثهم عن قضية فلسطين التي كانت تتعرض في هذه الآونة الى محاولة الاغتصاب ، مما لم يعثر على مثله في أعمال الشاعر ، ولعله ليس هناك من تعليل لذلك غير ما يمكن قوله من أن أعمال الشاعر تلك كانت قد نظمت قبل تلك المرحلة .

ومهما يكن من أمر فان الدارس لا يعثر فيما نشر من نتاج الشاعر بعد هذه الفترة على غير هذه المولودية التي بين أيدينا ، ويمكن أن تكون هي الأخيرة ، كما يمكن أن يكون للشاعر غيرها في غرضها ، ولكنه لم ينشر . ونحن وان كنا لا نملك المعلومات الكافية التي تجعلنا نأخذ بأحد الاحتمالين فاننا نميل الى ترجيح الاحتمال الأول معلّلين ذلك بما نعرف من حياة الشاعر وحياة شعبه ، ونذكر بهذا الصدد أنه لم يمض على تاريخ نظم هذه القصيدة الا سنوات قلائل حتى فجّر الشعب الجزائري ثورته المجيدة ، ودخل الشاعر على اثر ذلك — كما عرفنا في غير هذا الموضع — تحت ظروف الاقامة الاجبارية ، ثم جاء الاستقلال فخرج من أسره ورجع من جديد الى قول الشعر — ان كان صحيحا قد هجره في تلك الآونة — فأبدع فيه روائع عالج فيها ما كان يعالجه في تلك المولديات ، ولا يخفى أن الأمس في حياة الجزائر غير اليوم ، فبالأمس كان

---

(1) ولد في بلدة (قنزاة) بولاية سطيف سنة 1916 . تعلم بمسقط رأسه ثم التحق بدروس الامام ابن باديس بمدينة قسنطينة .
واندمج بعد ذلك في الحياة الوطنية . فاشتغل بالتدريس في المدارس العربية الحرة بالجزائر العاصمة .وأسهم في بعض نشاطات الحركة الاصلاحية ، ثم سافر الى فرنسا ليعمل في اطار ما تقوم به هذه الحركة من نشاط وطني هناك .
ولما اندلعت ثورة نوفمبر كان في أرض الوطن فأسهم في نشاطاتها . حتى القى عليه العدو القبض سنة 1958 ووضعه تحت ألوان مختلفة من التعذيب .
وانتهى به ذلك الى الاستشهاد في حوالي منتصف 1959 .

(2) ديوانه ، ص . 5 — نشرت في مجلة (الأزهر) المصرية سنة 1949 .

(3) ولد 1921 ببلدة (ليانة) دائرة (سيدى عقبة) بسكرة ، تعلم بمسقط رأسه ، ثم التحق بدروس الامام ابن باديس بمدينة قسنطينة . اشتغل بالتدريس وبالصحافة .
ومات رحمه الله سنة 1933 ببسكرة . له ديوان شعر مطبوع ، الجزائر 1930 .

العدو يقبض على الشعب بأيد من حديد ، يحد من حريته ، ويحسب على أفراده الحركات والسكنات ، فكان الكتاب والشعراء لذلك يلجأون الى المناسبات المختلفة ، وعيد المولد النبوي الشريف من أبرزها في حياة الأمة ، ومن أقربها الى نفوس أفرادها ليتخذوا منها متنفسا يتنفسون من خلاله عمّا يعانيه شعبهم من كبت وضيق ، ويعبرون من على منبره عن مكنونات وجدان الأمة وتطلعاتها ، يرسمون لها الطريق ويحدونها نحو الغد الأفضل . أما اليوم فقد طلع الصباح على هذا الشعب وأضحى حرّا سيد نفسه ، وصارت معظم أيامه أعيادا ، يجدّد فيها الجميع العهد للوطن على المضي يدا في اليد جادين مخلصين لتدعيم مسيرته نحو البناء والتعمير ، والأخذ بيديه على طريق العز والتقدم . وبذلك وجد الشاعر نفسه في عهد قد تنحى فيه عن طريقه المترصدون وفتحت أبواب القول من أمامه وتعدّدت ، فأبدأ القول وأعاد ، ممّا جعله ـ فيما يبدو ـ في غنى على أن يفرد هذه المناسبة أو تلك بقصائد خاصّة .

ويمكن القول أن تكون هذه العوامل المتقدمة من بين الأسباب التي ترجّح أن المولدية التي بين أيدينا هي آخر ما قاله الشاعر في هذا الغرض ، وان كنا نعرف أن هناك من الشعراء من استأنف النظم في هذه المناسبة أثناء الثورة وبعد الاستقلال . ويمكن أن يعدّ على رأس هؤلاء الشاعر أحمد سحنون الذي يشتمل ديوانه على جملة من المولديات نظمها في الفترة المذكورة [1] .

وعلى أية حال فان الشاعر اختار لهذه القصيدة التي نحن بصدد دراستها ، هذا العنوان (سلوا التاريخ) [2] ، وتقع في اثنين وخمسين بيتا . ونشير الى أن عبارة هذا العنوان ليست بغريبة على المتلقي . فقد سبق أن استخدمها الشاعر وكرّرها أكثر من مرّة وبخاصة في ثنايا مولديته الثانية (ذكرى المولد النبوي) .

ويمكن أن يكون رجوعه اليها من جديد ، واختياره لها هذه المرّة ، لتكون عنوانا لقصيدة بعينها من أوضح الأدلة على اهتمامه بالتاريخ ، وايمانه في الوقت نفسه بما يرشد اليه من عبر ومواقف ، كما يمكن أن يكشف ذلك من جانب آخر عما يرمي اليه من خلال هذه الأعمال من مقاصد وأهداف .

ويظهر أن هذا العنوان بصيغته الطلبية تلك ذو دلالة ايحائية على معايشة الشاعر للواقع ، ذلك أن احساسه بما يجري في محيطه واندماجه فيه ، هو الذي يلح عليه ـ فيما أحسب ـ بأن يدعو أمته بالرجوع الى التاريخ لتنهل من دروسه مايشفيها مما تعاني من علل وأسقام ذلك الواقع .

---

(1) ينظر ديوانه ، ص : (200 ـ 222 ـ 228) .

(2) الديوان ، ص : 298 ، نشرت في البصائر العدد : 114 ـ 15 جمادى الثانية 1369 هـ / [illegible]

ومهما يكن من أمر ، فان الشاعر يستهل قصيدته هذه بمقدمة قد تبدو — بما توحي اليه بعض معانيها من اشارات صوفية خفيفة — بأنها غريبة عن الموضوع الذى يأتي بعدها ، الا أن الذى يستحضر في ذهنه تلك الملابسات التي مرّ بها الشاعر في هذه الفترة لايتبدى له ذلك ، ولايصعب عليه أن يجد تعليلا لتلك الظاهرة الملحوظة .

ولنسبق أولا بتلك المقدمة ، ثم نأتي الى ذلك التعليل ، يقول الشاعر :

هجدت فضاع حظّي في هجودى	ولم أقض اللبانة من وجودى
رقدت فضاع في الأحلام عمرى	كذاك تضيع أعمار الرقود
أؤمل أن أرى حظي كبيرا	من الحسنى ولجمي في صعود
وتنأى بي عن الآمال نفس	تنوء بوزرها تحت القيود
فيانفسي عن الكدرات عفي	وعودى للصفاء المحض عودى
ولا تدعي هموم الدهر تطغي	عليك فقد أتى شهر السعود (1)

ان الأبيات واضحة الدلالة — فيما يظهر — بمعانيها وصياغتها في تصوير بعض الملامح النفسية للشاعر في تلك الفترة التي ركن فيها الى العزلة والتصوف ، وهجر الشعر في أعقاب رجوعه من رحلة الجهاد التي استهدف فيها في الثلاثينات لأخطار المكيدة التي كادت أن تحيق به ، مما ألمحنا اليه في مكانه .

أما اليوم وهو على عتبة الخمسينات فقد انقشعت تلك الغيوم من أفق النفس وحمل بها مااستطاع أن يذهب عنها ماكان قد سكنها زمنا ليس باليسير من أسباب الحزن والكدر ، وبيدلها به حللا من الأمل وأبرادا من الرجاء . ولا غرو في ذلك فلعل الشاعر يكون قد أبصر بعبقريته ما بدا يلوح في الأفق من علامات الثورة التي شرع الشعب يعدّ لها عدّتها ، وسيفجرها بعد ثلاث سنوات فقط من تاريخ ميلاد عمل الشاعر ، فكان من ذلك ماجعله يستبشر بمستقبل الوطن فيطرح ما كان يحس به ، ويمضي يشدو لأفراح الميلاد ميلاد محمد (ص) بما هو جدير بمقامه من أعذب الألحان وأصدقها .

ولذلك نراه ينطلق بعد هذه المقدمة التي جاءت كاللازمة لتسويغ طول ذلك الغياب ، الى رسم مشهد سريع ، يبرز أثر ميلاد الرسول (ص) على الوجود ، ويخلد مواقفه ، ثم يتتبع مراحل حياته وسيرته منذ أن كان وليدا ناشئا ، وطفلا يتيما ، وشابا أمينا حتى صار كهلا . وقد اختاره الله لأداء رسالته ، فمضى يدعو الى ربه دون أن يقعد به عن أهدافه تقدم العمر ، وشدّة ما لقي في سبيل ذلك من صنوف الأذى والعنت ، فعسى أن يكون في ذلك ما يحمل الأمة على أن تنهج نهجه ، تصديا لأعدائها وطلبا لحريّتها ، يقول الشاعر :

---

(1) الديوان ، ص : 198 .

ألم تنفس بمكة في ربيع ... بأزكى ناشىء أزكى ولسود ؟
ألم تنفس به طفلاً يتيما ... يتيه على اليتائم في العقود ؟
فديت محمد طفلا يربى ... بأحضان العوارف والرفود
ومقتبل الشباب يضيء وجها ... ويزكو في الخلائق والقصود
وكهلا داعيا لله حرّا ... يدين بدينه شتّى الوفود
وشيخا عابدا لله برّا ... وسيم الوجه من أثر السجود
يواصل دعوة لله عظمى ... وينذر باسمها أهل الجحود
ويسندها الى (عيسى) و(موسى) ... و(ابراهيم) قبلهما و(هود) (1)

ويمضي في رسم الوجه الثاني من هذا المشهد ليوضح من خلاله جانبا من جهاد الرسول، وكفاحه في سبيل نشر رسالة الاسلام، وما أبداه أثناء ذلك من صدق عزيمة، وثبات على المبدأ، وصبر على المكروه، ما كان من شأنه أن يتهاوى أمامه كل ما بناه المشركون في طريقه نحو تبليغ الرسالة من مكائد وعقبات، وتم وعد الله بنصره دينه، واستجاب الرسول (ص) لنداء ربه راضيا مرضيا، بعد أن كان قد مكّن للدعوة في النفوس وأحلّها في القلوب، وأقام للاسلام دولة قوية مهابة الجانب يحمي سلطانها ويعلي رايتها في أرجاء المعمورة جيش الفتح العتيد، وتسوس أمور الناس فيها شريعة القرآن، وتسود مجتمع المسلمين بها مبادىء الاسلام الخالدة، يقول الشاعر في معرض حديثه عن النبي (ص):

فما قعدت به الستّون عنها ... وذو الستّين يعذر في القعود
ولم تخمد عزيمته خطوب ... تهاب لها العزائم بالخمود
ولمّا تمّ دين اللّه لبّى ... نداء اللّه ينعم بالمجود
وخلّف بعده دينا قويما ... وسلطانا يجل عن الحدود
وجندا يفتح الدنيا ويغزو ... كمثل السّيل فاض على السدود
ومجتمعا اخائيا تساوت ... به الأجناس من بيض وسود (2)

ثم يتوجه بكل تضرع وخشوع، وبعبارات تعلوها مسحة صوفية الى مخاطبة الرسول (ص) وهو الرؤوف الرحيم بأمته، يرفع اليه سلام ومحبة شاعر يطمح في شوق متزايد الى أن يكحل عينيه بمرأى مقامه عليه الصلاة والسلام:

---

(1) الديوان، ص: 198.

(2) الديوان، ص: 199.

عليك أبا (البتول)(1) سلام عبد | قصي عنك يطمح للشهود
يناشدك الشفاعة وهي كنز | نفيس لا يقوّم بالنقود
ويرجو منك اقبالا وحاشا | لوجهك أن تعاقب بالصدود
ألم تك يوم تاب اليك (كعب) (2) | خلعت عليه خالدة البرود ؟ (3)

الّا أن الشاعر لم يلبث بعد هذه الاستجابة الفورية الخاطفة الى نداء الشوق النابع من قلبه أن يفيق ويعود الى ما غلب على طبعه من الاستجابة لعواطف الجماعة، فسرعان ما نسي ذاته ، وهو في تلك الخطوة السنية بين يدى الرسول (ص) واندمج في ذات شعبه ، وأوشك أن يستغرقه ما يلقاه على أيدى المحتلين من صنوف الظلم والأذى ، وألوان الذل والحرمان ، ويحاول أن ينقل صورة عن ذلك الى الرسول (ص) فيقول :

عليك سلام شعب فيك يؤذى | ويرمى بالتعصب والجمود
ضعيف ماله في العيش حظ | سوى دمع يسيل على الخدود
يشح عليه بالتحرير دهر | سخا بالملك حتى لليهود
فكاد يبوء بالخسران ممّا | يلاقي اليوم من فشل الجهود
وكيف يبوء بالخسران شعب | يكنّ ولاءه لك في الكبود ؟ (4)

ولا يخفى أن هذا التوجه بالخطاب للرسول (ص) لم يبتدعه الشاعر، وانما هو ظاهرة شاع استخدامها لدى كثير من شعراء المدائح النبوية المتقدمين الا أن ذلك لا يمنع بطبيعة الحال أن يكون بين الفريقين بعض اختلاف في طريقة تناول هذا المعنى وفي الدوافع اليه والغايات منه .

فالمتقدمون كانوا في معظم الأحيان يستهلون قصائدهم بهذا الأسلوب، ويستهدفون منه في الغالب التوسل بالرسول ورجاء شفاعته . أما الشعراء المحدثون فهم في معظمهم لا يفتتحون قصائدهم بهذا الأسلوب ، وانما قد يستخدمونه أحيانا في ثنايا أعمالهم دون أن يستهدفوا منه لا توسّلا ولا شفاعة ، وانما يرمون من ورائه الى مقاصد أخرى من بينها : مخاطبة الرسول (ص) بما آل اليه حال الشريعة الاسلامية من بعده ، مثلما نجد ذلك في هذه الأبيات من قصيدة (من وحي الميلاد) (5) للشاعر جلول البدوي التي يتوجه فيه بالخطاب الى الرسول (ص) قائلا :

---

(1) البتول من النساء : المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم، وبها سميت مريم بنت آل عمران .
وقد قيل للسيدة فاطمة (ض) بنت الرسول (ص) (البتول) وهي المعنية في قول الشاعر — لانقطاعها عن نساء أهل زمانها ونساء الأمة عفافا وفضلا ودينا وحسبا . ينظر (لسان العرب) ج 11 : 43 مادة (بتل) .
(2) هو كعب بن زهير سبق التعريف به . (3) — (4) الديوان : ص : 199 .
(5) نشرت في البصائر العدد : 22 — فيفرى 1948 .

يارسول الله هيضت شرعــــة لم تكن يوما لحــق تهتضــــم
عمّت الناس بفضـل سابــــغ وأرتهم كيف ادراك الحســـم
سامها الخسف الذى لاينقـي وتــولاّ هــا الــذى لايحتشـم
راعـه منهـا كمـال وسنـا وبهـاء وجمـال مستـــتم
فانبرى ينقصهـالا يأتـلـي وارتمى يشنؤهـا لاينفصــم
قم رسول الله تنظر مادهاالسمـ ـحة البيضاء من غبن وهـم
- قل لمن راح يمسى نفسـه بأذاها ان عفـاك العـــدم (1)

ومن تلك المقاصد أيضا رسم بعض الملامح من واقع الأمة كما فعل ذلك الشاعـر عبدالكريم العقون الذى هتف بين يدى رسول الله (ص) في قصيدته (في ربيـــع الجمال شاع ربيع النور) مصوّرا بعض ما أصبح عليه حال أمته من بعده فيقـول :

يارسول الاله أمتك العربـــا ء أضحت تساق كالانعــام
يارسول الاله كم ذا يلاقــي بعدك المسلمون مـن آلام
قد غدوا في يد العدو سلاحا ليذود العدى بـه ويحامــي (2)

ويوم يحطم الشعب الجزائرى الأغلال التي كانت تكبلـه ويفجر ثورته المجيدة ، ويمضـي يدكّ حصون المعتدين ، نجد الشاعر أحمد سحنون يسارع بنقـل تلك البشرى الى الرسول (ص) في قصيدته (ذكريات المجـد) وهي احدى مولدياته الـتي نظمها وألقاها بمعتقل (الضايـة) (3) والثورة قائمة على أشدها يقول فيهـا :

يارسول الله صرنا قســـوة لاتبالي أيّ جبّـار عنيـــد
عجز الشيطان عن اغوائنـــا مذ تمرنا كل شيطـان مريـد
اننا أمتك المثلى علـــى رغم أيام على (ابن الضاد) سود
لم تزل فينا تعاليم الهـدى لم تبد فينا مواريث الجدود
لم ينل من عزمنا ظلم العدى عزمنا أقوى من الظلم العنيد
ولأهل الظلم يـوم فلقـد ذهب الله (بعاد)(4) و (ثمود)(5) (6)

وأما محمد العيد فقد كاد أن يستخدم ذلك الأسلوب في أبياته السابقة علـى طريقـة استخدام المتقدمين له ، كما يظهر ذلك في طلبه الشفاعة من الرســول (ص) ، وان كان لموقف الشاعر هذا من تعليل ، فاني أخال أنه ناجم عن ميوله الصوفي الـذى

(1)
(2) ديوانه ، ص : 200 .
(3) يقع في ناحية سيدى بلعباس بالغرب الجزائرى . (4) سبق التعريف بها .
(5) ثمود بن عامر بن ارم بن سام بن نوح . وهم قوم صالح عليه السلام . . فكذبوه فحق عليهم حكم الله (فأصبحوا في دارهم جاثمين) . وقد ورد ذكرهم في مواطن كثيرة من القرآن الكريم من بين ذلك ماجاء في سورة (الأعراف) الآيات :من(73ـ78) .
(6) ديوانــه ، ص : 201 .

لمحنا أثره في هذه القصيدة من مقدمتها . ويرجح هذا التفسير ما رأيناه من وقوف الشاعر بين يدي الرسول (ص) في مولديته (أنشودة الوليد) التي نظمها قبل هذه الفترة ، ولكنه لم يسلك فيها هذا المسلك لغلبة الاتجاه الواقعي عليه يومئذ ، وهو في الصفوف الأولى يجاهد على طريق النهضة ، مما لم يتح المجال للميل الصوفي في مثل هذه الظروف بأن يظهر ، فظل كامنا في نفس الشاعر الى أن واتته الفرصة في هذه الفترة التي سبق أن عرفنا أن الشاعر اشتد به الميل أثناءها الى الحياة الروحية فساعد ذلك على ظهور تلك النزعة الصوفية لديه من جديد .

ولا يخفى أن وجه التقارب بين هؤلاء الشعراء في هذه النماذج جلي في الروح العام ، وفي الصورة التعبيرية ، وهذا ما ألمحنا اليه في غير ما موضع من هذه الرسالة ، مما يؤكد وحدة المنبع الذي يغترف منه شعراء المدرسة الاصلاحية مادتهم وتشابه البواعث التي يصدرون عنها في شعرهم . وبالرغم من ذلك التوافق الملحوظ بينهم فانه لايقوى بطبيعة الحال على أن يلغي ما يتميز به كل شاعر من سمات شخصية خاصة ، فيبقى لذلك لكل منهم أثرة الشخصي يطبع نتاجه بطابع مميز ، وقد لفت هذا نظر بعض الدارسين فنص عليه (1) .

ونذكر أن ظاهرة التوافق بين الشعراء في تناول المعنى الواحد ، وفي طريقة التعبير عنه سمة عامة في تاريخ الشعر العربي في مختلف عصوره نص عليها كثير من الدارسين المتقدمين (2) والمحدثين (3) على السواء .

وماذا بعد هذا عما تطرق اليه الشاعر من معاني في بقية مولديته ؟

لقد خلص الشاعر من تلك الوقفة التي وقفها بين يدي الرسول (ص) الى وقفة أخرى ، حاول أن يستخلص فيها على عادته العبرة من هذه الذكرى ، وذلكم هو مطلبه الأساسي كما هو معلوم في هذا الشعر .

وان الذي يلفت الانتباه اليه في هذه المحاولة أن الشاعر لم يقصر فيها عنايته على الواقع الضيق الذي يحيط به فحسب ، وانما حافظ فيها على منهجه الذي كان قد أخذ به فيما تطرق اليه من موضوعات في الفصل السابق بجمعه في ذلك ما بين

---

(1) ينظر د . عبدالله ركيبي (الشعر الديني الجزائري الحديث) ص : 708 .
(2) ينظر — علي بن عبدالعزيز الجرجاني (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ص: 183 .
وينظر — ابن رشيق القيرواني (العمدة) ج 2 : 93 .
(3) ينظر د . شكري فيصل (تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام) ، ص : 63 .

قضايا الوطن الصغير ، واهتمامات الوطن الكبير، بين أمجاد العروبة ومآثر الاسلام .وقد سلك في هذا العمل ما يقرب من ذلك فخرج فيه من الخاص الى العام ، مما طبع أفكاره ومشاعره بطابع أوسع وأشمل ،كما يتلامح ذلك في هذه العبارة (بني الاسلام) التي استهل بها أبياته ، وهي عبارة عامة تشمل قوم الشاعر الأقربين والأبعدين على السواء ، ومن انتسب اليهم واعتز مثلهم بعز الاسلام ودان بشريعته .

ان الشاعر يهيب بهؤلاء جميعا أن يقفوا وقفة اذكار واعتبار أمام مآثر نبيهم ومقاصد دينهم وأمجاد أسلافهم وهم يجوبون أقطار الأرض ينشرون فيها دعوة الاسلام ويذيعون في الناس جميعا ما تزخر به هذه الدعوة من مبادىء الحق والخير والعدل، ومن قيم البرّ والاحسان والمساواة . ويخلص من هذا الى ما يرمز بوضوح الى هدفه من هذه الوقفة مما نراه في مثل هذا التساؤل : فهل في الأفق ما يحمل الأحفاد وهم يعانون في حاضرهم ما يعانون على الوقوف عند مفاخر الأجداد التي كادت أن تضيع فيها بلون الافادة منها ؟ وهل يكون من لهم ما يقرؤون فيها من صفحات المجد ما يحرك ضمائرهم ويدفع بهم الى وعي حاضرهم السيء ، ويمكن في نفوسهم لأسباب الثورة عليه ، يقول في هذا المعنى :

بني الاسلام هذا يوم ذكرى	مخطرة على مر العهود
سلوا التاريخ عن أزكى رسول	رؤوف في الكتاب بكم ودود
ومن دين أقام العدل ركنا	وأعلى بنده فوق البنود
وأنصف في حكومته فسوى	بدعوى سيد دعوى مسود
فشا بين الورى في بضع قرن	وعم على البسائط والنجود
فهل للمسلمين اليوم عود	الى ما ضاع من شرف الجدود ؟
وهل لرجالهم عزمات صدق	الى الأهداف تقدح كالزنود ؟ (1)

ثم يترك الشاعر هذا الحاضر (العام) ويعود من جديد الى الحديث عن الحاضر (الخاص) فيولي وجهه شطر الوطن الصغير (الجزائر) مستفسرا عما استطاع أن يحققه الشعب الجزائري على طريق نهضته ، وعلى درب تحريره يقول :

وهل شعب الجزائر مستفيق	من الأحلام مطرح الركود
وهل هو بالتحرر سوف يحظى	كأمة (ليبيا) أو (كالهنود) ؟ (2)

وأظن أننا نذكر ما سبق أن ألمعنا اليه من أن تناول المعنى الواحد في أكثر من مكان في القصيدة الواحدة يعدّ مظهرا سلبيا ونقصا فنيا يسيء الى تجربة الشاعر بما يؤدي اليه من اضطراب وتشويش في ذهن المتلقي ، ويعكس من نحو آخر ضعف

---

(1) الديوان ، ص : 200 .

(2) الديوان ، ص : 201 .

قدرتـه على توفير ما تتطلبه العمليـة الابداعية من أسبا ب الترابط بين عناصـر الموضوع المعالج ، وهو ما يسمّى بوحدة الموضوع ، أو ما يكون أشد من ذلك تماسكا وتلاحما وانسجاما ، وهو مايطلق عليه النقاد المحدثون (الوحدة العضوية) . ويستوقفنا هنـا سؤال حول طريقة الشاعر في بناء عمله الشعرى فهل كان يقيمه على وحدة متماسكة تتشكل فيها التجربة الشعوريـة تشكلا عضويا ناميـا بحيث يكون كل جزء فيهـا متصلا بغيره برباط عضوى متين ، أم أنه كان يتناول في القصيدة الواحدة مجموعـة من المعاني قد لا يربـط بين جزئياتهـا رابـط واضـح ؟

ويحسن بهذه الصدد أن نتذكر ما انتهى فيه البحث من الحديث عن تنظيم ديوان الشاعر ، وعن طبيعة موضوعاته ، حيث تبينا هناك بأن المضامين متداخلة في أعماله ، فهو ينطلق فيها من جزئيـة دينيـة أو وطنية ، أو اجتماعية ، ثم لا يلبث أن يجد نفسه يعالج هذه القضايا مجتمعة في عمل واحد .

وبالرغم مما قد يتبدى من تنوع جزئيات هذه المعاني المطروقة فهي في الواقع ذات أصل نفسي واحد ، فهو حينما يدعو في عمل من أعماله الى النهضة ، ويحث على التمسك بالدين ، والاقبال على العلم ، ثم يحض على خدمة الوطن والغيرة على شخصيته فانه يعالج في الحقيقة مجموعة من الجزئيات تستمد جوهرها من كلية واحدة ، أو كليات متقاربة لا تخرج عن حدود دائرة الوطن وقيمـه ومقوماتـه ، ولا تستهدف الا غاية واحدة هي اصلاح حال الأمة والسمو بواقعهـا . وهذا ما يمكن أن يطلق عليه في العمل الأدبي (وحدة الموضوع) وهي تعني بأن يتناول المبدع في عمله أحاسيس قد تبدو متباعدة ، ولكنها في حقيقة أمرها تنبع من وحي موقف شعورى واحد . وهذا ما يمكن ملاحظة توفره في كثير من أعمال الشاعر المدروسـة .

أما (الوحدة العضوية) فهي شيء آخر . . وهي تعني أن تكون القصيدة لبنة حية، تامة التكوين ، وأن تأتي في وحدة متماسكة متطورة ، تتلاحم فيها عناصر التجربة الشعريـة، من عواطف ، وأفكار، ولغة ، وصور، تلاحما عضويا ناميا ، لا يقتصر مفعوله عند حد نقل تجربة الشاعر (أفكاره وانفعالاته) الى المتلقي فحسب ، وانما يضمن لها الى جانب ذلك قـوة الفعالية والتأثير في نفسـه .

وهذا مالم يستطع الشاعر – كمعظم شعراء مدرسته ، وكسائر مبدعي الشعر الوجداني –(1) أن يحققه في جميع أعماله ، لعوامل مختلفة، يأتي على رأسها : سيطرة النموذج الفني القديم على ذهنه وقوة احتكامه اليه في بناء تجربته ، الى جانب ما عرفنا من ضعف صلته بالآداب الاجنبية . . .

---

(1) ينظر د . عمر الدسوقي (في الأدب الحديث) ج 2 : 251 .

وان افتقار الشاعر الى هذه السمة الفنية في أعماله هو الذي كان يدفعه في بعضها الى مثل هذا المسلك في هذه القصيدة التي نحن بصدد دراستها، من معالجة لمعنى في مكان ثم الرجوع اليه في مكان آخر. وهذا مايعود اليه مرة أخرى في هذا العمل برجوعه فيه الى الحديث من جديد عن المحيط العام، فيختمه بهذين البيتين اللذين يستهلهما بهذه العبارة (بني الاسلام) وهي واضحة الدلالة بعموميتها وباتجاه الشاعر فيها بالخطاب الى جميع المسلمين يقول :

بني الاسلام أحيوا الدين أحيوا — شعائره وأوفوا بالمقصود
فدين محمد دين الترقي — ومجد محمد مجد الخلود (1)

أن الشاعر يتوجه في هذين البيتين الى كل من تربطه بهم رابطة العقيدة الاسلامية فيحثهم على التمسك بدينهم واحياء شعائره ومبادئه في نفوسهم وفي سلوكهم مؤكدا أن في ذلك الرقي وفي ذلك المجد والخلود .

ويمكن القول أن انتقال الشاعر الملحوظ من العام الى الخاص، أو من الكل الى الجزء، والعكس، انما يدل عن تلك المزاوجة التي تحيا في ذهنه ما بين أحداث الوطن الصغير وقضايا الوطن الكبير، ما بين اهتمامات الحاضر هنا وملابسات الحاضر هناك، مما رأينا أنه من السمات الأساسية في منهجه في هذا الشعر .

ولنص من نحو آخر أن ما تضمنته تلك الخاتمة من دعوة حارة الى التمسك بالاسلام والعمل بمبادئه والاعتزاز بأمجاده وما يشبه ذلك من المعاني الدينية، ليس مقصورا على خاتمة هذه القصيدة فحسب، وانما يمكن ملاحظته في كثير من خواتم أعمال الشاعر، مما يمكن اعتباره سمة بارزة من سمات معظم أغراض شعره وبخاصة منها شعره الاسلامي .

ونشير الى أننا كنا قد وقفنا في غير هذا المكان من البحث عند بعض أعمال الشاعر التي يبرز الأثر الديني في عناوينها وفي مقدماتها . وتأتي هذه الخواتم لتكمل أطراف الصورة في أذهاننا عن قوة ذلك الأثر في وجدانه وفي عقله، ومن ثم شعره . وتتبدى هذه الظاهرة بشكل واضح في مجموع مولدياته ، وفي جملة كبيرة من قصائده نذكر بعضها مرتبا ترتيبا تاريخيا : (تحية العلماء — عيد الحرم — هيهات يخزى المسلمون — أيها السامر — في أذن الشرق — حزب مصلح — رفاق الخير — بلادي — ختمت كتاب الله — ويخلد الاسلام — بشرى للجزائر) (2)

---

(1) الديوان، ص: 201 .
(2) وهي بديوانه على التوالي : (249 — 99 — 112 — 115 — 117 — 129 — 132 — 135 — 156 — 176 — 211) .

وتظل هذه الظاهرة بارزة في شعره الذى نظمه في آواخر حياته ، كما يظهر ذلك في مثل هذه الأعمال (الثورة العظمى ــ العروبة أمــنا الكبرى ــ هذه قمة الفتوة ــ يارائــد الشعــب) (1)

وفي آخر قصيدة نشرت له وهي (أيها الشعب المفــدى) (2) التي نظمها تخليــدا للذكرى العاشرة للاستقلال ، والتي يقول في خاتمتهــا :

تمت العشــر فأدينــا بهـــــا ... سجدة الشكــر لمن بالنصر جـــادا
فله الحمد على اتما مهـــــــا ... واليه المنتهــى مهمــا تمـــادى

ويمكن القول بهذا الصدد أن الشاعر يلتقي في هذه الخاصية من بعض الوجوه مــع بعض شعراء المدائح النبوية ، هؤلاء الذين كانوا يعنون في خواتم قصائدهم بالتركيــز على بعض المعاني الدينية ، ولعــل من أبرز ما يلتقــي فيه الطرفان من هذه الناحيــة هو ظاهرة الدعاء . وتتجلى هذه السمــة خاصة في خاتمــة مطولة الشاعر (من وحي الثورة والاستقلال) التي ضمنهــا من المعاني ما يقرب كثيرا من معاني خواتم قصائد أولئك الشعراء المتقدمــين .

وفيما عدا ذلك يبدو الفــرق واضحا بين الفريــقين في بعض ملابسات هذه الظاهرة وبخاصة في الدوافع اليها وفي الأهداف منها ، فالدعاء عند بعض أولئك الشعراء كان يأخذ طابعا ذاتيا ، ويعمد فيه صاحبه الى اتخاذ شيخه وسيطا ، ويدعو فيه له أو لنفسه ، وقليلا ما يكون لغير ذلك (3).

وأما الدعاء في خواتم قصائد محمد العيد فيغلب عليه طابع الغيرية ، ويتوجه فيه الشاعر الى الله بدون واسطة ، يدعوه لا لنفسه ولا لذويه ، أو لقطب من الأقطــاب ، وانما يسأله عز وجل أن يمنّ على الدين بالنصر ، وعلى الوطن بالعز ، وعلى الأمة بالمجد والسؤدد . وهو يشبــه في ذلك الشاعر أحمد شوقي في خواتم بعــض مدائحه النبوية ، وبخاصة منها (الهمزية ــ وذكرى المولــد) (4).

وأظن أن الاختلاف واضح بين هذه المرامي وتلك ، في الاتجاهين ، قد يكـــون كافيــا وحده للوقوف عندما حققــه الشاعر في بعض شعره من تطور وتجديــد .

ونود أن لا نختم الحديث في تحليل هذه المولدية حتى نحاول أن نتعرف عن بعض ما استطاع الشاعر أن يحققــه فيهــا ، من وجوه التطور في رؤيتــه ، وفي المعاني التي تطرق اليها فيها ، وفي طرائق التعبير التي استخدمها لابراز تلك المعاني .

---

(1) وهي بديوانه على الترتيب : (238 ــ 226 ــ 265 ــ 501) .
(2) نشرت في مجلة الاثير العدد : 5 ــ فاتح أوت 1972 ، ينظر الملحق .
(3) ينظر د . عبدالله ركيبي (الشعر الديني الجزائرى الحديث) ص : 115 .
(4) ينظر الشوقيــات) ج 1 : (34 ــ 68) .

1 — يمكن القول أن أول مايتبادر للدارس من تلك الظواهر هو وفاء الشاعر لذلك المنهج الواقعي الذى حرص على الالتزام به في شعره الاسلامي وفي كثير من أغراض شعره ، ويقوم ذلك على اتجاهه في الموضوعات المعالجة وجهة الافادة منها بما يسمو بمظاهر الحياة العامة للوطن والأمة .

ويتبدى شيء من ذلك في هذه القصيدة ، في تلك المزاوجة التي ألممنا اليها من قبل ، والتي يجمع فيها الشاعر ما بين الاهتمام بأحداث الواقع القريب وبين قضايا الواقع البعيد في دائرته الواسعة .

2 — يبدو الشاعر في هذا العمل وكأنه أفرغ يديه من كل تلك المحاولات المستخدمة حتى ذلك الحين ، كوسائل للكفاح ، وللمطالبة بالحق الوطني ، مما يتمثل في تدبيج العرائض والتهافت على المقاعد النيابية ، يبدو كأنه ضرب صفحا عن كل ذلك ، ومضى يرسم للشعب النهج السليم الذى يمكن أن يبلغ به الى الآمال المنشودة وما ذلك الا طريق الجهاد الطويل :

ولا يمطي التحرر غير شعب يجيب الى المعامع حيث نودى(1)

ويمكن أن يفهم من هذا الكلام أن الشاعر أصبح ينظر الى الحياة الوطنية بمنظار جديد . وهذا مايفسر لنا اختفاء تلك الرؤية الاصلاحية في هذه المولدية ، أو خفة حدتها فيها على الأقل ، عمّا كانت عليه في مولدياته الأولى .

لقد خفت حدّة تلك الرؤية في شعر الشاعر في هذه الفترة لضعف بواعثها ، بسبب ما طرأ على أساليب الكفاح الوطني من تطور . ان الوطن أصبح يعيش في هذه الآونة مرحلة جديدة تختلف في طبيعة الملابسات المحيطة بها عما سبقها من مراحل .

لقد استكمل الشعب الجزائرى فيها — بما قطع من أشواط على طريق النضال — بعض الجوانب الأساسية في بناء نهضته ، فمكنه ذلك من الاحساس ببعض أسباب المناعة الشخصية فأخذ يعد العدّة ويستجمع قواه لتفجير ثورته الكبرى ، الأمر الذى جعل الشاعر يتحسس ذلك ، ويقوم بتطوير أسلوبه في التعامل مع الشعب ، ومع العدو في وقت واحد . مما يدلّ مرّة أخرى عن وعيه وصدق معايشته للظروف المرحلية التي كان يمرّ بها يومئذ الكفاح الوطني .

3 — ويمكن القول أخيرا أن تعدّ هذه القصيدة في مقدمة مولديات الشاعر ، لما استطاع أن يوفر فيها من بعد النظر وشمولية الرؤية ومعايشة الحاضر والاندماج فيه اندماجا واعيا ، ولما طوعها اليه من غزارة المعاني وصدق الاحاسيس ويسر التعبير ، وقرب التصوير ، مما يكشف عن بعض وجوه أصالته ، ويبرز بعض ما يتمتع به من قدرات فنية .

(1) الديوان ، ص : 201

ويحسن بنا ونحن نوشك على الفراغ من هذه الدراسة لآخر مولدية من مولديات الشاعر أن نقف وقفة متأنية نحاول أن نجمل فيها القول عن الدوافع التي كانت تحرك الشاعر في هذا الغرض، والأهداف التي كان ينشدها من خلاله . وأهم المقومات الفنية التي بنى عليها أعماله في هذا المضمار.

لعله أصبح من الواضح لدينا ، بعد الذى تقدم من دراسة مولديات الشاعر أنه كان يصدر فيها — كما كان يصدر في جميع موضوعات شعره الاسلامي — عن رؤية جديدة ، تختلف عن تلك التي ألفها دارسو الأدب لدى معظم المتأخرين من شعراء المدائح النبوية، والقصائد الدينية بوجه عام . كما كانت تحدوه الى نظمها دوافع ذاتية وموضوعية تعكس أحاسيسه ، من خلال تعبيره عن الوجدان الوطني وضمير الأمة ، وهذا ما يخالف فيه كذلك من تقدم ذكرهم من الشعراء[1] .

ان محمد العيد يعبر في تلك القصائد عما يغمر قلبه من حب خالص للرسول وعما يفيض به صدره من ايمان صادق برسالته ، ويحرص كل الحرص فيها على أن يفيد من سيرة النبي ومواقفه فيما ينهض بواقع الوطن والأمة والسمو به . ومن هنا فانه لم يكن مدفوعا فيها بدوافع المصلحة الشخصية كتلك التي كانت من وراء مديحتي (الأعشى) و (كعب بن زهير) ، كما لم تحمله على نظمها الرغبة في اظهار البراعة اللفظية والصنعة البديعية، تلك التي كانت من وراء نظم معظم المدائح النبوية المسماة بـ (البديعيات) وغيرها في عصر الضعف . كما لم تحركه الى نظمها ، استجابة لحاجة فنية من مثل معارضة بعض القصائد ، فهو على الرغم مما نالته قصيدة (البردة) للبوصيرى من حظوة لدى العامة والخاصة ، وعلى الرغم من كونه يشترك مع صاحبها في عاطفة الحب الصادق للرسول (ص) ، فانه لم يلجأ الى معارضتها ، لعل لاحساسه بأن المعارضة ضرب من فنون القول لا يدل في الغالب على صدق صاحبه ، ولا على تجاوبه مع محيطه ، كما يمكن أن يكون ميله الى الاعتدال ، قد ساعده على ذلك لما شاع في تلك القصائد من ألوان المبالغات التي لا تتماشى مع ما طبعت عليه شخصيته في هذا المجال . ولم يكن كذلك من أسباب نظمه لتلك القصائد ، الرغبة في الفوز بالمكانة لدى أصحاب الجاه والسلطان . كما فعل ذلك بعض المحدثين ، ويأتي على رأسهم (شوقي) الذى نظم قصيدته (نهج البردة) تذكارا لحج الأمير (عباس حلمي الثاني) (1327 هـ — 1909 م) ومعارضته في الوقت نفسه لقصيدة (البردة) للبوصيرى ، كما قد عارض أيضا ، همزية هذا الأخير بقصيدته الهمزية[2] .

---

(1) ينظر د . عبدالله ركيبي (الشعر الديني الجزائرى الحديث) ، ص : 88 .
(2) ينظر د . زكي مبارك (الموازنة بين الشعراء) ص : 133 — وينظر د . ماهر حسن فهمي (شوقي شعره الاسلامي) ص : 183 .

وأحسب أن معظم هذه الدوافع المتقدمة التي حملت بعض الشعراء على نظم قصائدهم ، لا تدل كما هو واضح على صدق في الشعور ، بله أن تصدر عن عاطفة مشبوبة صادقة ، كما يحاول أن يثبت ذلك بعض الدارسين ، في معرض حديثه عن الحالة النفسية التي يزعم أنها تكمن وراء المدائح النبوية لشوقي (1).

لقد كان محمد العيد كغيره من شعراء الاصلاح في الجزائر ، وكمعظم شعراء العربية في العصر الحديث . ينطلق في تلك القصائد المولدية ، من أرضية الواقع متخذا من ذكرى المولد النبوى فرصة يحث فيها شعبه على اليقظة ، ويدعوه الى الانتفاع بما في رسالة صاحبها من هدى ، وما في سيرته من عبر ، وما في شمائله من قويم السلوك ، راجيا أن تستنير الأمة بذلك ، في بناء صرح نهضتها وأن تأخذ منها مايعزز جانبها في الصراع الدائر بينها وبين أعدائها ، وتمكينها من دحرهم والانتصار عليهم .

ويمكن القول بذلك أن مولديات الشاعر تعدّ من أبرز أعماله التي جمع فيها ما بين عنايته بحاضر الوطن وحاضر الأمة في وقت واحد ، وأن الذى يقارن بين هذه القصائد ، وبين مثيلاتها المتقدمة عنها في الشعر الجزائرى الحديث سيلمس فروقا كبيرة بين ما ترمي اليه هذه ، وبين ما تهدف اليه تلك من مقاصد وغايات ، ذلك أن مدائح أولئك الشعراء لم تكن تهدف الى شيء مما كانت تنشده مولديات شعراء الاصلاح من تصوير للواقع ومعالجة لقضاياه ، لسيطرة النظرة الغيبية على أصحابها ، مما جعلهم يتجهون فيها – كما رأينا – اتجاها روحيا واضحا أفقدها جزءا هاما من التأثير المطلوب على سير الحياة العامة للأمة وأبعدها عن مجريات الأحداث فيها .

وان محمد العيد على الرغم من أنه كان ذا ميول صوفية متأصلة فيه ، فانه لم يؤد به ذلك الى اقتفاء أثر من سبقه من الشعراء على ذلك الطريق ، فينسلخ عن الواقع ، ويغرق في عوالم الغيب . ولعل تمكن الروح الاسلامية في ضميره وفي فكره هو الذى عصمه من ذلك ، كما يمكن أن يكون قد ساعده على ذلك أيضا ما ألمعنا اليه في غير هذا الموضع من أن صوفيته كانت صوفية سنية تقوم على الاعتدال ومعايشة الواقع وتهدف الى الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة .

ونذكر أن هذا المنهج الواقعي الذى أخذ به الشاعر في معظم شعره الاسلامي انما هو منهج معظم شعراء مدرسته ، هؤلاء الذين اجتهدوا لتقريب الشعر من حياة

---

(1) ينظر المصدر السابق ، ص : 108 .

الناس، والتعبير عن قضاياهم وأحداثهم، وقد تميز محمد العيد في هذا الميدان، عمن سبقه من الشعراء الجزائريين بوجه خاص.(1)

ويحسن أن لا يفهم من هذا الحديث، أن الشاعر كان واقعيا ماديا لم يلتفت في قصائده تلك، وهو يصدر فيها عن شعور ديني فياض، الى الجانب الروحي، وانما الذى كان قد فعله، أنه قام بترجمة تلك الطاقة الروحية الفاعلة الى دعوة حارة مخلصة يحث فيها قومه على التمسك بالدين والعمل على احياء مبادئه وقيمه في النفوس وفي السلوك.

ونذكر أن طبيعة هذه المنطلقات التي انطلق منها في تلك القصائد، والمرامي التي كان يتوخاها منها، والظروف التي كان يحيا في ظلها ويتفاعل مع احداثها، أن كل هذه المؤثرات جملته يدرك ما يحيط به ويعي من ثم حقيقة عمله، ويختار له من القوالب الفنية ما يلائمه ويمكنه من التعبير عن احساسه والوفاء بغرضه، ومن هنا صاغ قصائده تلك، في اطار فني، لم يقم على المنهج التقليدى الذى نسج على منواله الشعراء القدامى قصائدهم، ذلك الذى يتكون على النحو التالي: مقدمة طللية أو غزلية، يتبعها وصف، ثم يأتي من بعد ذلك الغرض الأصلي، ولا عسير أن تجلى صورة هذا المنهج الذى أصبحت عليه في مدائح المتأخرين، كما يتجلى ذلك في مدائح البوصيري ومن حذا حذوه ممن عاصره أو جاء بعده، وقد كانت المديحة عند هؤلاء تفتتح بمقدمة نسيبية أو دعائية ثم يليها مديح الرسول (ص) بمعانيه المختلفة التي قد يتخللها شيء من الوصف أو من الحكمة ثم تأتي الخاتمة متضمنة التوسل او الدعاء أو الصلاة على النبي (ص) أو ما يشبه ذلك من المعاني.

ان محمد العيد لم يأخذ في مولدياته بهذه الخطة، وانما بناها على منهج القصيدة الحديثة، فلم يقدم لها بشيء من النسيب، وانما كان يهجم في أحيان كثيرة على موضوعه من مطلع القصيدة، كما رأينا ذلك في أعماله التالية (تحية المولد النبوى، خطك الله، أنشودة الوليد، يا أمة الخير).

وكان يقدم لها حينا آخر بمقدمة وجيزة لا يستقلها استقلالا ذاتيا محضا، وانما يضمنها من الشعور ما يتصل بموضوعه، كما في قصيدته (ذكرى المولد، وسلو التاريخ). وهو في تلك الحالتين يدير حديثه في ايجاز حول مولد الرسول (ص) ونسبه وبيان فضله، والاشادة بشمائله المعنوية خاصة، ويقف خلال ذلك وقفات يطيل فيها النظر في الحديث عن بعض المواقف من جهاده دون ذكر مفصل لغزواته باستثناء تلك الوقفة المجلى التي ألمع فيها الى غزوة الأحزاب في (أنشودة الوليد) بما يمكن أن يوحي للباحث بايمان الشاعر بأن حياة الرسول (ص)، كلها جهاد ونضال من أجل نصرة الحق، وتبليغ رسالة ربه الى الناس، مما قد يجعل الاجمال فيها يغني عن التفصيل. ولا يفوته أن يصور اثناء ذلك بعض المشاهد من نضال الصحابة رضوان الله عليهم، ومن اقتفى

---

(1) ينظر: تفيلها لم لوباخ (محمد العيد "صوت الجزائر") المجاهد الثقافي العدد: 12 ماي 1970 ص: 42

من المجاهدين الأولين على طريق نشر الاسلام وترسيخ دعائمه في كثير من البقاع في العالم، وهو يوجز في هذه الناحية أيضا، ولا يطنب فيها أطناب غيره في بعض مدائحه (1) . كما أنه لم يكد يتجاوز في ذلك الحديث من ذكرت من الرجال الى غيرهم، وهذا وجه آخر من وجوه تميزه في مولدياته عن بعض شعراء المديح النبوي المتقدمين الذين عنوا عناية خاصة في أعمالهم بمدح آل البيت (2).

وان الذي يتصل بوجه عام، حديث الشاعر عن الرسول (ص) ، يلحظ أنه لم يعن فيه بما عني به بعض الشعراء المتصوفة في مدائحهم بتعداد صفاته لمجرد التعداد، وبالايغال في سرد معجزاته، وبالتغني بما يعرف لديهم بـ (الحقيقة المحمدية) التي تعني في جملة ما تعنيه أن محمدا (ص) هو أصل العالم، وان الكون ما كان يكون الا بسببه (3).

ان محمد العيد وهو يهدف الى معالجة الواقع والسمو به لم يكن ينظر الى تلك المعاني بتلك النظرة لاعتقاده أن ذلك، وان لم يبعده عن غايته، فانه لايساعده في التقرب منها . وهو بذلك يخطو خطوة واضحة على طريق تطوير المديحة الاصلاحية في رؤيتها وفي أغراضها بما يميزها عما كانت عليه لدى بعض القدماء والمحدثين .
وانطلاقا من ذلك كان الشاعر يعمد الى تركيز حديثه عن الرسول (ص) حول سيرته ومواقف جهاده، بهدف الافادة منها فهو يرى أن محمدا (ص) رسولا، داعيا الى الله باذنه ورحمة من عنده الى عباده، فهو مثلهم الأعلى وهو أسوتهم الحسنة فيما يبتغون من فضل في هذه الدار وفيما يحرصون على كسبه من زاد لتلك الدار .
ويخلص من تلك الوقفات بين يدي حضرة المصطفى (ص) الى استخلاص العبرة من تلك الأعمال، فيتوجه نحو قومه يدعوهم من صميم معايشته لقضاياهم، دعوة حارة الى أخذ الدروس من تلك المواقف والمشاهد، بما يعزز في أنفسهم الثقة، بامكانياتهم ويحفز هممهم على النهوض بواقعهم، ويزيل من قلوبهم الشعور بالضعف من أعدائهم . وينهي حديثه هذا بخاتمة قصيرة، تختلف كما مر معنا من بعض الوجوه عن خواتم قصائد من سبقه من شعراء المدائح النبوية في معانيها وفي صياغتها .

واذا حاول الدارس أن يلخص في كلمة أهم المعاني التي كان الشاعر يحرص على معالجتها في هذه الأعمال، فانه يجد في مقدمة ذلك هذه الدعوة الى التمسك بالدين والحث على الاغتراف من منابعه الصافية والاقتداء بما في سيرة الرسول (ص) وهديه من توجيهات، وبث الروح الوطنية وتأصيلها في النفوس، واعداد العدة من كل ذلك بما

(1) ينظر (نهج البردة) لشوقي (الشوقيات) ج 1 : 206 .
(2) ينظر د . عمر موسى باشا (أدب الدول المتتابعة) ص : 463 .
(3) ينظر د . عبدالله ركيبي (الشعر الديني الجزائري الحديث) ص : 267 .

يمكن الوطن من بناء ذاته والثورة على أعدائه . وبديهي أن مثل هذه الاغراض الجديدة، لايمكن أن تجد أمامها الطريق ممهدة الى أهدافها الا اذا وفر لها صاحبها من القوالب الفنية والأساليب التعبيرية ما يماثلها في الجدة والتطور، وذلك ما حاول الشاعر أن ينهض به ، الا أنه وهو واحد من شعراء المدرسة الاحيائية الذين يقوم نتاجهم على احياء التراث والافادة منه ، ظل بسبب ذلك شديد الصلة بالنموذج الفني القديم في طريق التعبير وأساليب التصوير . وان قصارى ما استطاع أن يصل اليه في تطوير فنه الى جانب ما رأيناه ، مما حققه في بناء قصيدته ، هو تحرره من جانب كبير مما طغى على أسلوب الشعر العربي في عصر الضعف من تمحل وتصنع وجمود . وفيما عدا ذلك كان يقوم أسلوبه على احتذاء النموذج القديم والمزاوجة بينه وبين ما استطاع أن يتوصل اليه بامكانياته المحدودة وارادته الواضحة في التجديد، من أدوات فنية استمدها من مظاهر العصر والبيئة ، والحياة العامة المحيطة به ، وترتب على ذلك أن الشاعر لم يستطع أن ينطلق في فنه بعيداً ، وبقي يدور في آفاق محدودة . ويمكن للدارس أن يلحظ ذلك اذا ما أضاف هذا الذى شاهده في هذه القصائد التي بين يديه من طرائق التعبير وألوان التصوير ، الى ما كان قد مرّ معه من ذلك في غيرها ، مما يمكنه من أن يلمس أن الشاعر لم يستطع في مجال التعبير أن يمنح لغته ، وهي العنصر الأساسي الأول في أى عمل أدبي كائنا ماكان ، القدر اللازم الذى ينبغي أن تكون عليه اللغة الشعرية ، تعبيرا وتصويرا بما أثقل كاهلها به من سيطرة النبرة الخطابية واللهجة التقريرية المباشرة على أسلوبه في كثير من نماذج شعره ، فأفقد ذلك لغته ، ما تقوم عليه لغة الشعر من تركيب وتكثيف .

وان هذا الذى قيل عن لغة الشاعر ، يمكن قوله عن عنصر التصوير لديه، وهو لا يقل خطورة في العملية الابداعية عن العنصر السابق . ومما يمكن ملاحظته بهذا الصدد أن تصوير الشاعر يكاد يقوم في معظمه على الصور الشعرية البسيطة التقليدية ، يستمدها طورا من الثقافة الاسلامية ، ويستمدها طورا آخر من التراث الشعرى القديم ، وهي تقوم في الغالب على الألوان البيانية المعروفة من تشبيه واستعارة وكناية ، مما جعلها تأتي في مجملها صورا جزئية بسيطة تتسم بقدر كبير من الوضوح والقرب ، وتفتقر الى نصيب ليس بالقليل مما يتطلبه العمل الشعرى من ايحاء وظلال وألوان ، فجاء أسلوبه لذلك ، وأهم ما يميزه هو الوضوح والسهولة والقرب .

ويمكن أن نختم هذا الحديث عن مولديات الشاعر بالقول أنها كانت جميعها تشترك في جملة من المظاهر والاهتمامات يأتي على رأسها الدوافع اليها والغايات منها ، فقد صدر فيها من منطلق ذاتي واقعي يلهج بشن لفسه ويصبب في وجدان مجتمعه ، ثمولم ينظمها بدافع المدح لذاته ولم ينشئها استجابة لمعارضة شاعر من الشعراء أو رغبة في تهنئة

صاحب جاه سعيا وراء مصلحة خاصة . وانما أنشدها استجابة لشعور داخلي دفعه دفعا لتخليد ذكرى ميلاد أعظم رسول في العالمين ، تعبيرا عن حبه لشخصه الكريم، وتمجيدا لرسالته ، وتنويها بشمائله ، وتعظيما لمواقفه ، وتوجيها لأنظار الأمة للافادة من ذلك فيما يسمو بواقعها ويرقي بحياتها .

وان من يقارن بين ماكان يسمعه الناس في بعض الموالد من قصائد وقصص، وبين ما ركز عليه الشاعر في هذه المولديات ، من رغبة في استخلاص العبرة من هذه الذكرى فيما يسمو بواقع الناس وحياتهم ، يمكنه أن يتبين النقلة التي حققتها هذه المولديات ويدرك قيمتها وأثرها في تطوير الوعي الديني والوطني . وان دراسة هذا النتاج في الشعر الجزائري الحديث ومعالجة ما أصابه من تطور على أيدي معظم شعراء المدرسة الاصلاحية يمكن أن يكون بحثا علميا يغري بعض الدارسين على النهوض به .

* * *

وكما وقف الشاعر طويلا عند شخصية الرسول (ص) ، يستلهم من مواقف سيرته الشريفة العبرة ، ويستمد من مكارم أخلاقه القدوة والمثل . . . للفرد وللجماعة ، للوطن ، وللأمة ، في هذه الحياة وفي تلك الحياة . فكذلك كانت له عناية خاصة بصحابته رضوان الله عليهم من الخلفاء الراشدين ومن اقتدى بهم واهتدى بهداهم من الصحابة والتابعين والمجاهدين الأولين .

ونذكر أننا لمسنا هذه العناية في دراستنا لمولدياته ، وهي بارزة كذلك في مواطن كثيرة من شعره مما يمكن أن يعبر عن ايمانه بأن هؤلاء الصحابة هم أحسن من يعنى باحياء ذكراهم وأجدر من يقتدى بهم من بعد الرسول (ص) ، ومن هذا المنطلق يتوجه الشاعر الى شعبه يحثه على تحكيم هدى الاسلام في أموره ، واقتفاء أثر الخلفاء الراشدين في ذلك مؤكدا أن من سار على درب أولئك الهداة ، سيفوز بحسن العاقبة ، يقول :

يا أيها الشعب استبق	للصالحات وظل يدا
حكم هدى الاسلام تر	ض الله ترض محمدا
واقف الهداة الراشديـ	ـن الراكعين السجدا
صوت السموات العلى	صوت الهداة له صدى
فمن استجاب لصوتهم	نال النعيم السرمدا (1)

ويؤمن الشاعر أن هؤلاء الراشدين هم الصفوة المختارة من عباد الله ، وهم الأسوة الحسنة للبشرية جمعاء ، وهم مثله العليا الذين يتيه بمآثرهم وبأعمالهم الصالحات على الناس

---

(1) الديوان ، ص : 133 .

أجمعين ، ويتوجه بهذا الايمان الى شعبه مرة أخرى حاثا اياه على انتهاج نهج أولئك الراشدين في جهاده ، فان في ذلك النهج نجاته ، وفي سواه هلاكه ، يقول :

وسر في طريق الراشدين على المـــدى   فكل طريق غيرها لكل معثـــــر
فهم أسوة الخلق التي يهتدى بهــــا   وهم صفوة اللة التي لا تكـــدر
وهم مثلي العليا الذيــن بفضلهـــم   أتيه على كل الا ُنـــام وأفخـــر (1)

وقد عرفنا في غير هذا المكان من الرسالة أن محمد العيد من الشعراء الذين يعطون للأخلاق مكانة في بناء الا ُمم ، ولذلك نراه يحرص على أن يقدم لقومه وللقائمين منهم خاصة على تربية الجيل ، ما يأتي على رأسها يميز شخصيتـه كل واحد من الخلفاء الراشديــن الاربعة من الخلال والسجايا معربا عن اعتقاده أن احياء تلكم المكارم في نفوس أبنــاء الا ُمة ، انما هو من أكبر الضمانات في احياء الجزائر وتحريرها من نير الاحتلال الا ُجنبي . يخاطـب قومـه بذلك قائـلا :

من فيكم يحيـي خلالا أربعـــــا   يحيي الجزائر بالخلال الا ُربـــع
صدق (العتيق) وعزة (الفاروق في   حلم (ابن عفان) وعلم (الا ُصلـع) (2)

ولحسب أن الذى يحس بمدى ماكان يمرّ به الجزائريون أيام الاحتلال الا ُجنبي ، من شدة الهول وقساوة الا ُحداث ، ويتذكر في الوقت نفســه ما اشتهر به الشاعر من حـــرص على معايشــة واقع قومه ، والمساهمة في النهوض به ، فانه لا يستغرب أن يـراه وهو لا يمل من تكرار التعبير عن شوقه وحنينـه الى عهد الرسول (ص) وصحابتـه (ض) للاستئنا س والعبرة في كثير من مواطن شعـره .

ويخيل الينا أن احساس الشاعر القوى بملابسات ذلك الواقع ، وشعوره بضعف ردود الفعل المضادة للتغلب عليه ، هو الذى حمله على أن يخص الخليفـة عمر بن الخطاب رضي الله عنه — لما عرف به من قوة في مواجهة الا ُحداث — بمكانة بارزة في شعـره ، يمكن أن نميز فيها وقفتـين اثنتـين :

نظر في الوقفـة الا ُولى الى الخليفة عمر نظرة المستغيـث بالرجل المنقذ ، ولعل من مظاهر ذلك التجاوء الى استخـدام أسلوب النداء وتوظيـف ما يلائمـه من ألفاظ . ولكن لم ينادى الشاعر الخليفـة (أبا حفص) ؟ انه يناديه ليحل بمجتمعه فـيرى بنفســه ما يسوده من ظلم وجور ، وما تودى اليه من تخلخل في القيم ، وفساد فـــي السلوك ، فعسى أن يساعد ذلك قومـه للتغلـب على ما يكابـدون ، يقول في ذلك :

---

(1) الديوان ، ص : 159 .
(2) الديوان ، ص : 149 .

تعال (أباحفص) تر العدل ذاهبا كما شاءت الدنيا تر الظلم محتلا
تر الغي مرفوع المعالم محكما تر الرشد مد فوع المعالم مختلا
تغيرت الآثار بعدك وانطوت رسوم الهدى واخلولق الدين أن يبلى (1)

ولا شك أن الشاعر كان يريد من خلال توالي تلك المقابلة في الأبيات ، ما بين العدل والظلم من جهة ، وما بين الغي والرشد من جهة أخرى ، أن يوحي بتلك المفارقة التي تتحكم في حياة قومه يومئذ ، مصورا بذلك البون الشاسع بين ماكان يسود ماضيهم من عدل ورشد وبين ما أصبح يطغى على حاضرهم من جور وفساد .

وأما الوقفة الثانية فتعود الى أيام الاستقلال ، ففي هذه الأثناء رأى الشاعر وطنه وهو يستأنف بعد ليل طويل من الأسر ، استيلام زمام أموره بيديه ، فأحب أن يقدم لأولي الأمر فيه ، شخصية الخليفة (الفاروق) كنموذج للحاكم العادل ، فعسى أن يستمد منها أولئك الحكام ، منهاجهم الذي يسوسون به الناس ، ويديرون به شؤونهم ، فيحرص المسؤول فيهم على اقامة حكمه كما كان يقيمه (عمر) على مبدأ الشورى ، ويعمد في ضوء ذلك الى الأخذ في سياسته بتبادل الرأى في مختلف الأمور ، فيما بينه وبين من يحملون أعباء التسيير وتبعية المسؤولية ، يلمع الشاعر الى ذلك فيقول :

في سيرة (الفاروق) للراعي هدى يدعو الرعية أن تحب وتنصرا
قد ردت امرأة عليه فلم يشأ الا بصائب رأيها أن يجهرا
وهو المصرح قائلا من قد رأى فيّ اعوجاجا فليقوم ما يرى (2)

وتظل أشخاص هؤلاء الخلفاء رموزا حية في وجدان الشاعر ومنارات للقدوة ، دائمة المثول في ذهنه . وآية ذلك أننا نراه اذا ما أراد الكلام عن وطنه أو عن واحد من عظمائه ، يشيد بمحامده ومكانته ، فان الذي يحضره تلك الساعة ، ويمثل أمام عينيه انما هم شخوص الخلفاء الراشدين (ض) بخصالهم ومواقفهم ، فيعمد الى تشبيه من يتحدث عنه ، بواحد أو أكثر من أولئك الخلفاء ، مثلما نرى ذلك في حديثه عن الشعب الجزائرى الذى عاد الى الحياة باستقلاله بعد ما كان ميتا في فترة الاحتلال الأجنبي ، فانه لم يجد ما بين يديه ، من هو أقوى في الدلالة على ذلك من موقفي أبي بكر وعلي (ض) وهما يمنحان الحياة ، الحرة الكريمة بعتقهما لاثنين من المسلمين هما (بلال) و(قنبر) (ض) اللذين كانا يرصفان في أغلال العبودية ، يقول في ذلك :

وأعجب لشعب قام حيا بعدما قد كان مذ قرن وثلث أقبرا
غتق الرقاب حياتها من موتها ونشورها بعد الفناء لتحشرا

---

(1) الديوان ، ص : 123 .
(2) (من وحي الثورة والاستقلال) الحلقة (4) ، ينظر الملحق

أحيا أبو بكر (بلالا) [1] بعدمـــا … أودى كما أحيا (علي) (قنبرا) [2] (3)

ويبدو أن وجه الشبه الذى أراد الشاعر أن يلمح اليـــه من خلال تلكما الصورتـين، هو ما يتهدى في تلك النقلة في حياة (بلال وقنبر) من الرق الى الحرية من نحو ، ومـا يتلامح من تحولات في حياة الشعب الجزائرى بانتقالـه من زمن الاستعباد الى عهـد السيـــادة .

واذا ما جاء الشاعر ليتحدث عن الامام ابن باديس ويشيد بغزير علمه وبعد نظره ، فان الذى يثب الى فكره في هذا الآوان انما هما صورتا علي وعمر (ض) بما تميز به أولهما في جملة ما تميز به ، من سعة المعرفة ووفـرة العلم ، وبما اتصف به ثانيهمـا على رأس ما اتصف به من عدل وحكمة ، يقول الشاعر في ذلك :

كان عبد الحميد رائد بعـر … طيب القلب راحما للأنـــام
علويا في العلم نفسا ودرسـا … عمريا في الحكم والالمـــــام (4)

ويلحظ وجه الشبه بين الصورة في البيت الثاني ، وبين صورة مماثلة لها في بيت لحافظ ابراهيم يهنيء فيه الشيخ محمد عبده بمنصب الافتاء فيقـول :

رأيتك والابصـار حولك خشـــع … فقلت (أبو حفص) ببرديك أم (علـي) (5)

ولم تلبث هذه الشخصية العلمية للامام علي كرّم الله وجهه ، أن تعود مرة أخرى الى ذهن الشاعر ، وهو ينظم قصيدته (ختمت كتاب الله) ، احتفاء بالامام ابن باديس ، وتكريما له في حفل ختمه دروس التفسير ، فتذكر الشاعر تلك الشخصية وهو في معرض اشادته بمنهج ابن باديس في ذلك التفسـير فتراءت له من ملامح ذلك العمل صورة الامام علي فـي سفـره القيم (نهج البلاغة) الذى احتوى على ومضات من الحكمة وأفانين من القول تعد من أعمق النماذج فكرا ومن أسمى الأساليب بيانا في التراث العربي الاسلامي ، يقول الشاعر مخاطبـا ابن باديس :

بمثلك تعتز البلاد وتفخـــر … وتزهر بالعلم المنير وتزخـــر
طبعت على العلم النفوس نواشئـا … بمخبر صدق لايدانيه مخـــبر

---

(1) هو بلال بن رباح الحبشي كان مولى لبعض بني جمح . كان من السبعة الاولـين الذين أظهروا اسلامهم . فعذب لذلك وصبر حتى اعتقه أبو بكر (ض) . شهد مع الرسول (ص) المشاهد كلها كان أول من أذن في الاسلام ، وظل يقوم بذلك طوال عهد الرسول وخلافة أبي بكر . ثم خرج الى الشام مجاهدا وبها توفي رحمه اللـه سنة 20 هـ . ينظر (الاصابة في تمييز الصحابة) ج 1 : 169 ـ لابن حجر العسقلاني .

(2) مولى من موالي علّي كرّم الله وجهه .

(3) الديوان ، ص : 445 .

(4) الديوان ، ص : 497 .

(5) ديوانه ، ج 1 : 322 .

نهجت لها في العلم (نهج بلاغة) ونهج مفاداة كأنك (حيدر)[1] [2]

وواضح ما في هذه الأبيات من وجوه الصنعة البديعية المتمثلة في ظاهرة(التصريع) في ذلك المطلع ، وظاهرة (رد العجز على الصدر) في البيت الثالث ، وفي توالي (الجناس) بين الكلمات (تفخر وتزمجر وتزخر) في البيت الأول ، وما أحدث ذلك من ايقاع موسيقي بتكرار حرفي الراء والزاي خاصة .

ويعثر المرء الى جانب هذا الذى وقفنا عنده ، من حديث الشاعر عن الخلفاء الراشدين(ض) ، بعض اللمحات السريعة الى هؤلاء العظماء مبثوثة في مجموعة غير قليلة من قصائده ، كما يبدو ذلك في هذه الأعمال (وداع الحجاج — الى العلم — تحية العلماء — أنشودة الوليد — يا أمة الخير — صرخة ثورية — فاتحة ثناء — من وحي الثورة والاستقلال)[3] .

وتقودنا هذه الظاهرة الى ملاحظة أساسية في نتاج الشاعر في هذا الموضوع وهي اننا لم نعثر له على عمل خصه بواحد من الخلفاء الراشدين كما فعل ذلك بعض الشعراء من أمثال حافظ ابراهيم بتخصيصه قصيدة في عمر بن الخطاب سماها (العمرية) ، أو الشاعر عبد المطلب بنظمه قصيدة في علي سماها (العلوية) .

ان الشاعر لم يفعل ذلك ، وانما كان وقوفه عند سير هؤلاء والاشادة بمواقفهم وحثّ قومه على الاقتداء بهم ، ضمن قصائد كثيرة له ، مما يمكن أن يستدل به على أن شخوص هؤلاء العظماء انما كانت قريبة من وجدانه وعقله في معظم الأحيان ، وهذا ما يفسر لنا أنه اذا ما جاء لينظم في هذا الموضوع أوذاك في هذه الفترة أو تلك ، كان يعرج على ذكر شيء من حياة الخلفاء الراشدين في مقام العبرة وهدف القدوة .

وأخال أن هذا المنهج الذى انتهجه الشاعر في هذا الموضوع يمكن أن يفسر لنا من نحو آخر الدوافع التي كانت تحركه لنظم مثل هذه الأشعار فهو لا يلجأ اليها تحت وطأة انفعال آنيّ يحمله على أن ينظم قصيدة أو اثنتين في واحد أو أكثر من الخلفاء الراشدين ، ثم ينقطع عنه ذلك الانفعال ولم يعد يأتيه فينقطع هو الآخر عن النظم في هذا الغرض ، وانما كان في أغلب الأحوال قويّ الشعور بمآثر هؤلاء الخلفاء ،

---

(1) لقب من ألقاب الامام عليّ كرّم الله وجهه ، وهو من أسماء الأسد ، ينظر (القاموس المحيط) ج 2 : 6 مادة (حدر) .

(2) الديوان ، ص : 156 .

(3) ينظر ديوانه على التوالي (163 — 231 — 243 — 166 — 174 — 413 — 1) ما عدا الأخيرة فهي في الملحق .

عميق الايمان بالاقتداء بمواقفهم مما كان يدفعه الى التعبير عن ذلك كلما وجد اليه سبيلا ، فجاء ذلك الشعور موزعا في مواطن كثيرة من نتاجه .

والملاحظة الأخيرة التي نودّ أن نختم بها الحديث في هذه الفقرة تتعلق بمرامي الشاعر من هذا الشعر . . ولعله أصبح من الواضح بعد الذى تقدم ، ان الشاعر انما كان يحرص على تسجيل تلك الصور من حياة الخلفاء الراشدين بهدف تقديم المثل لأفراد أمته ، رعية ورعاة ، وحثهم على الاقتداء بذلك المثل في مظاهر حياتهم .

* * *

وينتقل الشاعر من هذه الوقفة عند الخلفاء الراشدين الى الحديث عن بعض من اقتدى بهم وسار على نهجهم من الصحابة والتابعين ، يدل على مواطن العظمة من سيرتهم فعسى أن يكون من ذلك ما يساعد أمته على الاعتزاز بنفسها ، ويدفع بها على طريق التخلص من كابوس الاحتلال الجاثم على صدرها ، فهو حينما أراد أن يقدم للشباب النموذج الأمثل الذى يعلمهم بعض دروس التضحية والفداء من أجل العقيدة والوطن ، نراه يختار لهؤلاء واحدا من تلك النماذج البطولية الكثيرة في حياة الرعيل الأول من عظماء الاسلام ، ويحضره هذه المرة موقف الصحابي الجليل (جعفر بن أبي طالب) وهو في ساح المعركة يجاهد المشركين ويذود عن دين الله ، فتقطع يده ولكنه يظل في مكانه ثابتا متحضنا راية الجهاد حتى ينال الشهادة ويلقى وجه الله راضيا مرضيا ، يقول الشاعر في مقطوعة من أربعة أبيات بعنوان (عز الأوطان) (1).

اذا مارمت للأوطان عـــزا ... فجد بالنفيس واستبق الفداء
وان حمل الخصوم عليك يوما ... فقم للظالم وخض الدماء
ألم تر (جعفرا) (2) قطعت يداه ... بحرب الروم فاحتضن اللواء
وقدم نفسه للموت سمحا ... فنال بها الشهادة والثناء

وتتراءى أمام عيني الشاعر مرة أخرى ، هذه الصورة الخالدة للشهيد جعفر البطل ، وبجانبها صورة الشهيد حمزة المغوار ، وهو في معرض حديثه عن شهداء حرب التحرير الوطنية ، فيرمز الى ذلك بقوله :

---

(1) الديوان ، ص : 543 .

(2) هو جعفر بن أبي طالب كان الرسول (ص) قد جعله الأمير الثاني بعد زيد بن حارثة على جيش المسلمين في غزوة (مؤتة) بالشام سنة ثمان للهجرة . فقاتل زيد براية الرسول (ص) حتى استشهد فأخذها جعفر بيمينه فقطعت فأخذها بشماله ، فقطعت فاحتضنها بعضديه حتى استشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . ينظر ابن كثير (السيرة النبوية) ج 3 : 462 .

نحن الحماة لشعبنا بدمائنا ... وشهودنا شهداؤنا لمن امترى
الالفون لا ألف ألف كثرة ... في العد أو من ألف ألف أكثرا
الطامحون الى الصحابة نزعة ... يقفون (حمزة)[1] في الجهاد و(جعفرا) (2)

* * *

وان الشاعر لايقف في حديثه من عظماء الاسلام، الأولين عند الصحابة فحسب؛ وانما نراه يتبع خطوات التاريخ الاسلامي باحثا في سيره عما يمكن أن يكون قد صنعه بعض رجاله في مراحله اللاحقة من أيام ومآثر، وما يكون قد قدمه هؤلاء من عطاءات جليلة أغنوا بها التجربة الانسانية في العصور المتقدمة، وما تزال جديرة بأن تقدم لأبناء الامة والناس أجمعين، ما ينير الطريق أمامهم في حاضرهم وفي مستقبلهم.

وتتراءى للشاعر على هذه الدروب، شخوص أبطال الفتح الاسلامي بمناقبهم ومواقفهم الجليلة، فيهزه شوق كبير الى عهد أولئك الفاتحين، وما تحلوا به في سيرهم من بطولة وشهامة، وما أظهروه في سلوكهم من عدل ونبل، وما أوسعوا به الناس من خدمات أسعدوا بها أمما كثيرة في هذه المعمورة بما نشروا فيها من أمن، وما رفعوا عنها من جور، وما شملوا به أرضها من عمران، يقول الشاعر في ذلك المعنى:

فياعظم شوقي الى الفاتحين ... رجال الشهامة والأريحية
وياعظم شوقي الى العاقدين ... مع الله تلك العقود الوفية
وياعظم شوقي الى السابقين ... من المؤمنين ذوي الأفضلية
سلوا المشرقين سلوا المغربين ... سلوا سائر السير العالمية
كم استعمروا من أراضي قفار ... وكم اسعدوا من شعوب شقية (3)

ويبدو أن الشاعر قد قصد بما في الأبيات من ظواهر التكرار والتعميم، وتوالي النعوت أن يفصح عن صدق احساسه بالدور الكبير الذي قام به أولئك الفاتحون لخير البشرية جمعاء، وأن يمكن في الوقت نفسه للشعور بالاعتزاز في نفوس قومه بهؤلاء الأسلاف وحفز هممهم على الاقتداء في النهوض بالأمة. ويقف الشاعر وقفة أخرى عند مآثر بعض الفاتحين المسلمين، بأرض افريقيا خاصة مؤكدا ما عرفته بلاد المغرب بحلول خيول الفاتحين بها من أمن وعدل واحسان، أذهب عنها ما كان يلبسها به الظالمون من رعب وجور وطغيان، وذكر من أولئك الفاتحين خاصة (عقبة وحسان، وموسى، وطارق)، يقول في ذلك:

---

(1) هو حمزة بن عبد المطلب استشهد في غزوة (أحد) سنة ثلاث للهجرة. ينظر ابن كثير (السيرة النبوية) ج 3: 34.

(2) (من وحي الثورة والاستقلال) ينظر الملحق

(3) الديوان، ص: 413.

وسل (برقـــة) و (طنجــة) ســـل
وما حـد تـا بـهـا مـن دول
سـل الكـل عـن سـلام وصـنل
وديـن أتـى وكـفـر رحـل
وعـن (عقبـة)(1) بـهـا حيث حـل
و (حساـنـا) (2) و (موسـى)(3) البطـل
وعـن (طـارق) (4) نزيـل الجبـل (5)

ونلحظ أن هذا الايقاع الخفيف العذب البادي في هذه الأبيات قد استطاع الشاعر أن يوفره في كامل القصيدة باختياره لها (مجزوء المتقارب) بتفعيلاته القصيرة الراقصة ، فسمح له ذلك بأن يوحي بجو الانشراح والحبور الذي غمر قلبه وقلوب أصحابه وهم يفتحون بثغر من ثغور الوطن (تلمسان) معقلا من معاقل صنع رجال الغد بناة المستقبل . ويقع الشاعر على ما يقرب من المعنى السابق نفسه ، والفارق بينهما أنه كان في ذلك العمل يخاطب مفردا وهو هنا يخاطب جمعا ، يشهدهم وهو في موقف الافتخار على ما حمل الفاتحون المسلمون الى افريقيا من برّ ورخاء بمجيئهم اليها برسالة الاسلام الخالدة .ويقتصر هذه المرة على ذكر (عقبة) و (حسان) من قادة الفتح الاسلامي ، يقول في ذلك :

سلوا افريقيا عما أتاها مع الاسلام من بر وجود
سلوا عن (عقبة) الغازي وعمن تلاه من السرايا والحدود
سلوا (أوراس) عن (حسان)قد ما وعن غزو العداة من الجنود
وعن اخفاق (كاهنة)(6) ، تولت وأصلت ملكها نار الوقود
فهل للمسلمين اليوم عود الى ماضاع من شرف الجدود ؟ (7)

---

(1) هو عقبة بن نافع بن عبد الله بن قيس الفهري، ولد على عهد الرسول (ص)، لا تصح له صحبة . دخل المغرب فاتحا لأول مرة سنة 45 هـ في عهد معاوية بن أبي سفيان، ففتح افريقيا وبنى القيروان . ثم قفل عائدا الى الشرق ولم يلبث أن رجع ثانية الى افريقيا سنة 62 هـ في عهد يزيد بن معاوية ، ففتح هذه المرة المغرب بكامله حتى وصل الى شاطيء المحيط الأطلسي ثم رجع على طريقه قاصدا القيروان . وفي هذه الأثناء استشهد في مدينة (تهودة) في ثلاث من كبار الصحابة والتابعين سنة 63 هـ . ينظر تاريخ ابن خلدون مج 4: 398 وما بعدها و (الكامل في التاريخ)لابن الأثير ج 3 :308 وما بعدها .

(2) هو حسان بن النعمان الغساني قدم الى افريقيا في عهد عبد الملك بن مروان سنة 76 هـ . وقاتل مع (الكاهنة) فهزمها سنة 82 هـ . ينظر ابن خلدون مج 4: 401، وابن الأثير ج 4: 32 .

(3) هو موسى بن نصير دخل القيروان في عهد الوليد بن عبد الملك سنة 89 هـ . ثم واصل طريقه في نشر الاسلام حتى وصل طنجة واستأمن الناس اليه . ينظر ابن الأثير الكامل في التاريخ ج 4 : 112 .

(4) سبق التعريف به . (5) الديوان ، ص : 235 .

(6) هي الكاهنة دهيا بنت ماتية بن تيفان ملكة جبل أوراس لقيها حسان بن النعمان وهزمها سنة 82 هـ . ينظر ابن خلدون مج 6 : 213 - (7) الديوان ، ص : 200 .

وواضح ما تعكسه ظاهرة التكرار تلك ، من اعتزاز الشاعر بالاسلام وبرجالاته الأولين ، ولحسب أن المعنى في البيت الأخير شديد الايحاء باحساسه بما أصبح عليه قومه من ضياع وتواكل وخنوع .

ويصادف المرء الى جانب ما تقدم من شعر الشاعر في هؤلاء الفاتحين وفتوحاتهم اشارات أخرى مبثوثة في جملة من قصائده نذكر من بينها (ذكر المولد النبوي — نشيد كشافة الصباح — تحية شاعر) (1) .

ويلحظ أن من يأتي الى استقراء شعر محمد العيد في هذا الموضوع بهدف التعرف عمن ، من قادة الفتح الاسلامي ، يتردد فيه اسمه أكثر من غيره ؟ ، فسيخلص من ذلك الى أن الفاتح (عقبة بن نافع) هو الذى يحظى بتلك المرتبة في شعره ، ويمكن تعميم هذه الملاحظة في شعر معظم زملائه الجزائريين المعاصرين ، ولربما مرد ذلك الى وجود ذلك الفاتح بين ظهرانيهم ، وقربه من حياة الأمة مما يساعدهم على بلوغ أهدافهم في توجيه نظر قومهم الى اقتفاء أثر أسلافهم في النهوض بحاضرهم .

وان أقدم اشارة يمكن ملاحظتها في شعر محمد العيد ، ينوه فيها بجهاد عقبة وبطولاته على أرض افريقيا ، ويمزج فيها ما بين العروبة والاسلام ، هي هذه التي نجدها في هذه الأبيات :

وألف الله في افريقيا نسبا	حرا وحسبك بالاسلام من نسب
سل (عقبة) يوم سل السيف مقتحما	أدغالها وغزا (الرومان) بالحرب
بأى برنامج أو أى داعية	أو أى عين سرى بالجند في الشعب؟
هي العزيمة ان جدت وان صلبت	في المرء نال بها ما شاء من رتب
كأنها فلك (نوح) في المسير بها	فخض بها واقتحم ماشئت من عبب (2)

ويتضح في الأبيات اعجاب الشاعر ببطولات الفاتح عقبة بن نافع وهو يفتح البلاد ويطارد فلول الغزاة الرومان بها ، وليس بيده من سلاح غير سلاح الايمان والعزيمة ، وقد استطاع أن يوظف لهذه المعاني الجادة القوية ، ما يلائمها من جزالة اللفظ ومتانة التركيب وقوة الأسلوب .

وانه لايدع فرصة تواتية ليردد فيها آيات الاعجاب والاعتزاز بشخصية عقبة الا ويغتنمها ليفصح فيها عن مكنونات مشاعره تجاه ذلك القائد العظيم ، مثلما نراه يفعل ذلك في قصيدته (3) التي نظمها سنة 1952 في تقريظ كتاب (عقبة بن نافع الفاتح المظفر) (4) للشيخ عبدالمجيد بن حبة (5) . ومما جاء فيها في الاشادة بجهاد عقبة وتخليد وقعة استشهاده بمعية جنده قوله :

(1) وهي بديوانه على التوالي (75 — 71 — 5 — 220) .

(2) الديوان ، ص : 232 .

(3) وهي من شعره المجهول ، ينظر الملحق

(4) مايزال الكتاب مخطوطا .

(5) من مواليد بلدة سيدي عقبة ، ومن كبار علماء الجزائر ، مايزال حيا يرزق ، أمد الله في عمره .

ما مثل عقبة في الغزاة مجاهـــد	في الأرض أوغل قائدا منصـــورا
فتح المغارب كلها حـتى أتـى	بحر المحيط وعاد منه فخــورا
في كفه قبس الهداية مشـرق	يجلو به عن أرضنا الديجـورا
جاب المجاهل غازيـا بجنوده	كالليث بالأشبال كـرّ هصورا
نالوا الشهادة فوق أرض (تهودة) (1)	فزكت وطابت بالدماء عطـــورا

وقد عثرت على أربعة أبيات للشاعر في هذا الموضوع في مكتبته الخاصة بمنزله ، وهي غير مدرجة في ديوانه ، كان قد قالها معارضة للشاعر (خليل مطران) ، وقد عرفنا مما سبق أنه لم يكن يعني بالمعارضات الا أنه دفعه اليها هذه المرة ما دفعه ، فقد حدث أن اطلع على بيتين للشاعر (مطران) نظمهما في الاشادة بعظمة شخصية (نابليون بونابارت) يقول فيهمـا :

قالوا (لنابليون) ذات عشيـــة	أذ كان يرقب في السماء الأنجما
هل بعد فتح الأرض من أمنيـــة ؟	فأجاب : أنظر كيف افتتح السمـــا (2)

فانفعل الشاعر بذلك ، ولربما يكون قد تألم ، وهو يرى (مطران) وغيره من الشعراء العرب المحدثين والمعاصرين يقفون مثل ذلك الموقف من عظماء الامم في الوقت الذي يرون فيه أن أبناء تلك الأمم قد يغمطون حق العظماء من رجالات أمتهم ، فدفعه ذلك الى نظم بيتين يشيد فيهما بذكر عقبة وفتوحاته ، ويكشف عن سمو أهدافه من ورائها ، يقول فيهمـا :

قالوا لعقبة ما تروم وقد رمـــى	عبر المحيط بطرفه وتوسمـــــا
فأجاب : أنظر كيف أنشر خلفــه	دينا به ابن الأرض يفتتح السما

ويبدو أن هذين البيتين لم تستطيعا أن تفصحا عما يكنه الشاعر في أعماقه من اعجاب واعتزاز بمواقف عقبة البطل ، فرجع الى الموضوع ثانية وقال :

قالوا لعقبة رائد الشهداء مـــا	ذا نلت في خوض المعارك مقدما
قال : افتتحت الأرض مفتتحا بهـا	فضل الشهادة فافتتحت بها السما

ونحسب أن الشاعر كان يرمي برسمه لهذه الصورة ، للقائد عقبة ، أن يكون لها في وجدان الامة ما يبطل أو يضعف من مفعول تلك الصورة المقابلة اليها في بيتي خليل مطران . وقد يسأل سائل : لم اختار الشاعر عقبة بالذات في هذا الموقف من دونه من عظمـــاء الاسلام ؟

---

(1) مدينة أثرية سقط فيها عقبة شهيدا (63 هـ) ، وتقع على بعد حوالي 4 كلم من بلدة سيدي عقبة . . وما تزال تعرف بهذا الاسم حتى اليوم .

(2) ديوان الخليـل ، ج 1 : 59 .

نرجح أن يكون الشاعر قد اختار عقبة لهذا المقام بدافع ما اشتهر به من حرص على أن يكون قريبا فيما يتناول من معاني من الحاضر الذى يجرى حوله ، فهو يريد أن يقابل شخصية نابليون الذى يحتل أحفاده أرض أحفاد عقبة ، ويلمح بذكره بعض الشعراء العرب ، بشخصية ذلك الفاتح المسلم لكي يحسن بذلك في نفوس أبناء قومه ، سير أسلافهم الاقربين ، فيتذكرون أن لأمتهم من هو أعظم من أجداد المحتلين ، انسانية ونبلا ، وبطولة ، فيكون لهم من ذلك ما يقوى عزائمهم وهم يصارعون الغزاة ليخرجوهم من بلادهم .

ويبقى سؤال آخر وهو : اذا كان الشاعر يعلق على تلك الأبيات ما ذكر من مقاصد فلم لم ينشرها في ديوانه ؟ قد يكون مرد ذلك الى حدس الشاعر أن انتشار تلك الأبيات في بعض معارفه قد يكفي لذيوعها في غيرهم ، وقد تصير بذلك من الأقوال السائرة المحفوظة ، ويبدو أن اثباتها في هذا البحث قد ساعد أو سيساعد على تحقيق بعض ذلك الحدس .
ويخيل الينا أن ما وقفنا عنده من نتاج محمد العيد حول شخصية عقبة ، قد لا يكفي في الدلالة عن تلك المكانة التي نزعم أن ذلك الفاتح يحظى بها في قلب الشاعر وفي شعره .

ونذكر بهذا الصدد أن الدارس يعثر في ديوان الشاعر على عمل شعرى كامل بعنوان (نشيد عقبة)[1] يقع في أربعة وأربعين بيتا ، فماذا قال الشاعر في هذا النشيد ؟ وما المعاني التي تناولها فيه ؟

لقد أشاد الشاعر في هذا العمل بالاسلام وبكتابه القرآن الكريم ، ونوّه بجهاد عقبة وبطولاته في نشر هذا الدين ، ثم أبرز دور التاريخ الاسلامي في حاضر الأمة ، ومستقبلها ، ثم تغنى ببيان اللغة العربية ، كما نشر بين أيدى الشباب جملة من المثل رأى أنها تمكن في نفوسهم للفضائل وتحفزهم على الاقبال على الحياة وتزيد في توطيد أواصر الأخوة بينهم مما يساعدهم على النهوض بحاضرهم على أسس من الماضي المجيد . وخلص من ذلك الى استنطاق واحد من أحفاد عقبة ، فذهب هذا يشيد بمآثر جدّه عقبة وفتوحاته في بلاد المغرب . ومما جاء من ذلك على لسان ذلك الحفيد قوله :

أنا حفيد عقبة   أنا حليف الملة
أنا مقيم السنة   في أرضي المجلة
افريقيا أثارها   فبوأته دارها
لقد غزى أقطارها   مرحلة فمرحلة
أتى المحيط فدفع   جواده دون هلع
وقال (قولة) صدع   بها مضت مجلجلة
لو خلت برا ثانيا   خلف المحيط نائيا
لخضت فيه ماضيا   في الفتح حتى أكمله (2)

---

(1) الديوان ، ص: 573 . نظم الشاعر هذا العمل سنة 1965 في بلدة سيدى عقبة التي حلّ بها ليزور مسجد الفاتح عقبة بن نافع . (2) الديوان ، ص: 530 .

ونذكر أن الشاعر يسجل في الأبيات الأربعة الأخيرة ، تلك الوقفة التاريخية التي وقفها الفاتح عقبة بجواده على شاطئ المحيط الأطلسي بعد ما جاب بلاد المغرب ، وقال قولته الشهيرة وهي (يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك)(1).

ولا شك أن هذه القولة تكشف عن رغبة صادقة قوية في نفس عقبة لمواصلة الجهاد من أجل نشر رسالة الاسلام .

ونلحظ أن الشاعر اختار لهذا النشيد وزنا قصيرا هو (مجزوء الرجز) وأقامه على وحدات تتكون كل وحدة فيه في بيتين تشترك أشطارها الثلاثة الأولى في روى واحد وتتفق جميع الوحدات في روى الشطر الرابع والأخير من كل وحدة فكان من ذلك نوع من الايقاع الموسيقي يشبه ما تحدثه اللازمة من نغم في بعض الأناشيد .

وقد رأينا ما يقرب من هذا العمل في نشيده (نساء الجزائر)(2) الذى أقامه على (مجزوء الخفيف) وقسمه الى وحدات تتكون كل وحدة من بيت يتفق مصراعاه في الروى . وتختلف القافية من وحدة الى أخرى ، غير أنه التزم في نهاية كل وحدة بتكرار هذه اللازمة (يانساء الجزائر) التي استطاع أن يحقق بها وحدة النغم في الأنشودة بالتزامه فيها الروى الموحد في نهاية كل وحدة . وواضح ما يوفر هذا النسق الموسيقي من ايقاعات تتطلبها مثل هذه الأعمال التي توضع أساسا للتلحين والانشاد .

ولا يفوت الدارس وهو يعرض لهذا التنوع الموسيقي في بعض هذه الأعمال أن يلفت النظر الى ماكان الشاعر يوليه لهذا الجانب من عناية في شعره ، مما يمكن أن يكشف عن ادراكه لما يسهم به الايقاع الموسيقي الى جانب أدوات الصياغة الأخرى في الافصاح عن تجربة الفنان ونقلها الى المتلقين نقلا مؤثرا جميلا .

ولا شك أن يكون هذا الادراك الى جانب نظمه كثيرا من قصائده للالقاء قد ساعده على احكام صياغة شعره ، وتنويع موسيقاه بحسب ما تقتضيه الحالة الشعورية وتتطلبه الغاية المنشودة ، ولهذا نراه يعمد الى البحور الطويلة التامة في مواقف الجد والحماسة ، ولكنه كثيرا ماكان يميل الى البحور القصيرة أو المجزوءة ذات الايقاعات الخطابية الرنانة لملاءمتها لغرضه في الانشاد من نحو ، ولقدرتها على الايحاء من نحو آخر ، بما يريد أن يثيره في نفوس المتلقين من يقظة وحركة وتطلع .

ومهما يكن من أمر هذا التنوع في موسيقاه ، فانه لم يخرج فيه عن دائرة البحور الخليلية ، وظل محافظا في ذلك ، كما كان في معظم عناصر العملية الشعرية(3).

---

(1) ينظر ابن الأثير (الكامل في التأريخ) ج 3 : 303 .
(2) الديوان ، ص : 574 .
(3) ينظر د . محمد ناصر (الشعر الجزائرى الحديث - اتجاهاته وخصائصه الفنية) ص : 139 .

ويحسن التذكير بهذا الصدد أن الشاعر كان — لشدة صلته بالقرآن الكريم — يغترف أحيانا من ايقاعاته عن طريق اللفظة المعبرة ، أو الشطر بكامله ما يستعين به على الايحاء في شعره بمثل ما توحي به تلك الأنغام القرآنية من مواقف وأجواء ، وقد لفت ذلك نظر بعض الدارسين اليه فنص عليه (1).

وكان الشاعر الى جانب عنايته بهذه الموسيقى الخارجية يعنى كذلك بما يسمى بالموسيقى الداخلية الناجمة عن استخدامه جملة من الأصوات استخداما متآلفا منسجما تحدث عنه نغمة خاصة في البيت الشعرى تتلاءم مع ما يريد أن يوحي به من أفكار ومشاعر بحسب المواقف المختلفة . وقد تحقق ذلك للشاعر في عدة صور ، عن طريق ميله الى استخدام بعض المحسنات البديعية لما لها من قيمة موسيقية وبخاصة منها (الجناس) و (رد العجز على الصدر) هذين اللونين الذى رأينا في غير هذا المكان أنه كان شديد الولوع بهما ، كما تأتى له ذلك بواسطة ظاهرة أسلوب التكرار التي رأينا أنها من سمات أسلوبه في هذا الشعر .

وأخيرا عن طريق حسن استخدامه لقوافيه واعتماده في الغالب على حرف من حروف الروي الخفيفة العذبة ، كما يتلامح ذلك في معظم قصائده المدروسة . وقد شهد له بذلك غير واحد من الباحثين (2).

وقد لمحنا هذه الخاصية الموسيقية وملاءمتها للمعنى المراد في دراستنا لبعض أعماله في صلب هذه الرسالة ، ولا نود أن نعود الى ذلك هنا ، وحسبنا أن نذكر بما رأيناه من ذلك في عملين اثنين من أعماله .

أما الأول فهو قصيدته (بلادى)(3) التي تتوفر بها هذه الظاهرة بشكل ملحوظ ، فقد أدّى اختيار الشاعر للألفاظ وحسن استخدامه لها وحرصه على المواءمة بينها وبين

---

(1) ينظر د . شلتاغ عبود شراد (أثر القرآن في الشعر العربي الحديث) ص: 143 ومابعدها .
(2) ينظر د .سعد الله (محمد العيد آل خليفة . .) ص : 225 . وينظر الشيخ موسى الأحمدى نويوات محاضرته في مهرجان الشعر الثاني بمدينة بسكرة مارس 1983 (العالم والعلم في خدمة الوطن) نشر الجزء المتعلق منها بالموسيقى في شعر محمد العيد في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج 4 م58 — ذوالحجة 1403 هـ / اكتوبر 1983م ، ص : 811 .
(3) الديوان ، ص : 135 .

الموقف النفسي ، الى احداث انغام موسيقية داخلية نتجت عن انسجام بعض الأصوات مما أوحى بالشعور الذى يريده الشاعر . فهو عندما كان في موقف يوحي بالاحساس بالبهجة والحبور ، اختار لذلك ألفاظا رشيقة عذبة تتلاءم مع ذلك الجو النفسي ، كما رأينا ذلك في مقدمة القصيدة ، وعندما انتقل من ذلك الى موقف الصرامة والدعوة الى الجهاد ، نراه يختار لهذه المعاني الجادة ألفاظا قوية فخمة تملأ الفم وتحدث ايقاعا صاخبا يتماوج بحسب الاحساس الذى كان يعتلج في أعماقه والأهداف التي كان يتوخاها .

كما بدت تلك الظاهرة بشكل بارز في قصيدته (حزب مصلح) ، وذلك في مشهدين مختلفين فيها ، أحدهما يصور مشهد الحزن الذى خيّم على (نادى الترقي) في أعقاب ايقاف الشيخ العقبي [1] . والثاني يرسم جو البهجة الذى علا ساحة ذلك النادى نفسه وسكن قلوب الأمة بعد اطلاق سراح ذلك الشيخ [2] .

ومما يمكن أن نستخلصه من هذه الكلمة عن تنوع الايقاع الموسيقي في بعض ما عرضنا له من أعمال الشاعر ، أن ذلك لم يكن محدودا بشعره الاسلامي ، وانما يلحظ في غيره من أغراض شعره الأخرى ، كما يتجلّى ذلك في هذه الأعمال (دمعة على القمر الخاسف — هذه جذوة — من الشعر الرمزي يامزارى) [3] مما يمكن أن يسمح باعتبار ذلك وجه من وجوه التطور الموسيقي في شعره بوجه عام ، وهو تطور محدود لا يخرج عن اطار ما استطاعت المدرسة التقليدية في الشعر العربي أن تحققه في هذا الميدان ، ويظل بذلك بعيدا عما بلغ اليه الشعر العربي الحديث من تطور ملحوظ في هذا الجانب على أيدى بعض شعراء الاتجاهات الجديدة .

ونودّ أن لا نغادر هذا الحديث دون أن نختمه بملحظ يطمح الى شيء من التحليل لصياغة الشاعر معانيه في (نشيد عقبة) في ذلك القالب الفني المميز (قالب الأنشودة) .

نحسب أن الشاعر كان من بين ما يرمي اليه من ذلك الاختيار أن يكون (نشيد عقبة) في عهد الحرية ما كان للنشيد محمد (أنشودة الوليد) [4] في فترة الاحتلال الأجنبي من ذيوع في وسط الأمة ، ومن أثر في ضميرها .

وان وجه الشبه قريب بين العملين ليس فحسب في هذا الاطار الفني المشار اليه ، وفي هذا البحر القصير (مجزوء الرجز) في (نشيد عقبة) ، و (مجزوء الكامل) في (أنشودة الوليد) وما ينساب في كليهما من موسيقى خفيفة عذبة . وانما في المعاني وفي بعض طرق التعبير هنا وهناك . ففي جانب الأفكار تبرز الروح الاسلامية واضحة

---

(1) الديوان ، ص : 130 . (2) الديوان ، ص : 131 .
(3) وهي بالديوان (34 — 291 — 320 — 49) . (4) الديوان ، ص : 166 .

من وراء تلك الرغبة المشتركة في الأخذ بيدي الفرد نحو ما يساعده في النهوض بمجتمعه .

وأما في جانب الأسلوب فان قدرا ليس يسيرا من السمات يبدو مشتركا بين العملين . ويأتي في مقدمة ذلك : هذا الميل البادي في كليهما الى السهولة والقرب في التعبير وفي التصوير ، وهذا الأثر الواضح الذي يطبع الألفاظ والتركيب فيهما بالطابع الاسلامي

وأما ما يمكن ملاحظته من فروق في مظاهر الأسلوب بين القصيدتين ، فمن ذلك ما يتبدى في هذه القافية الموحدة في (أنشودة الوليد) وهذه القافية المتنوعة في (نشيد عقبة) .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الشاعر لا يقتصر في الاشادة بمواقف عقبة على ما وقفنا عنده من أعماله فحسب ، وانما يعرب عن اعتزازه به وافتخاره بجهوده وجهاده من أجل نصر الاسلام ونصرة الحق في جملة أخرى من قصائده نذكر منها : (دعاة الأمل ـ بشرى البراءة ـ تحية شاعر ـ هذه قمة الفتوة ـ من وحي الثورة والاستقلال)(1) .

ويمكن الوقوف على الأبعاد التي كان الشاعر يرمي اليها من خلال حديثه عن عقبة بموازنة بسيطة بين ما جاء في أعماله فيه ، وبين أعمال بعض الشعراء الجزائريين في الموضوع نفسه ، نذكر منها على سبيل المثال عملين اثنين معلقين على أبواب ضريح عقبة بمسجده ، أحدهما لمحمد بن عبد الرحمن الديسي ، والثاني لأبي القاسم الذي هو بن ابراهيم الغول . ومما يجدر ملاحظته عن حديث الشاعر في عظماء الاسلام أنه كان ينطلق فيه من مواقف القدوة والاعتبار طورا ، ويلجأ اليه طورا آخر من مواطن الاعتزاز والافتخار . وبهذا المنظور نراه يتيه أحيانا في بعض أشعاره بمآثر الأسلاف يتحدّى بذلك من يذل أحفادهم ويجوز عليهم في حكمه . ويراهن أن يكون لذلك المغتصب في أرومته أندادا لأولئك الرجال في خدمة الانسانية ونشر مبادئ الحق والعدل والرحمة بين جميع أجناسها وفي سائر أقطارها . ويستهدف من ذلك في الوقت ذاته أن يكون منه ما يقوي الشعور في نفس الأمة بذاتها فتعي ذلك الرصيد الماثل من مفاخر أسلافها وتحرص على الاستعانة به في تحسين حاضرها ، يقول في هذا الشأن مفتخرا بجملة من عظماء الاسلام :

ألسنا من الأجناس أفصحهم فما ... وأسمحهم دينا وأصلحهم أبا ؟
بنا درّت الدنيا عليهم بخيرها ... وأخصب منها كل ما كان أجدبا

---

(1) ينظر ديوانه على التوالي (233 ـ 171 ـ 220 ـ 272) ماعدا الأخيرة فينظر الملحق .

ولدنا وأنجبنا ففزنا عليهم ومن ولد الصيد الماجيد أنجبا
فهل أنجبوا فيها (عليا) و(خالدا)[1] و(عمرا)[2] و(معنا)[3] و(ابن قيس)[4] و(مصعبا)[5] ؟
وهل أنجبوا مثل (الغزالي)[6] باحثا ومثل (ابن خلدون)[7] خبيرا مدربا ؟
وما أنجبوا مثل (ابن حيان جابرا)[8] وهل جربوا من قبل ماكان جربا ؟
وهل نشروا في الكون عدلا ورحمة كأجدادنا أم صيروه مخربا ؟ (9)

وقد جمع الشاعر في هذا المقطع بين ظاهرتين اثنتين من ظواهر الأسلوب الخطابي وهما : ظاهرة التكرار التي رأينا أن الشاعر يعمد اليها في كثير من الأحيان بهدف تثبيت معانيه وتوكيدها ، وبخاصة في قصائده التي ينظمها للالقاء في بعض المناسبات ،

وأما الظاهرة الثانية فذلك الاستفهام الذى لجأ اليه خمس مرات للغرض السابق نفسه وهو تقرير ما قصد اليه من فخر بالأسلاف ، وتحدّ للأعداء بمآثرهم وحفز للهمم على الاقتداء بهم في تغيير ما بالواقع من سوء الأحوال .

ونحسب أن الاستفهام في البيت الأول قوى الايحاء بما يمور في أعماق الشاعر من الاحساس بالمرارة ، وهو يرى قومه وكأنهم استمرؤوا حياة الذل والهوان ، فالتجأ الى ذلك السؤال عسى أن يحركهم به ويكون منه ما يحيي في قلوبهم الحمية والاعتزاز باسلافهم واستلهام مواقفهم في الذود عن الوطن وتحريره من ربقة الاحتلال .

---

(1) هو خالد بن الوليد بن المغيرة . أسلم على الأرجح سنة سبع للهجرة . شهد مع الرسول (ص) فتح مكة . توفي بحمص في الشام سنة 21 هـ . ينظر (الاستيعاب في أسماء الأصحاب) لابن عبد البر على حاشية (الاصابة في تمييز الصحابة) ج 1 : 405، لابن حجر العسقلاني .
(2) هو عمرو بن العاص بن وائل القريشي من عظماء الصحابة . فتح مصر في عهد الخليفة عمر ، ثم أصبح واليا عليها . توفي بالقاهرة 43 هـ . المصدر السابق 2 : 501 .
(3) لعله يقصد (معن بن زائدة الشيباني) المتوفي 151 هـ) كان من أشهر أجواد العرب وأحد الشجعان الفصحاء . ينظر ترجمته في (الأعلام) للزركلي ج 8 : 192 .
(4) لعله يقصد الشاعر (عبيدالله بن قيس الرقيات المتوفي 75 هـ) .
(5) هو مصعب بن الزبير بن العوام (26 — 71 هـ) ، كان عضد أخيه عبدالله . فولاه على البصرة والكوفة . فكان الوالي البطل القدير .
(6) سبق التعريف به .
(7) هو عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ولد في تونس 732 هـ . ونشأ بها ، ثم ارتحل الى كثير من بلدان العالم العربي الاسلامي . توفي 808 هـ ، من أشهر آثاره العلمية مقدمته .
(8) هو جابر بن حيان بن عبدالله الكوفي : فيلسوف كيمائي طبيب له مؤلفات جمة ترجم بعضها الى اللاتينية ، توفي بطوس 200 هـ . ينظر الاعلام للزركلي ج 2 : 90 .
(9) الديوان ، ص : 195 .

وقد اختار الشاعر لهذه المعاني الحماسية ما يلائمها من اللبوس الفني المتمثل في فخامة اللفظ ، وجودة العبارة ، وقوة الأسلوب ، يضاف الى ذلك ، ما توحي به بعض الصور من وفرة العطاء وتنوع ألوان المعروف التي تدفقت على البشرية بفضل ما نقل اليها المسلمون : قادة فتح ، وأعلام هدى من مبادئ الاسلام وحضارته .

* * *

لقد جمع الشاعر في النموذج السابق ما بين كوكبة من عظماء الاسلام كانوا قد عاشوا في عصور متباعدة تمتد من صدر الاسلام الى العصر الوسيط ، والشاعر لا يقف في حديثه عن رجالات أمته عند هذا الحد ، وانما تمتد عنايته بهؤلاء الى العصر الحديث ، فنراه يشيد بمواقف بعض الشخصيات ممن كان لهم أثر واضح في مسيرة النهضة الاسلامية الحديثة .

ويبدو أن الشاعر يفهم التاريخ على أنه سلسلة من الحلقات ، متصل بعضها ببعض ومرتبط قديمها بحديثها ، ويمكن ملاحظة ما يومئ الى ذلك في بعض شعره الذى استطاع أن يجمع فيه ، وهو يتحدث عن قومه في بيت واحد ، أربعة من العظماء : اثنين منهم من التاريخ القديم ، وهما (عقبة) و (طارق) ، واثنين من التاريخ الحديث وهما (المقراني) و (عبدالقادر) ، يقول الشاعر :

انا هنا نحمي (الجزائر) بالفدى ... ونذود عنها بالسلاح الباتر
أعقاب (عقبة) في الجهاد و(طارق) ... أقران (مقراني)(1) وعبدالقادر (2)

وتدخل عناية الشاعر بعظماء عصره ، والاشادة بمواقفهم في خدمة قيم الأمة ، وقضاياها ، في اطار ما عرف به في مثل هذا الموضوع ، من حرص على توجيه الأنظار الى مواطن العبرة والقدوة من سير هؤلاء الرجال ، حتى تكون مواقفهم تلك ، معالم يهتدى بها الناشئة في بناء صرح الحاضر واستشراف آفاق المستقبل .

وان من أبرز من حظي بمكانة مميزة في ديوان الشاعر ، من رجال العصر ، هم قادة الحركة الاصلاحية في الجزائر ، وقد وقفنا عند ذلك في غير هذا المكان .

ولا يبعد عن تلك المكانة بطل المقاومة الجزائرية الأمير عبدالقادر ، الذى نوّه الشاعر بشخصيته ومواقفه في مواطن كثيرة من شعره يمكن ملاحظتها في هذه الأعمال (تهنئة الجيش — تحية العلم — تحية شاعر — الثورة العظمى كسبنا نصرها — من وحي الثورة والاستقلال) (3) .

---

(1) هو قائد ثورة 1871 في الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي .
(2) الديوان ، ص : 222 .
(3) ينظر ديوانه على التوالي : (632 — 220 — 238 — 443) ما عدا الأخيرة فينظر الملحق .

وقد أوقف الشاعر الى جانب ذلك ، على التنويه بمواقف الأمير، عملين اثنين : نظم أولهما وهو بعنوان (فابشر يا ابن محي الدين)[1] احياء لذكرى وفاته ، وهو قصير نوعا ما ، يقع في واحد وعشرين بيتا ، وبدون تاريخ ، ويمكن أن يستفاد من اشارة فيه بأنه يرجع الى أوائل الخمسينات ، وبذلك يكون الشعراء الجزائريون قد تطرقوا الى هذا الموضوع قبل اندلاع ثورة نوفمبر خلافا لما يراه بعض الدارسين[2].

وقد ركز الشاعر في هذا العمل على الاشادة بجهاد الأمير ، وبتصديه لدفع العدوان الأجنبي عن الوطن ،وأكد من جهة أخرى أن ذلك الموقف المشرف للأمير ، سيظل رمزا حيا لأبناء الجزائر ، يستمدون منه الايمان بعدالة قضيتهم ، ويقتبسون منه النور الذي يضيء أمامهم الدرب لمواصلة مسيرة الأجداد نحو تحرير البلاد :

أمير السيف والقلم المفدى	ذكرتك فاعتراني الحزن جدا
ذكرتك يوم قمت تشن حربا	لرد المعتدى وتشد شدا
مضى لك مذ وضعت السيف قرن	وست سنين مثل الدهر عدا
كأني بالجزائر يوم هبت	أرى روح الجهاد بما استجدا
تجلى رسمك الزاهي كبدر	لنا من شمس همتك استمدا
نراه فنقبس الأنوار منه	ومن توقيره لم نلف بدا
وفيه نحس ايمانا ويمنا	ومنه نشم غالية وندا (3)

وأما العمل الثاني فقد نظمه بعد الاستقلال ، احتفاء بنقل رفاة الأمير الى أرض الوطن في شهر جويلية 1966 م ، وهو بعنوان (الرفاة الحي) واذا كان الشاعر في عمله السابق لم تسعفه الظروف المحيطة به على أن يطلق العنان لقلبه ، فيفيض بما يغمره من احساسات كثيرة ، فيساعد ذلك على طول القصيدة ، فانه قد وجد في عهد الحرية المناخ الملائم الذي يسمح له في مثل ذلك الموقف أن يفصح عن تلك المشاعر المكبوتة فجاءت قصيدته طويلة نسبيا ، اذ تقع في تسع وخمسين بيتا .

ويبدو أن هذا الموقف التاريخي قد أوحى للشاعر بالاحساس من جديد بفرحة النصر التي غمرت قلبه وقلوب الجزائريين على اثر الاستقلال فكان ذلك عيدا ، وهذا أيضا عيد يرجع فيه الى أرض الجزائر ، بطل مقاومتها ضد الاحتلال الأجنبي .

وقد أشاد الشاعر في هذا العمل بوجه خاص بدفاع الأمير عن الوطن وجهاده من أجل نصرة الدين الاسلامي ، كما أكد في وضوح ما كان قد ألمع الى بعضه في العمل السابق من أن مقاومة الشعب الجزائرى المعاصرة بقيادة جبهة التحرير الوطني ، ان هي الا امتداد لمقاومة الأمير ، وثأر له من أعدائه ، فهو كما كان بالأمس قائدا لتلك المقاومة ، كان كذلك اليوم رائد الأبطال ثورة نوفمبر المظفرة ، يقول في ذلك :

---

(1) الديوان ص : 510 . (2) ينظر : محمد صالح الجابرى (الأدب الجزائرى في تونس) ص : 32 .
(3) الديوان ص : 510 ومابعدها .

تبارك نصر بالبطولات شاهد ... وعيد به عاد الأمير المجاهد
تبارك عبد النصر عاد بآية ... كآية (عيسى) مالها اليوم جاحد
فأهلا وسهلا بالأمير مشرفا ... حماه عزيز أو الزمان مساعد
مضت لك في أرض الجزائر ثورة ... يباهي بها تاريخنا ويماجد
وخضت غمار الحرب للدين ناصرا ... تكابد من ويلا تهما ما تكابد
فلقبت فيها (ناصر الدين)[1] حلية ... بها في مجال البأس حلاك والد
اذا طال باستيلا مك المر جرحنا ... فمن جبهة التحرير للجرح ضامد
وكنت لنا في ثورة الأمس قائدا ... وأنت لنا في ثورة اليوم رائد ! (2)

وان الروح الدينية واضحة في هذه الأبيات ، ليس في معانيها فحسب ، وانما في صياغتها أيضا ، كما يظهر ذلك بخاصة في تلك اللغة والصور القرآنية .

ويقف الشاعر مثل هذه الوقفة عند حفيد الأمير عبد القادر (الأمير خالد) ، الذي حاول أن يستأنف مسيرة جده في قيادة جهاد الأمة والسير بها نحو أهدافها في النهوض والتحرير ، الا أن يد الاحتلال لم تكن تمهله حتى يبلغ أهدافه تلك ، فأسرعت الى التطويح به بعيدا عن أرض الوطن فمات منفيا في بلاد الشام ، فبكاه الشاعر وأشاد بمواقفه ، وخلد ذكراه في ثلاثة أعمال . كان العمل الأول منها بعنوان (الوداع الوداع) [3] ويقع في ثلاثة وأربعين بيتا ، عبر فيه الشاعر عن بعض ما انتابه وشعبه من مشاعر الحزن والأسى برحيل هذا الزعيم الوطني ، ثم مضى يعدد بعض مناقبه ويشيد بمواقفه في الدفاع عن القضية الوطنية . وخلص من ذلك الى دعوة الجزائر بالوفاء له . وبما يكون وفاء الشعوب لزعمائها ان لم يكن بالوفاء للمبادئ التي نادوا بها وناضلوا من أجلها ؟ ولربما هذا ما كان يلمح اليه الشاعر وهو يطلب من بلاده أن تؤدي حق الزعيم المطاع وتتذكر كفاحه وتصطنع الجميل له ، نلمح ذلك في هذه الأبيات :

ياشعر انك أوفى ... من صان عهدا وراعى
هلم نذكر فنشكر ... (لخالد) السعي ساعا
هلم نذكر فنشكر ... (اقدامه)[4] والدفاعا
قل للجزائر أدى ... حق الزعيم المضاعا
هلا اصطنعت جميلا ... لذي الجميل اصطناعا
هلا ذكرت كفاحا ... مضى له وصراعا (5)

---

(1) يشير الى بيعة الأمير الأولى كقائد للمقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي وتلقيبه بلقب (ناصر الدين) وذلك بالمكان المسمى (وادي فروحة) بسهل (غريس) بحضور والده وجمع غفير من أعيان الأمة . ينظر (تحفة الزائر في تاريخ الجزائر ..) ج 1 : 155 للأمير محمد بن عبد القادر الجزائري .

(2) الديوان ، ص : 507 .

(3) الديوان ، ص : 463 ، ونشر في البصائر العدد : 5 — 6 ذي القعدة 1354 هـ / 31 جانفي 1936 م .

(4) يشير الى جريدة (الاقدام) التي أصدرها الأمير خالد سنة 1920 .

(5) الديوان ، ص : 464 .

وأما عمله الثاني وهو عبارة عن أربعة أبيات ،تو يلت بها صورة الأمير خالد بمجلة الشهاب ، فقد ألمع فيه الى تلك المكانة القيادية التي يحظى بها ذلك الأمير في تاريخ الحركة الوطنية ، والتي سيظل الشعب الجزائرى يحتفظ بها في صدره على مرّ العصور ، كما احتفظ بما لجده من قبله ، يقول في ذلك :

سيذكرك الشعب دهرا مديـــدا ... فأنت لأبنائه والـــد
وأنت ــ قريبا لهــم وبعيــدا ... وحيا وميتا ــ لهم قائـد
تودع فيك زعيما وحيـــدا ... لنا مجده طارف تالـد
خلدت جميل الثناء حميـدا ... ففي ذمة الله ياخالـد ! (1)

وتتلامح الصنعة البديعية في أكثر من موطن في الأبيات ، وخاصة ما يبدو منها في ذلك الالحاح على الطباق . . ويمكن أن يكون الشاعر قد لجأ اليها لما يحس به من فتور في عواطفه ومايشعر به من سيطرة عقله على قلبه .

وأما عمله الثالث فمو قطعة من أربعة أبيات كانت من وحي رسمين : للامام ابن باديس والأمير خالد عرضهما على الشاعر أحد أصدقائه ، فأعرب بهذه المناسبة عن أحاسيسه وأحاسيس شعبه تجاه هذين الزعيمين الخالدين :

عرضت علينا خير رسمين عندنا ... لشهمين منا خالدين على الحقب
فذكرنا رسم ابن باديس علمه ... واخلاصه لله في خدمة الشعب
وذكرنا رسم الأمير جهاده ... وماذاق من نفي وكابد من كرب
سنتبع ما خطا لنا ودليلنا ... وداد هما المركوز في وسط القلب (2)

وقد مرّ معنا أن الشاعر لم يكن يقصر نظره في معالجة القضايا التي عالجها ، في هذا الشعر على المحيط القريب منه ، وانما كان يخوض على توسيع دائرة اهتمامه في هذا المجال . ومن هذا المنطلق لم يقتصر في حديثه عن الشخصيات المعاصرة على من رأينا من الجزائريين وحسب ، وانما شمل باهتمامه غيرهم من رجالات العالم العربي الاسلامي في العصر الحديث . وكان من أبرز من حظي من هؤلاء ، بمكانة مرموقة في شعره هو الرئيس جمال عبدالناصر (3) . وعلى الرغم من أن هذا الرجل كان من أكثر الشخصيات العربية المعاصرة تحمسا للاتجاه القومي ، بمفهومه السياسي ، ومن أشدهم مناداة به ، فان الشاعر كان ينظر اليه نظرته الى بعض عظماء الاسلام في القديم وفي الحديث ، ويرى في مواقفه احياء لمواقف هؤلاء

---

(1) الديوان ص : 466، نشرت في الشهاب ج 19 م19 ذي القعدة 1354 هـ/ فيفرى 1936م .
(2) نشرت بالمخطوطة ج 1 : 56، ولم تدرج فيما طبع من شعره ينظر الملحق
(3) هو جمال عبدالناصر ولد بالاسكندرية سنة 1918، كان من كبار الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة على النظام الملكي في مصر في 23 يوليو 1952 . ثم تقلب من بعد ذلك في عدة مناصب الى أن أصبح رئيسا للجمهورية المصرية ، توفي 1970 .

من عمر بن الخطاب، الى عمرو بن العاص الى عقبة بن نافع، وعقبة بن عامر، الى صلاح الدين الأيوبي الى جمال الدين الأفغاني . ويتراءى شيء من ذلك في بعض قصائده التالية : (استقلال السودان ـ العروبة أمنا الكبرى ـ هذه قمة الفتوة) (1)، الا أن أكثر أعماله تمثيلا لمنهجه في الحديث عن عبدالناصر، هو قصيدته (تحية شاعر الى الرئيس جمال عبدالناصر)(2) التي نظمها احتفاء بزيارته الى الجزائر سنة 1963م، وقد أشاد فيها ببعض جوانب العظمة في شخصية هذا الرجل، وقرنه في ذلك ببعض رجالات الاسلام القدامى والمحدثين، وذهب في ذلك الى حدّ أنه رأى في عهده احياء لعهد الرسول (ص) وخلفائه الراشدين، ومن انتهج نهجهم من الفاتحين الأولين رضوان الله عنهم أجمعين، ومما جاء من ذلك قوله :

هذا (صلاح الدين)(3) ملصف خصيمه	أم (كامل)(4) رب البيان الساحر ؟
هذا (جمال الدين)(5) حر الفكر أم	هذا جمال الشرق (عبدالناصر)
اليوم يلقى (عقبة بن نافع)(6)	فوق الجزائر (عقبة بن عامر) (7)
عهد العبادلة(8) له استعادة فتوحه	فالصحب فيها وارد عن صادر
وجنود (عقبة) عبر افريقية	تطوي الفجاج بمنسم وحافر
الله أكبر عاد عهد (محمد)	والراشدين وباد عهد الكافر (9)

ومما يقترب من هذا التناول في نظرته الى عبدالناصر، ما ورد في مطولته (من وحي الثورة والاستقلال)(10)، تلك التي أشاد فيها بجميله على الجزائر وعلى الشرق بأجمعه، ورأى أنه قد أحيا بما يتمتع به من مواقف حكيمة وسياسة عادلة، عهد عمر بن الخطاب وعمرو

---

(1) ينظر الديوان على التوالي (348 ـ 226 ـ 265) .
(2) الديوان، ص : 220، نشرت في (المعرفة) العدد : 2 صفر 1383هـ / جوان 1963 م .
(3) هو السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب من أكبر ملوك المسلمين همة وأقواهم شوكة، وأشدهم غيرة على الدين . حارب الغزاة الصليبيين فأجلاهم عن بلاد الشام . . وسعى الى توحيد بلاد الاسلام في عهده . . توفي سنة 589 هـ .
(4) مصطفى كامل ولد بالقاهرة 1874، وتخرج من مدرسة الحقوق، ثم دخل غمار السياسة، فأصبح من أقطابها في مصر . ترأس الحزب الوطني الذي لعب دورا بارزا في النضال من أجل القضية الوطنية، توفي 1908 .
(5) يقصد جمال الدين الأفغاني ـ سبق التعريف به .
(6) سبق التعريف به .
(7) هو عقبة بن عامر بن عبس الجهني، كان واليا على مصر في آخر خلافة معاوية، توفي بمصر 58 هـ . ينظر (الاستيعاب في أسماء الأصحاب) لابن عبد البر على حاشية (الاصابة في تمييز الصحابة) ج 3 : 106 ـ لابن حجر العسقلاني .
(8) العبادلة : وهم نفر من أعيان الصحابة يشتركون في اسم (عبدالله) كانوا على رأس الجيش الاسلامي الذي دخل المغرب في حوالي 27 هـ . نذكر من بينهم : عبدالله بن سعد بن أبي سرح، عبدالله بن عباس، عبدالله بن عمر بن الخطاب، عبدالله بن الزبير . ينظر ابن الاثير (الكامل في التاريخ) ج 3 : 45 .
(9) الديوان، ص : 220 .
(10) [illegible] الخامسة [illegible]

بن العاص، كما أحيا بما تجمل به من قوة الشخصية، وبما بنى من دولة عظيمة، أيسام المعز بالله وجوهر الصقلي، يقول الشاعر في ذلك :

شكرا لمصر وفخر مصر (جمالها) ونصير كل الشرق مهما استنصرا
سهم العروبة في كنانة أرضها ما حاد عن أهدا فها أو قصرا
و (أسامة)[1] العرب الذين ان سامهم ضيم كفاهم جده أن يزأرا
أحيا لنا (عمرا) و (عمر)[2] حاكما عدلا كما أحيا (المعز)[3] و (جوهرا) (4)

وان المزاوجة ما بين العروبة والاسلام واضحة في نظرة الشاعر الى عبد الناصر في هذه الأبيات، الا أنه يمكن القول أن من أبرز الاشارات في شعره تمثيلا لتلك النظرة المزدوجة، ما نجده في هذا البيت الذي يخاطب فيه الشاعر عبد الناصر بقوله :

ماكان حبك غير حب (محمد) فخر العروبة و (الكتاب) الطاهر (5)

* * *

ومما يلفت النظر اليه في هذا النتاج الذي عني فيه الشاعر بالحديث عن الشخصيات التاريخية الحديثة، تلك المكانة البارزة التي حظي بها في ديوانه أبطال ثورة نوفمبر الخالدة، من استشهد منهم، ومن ينتظر .

فقد نوه ببطولات ومواقف هؤلاء، وكان ينظر اليهم نظرته الى من سبقهم من الصحابة والفاتحين على طريق الجهاد، ويحرص على أن تظل مواقفهم كمواقف أولئك، مشاعل قدوة تستضيء بها الأجيال في بناء صرح الأمة والمحافظة على كيانها .

ويلحظ في مقدمة ذلك، اشادته بثورة نوفمبر المجيدة، كبرى ثورات الشعب الجزائري في العصر الحديث، والتنويه بأبطالها الميامين، الذين استطاعوا بايمانهم وشجاعتهم وهم قلة، أن يقهروا قوى الطغيان على كثرة عددها وعدتها، ويفتكوا منها حرية شعبهم

---

(1) علم جنس للأسد .
(2) يقصد عمرو بن العاص سبق التعريف به .
(3) هو المعز لدين الله الفاطمي ولد بالمهدية في تونس سنة 319 هـ . وبويع بالخلافة سنة 341 هـ .
تمكن من توسيع دولته بالمغرب . ثم مد بصره الى المشرق فجهز وزيره القائد جوهر فدخل مصر فاتحا سنة 358 هـ . ولم يلبث أن التحق به واستقر بالقاهرة . وأصبحت في عهده مقرا للدولة الفاطمية . كان شجاعا حازما توفي سنة 365 هـ .
(4) هو جوهر بن عبدالله الصقلي (المتوفي 381 هـ) . من عظماء قواد المعز بالله الفاطمي، فاتح مصر لعهده، وباني مدينة القاهرة وجامع الأزهر . كان شجاعا محسانا .
(5) الديوان، ص : 225 .

وسيادتـه ، وان نصرهم ذلك ليشبـه نصر (طالوت) بجيشه القليل على (جالوت) بجبروته وعدده الكثير . وان استجابة الشعب الجزائرى لنداء ثورته وصموده الى الجبال وصموده فيها سبع سنوات ونصف ، ليشبـه صورة الحجيج وهم يؤمـون مكة المكرمة ويطوفون بالبيـت العتيـق سبعا ، وان صورة أبطال جيش التحرير وهم يتخذون من الغابات والكهوف قلاعـا ينطلقون منها في هجوماتهم على العدو ، ثم يعودون اليها بعد ذلـك سالمين غانـمين ، فيجدون فيها المأوى ويجدون فيها المنعة ، ان هذه الصورة تحيي في قلب الشاعر وفـي وجدان قراء شعره ، ذكرى (غار حراء) ذاك الذى كان يأوى اليه الرسول (ص) ، للتعبد واستقبال الوحي ، يصور الشاعر ذلك فيقـول :

عملاقة الثورات فكت أسرنـــــا ۝ قهـرا فحـق لنا بها أن نفخـــرا
وبها عمالقة المزائـم ذللـــوا ۝ كل الصعا ب فأدركوا ما استحسـرا
رعيا لها مـن ثورة قدسيـــة ۝ فيها القليل على الكثير استظهـــروا
فكأن (طالوت)(1) استعاد وجنده ۝ من جند (جالوت)(2) اللقاء فظفـرا
سربا نؤم جبالنا العليـا كما ۝ أم الحجيج بركبهم (أم القـــرى) (3)
طفنـا بكعبتها الشريفـة سبعـــة ۝ ومنارها الحمراء طبنـا مجمـــرا
غاباتهـا أحيت لنـا آسادهـــا ۝ وكهوفها أحيت لنا ذكـرى (حرا(4)) (5)

وتبدو الروح الدينية بارزة في الأبيات في معانيها وفي طرق الصياغة بها ، وخاصة في تلك الصور الدينية في الأبيات الأربعة الأخيرة .

وقد أشاد الشاعر في كثير من شعره بشهر نوفمبر العظيم ، الذى فجر فيه الشعب الجزائرى ثورته المجيدة ، ومن ذلك هذه الأبيات التي ينوّه فيها بهذا الشهر وبالأبطال الذين صنعوه ، جبهة وجيشا ، ومضوا على طريقـه يسطرون الملاحم في ساحات الجهاد ويذودون عن الوطن وعن مقدساته حتى كان على أيديهم نصر البلاد وتحقيق المراد ، يقول في ذلك :

---

(1) طالوت : من ملوك بني اسرائيل ورد ذكره في القرآن الكريم ، بسـورة البقرة الآية : 247 .

(2) جالوت : جبار من العمالقة من أولاد عمليق بن عاد قتله النبي داود عليه السلام الذى كان في جيش طالوت .
ينظر تفسير البغـ[illegible]ـي ج 1 : 126 .

(3) هي مكـة المكرمـة .

(4) حراء : يقصـر ويمـد . وقد قصره الشاعر . وهو جبل بأعلى مكة على ثلاثة أميـال منهـا عن يسار المار الى (منى) وبه الغار الذى كان يتنسـك فيه الرسول (ص) قبل البعثـة ، وبه نزل عليه الوحي لأول مرة .
ينظر ابن كثير (السيرة النبويـة) ج 1 : 390 .

(5) (من وحي الثورة والاستقلا ل) الحلقة (1) . ينظر الملحق

نوفمبر "هاروت"[1] الشهور بمصرنا	و"ماروتها" [2] أبدى بثورتنا السحرا
وعلمنا الايمان والصبر والفدى	وجل هقاما أن يعلمنا الكفرا
ففاتحه قد كان أعظم فاتح	لنا كسب التحرير وانتزع النصرا
وما (جبهة التحرير) الا عرينا	وما (جيشنا) الا الليوث به تضرى
ونحن رجال السلم أن رمت سلمنا	ونحن جبال الحرب ان سمتنا نكرا
دعاة الى الاسلام والسلم رحمة	وعاة لما يوحي الاله به أمرا (3)

وتبدو الروح الدينية واضحة في الأبيات ، في معانيها وفي صياغتها ، وخاصة في تلك الصورة القرآنية في البيت الأول .

ويؤمن الشاعر أن جيش التحرير انما هو وارث مجد الأسلاف وحامل لواء الجهاد على طريقهم ، فاذا كان عبدالقادر قائد ثورة نوفمبر ، كما رأينا ذلك في عمل سابق له ، فان جيش هذه الثورة هو مجدد عهده ، وباعث بطولاته ومحقق آماله ، يلمح الى ذلك وهو ينوّه ببطولات جيش التحرير فيقول :

وخاض ميادين الجهاد مجددا	مواقف (عبدالقادر) البطل الخير
وثار على جور الطغاة بعاصف	كعاصف (عاد) عاد في (سبعها الغبر) (4)
سنو (يوسف) السبع الشداد [5] تصرمت	وأعقبها (عام الاغاثة والعصر) (6)
سلوا عنه أطواد الجزائر كلها	فغاراته فيها تجل عن الحصر
لقد غاب عنا والقلوب مروعة	وعاد الينا بالأمان من الذعر
فيأ يها الشعب " الخليلي "(7) محنة	تبارك من أنجاك من لهب الجمر (3)

---

(1) ــ(2) قيل انهما ملكان اختارتهما الملائكة لتركب فيهما الشهوة حين عيرت بني آدم ، فكانا يحكمان في الأرض ويصعدان بالليل ، فوقعا في خطايا الخمر والزنا والقتل فحكم الله عليهما بعذاب الدنيا . ورد ذكرهما في القرآن الكريم في سورة البقرة الآية (102) . وينظر تفسير النسفي ج 1 : 66 . وتفسير ابن كثير ج 1 : 241 وما بعدها .

(3) الديوان ، ص : 438 .

(4) يقصد الريح الشديدة التي سخرها الله على قوم (عاد) في سبع ليال وثمانية أيام متتابعة فأهلكتهم ، مشيرا بذلك الى قوله تعالى : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) سورة (الحاقة) الآيتان (6ــ7) .

(5) وهي السنون السبع التي قال عنها يوسف عليه السلام في تفسيره لرؤيا ملك مصر أنها ستأتي بعد سبع سنين مخصبة .

(6) يقصد العام الذى قال عنه يوسف ، أنه سيعقب تلك الأربعة عشرة سنة ، وسيكون عام غيث وغلال فيه يعصر العنب والزيتون وغيرهما . ويشير الشاعر بذلك الى قوله تعالى : (قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) سورة يوسف الآيات (47ــ48ــ49) .

(7) نسبة الى (الخليل) ومعناه لغة الصديق . وهو لقب ابراهيم رسول الله عليه السلام . والشاعر يشير الى قصة ابراهيم حينما هم القوم باحراقه بعد أن كسر أصنامهم فرموه في نار عظيمة فنجاه الله منها بأن جعلها ذات برد وسلام عليه . وقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم في سورة (الأنبياء) الآيات (من 51 ــ الى 72) .

(3) الديوان ص : 432 ــ

ويتضح الأثر القرآني والصور الدينية في هذه الأبيات أكثر مما كان عليه الأمر في سابقاتها، كما يتلامح ذلك في هذه الصور (كماصف عاد) (سنو يوسف، السبع الشداد) (عام الاغاثة والعصر) (فيا أيها الشعب "الخليلي" محنة)، مما يؤكد على وضوح الصورة الدينية في شعره في مرحلته الأخيرة.

ويرتفع الشاعر بمجاهدي الثورة الجزائرية الى مصاف المجاهدين من العصبة الأولين حتى ليكاد يتراءى له ان المجاهد في جيش التحرير قد يعلو بخصاله ومواقفه الى درجة يكون فيها واحدا من جنود (محمد) (ص) درعه الايمان وسلاحه الثبات، ومطمحه النصر أو الاستشهاد:

ولرب ليث من ليوث محمد ۔ أبلى بلاء في الجهاد مسيرا
لا درع يلبسه سوى ايمانه وصموده للبأس أشمث أغبرا
لا زاد في يده سوى رشاشه ورصاصه للواجبات مذخرا
فاختار عيش الخالدين مرحبا بالموت في ذات الاله مكبرا (1)

ويعثر الدارس على اشارات غير هذه التي أثبتناها مبثوثة في ديوان الشاعر ينوه فيها بأبطال الثورة الجزائرية[2].

وأما شهداء الوطن فحديث الشاعر عنهم يرجع الى ماقبل قيام الثورة الأخيرة، فقد نظم في ذلك قصيدته (قصة شهيدين)[3] على اثر سقوط اثنين من الشهداء بمدينة بسكرة في احدى الحملات الانتخابية[4]، وكتب كذلك قصيدته (لا أنسى)[5]، تخليدا لشهداء حوادث الثامن من ماي 1945م.

وأما شهداء ثورة نوفمبر المجيدة، فقد أشاد الشاعر بتضحياتهم واحياء ذكراهم في مواطن كثيرة من ديوانه[6]. وان اللافت للنظر في هذا الشعر أن ظاهرة التركيز على أخذ العبرة من مواقف أولئك الشهداء والوفاء لجهادهم تكاد تطغى على ذهن الشاعر فيه، وتكون من أبرز السمات المميزة لكثير من نماذجه، ونكتفي للتدليل عن ذلك بسوق ثلاثة أمثلة تبدو تلك الظاهرة في كل منها، ماثلة للعيان، يلقانا أولها في مطولته (من وحي الثورة والاستقلال) التي تناول موضوع الشهداء في أكثر من مكان بها، ومما جاء فيها منوّها بمقام الشهيد عبدالله ومكانته عند قومه قوله:

---

(1) (من وحي الثورة والاستقلال) الحلقة: 1 ـ ينظر الملحق

(2) ينظر ديوانه (427ـ434ـ441ـ444ـ498ـ505ـ506).
وينظر (من وحي الثورة والاستقلال) الملحق

(3) نشرت في البصائر العدد: 105 ـ 13 محرم 1357 ـ 25 مارس 1938، وهي بعنوان (رثاء شهيدي بسكرة النخيل).

(4) وقعت هذه الحادثة يوم الأحد 5 ذي الحجة 1356 هـ ـ 6 فيفري 1938 ص: 541.

(5) الديوان ص: 325 وهي بالمخطوطج 1: 161 ـ بعنوان (ما أنا بالناسي) وليس بالمصدرين ذكر لتاريخ ومكان نشرها: ويرجح الشاعر أنها نشرت في وقتها، ينظر الأثير العدد: 7 ـ 1 اكتوبر 72

(6) ينظر الصفحات (242ـ270ـ424ـ428ـ433ـ441ـ442) و (من وحي الثورة والاستقلال) الحلقات 1 ـ ... 2 ... الملحق

نحن الحماة لشعبنا بدمائنـــا — وشهودنا شهداؤنا لمن امـــترى
البالغون لاُلفاُلف كثـــرة — في العد أو من ألف ألف أكثرا
الطامحون الى الصحابة نزعـــة — يقفون "حمزة" في الجهاد و(جعفرا)
نزلوا بمولاهـم فأكـرم نـزلهـم — وأثابهم بنعيمه خير القرى
فهم الشموع الساطعات جلت لنا — في أرضنا فردوسنا المتنظـرا
وهم الائمة في الجهاد فمن يحد — عن نهجهم ضل المدى وتحـيرا
فمن اقتدى بهم اهتدى وعلا يدا — أبدا ونال رضى الاله بلا مرا (1)

ويصادفنا ثاني تلك الامثلة في قصيدته (العروبة أمنا الكبرى)، ويرجع فيها الى المعنيين الذين سبق أن تطرق لهما في عمله السالف فيقول :

شهداؤنا الابرار أعلام الهـــدى — ومعالم الحسنى بهم نسترشـد
ان الشهيد مخلد الذكـرى لـــه — نصب لدينا في القلوب مشيـد
حسب الشهيد رضى الالـه كرامـة — ورضى الاله هو العلا والسؤدد
يروي لنا القرآن قصـة فضلـــه — لا (الأصمعي)(2) يقصها أو (عجرد) (3)
فحياتـه فـي النشأتين حياتـه — يحيـا ويرزق وهو ميت ملحـد (4)

ويوقف الشاعر على الشهداء عملا كاملا هو قصيدته (وقفة على قبور الشهداء)[5] ترحم فيها عليهم وأشاد بذكرهم ورجع مرة ثالثة الى بيان قيمتهم عند الله، ومكانتهم لدى قومهم، بيد أن الذي يميز حديثه في هذا العمل، أنه أجمل في المعنى الاول، وفصل في المعنى الثاني، فنراه يرسم الطريق الامثل لتكريم الشهداء ويوضح أن أبرز وجوه الوفاء لهم، انما يكون عن طريق الاقتداء بهم فيما ضحوا من أجله وانتهاج نهجهم في خدمة الشعب والوطن. يقول في هذا المعنى :

لا تخل معشرا قضوا في سبيل اللـ — ـه موتى بل هم من الاحيـاء
انهم عند ربهم حـيول رزق — منه في نعمة وفي سـراء
ان ذكرى الشهيد أرفع من أن — ترفعوها بالصخرة الصمـاء
فأقيموا لهم تماثيل عـــز — في قلوب ثورية الاهــواء
واقتدوا وائتسوا بهم في المزايـا — انهم أهل قـدوة وائتسـاء
واخلفوهم بالصدق في خدمة الشعـ — ـب وفي أهلهم وفي الابناء
انهم أوفوا العهود فهل انـ — ـتم لميثاقهم من الاوفياء (6)

(1) الحلقة الثانية . ينظر الملحق
(2) سبق التعريف به .
(3) هو حماد بن عمر بن يونس الكوفي المعروف بحماد عجرد، شاعر مجيد. كان ماجنا متهما في دينه، توفي بالبصرة 161 هـ. ينظر معجم الادباء لياقوت ج 10: 249.
(4) الديوان، ص: 228.
(5) ألقى الشاعر القصيدة بمقبرة الشهداء بمدينة باتنة يوم عيد الاضحى. ونشرت في (المعرفة) العدد: 18 ذي الحجة 1384 هـ — افريل 1965 م. ينظر الديوان ص: 435.
(6) الديوان، ص: (435 — 436).

ويتضح من هذه الأبيات أن الشاعر اتجه فيها من الناحية الفنية وجهة جديدة، فهو لم يقتصر فيها عما كان قد اقتصر عليه في موضوعها في عمليه السالفين باستخدامه فيهما الأسلوب الخبري، وانما اختار لمعانيه هذه المرة أسلوبا آخر، هو الأسلوب الانشائي الذي يظهر في هذه الأفعال الأمرية المتتالية (فأقيموا، واقتدوا، واخلفوهم) وكأنه أحس أن ذلك الأسلوب التقريري الذي وظفه من قبل لم يستطع الافصاح عن شعوره بالقدر المطلوب فاستبدل به هذا الأسلوب الذي رأى أنه قد يساعده أكثر من غيره في التعبير عن احساسه والتأكيد خاصة على ظاهرة الاقتداء بمواقف الشهداء، تلك التي تعد من أهدافه الأساسية في هذا الشعر .

وتنهار سدود الظلم والطغيان أمام تضحيات الشعب الجسام، وبطولات أبطاله العظام، وترتوي شجرة الحرية بدماء زكيات غزيرة، فتزهر وتثمر فجرا عزيزا تسطع أنواره على كامل ربوع الجزائر، ويذهب بذلك ليل القهر الى غير رجعة، ويستأنف الشعب الجزائري مسيرته بعد انقطاع طويل في حكم نفسه وبناء ذاته . وينهض الشاعر وفرحة النصر تملأ صدره فيشد على أيدي شعبه يهنئه بانتصاره وينثر من أمامه بعض ما يمكن أن يساعده في سيره نحو أهدافه، لافتا نظره الى مبادئ ثورته، والى أسباب نصره فيها، راجيا أن يكون له من ذلك ما يدفعه الى الشعور بمقابلة نعم الله عليه بذلك الانتصار الكبير، بما يلائمها من شكر، بالاخلاص في طاعة الله، ومخافته فيما منحه من آلاء، والاحسان الى خلقه، والثقة به وحده، ولعل الشاعر اذ يؤكد على هذه المعاني، كان يهدف من ورائها أن يحمي الشعب بقوة أسباب انتصاره في معركة السلاح، فيحافظ عليها في معركة البناء حتى يربط ذلك بين حلقات ماضيه وبين حلقات حاضره ومستقبله يقول في ذلك :

ألا أيها الشعب الذي بجهاده	أعاد جهاد الصحب يقفوهم أثرا
لقد ثرت في التاريخ أعظم ثورة	تسجل تبرا في الصحائف لا حبرا
أراك بلغت اليوم ما كنت راغبا	ونلت مزايا لا تطيق لها حصرا
ويسرت للعسرى عدوك نادما	على حكمه الباغي ويسرت لليسرى
خف الله فيما نلته وارج روحه	ومنه فلا تيأس ولا تأمن المكرا
ودع عنك أسباب التنازع واعتصم	بميثاقك الشوري واشدد به أزرا
وحكم كتاب الله في كل فتنة	فتحكيمه لابد أن يطفئ الجمرا (1)

وكأني بالشاعر ارتاح باله لما أصبح يرى عليه الوطن حينئذ وهو يعلي بنيان حاضره، ويقيم دعائم مستقبله، واطمأن قلبه لما يشاهد عليه حاضر الأمة العربية الاسلامية من حوله، وما يتلامح له من المعالم على طريق مستقبلها، فهتف من الأعماق يغني لذلك الحاضر وذلك المستقبل هنا في وطنه الصغير، وهناك في وطنه الكبير يقول :

---

(1) الديوان، ص : 440.

نحن الحماة لشعبنا بدمائنا ... وشهودنا شهداؤنا لمن امترى
البالغون لا ألف ألف كثرة ... في العد أو من ألف ألف أكثرا
الطامحون الى الصحابة نزعة ... يقفون "حمزة" في الجهاد (جعفرا)
نزلوا بمولاهم فأكرم نزلهم ... وأثابهم بنعيمه خير القرى
فهم الشموع الساطعات جلت لنا ... في أرضنا فردوسنا المتنظرا
وهم الأئمة في الجهاد فمن يحد ... عن نهجهم ضل المدى وتحيرا
فمن اقتدى بهم اهتدى وعلا يدا ... أبدا ونال رضى الاله بلا مرا (1)

ويصادفنا ثاني تلك الأمثلة في قصيدته (العروبة أمنا الكبرى) ، ويرجع فيها الى المعنيين الذين سبق أن تطرق لهما في عمله السالف فيقول :

شهداؤنا الأبرار أعلام الهدى ... ومعالم الحسنى بهم نسترشد
ان الشهيد مخلد الذكرى له ... نصب لدينا في القلوب مشيد
حسب الشهيد رضى الاله كرامة ... ورضى الاله هو العلا والسؤدد
يروي لنا القرآن قصة فضله ... لا (الأصمعي)(2) يقصها أو (عجرد) (3)
فحياته في النشأتين حياته ... يحيا ويرزق وهو ميت ملحد (4)

ويقف الشاعر على الشهداء عملا كاملا هو قصيدته (وقفة على قبور الشهداء) (5) ترحم فيها عليهم وأشاد بذكرهم ورجع مرة ثالثة الى بيان قيمتهم عند الله ، ومكانتهم لدى قومهم ، بيد أن الذى يميز حديثه في هذا العمل ، أنه أجمل في المعنى الأول ، وفصل في المعنى الثاني ، فنراه يرسم الطريق الأمثل لتكريم الشهداء ويوضح أن أبرز وجوه الوفاء لهم ، انما يكون عن طريق الاقتداء بهم فيما ضحوا من أجله والتهاج نهجهم في خدمة الشعب والوطن . يقول في هذا المعنى :

لا تخل معشرا قضوا في سبيل اللـ ... ـه موتى بل هم من الأحياء
انهم عند ربهم حسول ر ز ق ... مليه في نعمة وفي سراء
ان ذكرى الشهيد أرفع من أن ... ترفعوها بالصخرة الصماء
فأقيموا لهم تماثيل عز ... في قلوب ثورية الأهواء
واقتدوا وائتسوا بهم في المزايا ... انهم أهل قدوة وائتساء
واخلفوهم بالصدق في خدمة الشعـ ... ـب وفي أهلهم وفي الأبناء
انهم أوفوا العهود فهل انـ ... ـتم لميثاقهم من الأوفياء (6)

---

(1) الحلقة الثانية . ينظر الملحق
(2) سبق التعريف به .
(3) هو حماد بن عمر بن يونس الكوفي المعروف بحماد عجرد ، شاعر مجيد . كان ماجنا متهما في دينه ، توفي بالبصرة 161 هـ . ينظر معجم الأدباء لياقوت ج 10 : 249 .
(4) الديوان ، ص : 228 .
(5) ألقى الشاعر القصيدة بمقبرة الشهداء بمدينة باتنة يوم عيد الأضحى . ونشرت في (المعرفة) العدد : 18 ذى الحجة 1384 هـ ـ افريل 1965 م . ينظر الديوان ص : 435 .
(6) الديوان ، ص : (435 ـ 436) .

ويتضح من هذه الأبيات أن الشاعر اتجه فيها من الناحية الفنية وجهة جديدة ، فهو لم يقتصر فيها عما كان قد اقتصر عليه في موضوعها في عمليه السالفين باستخدامه فيهما الأسلوب الخبري ، وانما اختار لمعانيه هذه المرة أسلوبا آخر ، هو الأسلوب الانشائي الذي يظهر في هذه الأفعال الأمرية المتتالية (فأقيموا ، واقتدوا ، واخلفوهم) وكأنه أحس أن ذلك الأسلوب التقريري الذي وظفه من قبل لم يستطع الافصاح عن شعوره بالقدر المطلوب فاستبدل به هذا الأسلوب الذي رأى أنه قد يساعده أكثر من غيره في التعبير عن احساسه والتأكيد خاصة على ظاهرة الاقتداء بمواقف الشهداء، تلك التي تعد من أهدافه الأساسية في هذا الشعر .

وتنهار سدود الظلم والطغيان أمام تضحيات الشعب الجسام ، وبطولات أبطاله العظام ، وترتوي شجرة الحرية بدماء زكيات غزيرة ، فتزهر وتثمر فجرا عزيزا تسطع أنواره على كامل ربوع الجزائر ، ويذهب بذلك ليل القهر الى غير رجعة ، ويستأنف الشعب الجزائري مسيرته بعد انقطاع طويل في حكم نفسه وبناء ذاته . وينهض الشاعر وفرحة النصر تملأ صدره فيشد على أيدي شعبه يهنئه بانتصاره ويشر من أمامه بعض ما يمكن أن يساعده في سيره نحو أهدافه ، لافتا نظره الى مبادئ ثورته ، والى أسباب نصره فيها ، راجيا أن يكون له من ذلك ما يدفعه الى الشعور بمقابلة نعم الله عليه بذلك الانتصار الكبير ، بما يلائمها من شكر ، بالاخلاص في طاعة الله ، ومخافته فيما منحه من آلاء ، والاحسان الى خلقه ، والثقة به وحده ، ولعل الشاعر اذ يؤكد على هذه المعاني ، كان يهدف من ورائها أن يعي الشعب بقوة أسباب انتصاره في معركة السلاح ، فيحافظ عليها في معركة البناء حتى يربط ذلك بين حلقات ماضيه وبين حلقات حاضره ومستقبله يقول في ذلك :

ألا أيها الشعب الذي بجهاده	أعاد جهاد الصحب يقفوهم أثرا
لقد ثرت في التاريخ أعظم ثورة	تسجل تبرا في الصحائف لا حبرا
أراك بلغت اليوم ما كنت راغبا	ونلت مزايا لا تطيق لها حصرا
وبسرت للعسرى عدوك نادما	على حكمه الباغي ويسرت لليسرى
خف الله فيما نلته وارج روحه	ومنه فلا تيأس ولا تأمن المكرا
ودع عندك أسباب التنازع واعتصم	بميثاقك الشوري واشدد به أزرا
وحكم كتاب الله في كل فتنة	فتحكيمه لابد أن يطفيء الجمرا (1)

وكأني بالشاعر ارتاح باله لما أصبح يرى عليه الوطن حينئذ وهو يجلي بنيان حاضره ، ويقيم دعائم مستقبله ، واطمأن قلبه لما يشاهد عليه حاضر الأمة العربية الاسلامية من حوله ، وما يتلامح له من المعالم على طريق مستقبلها ، فهتف من الأعماق يحيي لذلك الحاضر وذلك المستقبل هنا في وطنه الصغير ، وهناك في وطنه الكبير يقول :

---

(1) الديوان ، ص : 440 .

وقافلة استقلالنا مستمــــرة — على السير للأهداف في السهل والوعـــر
ومغربنا النــحر الكبير موحـــد — مع العرب الأحرار فـي كنف اليســـر
وجبهتنـا تجلـو الظلام، وجيشنا — لنا حارس يحمي البلا د من الخســــر
وأمتنا مجموعـة الشمل حـــرة — ود ولتنـا مسموعة النهـي والأمـــير
ودام لنا تحريرنـــا ولذا منـــا — ودام لنا استقلا لنا أبد الدهـــر (1)

وعلى الرغم مما تبدو عليه صورة بعض أوضاع الأمة العربية الاسلامية في حاضرها من قتامة، فان المرء مع الشاعر ومع التاريخ متفائل بمستقبل هذه الأمة، وان ادلهمت هذه الحقيقة في هذه الأيام في عيون كثير من النـاس.

* * *

وان آخر ما يمكن أن نقف عنده ونحن على عتبة الفقرة الأخيرة من هذا الفصل، أن نلفت الانتباه الى بعض مايميز طبيعة العمل الفني لدى الشاعر في هـذا النتاج المدروس، وخاصة من جانب الخيال وطرائق التصويـر فيه، ولا شك أننا نذكر ما تبيناه في فصل سابق مما يميل اليه الشاعر لعوامل مختلفة من وجوه الصياغة الفنية، وعسى أن يكون البحث بتلك الوقفة السابقة، وبهذه الموقفة، الى جانب ما هو منثور في مختلف فصوله من ملاحظ حول هذه الناحية، أن يوفق في رسم بعض الملامح التي يمكن أن تساعد المتلقي فـي تكوين انطباع عن سمات المذهب الفني للشاعر.

لقد سبق أن وقفنا عند بعض صور الشاعر في مواطن كثيرة من هذه الرسالة، وألمعنا هناك غير ما مرّة الى بعض العوامل المؤثرة فيها، وليس من أهدافنا في هذه الكلمة أن نعود الى ذلك، وان قصارى ما نرمي اليه من ورائها أن نجمع فيها ما تفرق حول هـــذا الموضوع في غيرها.

ونبدأ ذلك بتقديم فكرة عن طبيعة الخيال وعن وظيفته وتطوره بعامة، وعن نوعيته وبعض ألوانه في هذا النتاج الذى ندرسه بخاصة.

ونبـادر الى القـول بـأن الخيـال ملكـة نفسية ذهنية يستنجد بها الأدباء للتعبير عن تجاربهم، ولأن اللغة العادية المحددة وهي موضوعة في الأصـل لأداء الحقائق، عاجزة عن تصوير العواطف والانفعالات وهي قـــوة نفسية غير محـدودة المعالم.

واذن فان الخيال بما يتوفر عليه من قدرة على التصوير والايحاء، هو الذى يستطيع أن يفصح عن أحاسيس الشاعر وينقـل الى المتلقين خبراته وتجاربه الشعورية والفكريـــة المتصلة بالحياة نقـلا حارا مؤثـرا.

---

(1) الديوان، ص: 434.

وقد تطورت الصورة الشعرية في العصر الحديث تطورا ملحوظا على أيدى بعض الشعراء المبدعين بفضل اطلاعهم على التجارب الأدبية لدى الأمم الأخرى وافادتهم منها . ولذلك لم تعد عند هؤلاء كما كانت عند أسلافهم ، تكاد تقتصر على بعض الصور الجزئية البسيطة ، وانما أصبحت لديهم مزيجا من علاقات معنوية ونفسية ولغوية ، تختار من المادة المتناثرة في الحياة والطبيعة والكون ، وتركب من كل ذلك (مجموعة من الصور الجزئية المترابطة التي تكون في مجموعها مشهدا عاما متحركا .... لأنها رؤية واعية تلتقط وتسجل وتختار وتركب وتكون مشهدا كاملا)[1].

واذا حاولنا في ضوء ما تقدم من كلام عن الصورة الشعرية الحديثة أن نتعرف عما توفر للشاعر في هذا النتاج الذى ندرسه من تلك الطاقة التصويرية .

فان ما يمكن قوله في هذا المجال أن الشاعر كان فقيرا في هذا الجانب . وأن ملكة الخيال لديه كانت كما هي لدى معظم شعراء مدرسته من الجزائريين خاصة ضعيفة محدودة عاجزة عن نقل تجربته الشعورية الى المتلقين نقلا مؤثرا[2] . وذلك لأسباب موضوعية كثيرة منها ما هو متعلق بالشاعر نفسه ومنها ماهو متصل ببيئته وظروف مجتمعه .

ولعل من بين ما يعود الى الشاعر أنه لم يكن — فيما يبدو — من ذوى الخيال الخصب المبدع الذى يمكن صاحبه من الغوص في أعماق ما وراء الظواهر ، ثم يبرز ذلك في صور تمتد على مساحة واسعة وتفاصيل دقيقة ، وانما كان ضيق الخيال محدود المجال فيه ، مما جعل قدرته التصويرية من أبسط أنواع الخيال المعروفة ، وهو النوع التفسيرى القريب الذى يقوم على الصور الجزئية البسيطة ، المكونة أساسا من ألوان البيان التقليدية (تشبيه واستعارة وكناية) .

ويمكن القول الى جانب ذلك أن أكبر الأثر في تلوين خيال الشاعر بتلك الألوان ، انما مرده الى ميراثه الشعرى والى معطيات بيئته أكثر مما يعود الى شيء آخر ، ومن ثم فان تلك المؤثرات المختلفة التي تم بها في فصل سابق تعليل ما تحكم في عناصر أسلوبه من ظواهر ، انما هي ذاتها التي لونت صوره بأصباغها وشيا قها ، ويأتي في مقدمتها : بيئته الطبيعية بما تتسم به من بساطة ووضوح ورتابة ، ونشأته الدينية في بيئة اجتماعية محافظة ، وانضمامه المبكر الى الحركة الاصلاحية ، واندماجه على طريقها في الاحداث الوطنية ، ونوعية ثقافته التي رأينا أنها في معظمها تقليدية جادة تغذى العقل أكثر مما تثير العاطفة ، وتصقل الذهن أكثر مما تهيج الانفعال .

---

(1) ينظر د . عزالدين اسماعيل (الأدب وفنونه) ص : 122 .
(2) ينظر د . محمد ناصر (الشعر الجزائرى الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية) ص : 492 .

وكان من أهم سمات هذه الثقافة ، الاعتزاز بالتراث والحرص على صيانته ، وكانت نزعة المحافظة هذه ، من أبرز الظواهر النفسية في حياة الجزائريين يومئذ ، وهي تعني — في جملة ما تعنيه — شدة الارتباط بالقديم والمحافظة عليه في العقيدة وفي اللغة ، في الأدب وفي السلوك العام ، والوقوف في الوقت نفسه موقف الحيطة والحذر من الثقافة الغازية التي كان أهلها يفرضون حصارا على الجزائريين لمنعهم من الوصول الى مصادر الثقافة العربية الاسلامية من جهة ، ووضع شتى العراقيل أمامهم من جهة ثانية ، للحيلولة بينهم وبين الافادة الحقة من التجارب الانسانية الحديثة .

وقد ترتب على هذا المناخ الثقافي الخاص الذى ساد المجتمع الجزائرى حقبة من الزمن ، أثره في ارتباط مفهوم الشعراء الجزائريين للعمل الشعرى بالمفهوم التقليدي . .

ان كل هذه العوامل التي خضع لها الشاعر في تكوينه النفسي والفكرى والاجتماعي كانت على رأسها حد من حركته ورسم له حدود الدائرة التي يحسن أن يراعيها في الفكر وفي الفن .

لقد أدت بالشاعر هذه الظروف المختلفة التي نبت في ظلها وتغذى من معطياتها أن وجد نفسه الى جانب شعبه يسهم في نهضته ويواكب تطورات قضيته ويضطلع بهذه الرسالة في عدة ميادين : ينهض بها كمرب يسهر على تثقيف الجيل ، وكداعية يبشر بالفكرة الاصلاحية ، وكشاعر يحدو أمته على طريق الجهاد ، وينير السبيل أمامها نحو المستقبل .

وقد جعلته هذه المهام المنوطة بكاهله ، مربوطا بواقع وبأحداث ومعنيا بالتعبير عن حقائق متصلة بحياة مجتمع تشيع في معظم افراده الأمية وينعدم فيه الاستقرار ، ويهدد كيانه الخطر .

لقد استوجبت هذه الأوضاع التاريخية من الشاعر أن يراعيها في عمله الفني وأن تجعل غايته الأولى فيه هي المساهمة فيما يساعد هذا الجمهور على وعي واقعه والنهوض به (القيمة التبليغية) أكثر مما يحرص فيه على اثارته وامتاعه (القيمة الجمالية) .

واذن فان هذه المؤثرات مجتمعة ، بيئة الشاعر وثقافته ، وطبيعة الدور الذى كان يضطلع به في المجتمع ، ومفهومه لوظيفة الشعر ، ان كل هذه العوامل قد جعلت الشاعر ينظر الى الحياة من حوله برؤية واقعية ثم يحاول أن يصور ها تصويرا لا يعنى فيه برسم المشاهد والأطر الفنية ، وانما يكتفي فيه باللقطة السريعة ، واللمحة الخاطفة ، والاشارة القريبة ، ذلك أن سرعة الأحداث الجارية من حوله لم تمكنه من سبر أغوار الحياة والنفاذ الى أعماقها ، ولم تتح له أكثر من أن يتلمس بسرعة ظواهرها من الخارج بما طبع ألوان تصويره ، كما طبع تعبيره من قبل بالسمات التي رأيناها احتذاء القديم ، وميل الى الوضوح والتحديد ، وقرب المأخذ ، وندرة في المشاهد والأطر .

ويبدو أن الشاعر كان مقتنعا بهذا المنهج ، ومن يدرى؟ فلعله كان يعتقد أنه لو سلك غيره في فنه لما استطاع أن ينجح في الرسالة المنوطة به ، لادراكه بأن لكل بيئة وسائلها الفنية الملائمة لأهدافها ، وأن لكل ناس في كل زمان ومكان طابعهم الفني المعبر عن حاجاتهم ، وقد نصّ كثير من الدارسين على هذه الصلة القائمة بين المبدع وبين بيئته ، فقد علق الشاعر ابن الرومي على تشبيهات (ابن المعتز) بأنه (انما يصف ماعون بيته)[1]، وفي ضوء هذه العلاقة ، علل بعض الباحثين ضعف ملكة الخيال في الأدب العربي بوجه عام[2] بمقارنته مع آدات الأمم الأخرى .

ويمكن القول أن الشاعر باتهاجه ذلك المنهج في فنه ، قد يكون خسر بعض ما يتوفر عليه الفن من جمال وروعة وجلال ، ولكن الذى لاشك فيه أنه لم يخسر رسالته التي وطن نفسه على القيام بها بتسخيره فنه لخدمة قضايا أمته وانارة الطريق من أمامها نحو أهدافها .

ولا يخفى أن هذه هي الغاية التي كرّس الشاعر حياته للنهوض بها وكانت أثيرة لديه على أية غاية أخرى ، كما لمسنا ذلك في مواطن كثيرة من شعره المدروس .

واذا كان من حق الناقد أن يحاسب الشاعر على ما يكون قد نجم عن اهتمامه بتلك الرسالة من قصور فني قد ينال من قيمة شعره الجمالية ، فانه من الحرى بهذا الناقد في الوقت ذاته أن يراعى قبل أن يصدر حكمه على نتاج أى أديب ، الظروف الموضوعية التي كان يتحرك في ظلها هذا الأديب ، وما يترتب على ذلك من آثارها في فنه ، اذ ليس من الطبيعي ولا من المنطقي فني ضوء ما تقدم من علاقة التأثر والتأثير ما بين المبدع وبيئته ، أن نخضع فنّ الشاعر الى مقاييس نقدية غريبة عن عصره وعن مجتمعه وعن ذوق قومه ، وأن نصدر حكما على فنه من دون أن نأخذ بعين الاعتبار في ذلك الحكم ملابسات بيئته وأوضاع مجتمعه . ولا مجال للشك من أن الشاعر كان يعي دور الخيال المبدع في نقل تجربة الأديب الى المتلقين ، ولكنه كان مع ذلك يؤثر في صوره الوضوح واليسر حتى يلائم بذلك بين تجربته وبين عناصر فنه ، وهو يعبر بذلك عن حسن ادراكه للطريقة التي يحسن أن يستخدم بها الخيال في العملية الشعرية . . وذلك بأن لا يلجأ اليه الأديب الا بمقدار ما يساعده على أداء غرضه وأن يكون ذلك الغرض ذاته قد تطلبه . ولا يستبعد أن يكون وقوف الشاعر على هذه الحقيقة هو الذى جعله يؤثر في خياله ما يوضحه وما يقربه ، ويحرص على أن لا يبعد فيه وأن لا يغرب ، الأمر الذى يفسر لنا ندرة مختلف ألوان المبالغات في شعره بوجه عام ، وبالرغم مما اتصفت به بعض

---

(1) ينظر أحمد حسن الباقوري (أثر القرآن الكريم في اللغة العربية) ص: 80 ومابعدها .
(2) ينظر أحمد أمين (النقد الأدبي ج 1 : 46 وينظر د. شوقي ضيف (دراسات في الشعر العربي المعاصر) ص : 229 .

صور الشاعر من تقليد وجفاف[1] ، فانه تسامى في معظمهـا عن بعض مظاهر الضعف والاسفاف .

واذا كانت بيئتـه وثقافته وظروف مجتمعه لم ترفده ليسمو بصوره الى المستوى الفني الرائع ، الذى بلغت اليه الصورة الشعرية على أيدى بعض الشعراء المبدعين في العصر الحديث ، فحسبـه أنه لم يبخل على متذوقـي شعره ، بما طفح به من صدق التجربـة وشرف الغاية وسلامة التعبير وصفاء الأسلوب .

وينبغي أن لا يفهم من هذا الكلام أن هذا النتاج الذى ندرسه قد خلا من بعض وجوه الجمال الفني . . وأن الدراس يعـدم فيه ما يشبـع بعض حاجته الفنيـة مما يحتوى عليه الفن الشعرى في الغالب من جمال وجلال . وانما الذى يحسن قوله في هذا المجال ، أن قارئ هذا الشعر يمكنه أن يضع يده في كثير من الأعمال المعالجة على جملة من الصور الموحية النابضة بالحركة والحياة التي استطاع الشاعر أن يفصح بها عن أحاسيسه وأفكاره ، وأن يحرك نفوس المتلقين للانفعال بها في الوقت ذاته .

ويأتي في مقدمة ذلك ما حرص على توظيفه في هذا الشعر من الصور والرموز الدينية التي أضفت على خياله في كثير من المواقـف طابعـا من الحيوية والحركة والجمال .

وقد سبق أن ألمعنا الى افادة الشاعر من القرآن الكريم في ألوان تصويره وطرائـق تعبيره في أكثر من مكان في هذه الرسالة ، وليس من المقصود بهذا الحديث العودة الى ذلك ، كما أنه ليس من مطلبنا دراسة هذا الجانب دراسة مستفيضـة يكون من شأنها استقراء هذه الظاهرة ، واستيعا ب جميع بساتهـا . وانما قصارى ما نسعى اليه في هذه الكلمة ، أن نحلل لظاهرة افادة الشاعر من القرآن الكريم ، وأن نرصد بعض مظاهر تطورها وأ ن نناقش بعض الآراء المتعلقة بهـا .

لقد مرّ معنا أن أهم ما يميز ثقافة الشاعر ، أنها تقوم في أساسها على التراث العربي الاسلامي ، ويأتي في مقدمة ما تمرس به الشاعر من هذا التراث ، القرآن الكريم والحديـث الشريف ، فقد رأينا أنه حفظ القرآن في وقت مبكـر ، وظل قريبا منه مواظبا على مدارستـه معلما ومتعلما ، واستمرت صلته به على هذا النحو ، ثم ازدادت قوة بوجه خاص في أواخـر أيامه للحياة الروحية التي تفرغ اليها بكليتـه في هذه الفترة . ولا شك أن يكون لهـذه الصلة مفعولها الكبير على عقله وقلبه ، ولعل احساسه بقوة هذا الأثر في نفسه هو الذى جعله لا يكاد يقر بوقوعـه تحت مؤثر ثقافي آخـر غير (كتـب اللـه) كما جاء ذلـك في هذه الأبيـات :

---

(1) ينظر د . أبو القاسم سعد الله (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى الحديث) ص : 237 .

يقولون هل لقيت في الكتب باحثا	فقلت لهم لم أقف آثار كاتب
وعفت فلم أشرب من الكأس فضلة	يزاحمني في رشفها ألف شارب
فحولي كتب الله من كل شارق	تزودني علما من كل غارب
غنيت بها عن كل درس معذب	وعن كل بحث في المراجع ناصب (1)

وان كنا لا نسلم للشاعر بما يزعم ، ولا نظن أنه لم يتأثر بغير (كتب الله) من مصنفات التراث العربي والفكر الاسلامي ، فان الذى لا وجه للشك فيه أن تأثره بكلام الله كان أكبر من كل تأثير عليه ، للصلة التي رأيناها قائمة بين الشاعر وبينه .

ويؤكد هذه الحقيقة أن قارئ شعره لايكاد يعثر فيه على عمل من أعماله يخلو من ظل من ظلال هذا الكتاب ، في معناه أو في مبناه . وليس ذلك بالأمر الغريب في نتاج شاعر كانت علاقته بالكتاب المنزل على النحو الذى وصفنا ، الأمر الذى فتح أمامه الباب على مصراعيه لينهل من روح القرآن ويستمد من بيانه المعجز مايوشح به خياله ويرصع به صوره ورموزه . وتبدو هذه الظاهرة في شعر الشاعر من الوفرة والوضوح حتى لتوشك أن تطالع الدارس في سائر أغراضه وفي جميع مراحله ، وان كانت في شعره الاسلامي أكثر بروزا منها في غيره لطبيعة الاهتمامات والموضوعات المعالجة في هذا الغرض .

ولا يخفى أن العاطفة الدينية كانت وما تزال تحظى بمكانة مرموقة في نفوس معظم أفراد الأمة .وكان الشاعر يعي هذه الظاهرة ، فعمد لذلك الى استيحاء بعض معانيه وأساليبه من القرآن الكريم مستعينا بذلك على التمكين لأفكاره ومشاعره في قلوب المتلقين على التسليم .

ولا شك أن هذا الذى نذهب اليه لايساعد بما ذهب اليه بعض الدارسين من أن هذه الظاهرة في نتاج الشعراء الجزائريين انما تعبر عن ضعف في قدراتهم الفنية ، وتعكس جانبا سلبيا من امكانياتهم اللغوية (2).

ويمكن أن نقر ذلك الباحث على ما يراه لو كان الدافع الذى يحرك أولئك الشعراء الى ذلك الاقتباس لايتعدى حدود الرغبة في المحاكاة والافادة الحرفية من النصوص القرآنية ، دونما مطمح آخر يهدف اليه من ذلك كهذا الذى رأيناه يكمن وراء هذه الظاهرة في نتاج محمد العيد ، ونراه يحفزه على توشية شعره ببعض صور القرآن ورموزه ، لا لضعف أو لمجرد رغبة في الاقتباس ـ كما كان الحال عند معظم شعراء عصر الضعف ـ

---

(1) من مقطوعة بعنوان (يقولون .. فقلت)
نشرت في البصائر العدد : 101 ـ 24 ذى الحجة 1356 هـ / 25 فيفرى 1938م، وهي من شعره المجهول ، ينظر الملحق

(2) د . أحمد شرفي (الشعر الوطني الجزائرى) ص : 226 .

وانما من أجل أن يثير في نفوس جمهوره بعض ما توحي به صور القرآن ورموزه من أجواء نفسية ، وقد حالفه النجاح في بلوغ هذه الغاية في نماذج عديدة من شعره ، الأمر الذى لفت انتباه الدارسين اليه فاكتفى بعضهم بتقريره (1) ، وحكم له بعضهم بالتفوق فيه على كثير من الشعراء (2) . ولا غرو أن يحقق الشاعر ذلك وهو ينطلق في هذه الظاهرة من ذاته ، ومن ظروف مجتمعه ، أكثر من أن ينطلق فيها من أى شيء آخر . لقد عرفنا من سيرته أنه كان مواظبا على تلاوة المصحف الشريف ، ولا يستبعد أن يكون في كثير من الأحيان مستغرقا في تدبره واذا بماتف الشعر يعتريه فيعمد الى نظم المقطوعة أو القصيدة وتكون أساليب القرآن وصوره ما تزال عالقة بذهنه تسحر خياله ببيانها ، وتفعل فعلها في وجدانه ، فلم تلبث أن تجد طريقها الى النور على الصورة الشعرية في العمل الذى يكون بصدد تركيبه .

ولا يمكن أن يختلف اثنان في أن تمرس الأديب ، بنمط من أنماط المعرفة الانسانية قد يترك بصماته في عقله الواعي والباطن ، ثم يطفو على نتاجه في طرائق التعبير وفي ألوان التصوير .

وقد رأينا أن ثقافة الشاعر اللغوية والأدبية ، قد ساعدت على طبع وجوه الصياغة في شعره الاسلامي بسمات الوضوح والمباشرة والتقرير ، فكذلك كان لمطالعاته الدينية مثل هذا الفعل في تلوين شعره ، لغة وأساليب وصورا ، بألوانها وشياتها .

ويمكن القول أن هذه الظاهرة كانت في بداية الأمر احساسا داخليا في نفس الشاعر ثم فاضت منها الى أسلوبه ، فكانت بذلك معلما من معالم صدقه وأصالته . ومما يزيد في تأكيد ما نذهب اليه أن هذه الظاهرة قد بلغت ، في شعره درجة عالية من الوضوح ومن الشمول لم يرق اليها — في حدود ما نعلم — من كان ينهض الى جانبه برسالة الشعر في الجزائر . ولو كانت تلك الظاهرة ، كما يزعم بعض الباحثين ، مظهرا من مظاهر التقليد والمحاكاة فحسب ، ولم تكن نتيجة من نتائج العامل الشخصي والمزاج الخاص لشاركه في تلك الدرجة أولئك الشعراء .

الا أن الشاعر لم يستطع مع ذلك أن يفيد افادة كبيرة مما يزخر به الكتاب المعجز من طاقات تعبيرية وشحنات تصويرية هائلة كان يمكن أن تسمو بفنه الى درجة أعلى ، ولعل مرد ذلك لما خضع له من عوامل ومؤثرات ذاتية وموضوعية جعلته يكتفي من ذلك بما يلائم مدارك جمهوره ويفي بأغراضه ، ويتماشى مع منهجه الفني العام .

---

(1) ينظر د . سعد الله (محمد العيد آل خليفة . .) ص : 261 .

(2) ينظر شلتاغ عبود شراد (أثر القرآن في شعر محمد العيد) الأصالة العدد : 60 — 61 — أوت — سبتمبر 1978 ، ص : 235 .

ومهما يكن من أمر ، فان الذي يلفت النظر اليه من وجوه هذه الافادة أنها جاءت متنوعة ، فكانت صورا وكانت رموزا ، ثم تنوعت هذه الأخيرة فكان منها الرمز اللغوي ، والرمز الموضوعي .

ويتكون الأول من ألفاظ ذات دلالة لغوية ثم يمنحها النسق القرآني دلالات أخرى ايحائية ، وبهذه الدلالة الأخيرة يوظف الشاعر هذه الكلمات في بعض شعره ، كما رأينا ذلك في غير ما موضع من هذه الرسالة .

وأما النمط الثاني فتمثله الأعلام القرآنية ، وقد وظف الشاعر بعض هذه الأعلام للغرض ذاته الذي استهدفه في صوره الدينية ، واستطاع بتلك الطريقة أن يثير في نفوس المتلقين بعض ما ترمز اليه تلك الأعلام من ايحاءات ودلالات نفسية مختلفة ، كما لمحنا ذلك في كثير من نماذجه المدروسة ، وكان الشاعر يستخدم الى جانب هذه الأعلام ، بعض الأعلام الأخرى .

وكان ذلك قد لفت نظر بعض الدارسين اليه ، فتناول هذه الظاهرة في شعره عموما ، ولم يتطرق بشيء ذي بال الى طريقته في توظيف الأعلام القرآنية ، مما أتاح له أن يلحظ بعض مظاهر الضعف في جانب من جوانب هذه الظاهرة ، ويغفل في الوقت ذاته ما استطاع الشاعر أن يحققه من مستوى فني في جانبها المقابل . وترتب على ذلك أن مال هذا الباحث الى أن الشاعر كان يلجأ الى استخدام الأعلام في شعره بدافع اظهار البراعة اللغوية وحرصه على الاغراب ، ونحو ذلك ، مما تسبب — حسب رأيه — في مجيئها حشوا في شعره ، مخلة بالانسجام والايقاع الموسيقي في البيت ، وخالية في الوقت ذاته من أية دلالة نفسية صادقة (1).

وواضح أن هذا الدارس لم ينصف الشاعر في هذا الحكم العام الذي يمكن أن تنطبق بعض جوانبه على بعض أعلام الشاعر ، ولكنه ليس من اليسير سحبه على سائرها . ويكفي للتدليل على ذلك أن نستعرض النموذج نفسه الذي استشهد به ذلك الباحث في هذا المجال ، وهو مجموعة أبيات مقتبسة من قصيدة كان الشاعر قد نظمها في تحية رجل فرنسي اعتنق الاسلام ، يدعى (بسنوا) (2) ، ومما جاء فيها مخاطبا ذلك الرجل قوله :

---

(1) ينظر د . سعد الله (محمد العيد آل خليفة . .) ص : 226 .

(2) أعلن اسلامه يوم 20 فيفري 1953 في مسجد باريس . وأصبح من ذلك اليوم يسمى (علي سليمان) .

ينظر محمد الهادي الحسني (لماذا اعتنقت الاسلام ؟) جريدة الشعب 23 محرم 1400 هـ / ديسمبر 1979م .

بمرتك (ظاهرة)[1] بدت من (مالك)[2] فجلت دجاك ببرقها البسام
فالحق (ايتان)[3] و(جوسو)[4] رفعة وكرامة واخلد على الأيام
(سلمان)[5] فاق الفرس أجمعهم به و (صهيب)[6] فاز به على الاروام
و(بلال) ساد به على الاحباش ما دوى الأذان بمطرب الأنغام (7)

نلحظ أن الشاعر علي في هذه الأبيات بذكر بعض الشخصيات القديمة والحديثة التي سبقت (بنوا) على هذا الطريق الذى سار فيه . فذكر من القدامى (سلمان الفارسي) و (صهيب الرومي) و (بلال الحبشي) ، هؤلاء الصحابة رضوان الله عنهم الذين لم يكونوا قبل اسلامهم شيئا كبيرا ، ولما شرح الله صدرهم للاسلام واعتنقوه ، أصبحوا بفضل ذلك يتسنمون مقاما رفيعا في سجل التاريخ الاسلامي والعالمي على السواء . وأردف الشاعر هؤلاء بذكر اثنين من الفرنسيين من رجال العصر الحديث ، اعتنقا الاسلام وهما (ايتيان) و (جوسو) ، مشيدا بما أمسيا عليه من مكانة مرموقة بفضل اسلامهما .

ولا يخفى أن هؤلاء الأعلام جميعا ذووا رحم قوية بالموضوع المعالج . وما أظن أن توظيف الشاعر لهم في هذا العمل ، يمكن اعتباره من قبيل الحشو وانما كان في بابه وفي محله ، تستدعيه الحاجة ويقتضيه الهدف الذى كان يتوخاه الشاعر من خلال هذا العمل . فقد كان يرمي ولا شك الى اشاعة الثقة في نفس هذا المسلم الجديد والرفع من معنوياته وتثبيت قلبه وسلوكه على الايمان والاسلام ، وتشجيعه وتشجيع من يقتفي أثره على ذلك السبيل ، فعمد بذلك الى رسم صورة أمامه وأمام غيره ، ترمز الى العاقبة الحسنة والنتيجة الطيبة التي انتهى اليها من كان قد سبقه على هذا الدرب .

---

(1) يقصد كتاب (الظاهرة القرآنية) .
(2) هو صاحب الكتاب الآنف الذكر ، مالك بن الحاج عمر بن نبي . ولد في قسنطينة سنة 1905 ، ثم انتقلت أسرته الى مدينة (تبسة) . درس في الجزائر وفي فرنسا حيث تخرج مهندسا في الكهرباء . ثم اشتغل من بعد بمشكلات الحضارة الانسانية وبقضايا العالم العربي الاسلامي المعاصر . وصدرت له في هذا المجال مجموعة من المؤلفات ، من بينها (وجهة العالم الاسلامي ـ مشكلة الثقافة ـ شروط النهضة) توفي عام 1973 بالجزائر العاصمة .
(3) هو ايتيان ناصر الدين فرنسي أسلم . عاش في مدينة بوسعادة بالجزائر . توفي 1930م .
(4) جاء في ديوان الشاعر ص : 214 ـ أن اسمه عبدالكريم جوسو ، فرنسي الأصل .
(5) هو سلمان الفارسي ، كان من فضلاء الصحابة ، وأصله من أصبهان ، كان الى جانب الرسول (ص) في غزوة الخندق توفي 34 هـ .
(6) هو صهيب بن سنان الرومي صحابي جليل توفي 38 هـ .
(7) الديوان ، ص : 214 .

فسلمان (فاق) الفرس باسلامه ، وصهيب (فاز) بذلك على الاُروام ، وبلال (ساد) على الاُحباش باعتناقه الدين الجديد و (ايتيان) و (جوتسو) نالا الرفعة بــه . وبهذه الخطوة نفسها سيفوز (بفوا) ويخلد ذكره مع هوءلاء الخالديــن .

كما يمكن أن يلحظ من نحو آخر أن هذه الاُعلام المذكورة (سلمان وصهيب وبلال) لم تكن نابيــة ولا ثقيلة ، وانما كانت رقيقة ذات ايقاع موسيقي خفيف .. وحتى ذالكما العلمان (ايتيــان وجوتسو) فلم يأتيا بالرغم من كونهما اسمين اعجميين ، نابيــين في موضعهما ، وانما جاءا منسجمين مع ما يجاورهما في البيت من ألفاظ وتراكيب .

وبعد فعسى أن نكون بهذه الالمامة قد استطعنا أن نرسم بعض الملامح مع جوانب افادة الشاعر في أساليبه وصوره ، من بيان القرآن الكريم ، وأن نبين في الوقت نفســه بعض الدوافع التي كانت تحركه في ذلك ، وبعض الخطوات التي حققها على طريــق توظيفــه لتلك الافادة على اختلاف أنماطهـــا ، توظيفـــا فنيا هادفـــا . وان آخر مـــا يمكن أن نستخلصــه من حديثنـــا في هذه الفقــرة ، ونحن نأتي على نهاية هذا الفصل ، هذه الملاحـــظ :

1 ــ ان الذى جاء في هذا الفصل من حديث حول خيال الشاعر ، لا ينجر على ما درسناه من نماذج شعره في هذا الفصل وحسب ، وانما ينطبق على معظم ما دار حوله النقاش من نتاج في هذه الرسالة ، دون أن نقصـــد من ذلك بطبيعة الحال تقييم تصويـــره في سائر أغراض شعره ، لأنّ اطلاق مثل ذلك الحكم العام على ظاهرة من الظواهـــر الفنيــة في شعر أحد الشعراء ، انما لا يتأتى الا لمن قام باستقراء نتاج ذلك الشاعر في جميـــع موضوعاتـــه .

2 ــ ان تلك الخصائص التي رأينا ملكة الخيال لدى الشاعر تتسم بها ليست مقصـــورة عليه وحده وانما يمكن اعتبار قدر كبير منها ، قاسما مشتركا بينه وبين معظم شعراء مدرسته في بعض أغراضهم [1] ، بالرغم من أن بعض هوءلاء كشوقي الذى أتيح له ما لم يتح للشاعر ، من أسباب الاطلاع على التجارب الاُدبية الحديثة ، ومع ذلك فانه لم يستطـــع أن يطور شعره بالقدر الــلازم الذى يجنبــه ثورة بعض النقـــاد عليه بسبـــب ما تواضع عليـــه في بناء تجربتـــه الشعريـــة من طرائـــق وأساليـــب [2] .

---

(1) ينظر د . محمد ناصر (الشعر الجزائرى الحديث اتجاهاته وخصائصــه الفنية) ص : 357 .

(2) ينظر د . عزالدين اسماعيل (الاُدب وفنونه) ص : 139 وما بعدها . وأما موقف جماعة الديوان من فنّ شوقي فشائع ومبثوث في أكثر من مصدر .

3 — ونلمس أخيرا أن الأثر الديني يبرز بصورة جلية في جانب كبير من طرائق التعبير وألوان التصوير في معظم النماذج الشعرية التي تعود الى المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر ، ومرد ذلك — فيما يبدو — الى ما أسلم له الشاعر عقله وقلبه في هذه الأثناء من حياة روحية خالصة لم يرق الى درجتها في أية مرحلة سابقة من حياته .

الخاتمة

فتح الشاعر محمد العيد عينيه في وسط ديني ... وتثقف بثقافة عربية اسلامية، وترعرع في مجتمع محافظ، فاصطلح على تكوينه النفسي والفكري في هذه البيئة منذ طفولته الصوفية والاصلاح. فظل طوال حياته تحت هذا التأثير المزدوج يعب من هذا وينهل من تلك. وكان لحسن تدينه لا يرى ما قد يتراءى لغيره في هذين النزعتين من مظاهر التناقض، وانما كان يراهما -كما هما على حقيقتهما- مشربين متكاملين.

ومن مكان يقع في نقطة الوسط ما بين هذين القطبين: الاصلاح والصوفية. خطا الشاعر بحماس وأمل كبيرين خطواته الأولى نحو معترك الحياة، فكان من أوائل الذين أسهموا في دفع الأمة على طريق النهضة، الا أنه لم يلبث وهو الشاعر المرهف الاحساس أن اصطدم بآثار المأساة التي يعيشها المجتمع الذي يحيا فيه. فأدى به ذلك وهو ما يزال غض التجربة طري العود الى شيء من القلق والحيرة، لم يشفه من علتيهما الا انتقاله الى الجزائر العاصمة ومساهمته في انطلاقة الحركة الاصلاحية، انطلاقتها النظامية في أوائل الثلاثينات. وقد رأى في هذه الحركة المنقذ الذي سيساعد الأمة على اقالتها من العثرة، وتخليصها من المحنة، فدفعه ذلك الشعور بقوة وبسرعة الى ما استهل به حياته من جهاد وتطلعات. فمضى يحدو قافلة النهضة ويحث على النضال ويبشر بالمستقبل. وظل على هذا الطريق حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية فشهدت الحركة الوطنية بجميع مظاهرها بعض الانكماش والفتور، فأصاب الشاعر كما أصاب غيره بعض ذلك، فركن الى شيء من العزلة والصمت.

ويوم أن استأنفت تلك الحركة مسيرتها في أعقاب تلك الحرب استجمع الشاعر قواه ورجع الى الميدان الا أن حماسه في هذه الفترة لم يكن على شدته التي كان عليها قبلها. وهو أمر طبيعي نجم عمّا أصابه من نضج، بانتقاله من طور الشباب الى طور الكهولة، وعمّا طرأ على أساليب الكفاح الوطني في تلك الآونة من تطور، لم يلبث أن ظهرت نتائجه في اقدام الشعب الجزائري على تفجير ثورته الخالدة في الفاتح من نوفمبر 1954. ودخل الشاعر على إثر ذلك في شبه عزلة تامة لم يصلنا من النتاج الذي يمكن أن يكون قد نظمه أثناء هذه الفترة الا نزر قليل.

وتكاد أن تكون تلك الظاهرة عامة شملت بآثارها سائر الشعراء الجزائريين باستثناء من كان منهم خارج حدود الوطن، بعيدا عن الجحيم الذي كان الشعب الجزائري يصلى ناره طوال سنوات الحرب التحريرية.

ولما جاء الاستقلال حاول الشاعر أن يجدد صلته بالناس وبالحياة ، وأقدم على ذلك بحماس ونشاط ملحوظين ، الا أنه سرعان ما وضع حدا لذلك بتأثير عدة عوامل ، وانسحب من الميدان موليا وجهه شطر ما ألفه طوال أعوام خلوته من حياة روحية كانت جذورها نابتة في أعماقه . وهي لون من ألوان السّلوك التعبدى الفردى الذى يستهدى فيه صاحبه بنور كتاب الله وسنة رسوله وآثار السلف الصالح ، ولا يهدف .. أكثر من محاسبة النفس وتزكيتها والتقرب الى الله بخالص العبادة وصادق الأعمال ، دون أن يتجاوز ذلك الى غيره من مظاهر التصوف الفلسفي الذى تتحكم فيه بعض النظريات المختلفة .

وقد أمدت الشاعر جملة من المؤثرات الاجتماعية والفكرية التي خضع لها في بيئته بمفهوم سليم للإسلام مكنه من الوقوف على حقيقة هذا الدين بوصفه منهجا سلوكيا يتصل بالناس في حياتهم الروحية ، وفي واقعهم المادى ، في نشاطاتهم الفردية المحدودة وفي اهتماماتهم الاجتماعية والانسانية الواسعة .

وكان هذا المفهوم هو المنطلق الذى انطلق منه الشاعر في شعره الاسلامي ، فانعكس ذلك على اهتمامه فيه ، فكان العالم الذى يستولي على عنايته ويشغل باله فيه هو عالم الوطن ، وعالم الأمة ، وكل ما يتصل بهما ويتفرع عنهما من قيم ومقومات وقضايا .

وكان يؤمن من أن النهوض بهذه الرسالة انما يحسن أن يكون الشروع فيه من الأساس ، وذلك ببناء الشخصية الفردية والاجتماعية للأمة بناء روحيا وماديا ، يقوم بداءة على التمكين للعقيدة الدينية في النفوس ، ولفت النظر الى ما تقوم عليه من طاقات ، وما تدعو اليه من فضائل وقيم ، وما تحض على اجتنابه من آفات ، وما تحث على الأخذ به من أسباب العلم والعمل والاقبال على الحياة ، والانفتاح على الحاضر والاندماج في أحداثه ، والجهاد من أجل تحسينه والارتقاء به ، والافادة من كل ذلك في النهوض بالأمة وتحريرها .

وقد يسرت هذه الرؤية السليمة للشاعر الطريق أمامه الى الاندماج في الواقع فانغمس فيه ، فأتاح له ذلك بأن يحس بعمق ما يجابه شعبه من تحديات استهدفت النيل من عقيدته ومن مختلف مقومات شخصيته ، فدفعه ذلك الى تسخير كل طاقاته الابداعية للدفاع عن كيان أمته وهويتها ، فربط بذلك بين اهتماماته في هذا الشعر ، وبين الشعور الديني العام ، بما سمح له أن يسد فراغا ويلبي حاجة كانت من أشد الحاجات الحاحا في البيئة الجزائرية

يومئـذ ، فجاء شعـره الاسلا مـي لذلك من أكثـر أغـرا ض شعره اندماجا في واقع الأمـة ، ومن أشدها تعبـيرا عن اهتماماتهـا وتطلعاتهـا .

لقد كان الشاعر يؤمن أن حاجة الأمة الى من يناضل من أصالتها ويحدوها على طريق الجهاد وطلب الحيـاة الحرة الكريمـة ، أكثـر من حاجتهـا الى من يعزف لها مختلف الألحان الراقصـة الحالمة تلك التي تعطل قواها وتلهيها عـن واقعهـا .

واستطاع بذلك أن يحرر هذا الغرض الشعرى مما كان يحد من امكانيات الابداع لدى معظم من سبقه من الشعراء الجزائريين . ويفقد نتاجهم الطاقة المؤثرة في حيـاة النا س باشغالهم فيه بأمور الغيبيـات ومراسـيم التجليـات . .

ان الشاعر لم يحن في نتاجه بشيء من ذلك ، وانمـا كان يتخذ من الحياة العامـة، ومن الصراع الدائر فيها بين الأمة وبين أعدائهـا ، محورا مركزيا أدار عليه معظـم معانيه ، دفاعـا عن العقيدة ، وذودا عن الشخصيـة وحثـا على الثـورة .

ففي مجال العقيدة عمل على التمكين لها في النفوس وفي السلوك ، والتصدى لدفع كيد المناوئـين لها على اختلاف ألوانهم من صليبـيين حاقدين ، وطرقيين خرافيـين . وأشاد في الوقت ذاته بجهود ومواقـف الذائدين عنها من علماء مستنـيرين ومصلحـين مخلصـين .

والتفـت الى المجتمع فوضع أيدى أفراده على أسباب نهوضهم وتحررهم بما حثهم عليه من تحل بالفضائل ، وأخذ بأسبا ب العلم ، واقبال على الحياة ، واعداد العدة من كل ذلـك لاسترداد الحق المغتصـب .

ولم يكن يقـف به اهتمامـه في هذا الشعر على حدود هذه الدائرة الصغيرة التي تحد محيط وطنه الصغير وحسب ، وانما كان ينظر فيه الى أبعد من ذلك ، فيعبر عن مشاركتـه الوجدانية لما تعيشـه أمته العربية الاسلا مية في دائرتهـا الكبـيرة ، ذودا عن مقومات شخصيتهـما ودفاعا عن قضاياها . وقد ركز في هذا المضمار بوجه خا ص علـى الاشادة باللغة العربية والمنافحـة عنها ، ومحاولة الكشف عن مآثر التاريـخ ولفت النظـر الى الافادة منها فيما يعين على النهوض بالحاضر والسمـو بـه .

وقد استطاع بذلك أن يسهم في مساعدة الأمة على وعي ذاتها واستعادة ثقتهـا بنفسهـا ، ورسم الطريق أمامها نحو أهدافهـا الكبرى ، فأضفى ذلك على نتاجه روحـا جديدة ، وطبعـه بطوابع مميزة لم تكن معهـودة في أشعـار معظـم من سبقه علـى هذا الطريـق في هـذه البـلا د .

وليس من غرضنا في هذه الخاتمة أن نعود الى ما بسطنا فيه القول من موضوعات ، وتطرقنا اليه بالدراسة والتحليل من قضايا ، كانت محاور للبحث في هذه الرسالة ، ولا من مقصدنا كذلك أن نسجل من جديد ما انتهى اليه البحث من ملاحظ ، وما وصل اليه من نتائج في صلب هذه الدراسة ، فان ذلك مبثوث في مظانه تلك ، وحسبنا من ذلك في هذه الكلمة أن نجمل فيها ما كان قد توزع في غيرها .

أولا : أشاد الشاعر بمحاسن الاسلام ، وأبان عن قدراته ، وحث على الاعتصام بتعاليمه ، وتصدى في الوقت ذاته للمناوئين له على اختلاف مشاربهم من متعصبين ، ومن مشعوذين . .

وقد تميز موقفه من الطائفة الأولى بتمركزه حول دفع اتهامات أصحابها ، والكشف عن زيف دعاويهم ، والابانة عن حقيقة الاسلام ، ولم يتجاوز فيه الى أكثر من ذلك ، كأن يجاريهم فيما انحدروا اليه من تعصب وحقد ، وانما قد أبدى على العكس من ذلك روحا من التسامح ، أبرزت بجلاء حقيقة الاسلام القائمة على نبذ التعصب والأهواء .

وقد سار على هذا المنهج في موقفه مع أصحاب الطائفة الثانية ، فاستهله بدعوة هؤلاء الى الاحتكام لكتاب الله وسنة رسوله ، وحثهم على استخدام عقولهم في النظر الى الدين ، وترك البدع فيه . ولم يخرج في ذلك عن منهج الاسلام في الدعوة القائمة على الحكمة والموعظة الحسنة والترغيب في الصلح والسلم .

وانتهى في هذا الموقف بمثل ما بدأه به من اعتدال وحكمة ، وان كان قد توسط ذلك شيء من الشدة في لهجته ، وبعض الصلابة في موقفه فان ذلك انما كان انعكاسا لمرحلة معينة ، لم تدم الا قليلا ، ومع ذلك فانه لم يبلغ موقفه في هذه الفترة ما بلغ اليه موقف غيره فيها من عنف وشدة .

وهو بهذا المسلك الذي هو جزء من منهجه العام في الحياة ، وثمرة من ثمرات شخصيته ، يتميز عن سائر الشعراء الجزائريين الذين تطرقوا الى هذا الموضوع ، سواء منهم أولئك الذين كانوا ضد الطرقيين ، أو أولئك الذين كانوا الى جانبهم .

ونخلص الى القول بأن الشاعر استطاع أن يعكس على الموقفين معا ما اتسمت به شخصيته من اعتدال ومسالمة ، وان كان من فرق ملاحظ بينهما فذلك ما يبدو في اقتضاب موقفه — لأسباب موضوعية — مع أصحاب الطائفة الأولى ، وطول نفسه في موقفه مع أصحاب الطائفة الثانية .

ثانيا : كان الشاعر ينطلق في حديثه عن الحركة الاصلاحية وعن قادتها من ذاته ، مندمجا فيما يتطرق اليه ، منفعلا به ، فأضفى ذلك على أعماله في هذا الباب طابع الخصوصية ، ودلّ في الوقت ذاته على صدق عواطفه فيهما .

وتميزت أُعماله التي أشاد فيها بجهود رجال هذه الحركة بالتركيز على ظاهرة الاقتداء بهم ، والتحلّي بما اتّسموا به وبرهنوا عنه من قوة الارادة في خدمة قضية الأُمة ، وصدق العزيمة في التضحية من أجل مقدساتها .

وتعكس هذه الأُشعار التي تكاد تغطي جميع مراحل حياة الشاعر (1925 — 1970) من جهة أخرى ظاهرة استمرارية وفائه لهذه الحركة وأعلامها .
وقد ترتب على هذا التباعد الزمني بين هذه الأُعمال نوع من التطور انعكس على بعض معانيها وبعض وجوه الصياغة بها .

ويمكن أن يميز في هذا الجانب مرحلتين اثنتين :

أ — تسبق المرحلة الأُولى الاستقلال وتتسم أشعارها بالتركيز على الاشادة بجهود أولئك الأُعلام في قيادة موكب النهضة ، والدفاع عن شخصية الأُمة ، وحقها في الحياة الحرة الكريمة .

ب — وتأتي المرحلة الثانية بعد الاستقلال ، ويتركز الاهتمام في أشعارها الى جانب تلك المعاني السابقة ، على ابراز مساهمة أولئك الروّاد في التمهيد للثورة التي توجت باسترداد الحق المغتصب .

ثالثا : كان الشاعر لوقوعه تحت جملة من المؤثرات السياسية والاجتماعية والثقافية ، يؤمن بوظيفة الشعر النضالية ، وبرسالة الشاعر في المجتمع ، فدفعه ذلك الى تسخير قسط كبير من نتاجه للسمو بالسلوك الفردي والاجتماعي للأُمة .

وقد تميز ذلك بجمعه في هذه الدعوة ما بين البناء الروحي والبناء المادي للشخصية ، وربطه فيها ما بين العلم والدين من جهة ، وبين العلم والأُخلاق من جهة ثانية ، وما بين الأُصالة والمعاصرة من جهة ثالثة .

وقد شمل بهذه الدعوة معظم فئات المجتمع ، الا أنه أولى عناية خاصة بالشباب ، قد لا يضارعه فيها الا قليل من زملائه .

كما التفت الى قضية المرأة بما ميّز موقفه منها بالانفتاح والاعتدال وبما قربه من نظرة المصلحين عامة في العالم الاسلامي ، الى هذا الموضوع . وقد استمر ينظر بهذا المنظار الى القضايا المعالجة ، ولم يطرأ على موقفه منها ، الا تطور خفيف ، لم يخرج فيه عن المبادئ الثابتة التي ظل يستهدي بها فيما يتناول من موضوعات ، طوال مراحل حياته .

رابعا : ترتب على مفهوم الشاعر لرسالة الفنان النضالية ، استعانته بما كان ينظم في مناسبات مختلفة على النهوض بتلك المقاصد الاجتماعية والوطنية التي كان يستهدفها من خلال تلك الرسالة الشعرية . فأضفى ذلك على نتاجه في هذا الباب مذاقا خاصا وطعما مميزا لما تمثله تلك المناسبات في حياة شعبه من جهة ، ولصدوره فيه عن انفعال صادق ومعاناة واعية لملابسات الواقع من جهة ثانية ، ولاستهدافه فيه من جهة ثالثة ، غايات اجتماعية وانسانية بعيدة عما كان يستغرق بعض الشعراء في مثل هذا النتاج من أغراض نفعية ومرام غيبية .

ان الشاعر فتح عينيه على مأساة أمته فأنساه ذلك همومه الذاتية ودفعه للاستغراق في هموم أمته ، فجاء شعره لذلك صورة من صور ذلك الواقع ، وسجلا صادقا لمختلف التطورات والأحداث التي مرت بها الأمة خلال حقبة طويلة من حياتها .

خامسا : لم يكن محمد العيد من الشعراء ذوي الأفق المحدود فيما يتناول من موضوعات فيحصر اهتمامه بما تعانيه أمته في حدود دائرة وطنه الصغير ، وانما كان يثور غضبا ، ويهتز طربا لما تمر به هذه الأمة في حاضرها ، وفي سائر أوطانها من ملمات ومن انتصارات .

وقد أوقف شعرا كثيرا في الذود عن مقوماتها الشخصية والتمكين لأسباب المحافظة عليها في نفوس قومه .

وقد عنى في هذا الاطار بخاصة باللغة العربية ، والتاريخ الاسلامي لصلتهما الوثيقة بالعقيدة الاسلامية .

وكان يمزج في حديثه عن هذين المقومين وعن غيرهما مما يتصل بهما ، ما بين العروبة والاسلام ، وكان أحيانا يميل الى هذا وأحيانا يميل الى تلك .

ويمكن القول أن النظرة الاسلامية كانت أوضح لديه من الرؤية العربية في المراحل الأولى من حياته ، ثم برزت لديه فيما بعد ، وبخاصة في أعقاب الاستقلال وضوح الأفكار القومية بمفهومها السياسي ، الا أن ذلك لم يكن من شأنه أن يقوى على غيره في نفس الشاعر ، فظل ينظر فيما حوله بتلك الرؤية المزدوجة الى آخر حياته .

سادسا : عني الشاعر بالشخصيات الاسلامية ، وعلى رأسهم الرسول (ص) لما في سيرته وسير أصحابه ومن اقتدى بهم وسار على نهجهم من ذلك العصر الى هذا العصر ، من دروس وعبر ..

وقد ركز في هذا الاطار بخاصة على ظاهرة القدوة والمثل ، فحث قومه أفرادا وجماعات على الاقتداء بمآثر عظماء أمتهم واحياء أمجادهم ، واستلهامها فيما ينير الطريق أمامهم للنهوض بحاضرهم والسمو بمستقبلهم .

سابعا : استطاع الشاعر أن يوائم ما بين مفهومه لرسالة الشعر النضالية الذى استلهمه من حاجات بيئته ، ومن ملابسات مجتمعه ، وبين أدواته الفنية التي اختارها عن وعي لتجسد ذلك المفهوم .

وهو وان لم يستطع — لحرصه على النهوض في شعره بتلك الرسالة — أن يبلغ من الناحية الفنية الى أبعد مما بلغ اليه ، فحسبه أنه كان يصدر في فله عن موقف يمكن القول أن التطابق فيه ما بين الأقوال والأفعال ، كان حقيقة واقعة .

فحقق بذلك أهم ما يميز الفن ، وهو سمة الصدق ، هذه التي يصعب العثور عليها في كثير من الأحيان ، لدى من كان يصدر في نتاجه عن دوافع المنفعة الخاصة ، والعواطف الزائفة .

ويلمس المتلقي الى جانب هذه الخاصية الساطعة في شعر الشاعر جملة أخرى من السمات تأتي على رأسها : الأصالة في الشخصية ، والاخلاص للمبادىء ، والوفاء للأمة ، وتلكم خصائص بارزة المعالم في شعر محمد العيد ، لا يقدر أن ينكرها عليه من اطلع على شعره ، وأطال النظر في حقائقه ، ووقف على أبعاده ومراميه . .

ثامنا : استطاع الشاعر بهذا المنهج الذى بنى عليه فنه أن يخطو بشعره الاسلامي خطوة ملحوظة على طريق تحريره ، مما أوشك أن يطغى عليه لدى من سبقه من اهتمامات غيبية . وتقريبه من واقع الأمة ، ومن تطلعاتها على طريق المستقبل . فتمكن بذلك أن يلفت نظر قومه الى تلك الصلة الحميمة القائمة ما بين دينهم وبين الحياة ، وأن يصور في الوقت نفسه الشعور الديني في الجزائر ، وما اكتنفه من ملابسات خلال ما ينيف عن نصف قرن من الزمن .

تاسعا : واذا كان من كلمة أخيرة يمكن قولها في هذه الخاتمة فتلك هي التوصية بجمع تراث الشاعر ، والقيام بتحقيقه تحقيقا علميا ، يتدارك فيه ما ظهر في طبعة ديوانه من وجوه الاخلال ، واخراجه على الناس في طبعة تكون أكثر دقة ، وأشد حيطة ، وأقرب ما تكون الى صورة شعره الأصلية ، خدمة لتراث الأمة ، ووفاء لمن أوقف حياته على الوفاء لهذه الأمة ، والاخلاص في خدمتها .

- الملحق
- ثبت المصادر والمراجع
- فهرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يشتمل هذا الملحق على ما عثرت عليه من نتاج الشاعر الذى لم يظهر في ديوانه المطبوع(1)، ويمتد محتواه على مساحة زمنية توشك أن تغطي جميع مراحل حياة الشاعر (1920ـ1974) .ويمكن بذلك أن نميز فيه من هذه الناحية ثلاثة أنواع :

نوع من بواكير أعمال الشاعر ، وآخر من التالية لها ، وثالث من آخر ما نظم .

وينقسم هذا النوع الاخير الى قسمين ،قسم كان الشاعر ينوى نشره مستقبلا كمطولته (من وحي الثورة والاستقلال) . وقسم نظمه بعد صدور ديوانه سنة 1967 م ، ولهذا السبب وذاك لم يظهر نتاج هذا الصنف فيما طبع من شعره . وبذلك فليس لنا من تعليق عليه ، وانما الذى نودّ أن نقول بشأنه كلمة هو نتاج النوعين المتقدمين .. فلم أغفل ذلك النتاج ؟ولم لم يدرج في ديوان الشاعر ؟

أيكون ذلك عن سهو وقع فيه المحققون ، أم يكون عن عمد منهم ، أم أن هذا وذاك لم يكن .. وانما الذى يمكن أن يكون قد وقع ، أن الشاعر هو الذى يكون أوعز للناشرين باغفال ما أغفلوا من شعره ؟

ونبادر الى القول بأنه من المستبعد أن تكون أيدى المحققين لم تستطع أن تطول الى مصادر ذلك النتاج ، كما أنه من غير المحتمل أن يكون أولئك المحققون قد وقفوا على ذلك الشعر وتعمدوا اغفاله بمبادرة من أنفسهم ، لأنهم يعرفون أن ذلك سيكون على حساب القيمة العلمية لما يودون النهوض به .

واذن فان الذى يمكن ترجيحه في تفسير هذه الظاهرة أن يكون الشاعر نفسه الذى كان يقف وراء ذلك لسبب من الاسباب ، ربما يكون من أهمها : احساسه بأن ذلك النتاج الذى أوحى بعدم نشره لم يعد يعكس وجهة نظره ، ولم يعد يمثل شخصيته لافكريا ولافنيا ، بعد الذى انتهى اليه من تطور ونضج على أيام طبع ديوانه .

ويرجح هذا التحليل أن معظم الشعر المغفل لايخرج في الغالب عن واحد من نوعين : فهو اما أن يكون من أعماله الاولى ، وهذه لاتبلغ في العادة الى ما تبلغ اليه الاعمال اللاحقة لكل أديب من نضج فكرى وفنّي .

---

(1) باستثناء مسرحيته الشعرية الوحيدة (بلال بن رباح) فاني آثرت أن لا أدمجها في هذا الشعر .وقد طبعت طبعة مستقلة سنة 1938 .

واما أن يعود بعضه الى آواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات ، وقد مرّ معنا أن الشاعر عرف في هذه الاوّلة بعض الفتور في حماسه واندفاعه ، وافتقد كثيرا مما كان يحركه في المراحل السابقة من الدوافع القوية الحافزة على النظم ، فغلب لذلك على نتاجه في هذه الفترة طابع المجاملات ، واتسم بعضه بغير قليل من الضعف الفني .

ونذكر أن اقدام الشعراء على اسقاط بعض أشعارهم لضعفها ظاهرة شائعة في تاريخ الشعر العربي ، وهي أكثر انتشارا بوجه خاص عند المحدثين الذين يتم نشر أعمالهم في فترة متأخرة من حياتهم ، فيكونو ن حينئذ قد وصلوا الى درجة ملحوظة من النضج في رؤيتهم الموضوعيـة والفنية ، فلم يسمح لهم ذلك بأن يتركوا أنتاجهم يطلع على الناس دونما ينظرون اليه من جديد نظرة فاحصة ناقدة ، فيؤدى بهم ذلك الى تنقيحـه واسقاط بعضه . وهذا ما حدث بالفعل للشاعر محمد العيد الذى طبع ديوانه وهو يبلغ من العمر ثلاثـا وستين سنـة[1] . وقد حدث ما يقرب من هذا للشاعر أحمد شوقي الذى ظهرت الطبعـة الأولى للجزء الرابع من (الشوقيات) بعد وفاته بحوالي عشر سنوات أى في سنة 1943[2] ، ثم ظهرت من بعد ذلك بمدة ، مجموعة أخرى من شعره المجهول (عرفت باسم (الشوقيات المجهولـة) [3] .

ومما يمكن أن يزيد في ترجيح ما نميل اليه في تعليل هذه الظاهرة ، ما قام بـه الشاعر نفسه من تعديل وتحوير شمل كثيرا من أعماله ، بحيث لم تبق على صورتها التـي ظهرت عليها أول ما ظهرت في الصحف ، ويبرز ذلك في أشكال شتى ، من بينها : اقدامه على تغيير معظم عناوين قصائده التي كانت في الأصل أشطار أبيات ، وفي تبديله كلمة بكلمة ، وجملة بجملة . وقد يصل ذلك الى درجة تحويره شطرا بكامله . . وقد يتجاوز ذلك الى حذف البيت أو الأبيـات .

وقد وقفنا عند هذه التعديلات في أكثر من مكان من هذه الرسالة ، وعللنا لهـا ولفتنـا النظر الى ما كان منها بخاصة متصلا بالأعمال المدروسـة .

وأما ما كان منها خارج ذلك الاطار فلم نشر اليه هناك ، ولم نر له مكانا هنا . .

ويمكن أن يكون له ذلك في طبعـة جديدة للديوان .

ونشير الى أن مادة هذا الملحق تـتوزع من حيث أشكالها وأطرها الفنية على ثلاثة أنماط هي : القصائد ، المقطوعات ، الأناشيـد .

---

(1) ولد الشاعر سنة 1904، وطبع ديوانه سنة 1967 .

(2) ينظر (الشوقيات) ج 4 : 4 — تحقيق محمد سعيد العريان .

(3) صنعة د . محمد صبري ، دار المسيرة — لبنان — 7 2 — 1399 هـ/ 1979م .

وأما من حيث موضوعاتها فهي متنوعة ، وقد حاولت — بالرغم مما نعرف من صعوبة توفر الوحدة الموضوعية في شعر الشاعر — أن أرتب هذه المادة ترتيبا محوريا ، فقسمتها الى وحدات موضوعية ، تضم كل وحدة منها مجموعة من الأعمال ذات الموضوعات الواحدة أو المتقاربة ، فكان من نتيجة ذلك هذه المحاور : اسلاميات ووطنيات — اخوانيات — متفرقات — خصوصيات — وأخيرا وحدة الأناشيد .

وقد عنيت الى جانب ذلك بترتيب هذه الأشعار داخل كل وحدة ترتيبا زمنيا . . فتحقق بذلك لها التنظيم الموضوعي والتاريخي في وقت واحد .

وقد حرصت على أن أرفق كل عمل بما أجد له من تعليق في المصادر التي وجدته فيها ، أو بما أمدني به من عثرت عليه عندهم . وآثرت أن يقتصر تدخلي — محافظة على الصورة الأصيلة لأعمال الشاعر — على تلك الحدود التي لا تتجاوز التوثيق الى غيره من وجوه التعليق ، تاركا ذلك الى وقت آخر .

وقد سميت هذا العمل ملحقا ، ولم أشأ أن أدعوه (الجزء الثاني) من ديوان الشاعر . لأني أفضل أن يدمج ما صنعته فيه مع الجزء المطبوع ، وينسق ذلك في وحدة تحقق تحقيقا علميا ، ثم تقسم بعد ذلك على ضوء تنظيم جديد ، يتدارك فيه ما رأينا في غير هذا المكان أن طبعة الديوان تفتقر اليه ، من طرف التحقيق السليم ، ومن وجوه الاخراج الجيد ، والتنظيم المحكم .

ولا أزعم أن هذا المصنف قد جمع كل نتاج الشاعر المجهول ، وما أرجحه بهذا الصدد أن تكون بقية منه قد بقيت . . فلعل البحث المتواصل يساعد الدارسين على الوصول الى مظانها ونشرها احياء لذكرى الشاعر وخدمة لتراث الأمة .

ولا يسعني في ختام هذه الكلمة الا أن أنوه بفضل من مدني بما عنده من نتاج الشاعر ومن وجهني الى مصدر من المصادر التي فيها شيء من ذلك ، والى كل هؤلاء جميعا تقديري وشكري .

محمد

اسلاميات ووطنيات

داعي النهوض (1)

قل للذين بحب زينب فاخروا … أقرانهم وتناولوا الكاسات
فغدا ألهم جمع المفاسد ناديا … يبدون فيه محاسن الفسادات
حيث الفواحش والموائق علقت … راياتها في سائر الأوقات
حيث المدامة بالفقاع كشكشت … ومناول الكاسات يصرخ هات
حيث المنادم والنديم تفاخرا … وتناولا المشرات بالعشرات
هذا بصد حبيبه يشكو الأسى … ويدافع الزفرات بالزفرات
يهمي الدموع تلهفا وتحسرا … ويقول واحسراتي واحسراتي
ليت الحبيب بقربنا فيتيح لي … أن أبدى الطلبات والرغبات
وأمتع العين الكليلة منه في … وجه صقيل راق كالمرآت
أنهيه من قلبي تحية شائق … وأريه ما أبدى من الفلتات
(هذا) وذاك بقربه ووصاله … من حبه في أحسن الحالات
قد مال عجبا وافتخارا واحتسى … كاسا فكاسا فهو في سكرات
يبدى محاسن غادة فتانة … ترى بوجه الشمس في الظلمات
ويقول أي يوم ويوم لم أبت … في تلكم الديار والغرفات
والكل في لهو وشغل دائم … دف ومزمار وشر فتاة
لا تحسبوا أن البلاء مغفل … عن تلكم الأعمال والفعلات
لا تحسبوا أن التمدن لبسكم … خزا وصرف المال في اللذات
وأخوكم جوعا وذلا قد سقا … ه الفقر بينكم بكاس ممات
ان التمدن حبكم وطنا غدا … كالام يحفظكم من الآفات
ويقلكم جمعا فأنتم اخوة … بالله لا تؤذوا له الحرمات
ان التمدن سعيكم في حله … من كبله برزانة وثبات
بالله قوا وطنا غدا من فعلكم … في أتعس الحالات والكربات
بالله قوا وطنا تداعى سقفه … لولا رجال أحسنوا الجولات
قاموا بحزم وارتدوا حلل العلا … واستعملوا الالحاح في الطلبات
هاموا بحب الوطن فانها لنوابه … ساعين بالآمال للغايات
راموا بكل حفاوة هام السهى … للوطن حتى مهدوا العقبات
أحيوا رسوما بالجزائر قد عفت … أخنى عليها هادم اللذات
نشروا الجرائد بالبلاد وناضلوا … أهل الفساد وأخلصوا النيات
قوم لهم ذكر جميل عاطر … ولسان صدق فصام العثرات
وثبات جأش وانتقاد فطانة … ورسوخ أقدام من الزلات
أعطاهم الرب الكريم كرامة … وحباهم الدرجات في الجنات
وأنالهم بين الأنام منصة … تسمو على الجوزاء في الدرجات

---

(1) نشرت في النجاح العدد : 218 — 3 محرم 1344 هـ / 24 جويلية 1925 .
وأفادني الشيخ حمزة بوكوشة أن الشاعر نظم هذه القصيدة قبل هذا التاريخ ، أيام كان تلميذا ببسكرة .

(قم حي أهل العلم بالا ُشعـــار) (1)

قم حي أهل العلـم بالا ُشعـــــار هذا لعمرك مخـبيء الا ُفكـــار

أهلا بأنصار الكتـاب ومرحـبـــا أعـز ز بكـم للذكر من أنصـــــار

رحبتكم الدار التي شرفت بـكـــم وبجمعكم أكــرم بهـا مـــن دار

الخير كل الخير فـي أصلا حكـــم حييـتم ياســادة الا ُخـيـــا ر

ماتوا لنا الاصلاح واحموا ديننـــا من هذه الاقـــات والا ُخطـــا ر

واجلوا هدى الدين القويم لنا فقــد نسجت عليه عناكـب الا ُستـار

أسعدتم هذا المحـل بوفدكـــم وكذاك تسعـد أوجـه الا ُبـرا ر

وهززتم قلب الشجـي بيـمنكـــم فحسبتـه وتـرا مـن الا ُوتـــار

يا معشر الزوار دمـتم أنجمــــا يهدى الورى يامعشـر الــزوار

هذا فوءادى فاقبلــوه تحـيـة من جانبي فانـــه تـذكـــا رى

تحية المولـــد النـــبوى (2)

على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام

أتحفنا بهذه القصيدة العصماء والخريدة الحسناء شاعر شبابنا الناهض ، بل شاعر افريقيا الشمالية — ولا فخـر — السيد (محمد العيد حم علي) أنشأها بمناسبة المولد النبوى ، فجاءت في هذا العدد من " الاصلا ح " مجددة لتلك الذكرى نظمـا — كما كانت ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم في العدد الا ُول نثرا . فمرحـــى للإ صلا ح ، وقراء الاصلاح ، مرحي ! ومرحى لشاعرنا المجيد مرحى ! قال لافض فوه ولا بر من يجفـوه .

---

(1) من قصيدة تتكون من اثنين وعشرين بيتا كان الشاعر قد نظمها بمناسبة زيارة وفد العلماء برئاسة ابن باديس الى مدينة بسكرة ونزوله ضيفا في بيت والد الشاعر . . نشرت في صدى الصحراء العدد : 11 — فاتح مارس 1926 م، من مكتبة (الدكتور أبو القاسم سعدالله) .

(2) نشرت في (الاصلاح) السنة : 3 ، العدد : 2 — 2 ربيع الثانـي 1348 هـ / — 5 سبتمبر 1929 م .

قم فاحتفل واعقد بشهر المولد ذكرى لتاج الأنبياء " محمد "
قم فاقتبل بالبشر ليلته التي سادت على الدنيا بأعظم سيد
وأعد مصطفى الاسماع من تاريخه عبرا لكل موفق ومسدد
هو الذي ذرأ الاله عباده وجباده من نوره المتوقد
هو الذي نبت الفضيلة والتقى واليمن فيه . الى العلا والسؤدد
ذخر العلم وشفاء المبتلى يسر الفقير شهادة المتشهد
ووسيلة الداعي فال المرتجى ورضى الحزين وسلوة المتفرد
هادى العباد نذير كل مضلل في شركه وبشير كل موحد
المسرج الدنيا بنور كتابه والمستهين صراطه للمهتدى
المرشد المنصور في ارشاده من ربه والنصر عقبى المرشد
وضحته مختونا نقيا أمه وشذا الهدى فيه يروح ويغتدى
اليه ترنو الكائنات تعرفا وعليه جبريل يبارك باليد
وتأملت فيه نساء الحي في طفل وديع بالملاحة مرتدى
سمح الملامح ناعم كالورد في اكمامه أو كالغزال الاغيد
متناسب الاطراف مثل خليقة معسولة أو مثل سمط زبرجد
أو مثل دمية صانع متشوق في النحت فنان الأنامل مفرد
تتقاصر الأمثال دون مقامه فمقامه فوق السها والفرقد
كتقاصر المشكاة في تمثيلها للنور والفاني نقيض السرمدى
الله طهر منه محتده فلم يصم السفاح محمدا في محتد
والله ملكه الهداية والرضى عنه واقصده باصدق مقصد
والله بعد الأربعين امده منه بشرع بالحدود مؤيد
واختاره للعلم خير معلم واختاره للسلم خير ممهد
والجاهلية محدق سلطانها في العالمين بمتهم وبمنجد
ومن الرعية بالأمير منكل ومن الأمير على الرعية معتدى
فدعى العباد الى السلام مسارعا في نصحهم بعزيمة لم تخمد
ووفور علم بالدعاية واسع ونفوذ حكم بالهدى متقيد
وأقرّ أفواج له بحنيفة بيضاء من بعد الجحود الأسود
يا حاملا علم النبوة في الورى وأب الورى في الطين لم يتجسد
في فملك السامي المؤيد بالهدى فقه الحنيف وأسوة المتعبد
فلك في صلاح العالمين اجادة كاجادة الإكسير صوغ العسجد
وعليك نور من صفاتك مرشد للمستخير ومصلح للمفسد
صدع المكابر بالشهادة والقضا فيها وفيك تردد المستردد
يا من رقى فوق السموات العلى متبوءا متن البراق الاسعد
وعليه أملاك تحف جلاله بطرا في عز في الفضاء ممدد
والعرش مبتهج به والمنتهى وملاكه من ركع أو سجد
والله منكشف اليه بذاته والناس بين مصدق ومفند
قسما بمشهدك الذي أوتيته ما زاغ طرفك عند ذاك المشهد
يا من جعلت رضاءه لي مقصدا واراه يسعفني بهذا المقصد
هل أنت تسمح بالشفاعة لي وهل في الحوض تفسح لي وتكرم موردى ؟
حثّ العباد الصالحون ركابهم وبقيت بعد ركابهم في فدفد

نساء عن العمران بين ثعالب ... تعوي فهل لي بينها من مسعد ؟
أشكو اليك بما تجدد من أذى ... بعد التحاقك بالرفيق الاصعد
عصفت على الاسلام بعدك صرصر ... فتبدد الاسلام كل مبدد
وجرت بأرض المسلمين حوادث ... شتى كأمواج الخضم المزبد
أتذوق أمتك النكال مضاعفا ... من عائث في ارضها متمرد ؟
ويسوسها حكم اجذ مبتر ... قاس كأن مسوده من جلمد ؟
أو لم تكن حصنا لها في كربها ... دنيا وعدتها ليوم الموعد ؟
فاشفع لها عند الاله وسل لها ... منه الامان وعذ به واستنجد
قدمت قافيتي اليك فلاقها ... بالطلعة الزهراء والكف الندى
انشدتها متوددا لك والرضى ... عنها قصارى المنشد المتودد .

(خطك الله للعباد كتابا) (1)

عجز الناس أن يوفوك شكرا ... في اياد لم تألهم منك تترى
كل نفس قد نفس الله عنها ... بك كربا وحاطها بك بشرا
رحمة الله للورى : من مقر ... لك دينا ومعرض عنك كفرا
وهدى منه للورى وسراج ... ويقين لهم وحق وبشرى
وصراط لهم الى الله هاد ... وصلاة مجابة منه كبرى
خطك الله للعباد كتابا ... في سلوك العباد دنيا وأخرى
كم لهم فيه عبرة وامتداء ... لو أحاطوا ببعض مافيه خبرا
ولهم فيه أسطر من مزايا ... ليس سطر منها يناقض سطرا
رسمت فيك أنجما في سماء ... وتجليت على صحابك زهرا
وتوالى عليك محصون شتى ... كيف يحصون أنجما فيك كثرا ؟
تخذوا الافق في مديحك مأتى ... للمعاني والفوا الشعر شعرى
وتباروا الى رضاك رعيلا ... جامعا كل مغرم بك مغرى
عجز الواصفون والوصف فيمن ... نافست نفسه الملائك طهرا
وابى الجهل امرة الدين حتى ... بهر العقل هديه فأقرا
وسرى في مجاهل الكون شمسا ... كلما حل مجهلا حل سرا
ونما من محمد في المواهي ... روض علم مازال ريان نضرا

* * *

بنت وهب رزقت منه ابن وهب ... وأبا همة كريما أغرا
ليس في المنجبات مثلك أم ... حرة انجبت من النسل حرا
أنت أوتيته من الله كنزا ... كل من جاءه على الأثر أثرى
وأبر البنين قلبا وكفا ... ولسانا وأفضل الخلق طرا

---

(1) نشرت في الشهاب ج 8 م 3 ربيع الثاني 1351 هـ / أوت 1932م . وجاء في تقديمها (احتفل نادي الترقي بالعاصمة بالمولد الشريف كعادته فخطب الخطباء، وأنشد الشعراء . وألقى شاعر الشباب هذه الدرة الغالية التي نقدمها لقراء الشهاب اليوم) وهي بالمخطوط ج 1 : 112 .

جرت الحادثات نعمى وبؤسى ... فأجار الحدود فيها وأجرى
وتفشى الضلال في الكون ليلا ... فأفاض الهدى على الكون فجرا
قتل الجاحدون ماذا ثناهم ... عن ربيع منه عابس الارض درا ؟
حرموا من كتابه سلسبيلا ... طاب وردا ومنجما غض تبرا
هو سفر لم يدع الا لمعروف ... ما لهم أوجسوا من العرف نكرا ؟
مالهم أخلدوا الى الارض صما ... أفهم حملوا من الوقر وقرا ؟
لا رعى الله معشرا لم يراعوا ... لك قدرا يا أفضل الرسل قدرا
وسقى الله في الجزائر شعبا ... لا يوازي بشهر ذكراك شهرا
حركته ذكرى الرسول فأهدى ... لك حفلا شجى القلوب وسرا
غير راو من ورد ذكراك قلب ... لك في كل برهة منه ذكرى

* * * * *

يارفاقي وصية من خبير ... ذاق طعم الحياة حلوا ومرا
قد ورثتم عن الرسول كتابا ... عبقريا سمح التعاليم يسرا
مسكوا بالكتاب وادعو اليه ... كل خصم أتى من (الامر) امرا
وخذوا من معاشكم خير زاد ... لمعاد لن تعدموه مقتسرا
كذب الملحدون لابد من أن ... يحشر الناس للإدانة حشرا
كيف نرجو يدا لهم في حياة ... حسبوها سنين خيرا وشرا ؟
يارفاقي أظلنا عصر جد ... فتعالوا نشد لنا منه عصرا
وفشى العلم حولكم فأجيلوا ... فيه طرفا وأمعنوا فيه فكرا
يا رفاقي على العروبة فاحيوا ... وبنو العرب بالعروبة أحرى
وذروا ضادها المحجب يطلع ... في سماء اللغى على الجيل بدرا
وأجيبوا في الحق دعوة داع ... من سوى الله ليس يسأل أجرا .

يا مسلمي أرض الجزائر مالكم ... لا نشرة تهدى ولا آراء ؟
آن الأوان فثابروا نحو العلا ... أنتم لادراك العلا أكفاء (1)

عظات عمرية (2)

اليكم دعاة الخلف عني فانني ... من الخلف مقروح الحشاشة عاني
لقد همتم للخلف والخلف ذاهب ... بكم فاذكروا الاسلام في الهيجان

---

(1) نشرنا في الاصلاح العدد : 7 ـ 7 نوفمبر 1929 م .

(2) نشرت في الاصلاح السنة : 3 ـ العدد 12 ـ 3 رمضان 1348 هـ / 6 فيفرى 1930 م . وقد قدم لها الشاعر بهذه الكلمة في التحذير من الخلاف والشقاق .
أخرج الطبرى عن ابن عباس ان عمر قال للناس من قريش (بلغني أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معا حتى يقال من صحابة فلان ، من جلساء فلان ، حتى تحوميت المجالس . وأيم الله ان هذا السريع في دينكم ، سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول : هذا رأي فلان ، وقد قسموا الاسلام اقساما . أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معا فانه أدوم لالفتكم وأهيب لكم في الناس . اللهم ملوني ومللتهم ، وأحسوا مني ولا أدرى بأيها يكون الكون ، وقد أعلم أن لهم قبيلا منهم فاقبضني اليك) . رأيت هذا القول المأثور لسيدنا عمر بن الخطاب في التحذير من الخلاف والشقاق فأعجبني لفظه ومعناه فضمنته هذه الابيات

واذ عمر الفاروق قال لمعشر ... من الناس فيما أخرج الطبراني
أتاني حديث انكم قد تخذتموا ... مجالس للتفريق والشنآن
فلا يجلس الاثنان حتى يقال من ... فريق فلان أو فريق فلان
الى أن تحامى مجلس قرب مجلس ... لانهم في الرأي (. . . . .) (1)
وفي دينكم هذا سريع ضلالة ... وفي فضلكم هذا سريع هوان
سريع لعمر الله في ذات بينكم ... يوشك تناء بعد طول تداني
كأني بمن يأتي من الناس بعدكم ... عزوا لامرىء رأيا بغير بيان
وقد قسموا الاسلام فيما تقسموا ... من الخلف أقساما لجل معاني
أفيضوا ولا تحموا المجالس انه ... لالفتكم أبقى وأهيب شاني
المي ملوي قلبي ومثلهم ... ومني أحسوا في أخير زماني
ولم أدر من (. . .)(2) يكون ومنهم ... به الكون أو يشفى على الحدثان
وأدرى قبيلا منهم قد يسوسهم ... ورائي فاقبضني اليك لثاني
مقالات من المأثور عن عمر الرضى ... رواه ابن عباس كمقصد جاني
ألا ليت قومي يسمعون وعيدها ... فيلووا عن التفريق كل عنان
ويا ليت قومي يشعرون بضيرها ... ويلفونه عنهم بغير توان
اذن لارتقوا في الدين أكرم مرتقى ... وفازوا من الدنيا بكل أمان

عمر المختار الشهيد (3)

شاعر الشباب وقرة عين ذوى الالباب الشيخ محمد العيد هو بشعره الفائق وأسلوبه الرائق في غنية عن التعريف به لدى الادباء والكتاب ، ها هو قد تفضل علينا بقصيدة رائعة وخريدة عصماء في رثاء الشهيد عمر المختار ، نطرز بها عددنا الاول من الاصلاح قال حفظه الله :

خلدت بالذكر خلود الجبال ... فأنت في الدنيا حديث الرجال
ما أنت بالميت فعش خالدا ... ما كان بالميت شهيد القتال
أراك عند الله مستبشرا ... من فضله ترزق في خير حال
حاز الغنى من كان منه اشترى ... نفائس الخلد بنفس ومال
يا عمر المختار في قومه ... للطعن والزحف بهم والنزال
يا عمر المختار في قومه ... للكد والجد وشد الرحال
والبأس في البؤس وذود الحمى ... وحنكة الرأى وحذق الجدال
والدهم في الادهم تسرى بها ... تعتسف البيد بها والتلال
ياهازم البغي بجيش المدى ... يا مورد الطليان ورد النكال
رميت بالابطال ايطاليا ... حيال برج " المرج " رمي النبال
ففر منهم جلدها هاربا ... منهزما ما بين صاد وصال
ولى الى " المرج " على وجهه ... فنمه الخيبة والانخذال
فجاش من ايطاليا جيشها ... في السهل والوعر كمثل التلال

---

(1) كلمات غير واضحة .
(2) كلمة غير واضحة .
(3) نشرت في (الاصلاح) السنة 1 العدد : 1 ــ 14 شعبان 1350هـ / 27 ديسمبر 1931م .

ومد للانجم فوق الثرى   حبائل البغي فصاد المنال
وخر في الزيبة ليث الشرى   فساقه السوقة رهن العقال
باسرهم ساقوه في أسرهم   واحدقوا الجند به والنصال
هابوه في الاسر وفقد القوى   كيف بهم لو جال فيهم وصال

* * * *

ساقوك للبحث على زعمهم   ما بحثهم والله غير احتيال
يخادعون الشرق في بحثهم   بأنهم في الحرب أهل اعتدال
ما بالهم لم يعدلوا عنه ما   صلوا " طرابلس " الوغى عن حيال
كم أيتموا للحرب من صبية   وشتتوا في " برقة " من عيال
وأحرقوا بالنار من جنة   وافسدوا ما أثمرت من غلال
وطوفوا بالجند من قرية   صبوا عليها وابلا من وبال
واطلقوا للأرض أبطالها   من فوق طيار على الأرض عال
واوثقوا بالقيد من قادة   زجوا بهم في البحر والجو خال
هم يحسبون الشرق عليهم سلا   والشرق منهم دائما غير سال
قد برهنوا للشرق عن حقدهم   والحقد في الطليان داء عضال
وانتحلوا الحكم على أمة   تابى عليهم ذلك الانتحال
قالوا لنا الحق بتنظيمها   قسرا فقد أودى بها الاختلال
أقبح بها دعوى بلا حجة   جرت عليها سنة الاحتلال
والغرب مهما اغتال من أمة   أتى ببرهان على الاغتيال
يا أيها المسؤل كم زدتهم   غيظا بما أظهرت عند السؤال
من عزة قلعساء لم يعرفوا   فيهم لها مثلا ولو في الخيال
ومنطق جزل بعيد المدى   تزينه الرجلة والارتجال
ان الثمانين التي جزتها   حزت بها في الرأى حد الكمال
وفي " نعم " أو "لا " وشبهيهما   لهم من الشيخ معان طوال . . .
وهل راعوا في حقه ما رعى ؟   كلا – فما ألوه شر الخبال
قضى بقتل الشيخ قاضيهم   فاعدموه موثقا – بالحبال
وفي (سلوق خر مستشهدا   افدى دما منه على الارض سال
سلوا (سلوقا) فهي ريا به   كانها ريا بمنشاء زلال
ان دم المختار غال ولا   يشرى بغال مثله غير غال
وقولة للشيخ مأثورة   كانت للنفس الشيخ أزكى مثال
فاه بها من قبل اعدامه   في حين لا يخطر قول ببال
(ان زلت – بالاعدام – عن ثورتي   فهي ورائي مالها من زوال)
في ذمة التاريخ ما نلت من   خير وشر في رضى واحتمال
العز لله وانصاره   فلا ترع قومك حرب سجال
قد شقت الشقة من بيننا   وبينهم فيها فعز الوصال
ليس لنا جهد لاسعافهم   عفوا فلا نملك غير المقال
ودم بنزل الله مستمتعا   في جنة الخلد ونعم المآل

توارى الكوكب القطب   فعم العالم الخطب (1)
توارى الكوكب الهادى   فمن يسترشد الركب
فقدنا مدرها ندبا   عليه يجدر الندب
فقدنا شاعرا مجيدا   بليغا شعره عذب
فقدنا كاتبا حرا   داره الشرق والغرب
ماطاب لنا أكل   ولاسنساغ لنا شروب
ولم يهنأ لنا نوم   ولم يهدأ لنا جنب
شكيب فارق الدنيا   وضمت جسمه الترب
في عنقي له دين   عظيم (. . . .) حقب
(. . . . .) أن يقضى   لنفسي دونه النحب
فجد ماشئت ياطرفي   وذب ما شئت ياقلب
نعى الناعي شهاب الشر   ق فارقاعت له الشهب
نعى الناعي أبا العرب   فصبرا أيها العرب
سيفنى كل ذى عقب   ويفنى بعده العقب
سيبقى الحق لا يبقى   صداح لا ولا نصب
وفي الدنيا تنورتم   من الاضواء ما يخبو
انتشيتم بأثواب   عليها يطرأ السلب
وان دنياكم مرعى   بما لا يثبت الخصب
وسر الغر مرآهما   وشكى العاقل اللب
ويسترقص حملهما   كما يسترقص الدب
وعللهم بها كبر   وألماهم بها عجب
وكم هام (. . . .) حبا   الى (. . . . . . .) الخب
سل التاريخ عن يعقو   ب اذ ضم ابنه الجب
وموسى نازحا عن مصـ   ـر يعرو قلبه الرعب
وعن أيوب في بلو   ه اذ أجهده الكرب
وعيسى في يد الاجنا   د سوا له الصلب
وعن طه (. . . .) الشعـ   ـب يبغى قتله الشعب
جنت لله أحكام   عليهم وقعها صعب
ومن يدرى فالاقدار   عليها تضرب الحجب
فلا تركيب هوى فيها   فمن يركب هوى يكب
وياشرق ادرع صبرا   ولا يطغ بك العتب
(   )   ب أشبال له غاب
وسيبقى فقيد العر   ب كنز ماليه نهب
ستحيي مجده الآثا   ر والاشعار والكتب
ويجزى الله صنعه   اذا لم يجزه الصحب
فأزلف جنة الخلد   له وارحمه يارب

هذه هي القصيدة التي نظمها الشاعر في رثاء الامير شكيب أرسلان . ولم يكتب لها أن تنشر لاسباب لم تزل مجهولة .. وقد سمع بها الناس ولم يعثروا عليها .. فكان ذلك مثار تساؤل لدى بعضهم . ينظر سعد الله (محمد العيد آل خليفة ...) ص : 66 .
وقد عثرت على (مسودة) مخطوطتها ، مكتوبة بخط يد الشاعر في مكتبته الخاصة بمنزله ببسكرة، وحاشيتها ما يفيد أنه قالها أيام كان مقيما بباتنة . واذا نحن ربطنا بين هذه القرينة ، وبين تاريخ وفاة شكيب 1946، عرفنا ان القصيدة كانت بنت زمانها .
وقد تطلب قراءتها ونسخها ـ لعدم وضوح خطها ولما في مخطوطتها من تشطيب ـ بعض الصعوبة ، ومع ذلك فلم أستطع أن أتبين بعض كلماتها فتركتها بياضا بين اقواس .

لؤلؤة لماعة في مفرق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1)

يقولون إن الشيخ محمد العيد شاعر الشباب كلا وايم الحق فانه شاعر الشباب والكهول والشيوخ بالقطر الجزائري .

فلقد عودنا هذا الشاعر المجيد بتحفه وطرائفه في فرص مختلفة بما طبع " الجزائر العربية المسلمة " بطابع العروبة الخالدة ، وقد تجلت شاعريته بأجلى مظهرها في قصيدته العصماء التي شنف بها مسامع الجموع المكتظة بنادي الترقي يوم الاربعاء 19 محرم عيد حفلة افتتاح السنة الثانية لجمعية العلماء . وقد اتحفنا بها رعاه الله لنتحف بها قراءنا الكرام ، قال بارك الله في شاعريته للعروبة والاسلام :

كم في الجزائر آمال وآلام ... خطت لنا حكم فيها واحكام
خطت من الجيل في سفر فأسطرها ... وصحفها منه أرواح وأجسام
من كل معنى له بالمنتهى صلة ... في كل لفظ له بالسحر إلمام
لا أكذب الحس هذا الجيل فيه لنا ... نصر وفتح من المولى وانعام
بشرى الجزائر غيم الجهل منقشع ... عنها وشمل بنيها اليوم ملتام
جمعية العلماء المسلمين لهم ... ركن فمنهم له حج واحرام
حييت قافلة بالعلم حافلة ... ترتاد نافلة منه وتعتام
جاءت كما جاء موسى ربه قدرا ... فناله منه تكليم واكرام
باقادة الشعب حلوا كالحيا بلدا ... حياكم منه ايمان واسلام
وانفس لم تزل فيكم متيمة ... يهزها لكم شوق وتهيام
واوجه لم يزل بشرا اقتبالكم ... يفتر فيها كما فتر أكمام
في كل عين اليكم لفتة ورنى ... وكل اذن بكم اذن وأعلام
خير القرى بلد فيه اعد لكم ... خير القرى : ادب زاك واعظام
نزلا من الشعب مشهودا يشرفه ... تاج لسدته الأملاك خدام
تاج من العلم فوق الشمس مقعده ... فليس يلحقه بالسوء ظلّام
وعائبين ولوام طفوت بهم ... أروى لكم بعضما عابوا وما لاموا
فقائل فقدوا عزم الأمور فهم ... في كل يوم لهم نقض وابرام
وقائل ما لهم في الفصل أنظمة ... فما تفيدهم في القول أنظام ؟
وقائل ليتهم ذادوا زعانفة ... مثل الفرانيق في واديهم حاموا
وقائل قد مضى عام به اجتمعوا ... خمسا فعن أى شيء أسفر العام ؟
واوجه الحق مثل الحق نيرة ... وألسن الخلق مثل الخلق اقسام
وكم أجيلت عقول لابتلائكم ... كما اجيلت للاستقسام أزلام
فاحنوا على أمة منكم لها أسد ... غلب ومنها لكم غاب وآجام
أجلوا جلاها فقد رانت به ظلم ... واحموا حماها فقد داسته أقدام
فهي النجوم وأنتم لها شهب ... وهي الجسوم وانتم فوقها هام
خطوا لها المثل المثلى لتدرسها ... عسى لها نكت فيها وافهام
خطوا لها فمن العرفان عندكم ... محابر ومن الآراء أقلام
لقد سمت بمزاياكم أرومتها ... كما سما بمزايا نسله سام

---

(1) نشرت في جريدة (النور) السنة 1 ، العدد : 5 — 24 محرم 1351هـ/ 31 ماي 1932م .

وألهم النشء فيها ان يقلدكم ... والخير في النشء تقليد والهام
وكم فتى يوثر الاحجام متحصلا ... فيه التبصر والاحجام اعدام
لا حزن لا خوف سيروا سيركم قد ما ... فالامن من خلف والتوفيق قدام
ما خاب من كان منكم في طويته ... صدق وفي سعيه حذق واقدام
جمعية العلماء المسلمين لكم ... مثل الطريق تراءت فيه أعلام
أو مثل سوق لكم عظمى بضائعها ... أنفاس علم لها الانفاس أسوام
لا تحسبوا أنها وقف على فئة ... فكلكم حارث فيها وهمام
كأن ملقاكم فيها على سفر ... ملقى سبيل تلاقت فيه أقوام
تناسبوا فاذا هم أولياء لهم ... من الوشائج أعراق وأرحام
عاشوا شتائت مجهولين تحجزهم ... من الفروق خيالات وأوهام
في نومة غطت الانفاس أزمنة ... فيها وغطت على الاحلام أحلام
وظلمة عم فيها الظلم فاصطدمت ... فيها من الافق بالاجرام أجرام
غبش به بيعت الاعلاق واشتريت ... بخسا وبيعت من الاباء أيتام . . .
وفيه ذيدت عن العرفان أفئدة ... كما تذاد عن الحيضان أنعام
تعارفوا عند هذا فاشتكوا وبكوا ... مما عراهم وهي شتى ولسوام
أنغام بؤس أجادوها لبعضهم ... وللأناسي كالاعواد أنغام
هذا لكم واحد الامثال فاستبقوا ... أرقامها بعد فالامثال أرقام
قد اجتمعتم لحق الله يومكم ... هذا فهل أنتم بالحق قوام ؟
أعيذكم أن يذيع الناس ذات غد ... عنكم بأنكم في الرأى اخصام
وأن صرحكم اختلت رقابته ... حتى استوى فيه بناء وهدام
حاشا له ومعاذ الناظرين به ... وعاش كالدهر لا تبليه أيام
ايا له في حدود الحق ألوية ... خفاقة وعلى جنبيه آطام
نحن الذين لغير الحق ما خضعوا ... نحن الذين بغير الحق ما قاموا
وقف على الخير لا يلقي بساحتنا ... سوى الفضيلة ـ مغتاب ونمام
فأبلغوا الشعب انا لا نشر أذى ... ومن أسر أذى فالله علام
وفرصة لست أنساها لكم سنحت ... والجو صفو وثغر القطر بسام
ولت وخلت باحساسي لها أثرا ... كريشة جرها في اللوح رسام
وهذه فرصة أخرى تسر وحكم ... فيها أفاويه من بر واغنام
عسى تتمون بالاحسان سعيكم ... فيها فقد حم بالاحسان اتمام

أحبابنا قد رحلوا ... وتركونا للاسد
يدب في ديارنا ... دبيب داء في الجسد
نقاد في يميلسه ... بألف حبل من مسد
تبا لها سياسة ... من نتنها الجو فسد (1)

---

(1) عثرت على هذه المقطوعة عند السيد عبد الحميد فاضلي وهو من أصدقاء الشاعر بمدينة باتنة . وقد أفادني ان الشاعر نظمها أيام اقامته بهذه المدينة اثناء الحرب العالمية الثانية .

(الى الثقافة) (1)

العصر عصر ثقافة الأذهان ... فالى الثقافة يابني (وهران)
حثوا لتحصيل المعارف عزمكم ... ان المعارف حلية الانسان
واسموا لتأسيس المدارس انها ... حصن الشباب ومعقل الولدان
باحسن مدرسة لكم تدشينها ... هز الجزائر هزة النشوان
فتحت فكانت آية فنية ... في حسن شكل وازدهار دهان
توجتم " بالمجد " في الذكر اسمها ... والمجد تاج جل في التيجان
شكرا لمن أسدى يدا في فتحها ... وأمدها بالبذل والاحسان
ولمن أعان ولو ببعض صخورها ... أو ساعد الساعين في البنيان
ولمن دعا بلسانه أو فعله ... لبنائها وأفاض في الاعلان
اخوان صدق في الجهاد تظافروا ... ونبا لهم في الصدق من اخوان
هذا هو الاثر الذى تبقى به ... (وهران) خالدة مدى الازمان
ياحاشدى الضيفان للاحسان يا ... نسل المروءة يابني (قحطان)
شرفتم وطن الجزائر كله ... بنهوضكم فسما على الاوطان
جلت مشاريع العلوم فغرسها ... لا ريب يثمر وفرة العمران
فتعهدوا بالسقي طيب غرسكم ... فالسقي يحفظ زهرة البستان
وليزدهر وطن الجزائر وليعش ... شعب الجزائرى وهو عالي الشان
وليحي في وطن الجزائر دينه ... دين الهدى ولسانه القرآن
ولتحي أقطار العروبة كلها ... كبرى الممالك حرة السلطان

(الوحدة الجزائرية) (2)

تعالوا يابني القطر ... نشد الازر للازر
ولجبر فادح الكسر ... فقد أزرى بنا اللاحي
أذعنا بيننا العقدا ... فخلدنا به الحقدا
وهددنا به عقدا ... يضم الراح للراح
مساعينا أفاعينا ... وداعي الخلف داعينا
وراعي الجور راعينا ... بحكم منه سفاح
وكم في القطر من باغ ... على أهل النهى طاغ
وكم في القطر من لاغ ... وهماز ومزاح
دعونا من خلافات ... تنامت في المنافاة
أصابتنا بآفات ... ولنا بتنا بأتراح
أرضى سوأة المحيا ... ومنا سادة الدنيا

---

(1) نشرت في جريدة (المنار) العدد : 10 — 24 أكتوبر 1952 ، ص : 2 .
وقد جاء في الجريدة أنها ألقيت في تدشين مدرسة (المجد) بوهران .

(2) نشرت في (المنار) العدد : 18 — 27 فيفرى 1953 .

ومنا رادة العليا ... ومنا ذادة الساح
لمتنا أرضنا الخصبة ... وربتنا على الصحبة
فكنا فوقها عصبة ... وقربى غير نزاح
بلاد كلنا فيها ... فخورون بها تيها
نواليها ونفديها ... بأموال وأرواح
تدر الرزق مضمونا ... وتارى الضيف أمونا
وفيها الشمس تحبونا ... بجو ضاحك ضاح
بحلي جيدها عقد ... من "الأطلس" ممتد
ويكسو جسمها برد ... الى "أبيض" وضاح
أرى أوطاننا جنة ... تقينا البأس أو جنة
توشي أرض "مزغنة" ... بأنهار وأدواح
فكم زرع بها نام ... ونخل ذات أكمام
وكم تين وشمام ... وزيتون وتفاح
نشأنا فوقها اخوة ... لنا (خير الورى) قدوة
وردنا الشرعة الحلوة ... فأروتنا بأقداح
حوتنا وحدة كبرى ... حبتنا اليسر والنصرا
تعالوا نحيها ذكرى ... وندرسها بايضاح
تأمل أيها الباني ... ودعمها بأركان
وجددها باتقان ... تتممها بانجاح
فما الموضوع جزئي ... بل الموضوع كلي
"بيانسي" و "شعبي" ... و "طرقي" و "اصلاحي"
اجيبوا – يابني أمي – ... نداء القادة الشم
فان الشعب في غم ... من التفريق مجتاح
الى وحدتكم عودوا ... فداعي العود محمود
وان لم يثمر العود ... فلا بشرى لفلاح ...
أغذوا السير فالحادي ... بركب الوحدة البادي
"منار" نوره هادي ... مبيد للدجى ماح
ومهما يبد طغيان ... ومكر فيه ألوان
فان الشعب يقظان ... ومن سكر الهوى صاح
تكتل أيها الشعب ... فادراك المنى صعب
ولا يحلل بك الرعب ... لو همم فيك طموا ح
سنحميك ونكفيك ... حروبا أنشبت فيك
ومن بلواك نشفيك ... فانا نطس اجراح
نباري كل سباق ... ولا نرضى بارهاق
كفى بالله من واق ... لنا بالنصر فتاح .

عرضت علينا خيرسميين عندنــا ... لشهمين منا خالدين على الحقب
فذكرنا رسم ابن باديس علمه ... وإخلاصه لله في خدمة الشعب
وذكرنا اسم الأمير جهاده ... وما ذاق من نفي وكابد من كرب
سنتبع ما خطا لنا ودليلنا ... ودادهما المركوز في وسط القلب (1)

قالوا لعقبية ما تروم وقد رمى ... عبر المحيط بطرفه وتوسما
فأجاب : أنظر كيف أنشر خلفه ... دينا به ابن الأرض يفتتح السما
قالوا لعقبية رائد الشهداء ما ... ذا نلت من خوض المعارك مقدما
قال : افتتحت الأرض مفتتحا بما ... فضل الشهادة فافتتحت به السما (2)

أدعوكم للهدى عنيت به ... هدى قديما دعا له طه
أدعوكم للوفاق فهو يسد ... ترد عنا يدا خشيناها
وجملوا بالكمال أنفسكم ... بشرى نفوس الكمال بشراها
(ان فزتم بالخلال كاملة ... نلتم بها العز نلتم الجاها)
ومجدوا الله كل آونة ... ماخاب عبد : يمجد الله (3)

من وحي الثورة والاستقلال (4)

— 1 —

حمدا لمن قهر العدو ودمرا ... وأغاث شعبا من أذاه تذمرا
شكرا له أقصى الدخيل وصده ... عنا وأظهرنا عليه وأظفرا
نصر الضعيف على القوي بأسه ... أذل شوكة من بغى واستكبرا
لا ملك في التحقيق الا ملكه ... فمن استجار بظله لن يقهرا
لقد ابتلى بعض العباد ببعضهم ... دأبا وحض المبتلي أن يصبرا

---

(1) نشرت في المخطوط ج 1 : 56 وجاء في تقديمها أن أحد أصدقاء الشاعر عرض عليه رسمين : الأول رسم الشيخ عبد الحميد بنن باديس رحمه الله . والآخر يمثل فقيد الجزائر الأمير خالد تغمده الله برحمته ، فقال بهذه المناسبة تلك الأبيات ، وهي غير مؤرخة .

(2) عثرت على هذه الأبيات في مكتبة الشاعر الخاصة بمنزله في بسكرة ، وكتب عليها ما يفيد أنه نظمها بعد قراءته في ديوان خليل مطران هذين البيتين :

قالوا لنابليون ذات عشية ... اذ كان يرقب في السماء الأنجما
من بعد فتح الأرض هل من أمنية ؟ فأجاب : أنظر كيف افتتح السما

ينظر ديوانه ج 1 : 59 .

(3) نشرت في (المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي) ص : 248 ، للشيخ موسى الأحمدي نويوات ، ط 3 ، سنة 1983 .

(4) نشرت في (المعرفة) السنة : 1 ، العدد : 6 ، رجب 1383هـ / نوفمبر 1963م .

وبلطفه كشف البلاء مفرجا ... عنا وخولنا العطاء ميسرا
وبفضله فسح الحياة لعبده ... حتى رأى الوطن العزيز محررا
من لي وقد وصل النعيم بضعفه ... ان احصى الآلاء منه وأحصرا
الى أعتمدت عليه فاستعرضت ما ... للشعب في غمرات ثورته جرى
ونطقت باسم الشعب غير مجمجم ... متشرفا بنضاله ان اخبرا
واشدت فخرا بالبطولات التي ... أعلى بها صوت الجهاد وأظهرا
الله أيده بها وأمده ... وكفى من استكفى به واستنصرا
سبحانه جمل الجزائر جلة ... وعلى حماها بالمكاره سورا
واذاقنا في الذود عن ساحتها ... من البلاء ليستبين ويخبرا
واعد فيها من بنيها دولة ... بطلوعها روض العروبة أزهرا
بعث الرسول (محمدا) بكتابه ... ليبلغ الاحكام عنه ويبشرا
واقامه للخلق داعي رحمة ... ومبشرا للعالمين ومنذرا
صلى عليه صلاة تشريف بما ... اعطاه ما أرضاه منه فوفرا
وعلى جميع الآل والاصحاب ما ... فاز المجاهد بالمنى واستبشرا
وطني المفدى بالكفاح تحررا ... ومصيره بعد النجاح تقررا
فابن الجزائر صار سيد أرضها ... والغاصب المحتل صار مدبرا
بشرى لنا بحكومة عربية ... شعبية رعت البلاد لتعمرا
ووقي الجزائر من بوادر فتنة ... أهلية كادت بها أن تشهرا
سن اشتراكي المذاهب مذهبا ... للشعب واتخذ العروبة محورا
وقضى بتعريب الجزائر كلها ... مستقبحا تغريبها مستنكرا
ورعت حكومة البلاد بحكمة ... فتكتلت شمها وعزت عسكرا.

عملاقة الثورات فكت أسرنا

(جمعية الأمم) اصطفتها دولة ... وبنت لها بين المنابر منبرا
هي سؤلنا الاسمى الذي من أجله ... ثرنا على الباغي المغير لنثأرا
قدم الالوف الاربعين بأرضنا ... ما انفك يغلي صارخا مستنفرا
لم ننس (مايو) ولا مأساته ... حتى جبهنا خصمنا المتجبرا
لما ازدرى بحقوقنا متصلبا ... في كبره قلنا له (أطرق كرى)
وتحولت لغة التخاطب بيننا ... لغة بها جو السلام تعكرا
قمنا الى رشاشنا برصاصنا ... نسقيه وابله الوبيل المخطرا
فكأن ريحا صرصرا عصفت به ... وكأن بركانا عليه تفجرا
وحوى (نوفمبر) من مواقف بأسنا ... ما حظي بالشرف العظيم (نوفمبرا)
شهر يزف البشريات لشعبنا ... والذكريات لمن أراد تذكرا
شهر يذكرنا بأعظم ثورة ... خضنا غمار الحرب فيها حسرا
عملاقة الثورات فكت أسرنا ... قهرا فحق لنا بها أن نفخرا
وبها عمالقة العزائم ذللوا ... كل الصعاب فادركوا ما استعسرا
رعيا لها من ثورة قدسية ... فيها القليل على الكثير استظهرا
فكأن (طالوت) استعاد وجنده ... من جند (جالوت) اللقاء فظفرا
قف فاسأل الأطواد عن غاراتنا ... انا بنو الاطواد رواد العرا
سرنا نؤم جبالنا العليا كما ... أم الحجيج بركبهم (أم القرى)
طفنا بكعبتها الشريفة سبعة ... وبنارها الحمراء طبنا مجمرا

غاباتها احيت لنا آسادها ... وكهوفها أحيت لنا ذكرى (حيرا)
وسهولها خضنا بها غمراتها ... فتوعرت بكفاحها وتوعسرا ..
نلقى العدو بشدة وصرامة ... وعرامة فنرده للقهقرا
ويفر منكسرا بشر هزيمة ... خزيان في أذيالها متعثرا
لبثت معاركنا تشب بأرضها ... فتشيب جند عدونا المتهورا
وتذيع أمواج الاثير حديثها ... فتريع كل من ازدرى واستحقرا
كم من معارك واشتباك بيننا ... سقطوا بها قتلى وباؤوا خسرا
كم من كمين قد نصبنا في الدجى ... لمغيرهم فهوى به متحدرا
كم من دفاع مدفعي عند نيا ... اضحى محلقهم فخر مكسرا
حتى قلعنا شافة استعماره ... وجزاء جذر فاسد أن يجذرا
وأسرب ليث من ليوث (محمد) ... ابلى بلاء في الجهاد مبررا

+ * +

لا درع يلبسه سوى ايمانه ... وصموده للباس أشمخ أغبرا
لا زاد في يده سوى رشاشه ... ورصاصه للواجهات مذخرا
لقي الكتائب وحيده مستبسلا ... لا خائفا منها ولا متأخرا
ودت تراه بأسرها في أسرها ... أرأيت ليثا للذئاب استأسرا ؟
فاختار عيش الخالدين مرحبا ... بالموت في ذات الاله مكبرا
واستفدح الرشاش وأدرع الصفا ... ورمى فأردى الاكثرين وتبيرا
وأبى الدنية قسورا حتى اذا ... نفذ الرصاص أتى المنية قسورا
ورسالة الأحرار بذل حياتهم ... لحياة امتهم اذا خطب عرا
صد العدو عن الوغى وأثارها ... في الشعب حرب ابادة مستعمرا
وغزا البلاد بخيله ورجله ... مكرا وجاس خلالها متخطرا
فمراكز التعذيب في تعشيلها ... عرضت مآسي بالنهى لن تخطرا
ماذا أصاب المسلمين وصامهم ... من كل جلاد طغى وتكبرا
ماذا أصاب الابرياء من الأذى ... والعزل والضعفاء من قصم القرى
ماذا أصاب الدور من هدم ومن ... حرق ومن سلب مال بعثرا
ماذا أصاب الشعب من نفي ومن ... سجن ومن أسر بليل دبرا
طاف العذاب على الجزائر كلها ... ودهى الجميع مؤنثا ومذكرا
وجرى على أكواخها وقصورها ... ما راع تصديقا بما وتصورا
فالعين من سفك الدماء بكت دما ... والقلب من فرط الشقاء تفطرا
كم من شهيد ما رأى أحد له ... من مصرع غير الاله وما درى
خرجت به تحت الظلام عصابة ... تغزو الديار من السطوح تسورا
وسطت عليه بكل ناب مثلما ... يسطو على صيد الفلا وحش الضرى
ورمت به في قعر بئر أو الى ... أعماق بحر أو باطباق الثرى
أو مزقته كلاب مسعورة ... أو احرقته بنارها فتعسرا
الى لمن يرجوه في شدائه، ... يوم على أثر له أن يعثرا
ولرب ثكلى من وراء وحيدها ... صرخت ودمع العين يدمي المحجرا
يا ذخر عمري يا حشاشة مهجتي ... يا طيب عيشي يا غناي الأوفرا
يا أنس مأواي الحزين وانسه ... مأواي أوحش مذ غبت وأقفرا
يا برء قلبي هل تؤوب فاشتفي ... يا نور عيني هل تعود فأبصرا
دنياي مظلمة الى يوم اللقى ... وحشاي مضرمة الى أن تظهرا

اني احس من الأسى كبدي انمحت ... وبساط قلبي من نواك تبترا
أتكون حيا يا ترى ؟ فيجيبها ... رجع الصدى أتكون حيا يا ترى ؟
سحقا لقلب لم يطر ولما لما ... أو ينفطر اسفالها وتحسيا

*

تحية الشهداء (1)

— 2 —

نحن الحماة لشعبنا بدمائنا ... وشهودنا شهداؤنا لمن امترى
الباذلون لا لف ألف كثيرة ... في العد أو من ألف ألف أكثرا
الطامحون الى الصحابة لزعمة ... يقفون " حمزة " في الجهاد و(جعفرا)
نزلوا بمولاهم فأكرم نزلهم ... وأثابهم بنعيمه خير القرى
باعوا النفوس له ونعم المشتري ... بالجنة العليا ونعم المشترى
فهم الشموع الساطعات جلت لنا ... في أرضنا فردوسنا المنتظرا
وهم المعالم للسرايا كلها ... في سيرها وهم الكواكب في السرى
وهم الأئمة في الجهاد فمن يحد ... عن نهجهم ضل المدى وتحيرا
فمن اقتدى بهم اهتدى وعلا يدا ... أبدا ونال رضى الاله بلا مرا
مثل "التبسي" الرضى داعي المدى ... و (ابن المهيدي) الفتى حامي الذرى
والقائد (الحواس) أو (بولعيد) أو ... (ديدوش) و (زيغود) أساد الشرى
واذكر من الشهداء (عيسات) الذي ... وفي و (لطفي) الجريء المسحرا
واذكر (عميروش) الرهيب (وطاهرا) ... والشهم (عبان) الاشاوس منظرا
واذكر من الشهداء (لبوانت) الذي ... في القصبة العليا تحدى العسكرا
واذكر من الشهداء (حوحو) كاتبا ... حرا و(حيحي) ثائرا ومستورا
ورفيقي الشعر (الربيع) وخله ... (عبد الكريم) فواجب أن يذكرا
واذكر (عمودي) البلاد أديبها ... واذكر بها (مولود ما) المتحررا
واذكر (حسيبة) واحتسب ما نالها ... واذكر (فضيلة) للفضيلة مكبرا
ان الشهادة في الجزائر أصبحت ... علما عليها بالسعادة بشرا
قد شرف الجنسين من ذكر ومن ... انثى وأكبر قومها والاصغرا
وقد اكتفيت ببعضهم عن كلهم ... من يستطيع بجمعهم أن يحصرا
حيي الشهيد تحية مسكية ... كرم الشهيد بها الوجود تعطرا
وارع ابنه عطفا عليه وقل له ... أنت اليتيم ومن يفوقك جوهرا
وكفاك بالجيل الجديد مواسيا ... ومواليا لك أن تهان وتحقرا
لا تبك في الدنيا اباك فانه ... في جنة الفردوس يسقى الكوثرا
يحيا حياة الأنبياء مكرما ... عند الاله منعما مستبشرا
في الروح والريحان يغنم رحمة ... والروح والولدان فنعم معشرا
عاش الشهيد مشرفا بجهاده ... ومضى لخالقه فعاش مقدرا

---

(1) المعرفة العدد : 7 — شعبان 1383 هـ / ديسمبر 1963 م.

أعياد السلم والاستقلال

ماكف طلق رصاصنا حتى صفا ... جو الجزائر بالسلام وأسفرا
قد كان ميثاق السلام شريعة ... رعت الدماء وانكرت أن تهدرا
ان السلام فضيلة الاسلام في ... دنيا الخصام فكن له مستشعرا
أو ما ترى استقلالنا متركزا ... ولواءنا الاسمى يرفرف في الذرى
وبدا الهلال عليه سيفا قانيا ... كسب السلام فكان أبيض أخضرا
هذا الذي ذقنا البلاء لأجله ... مرا وقاسينا العناء الاكبرا
هذا الذي هبنا لكسب عزه ... هذا الذي متنا عليه لينشرا
نسخت مباهج عيدنا أحزاننا ... وقضى الحبور على الاسى واستظهرا
أو ما ترى الارجاء بالافراح قد ... زخرت بحورا وازدهت أن تزخرا
والشعب كالامواج فيها ظافرا ... وهو الجدير بنصره أن يظفرا
يتلو الاناشيد الروائع رافلا ... في حلة استقلاله متبخترا
ويسير تحت لوائه متهللا ... ومهللا لشموخه ومكبرا
يتبادل القبلات حوى هاتفا ... بحياة اعلام الجهاد مذكرا
ويزف للشهداء خير تحية ... مستنزلا لهم الرضى مستمطرا
ويواصل الحفلات في أفراحه ... ليذيع آلاء الاله ويشكرا
شاء العدو بكيده خذلاننا ... وأبى الاله لنا سوى أن ننصرا
كم بالغ استعماره في سحرنا ... فسبى العقول وفي الاخير استحسرا

*

ذكرى الاستقلال وعيد النصر (1)

— 3 —

ماجاء (يوليو) واستهل هلاله ... الا تهلل شعبنا واستبشرا
قد كان خامسه خميسا ثائرا ... لمآت آلاف الجنود مقهقرا
فاعجب لجيش قل في عدد وفي ... عدد تحدى الاطلسي الاشقرا
بصموده ووفائه بصموده ... رد الغزاة الغاصبين وأخسرا
هيهات يحرز غاصب نصرا ولو ... بالجن والانس احتمى واستنصرا
واعجب لشعب قام حيا بعدما ... قد كان مذ قرن وثلث أقبرا
عتق الرقاب حياتها من موتها ... ونشورها بعد الفناء لتحشرا
أحيا أبوبكر (بلالا) بعدما ... أودى كما أحيا (عليّ) (قنبرا)
أنظر لأهل الكهف كيف تمثلوا ... في شعبنا مستيقظين من الكرى
من كان ينكر بعثه من موته ... فالله أطلعه عليه وأعثرا
زف البشير اليه بشرى نصره ... من بعد عدوان أطال فأضجرا
حيا بها كقميص (يوسف) وجهه ... فرأى ك (يعقوب) الضياء وأبصرا
ياشهر (يوليو) أنت رائد رحمة ... ونزيل يمن يستطيب له القرى
أنت (المسيح) ونحن من أحببتهم ... فارق السماء مقدسا ومقدرا
أنت المتوج فوق كل متوج ... ما كان ذو تاج عليك ليفخرا

(1) نشرت بالديوان ص : (444 ـ 445 ـ 446) .

قد جاء نصرك غاسلا للشعب من   عار احتلال الأجنبي مطهرا

كم محفل فيك أبرت خطباؤه   كالخيل أمهر في السباق فأمهرا

وتساجلت شعراؤه بالسحر لا   بالشعر أسحر للقلوب فأسحرا

اليوم يذكر شعبنا حرية   بالشكر منه حرية أن تذكرا

باع النفائس والنفوس لأجلها   وبها اشترى في العمر أغلى ما اشترى

نال النجاح بها وأصبح منجزا   أهداف ثورته بها وموفرا

ودرى بها معنى الحياة ولم يكن   من قبل ذاك لكنهها متصورا

فقضى على أحلاكه بحكومة   طلعت على الآفاق فجرا نيرا

واختارها عربية شعبية   تأبى الدخيل عليه والمستأثرا

ان الجزائر قد أتى تحريرها   لدفائن الأمجاد فيها مظهرا

وأبان تاريخ الجزائر بعد ما   فرضت عليه قيودها أن يغمرا

بحث (ابن محي الدين) واستحيا اسمه   وبوسمه سك النقود ودنرا

يا يوم عيد النصر صفوك قد جلا   ما كان ران على القلوب وكدرا

ذكراك ملء القلب حاضرة بنه   هيهات أن تنفك عنه وتحبرا

أقررت أعيننا فكل مواطن   لك هاتف يملي الهتاف مكررا

فالشعب أجمع يحتفي بك راضيا   مستبشرا ويراك عيدا أكبرا

*

بواكير الاستقلال (1)

انظر الى الوزراء كيف تآزروا   يبنون شعبا مستقلا موسرا

يبنون أرضا خصبة عصرية   يبنون جيلا صاعدا متحضرا

قد هز اصلاح الزراعة أرضنا   فاستقبل الفلاح عهدا أزهرا

وافترت الصحراء عن ثرواتها   وكنوزها العظمى الكفيلة بالثرا

وتجلت الطاقات بعد خفائها   فتصدت الأيدي لها لتسخرا

ونقابة العمال هبت حرة   لتذود عن حق الأجير وتخفرا

وفوارق الطبقات في الشعب انتهت   فاليسر أصبح للفقير ميسرا

لولا فضول المال عند ذوي الغنى   ماكان منهم من طغى أو بذرا

ومشاكل الطبقات اعيت قبلنا   من فكروا في حلها فتحسرا

لو عمموا فرض الزكاة ولذلموا   لم يعدموا الأجدى لهم والأجدرا

والله غير محول ما بامرىء   حتى يحول ما به ويغيرا

قد أقدم الجنس اللطيف مناضلا   مع صنوه الجنس الكثيف فأبهرا

وتعاون الجنسين حسن توازن   يفوز مجتمع عليه توفرا

لكن سداه لنا ولحمته التقى   والطهر فلنربأ به أن يقذرا

يأبى لنا الاسلام الا صونه   ليكون من كل المساءات مطهرا

وتسابق الطلاب في ميدانهم   بأكفهم شهب تنير المشتيرا

جارى الفقير به الغني عدالة   فيها كما بارى الكفيف المبصرا

لولا سناها المستطير لما اجتلى   هدف الحقيقة باحث وتنورا

وردوا المعاهد رادة لبلادهم   ليزودوها الطيب المتخيرا

رشفوا الرحيق من العلوم وانتجوا   ماطاب كي يشتار لاكي يشترا

كالنحل عسلت الخلايا بعدما   رعت الربى وردا يرف وعبهرا

(1) المعرفة العدد: 8 — شوال 1383هـ / فيفري 1964م.

وسمت اذاعتنا بصقل نظامها … فاذاعت القول المفيد محررا
وجلت صحافتنا المقول بنشرها … ماينبغي منها لنا أن ينشرا
أن الاذاعة والصحافة شعلة … كشفية بضيائها تهدى الورى
فهما خبير الشعب فيه تصديا … للكشف عن أهدافه واستخبرا
وهما دليلا الشعب خط نهجه … ليوجهاه الى المدى ويسيرا
فليهدفا لفلاحه وليصرفا … انظاره لصلاحه ويذكرا
ولينصحاه فللنصيحة نفعها … ولو اعترى المنصوح منها ما اعترى
فلكم شفى الطب العليل بجرعة … من طعمها المر اشتكى وتضجرا
ووعى جماهير الجزائر رشدهم … فتضافروا عربا عليه وبربرا
لا فرق بين مزارع أو صانع … فكلا هما للشعب فيه استؤجرا
وتجندوا للاقتصاد بساحة … لم تجولا مصنعا أو متجرا
فالشعب يرجو لاقتصاد بلاده … نشرا وللعمران أن يستبحرا
وتوالت الحملات فيه تناميا … وتكافلا فيهى البلاد وشجرا
وحمى البنين من التشرد واحتمى … بالابجدية فاهتدى واستبصرا
و (الجيش) شعبى الهوى وطنيه … يحمى الحمى متطورا متحورا
يبني بناء الخالدين لشعبه … ويذود عن شرف البلاد مظفرا
قد ضم من حول الحدود صفوفه … متساند للزحف صف وعسكرا
من رام بالعدوان خرق حدوده … اصلاه نار رصاصه فتقهقرا
و (المكتب) احتضن الشباب موضحا … اهدافه المثلى له ومفسرا
احرى المبادىء بالتفوق مبدأ … بادى الصلاح به الشباب تأثرا
و (الجبهة) الصماء قطب نضالنا … قبلا وبعدا مضمرا أو مظهرا
لا غروان ترعى الشعائر حرمة … وتسن ما يرضى النهى و (تدسترا)
ما أصلح الحكم اشتراكيا لنا … والأمر شورى والنظام مجمهرا
و (المجلس الوطني) أورد رأيه … في نص دستور البلاد وأصدرا
وتصارح النواب فيه بنقدهم … كغضنفر للذود هز غضنفرا
وجرى على (الميثاق) فيما اختاره … مستمسكا ببنوده مستنصرا
فعلى " طرابلس " السلام فعهدها … سن القواعد للسلام وقررا
وتلاه حكم الشعب في تصويته … (بنعم) على الدستور لما خيرا
وعليه أن يحلى بوحدة شعبه … ويبث روح الود فيه ويبذرا
ويفض كبل المشكيلات مقدما … فيها هداه على هواه ومؤثرا
ما اختار شعب للرئاسة راعيا … الا لكي يسعى عليه ويسهرا
والشعب قاضى الشعب يملى رأيه … حرا على كل الولاة مؤمرا
أو ما ترى الدولات تخطب وده … وبه تسير تقدما وتأخرا
فمن ارتضاه الشعب فهو المرتضى … ومن ازدراه الشعب فهو المزدرى
وثقافة الاسلام والعرب ابتغت … من يبتغيها وانبرت لمن انبرا
قد قرر الدستور في ترسيمها … اسمى البنود فسرنا ما قررا
ما ملة الاسلام الا عصمة … زكى الاله بها النفوس وطهرا
هي ديننا الرسمي فيه ضماننا … في حكمنا وامائنا ان نكفرا
فكتابنا الذكر المنزل رحمة … ولساننا الفصحى الفنية مصدرا
لغة (امرىء القيس) الامير و (عروة) … و (الحارث بن حلزة) و (الشنفرى)
لغة الرسول (محمد) و (كتابه) … وكفى ، فكل الصيد في جوف الفرى .

مشاكل الاستقلال (1)

— 5 —

ومشاكل استقلالنا حتمية   لم يلج منها أي شعب حررا
شيفرت مصالحنا من الخبراء مذ   فر العدو وهالنا أن تشغرا
ففراغنا الفني أقلق بالنا   وأثار حيرتنا الى أن عمرا
ومن البطالة والغلاء مهدد   بالجوع أشقى الكادحين وأخسرا
لكن (صندوق التضامن) لم يزل   يعطي ويعطي المال حتى يسرا
رعيا له ولمن أهاب لفتحه   ولمن أجاب مقللا أو مكثرا
ومن المشاكل من يرى استقلالنا   عما نحاول قاصرا ومقصرا
ويريده متكلما في مهده   مثل (المسيح) وبالرسالة مبكرا
أن النشوء والارتقاء لسنة   في الكون أجراها الاله وقدرا
ومن المشاكل طاقة ذرية   تفجيرها شان السلام وعكرا
ما عهد (افيان) استطيب كمائها   حتى أصيب بها فشيب وكدرا
لم يمتحنا الاجنبي بمخبر   لو أن فيها للمواطن مخبرا
ومن المشاكل فتنة قبلية   كل القبائل اعلنوا منها البرا
ما كاد يصلى الشعب نار لهيبها   حتى خبت وأبت به أن تسعرا
وأبى بها الثوار الا أن يروا   رأيا لتوحيد الجزائر مثمرا
فالشعب كان بها حنيفا مسلما   لا طائفيا لا ولا متعنصرا
يأبى لنا الاسلام والارحام ان   يقلى أخ منا أخاه ويهجرا
في وحدة الاسلام أوثق جامع   يحوي بني الاسلام من كل الورى
قد ضم أبيضهم وأسود هم لمسا   (وأضل)(2) أحمرهم بها والأصفرا
ومن المشاكل ما تبوح بذكره   ومن المشاكل ما نرى أن يسترا
واذا بليت بعقدة عسرت على   كل الحلول فكن لها (الاسكندرا)
واستفت في باقي المشاكل واستشر   من كان حرا مخلصا مستبصرا
واذا دعيت الى التفاهم فاستجب   ان الخلاف يسوؤنا ان يشجرا
فالخير للأحرار والاحرى بهم   ان يجمعوا شملا لهم متنثرا
ومن ارتأى رأيا فاخطأ فليقل   أخطأت دون تردد متعذرا
من كان ثوري العقيدة حرها   لا يرتضي أن يستبد ويبطرا
في سيرة (الفاروق) للراعي هدى   يدعو الرعية أن تحسب وتنصرا
قد ردت امرأة عليه فلم يشأ   الا بصائب رأيها أن يجهرا
وهو المصرح قائلا من قد رأى   في اعوجاجا فليقوم ما يرى
فاحمل على جيش الظلام مبددا   بالنور كل عتاده ومكسرا
من كان يحمل شعلة ثورية   هيهات يخشى الظلام ويحذرا

مشكل الاعتداء على الحدود

ومن المشاكل لم أجد أدهى لنا   وأشد من خرق الحدود وأخطرا
قد فاجأتنا غارة من جارة   بالجنب بيتها الدخيل ودبرا
منها جأرنا غاضبين وما لنا   من غارة الاخوان أن لا نجأرا
من لم يذد عن حده أو حقه   لم يلق الا عاديا متأثرا

---

(1) المعرفة العدد : 9 ـ ذو القعدة 1383 هـ / مارس 1964م.
(2) لعل في هذه اللفظة تصحيفا ، وصوابها وأظل) .

فاذا تجند شعبنا متأهبا … لدفاعه فمن الحجى أن يحذرا
لم يرقبوا فينا ولا في جيشنا … عهدا ولا من في ثرانا أقبرا
فترابنا ميراثنا وتراثنا … وفاة أعلام الشهادة في الثرى
وحمى لامتنا أمين لم يزل … وقفا عليها لن يباع ويشترى
من سامه عسفا فعسفا سامنا … ومن ازدرى بحدوده فبنا ازدرى
وبحسب جارك في الجوار اذاية … ان يستطيل عليك فيه ويحقرا
وجناية الاخوان شر جناية … من قبحها وجه الاخاء تمعرا
ودم الالى حرسوا الحدود بأرضنا … دم اخوة فبأي ذنب أهدرا
ياهولها من محنة حلت بنا … حلت عرى الأرحام حلا منكرا
فالحرب أصلى المغربين ضرامها … و (الأطلس) اقتحم الوغى فتشطرا
لم يذك عود ثقابها غير الذى … أغرى بها بعض الولاة غررا
اني أكاد أذوب اشفاقا لما … أخشى عليه غبارها أن يسفرا
لا خير في العدوان فاعدل ان ترد … حكما يسرك ذكره أن يؤثرا
وازجر عن الطغيان وانهر كل من … سفك الدماء من الطغاة وانهرا
مالي أرى الاخوان شبوا فتنة … كبرى بها حبل الاخاء تبترا
ان السباب هنا وهناك قد … اقصى الشقيق عن الشقيق ونفرا
ماكان من شرف الاخاء وبهله … ان يحذى الأخ بالسباب ويحذرا
فرح العدو بحربنا متشفيا … متندرا بخصامنا مستسخرا
ياقادة الوطنين ان نزاعكم … خطب أطال الشائمات وأكثرا
في الدين والدم واللسان روابط … احرى بأن يحلى بها وتقدرا
الله والأرحام والاسلام في … شعبين من أزكى الجدود تحدرا
فكلا هما اخوان قد حزنا معا … مما أثار قلاهما وتطيرا
هبو الى وصل التفاوض واعدلوا … عن وقفه فيه الوفاق تعذرا
هبوا الى الصلح الذى هو عندنا … خير كما نص الكتاب وأخبرا
ولعل حسن ظنوننا في جارنا … يرعى وكسر قلوبنا أن يجبرا
و (المغرب الأقصى) أجل كرامة … من أن يكن لنا العداء ويضمرا
قد ضج كل أخ (بمصر) و (سوريا) … و (الرافدين) و (ليبيا) متأثرا
وغدا (الفرات) و(دجلة) و(النيل) في … كرب كما (بردى) غدا متكدرا
واهتز (لبنان) الأشم مواسيا … (للأطلس) الدامي وهب مذكرا
وأساه (زغوان) الابر مضمدا … جرح العواطف من أساه مطهرا
ولعل (تونس) أن يوفق سعيها … للصلح بين الجارتين فتشكرا
ولرى على يدها الوفاق مواتيا … عيد الجلاء التونسي مبررا
ما يوم (بنزرت) الرهيب بعازب … عنا ولو طال المدى وتطورا
ان الجلاء بها جلا عنا الأسى … وأجل (تونس) في الكفاح وأكبرا
ولعل أقطاب العروبة أن يروا … خير الحلول فنستريح ونوسرا
ولعل عهد الصلح حان لنا فقد … عزمت به (افريقيا) ان تسفرا
فاغنم بـ (باماكو) اللقاء ولا تقل … مالي و (مالي) واقبل المتيسرا
مهما استطال أخ علينا واعتدى … لم نرض أي دم له أن يقطرا
ولعل أنصار السلام ورسله … يجلون جو المغربين الأغبرا
فنجد أسباب الاخوة بيننا … ولعد مغربنا الكبير ليظهرا
ونرى مغربنا الكبير محققا … مهما تأجل وقته وتأخرا

الى العمل الصالح (1)

— 6 —

يابن الجزائر قد ظفرت بنعمة ... عظمى فكن لوليها متشكرا
اليوم فاستقبل حياتك باسما ... وانهض لتشييد البناء مشمرا
وافتك معركة البناء فكن بها ... متقدما لتقدم المتأخرا
ومطالب التحرير منك كثيرة ... فاحرص عليها كي يفيد ويثمرا
والى التدرب والتقشف فاستبق ... تسبق وتدرك ما عليك تعسرا
ان البلاد تحررت وتطورت ... فاعمل وكن متحررا متطورا
وتناس عهد البؤس فيها واقتبل ... عهد السلام لكل خير مضمرا
واذا أخوك عليك عز فمن وقل ... ها قد (تشيب) من اخوة (تماترا)
ان التسامح رمز وحدتنا التي ... هي للبلاد وأهلها أقوى العرى
قالوا سمعت بما جرى فأجبتهم ... وطني استقل فلا أبالي ما جرى
حسبي سيادة دولتي في أمتي ... وبلوغ شعبي حقه مستوفرا
حريتي حق ظفرت بكسبه ... وكرامتي ليست حديثا يفترى
علمي يرفرف فوق رأسي عاليا ... وحكومتي تحمي المدائن والقرى
وجزائري تجني مكاسب ثورتي ... وتمارس الحكم الفتى ليكبرا

— لعنة الله على الاستعمار —

أنا بالجزائر واثق متفائل ... ما دمت فيها لا أرى مستعمرا
لا كالقديم (مجاهدا)(2) بعدائه ... أو كالجديد مقنعا متسترا
ان احتلال الاجنبي لأرضنا ... اعيا بمحنته العقول وحيرا
قد كان عشش في البلاد مفرخا ... وخلا له جو البلاد فنقرا
وأتى الفظائع في الجزائر فاجرا ... قرنا وثلثا ما اشتهى أن يفجرا
هو علة العلل التي حلت بنا ... ومصابنا الجلل الذي منع الكرى
ما صرصر البازي بقمة شاهق ... الا اثار عليه ريحا صرصرا
سد السبيل على الحناجر خانقا ... وعلى المشاعر حانقا ان تشعرا
ومحا التآخي مغريا بعضا على ... بعض كما اتهم البريء وزورا
وقضى على الاحرار حتى لم يدع ... منهم لعهد السلم الا الأنذرا
وأقام عسكره علينا صائلا ... من كل ذي قلب قسا وتحجرا
قد حطم (الاوراس) رأس شموخه ... وسقاه (جرجرة) الردى فتدهورا
تبا له ابدا ولاستعماره ... فقد استبد بأرضنا واستأثرا
لما أقام بها استغل ومذ نوى ... عنها النوى بث الخراب ودمرا
لعنا له من بعد لعن انسه ... حظر الحياة على العباد وحجرا
وعدا فساد في البلاد مغامرا ... ومصير كل مغامر أن يغمرا
ضاق الضمير العالمي بجوره ... ذرعا فشهر باسمه ما شهرا
واحتجت الدنيا عليه بأرضها ... وسمائها فلوى العنان وأدبرا
فارض الاياب غنيمة منا وسر ... شر المسير مبغضا ومحقرا
واذهب كما ذهب الحمار فما عدا ... مستعمر الا غدا مستحمرا
وارحل بخزي الدهر مدحورا بلا ... رجعى فعقبى المعتدى ان يدحرا

(1) المعرفة العدد : 10 ـ ذو الحجة 1383 هـ / افريل 1964م .
(2) يظهر ان في هذه اللفظة تصحيفا ، ولرجح ان تكون (مجاهرا) .

ـ قطع دابر الظالمين ـ

أين الجبابرة الذين بأرضنا — عاثوا فسادا واستباحوا المنكرا
أين المحاكم والسجون وقمعها — وعذابها لمن استثار وفكرا
أين القوانين التي سنوا بها — ماشاء ماكرهم بنا أن يمكرا
أين المشانق والمذابح أين من — سفكوا بساحتها النجيع الأحمرا
أين المدافع والقنابل أين من — حصدوا العباد وخربوا ما عمرا
أين الذين تمردوا وتوعدوا — هل أحدثوا الا انقلابا أبترا
أين المنظمة الرهيبة أخمدت — ريح العدالة جرمها المتسعرا
أين التماثيل المصير خدها — ما بالها خرت عليه فعفرا
أين القصور القيصرية أصبحت — بالشعب آلهة وأجلت قيصرا
أين المقاهي الأجنبية لم تعد — تسقى الخمور ولا تديرالميسرا
أين الجواسيس الذين تعقبوا — آثارنا وترقبوا أن نخسرا
سفوا كعجل السامري فان تقل — باؤوا بعقبى السامري فبالحرا
ان الذين تنكروا لبلادنا — وجهادنا لهم الزمان تنكرا
زالوا وزال جميع ما صالوا به — في أرضنا وتبختروا فتبخترا
ذاقوا مرارات الهزائم حنظلا — وتجرعوا جام العقاب مخدرا
ان الذي استعبدتموه بقهركم — ويمكركم فك القيود وكسرا
كالمارد الجبار حطم قمقما — وسمى يحلق في الفضاء فان عرا
وعصا الكليم اذا استحالت حية — تسعى ففاز بها وخاب من افترى
شعب الجزائر عبقرى أصبحت — بنجاح ثورته الجزائر عبقرا
شعب الجزائر شوروى فطرة — لا يرتضى أبدا عليه سيطرا

ـ تأمين الأجانب ـ

قل للذين من الفرنج استوطنوا — أرض الجزائر وارتضوها مهجرا
انتم بها جيراننا وضيوفنا — فتيقنوا أنا بكم لن نغدرا
لا ترهبوا منا وان سلف الأذى — منكم فميدان الكفاح تحورا
لا تنقضوا عهد التعاون واغنموا — جو التفاهم قبل أن يتوترا
وتعاون الاحياء في الدنيا على — كلف الحياة ضرورة لن تنكرا

ـ شكر الدول والأمم المؤيدة ـ

يابن الجزائر ساد شعبك أرضه — من بعد ما فقد السيادة أعصرا
(افريقيا) احتفلت بنصرك واحتفت — فامدد يديك لها بودك مشعرا
واستبشرت بك (آسيا) واستكثرت — فتولها مستبشرا مستكثرا
(والمغرب العربي) أهل هلا له — و (الشرق) هلل بالسرور وكبرا
والوحدة العرباء أعرب قومها — عن حلفها وتعاهدوا أن ينشرا
(فمن المحيط الى الخليج) ادا ؤهم — حتى يحقق في البلاد ويبصرا
وحبتك (مصر) من الثقافة عدة — ومن الكفاح لكي تخط وتمهدرا
من بعد ما أوت اليها نشأنا — في الجامعات وبوأته (الازهرا)
فاشحذ ذكاءك باحثا أو دارسا — واركب رجاءك طائرا أو مبحرا
وأتت من الدول الهدايا هذه — في اثر تلك تسح غيثا ممطرا

شكرا لهم وعلى الأخص لمن لهم … في بدء ثورتنا يد لن تكفرا
شكرا لأحرار الأجانب كلهم … شرقا وغربا لا أخص معسكرا
شكرا الجارات أجارت قومنا … أمدا وضمت شملنا المتبعثرا
شكرا لمغربنا الكبير فانه … آوى رجالات النضال وأكبرا
شكرا لمصر وفخر مصر (جمالها) … ونصير كل الشرق مهما استنصرا
سهم العروبة في كنانة أرضها … ما حاد عن أهدافها أو قصرا
وأسامة العرب الذى ان سامهم … ضيم كفاهم نجده ان يسزارا
احيا لنا (عمرا) و(عمرا) حاكما … عدلا كما أحيا (المعز) و (جوهرا)
(مصر) الجزائر و(الجزائر) مصر في … ركب العروبة منجدا أو مغورا .

ـ مناجاة الوطن ـ (1)

ـ 7 ـ

يا موطني اني وجدتك مأسسي … حربا وسلما فاتخذتك مشعرا
جاورت بيتك في مقامك آمنا … وأقمت فيك بستره متدثرا
عفرت وجهي في ثراك فلم أجد … أبدا ترابا من ترابك أطهرا
ولثمت ركنك والتزامتك محرما … فشممت غالية ومسكا أذفرا
بوركت من حرم أمين حبه … غمر الفؤاد بنوره فاستبصرا
ما أنت الا آية قدسية … في سفره رددتها متدبرا
شهدت بوجدته فمنذ قرأتها … وحدته في خلقه متفكرا
فاضت كنوزك بالغنى وتدفقت … في أرضك الثروات تجرى أنهرا
أطلعت لي خير النبات وسقت لي … خير النبات فكنت مصدا خيرا
ووجدت حبك مثل حبك طيبا … في مطعمي وجنى جنانك سكرا
وصفا هواؤك مثل مائك واستوى … فيك المناخ وجاد جودك منظرا
فلأنت فرد وسي المحيل لم أطق … عما تطالعني به ان أصبرا
ما أنت الا تربة تبرية … حلى بها الدنيا الاله وسورا
وطن رفاة الفاتحين سماده … وجرى دم الشهداء فيه فنورا
أين الربيع الطلق من حريه … نفخت به روح الحياة فأنشرا
ليلاى فيك تعطفت بوصالها … فشفت به مجنونها المستهترا
قد اطفأت عنه الحريق بضمها … وسقته من فمها الرحيق المسكرا
فصحا بخمرتها المصهرة التي … جلت بغير دم الفدى أن تعصرا
وجلا بطلعتها غياهب همه … وزكى بطيب حديثها وتعطرا
يا موطني مهما عزفت بارغنى … لحنا لغيرك كنت لاسمك مضمرا
اني وقفت عليك نايي مطربا … ووهبت شعبك مزهري والمزهرا
ويطيب لي أن يحظيا بقبوله … فكلاهما بنياط قلبي أوترا
وهتفت باسمك حاديا لك هاديا … بمآثر الاجداد فيك مذكرا
حلاك (عقبة) بالدماء زكية … وحباك نصرا بالسلاح موزرا
وكساك بالاسلام درعا شدها … في السرد من صهر الجهاد وقدرا

---

(1) المعرفة العدد : 11ـ12 ـ محرم صفر 1384 هـ / ماى جوان 1964م .

وتوالت الثورات فيك فلم تكن — في زحفها متثاقلا أو مدبرا
بل خضتها حربا سجالا صامدا — حتى حمدت بصبح ثورتنا السرى
يا موطني أقسمت باسمك انني — جنديك الفادى الى أن أقبرا
صوت (ابن باديس) الامام يرن في — أذني فلم أخطيء هداك الانورا
وحسام (عبد القادر) المقدام في — كفي متى اضرب عداك به فرى
الله ضاعف فيك صبغة صنعه — حسنا فضاعف حاسديك وكثرا
اني اغار عليك غيرة عاشق — غال يجل حبيبه ان يذكرا
وأخاف كل مناويء لك ناظر — شزرا وكل منافق لك كشرا
وأخاف عنك أذى يصيبك جهرة — اوفي الخفاء مع النسيم اذا سرى
وأخاف منك عليك فاعذر خائفا — منك الأذى حذرا عليك محذرا
اني اعيذك بالمعيذ من الأذى — أن يستبد بك الهوى ويغررا

— نصيحة شاعر —

يا بن الجزائر ان ارضك حررت — وحماك من حكم الدخيل تطهيرا
ان الجزائر تربة عربية — لا ترتضي غير العروبة عنصرا
وكتابك القرآن فيه فكن به — مستعصما ولا يكن مستفسرا
وشعارك الاسلام فيه فلا تبدع — أبدا شعارك مظهرا أو مخبرا
ولتدرع بعقيدة ثورية — وبوحدة شعبية لن تكسرا
هذا هو الحق المبين فخذ به — اني نصحتك منذرا لك محذرا
فاقبل نصيحة شاعر كمصور — جلى بريشته النضال وصورا
آوته (بسكرة النخيل) كملجأ — من بعد ما نخل الحياة وبلورا
وتذوق الدنيا وكل طعومها — حلوا ومرا فاستطاب وأنكرا
ومشى الى الستين يدلف متعبا — وكأنه عاش المئين وعمرا
عبر التجارب واستتم عظاته — منها فود لو تستتم المعبرا
ان الهوى حجب العقول عن الهدى — واضلها ان تستدل وتبصرا
فاستعرض الاحداث وانظر تستفد — عبرا فم التاريخ عنها عبرا
والحق يركب الثائرين على الهوى — فالثائرون عليه أحرار الورى

— ابتهال الى الله —

مولاي أظهرت الجميل تفضلا — وسترت ما لا ينبغي أن يظهرا
وبدأت بالآلاء قبل سؤالها — فضلا وزدت من استزادك مكثرا
أنت الذي ذللت صعب الشعر لي — فركبته فيما رغبت مسخرا
فاذا أصبت به هداي ابتغي — واذا انحرفت اقلتني أن أعثرا
اني نصحت به عبادك باذلا — جهدي وحسبي بالرضى أن أوجرا
ولقد برئت اليك من حولي ومن — طولي وجئتك تائبا مستغفرا
نحن العبيد المذنبون ولم تزل — ربا تحب لذنبنا ان يسترا
فاغفر لنا واصفح وكن متجاوزا — عنا لكل السيئات مكفرا
والطف بنا لطفا خفيا واقينا — من كل سوء باقيا متكررا
واجعل على الايمان عقد قلوبنا — متركزا بكفاحنا متآزرا

واجعل بسينا راشدين أهلنا — وقريبنا وحبيبنا المتذكــرا
وارحم(خمستي)والذين استشهدوا — واستثمروا بنضالهم ما استثمرا
وادم على شعب الجزائر أمنه — واعذ بلطفك شمله أن يغفرا
واجعل لدولته السلام ممهدا — واجعل لقادته الوئام ميسرا
أنت الذى أنجيته من كربه — ومنحته استقلالا فتحررا
آثرت بالفضل الرسول (محمدا) — وهو الاحق بمثله أن يؤثرا
فاجعله فينا شافعا ومشفعا — واضمن لنا مع حزبه أن نحشرا
وعليه بارك في علاه مصليا — وسلما ومعظما ومقدرا
والآل والأصحاب اعلام الهدى — ومن اقتدى بسلوكهم وتأثرا
آتيتنا نعما على نعم نمت — عددا فأوزعنا لها أن نشكرا

الاهــداء
الى أرواح شهدائنا الأبرار (1)

وقفت شعرى على شعبي أخلد ما — أبداه من مثل عليا بتدويني
شعبي الذى شغله شغل لموهبتي — شعبي الذى كل مايبديه يحليني
وموطني الزاهر المفتر عن طرف — من الذخائر في كل الأحايين
أغل غازا وبترولا كغلته — بالحب والتمر والزيتون والتين
أروت شهادة مليونين تربته — دما فأثمر تحرير الملايين
وها أنا بعد ما استعرضت ثورته — وما افادته من نصر وتمكين
أهدى الى شهداء الشعب قافية — أثنت عليهم وأدلت بالبراهين
سارت مع الشعب في أطوار ثورته — تحصى مزاياه في شتى الميادين
لا أدعى أنها في الشعر ملحمة — أطلقت فيها خيالي للأفانين
لكنها قصة ثورية كشفت — عن وعي أبطالنا شم العرانين
قوم على البغي ثاروا ثورة عمما — يرمونه بالشظايا كالبراكين
حتى ألانوا قناة الغاصبين لهم — وفندوا بالفدى دعوى الفراعين
لا زال عهدهم الثورى محترما — وحكمهم عادلا حر القوانين
ولم يزل شعبنا من روح ثورتهم — يستلهم الرشد في الدنيا وفي الدين .

مشاعل حكمة (2)

قصيدة الشاعر الكبير الأستاذ الشيخ محمد العيد آل خليفة التي كتبها كمقدمة لنطبعة الثانية من " عيون البصائر " .

كتاب لمن أملاه بالعلم يشهد — يطالعنا بالعود والعود أحمد
يتوجه باسم الاله ومحمد ه — نصير لم يدعو اليه مؤيد

---

(1) أهدى الشاعر بهذا المطولته السابقة ، وهو غير منشور ، وانما عثرت عليه من بين ما عثرت عليه من أخبار الشاعر وشعره في مكتبته الخاصة ببيته في مدينة بسكرة .

(2) نشرت في كتاب (عيون البصائر) ص : 11 وما بعدها ، للشيخ محمد البشير الابراهيمي وهي مؤرخة به في : 2 ربيع الاول 1390هـ/ 7 ماى 1970م .

"عيون" بها تجلو "البصائر" نورها … علينا كما يجلو الكواكب مرصد
تجلى بها نور الهداية فاجتلى … بها هدف الاصلاح من هو أرمد
وأطلعها فكر "البشير" بأفقه … فما هي الا أنجم تتوقد
ولا أدعي أني أقدم سفره … فذلك شأو عن بياني يبعد
أراه اكتفى عن كل حلى بذاته … فأغناه عن حلى جمال مجرد
وكنت بشعرى "للبشير" مواكبا … على سمعه في مركب العلم أنشد
وقد يسمع البيت البليغ فينتشى … وقد يسمع البيت المسفّ فينقد
وما هو الا كاتب ثاقب الحجى … ورائد فكر مصلح ومجدد
جرى حبره في الصحف كالبحر زاخرا … بغيرته للحق يرغى ويزبد
زوائمه أرض الجزائر مددها … ولكن لما في أرض عبقر مولد
لقد رئس الاعلام مجدا وسوددا … وهل كان كالعرفان مجد وسودد
وكان منارا للعقول ومعلما … يشمر الى تحريرها ويمهد
ينادى الى حرية الفكر لاهجا … بها منكرا ما يدعى المتقيد
له قلم ان رام الاذى به … فرمح رديني وسيف مهند
وان رام اذكاء العقول فمشعل … وان رام ارواء القلوب فمورد
وان رام وصفا فهو أجمل ريشة … لابرع رسام على الفن تعمد
وان رام جدا فهو صور مجلجل … رهيب يقيم الهازلين ويقعد
وان رام مزحا فهو للقلب بلسم … من الهم شاف للشقاء مبدد
وان رام ارهاف الشعور بفله … فعود به يشدى ولحن يردد
لقد كان للفصحى أباها وأمها … ومرجعها ان ندّ أو شذ مفرد
وكان صديقا لابن باديس مخلصا … وصاحب شوراه الذى لا يفنّد
وقام جديرا بالرئاسة بعده … قديرا عليها فضله ليس يجحد
فيالهما من فرقدين بأفقنا … أنارا وغارا فرقد ثم فرقد
سلام على الاعلام ما طاب ذكرهم … وآثارهم في العلم والعلم يخلد
لقد زرعوا زرعا فأخرج شطأه … كأخصب محصول لمن هب يحصد
وأبقوه للأجيال ذخرا مباركا … وزادا من الذكرى لمن يتزود
وأقبل جيل بعدهم غرس ثورة … عصامية يرجو النمو ويلشد
ويبنى على أرض الجزائر أمة … مثالية في وعيها ويشيّد
شبابا تبارى دارسا ومدرسا … بميدان مجد أيهم فيه أمجد
يشد على الفصحى يدا ويمدها … يدا باللغات النافعات ويسلد
فيا فتية الجيل الجديد الى العلى … الى العلم فامضوا كلكم وتجلدوا
أرى غدنا المرجو تلقى فروضه … عليكم وآمال الجزائر تعقد
وهذا كتاب فيه تبصرة لكم … وتوعية مثلى وقول مسدد
نصوص معانيها ينابيع فجّرت … لكم ومبانيها كؤوس تنضّد
خذوها وصايا من حكيم مجرب … تملى عليكم أن تسودوا وترشدوا
وأملى عليكم منفسات من المنى … كمهد فمن منكم بها يتعهد ؟
تملى عليكم أن تكونوا وعاتها … وأكفاءها أو لا تكونوا وتوجدوا
وغياب وأبقاها مشاعل حكمة … فقودوا بها الركبان تهدوا وتهتدوا .

أيها الشعب المفدى ... عشت عشرا من سني التحرير (1)
هزنا (يوليو) الى البشرى ونادى ... فأجبناه جموعا وفرادى
صفق القلب سرورا وانبرت ... خلجات الصدر تهتز ارتعادا
رقصت في جو انغام الرضى ... وهي تشدى فيه مثنى وأحادا
وهفا القلب اليها مرهفا ... سمعه شوقا اليها واستزادا
أيها الشعب المفدى هذه ... فرصة فيها تعاطيك السوادا
وساقيك كؤوسا حلوة ... من أفاويق الرضى تنفى النكادا
عشت عشرا من سني التحرير بسل ... عشت نشرا بعد ما مت اضطهادا
هذه فرحة عهد زاخر ... بالعلى فاس به العهد المبادا
هذه فرحة عيد عاشر ... من سنى استقلالنا باليمن عادا
(يابن محي الدين) قم فانظر تجد ... شعبك الثوري يقفوك جهادا
وتجد أمتك اهتزت الى ... صوتك العلوى سمعا وانقيادا
قربت لله في ساحاتها ... عددا ضخما على المليون زادا
خلفوا احداثهم نفاحة ... بالشذى تدلو رباها والوهادا
فحباها الله تحرير الحمى ... وسقى الأرض البطولات العهادا
والشهادات رسالات الفدى ... خطها الأبطال بالقاني مدادا
هذه ارضك أضحت حرة ... بعدما أجهدها القيد وآدا
وهدا شعبك فيها آمنا ... بعد ما أمضي بها سهدا شدادا
وغدا اليوم بها تحكمه ... سلطة الشعب فاعطاها القيادا
كله ثار يدا صانعة ... أويدا تزرع أو تنمى اقتصادا
وشبابا صف للتجنيد أو ... صف للتثقيف يبغى منه زادا
والثقافات سبوات النهى ... كم بها مخترع احيا الجمادا
ياشباب العلم قدس مشعلا ... لك جلي ظلم الكون انقيادا
والحة وار الرواد في أجوائهم ... انهم بالكشف جابوها طرادا
مارسوا الاسباب فانقادت لهم ... واضحاها ، فلم تبد انقيادا
سابقوا الانجم في افلاكها ... وامتطوا فيها الصواريخ جيادا
أين نحن اليوم من أهدافهم ؟ ... انهم قد ادركوا منها (اليقادا) (2)
فتحرر وتفتح مثلهم ... واتسع فكرا ، وعلما ، واجتهادا
كل علم في ازدياد دائم ... يقتضي المرء من العلم ازديادا
هذه نفثة صب بالحمى ! ... بثها من لاعج الشوق ابترادا !
لاتخلها نفحة شعر بحتة ! ... بل خطى شيخ عن الركب تمادى !
تمت العشر ، فادينا بها ... سجدة الشكر لمن بالنصر جادا
فله الحمد على اتمامها ... واليه المنتهى مهما تمادى !

---

(1) نظم الشاعر هذه القصيدة في تخليد الذكرى العاشرة للاستقلال ، ونشرت في مجلة (الاثير) العدد : 5-1اوت 1972 . وجاء في العدد : 7-1اكتوبر 1972 من هذه المجلة تصحيح لهذه القصيدة

(2) يظهر ان في هذاه الكلمة تصحيفا ، ولعل صوابها (القيادا) .

اخـــوانيـــــات

احياء الأ د ب (1)

وردت لنا هذه القصيدة الأدبية من أخينا الفاضل الكاتب البارع ببسكرة بناء منه على ظنه الجميل بنا . وهذا نصها :

صفاقس نلت العز مني لك البشرى ... بـ (عصرجديد) (2) نـاز(من أعصر أخرى) (3)
هنيئا لقد وافى السرور وأقبلـت ... عليك سعود العصر تمنحك الشكـرا
هنيئا مريئا للمهيرى (4) وعصره ... لقد شيد البنيان في روضه زهـرا
وخلب من لطف البيـان عقولنـا ... وهيج من تلك الخصال لنا الصدرا
لقد أيقظ النيام حيث بسير وزه ... وقد نشر الاصلاح من عدله نشـرا
وارشد عميان البصيرة مابـها ... من الكذب والبهتان للسنة الغراء
لقد جبر المكسور بعـد انكسـاره ... وعالجه كيا ، وكان بـه أدرى
لقد بلغ المقصود من كل راغـب ... وشاع لدى الاصقاع بالهمة الكبرى
على الوطن يسعى السعي من غير سمعة ... على الوطن يعدى النفس والملك والتبرا
يقوم خصيا للعود لوطنـه ... لذا هرع الشاكون يشكونه الأمرا
فلا عدم القطر العزيز لـه يـد ا ... وأحمدنا (5) لا زال يحدو بنا العصرا

لله أيام الزفـاف - (6)

السعد فيك وفي جبينك بادي ... يهنيك أنك مطلع الأسعـاد
اني رأيتك بالفخار مزمـلا ... فاهتز من فرط السرور فـؤادي
ته (يا ابن خيرالدين)وافخر بالـذي ... أولاك ربك من هدى ورشـاد
وابشر فنجمك لاح في أفق العلا ... بالعـز والتأييد والامـداد
يحمر في أفق العـلا متـلالأ ... فيكاد يخطف أعين الاشهـاد
ما هوفي لألائه وبهائـه ... الا كمثل جبينك الوقـاد
هذا الزفاف وهذه أفراحـه ... لا غـرو ان أبدعت في انشادي
البشر في أفـق السعادة رائـح ... والبشر في أفـق السعادة غادي
ما ذا أنمأليك عن آي المنى ... آي المنى تربـر على التعداد
لله أيام الزفاف فانهـا ... أيام عيد فاخر الأرفـاد
ان كانت الأعياد يفـرق بينهـا ... فضـلا فعيدك أفضل الأعياد
أو كانت الأجواد تقـدم بعضهـا ... خلقـا فأنت مقدم الأجواد

---

(1) نشرت بجريدة (العصر الجديد) 23 سبتمبر 1920، وقد بعث بها الي من تونس الدكتور محمد الصالح الجابري .
(2) يقصد بالعصر الجديد : الجريدة المعروفة بهذا الاسم، والتي صدرت بصفاقس سنة 1920، ثم عطلت عن الصدور عدة مرات بداية من سنة 1923 نتيجة مسلكها الوطني .
(3) وفي رواية (بنهضة كبرى) .
(4) هو أحمد حسن المهيري صاحب الجريدة المذكورة . (5) اشارة الى أحمد حسين المهيرى .
(6) نشرت في (الشهاب) العدد : 23-14 ذو القعدة 1344هـ/ 27 ماي 1926م ص : 4، وكان الشاعر قد نظمها في تهنئة الشيخ محمد خيرالدين بزفافه .

في عز شأن في جميل تواضع ... في صدق قصد في تقي وسداد
خلق كأنفاس النسيم لطافة ... رام الى النفس الزكية هادي
(فرفار)عاودها التآزر بعدما ... حل الشقاق بها عرى الأفراد
مازال في أنحائها غني الهوى ... حتى وقفت اليه بالمرصاد
وأفضت فيها بالمكرمات فأصبحت ... دار الوفود وكعبة الرواد
(المعهد العلمي) أنت وليده ... لا بدع ان أصلحت كل فساد
شهدت لشخصك في العلوم شيوخه ... بشاهدة الأسياد للأسياد
فأتيت ترشد أمة منكوبة ... (شرقية) الآلام والأنكاد
عصفت عليها في القديم عواصف ... وعدت عليها في الحديث عوادي
أبناؤها الأوغاد خانوها ولم ... تنقص من أبنائها الأوغاد
لا يفتئون على المقابر عكفا ... في صورة النساك والعباد
واذا خبرت "فقيههم" لم تلفه ... الا الأصم الفرد في الاعداد
قوم الى أرض التواكل أخلدوا ... فشقوا وتلك نتيجة الاخلاد
لم تأل جهدك (يا محمد) فيهم ... حتى ظهرت بمظهر الأطواد
وكذاك شأن المرشدين فانهم ... شم النفوس مثبتوا الأكباد
يا صاحب الإرشاد حسبك رفعة ... في الناس انك صاحب الارشاد
يا معرض الحساد مهلا علهم ... أو ما ترى ما حل بالحساد ؟
ان ضاددوك فانما هي حسرة ... وقفت شجى في أنفس الأضداد
أو كايدوك على الحياة فكلنا ... لك ناصر وموازر ومفادي
يهنيك كفك للسماحة مطلع ... وفناء بيتك نجعة المرتاد
وحديث "بدرك" مسند أما أنا ... فحديث "بدري" مهمل الاسناد
زفت اليك على الشباب عقيلة ... عربية الآباء والأجداد
فاهنأ بها مستبشرا متيمنا ... متمتعا بالمال والأولاد
والمرء ان حانت ظروف نعيمه ... هطلت عليه من النعيم غوادي
حييت يا ابن الأكرمين عصابة ... ميمونة الأصدار والايراد
فهل اطلعت على نماء ولائها ... وعلى صفاء ودادها ووداد ي... ؟
تركت (بسكرة النخيل) ربوعها ... وأتتك تقطع شاسع الأبعاد
يقتادها (العقبي) رغم غيابه ... فاعجب له من غائب مقتاد !.
المصلح النقاد في أبحاثه ... أيام حاجتنا الى النقاد
واللين المنقاد في أخلاقه ... فابشر بوفد اللين المنقاد
واصعد بتقوى الله كل منصة ... عليا وتقوى الله خير الزاد .

في تقريظ كتاب (تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب) للشيخ محمد بن شنب (1)

بشرى لباغي العروض بشرى ... الآن قد أدرك الأرب
قد كان علم العروض صعبا ... عليه مستعصي الطلب
يردد الفكر في القوافي ... بغاية الجهد والتعب
حتى تصدى له المفدى ... شيخ النهى ابن أبي شنب

---

(1) نشرت في الاصلاح السنة : 3 العدد : 13 ـ 29 رمضان 1348هـ / 27 فيفري 1930م .

فوضح المشكلات فيه	بسفره " تحفة الأدب "
فجاء جم البحوث سهلا	كأنه الماء لم يشب
مابين نثر وبين شعر	كلاهما نخبة النخب
فنثره كالنجوم شعت	وشعره كالنسيم هب
ماذاك سفر بل ذاك بحر	أمواجه ألسن العرب
وان ترد أن ترى جليها	درا بأعماقه رسب
فاقرأ فمارسه تباعا	ففي فمارسه العجب
قد عاش واضعه مجددا	في بحثه دائم الدأب
حتى قضى نحبه بمسوت	هاج له العلم واضطرب
لقد تحرى الصواب فيما	كتبه فوق ما وجب
في ذمة العلم ما تحرى	وفي رضى الله ما كتب

فزت بالشكر فزت بالتقدير	أيها الراسم العزيز النظير
رفعت فيك الجزائر قدرا	وأحلته في المقام الكبير
بارع الرسم بارع الخط فيهما	"عمر راسم" يدون لكبير
أزهر الفن في يديك و واتى	قلم الخط وريشة التصوير
كل من قد رأى رسومك أبدى	كل مدح وفاه بالتكبير
ترقى البلاد بالعامل الصا	هر صنعا والعالم النحرير
هيء اليوم للجزائر نشئا	ماهر الصنع سامي التفكير
يحذق الخط في الجزائر والرسـ	ـم ويعنى بكل شأن خطير
قد رقت صنعة ابن آدم فينا	فأبانت عن دقة التدبير
انما صنعة ابن آدم برهـا	ـن مبين على الاله القدير (1)

طفل جميل فاله حميد	حلكه املنا (السعيد) (2)
نلت به في الخير ما تريد	وعاش وهو كاسمه (رشيد)

وبورك الوالد والوليد (3)

---

(1) نشرت هذه المقطوعة في كتاب (عمر راسم المصلح الثائر) ص : 53 للدكتور محمد ناصر . ويذكر المؤلف انه عثر عليها في أوراق عمر راسم بخط الشاعر وهي مؤرخة في فاتح مارس 1939م .. وتتقدمها هذه الديباجة (من مدير مدرسة الشبيبة الاسلامية الجزائرية محمد العيد آل خليفة الى الخطاط الجزائري الشهير الأستاذ عمر راسم المحترم) .

(2) هو أبو يعلى الزواوي .

(3) نشرت في الشهاب ج 13 م 11 ـ ربيع الأول 1354 هـ / جوان 1939 ص : 197، وجاء في تقديمها ، أن الشاعر قالها في وليمة (العقيقة) لولد الشيخ الطيب العقبي (رشيد) .

تقريظ كتاب (عقبة بن نافع القائد المظفر) للشيخ عبدالمجيد بن حبه ـ مخطوط (1)

أحييت تاريخا لنا مقبورا   بعث المدى في أرضنا والنورا
وبحثت عنه ، بجرأة ورويـة   بحثا أجال حجابه المستورا
وجلوت سيفا من سيوف أميـة   للفتح كان بأرضنا مشهورا
ما مثل عقبة في الغزاة مجاهد   في الأرض أوغل قائدا منصورا
فتح المغارب كلها حتى أتـى   بحر المحيط وعاد منه فخورا
في كفه قبس الهداية مشرق   يجلو به عن أرضنا الديجورا
جاب المجاهل غازيا بجنوده   كالليث بالأشبال كرّ هصورا
نالوا الشهادة فوق أرض (تهودة)(2)   فزكت وطابت بالدماء عطورا
سل قرية آوت فوارس عقبـة   وحوت بها جثثا لهم وقبورا
أين الغزاة البائعون نفوسهم   لله بيعا رائجا مشكورا ؟
هل ترجع الأيام حقبة عقبـة   وتعيد يوم جهاده المأثورا ؟
قل للفتي (عبد المجيد)(3) أقرّنا   عينا أداؤك واجبا مهجورا
لله درّك باحثا متحـررا   في بحثه ومؤرخا مبرورا
ألفت أطراف البحوث كأنما   في السلك تنظم لؤلؤا منثورا
وجمعت من أنباء عقبة باقـة   نضراء عابقة تبرف زهورا
قدمتها للشعب منك هديـة   حسنى فكاد يطير بها سرورا
فعليك منه تحية موفوقـة   بالشكر ما تلت الدهور دهورا .

من ينشر العلم يخلد (4)

عبدالمجيد بن حبـه   نال الرضا والمحبه
بالأمس جال فجلّى   للنا س سيرة عقبه
واليوم لابن (سنان) (5)   ثنّى المنان ونبّه
فقل له اطبع سريعا   ما صغته فهو نخبه
من ينشر العلم يخلد   ويرقى أرفع رتبه
لازلت في العلم ثبتا   محقّقا كلّ رغبه

---

(1) عثرت على هذه القصيدة عند صاحب الكتاب المذكور أعلاه . وقد أفادني ، أن الشاعر بعث بها إليه سنة 1952 على إثر اطلاعه على كتابه وبرفقتها رسالة . جاء فيها مايلي : (كنت أؤمل أن أضع قصيدة تساير رسالتك الجامعة في فهرستها حتى لا أدع شيئا من مباحثك القيمة الا أشرت إليه وصرحت به ، حسبما تساعدني القافية . وأدركت أخيرا أن عملا كهذا يتطلب فراغا في الوقت وصفاء في الذهن ، وكلا هما معدوم مني الآن ، فحسبك هذه القصيدة) .

(2) سبق التعريف بها .

(3) سبق التعريف به .

(4) عثرت على هذه المقطوعة عند الشيخ عبدالمجيد بن حبة ، وأفادني أن الشاعر نظمها في تقريظ رسالته (خالد بن سنان) .

(5) هو خالد بن سنان العبسي .

اعمل ولا تفشل (1)

أهلا وسهلا بالأديب الشافعي وكتابه العذب البيان الناصع
أتحفنا بخواطر مجموعة قد أسفرت مثل الهلال الطالع
عالجت فيها من مشاكل شعبنا عقدا وجئت لها بحل قاطع
وفحصت من أمراضنا متطببا واتيت فيها بالدواء الناجع
إن الجزائر أنجبتك مثقفا ذا خاطر يقظ وفكر واسع
رضت الكتابة في الشباب فأسلست لك واستملت بالبيان الرائع
ليت الجزائر تحتفي بشبابها أدبا وتعنى بالنبوغ الضائع
يشقى الأديب ولا يرى لشقائه من راحم ولقوله من سامع
فاعمل ولا تفشل بحقلك وانتشق عرف الرجاء ولا تكن بالجازع
" الطاهر المهموج " بث نوره فرجعت منه بمشعل لك ساطع
لا بد أن يلقى يراعك فسحة فتكون " كالعقاد أو كالرافعي "
طر بالخيال مجنحا ومحلقا في كل أفق واعتضد بالواقع
واطمح بطرفك للعلا متفائلا بمكانة عظمى وصيت ذائع

وفاء بالعهد (2)

وقف الشاعر الكبير الأستاذ محمد العيد خليفة على قبر صديقه المرحوم السيد ابراهيم خير الدين القنطري، فكان الموقف رهيبا أثار شاعرية شاعرنا الكبير بهذه الأبيات التي تدل على ما في القلب للشاعر الكريم نحو اخوانه :

فز بالرضى والعز والتمكين ياقبر (ابراهيم خير الدين) (3)
واشمخ برأسك في القبور مباهيا فلقد ثوى بك شامخ العرنين
مولى الجميل وباسط اليد بالندى معطي الفقير ومطعم المسكين
العبقري الالمعي المصطفى في صنعه براسائل التمدين
خلى تلامذة كثيرا خصهم بالنصح منه وجد في التلقين
وله مآثر جمة معروضة للشاهدين بديعة التحسين
هذا هو الاثر الذى يبقى به حيا رفيع الذكر كل دفين
يارب هذا العبد ضيفك فأحبه ماشئت من بر ومن تأمين
وانفحه منك برحمة في قبره واجعله جم الانس غير حزين
واقمه عندك مكرما مستأنسا بك في قرار بالجنان مكين

---

(1) نظم الشاعر هذه القصيدة في تقريظ كتاب (خواطر مجموعة) للأستاذ عبد المجيد الشافعي . ونشرت به في طبعته الأولى سنة 1952 .
(2) نشرت في البصائر العدد : 204 ـ غرة صفر 1372 هـ / 20 أكتوبر 1952م .
(3) كان صائغا ماهرا ، وكان مصلحا محسنا ، ينظر ديوان الشاعر ، ص : 409 . توفي في حادث سيارة ما بين بلدتي القنطرة وباتنة يوم 27 أوت 1952 . ينظر البصائر العدد : 200 ـ 8 سبتمبر 1952 .

ســؤال وجــوا ب (1)

عرتك من الشمس المشمسة نوبــة ونالك منها يا (رشيد) (2) ذبـول
أفند لي وقاك (الله) هل أنت سالم فقد نابني مما اعتراك ذهـول ؟

فأجاب الشاعر نفسه قائلا : (على لسان تلميذه)

شفيت باذن الله مما أصابني فليس بجسمي فترة وخمـول
وأصبحت أخشى الشمس حتى كأنما أمامي من فرط المهابة غـول

أبا عدّ وقد مت عليّ ضيفـا وبالك غير صدق الحب هـادى
فأهلا بابني الروحيّ أهـلا براويتي الكفيل بحفظ زادى
عهدتك في الصبا تلميذ صدق حميد سجية حسن اعتقـاد
وفيت بذمتي وحفظت عهدي وصنت كرامتي في كل نـادى
لسانك ذاد بالبرهان عنّي فأفحم من رماني بانتقـاد
أراك رفعت من شأني كثيرا وذاك لحسن ظن واجتهـاد
وما أنا غير مسكين حقير من التهمات مضطرب الفـؤاد
فعذرا في ملا حظتي وشكـرا لما قدمت من شتى الأيـادى (3)

أيها الكاتب المؤرخ شكـرا (4)

ينتضى الحرّ عزمه كالحسام مشرئبا الى الأماني الجسـام
ويوالي بها الجهود فيجنـى طيب الذكر ظافرا بالمـرام
يا بلادى أرى شبابك يبني لك مستقبلا عتيد الدعـام
فهو أحرى بأن يجازى بشكر ورضى من طموحه المترامـي
قد حباك الفتى (سليمان صيد) تحفة من نتائج الأقـلام
أسفرت من مدى تحرّيه في البحث ومرمى حجاه في الأفهـام
قد جلا للأنام تاريخك الفخم بتيسير فهمه للأنـام
ببيان كأنه الصبح نورا ويراع كريشة الرسّـام
وفصول مسرودة كبد روع جزلة النسج جزلة الأحكـام
عرضت غابر الجزائر كالفلم ومن أسكنت من الأقـوام

---

(1) نشرت في المخطوط ج 2 : 34 ـ وجاء في تقديمها : أن أشعة الشمس قد أثرت ذات يوم على أحد تلامذة الشاعر ، فقال هذه الأبيات ، وهي غير مؤرخة . الا أنها تعود الى فترة تواجده بحين مليلة (1947 ـ 1956) .

(2) هو رشيد خليفي أحد شهداء ثورة نوفمبر .

(3) عثرت على هذه المقطوعة عند تلميذ الشاعر الشيخ أحمد بوعدو . وقد أفادني أنها نظمت بمناسبة زيارة قام بها هذا الأخير الى أستاذه (بحين مليلة) في جويلية 1953 .

(4) نظم الشاعر هذه القصيدة في تقريظ كتاب (تاريخ الجزائر القديم) للأستاذ سليمان الصيد ، ونشرت به في طبعته الأولى سنة 1953 .

بتعاليق أسند القول فيها | لذويه بدقة ولطام
كل علم بلا أسانيد يروى | عرضة للظنون والأوهام
حفظ العلم بالأمانة دهرا | ليس للعلم كالأمانة حامي
أيها الكاتب المؤرخ شكرا | أنت أهل للشكر والاكرام
قد أنلت الجزائر اليوم فخرا | فتبوأ بها رفيع المقام
وكأني بها أجابتك حالا | انك ابني الأبر بالأرحام
أنت أقررت باجتهادك عيني | أنت زحزحت ما دجا من ظلامي
أنت أسفرت عن جمالي بسفر كسنا البدر كاشف للغمام
فأجد طبعه وعممه نشرا | ثم واصل أجزاءه بالتمام
أنت أسديت لي يدا لين تنس | فتقبل تشكري واحترامي .

أورد حجاك موارد العرفان | فهي المناهل للحجى الظمآن (1)
واصقل بها مرآة ذهنك دارسا | ان العلوم صياقل الأذهان
قد خصها القرآن في آياته | بثنائه الباقي على الأزمان
وقضى بها الاسلام في أحكامه | فغدا بذلك سيد الأديان
وأبان أرباب الهدى ببحوثها | نهج الهدى للتائه الحيران
وتدارسوا القرآن فاكتشفوا بها | ما في مناجمه من العقيان
أفواههم تحتج لاهجة به | وقلوبهم تهتز بالايمان
واذا طلبت لهم مثالا صادقا | فاقرأ كتاب (مقاصد القرآن)
واشكر لصاحبه الأديب (محمد | الصالح الصديق) في الشبان
هذا وفي الأوفياء لدينه | ولشعبه هذا فتى الفتيان
هذا ذكي الأذكياء بعمقه | في بحثه وشعوره الوجداني
وسابق العلماء في أشواطهم | وكفاك بالعلماء من فرسان
ومثقف الطلاب تثقيف الهدى | بدروسه في (المعهد الرحماني)
يامهدي العلق النفيس إلي من | لي أن أقوم بواجب الشكران
من ذا الذي يعطيك أجرك كاملا | لبضاعة جلت عن الأثمان
الا الذي أنشاك نشأة عفة | وسخا عليك بجوده المتان
أخجلتني بجميل ظنك مغمضا | عينيك عن عجزي ومن نقصاني
هيهات أن أنسى صنيعك انه | لمنزه عندي عن النسيان
ان الجزائر توجت بك رأسها | تاجا تتيه به على التيجان
ليت الشباب بها كمثلك راشد | متعلق بمفاخر الأوطان
متعشق للدين والعرفان لا | للمغريات وحسنها الفتان
يهنيك أنك في كتابك حائز | ما شئت من حسن ومن احسان
لم تثنك الأحداث عنه وان طغت | وكذاك تفعل همة الشجعان
أتقنته وضعا وطبعا فانتهى | رغم الظروف لقمة الاتقان
واصل نشاطك بعد أول جزئيه | حتى تعقبه بجزء ثاني
أرضيت ربك في تدبر ذكره | فجزاك ربك منه بالرضوان

---

(1) عثرت على هذه القصيدة عند الشيخ محمد الصالح الصديق، وقد أفادني أن الشاعر نظمها في تقريظ كتابه (مقاصد القرآن) على اثر صدوره سنة 1955 .

أشعة كشفت عن خير مكنون ... من منشآت أبي بكر بن رحمون
الشاعر الثائر السامي بهمته ... الى معارج شوقي وابن زيدون
أبدى لنا قصصا في وصف مجتمع ... جم الضلالات بالأهواء مفتون
محسنا حسن الأخلاق ممتدحا ... حميدها مرشدا لخير مسنون
أدع اليراع أبا بكر تجبك لما ... ترجوه من أمل بالفوز مقرون
فشعبنا لك ممنون بتكرمة ... مؤمل لك أجرا غير ممنون (1)

كلمة وداع مهداة الى عالم مرشد نفاع (2)

ذكراك ياشيخ لن تنفك في خلدي ... فسر مع اليمن والتوفيق والرشد
وعد الى (مصر) مصحوبا بعافية ... مستبشرا بلقاء الأهل والولد
من زان علما بتقوى زاد معرفة ... ونال من زيه ما عز من مدد
أحبب صحبة أهل العلم ملتمسا ... منهم مزيدا من التحقيق والسند
وأرتجي منهم عطفا علي كما ... أرى اللقاء بهم بردا على كبدي
ستحمد اليوم من مسراك خير سرى ... ويحمد الجيل من ذكراك خير يد
فليس يجزيك عن علم نفحت به ... نشء الجزائر غير المنعم الصمد
دعيت (أحمد منصورا) فدمت كما ... دعيت أحمد منصورا مدى الأبد

عظم الله أجركم (3)

عز علي (محمدا)[(4)] ياكتابي ... في شقيق له أجاب المنونا
كان للشعب مرشدا ومعينا ... وأمينا على المدى مأمونا
واماما صان الامامة في الشعب ... ب باخلاصه فعاش مصونا
قد جزعنا لفقده ثم ثبنا ... والتزمنا الرضى به والسكونا
علم الله أن في المرء ضعفا ... فطوى عنه غيبه المكنونا
حكمة الله أخفت الغيب عنا ... فاستطعنا بحجبه أن نكونا
عظم الله أجركم في فقيد ... ترك الشعب بعده محزونا
قد بلوت افتقاد صنو لصنو ... فبراني الأسى وحملت هونا
فتحمل من الأسى وتجمل ... وأعتصم بالرضى وخل الشجونا
كلنا مضنا المصاب فصبرا ... والى الله كلنا راجعونا

---

(1) عثرت على هذه المقطوعة عند الشاعر أبي بكر بن رحمون .وقد أفادني أن الشاعر نظمها سنة 1964 في تقريظ مجموعة قصصية له بعنوان (أشعة مبلية عن ذكريات قسنطينة) التي ماتزال مخطوطة .

(2) من مكتبة الدكتور سعد الله ، وهي غير مؤرخة ، وليس من تعليق عليها . ونرجح — لما يعرف من صلة الشاعر بعلماء البعثة الأزهرية بالجزائر في أواسط الستينات — أن يكون قد قال هذه المقطوعة في واحد من هؤلاء في هذه الفترة .

(3) المصدر السابق . نظم هذه القصيدة في تعزية (آل المغزي) بمدينة بسكرة بفقدهم عميد الأسرة فضيلة الشيخ أحمد المغزي امام المسجد الكبير بالمدينة .وقد توفاه الله في حادث سيارة بالمنطقة فبني سنة 1974 .

(4) هو شقيق الفقيد الشيخ محمد المغزي مدير المعهد الاسلامي بمدينة بسكرة سابقا وامام مسجدها الكبير حاليا .

متفرقات

وأحزم النـاس (1)

ورد الينا التشطير الآتي من الأديب الفاضل صاحب الامضاء وهاك نصه :

(لم يمتط المجد من لم يركب الخطرا) ... ولا يسود امرؤ لم يلزم السهرا
ولا يفوق على الاقران ذو خور ... (ولا ينال العلا من قدم الحذرا)
(ومن أراد العلا عفوا بلا تعب) ... رخيصة فمناه كالسراب ترى
رب امرئ آمل الاشياء ينشدها ... (قضى ولم يقض من أدركها وطرا)
(لابد للشهد من نحل يمنعه) ... بلسعة تجلب الأوصاب والخطرا
ياطالب المجد لاتستأ لحادثة ... (لايجتني النفع من لم يحمل الضررا)
(لايبلغ السؤال الا بعد مؤلمه) ... تضر بالمرء لكن تعقب الظفرا
صبرا فلا يرتدي بالمجد ذو وجل ... (ولا يتم المنى الا لمن صبرا)
(وأحزم الناس من لومات من ظمأ) ... وناله من صروف الدهر ما كدرا
والورد منه بمرأى العين مقترب ... (لايقرب الورد حتى يعرف الصدرا) .

في السنيال (2)

(1)

رأينا فوق سطح البحر نورا ... طويل الذيل أحمر قد توهج
ترامى فيه منعكسا بليل ... منار ضوءه عال مؤجج
فيرسم فوق موج البحر طورا ... وطورا في خلال الموج يولج
كأن الموج حرب وهو فيها ... يلوح كأنه سهم مضرج

(2)

رأينا فوق سطح البحر نورا ... طويل الذيل أحمر قد تلهب
ترامى فيه منعكسا بليل ... منار ضوءه عال مكهرب
فيرسم فوق سطح البحر طورا ... وطورا في خلال الموج يذهب
كأن الموج أفق وهو فيه ... يلوح كأنه نجم مذنب

(3)

رأينا فوق سطح البحر نورا ... طويل الذيل أحمر في اتقاد
ترامى فيه منعكسا بليل ... منار ضوءه عالي العماد
يرسم فوق موج البحر طورا ... وطورا في خلال الموج غاد
كأن الموج سحب وهو فيها ... يلوح كأنه برق الغوادي

---

(1) نشر في (العصر الجديد) العدد : 5 — 16 جويلية 1921 ؛ بعث به الي من تونس الدكتور محمد الصالح الجابري .

(2) نشرت في الاصلاح العدد 12 — 11 رجب 1348 هـ / 12 ديسمبر 1929 م، ويعني بالسنيال الضوء الذى تهتدي به المراكب البحرية .

(4)

رأينا فوق سطح البحر نورا طويل الذيل أحمر في التهاب
تراءى فيه منعكسا بليل منار ضوءه عال ونابي
كأن الموج كشب وهو فيها يلوح كأنه لمح السراب (1)

سلق جوت في الكون عام حراثه يأتي الخلائق فصل عام حصاد
والمرء إن يسلك مسالك هديه فالله في تلك المسالك هاد (2)

الغيث في أغشت (3)

غير مجد تسخط واستياء حل بالناس وابل أو وباء
جهل الناس حكمة الله في الغيث فراحوا بالمرجفات وجاءوا
نزل الغيث في (أغشت) على النخل وأودت بتمره النكباء
فاستشاط الجهال غيظا وفاءوا بمراء وليس يحكي المراء
أيها المرجفون كفوا عن الارجاف فالله فاعل ما يشاء
وتنحوا ياقوم عنا فانا علم الله منكم لبراء
ما جنت السماء حتى أتاها منكم السب والقلى والجفاء
لا عد منا الرضى بها قدر الله فصبي أو اقلعي ياسماء

قبلة العيد (4)

أقبل العيد فاستبق قبلاته سنة العيد قبلة في غداته
زينة العيد قبلة فاذا ما زنت عيدا بغيرها لم يواته
استبق قبلة مع الصبح جاءت من ضباء الفلا ومن ضبياته
هي نار الخليل بردا عليه وسلاما رقا على جنباته
ومعين من سلسل فاسق منها صاديا برح الصدى بلهاته
مدره الحب في الشكاة اذا آد لسان المحب بسط شكاته
ورسول الرضا من الروح للروح وجود الهوى باسنى هباته
ويمين وثيقة العقد اعيت كل واش بيثها نفثاته
أوشك العيد أن يفوتك لقيى فاحبه طيب الوداع وهاته
أوشك العيد أن يفوت على الصب واخشى وفاته في فراته

---

(1) ان هذه الوحدة تتكون من ثلاثة أبيات، ولعل البيت الرابع قد سقط في النسخ.
(2) المصدر السابق.
(3) نشرت في الاصلاح العدد: 4 - جمادى الثانية 1350 هـ / أوت 1931م، وهي بالمخطوط ج 1 : 59.
(4) نشرت في جريدة (الحياة) السنة: 1 - 5 ذي الحجة 1351 هـ / فاتح افريل 1933 م.

خذ من المرأة حذرا فهي للسوء تجر
تفعل المرأة أفعالا لا لما العرش يخر
لا تقل في كيد أنثى هو كيد لا يضر
ربما ذاد منا منا عن عيون الأسد ذر
لا تقل لله در المرء ما للمرء در
ما شرحنا لهوى المرأة عبدا وهو حر
ويرى العيش مع المرأة حلوا وهو مر
فرت المرأة بالمرء وما زالت تفر (1)

من زهديات محمد العيد اللزومية

(المنى) (2)

تجهد النفس عانيه في المنى غير وانيه
كل حلم تسره يتلاشى علانيه
تتمنى وانها في التمني لجانيه
يهدم الدهر كل ما كانت النفس بانيه
كم سراب بقيعة حدقت فيه رانيه
لاح في بعدها لما واختفى وهي دانيه
أيها الحالم انتبه أن دنياك فانيه
لا يتيمك حبها انها شر غانيه
كيف ترجو صفاءها وهي لم تصف ثانيه
كلنا في حياتنا عرضة للثمانيه

برد نازل وثلج وماء أربيع أصابنا أم شتاء ؟
ضجت الأرض من شرور البرايا فارتدت لبسه الحداد السماء
كل شيء أمام عيني داج أيها المبصرون أين الضياء ؟ (3)

الربيع (4)

ان هذا الربيع شيء عجيب تضحك الأرض من بكاء السماء
ذهب حيث ما ذهبنا ودر حيث درنا وفضة في الفضاء

---

(1) عثرت على هذه المقطوعة عند السيد عبد الحميد فاضلي وهو من أصدقاء الشاعر بمدينة باتنة .وأفادني أن الشاعر نظمها أيام اقامته بهذه المدينة أثناء الحرب العالمية الثانية .

(2) نشرت في البصائر العدد : 132 ـ 20 ذي الحجة 1369 هـ / 9 أكتوبر 1950 .

(3) عثرت على هذه الأبيات عند صديق الشاعر السيد جلول البدوي، وأفادني أنه نظمها في يوم ماطر .

(4) ينظر المخطوط ج 1 : 15 .

الحقيقة والاصطلاح (1)

ما في الحياة حقيقة محدودة | الاصطلاحات بها وقيود
تدعو الى العرفان وهي جهالة | وتشيد بالايمان وهي جحود
مثل الدفوف على المسامع طنة | خلابة وعلى الاكف جلود

الموت الواجب (2)

اذا ما أضاع الفتى كل شيء | ولم يرج أن يرجع الذاهبا
فقد أصبح العيش عارا عليه | وأضحى الممات له واجبا

الامتحان (3)

لم يبق للامتحان | الا يسير زمان
تهيأوا واستعدوا | له بغير توان
من يمتثل فهو ناج | أو يمتنع فهو جاني

وسائل قال : أي المعهدين ترى | لي نافعا قلت : خذ رأي بتبيان
كلا هما نافع ان كنت مجتهدا | لافرق بين (باديس) و (كتاني) (4)

يسائلني سائل حائر | رجاء أن يجاب وأن يفهما
أيدعو الامام ومأمومه | عقيب الصلاة بالسر معا ؟
فقلت له قل لمن رده | أرى الأمر مما ترى أوسعا
دعاء الجماعة بعد الصلاة | أراه حري بأن يسمعا
ففيه لفاعله فسحة | اليه (ابن حمدون) قد ألمعا
وليس بفرض ولا سنة | ولكن له حكم ندب الدعا (5)

---

(1) المخطوط ج 1 : 94 .

(2) المخطوط ج 1 : 35 .

(3) المخطوط ج 2 : 156 .

(4) المخطوط ج 2 : 156 — وجاء في تقديمها (وقد سأل أحد التلامذة الأستاذ النابغة عن أي المعهدين أنفع ، أمعهد (ابن باديس) أم معهد (الكتاني) ؟ فأجابه الأستاذ بهذين البيتين .

(5) عثرت على هذه المقطوعة عند السيد عبد الحميد فاضلي وهو من أصدقاء الشاعر بمدينة باتنة . وأفادني أنه نظمها أثناء الحرب العالمية الثانية .

خصوصيات

باقة الياسمين (1)

نشرت في القلب عهدا ... طواه كسر السنين
فلا عدمتك ذكرى ... يا باقة الياسمين

الشعر العصري

في الغزل (2)

قضى الله تعذيبي بما قبل تكويني ... دعوها بنيران المحبة تكويني
فتاة أتت (عين الصبية)(3) بكسرة ... بكاس من البلور في رخصها اللين
يلاعب صدغيها النسيم كأنما ... يلاعب في روض الربا زهر نسرين
تميس لفرط الدل في خطواتها ... كغصن النقا تثنيه ريا الرياحين
(أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى) ... فكنت أناجيها به وتناجيني
أقول لما راض بما فعليه ... إن كل ما يرضيك في الحب يرضيني
فعاب علي العاتبون غرامها ... وقالوا لقد أغراك من الشياطين
فقلت لهم هل قلتم مس غادة ... ساوية العينين سامية الزين ؟
على رسلكم دين الهوى غير دينكم ... لكم دينكم ياعتبون ولي ديني

الشوق (4)

اذا ما الشوق داهمني بليل ... طويل الذيل مسود الأديم
أواصلكم بقلب قد تدلت ... به الأشواق في نار الجحيم

غزالة تحنو على غزال (5)

شعرت يوما باضطراب بالي ... بضيق ذرعي وانعكاس حالي
فقلت : ادعو النفس للتجوال ... بمفردي لعله أجدى لي
في واحة النخيل والرمال ... وساحة القصور والاطلال

---

(1) نشرت في (صدى الصحراء) السنة : 1 العدد : 8 ـ 14 رجب 1344 هـ / 25 جانفي 1926 م .

(2) نشرت في (صدى الصحراء) العدد : 9 ـ 21 رجب 1344 هـ / 1 فيفري 1926 م ص : 3
وهي بامضاء : (متخزل) . وقد أفادني الشيخ حمزة بوكوشة أن القصيدة للشاعر وأنه قد نظمها أيام كان طالبا بتونس، ثم نشرها من بعد عودته الى الجزائر .

(3) (عين) تقع في تونس .

(4) نشرت في صدى الصحراء العدد : 10 ـ 28 رجب 1344 هـ / 8 فيفري 1926 م .

(5) نشرت في (النجاح) العدد : 555 ـ 13 شعبان 1346 هـ / 10 فيفري 1928 م ، ص : 3 .
وجاء في تقديم الجريدة لها هذه الكلمة : (من جملة الغنائم التي احرزنا عليها في جولتنا الاخيرة بالصحراء القسنطينية ما ته القصيدة العصماء الاديب لطيف ببسكرة نسجها بعد ان شاهد سائحة من الاوربيات انحنت على غزال يملكه احد الاسرائليين ببسكرة تطعمه (البسكويت) ، وقد انقاد اليها ومن عادته الاجفال عن قاصديه ، ولطلاوتها ورقة معانيها احببنا اتحاف قراء النجاح الكرام بها) .

من بلدتي العديمة المثال　　بسكرة الفضلى ولا أبالي
مسرحا طرفي في أمثال　　منصوبة لكل غر سنتلي
شاهدة لله ذى الجلال　　بباهر الصنعة والكمال
فارتاحت النفس لهذا الفال　　ولم تعره جانب الاهمال
كغيره من كل قول خالي　　من حكمة غراء ذات بال
ولبت الدعوة باستعجال　　مسوقة بسائق الاقبال
فيالها من نفس حر قالي　　لعيشة المملوء بالاهوال
يحمل أثقالا على أثقال　　من همه وماله من والي
عالجت ما عالجت في انتقال　　كأنني وثقت بالاغلال
وشئت ان آخذ في ارتحالي　　فكدت أن أعثر في أذيالي
لكن ما حسبت من آمالي　　دب على روحي وفي أوصالي
فصرت مثل الوابل المطال　　من بعد ماكنت كشن بالي
وسرت في الابهلج كالهلال　　يسم في الابراج بالتوالي
أرى من النساء والرجال　　ومن ملاء الدور والخوالي
ومن قصار النخل والطوال　　ومن غواشي الطرق والصقال
ومن جنوب الافق والشمال　　ما يفصل الرشد هن الضلال
وبينما أنا على منوال　　هذا وفي أوائل الاشكال
رأيت من غلمي وحسن بالي　　غزالة تحلو على غزال
حسناء من كرائم الجوالي　　شيقة القد والاعتدال
طليقة الوجه بلا ابتذال　　رقيقة الشعور والخيال
حلت على ضبي صغير فالي　　يملكه بعض (غواة المال)
وأخرجت من كيسها الفيلا لي　　مرطبا كريقها السلسال
وناولته (وهو في اجفال)　　منه برخص شد باللئالي
وفاتحته بعد بالسؤال　　عن حاله بلهجة الادلال
اذا به علقها في الحال　　اذا بها تضمه من عالي
حيث التقى اليمين بالشمال　　بحد وحلت ساعة الوصال
ولم لا يحظى بهذا المال　　وجيده كجيدها المعطال
وطرفه كطرفها القتال　　وهكذا الاشباه في الجمال
فياله من موقف اقتبال　　وقفت فيه وقفة الاجلال
كراهب يرنو الى تمثال　　أو عاشق يخشى من المذال
لم تجمع الايام والليالي　　لي موقفا مستجمعا أميالي
حتى طمعت فيه بالمحال　　كمثله في سالف الاجيال
وهكذا طوفت باستقلالي　　في هاته الانحاء والاجوال
حتى اذا شعرت بالكلال　　ومالت الشمس الى الزوال
عدت وقد سرى عن بلبالي　　كأنما نشطت من عقال .

عجبا يمحضني العداوة كل من ... أوليته في الحب محض ولائي
حتى الزمان تخذته فيما مضى ... خلا فأمسى مولعا بعدائي (1)

ياحامل الحقد لي من دون بادرة ... مني بماذا هداك الله أرضيكا
هيهات يلجح سعي في رضاك ولو ... ملكتك الروح والجثمان تمليكا (2)

ما أنا يائس (3)

كماشئت فاعطل يازمان بمخيبتي ... أو ابخل بما عني فما أنا يائس
أتحسب اني للحوادث راضخ ... وأني منها جازع القلب يائس ؟
سيأتي زمان للجزائر زاهر ... يطيب الجنى فيه وتنمو المغارس
فرح غير مأسوف عليك فبعدنا ... وراءك خيرات لنا ونفائس
ولست على رغم اصطباري ناسيا ... حدودا تعداها سوس وسائس
وكم قائل لي حين أصغى لدعوتي ... رويدك ان الشعب عنك لنا عس
الا ويحنا من عاذل متقاعس ... على عقله الواهي تروج الوساوس
تعاط من الاصلاح ما استطعت فعله ... فمالك عذرا أيها المتقاعس.

زفرات (مضى الزمن الآسف) (4)

شجاني دم سيا زف ... حماني به آزف (5)
شجاني دم لي على ... أخ لي سدى ناطف (6)
شجاني دم كالطلا (7) ... تنشى به الراشف
أنا الكوثر المستطاب ... وان أنكر الغارف
أيذهب غرسي سدى ... وينسفه الناسف
ويبغي عليّ الذي ... عليه أنا عاطف
تكدر جو الصفاء ... فليس له كاشف
شجاني عرض عريض ... يلقصه القاذف
وعارفة (8) كالضحى ... تجاهلها العارف
تمزق ثوبي الخصيف ... وأعوزني الخاصف (9)
وخفت فوات الرضى ... وان أقلع القارف (10)
ولولا رجاء الذي ... اليه أنا زالف (11)
لكفرت عن منيتي ... كما كفّر الحالف

---

(1) نشرتا في الاصلاح العدد : 2 — 5 سبتمبر 1929م.
(2) نشرتا في الاصلاح العدد : 14 — 25 سبتمبر 1930.
(3) نشرت في الشهاب ج 8 م 9 — ربيع الثاني 1350هـ / أوت 1931م وهي بالمخطوط ج 1 : 9
(4) نشرت في الشهاب ج 2 : م 12 — صفر 1355هـ / ماي 1936م ص: 64 ، وهي بالمخطوط ج 2 : 35.

5 — آزف : اقترب — 6 — ناطف : ساكب — 7 — الطلا : الخمر — 8 — عارفة : المنة والنعمة
9 — الخاصف : الثوب المرقع — 10 — القارف : المذنب — 11 — زالف : متقرب .

أيا ساريا كالهلال ولكنه كاسف
خداعك كالليل ساج (1) وأنت له ساجف (2)
وبارقا للسرى به طوح الجادف
رويدك طرح الغرور فهو الشاطئ الكاثف
ويا آسف أخشى القضا وخف منه يا آسف
هو الدهر في غيبه أنا القائف (3) العائف (4)
اذا جد في صرفه فليس له صارف
أغرك أني امرؤ على عرضه (واجف) (5)
وأني عن أرفه وعن عزفه (عازف) (6)
فلا تطرني فالثناء هو الكرم الزائف
أخ الحب من قلبه به لاهج لاهف
ولا خير في ألفة يهون بها الآلف
فدع ما جرى آسفا مضى الزمن الآنف

يقولون .. فقلت (7)

يقولون هل بقيت في الكتب باحثا فقلت لهم لم أقف آثار كاتب
وعفت فلم أرشف من الكأس فضلة يزاحمني في رشفها ألف شارب
ومن كان للأسفار في العلم راغبا فإني للأسفار لست براغب
فحولي كتب الله من كل شارق تزودني علما ومن كل غارب
غنيت بها عن كل درس ممذب وعن كل بحث في المراجع ناصب
وكم طالب للعلم أبصر حوله فأصبح مطلوبا له غير طالب.

مساجلة أدبية (8)

البدوي : وفتاة مرت بنا ذات صباح تتثنى كأنها غصن بان
سحنون : ثم ولت وما رثت لقلوب رشقتها بلحظها الفتان
العيد : قربت وصلها لقلوب ولكن حال من دونها اختلاف اللسان

---

1 — ساج : مظلم — 2 — ساجف : ساتر — 3 — القائف : من القيافة — 4 — العائف : من العيافة وهي زجر الطير — 5 — واجف : خائف — 6 — عازف : زاهد .

(7) نشرت في البصائر العدد : 101 : 24 ذي الحجة 1356 هـ / 25 فيفري 1938م، وهي بالمخطوط ج 1 : 34 .

(8) نشرت في (الشهاب) ج 3 م 14 — ربيع الأول 1357 هـ / ماي 1938م ، ص : 114 . وقد قدمت لها بهذه الكلمة (اجتمع الأساتذة : البدوي جلول — أحمد سحنون — محمد العيد ، في أحد المنتزهات الجميلة بعاصمة الجزائر ، فمر أمامهم ما حرك شاعريتهم بالأبيات التالية ، وكأنهم خاطبوا في ذلك الشخص المرئي شخصا آخر غير مرئي) . وهي بالمخطوط ج 2 : 143 .

البدوي : ربة الدل داركي أنفسا حيـــ ـــرى تمادي من الضنى ما تمادى
لفتة ترجع الحياة الى القلـ ـــب وعطفا يعيد ميت الأماني

سحنون : وارتشافا من خمر ريقك يطفي ما بنا من لواعج الأشجـــان
وابتساما يعيد ظلمة نفس عذبت بالصدود والهجران

العيد : أحسني فالحسان في شرعة الآ داب أولى الأنام بالاحسان
ملك الحسن أمرنا فأرانا كيف يبلى الانسان بالانسان

أحب من العبادة كل فرض يؤدى في الصباح أو المساء
ولم أر في العبادة لي مملا كتكرار الفواتح في الدعاء (1)

لا أبالي ان فزت منها بوصل عن يميني أخذتها أم شمال
فيها فتنتي وفيها هيامي واليها قصدى وعنها سؤالي (2)

هدانا الى وعظ يروع جلالـه امام لنا دلت على الصدق دعواه
ان وفاة (العيد) لـ (العيد) عبرة لكي يترك الدنيا ويعبد مولاه (3)

---

(1) نشرنا في الاصلاح العدد : 15 السنة : 1 ـ السلسلة : 2 ـ 17 ذى القعدة 358.
28 ديسمبر 1939م ، وهي بالمخطوط ج 1 : 15 .
(2) ينظر المخطوط ج 2 : 84 .
(3) عثرت على هذين البيتين عند الشيخ أحمد جلول البدوى ، وأفادني أن الشاعر زار مدينة الجزائر سنة 1966 . . وذهب بمعيته وبصحبة الشيخ أحمد سحنون الى مسجد (الشراقة) لتأدية صلاة المغرب . وهنا قام الامام وأخبر المصلين بأن الشيخ العيد قد توفى اليوم وترجاهم حضور جنازته . فدهش الشاعر وصحبه ثم تبينوا أن شيخا بهذه الضاحية يسمى بهذا الاسم قد توفي . . وبهذه المناسبة قال الشاعر هاتيك البيتين .

الأناشيد

يا بلادي (1)

يا بلادي يا بلادي   أنا لا أهوى سواك
قد سلى الدنيا فؤادي   وفنائي في هواك .

نشيد السلم (2)

مصارع الآباء   في شاسع الأرجاء
تصيح بالأبناء   لا تبعدوا الهيجاء
لا توقدوا النيران
وأنفس الأجداد   تلوح كالأشباح
تهيب بالأولاد   أن يحرسوا الأرواح
ويحفظوا الأبدان
وآدام في الخلد   ونسله الأحرار
يدعون أهل الرشد   اطاعة الجبار
وحرمة الانسان
والله رب الخلق   مسخر الأملاك
يدير باسم الحق   دوائر الأفلاك
كي تصلح الأزمان
وقوة السلطان   تابى سوى الافساد
تمشي مع الشيطان   وحزبه في واد
بالاثم والعدوان
فادع الورى للسلم   والصبر عند الباس
وادع الورى للحلم   ورعي حق الناس
بالعدل والاحسان
ياساسة الأجناس   ياقادة الأبطال
الا ارفقوا بالناس   الا ارحموا الأطفال
يرحمكم الرحمان

---

(1) جاء في الشهاب ج 3م7 ذو القعدة 1349 هـ / مارس 1931م ، ص : 193 أن تلامذة مدرسة الشبيبة الاسلامية قد أنشدوا هذا النشيد في الحفلة السنوية للمدرسة ـ وهو من نظم الشاعر .. ولم تثبت منه الا ما أثبتناه .
وجاء في جريدة (المرصاد) العدد : 1 ـ 17 ديسمبر 1931 . أن تلامذة المدرسة المذكورة قد أنشدوا النشيد نفسه بحضور الشاعر في حفلة افتتاح جمعية الاصلاح بمديدة (تبسة) .

(2) نشر في البصائر العدد : 166 ـ 29 ربيع الأول 1358 هـ / 19 ماي 1939م ، ص : 7 .

باللـه بالأنسـاب بالأنفس العليـاء
بحرمـة الآداب لاتعدموا الأحيـاء

لاتفسدوا الأكوان

اللـه فوق العـرش يدعو فصل من واع ؟
لاتسرفوا في البطش لاتخربوا الأصقاع

بالجور والطغيـان

يامعشر الأشبـاه في الخلق والتكويـن
اصغوا لصوت اللـه فكلكم من طيـن

وكلكم اخـوان

النشيـد الأخلاقـي (1)

أيها الأقوام شيدوا الخلق وابنوا ليس غير الخلق للأقوام ركـن
اغرسوا الخير من الأعمال تجنوا ثمرات كلها طيب ويمـن

كلها مجد وحمد وثناء

لاتضيعوا اليتيم لاتلقوا اليتامى للردى لاتهتكوا ستر الأيامى
لاتقولوا الزور لاتأتوا الحراما لاتبثوا الشر فيكم والخصاما

لاتهدوا بالأذى صرح الاخاء

أكرموا ذا الروح مهما كان جنسـا لاتريدوا أبدا بالشر نفسـا
كل خلق يشبه الانسان حسـا لاتهينوه ولو في الهون أمسى

كخشاش الأرض أو وحش الخلاء

اجعلوا الارشاد والذكرى شعارا وارفعوا للعدل في الدنيا منارا
وادفعوا الباغين عنكم والشرارا واحفظوا الجار ولو خان الجوارا

شيمة الأحرار في العهد الوفاء

قل لمن جروا على الأرض الحريرا وكسوا "فيلاتهم" وردا نضيرا
أذكروا المحتاج منكم والفقيرا كل من أعطى ولو أعطى نقيرا

سوف يلقى أجره يوم الجزاء

أذن الداعي الى الحسنى ونادى فأجيبوه جموعا وفرادى
لاتقولوا آدنا السعي وكادا لاتقولوا عظم الخطب اشتدادا

همة الانسان مفتاح الرجاء.

---

(1) عثرت على هذا النشيد في مكتبة الشاعر بمنزله ببسكرة ، وهو مكتوب بخط يده وغير مؤرخ .

نشيد البشرى (1)

طلائع نحن بالبشرى ... بناة المجد والذكرى
عماد النهضة الكبرى ... جنود السبق والغلب
نشأنا في حمى الكرم ... على الأخلاق والشيم
أخذناها عن القدم ... وعن أمّ لنا وأب
نواسي نازح الدار ... ونرعى حرمة الجار
وننأى عن ذوي العار ... وعن غدر وعن كذب
فأنصار الهدى نحن ... ولم تكبر لنا سنّ
سيعلينا غدا شأن ... بفضل الجد والدأب
نروّض النفس في الصغر ... على الأزمات والغير
ونطوي ساعة الخطر ... بساط اللّهو واللّعب
لنا نفس على الزمن ... ونبذلها بلا ثمن
لوجه الله والوطن ... ووجه العلم والأدب
لنا دين نؤدّيه ... لنا ماض نفدّيه
سلوا عن مجدنا فيه ... من الآثار والكتب
لنا في البر ادلاج ... لنا في البحر منهاج
لنا في الجو معراج ... وفوق السبعة الشهب
فهيّا فانشروا الرمما ... وهيّا فاسبقوا الأمما
وهيّا فابذلوا الهمما ... لنبلغ غاية الأرب

شهر الصيام أتى يا أمة العرب ... وأنتم في سبيل اللهو واللعب (2)

رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... الى عالم يغري وعلم يقرر (3)

من للفراش مجير ... يمديه حين يحير
وهل له رب بيت ... الى حماه يصير (4)

---

(1) المصدر السابق — وهو بخط يد الشاعر، وغير مؤرخ أيضا .
(2) أفادني بعض معارف الشاعر بمدينة بسكرة أن هذا البيت هو مطلع عمل كان الشاعر نظمه في مطلع حياته .
(3) جاء في الشهاب ج 3 م7 — ذو القعدة 1349هـ / مارس 1931م، ص : 193 (أن أحد تلامذة مدرسة الشبيبة الاسلامية بالعاصمة ألقى في احدى احتفالاتها قصيدة للشاعر بعنوان (ترقية الأمة) لم تثبت منها الا هذا البيت .
(4) عثرت على هذين البيتين عند السيد أحمد بوعدو . وقد أفادني أنهما مطلع مسرحية بعنوان (نداء الصحراء الى المروج الخضراء) وهي فرنسية الوضع قام بترجمتها الى العربية الشيخ باعزيز بن عمر نثرا ، ثم نقلها الشيخ محمد العيد الى العربية شعرا .

المصادر والمراجع (1)

أولا : الدوريات

أ ـ القديمة

- أعداد من جريدة النجاح ، في شكل أشرطة مصورة (ميكروفيلم) المكتبة الوطنية الجزائر
- " " صدى الصحراء " " " " " " .
- مجموعة الشهاب بنوعيها الجريدة والمجلة (تكاد تكون كاملة) من مكتبة الشيخ محمد الصالح رمضان .
- أعداد من الاصلاح
- " " المرصاد
- " " السور
- " " السنة
- " " الشريعة
- " " الأمة لأبي اليقظان .
- مجموعة البصائر بسلسلتيها الأولى والثانية (غير كاملة) من المكتبة الوطنية الجزائر .
- " " السلسلة الأولى المجلد الأول ـ ط 1، دار البعث قسنطينة 1404هـ 1984 م .
- مجموعة المنار ـ ط 1 ـ الشركة الوطنية الجزائر 1982 .
- مجلة هنا الجزائر ـ المكتبة الوطنية ـ الجزائر .

ب ـ الحديثة

- جريدة الشعب
- " الشعب الأسبوعي
- " النصر
- مجلة المجاهد الأسبوعي
- " الثقافي
- " المعرفة
- " الأصالة
- " الثقافة
- " الأثير .

ثانيا : المقالات والمقابلات والمراسلات

- الشيخ أحمد حماني : " دور الأفغاني في يقظة الشرق ونهضة المسلمين " . الثقافة العدد 38 ربيع الثاني جمادى الأولى 1397 هـ / أفريل ماي 1977 .
- جمعية العلماء : " القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين والمبادئ الاصلاحية " ط 2 ـ (دار الكتب الجزائرية) الجزائر 1982 .

---

(1) لم أذكر في هذا الثبت من المصادر والمراجع الا ماكان منها معتمدا بحاشية الرسالة . ولم أراع في الترتيب الأبجدي لأسماء المؤلفين (أبو ، ابن) .

— الجيلالي الجيلالي " حركة التبشير والسياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي في القرن 19 " الأصالة العدد : 16 سبتمبر — أكتوبر 1973 .

- Hocien Maâref : " Entretien avec Le Poête Cheikh Mohamed Laid" Alger Republicain (Rubrique Culturelle 27Fevrier 1965.

— د . حنفي بن عيسى : " تأثير جمال الدين الأفغاني على الفكر الجزائري المعاصر " الثقافة العدد : 38 — ربيع الثاني — جمادى الأولى 1397 هـ — افريل ماي 1977 م .

— " " "السلوك اللغوي في ظل التعسف" الثقافة . 4 رجب 1391 هـ /سبتمبر 1971

— سعد الدين بن شنب : النهضة الثقافية في الجزائر مجلة كلية الآداب جامعة الجزائر العدد : 1، 1964

— د . شكري فيصل : 1 — " شاعر الجزائر محمد العيد "

2 — الموضوع في شعر محمد العيد .

المجاهد الثقافي العددان : (11 — 12) افريل — ماي 1970

— شلتاغ عبود شراد : " أثر القرآن في شعر محمد العيد "

الأصالة العدد : (60 — 61) رمضان — شوال 1398 هـ / أوت — سبتمبر 1978 م .

— الشيخ عبد الرحمن شيبان : — " المعهد ومستقبل الأدب الجزائري " ، البصائر العدد : 90 — 12 ذو القعدة 1363 هـ / 5 سبتمبر 1949م .

— صور زهيسة " وقفة مع الشاعر محمد العيد آل خليفة " الشعب فاتح فيفري 1971 .

— عبد العالي رزاقي : " أمير الشعراء محمد العيد آل خليفة " . الشعب الأسبوعي 1967 العدد : 54 — 28 أكتوبر 1976 .

— علي أقران : " حول ديوان محمد العيد " المجاهد الاسبوعي العدد : 399، 24/12/67

— د . عمر بن قينة : محمد العيد آل خليفة ، الاثير العدد : 7 — 1 أكتوبر 1972 .

— د . فيلهالم هونرباخ : " محمد العيد صوت الجزائر " . المجاهد الثقافي العدد : 12 ماي 1970 .

— د . أبو القاسم سعد الله : " مدارس الثقافة العربية في الجزائر " . الثقافة العدد : 79 — يناير فبراير 1984 .

— محمد الباقر ابن سمينة " الأمة والشخصية " الشعب 13 ربيع الأول 1400 هـ 31 جانفي 1980 .

— الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : " وثيقة اجازة علمية " في أربع صفحات ، منحها للشاعر محمد العيد بتاريخ 1372 هـ .

— محمد العيد آل خليفة : " خطبة في حفل مدرسة الشبيبة الاسلامية الجزائرية " الأمة لأبي اليقظان العدد : 101 السنة 2 — 23 رمضان 1355هـ 8 ديسمبر 1936م .

— رسالة الى المستشرق الاسباني الأستاذ فرديناند — 1965 — مخطوطة (في مكتبته الخاصة)

— مقابلة مع صاحب الرسالة . ديسمبر 1976 .

— محمد قنانش : " مع الشاعر محمد العيد آل خليفة " المجاهد الاسبوعي 26 فيفري 1966 .

— د . محمد ناصر : " أبو اليقظان والقضايا الاسلامية والعربية " . الثقافة العدد : 22 رجب — شعبان 1394 هـ / اوت — سبتمبر 1974 م .

ــ مصطفى الأشرف :
المعرفة السورية فيفرى 1964 .

ــ الشيخ المهدى البوعبدلي " عبد الكريم الفقون وكتابه منشور الهداية "
الأصالة العدد : 51 ، ذو القعدة 1397 هـ / نوفمبر 1977م .
" عبد الرحمن الاخضرى وأطوار السلفية في الجزائر "
الأصالة العدد : 53 ــ صفر 1398هـ / فيفرى 1978م .

ــ د . نسيب نشاوى : " مجمعي افتقدناه الشاعر محمد العيد آل خليفة "
مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج 4 م 58 ذى الحجة 1403هـ
أكتوبر 1983 م .

ثالثا : الكتب

أ ــ بالعربية

ــ د . ابراهيم الكيلاني "أدباء من الجزائر" سلسلة "اقرأ" دار المعارف القاهرة ديسمبر 1958 .
ــ أحمد أمين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ــ ط 3 ــ مكتبة النهضة
القاهرة ــ 1971 .
ــ ظهر الاسلام ــ ط 5 ــ دار الكتاب العربي لبنان 1388هـ / 1969م .
ــ النقد الأدبي ــ ط3 ــ مكتبة النهضة القاهرة 1963 .

ــ أحمد توفيق المدني : ــ كتاب الجزائر ــ ط 2 ــ دار المعارف القاهرة 2382 هـ
1963م .
ــ هذه هي الجزائر ــ ط 1 ــ مكتبة النهضة القاهرة 1956م .

ــ ابن الأثير (عزالدين أبو الحسن على بن أبي الكرم) : الكامل في التاريخ ــ ط 3 ــ
دار الكتاب العربي بيروت : 1400 هـ / 1930م .

ــ أحمد حسن الباقورى : أثر القرآن في اللغة العربية ــ دار المعارف ــ القاهرة
1969 م .
ــ أحمد سحنون : الديوان ــ ط 1 ــ الشركة الوطنية الجزائر 1977 .

ــ أحمد شرفي : الشعر الوطني الجزائر من 1925 ــ 1954 . رسالة دكتوراه
الحلقة الثالثة ــ مخطوطة ــ معهد اللغة والأدب العربي ــ جامعة
الجزائر .

ــ أحمد شوقي : الشوقيات ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت .
الشوقيات المجهولة ط 2 صنعة د . محمد صبرى ــ دار المسيرة ــ
بيروت 1399 هـ / 1979 م .

ــ أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي ــ ط 7 ــ مكتبة النهضة القاهرة 1964 .

ـ الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد) : الأغاني ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ـ 16 جزءا بدون تاريخ .

ـ الأعشى الأكبر (ميمون قيس) : الديوان ، تحقيق د . محمد محمد حسين ـ المكتب الشرقي بيروت بدون تاريخ .

ـ أنور الجندي : الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا ط 1 ـ الدار القومية القاهرة 1385 هـ / 1965 م .

ـ أبو بكر بن رحمون : الديوان ـ ط 1 ـ (الشركة الوطنية الجزائرية) الجزائر ـ 1980 .

ـ البوصيري (محمد بن سعيد شرف الدين) : الديوان ـ ط 1 ـ تحقيق محمد سيد كيلاني . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . 1374هـ / 1955م

ـ د . ثريا عبد الفتاح ملحس : القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه ـ دار الكتاب اللبناني ـ بدون تاريخ ،

ـ الجرجاني (علي بن عبد العزيز) : الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ ط 4 ـ تحقيق محمد أبي الفضل وعلي محمد البجاوي ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ 1386 هـ / 1966م .

ـ جمعية العلماء : سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1935 ـ ط 2 ـ (دار الكتب الجزائرية) الجزائر 1932 .

ـ جمال الدين الآلوسي : الجزائر بلد المليون شهيد ـ مطبعة الجمهورية بغداد 1390 هـ / 1970م .

ـ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده : العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى ـ ط 2 ـ دار الكتاب العربي بيروت 1400 هـ / 1980م .

ـ د . جميل صليبا : اتجاهات النقد الحديث في سورية . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة 1966 .

ـ ابن حجر العسقلاني : (الاصابة في تمييز الصحابة ـ دار الكتاب العربي بيروت بدون تاريخ) .

ـ حسان بن ثابت الانصاري : الديوان ـ تحقيق عبد الرحمن البرقوقي ـ دار الأندلس ـ بيروت 1386 هـ / 1966م .

ـ حافظ ابراهيم : الديوان ـ ط 7 ـ تحقيق أحمد أمين ـ أحمد الزين ـ ابراهيم الأبياري ـ المطبعة الأميرية القاهرة 1955 .

- حامد حفني داود : تاريخ الأدب العربي الحديث، تطوره ، معالمه الكبرى -
ط 1 - دار الطباعة المحمدية .القاهرة 1387هـ / 1967م .

- حمدان بن عثمان خوجة : المرآة - ترجمة د . محمد بن عبدالكريم - مكتبة الحياة
بيروت 1972 .

- خالد الأزهري : شرح البردة - تحقيق محمد علي حسن - ابراهيم الوائلي -
مطبعة الارشاد بغداد 1966 .

- ابن خلدون (أبو زيد عبدالرحمن بن محمد) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . . .
ط 2 - دار الكتاب اللبناني بيروت 1979 .

- خيرالدين الزركلي : الأعلام - ط 2 - مطبعة كوستاسوماس وشركاه لبنان 1954 .

- دار الشعب ومؤسسة فرانكلين : الموسوعة العربية الميسرة - ط 1 - القاهرة 1965 .

- ابن رشيق (أبو علي الحسن بن علي) : العمدة في صناعة الشعر ونقده - ط 3 -
تحقيق محي الدين عبدالحميد - مطبعة السعادة القاهرة . 1383هـ
1963م .

- د . زكي مبارك : - المدائح النبوية في الأدب العربي . دار الشعب القاهرة
1391 هـ / 1971م .
- الموازنة بين الشعراء - ط 2 - مطبعة مصطفى البابي الحلبي
وأولاده بمصر 1355 هـ / 1936م .

- د .سعاد محمد خضر :الادب الجزائري المعاصر :ط1-المكتبة العصرية صيدا لبنان- 1967 .

- ابن سلام (محمد بن سلام الجمحي) : طبقات الشعراء - ط 1 - مصورة - تحقيق
جوزيف هل دار الكتب العلمية 1402 هـ / 1982م .

- د . سامي الدروبي : علم النفس والأدب - ط 3 - دار المعارف القاهرة 1981م .

- الشافعي (أبو عبدالله محمد بن ادريس) : الديوان ، تحقيق زهدي يكن . دار
الثقافة بيروت 1962 .

- د . شكري فيصل : - المجتمعات الاسلامية في القرن الأول - ط1 - دار العلم
للملايين . بيروت بدون تاريخ .
- تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام - ط 3 - دار الحياة
دمشق 1384 هـ / 1965م .

- شلتاغ عبود شراد : أثر القرآن في الشعر العربي الحديث . رسالة دكتوراه الحلقة
الثالثة .مخطوطة - 1983 - معهد اللغة والأدب العربي
جامعة الجزائر .

- الشوكاني (محمد بن علي بن محمد) نيل الأوطار .مطبعة مصطفى البابي الحلبي
وأولاده بمصر 1347 هـ .

ـ د . شوقي ضيف : ـ تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الأول ـ دار المعارف القاهرة بدون تاريخ .
ـ دراسات في الشعر العربي المعاصر : دار المعارف القاهرة .
ـ الأدب العربي المعاصر في مصر ـ ط 2 ـ " " .
ـ النقد ـ سلسلة فنون الأدب العربي ـ ط 3 ـ دار المعارف القاهرة 1964 .
ـ في النقد الأدبي ـ ط 2 ـ دار المعارف القاهرة 1966 .

ـ صالح خرفي : ـ شعراء من الجزائر ـ ط 1 ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة 1969 .
ـ شعراء المقاومة الجزائرية ـ ط 1 ـ (الشركة الوطنية) الجزائر بدون تاريخ .
ـ الشعر الجزائري " " " "
ـ المدخل الى الأدب الجزائري الحديث ـ ط 1 ـ الشركة الوطنية الجزائر 1983 .

ـ صلاح مؤيد : الثورة في الأدب الجزائري ـ ط 1 ـ مكتبة النهضة القاهرة 1966 .

ـ الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك ـ ط 4 ـ دار المعارف القاهرة 1979 .

ـ د . طه حسين : حافظ وشوقي . مكتبة الخانجي القاهرة ـ ومكتبة المثنى بغداد 1966 .

ـ ابن عبد البر : " الاستيعاب في أسماء الأصحاب " على حاشية الاصابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ دار الكتاب العربي بيروت بدون تاريخ .

ـ د . عبدالحليم عويس : العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري ـ مكتبة الفلاح ـ القاهرة 1400 هـ .

ـ الامام عبدالحميد بن باديس : حياته وآثاره ـ اعداد د . عمار الطالبي ـ ط 1 ـ دار اليقظة العربية دمشق . 1388 هـ / 1968م .

ـ عبدالرحمن العقون : (من وراء القضبان) ـ ط 2 ـ (الشركة الوطنية) الجزائر بدون تاريخ .

ـ د . عبدالكريم الأشتر : نصوص مختارة من الأدب العربي الحديث ـ ط 1 ـ المطبعة الحديثة دمشق 1966 .

ـ د . عبدالله ركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث ـ ط 1 ـ (الشركة الوطنية) الجزائر 1401 هـ / 1981م .
ـ القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر ، ط 1 ـ دار الكتاب العربي القاهرة 1969 .

— ابن كثير (أبي الفداء ، اسماعيل) : التفسير ط.7 — دار الأندلس بيروت 1983 .

— السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبدالواحد — دار المعرفة 1403هـ / 1983م .

— محمد البشير الابراهيمي : عيون البصائر — ط 2 — (الشركة الوطنية) الجزائر .

— محمد بن تاويت — محمد الصادق عفيفي : الأدب المغربي — ط 1 — دار الكتاب اللبناني بيروت 1960 .

— محمد حسين هيكل : ثورة الأدب — ط 3 — مكتبة النهضة القاهرة 1965 .

— محمد الحافظ التجاني : الانتصاف — ط 2 — المطبعة العالمية القاهرة 1396هـ 1976م .

— محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده — ط 1 — مطبعة المنار القاهرة 1350 هـ / 1931 م .

— د . محمد الصادق عفيفي : الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث — ط 1 — دار الكشاف بيروت — القاهرة — بغداد 1969 .

— د . محمد الصالح الجابري : الأدب الجزائري في تونس . رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة — مخطوطة . معهد اللغة والأدب العربي جامعة الجزائر 1982 .

— محمد طه الحاجري " جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر — ط 1 — معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة 1968م .

— الأمير محمد بن عبدالقادر الجزائري : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر — ط 2 — تحقيق . د . ممدوح حقي — دار اليقظة العربية دمشق 1384 هـ / 1964م .

— محمد علي دبوز : — نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة — ط 1 — المطبعة التعاونية دمشق 1965 .
— اعلام الاصلاح في الجزائر — ط 1 — مطبعة البعث قسنطينة 1394 هـ / 1974م .

— محمد العيد آل خليفة : (1) الديوان .
أ — النسخة المخطوطة : ديوان نابغة القرن العشرين جزآن . صنعة الشيخ أحمد بوعدو 1952 .
(مكتبة الدكتور سعد الله) .
ب — النسخة المطبوعة ط 1 (الشركة الوطنية) الجزائر 1967 .

ـ عباس محمود العقاد : محمد عبده ـ ط 3 ـ سلسلة أعلام العرب . دار الكتاب العربي القاهرة 1969 .

ـ الشيخ العربي التبسي : " مقالات في الدعوة الى النهضة الاسلامية في الجزائر " ـ ط 1 ـ اعداد أحمد شرفي دار البعث قسنطينة الجزائر ، 1402 هـ / 1981م .

ـ د . عزالدين اسماعيل : الأدب وفنونه ـ ط 1 ـ دار النشر القاهرة 1955 .

ـ الشيخ عاشور الخلقي : (ديوان منار الاشراف على فضل عصاة الاشراف ...) ـ ط 1 ـ المطبعة الثعالبية الجزائر ـ 1332 هـ / 1914م .

ـ د . عمر الدسوقي : في الأدب الحديث ـ ط 7 ـ دار الكتاب العربي بيروت 1966 .

ـ د . عمر الدقاق : الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ـ ط 2 ـ دار الشرق حلب سوريا 1963 .

ـ د . عمر موسى باشا : أدب الدول المتتابعة ـ ط 1 ـ دار الفكر الحديث ـ دمشق 1386 هـ / 1967م .

ـ د . أبو العيد دودو : كتب وشخصيات ـ ط 1 ـ (الشركة الوطنية) الجزائر 1971 .

ـ فرحات عباس : ليل الاستعمار ـ ط 1 ـ ترجمة أبو بكر رحال ، مطبعة فضالة المحمدية المغرب بدون تاريخ .

ـ الفيروزآبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب) القاموس المحيط ـ ط 2 ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ـ 1371 هـ / 1952م .

ـ فئة من الأساتذة الجامعيين : دراسات في المجتمع العربي ـ ط 1 ـ مطبعة جامعة دمشق 1386 هـ / 1967م .

ـ ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم) : الشعر والشعراء ـ ط 2 ـ تحقيق أحمد محمد شاكر دار المعارف القاهرة 1966 .

ـ أبو القاسم سعدالله : ـ محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى الحديث ـ ط2 ـ دار المعارف ، القاهرة 1975 .
ـ الحركة الوطنية الجزائرية ج 2 ط1 دار الآداب بيروت 1969 .
ـ الحركة الوطنية الجزائرية ج 3 ط1 معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة 1975 .
ـ منطلقات فكرية ـ ط1 ـ الدار العربية للكتاب ليبيا ، تونس 1976 .
ـ تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ـ ط 1 (الشركة الوطنية) الجزائر 1401 هـ / 1981 .
ـ تاريخ الجزائر الثقافي ج 2 ـ ط 1 (الشركة الوطنية الجزائر 1969

ـ ابن العنابي : رائد التجديد الاسلامي ـ ط1 ـ الشركة الوطنية الجزائر 1977 .

ـ أبو القاسم محمد الحفناوى : تعريف الخلف برجال السلف ـ ط 1 ـ مصورة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1402 هـ / 1982م .

(2) مسرحية بلال بن رباح — ط 1 — المطبعة العربية الجزائر 1938 .
(3) مداولته : من وحي الثورة والاستقلال ، مجلة المعرفة . الاعداد : (6 — 7 — 8 — 9 — 10 — (11 ، 12)) (الفترة الممتدة ما بين رجب 1383 هـ / نوفمبر 1963م — الى — محرم صفر 1384 هـ / ماى جوان 1964م) .
(4) مجموعة من شعره المجهول (جمع صاحب الرسالة من مصادر مختلفة) .

— محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين — ط 3 — دار المعرفة بيروت 1971 .

— محمد مبارك الميلي : رسالة الشرك ومظاهره — ط 2 — مكتبة النهضة الجزائر 1966 .

— د . محمد مصايف : فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث (الشركة الوطنية) الجزائر 1981 .

— د . محمد مندور — فن الشعر ، سلسلة الدراسات الأدبية بدون تاريخ .
— في الميزان الجديد — ط 3 — مطبعة النهضة المصرية بدون تاريخ .

— د . محمد ناصر : — الصحف العربية الجزائرية — ط1 — الشركة الوطنية الجزائر 1980 .
— الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية ، رسالة دكتوراه الدولة ، مخطوطة 1982 . معهد اللغة والأدب العربي جامعة الجزائر .
— عمر راسم المصلح الثائر — ط 1 — الشركة الوطنية الجزائر 1984 .

— محمد الهادى السنوسي : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، جزآن — ط 1 — مطبعة النهضة العربية تونس 1926 — 1927 .

— مخائيل نعيمة : الغربال — ط 7 — دار صادر بيروت 1964 .

— مسعود مجاهد الجزائرى : تاريخ الجزائر — ط 1 — القدس 1962 .

— مصطفى صادق الرافعي : تحت راية القرآن — ط 4 — مطبعة الاستقامة القاهرة 1376 هـ / 1956 م .

— مطران خليل مطران : ديوان الخليل — ط 2 — دار المعارف القاهرة 1949 .

— مفدى زكرياء : اللهب المقدس — ط 1 — المكتب التجارى بيروت 1961 .

— مالك بن نبي : — شروط النهضة — ط 3 — ترجمة عمر كامل مسقاوى — عبدالصبور شاهين . دار الفكر بيروت 1969 .
— مذكرات شاهد القرن — ط 1 — (الطفل) ترجمة مروان القنواتي . دار الفكر بيروت 1969 .
— مذكرات شاهد القرن — ط 1 — (الطالب) ترجمة المؤلف . دار الفكر بيروت 1970 .

— ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) : لسان العرب . دار صادر بيروت بدون تاريخ .

ـ د . ماهر حسن فهمي : شوقي شعره الاسلامي ـ ط 2 ـ دار المعارف القاهرة .

ـ د . موهوب مصطفاي : المثالية في الشعر العربي ـ ط1 ـ ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982 .

ـ نازك الملائكة : قضايا الشعر المعاصر ـ ط 3 ـ مكتبة النهضة ـ 1967 .

ـ النسفي (عبدالله بن أحمد بن محمود) التفسير ـ دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة بدون تاريخ .

ـ ابن هشام (أبو محمد عبدالملك) السيرة النبوية ـ دار احياء التراث العربي بيروت بدون تاريخ .

ـ د . يحيي هويدى : تارخ فلسفة الاسلام في القارة الافريقية ـ مكتبة النهضة المصرية 1966 .

ـ ياقوت (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموى) : معجم الأدباء ـ سلسلة الموسوعات العربية الطبعة الأخيرة مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة بدون تاريخ .

ـ ب : **بالأجنبية :**

ـ شارل أندرى جوليان : افريقيا الشمالية تسير ـ ترجمة المنجي سليم الحبيب الشطي وأخرون ، ط1 ـ الدار التونسية للنشر ، الشركة الوطنية الجزائر 1976 .

ـ شارل هنرى تشرشل : حياة الأمير عبدالقادر . ترجمة د . أبو القاسم سعدالله ـ ط 2 ـ (الشركة الوطنية) الجزائر 1982 .

- Ali Merad : - Le Réformisme Musulman en Algerie de 1925 à 1940 . Paris Manton, 1967.

فهرس الموضوعات